



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية التربية
قسم التربية الإسلامية والمقارنة

المضامين التربوية المستنبطة من أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري

نخت مكمّل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة

إعداد الطالب

مجادل بن سعيد بن أحمد الزهراني
الرقم الجامعي (٤٢٦٨٠٢٢١)

إشراف الدكتور

علي بن مطح المطرفي

الفصل الدراسي الثاني

١٤٣١ - ١٤٣٢ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



قال تعالى :

﴿واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أعداءً فألفَ بينَ قلوبكم فأصبحتم بنعمتهِ إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النارِ فانقذكم منها كذلك يبينُ اللهُ لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ [سورة آل عمران، آية: ١٠٣]

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس في حجة الوداع فقال: «يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله و سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، إن كل مسلم أخ المسلم، المسلمون إخوة، ولا يحلٌ لامرئٍ من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، ولا تظلموا، ولا ترجعوا من بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»

[أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب العلم، حديثه رقم (٣١٨)]

ملخص الرسالة

الدرجة العلمية : الماجستير .

عنوان الدراسة: المضامين التربوية المستنبطة من أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري.

اسم الباحث: عادل بن سعيد بن أحمد الزهراني.

أهداف الدراسة:

- معرفة ما تضمنته الأحاديث النبوية الواردة في الاعتصام بالكتاب والسنة من توجيهات تربوية.
- استنباط المضامين التربوية المتعلقة بالفرد من أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري.
- استنباط المضامين التربوية المتعلقة بالجمتمع من أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري.
- بيان التطبيقات التربوية لتلك المضامين على فكر وسلوك المسلم في واقعه ومجتمع.

منهج الدراسة: استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي لجمع وتحليل أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، والمنهج الاستنباطي الاستنتاجي لاستخراج مضامين ومعاني الحكم التربوية من الأحاديث النبوية.

فصول الدراسة:

الفصل التمهيدي: الإطار العام للدراسة. **الفصل الأول:** ترجمة الإمام البخاري وكتابه الجامع الصحيح. **الفصل الثاني:** مفهوم الاعتصام، وأسباب الاختلاف والتفرقة، والوسائل المعنية على الوحدة والاجتماع. **الفصل الثالث:** المضامين التربوية المستنبطة من أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة المتعلقة بالفرد. **الفصل الرابع:** المضامين التربوية المستنبطة من أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة المتعلقة بالجمتمع. **الفصل الخامس:** خاتمة البحث.

أهم النتائج:

١. السنة النبوية لمكانتها التشريعية حيث هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، ولمكانتها العلمية حيث هي الشارحة والمبينة لكتاب الله تعالى، فإنها بذلك تُعتبر مصدر وقاعدة البيانات لشئ العلوم والمعارف، ومن ذلك علم التربية والتربية التي هي ريع الرسالة المحمدية.
٢. قاعدة تصحيح التصورات العقلية والشرعية هي ضبط العقل بمحدود الشرع، وتفعيل الشرع بقدرات العقل، وكل من فصل العقل عن الشرع فإنه يسير إلى طرفي نقيض إما غلو مُفْرِط أو تقصير مُفْرِط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.
٣. العلم الذي يفرضه احتياج الواقع سواءً كان من علوم الشرع، أو علوم الطبيعة، يصبح علماً ضرورياً يجب على الأمة الاهتمام به، والعناية بدراسته وتطويره، ليحدث الترابط بين العلم والواقع، ويُفعل العلم عملياً على أرض الواقع، فتظهر الآثار، وتحصل البركات، ويعم التقدم والتطور، وحين ينفصل العلم عن الواقع بمشكلاته ومتطلباته، فإنه ينعدم تفعيل العلم بفهم ووعي، وابتكارٍ واجتهاد؛ لأنه فقد مصدر القوة والإثراء والإبداع، ويسود جو الحمود والتقليد والبلادة العلمية.
٤. استقلال الفكر وحرية الرأي هما المحرك للإنسان نحو الحقيقة، والدافع له نحو التضحية والثبات، حيث تجعل الفرد يمر بتجربة ذاتية، تكسبه الإيجابيات قوةً والسلبات حيرةً، وتمنحه التجارب مناعةً، والأحداث عزيمةً، وتصهر المواقف والأفكار معدنه فيما أن ينجلي عن ذهب خالص، أو تبر زائف.
٥. استقلال الأمة لا يكون إلا بثورة علمية وانقلاب فكري يقود إلى النهضة والتقدم والريادة في كافة المجالات، أما الاستقلال عن طريق الثورات المدنية أو الانقلابات العسكرية فلم تزد الأمة إلا ضياعاً وشتاتاً، وتحقيقاً لمصالح فئات على دماء ومعاناة الشعوب، والتي غطت أطماعها بالعواطف الجياشة، والشعارات المزيفة، وقادتها بالاستعباد الفكري، والاستبداد السياسي، والقهر الاجتماعي، والفساد المالي، فكانت النتيجة جهلاً وضعفاً، قادت إلى التبعية والانقياد.

أهم التوصيات والمقترحات:

١. وجوب تفعيل طاقة العقل في مناهج التعليم الشرعية لتجنب الحرفية المشددة، وضبط طاقة العقل بمحدود الشرع لتجنب الفكر المتحرر المتأرجح.
٢. أن يُعاد جمع تفسير القرآن الكريم وشروح السنة المطهرة بطريقة تجمع بين التأصيل العلمي والروح الإيمانية، والمعنى البلاغي والفهم التربوي، والإعجاز البياني واللغة البسيطة، والتصوير الإلهي والتطبيق الواقعي، لكي تستفيد الأمة من وحيها، وتفيق من غفلتها، وتعود لمصدر عزتها وقوتها، واعتصاماً وفكراً وتطبيقاً.
٣. أن يُعاد كتابة تاريخ الأمة الإسلامية بأيدي وعقول علماءها ومؤرخيها، بحيث يكون التعامل مع التاريخ بفهم عميق لتعقيدات التسلسل التاريخي، وبروح التسامح والإعذار، وعقلية الناقد البصير، واستفادة المجرّب الحكيم من المراجعات والتصحيحات على مستوى الأديان والأفكار والمذاهب والأشخاص، وأن يكون التركيز على جوانب التاريخ الإنسانية والأخلاقية، والعبر والتجارب الحياتية، لتستثمر وتُفعل في لمّ الشمل وتحقيق الوحدة والألفة، وذلك بإيجاد اتحادٍ يجمعها بعيداً عن النزاعات والخلافات التاريخية والسياسية والمذهبية.

Study Abstract

Degree: Master's

Title of the study: the educational implications derived from the talks of book **(Alaatsam with holy book & Sunha)** from Sahih Bukhari .

Researcher Name: Adel bin Ahmed bin Saaid Al-Zahrani .

Objectives of the study:

- Knowledge of the Hadith contained in the **(Alaatsam with holy book & Sunha)** of educational guidance .
- Development of the educational implications of the individual authors of the conversations and **(Alaatsam with holy book & Sunha)** of Sahih Bukhari .
- Development of the educational implications for society of the conversations **(Alaatsam with holy book & Sunha)** of Sahih Bukhari.
- Statement of educational applications of such content on the thought and behavior of Muslim reality and society

Methodology of the study :

the researcher used in this study, the analytical description approach to collect and analyze conversations **(Alaatsam with holy book & Sunha)** of deductive reasoning and methodology to extract the contents and meanings of the educational provision of the hadith .

Classes:

Introductory Chapter:

The general framework of the study: Chapter I: Translation of Imam Bukhari and the correct writing of the Whole, Chapter II: The concept of sit-in **(Alaatsam book)** , and the reasons for the difference and to disperse, and means on the unit and assembly, Chapter III: The educational implications derived from the talk of a book **(Alaatsam with holy book & Sunha)** of the individual , Chapter IV: educational implications derived from the talk **(Alaatsam with holy book & Sunha)** of the community , Chapter V: Conclusion Search.

Key Results:

- 1 - Sunah of the Prophet to its legislature, where is the second source of the sources of Islamic legislation, and its scientific where they are explaining and set out to the book of God Almighty, form many different so is the source and the database of the various sciences and knowledge, including on education and sponsorship, which was roughly a quarter of the Mohammedan message .
- 2 - Base correct perceptions of mental and legitimacy is to set the limits of the mind- religious, and activate religious the powers of reason, and every reason for the separation of Islam, it goes to the opposite sides surely excessive or shortening, and both ends of the Moors in order to obnoxious .
- 3 - The science that imposed requirement of reality, whether of Islamic sciences, or natural sciences, it is note necessary should the nation's attention, and care to study it and develop it, to happen interdependence between science and reality, and to do science scientifically on the ground, demonstrating the effects, and receive blessings, There is widespread progress and development, and when science separated from the reality about their difficulties and requirements, it eliminates the activation of understanding and awareness of science. Innovation and new ideas, because he lost his source of strength and enrichment, creativity, and there is an atmosphere of tradition and inertia and apathy scientific .
- 4 - independence of thought and freedom of opinion are the engine of the man's sacrifice, fortitude, where to make the individual going through the experience of self, gain positive power and negative experience, and provide him with experiences immunity, and events resolve, and dissolved attitudes and ideas mettle either settles for a pure gold or taper false .
- 5 - The independence of the nation is not only a revolution of scientific and coup intellectual lead to the Renaissance and the progress and leadership in all areas either independence through revolutions, civil or military coups, has not increased the nation's only a loss and use individual, and to the interests of the categories on the blood and suffering of the people, which covered the ambitions emotions The fake logos Leaders and intellectual slavery, tyranny and political oppression, and social oppression, and financial corruption, the result of ignorance and weakness, led to the subordination and obedience .

The most important recommendations and proposals:

- 1 - must activate the power of reason in the curricula of legal education to avoid the hard-line craft and adjust the power of reason to avoid the limits of Islam thought liberal flip-flops .
- 2 - The re-collection and interpretation of the **Holy Kora'n** and the annotations to the Sunhat way combining rooting science and the spirit of faith and meaning in rhetoric and understanding of education, and the miracle of graphic and simple language, imaging the divine and the application realistic, in order to benefit the nation and her neighborhood and wake up from its lethargy, and return to the source of pride and strength, a sit-The theory and application of .
- 3 - re-write the history of the Islamic nation in the hands and minds of scientists and historians, so that it is dealing with the history of a deep understanding of the complexities of the chronology, and in a spirit of tolerance and excuses, the mentality of critical insight and the use of experimenter-Hakim of the references and corrections to the level of religious ideas and doctrines and persons, and the focus is on Aspects of the history of humanitarian and moral lessons and life experiences. to invest in and do the reunion and to achieve unity and harmony, and by creating an union collected away from the conflicts and disputes the historical, political and religious.

إهداء

إلى (أمي وأبي)

من أوصاني ربي بالإحسان إليهما، وأكرمني ببرهما، وأفضل عليّ ببركتهما، إلى من رباني صغيراً، وتعلمت منهما معاني الصدق والوفاء والحبّة، إلى من شجّعاني على طلب العلم، ومواصلة الدراسة، وإتمام هذا العمل، إلى والديّ الغاليين، أسأل الله أن يجعل هذا الجهد في موازين أعمالهما، وأن يجزيهما ربي خير الجزاء، وأن يديم عليهما نعمه وعافيته، وأن يرحمهما كما رباني صغيراً.

إلى (جدتي الغالية)

التي تعلمت منها الحكمة، وغمرتني بحبها ودعائها وثنائها، فجزاها الله عني خير الجزاء، وأكرمها ربي بالعفو والعافية والسلامة وحسن الختام.

إلى (عمي الحبيب): المقدم عبد الله بن أحمد الزهراني

الذي أكرمني بعطاياه، وأفاض عليّ من كريم أخلاقه وسجاياه، والذي تعلمت منه صفاء القلب، وطهر النفس، وحب الخير، وبذل المعروف، ومعنى القرابة، أسأل الله أن يرضيه ويرضى عنه في الدنيا والآخرة.

إلى (عمتي الحبيبة) أم فيصل

التي تحمل قلب الأم الصادق، ولسان المؤمن التقى، أسأل الله أن يصلح لها النية والذرية، وأن يوفقها دنيا وأخرى.

إلى زوجتي المنصّة (أم عبد الله)

حياة قلبي، ونور حياتي، والتي أعانت وشجّعت وتحمّلت، شكر الله عملها، وأجزل لها المثوبة والأجر، وجعلها قرّة عين في الدنيا والآخرة.

إلى إخواني وأخواتي الكرام

الذين شاركوني مسيرة بحثي، وأعانوني بمجهدهم ودعائهم وسؤالهم، فجزاهم الله خيراً، وبارك في أعمالهم وأعمالهم، وأزواجهم وذرياتهم، وفتح عليهم أبواب الخيرات والبركات.

إلى أبنائي (عبد الله وعبد الرحمن ولماز)

الذين انشغلت عنهم بالدراسة والعمل، وصبروا على الجفوة والتقصير، فاللهم احفظهم بحفظك، وأصلحهم وبارك فيهم، واجعلهم قرّة عين.

إلى زملائي وأصدقائي، وجماعة مسجدي (جامع الفردوس)

الذين سألوا وأعانوا وبذلوا، فجزاهم الله خيراً، وأكرمهم بفضله، وأسعدهم بتقواه.

إلى سائر المرين والمطبعين ودعاة الفضيلة والخير

أهدي إليكم جميعاً هذا الجهد المتواضع، وأسأل الله أن يجعله عملاً صالحاً متقبلاً،،،

الباحث

شكر وتقدير

الحمد لله القائل ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (سورة إبراهيم، آية: ٧)، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين القائل «لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»^١، وبعد:

تبارك من شكر الوري منه يَقْصُرُ لكون أيادي جوده ليس تُقْصِرُ
وشاكرها يحتاج شُكْرًا لشُكْرها كذلك شكر الشكر يحتاج يُشْكِرُ
ففي كل شكر نعمة بعد نعمة بغير تناء دونها الشكر يصْغُرُ
فمن رام يقضي حق واجب شُكْرها تحمّل ضمن الشكر ما هو أكبرُ

فبعد شكر الله تعالى، اعترافاً بالفضل لأهل الفضل، ووفاءً بالعهد لأهل الإحسان، أتقدم بالشكر الجزيل والامتنان الوفير لكل من أعانني، وتفضل عليّ بالدعاء والنصيحة والعطاء، لإتمام هذا البحث.

وأبدأ بشكر الصرح الكبير، والبناء الشامخ، والمنارة الراقية، جامعة أم القرى ممثلةً في معالي مديرتها، وعميد الدراسات العليا، وعميد كلية التربية، على جهودهم في بناء الأمة العلمي والفكري، وإعانة الباحثين والباحثات، وتسهيل وتيسير مرادهم.

والشكر موصول لسعادة رئيس قسم التربية الإسلامية والمقارنة الدكتور الشريف نايف بن همام شرف الله قدره كما شرف أخلاقه ونسبه، وجزاه الله عني خير الجزاء لما قدّم من علمٍ ونصحٍ واهتمامٍ وقدوة.

وأجزل الشكر وأصدق التقدير وأخلص الدعاء لأستاذي الفاضل المربي الناصح، والموجه الأب، والكريم الأخلاق سعادة الدكتور علي بن مصلح المطرفي، الذي أعانني بعد الله على إتمام هذا البحث، وأحاطني بعاطفة الأبوة، وشدّ من عزيمتي، وعلمني بأخلاقه وتعامله وتواضعه معاني الصدق والأمانة، فله من الله واسع الفضل، وعظيم الأجر، وعافية الدنيا والآخرة.

وأقدم شكري لأساتذتي الكرام الأستاذ الدكتور عبد الله حريري، والدكتور محمود كسناوي، والدكتور نجم الدين الأنديجاني، والدكتور محمد أبو رزية، والدكتور خليل الحدري، والأستاذ عبد الإله الغامدي، وجميع أساتذة القسم الكرام على جهودهم وبذلهم وعطائهم.

كما أقدم شكري لأعضاء لجنة المناقشة سعادة الأستاذ الدكتور عبد الله حريري، وسعادة الدكتور نايف الشريف الذين تفضلاً بالموافقة، وأعانا بالتوجيه والتقويم على إخراج البحث في صورته النهائية، فجزاهم الله خيراً، وبارك في أعمارهم وأعمالهم وذرياتهم وأزواجهم.

وأحتم بشكر الأصدقاء الأعزاء، والإخوان الأوفياء، الشيخ خالد بن أبو بكر العمودي، والأستاذ فهد بن محمد عريف، والمقدم محمد بن الحسين بن ناصر، والأستاذ إبراهيم بن عواض الحارثي الذين فتحوا لي قلوبهم وبيوتهم، وأعاروني كتبهم، فأسأل الله لهم دوام الصحة والعافية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

قائمة المحتويات

^١ أخرجه البخاري، الأدب المفرد، باب من لم يشكر الناس، حديث رقم (٢١٨). قال الألباني: حديث صحيح. محمد بن إسماعيل البخاري: الأدب المفرد، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط ٣، ١٤٠٩هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الأحاديث مذيبة بأحكام الألباني عليها.

^٢ نقلاً عن سيد بن حسين العفاني: رائق الشهد من شعر الدعوة والرفائق والزهد (مع الله)، ١٤٢٠هـ، مكتبة

الصفحة	الموضوع
ت	آية كريمة، وحديث شريف.....
ث	ملخص الدراسة باللغة العربية.....
ج	ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية.....
ح	إهداء.....
خ	شكر وتقدير.....
د	قائمة المحتويات.....
الفصل التمهيدي: خطة الدراسة	
٢	ولاً : المقدمة.....
٨	ثانياً : موضوع الدراسة.....
١٠	ثالثاً : أسئلة الدراسة.....
١٠	رابعاً : أهداف الدراسة.....
١١	خامساً : أهمية الدراسة.....
١٢	سادساً : منهج الدراسة.....
١٢	سابعاً : حدود الدراسة.....
١٣	ثامناً : مصطلحات الدراسة.....
١٥	تاسعاً : الدراسات السابقة.....
الفصل الأول: ترجمة الإمام البخاري وكتابه الجامع الصحيح	
المبحث الأول: حياة الإمام البخاري	
٢٢	ولاً : اسمه ونسبه.....
٢٢	ثانياً : مولده وصفاته الخلقية.....
٢٣	ثالثاً : نشأته وصفاته الخلقية.....
٢٣	رابعاً : حياته العلمية.....
٢٩	خامساً : محنته ووفاته.....
٣٤	سادساً : الدروس التربوية من سيرة الإمام البخاري.....
٣٧
المبحث الثاني: نبذة عن كتاب الجامع الصحيح	
٤٥	المطلب الأول: التعريف بالجامع الصحيح.....
٤٥	أولاً : اسم الكتاب ومكانته.....
٤٥	ثانياً : سبب التأليف ومكانه.....
٤٦	ثالثاً : منهج التأليف.....
٤٧	رابعاً : عدد أحاديث وأبواب الصحيح.....
٥٠	خامساً : شروح الصحيح.....
٥٠
٥١	المطلب الثاني: التعريف بكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من الجامع الصحيح.....
٥١
الفصل الثاني: مفهوم الاعتصام وأسباب الاختلاف والتفرق والوسائل المعينة	

على الوحدة والاجتماع	
٥٥	المبحث الأول: معنى الاعتصام
٥٥	تمهيد.....
٥٥	المطلب الأول: الاعتصام في المدلول اللغوي والاصطلاحي.....
٥٥	أولاً : المدلول اللغوي.....
٥٧	ثانياً : المدلول الاصطلاحي.....
٥٨	المطلب الثاني: الاعتصام في القرآن والسنة.....
٥٨	ألفاظ العصمة والاعتصام التي وردت في القرآن والسنة.....
٦٤	المبحث الثاني: أسباب الاختلاف والتفرق والوسائل المعينة على الوحدة والاجتماع
٦٤	المطلب الأول: أسباب الاختلاف والتفرق.....
٦٤	تمهيد.....
٦٦	أنواع الاختلاف.....
٦٦	أولاً : الاختلاف باعتبار حقيقته.....
٦٨	ثانياً : الاختلاف باعتبار موضوعه.....
٦٩	ثالثاً : الاختلاف باعتبار حكمه.....
٧٤	أسباب الاختلاف والتفرق.....
٧٤	أولاً : الأسباب العقائدية.....
٩٣	ثانياً : الأسباب الفقهية.....
٩٤	ثالثاً : الأسباب الفردية الذاتية.....
٩٩	رابعاً : الأسباب الخارجية الأجنبية.....
١٠٠	المطلب الثاني: الوسائل التربوية المعينة على الوحدة والاجتماع.....
الفصل الثالث: المضامين التربوية المتعلقة بالفرد	
١٠٤	المبحث الأول: المضامين التربوية في الجانب الفكري
١٠٤	تمهيد.....
١٠٨	المطلب الأول: تصحيح التصورات العقلية والشرعية.....
١١٠	أولاً : تصحيح التصورات العقلية.....
١٢٤	ثانياً : الأحاديث المتضمنة لتصحيح التصورات العقلية.....
١٢٧	ثالثاً : الاستدلالات العقلية في الكتاب والسنة.....
١٣٤	رابعاً : الطرق التربوية لتصحيح التصورات العقلية.....
١٣٦	خامساً : تصحيح التصورات الشرعية.....
١٤٥	سادساً : الأحاديث المتضمنة لتصحيح التصورات الشرعية.....
١٥١	سابعاً : الضوابط في تصحيح التصورات الشرعية.....
١٥٤	ثامناً : الطرق التربوية لتصحيح التصورات الشرعية.....
١٥٦	تاسعاً : الفوائد التربوية لتطبيق مبدأ تصحيح التصورات العقلية والشرعية.....
١٦٢	المطلب الثاني: البناء العلمي.....
١٦٢	أولاً : معنى العلم.....
١٦٣	ثانياً : الأحاديث الواردة في البناء العلمي.....

١٦٨	الثأ : التطبيق التربوي لمبدأ البناء العلمي.....
١٦٩	القواعد التربوية للبناء العلمي الصحيح.....
١٦٩	١ . قاعدة ربط العلم بغايته.....
١٧٢	٢ . قاعدة ربط العلم بروحه وحقيقته.....
١٨٤	٣ . قاعدة ربط العلم بالعمل.....
١٨٨	٤ . قاعدة ربط العلم بالواقع.....
١٩١	٥ . قاعدة ربط العلم الأخرى بالعلم الديني.....
٢٠٠	المبحث الثاني: المضامين التربوية في الجانب السلوكي
٢٠٠	تمهيد.....
٢٠٢	المطلب الأول: التوسط والاعتدال.....
٢٠٢	أولاً : معنى التوسط والاعتدال.....
٢٠٤	ثانياً : الأحاديث المتضمنة للتوسط والاعتدال.....
٢٠٨	ثالثاً : التطبيق التربوي للتوسط والاعتدال.....
٢١٠	القواعد التربوية للتوسط والاعتدال.....
٢١٠	١ . قاعدة التوسط والاعتدال في الفكر والتأصيل.....
٢١١	أ- منهج التوسط والاعتدال في مسائل الاعتقاد والأصول.....
٢١١	ب- منهج التوسط والاعتدال في المسائل الفقهية الفرعية.....
٢١٤	ت- منهج التوسط والاعتدال في التصور العام للدين والدنيا.....
٢٣٣	٢ . قاعدة التوسط والاعتدال في السلوك والتطبيق.....
٢٣٩	المطلب الثاني: القدوة الحسنة.....
٢٣٩	أولاً : معنى القدوة الحسنة.....
٢٤٠	ثانياً : الأحاديث المتضمنة للقدوة الحسنة.....
٢٤٤	ثالثاً : التطبيق التربوي للقدوة الحسنة.....
الفصل الرابع: المضامين التربوية المتعلقة بالمجتمع	
٢٥٥	المبحث الأول: المضامين التربوية في بناء المجتمع
٢٥٥	تمهيد.....
٢٥٥	المطلب الأول: تحقيق مبدأ العدل.....
٢٥٥	أولاً : معنى مبدأ العدل.....
٢٥٧	ثانياً : الأحاديث المتضمنة لمبدأ العدل.....
٢٦٠	ثالثاً : التطبيق التربوي لمبدأ العدل.....
٢٦٤	القواعد التربوية لمبدأ العدل.....
٢٦٤	١ . قاعدة البناء الاعتقادي.....
٢٦٥	٢ . قاعدة الأمر بالعدل.....
٢٦٦	٣ . قاعدة التعزيز الإيجابي.....
٢٦٧	٤ . قاعدة النهي الوقائي.....
٢٦٨	٥ . قاعدة الجزاء الإلهي.....
٢٦٨	٦ . قاعدة النصر والتأييد.....
٢٧١	المطلب الثاني: تحقيق مبدأ الشورى.....

٢٧١ أولاً : معنى الشورى
٢٧٢ ثانياً : الأحاديث المتضمنة لمبدأ الشورى
٢٧٥ ثالثاً : التطبيق التربوي لمبدأ الشورى
٢٨١ ﴿المطلب الثالث: تحقيق مبدأ السمع والطاعة
٢٨١ أولاً : معنى السمع والطاعة
٢٨٢ ثانياً : الأحاديث المتضمنة لمبدأ السمع والطاعة
٢٨٧ ثالثاً : التطبيق التربوي لمبدأ السمع والطاعة
٢٨٨ دوائر السمع والطاعة في التربية الإسلامية
٢٨٨ ١ . السمع والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم
٢٩٢ ٢ . السمع والطاعة للوالدين
٢٩٣ ٣ . السمع والطاعة لولاة الأمر
٢٩٧ ضوابط السمع والطاعة التربوية
٢٩٨ ﴿المطلب الرابع: تحقيق مبدأ الوحدة والاجتماع
٢٩٨ أولاً : معنى الوحدة والاجتماع
٢٩٩ ثانياً : الأحاديث الواردة في الوحدة والاجتماع
٣٠٤ ثالثاً : التطبيق التربوي لمبدأ الوحدة والاجتماع
٣١٧ الوسائل التربوية لتحقيق مبدأ الوحدة والاجتماع
٣٢١	المبحث الثاني: المضامين التربوية في حماية المجتمع
٣٢١ تمهيد
٣٢١ ﴿المطلب الأول: تحقيق مبدأ الحوار
٣٢١ أولاً : معنى الحوار
٣٢٢ ثانياً : الأحاديث الواردة في الحوار
٣٢٥ ثالثاً : التطبيق التربوي لمبدأ الحوار
٣٣١ ركائز الحوار التربوية
٣٣٦ ﴿المطلب الثاني: تحقيق مبدأ الاستقلالية
٣٣٦ أولاً : معنى الاستقلالية
٣٣٧ ثانياً : الأحاديث الواردة في تحقيق الاستقلالية
٣٤٠ ثالثاً : التطبيق التربوي لمبدأ الاستقلالية
٣٥٢ ركائز الاستقلال التربوية
٣٥٢ ١ . استقلال الفرد
٣٥٦ ٢ . استقلال الفكر
٣٦٨ ٣ . استقلال السلطة
٣٧٣ ﴿المطلب الثالث: تحقيق مبدأ حفظ الأمن الفكري
٣٧٣ أولاً : معنى الأمن الفكري
٣٧٤ ثانياً : الأحاديث الواردة في تحقيق الأمن الفكري
٣٨١ ثالثاً : التطبيق التربوي لمبدأ الأمن الفكري
٣٨٩ ﴿المطلب الرابع: تحقيق مبدأ حفظ الأمن المادي
٣٨٩ أولاً : معنى الأمن المادي

٣٨٩ انياً : الأحاديث الواردة في تحقيق الأمن المادي
٣٩٥ ثالثاً : التطبيق التربوي لمبدأ الأمن المادي
٣٩٧ الأسس التربوية لتحقيق الأمن المادي
٣٩٧ ١ . تنمية الضمير الحي والرقابة الذاتية
٣٩٩ ٢ . تطبيق القوانين والأنظمة حسب مرتبة الخطأ
٣٩٩ أ- مرتبة الخطأ مع الله تعالى
٤١٣ ب- مرتبة الخطأ مع النفس
٤١٤ ت- مرتبة الخطأ مع الناس
٤١٦ ث- مرتبة الخطأ مع ولي الأمر (السلطة)
الفصل الخامس: خاتمة البحث	
٤٢٧ الخاتمة
٤٢٨ أولاً : نتائج البحث
٤٣٩ ثانياً : التوصيات
٤٤١ ثالثاً : المقترحات
٤٤٣ رابعاً : قائمة المصادر والمراجع
٤٤٣ - المصادر الشرعية
٤٤٧ - المعاجم اللغوية
٤٤٩ - الكتب والمراجع
٤٦٣ - الرسائل العلمية
٤٦٤ - الكتب المترجمة
٤٦٤ - الدوريات والمقالات

الفصل التمهيدي

خطة الدراسة

وتشمل:

- أولاً: المقدمة.
- ثانياً: موضوع الدراسة.
- ثالثاً: تساؤلات الدراسة.
- رابعاً: أهمية الدراسة.
- خامساً: أهداف الدراسة.
- سادساً: منهج الدراسة.
- سابعاً: حدود الدراسة.
- ثامناً: مصطلحات الدراسة.
- تاسعاً: الدراسات السابقة.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

✿ أولاً: مقدمة الدراسة:

الحمد لله رب العالمين، القائل في محكم التنزيل ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٣)، والقائل جل شأنه ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ (سورة النساء، آية: ١٧٥)، والقائل جل في علاه ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم﴾ (سورة الحج، آية: ٧٨)، والقائل عز وجل ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠١)، جعل سبحانه وتعالى العصمة والنجاة لمن تمسك بوحية المبين، وتوعد بالخزي والشقاء من أعرض عن كتابه الكريم، وهدى سيد المرسلين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد الخلق أجمعين، وحبیب رب العالمین، وإمام الأنبياء والمرسلین، وقائد الغر المحجلین، وعلى آل بيته الطيبين الأطهار، وخلفاءه من الأختان والأصهار، وعلى جميع المهاجرين والأنصار، وسلم تسليماً كثيراً مزيداً إلى يوم الدين، أما بعد:

فالإسلام كسائر رسالات السماء يعتمد في إصلاحه العام على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شيء، فهو يكرس جهوداً ضخمة للتغلغل في أعماقها، وغرس تشريعاته في جوهرها، حتى تكون جزءاً منها، وفيه نجد أن أولى الناس بالله هو من يقيم في جوانب نفسه سلطان الحق، ويهزم نوازع الهوى، وكذلك من حكّم الله في نفسه، وخضع لدينه في طواياه، وعاش له في كل شؤونه التي لا يراه إلا هو جل اسمه قبل أن يتظاهر له بالعيش في كل زحام، والغضب له في كل خصام.

والحاجة إلى إيجاد رقيب تصان به حقوق الله، وحقوق الناس في أعماق النفس، وتحرس به الأعمال من دواعي التفریط والإهمال، هي من المقاصد العليا في الإسلام لكي تصبح النفس الإنسانية صالحة في كل زمان ومكان، قوية بعقيدتها في وجه كل طوفان، واثقة بربها وبشرعه في كل ميدان، ومن هنا يبدأ المسلم في حياة القوة والعزة، والعلم والمعرفة، والتفوق والإتقان، والجدية والإقدام، والابتكار والإبداع، على أساس قوي من المحبة والإخاء، والانفتاح الهادف على كل جديد ومفيد،

كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله"^١.

وهذه مقدمة لأصلٍ عظيمٍ وكبيرٍ في غاية الأهمية، وهي كفاية الشرع لكل ما يحتاجه الإنسان لأمر دنياه وآخرته، والوحي المنزَّل من عند الله وهو القرآن والسنة به يتحقق خير الدنيا والآخرة، ولا خير البتة فيمن انحاز عنه إلى غيره، وقد أكمل الله جل جلاله لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ولم يجوجنا إلى غيره في إصلاح أنفسنا بما يضمن تحقيق العبودية لله وحده في الدنيا، ثم رضاه جل جلاله والجنة، والارتقاء في منازلها في الآخرة، يقول تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة، آية: ٣)، فقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أمور هي: أن الله أكمل لنا ديننا فلا ينقصه أبداً، وأتم لنا به النعمة فلا نحتاج فيه إلى زيادة أبداً، ورضي لنا هذا الدين فلا يسخطه أبداً. وبالتالي اشتملت على القضايا الكبار، حيث لا دين بعد الإسلام، ولا رسول بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا وحي بعد انقطاعه بوفاته صلى الله عليه وسلم، يقول تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ٨٥)، ويقول تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٩)، وفي إكمال الدين وبيان جميع أحكامه نعم الدارين التي يمتن الله بها على عباده بقوله ﴿وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فهذه الآية نصٌّ صريحٌ في أن دين الإسلام لم يترك شيئاً يحتاج إليه الخلق في الدنيا والآخرة إلا أوضحه وبينه كأنما ما كان، وإلا ما استحق أن يوصف بالتمام والكمال.

وإن من عناية الإسلام بالإنسان عنايته بموضوع التربية عناية فائقة، حيث جعلها الميدان التطبيقي الذي تقوم فيه بإعداد الفرد لعمارة الأرض والاستخلاف فيها كما أمر الله تبارك وتعالى، ولا أدل على ذلك من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم في كونها الميدان التطبيقي لشرع الله تبارك وتعالى "فقد كان رسول الإسلام بين أصحابه مثلاً أعلى للخلق الذي يدعو إليه فهو يغرس بين أصحابه هذا الخلق السامي، بسيرته العطرة، قبل أن يغرسه بما يقول من حكم وعظات"^٢.

وفي معنى الحكمة التي جاء ذكرها في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٢٩)، نجد أن القرآن

^١ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان، حديث رقم (٢٠٧). قال الذهبي: صحيح على شرط البخاري ومسلم. محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري: المستدرک علی الصحیحین، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. مع الكتاب: تعليقات الإمام الذهبي في التلخيص.

^٢ محمد الغزالي: خلق المسلم، ١٤١٥هـ، دار الكتب الحديثة، بيروت، ص ١٦.

الكريم قد تضمن الجانب النظري من الحكمة وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تقدم الجانب العملي المثل الكامل للحكمة لأنها جمعت معاني الحكمة...، ففيها الإتقان والحلول الملائمة، وفيها القدرة الفائقة على التمييز بين الصواب والخطأ، وفيها صواب الرأي وحسن النظر في الأمور وتقييم المواقف، وفيها حُسن الإدارة والتصرف، وفيها العبرة والحجة الواضحة. ولقد كانت مناهج الفهم النبوي والتفكير النبوي والتطبيق النبوي تجسيدا للسنن والقوانين التي تضمنتها آيات الكتاب المنزل من الله تعالى^١.

والتربية الإسلامية تعد أكثر شمولية وتكاملية، حيث هي إعداد الفرد ليحيا حياة كاملة في كل جوانب حياته، وبعد وفاته، وهي تربية تبدأ قبل الميلاد، أي منذ اختيار الزوجة، ورعايتها في حملها، وتستمر مع الإنسان بعد مولده، وعبر مراحل حياته المختلفة في كل جوانبها الجسمية، والعقلية، والخلقية، والاجتماعية في تربية شاملة متكاملة متوازنة، غير مغفلة للهدف الأسمى من وجود الإنسان، والنهاية الأخروية لكل حي سوى الله عز وجل.

كما تميزت عن غيرها من سائر أنواع التربيات الأخرى بإلها تقوم على ركنين أساسيين، هما الكتاب والسنة، ولا يصح أحدهما إلا بالآخر يقول تعالى ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (سورة النساء، آية: ٨٠)، والقرآن والسنة منهج متكامل ينظم حياة المسلم، يقول القرضاوي: "إن التربية المحمدية نبغ سخى ومصدر ثري للأمة الإسلامية، دائم العطاء متجدد النفع، وليس ذلك من الناحية التشريعية فقط كما يقال دائما السنة هي المصدر الثاني للتشريع، بل هي مصدر أيضا لإرشاد الفكر، وتوجيه السلوك، وبناء الحضارة الإنسانية على أقوى الدعائم"^٢.

والتربية الإسلامية تضع في أهم أهدافها، وأولى أولوياتها: صياغة حياة المسلم وفق المنهج الرباني المحكم، مراعية الفطرة والحاجات، وموازنة بين الحقوق والمسؤوليات، لتحقيق الغاية العظمى من خلق الإنسان ووجوده، كما قال سبحانه وتعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الداريات، آية: ٥٦)، ولتحقق مراد الشارع الحكيم، ومقصد التشريع الكريم، من تحصيل سعادة الدنيا والآخرة، كما قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل، آية: ٩٧)، يقول النحلوي "التربية الإسلامية هي تنمية فكر الإنسان، وتنظيم سلوكه، وعواطفه، على أساس الدين الإسلامي، وبقصد تحكيم أهداف الإسلام في

^١ ماجد عرسان الكيلاني: تطور مفهوم النظرية التربوية، دراسة منهجية في الأصول التاريخية للتربية الإسلامية، ط ٢، ١٤٠٥هـ، دار ابن كثير، سوريا، دمشق، ص ٥٤.

^٢ يوسف القرضاوي: الرسول والعلم، ط ٥، ١٤١١هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ١٦٠.

حياة الفرد والجماعة، أي في كل مجالات الحياة"، ويقول في موضع آخر "وبذلك تكون الغاية النهائية للتربية الإسلامية هي تحقيق العبودية لله في حياة الإنسان الفردية والجماعية"^١.

وحين تقوم التربية على أهداف دنيوية، أو غايات نفعية، أو رؤى وأسس بشرية، فإن الترجمة الواقعية لذلك تخبط وفوضى، واضطراب وفتن في عموم حياة البشر، وما يتبع ذلك من اختلافات وتفرق يضرب بعضها بعضاً، في دوامة من المتناقضات، وتنازع في المسلمات، واختلال في التصورات، ليقع ما أخبر عنه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم من أحداث آخر الزمان.

وواقع الأمة الإسلامية التي شرفها الله وأكرمها بالهدى الرباني تعبير وفقاً لسنة الله الكونية، القائل سبحانه وتعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٥٣)، وهذا الواقع الذي يموج بالمتغيرات والحوادث والمستجدات التي تعصف بالأمة الإسلامية من كل جانب، إذا لم يُعاد التصحيح والتوازن والتأصيل على الأسس التربوية الصحيحة، فإن تأثيرها سيفت في عضد الأمة، ويزيدها ضعفاً إلى ضعفها، وتخلفاً إلى تخلفها، وتشتتاً على فرقته، وزيادة لاختلال تصورات أفرادها، لتبقى عالمة على غيرها من الأمم، وضحية للجهل والاختلاف والتفرق.

والسؤال: كيف تُعقل التربية الإسلامية إرثها الحضاري في واقعها المعاصر؟ وكيف تتعامل مع الفتن الداخلية، والأخطار الخارجية؟ وهذا يحتاج لإجابة جميع أفراد الأمة، ليصلوا إلى بر الأمان والمحبة والأخوة، ويرتقوا في مراتب التقدم والريادة والقوة، ومن رحمة الله بالأمة أن دلّها على طريق النجاة في أوقات الفتن والشدة، ومن ذلك وصية رسول الهدى صلى الله عليه وسلم للأمة بقوله من حديث العرياض ابن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظةً بليغة، ذرّفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله، كأنّ هذه موعظة مودّع، فماذا نعهدُ إلينا؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسَّمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي يَرى اختلافاً كثيراً، وإيّاكم ومُحدثات الأمور، فإنّها ضلالة فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»^٢.

^١ عبد الرحمن النحلوي: أصول التربية الإسلامية، ط ٢، ١٤٢٣هـ، دار الفكر، بيروت، ص ٢٧-١٠٨.

^٢ أخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث رقم (٢٦٧٦). قال الإمام الترمذي حديث حسن صحيح. محمد بن عيسى الترمذي: السنن، ت: أحمد شاكر وآخرون، (د.ت)، دار إحياء التراث، بيروت. الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

لقد كان المسلمون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة واحدة تحت رايته عليه الصلاة والسلام، وظل الحال كذلك حتى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعد وفاته نشب الخلاف حول الخلافة، ولم يلبث أن نمت حتى أصبح مذاهب وأحزاباً "وكانت القضية الأولى التي، التي تشعبت حولها آراء الفرق ونبت حولها الخلاف، قضية الإمامة، أو الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تدبير شئون المسلمين"^١، ثم ظهرت الفتن بعد السنين الأولى من عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه قويةً عنيفةً أدت في النهاية إلى مقتل الخليفة الأواب، "وكان الاختلاف بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإمامة ولم يحدث خلاف غيره في حياة أبي بكر رضي الله عنه وأيام عمر، إلى أن وُلِّيَ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأنكر قوم عليه في آخر أيامه فعلاً كانوا فيما نعموا عليه من ذلك مخطئين وعن سنن المحجة خارجين، فصار ماأنكروه عليه اختلافاً إلى اليوم، ثم قُتل رضوان الله عليه وكانوا في قتله مختلفين، فأما أهل السنة والاستقامة فإنهم قالوا: كان رضوان الله عليه مصيباً في أفعاله قتله قاتلوه ظلماً وعدواناً، وقال قائلون خلاف ذلك، وهذا اختلاف بين الناس إلى اليوم"^٢.

وبدأ عصر الفتن وظهر الغلو والتطرف من بعض الفرق تجاه الآخر، وبدأ عصر التعصب والافتتال، ونسبت كل فرقة إلى الطائفة الناجية، ورمي المخالف بأبشع الأوصاف والتهم، كل ذلك غلواً في شخص أو مذهب أو عرق أو طائفة ... وتطرفاً في رأي أو هوى.

إن ذلك يوجب فهوض كل صاحب غيرةٍ ومحبةٍ لأمته بالاهتمام ببناء الفرد المسلم على أسس عقديّة إيمانية؛ تعيد صياغة النفوس، وتفتح آفاق العقول، وتبث فيه روح الدين الحقيقي، وتوصل العزة الإيمانية، وتمحور حياته حول هدف واحد، هو تحقيق العبودية لله بأبعادها كلها، وإعمار الأرض بشريعة الله، وتحقيق هذا مرتكناً باتباع طريق الله المستقيم الذي يقول عنه سبحانه ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٥٣).

إن التربية التي تضع في أولوياتها قول الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه الصحابي الجليل ثوبان رضي الله عنه بقوله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللَّهَ زَوْيَ لِيَ الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيَتْ الْكَنْزَيْنِ

^١ أحمد محمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين "الخوارج والشيعة"، ط ٢، ١٤٠٨هـ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ص ٢٥.

^٢ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ت: هلموت ريتز، ط ٣، ١٤٠٠هـ، ص ٣.

الأحمر والأبيض، وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنةٍ بعامةٍ، وأن لا يُسلطَ عليهم عدوٌّ من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال يا محمدُ إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يردُّ وإني أعطيتُك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ بعامةٍ، وأن لا أسلطَ عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من باقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً^١، يجعلها تسير نحو التصالح والتوافق لتحقيق مبادئ الأخوة، والوحدة، والاجتماع، ولكن الأمة الإسلامية التي تعاني من تحديات الواقع، وفهم قضايا النوازل، صارت تتخبط يميناً وشمالاً، وتلتمس الحلول في أفكارٍ ورؤى بشرية، وتقليدٍ وإتباعٍ لمرجعياتٍ وأشخاص، وتوجهٍ نحو الفرقة والاختلاف، قبل الحوار والمناظرات، وتسرع في إصدار الأحكام، وهكذا تتسارع حدة الخلاف، وتتأصل في النفوس، وتزيد الهوة بين أبناء الإسلام، حتى تشغل الأمة عن قضاياها العظام، وأهدافها السامية، ورسالتها الخالدة، فتكون بذلك قد وقعت في المخذور الذي أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم وهو الفرقة والشقاق.

ومن تصور هذه المشكلة وملاحظة آثارها على الواقع، يحاول الباحث أن يسهم في المعالجة السليمة لها على أصول التربية الإسلامية وذلك من خلال النظر والتنقيب في كنوز السنة النبوية المطهرة، لاستنباط بعض التوجيهات التربوية النفيسة من الأحاديث الشريفة. ووقع الاختيار على كتاب ((الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه)) للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، حيث حوى هذا الكتاب الجليل ضمن دفتيه: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، الذي تضمن جملةً من الأحاديث النبوية الشريفة، التي يحتاج كل مسلم إلى معرفتها والوعي بها، والتفقه في دلالتهما، ثم الخروج بوسائل إجرائية تخدم الأمة الإسلامية، وتجعلها تتجاوز محنتها الداخلية كي تقوى على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية وصولاً إلى موقعها القيادي للبشرية والذي أمرها به رب الكون تبارك وتعالى.

وآمل من الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت في ذلك وأن يجعل هذا البحث خطوة في طريق الإصلاح والبناء والقوة، وتحقيق الأخوة والوحدة، ودوام المحبة والألفة بين أفراد الأمة.

^١ أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم، حديث رقم (٢٨٨٩). مسلم بن الحجاج النيسابوري: الجامع الصحيح، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، (دت)، دار إحياء التراث، بيروت.

❖ ثانيًا: موضوع الدراسة:

إن أوسع أبواب الشر المفتوحة على الأمة في هذا الزمان ينبع من داخلها، وإن الناظر في أحوال المسلمين يجد التشتت والفرقة والاختلاف المذموم، والجهل المطبق بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا مخرج لها ولا نجاة إلا بالاعتصام بكتاب الله الكريم، وسنة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، الذين فيهما الخير والنفعة والأمان للأمة من كل الشرور، ولقد أوصى الله تبارك وتعالى بالاعتصام بكتابه الكريم الذي فيه النجاة والأمان للأمة بقوله تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٣)، قال ابن جرير يرحمه الله "يعني بذلك حل ثناؤه وتعلقوا بأسباب الله جميعًا، يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله، وعن عبد الله بن مسعود أنه قال في قوله: (واعتصموا بحبل الله جميعًا)، قال: الجماعة، وعن قتادة في قوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعًا)، قال: حبل الله المتين الذي أمر أن يُعتصم به: هذا القرآن... وعن قتادة في قوله تعالى: (ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم) قال: إن الله عز وجل قد كره لكم الفرقة، وقدم إليكم فيها، وحذركموها، ونهاكم عنها، ورضي لكم السمع والطاعة والألفة والجماعة، فارضوا لأنفسكم ما رضي الله لكم إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله"¹.

وهذا هو الطريق الصحيح والمنهج البين الذي يعالج مشكلة الفرقة، ويجعله ضمن دائرة قضاء الله الكوني الذي أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم من حدوث التفرق والاختلاف حيث قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) قَالَ «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قَالَ «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». فَلَمَّا نَزَلَتْ (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قَالَ «هَاتَانِ أَهْوَنُ أَوْ أَيْسَرُ»². وقوله عليه الصلاة والسلام «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ

¹ محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ط ٣، ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٣، ص ٣٧٩.

² أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى (أو يلبسكم شيعًا)، حديث رقم (٧٣١٣). محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، ط ١، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة، بيروت.

فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْعَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِهَا»^١.
 وذلك بالتمسك بالواجب الشرعي تجاهه، من المحافظة على الآداب الإسلامية والموجهات الشرعية والضوابط المرعية التي تحقق الأمان للجميع وتفتح الباب لإعمار الأرض وفق منهج الله الوارد في كتابه العزيز، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وقد أُرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك قبل أكثر من أربعة عشر قرناً في حجة الوداع حين قام خطيباً يوم عرفه ليبين لأُمَّته طريق النجاة والأمان: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس في حجة الوداع فقال «يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله و سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، إن كل مسلم أخ المسلم، المسلمون إخوة، ولا يحل لامرئٍ من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، ولا تظلموا، ولا ترجعوا من بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^٢، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفْرُقُوا وَيَكْرَهُ لَكُمْ قَيْلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»^٣.

وإن رفعة هذه الأمة وخيريتها التي يريد لها الله تبارك وتعالى لا تكون إلا باجتماع كلمتها على الاعتصام بدينها- بخصائصه وحقائقه الكبرى ومبادئه الخالدة ونبد الخلافات الهامشية وقطع أسبابها ووضعها موضعها، وإعطائها حجمها الصحيح، وتختلف ولا تفترق، وتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه، ويكون السعي المشترك نحو الأهداف العليا التي رسمها الإسلام سبيلاً لعزة المسلمين وكرامتهم، وقيادتهم للإنسانية قيادة واعية حكيمة.

وذلك ما كان عليه رسول الأمة صلوات الله وسلامه عليه في تعامله وأخلاقه وسياسته للمواقف وتعامله مع الأفراد والجماعات، كما بين ذلك ربُّنا تبارك وتعالى بقوله ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الفتح، آية: ٢٩).

يقول الكيلاني "فلقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعالج الأوضاع والمواقف ويتعامل مع الأفراد والجماعات بالحكمة المثلى"^٤.

^١ أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم (٢٨٩٠).

^٢ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب العلم، حديث رقم (٣١٨). قال الذهبي: احتج البخاري بعكرمة، واحتج مسلم بأبي أويس عبدالله وله أصل في الصحيح.

^٣ أخرجه مسلم، كتاب الأفضية، باب النهي عن كثرة المسائل، حديث رقم (٤٤٥٦).

^٤ الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية، ص ٥٤.

ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث؛ الذي يرمي إلى استنباط شيءٍ من التوجيهات والمضامين التربوية التي حفلت بها السنة النبوية الشريفة بشكلٍ عام، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من كتاب "الجامع الصحيح" للإمام البخاري رحمه الله على وجه الخصوص.

وقد ركّز الباحث في دراسته هذه على استنباط المضامين التربوية، مع بيان التطبيق التربوي لتلك المضامين على المسلم فكرياً وسلوكياً.

❖ ثالثاً: أسئلة الدراسة:

تحاول الدراسة الإجابة عن السؤال الرئيس التالي:

ما المضامين التربوية المستنبطة من الأحاديث النبوية الواردة في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري؟

ويتفرع عن هذا السؤال الأسئلة التالية:

س١: من هو الإمام البخاري؟ وما مكانة كتابه (الجامع الصحيح) في مكتبة السنة النبوية؟

س٢: ما المراد بالاعتصام في المدلول اللغوي والاصطلاح الشرعي؟

س٣: ما أبرز أسباب الاختلاف والتفرق؟ وما الوسائل التربوية المعينة على الوحدة والاجتماع؟

س٤: ما المضامين التربوية المتعلقة بالفرد المستنبطة من أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري؟

س٥: ما المضامين التربوية المتعلقة بالمجتمع المستنبطة من أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري؟

س٦: كيف نطبق المضامين التربوية المتعلقة بالفرد؟

س٧: كيف نطبق المضامين التربوية المتعلقة بالمجتمع؟

❖ رابعاً: أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تحقيق ما يلي:

- ❖ التعرف على سيرة الإمام البخاري رحمه الله، وكتابه الجامع الصحيح.
- ❖ التعرف على معنى الاعتصام في المدلول اللغوي، والاصطلاح الشرعي.
- ❖ التعرف على أهم أسباب الاختلاف والتفرق، والتعرف على الوسائل التربوية المعينة على تحقيق الوحدة والاجتماع.

- ❖ التعرف على المضامين التربوية المتعلقة بالفرد المستنبطة من الأحاديث النبوية الواردة في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري.
- ❖ التعرف على المضامين التربوية المتعلقة بالمجتمع المستنبطة من الأحاديث النبوية الواردة في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري.
- ❖ بيان كيفية تطبيق المضامين التربوية المتعلقة بالفرد المسلم فكراً وسلوكاً.
- ❖ بيان كيفية تطبيق المضامين التربوية المتعلقة بالمجتمع واقعاً ومستقبلاً.

❖ خامساً: أهمية الدراسة:

السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وهي بذلك تُعدُّ منهاجاً تربوياً متكاملًا، لما تحويه من أساليب تربوية مختلفة، تلي احتياجات ومطالب الفرد والمجتمع في جميع الجوانب، يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٦٤).

وإن من لوازم الإيمان برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التحاكم إليه في كل شئون الحياة _التربوية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأخلاقية، وغيرها_ ومن هنا جاءت هذه الدراسة التي يتطلع الباحث من خلالها إلى تحقيق ما يلي:

١. إبراز دور التربية الإسلامية في وضع الأسس والمبادئ التربوية، القائمة على الكتاب والسنة، والتي تتميز بالصحة، والثبات، والانضباط، والمرونة، والاستمرار، وغيرها من خصائص التربية الإسلامية.
٢. توضيح الفكر التربوي التأصيلي، الموجه بالضوابط الشرعية الصحيحة، وتصحيح التصورات العقلية والشرعية تجاهه، حيث أنها مستنبطة من صحيح السنة النبوية.
٣. تفعيل الفكر التربوي ليكون سلوكاً تربوياً، يهتم بالتوجيهات النبوية النفيسة، والدلالات المقاصدية المتعددة الواردة في أحاديث الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري.
٤. استنباط الحلول الشرعية التربوية التي تقي الأمة الإسلامية من شرور الاختلاف والتفرق المذموم، وتعالج أخطارها وآثارها السلبية على واقع الأمة ومستقبلها.

❖ سادساً: منهج الدراسة:

يستخدم الباحث في دراسته منهجين، هما:

- ❖ المنهج الوصفي التحليلي، وهو دراسة وتحليل ما حصل عليه الباحث من معلومات^١، وقد قام الباحث بدراسة أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري، وتحليل موضوعاتها الرئيسة وتصنيفها، ثم تقسيمها إلى محاور متناسقة، واختيار الموضوعات المنسجمة مع حدود الدراسة وإطارها.
- ❖ المنهج الاستنباطي، هو "الطريقة التي يقوم فيها الباحث ببذل أقصى جهدٍ عقلي ونفسي عند دراسة النصوص لهدف استخراج مضامين تربوية مدعمة بالأدلة الواضحة"^٢، وقيل هو "استنتاج أفكار ومعلومات من النصوص وغيرها وفق ضوابط وقواعد محددة"^٣، وهذا المنهج له تأصيلٌ في الدراسات الإسلامية، فقد عرفه أهل العلم بالشريعة الإسلامية بأنه "استخراج دقائق المعاني وحقائق الحكمة من آيات الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم"^٤، وهو المنهج المتبع في الدراسة في مصادر التشريع الإسلامي، واستخدام هذا المنهج يساعد الباحث على التأمل في الأحاديث النبوية الواردة في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ودراستها دراسة تأملية مقاصدية متأنية، للوصول من خلالها إلى المضامين التربوية المتضمنة في تلك الأحاديث، والإفادة منها في مجالات ومحاور التربية المختلفة.

❖ سابعاً: حدود الدراسة:

حدّد الباحث دراسته بالحدود التالية:

- ❖ أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة المثبتة في كتاب "الجامع الصحيح" للإمام البخاري رحمه الله.
- ❖ اقتصرت الدراسة على استنباط بعض المضامين التربوية من أحاديث الكتاب؛ وهي: المضامين الفردية، والاجتماعية.

^١ صالح العساف: المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، ١٤١٦هـ، مكتبة العبيكان، الرياض، ص ٢٠٦.

^٢ حلمي فودة، عبد الرحمن صالح: المرشد في كتابة البحوث التربوية، ١٤٠٨هـ، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٤٣.

^٣ مقداد الجرن: مناهج البحث وتطبيقاتها في التربية الإسلامية، ١٤١٩هـ، عالم الكتب، الرياض، ص ٢٢.

^٤ محمد توفيق سعد: سبل الاستنباط من الكتاب والسنة، ١٤١٣هـ، مطبعة الأمانة، مصر، ص ١٥.

❖ ثامناً: مصطلحات الدراسة:

١. المضامين:

في اللغة قال ابن فارس "الضاد والميم والنون أصل صحيح، وهو جعل الشيء في شيء يحويه، ومن ذلك قولهم: ضمنت الشيء؛ إذا جعلته في وعائه"^١.
والمضامين "ما في بطون الحوامل من كل شيء كأهْن تَضَمَّنَه، وهي جمع مضمون. ويقال: ضَمَّن الشيء بمعنى تَضَمَّنَه، ومنه قولهم: مضمون الكتاب كذا وكذا"^٢.
وقيل "المُضَمَّنُ من البيت ما لا يتم معناه إلا بالذي يليه، وفهمت ما تَضَمَّنَه كتابك: أي ما اشتمل عليه وكان في ضمنه"^٣.

"فالمضمون هو المحتوى، ومنه مضمون الكتاب ما في طيِّه، ومضمون الكلام فحواه"^٤.

وهذا المعنى أقرب المعاني وأنسبها للمراد بكلمة المضامين في هذا البحث.

والمضامين التربوية اصطلاحاً:

هي "جملة المفاهيم والأساليب والخبرات العملية التي من شأنها أن تكون مقومات أساسية للعملية التربوية المقصود بها بناء شخصية الإنسان"^٥.

ومراد الباحث بالمضامين التربوية في هذه الدراسة: ما اشتملت عليه الأحاديث النبوية في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري من توجيهات تربوية ودلالات منهجية في الجوانب المتعلقة بالفرد والمجتمع، التي تُسهم في تربية المسلم وتوجيهه في رسالة الحياة.

^١ أحمد بن فارس بن زكريا الرازي: معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد هارون، (د.ت)، دار الجليل، بيروت، ج٣، ص٣٧٢، مادة (ضمن).

^٢ محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الأفرريقي: لسان العرب، ١٤١٦هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٨، ص٩٠، باب الضاد - مادة (ضمن).

^٣ محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، ١٤٢٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ص١٩٢، باب الضاد مع النون، مادة (ضمن).

^٤ إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، ١٤٠٠هـ، دار المعرفة، القاهرة، باب الضاد، ج١، ص٥٤٥.

^٥ آمال حمزة المرزوقي: مضامين تربوية في سورة البقرة، ١٩٩٥م، مجلة دراسات تربوية، ج١٠، جزء ٧١، ص١٦٥.

٢. الاعتصام:

(عصم) العِصْمَةُ في كلام العرب المَنْعُ وَعِصْمَةُ اللَّهِ عِبْدَهُ أَنْ يَعْصِمَهُ مِمَّا يُؤْبِقُهُ عَصَمَهُ يَعْصِمُهُ عَصْمًا مَنَعَهُ وَوَقَاهُ وَفِي التَّنْزِيلِ ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ (سورة هود، آية: ٤٣)، أي لا مَعْصُومَ إِلَّا الْمَرْحُومُ^١، ويقول الجرجاني "العصمة ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها"^٢. والاعتصام "هو الامتناع بالشيء والاحتماء به، والعصم: هو المنع، فكل مانع شيئاً فهو عاصمه، والممتنع به معتصم به"^٣.

٣. الكتاب:

والمراد بالكتاب القرآن الكريم وهو "كلامه سبحانه، وهو القرآن الذي نزل به جبريل عليه السلام منجماً على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ونقل إلينا بالتواتر لتتعبد الله بتلاوته وأحكامه، وكان آية دالة على صدقه فيما ادعاه من الرسالة، ومعناه في اللغة: الجمع والضم، وقد صار علماً بالغلبة على الكتاب العزيز في عرف الشرع، وهو معجز بنظمه وبيانه ومعانيه وعلومه ومعارفه وتشريعه وصيانتة لحقوق الإنسان وكونه يحمل الحقائق العلمية وتاريخ البشرية واستشراف مستقبلها وفصل ما بينها. والقرآن الكريم، هو أساس الدين ومصدر التشريع، وحجة الله البالغة في كل عصر ومصر وبدأ مع نزول أول آية على محمد صلى الله عليه وسلم (اقرأ)، وكان منه التشريع المكّي والتشريع المدني ولكل منهما خصائصه وسماته.

٤. السنة:

والمراد بالسنة في اللغة هي الطريقة والسير، سواءً كانت محمودة أم مذمومة، وقد ورد استعمالها في القرآن الكريم، وفي الحديث النبوي بهذا المعنى. وفي اصطلاح الأصوليين: ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم غير القرآن من قول أو فعل أو تقرير. وفي اصطلاح المحدثين: ما أُرث عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة أو سيرة.

^١ ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص٢٤٤.

^٢ علي بن محمد الجرجاني: التعريفات، ط٤، ١٤١٨هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ص١٩٥.

^٣ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن ج٧، ص٦٢-٦٣.

وقد اعتنت الأمة الإسلامية بما عناية فائقة، فحفظوها وكتبوها، ورواها كل عن الآخر حتى جاء بعضها متواتراً باللفظ والمعنى، أو بالمعنى فقط، متصلاً ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا من خصائص الأمة المحمدية وحدها.

والسنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وتلي مرتبتها كتاب الله^١. والمراد بالاعتصام بالكتاب والسنة الاحتماء بهما من كل فتنة، والالتجاء إليهما عند كل اختلاف، والتحاكم بهما في كل فرقة وخصام، حتى يُمنع من التعدي والظلم والبغي والاختلاف والتفرق المذموم.

❖ تاسعاً: الدراسات السابقة:

بعد البحث في المكتبة التربوية، ومصادر البحث العلمية، من خلال الاتصال بمعهد البحث العلمي في جامعة أم القرى، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وفهارس مكتبة الملك فهد الوطنية؛ تبين أن استنباط المضامين التربوية من أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري لم يسبق دراسته من قبل بهذه الوجهة التربوية المتخصصة، وأن ما وجدته من الدراسات ذات الصلة أو العلاقة كانت على النحو التالي:

أ- دراسة محمد بن سعيد بافيل، بعنوان: المضامين التربوية المستنبطة من أحاديث كتاب الفتن من صحيح الإمام البخاري^٢.

وتهدف هذه الدراسة إلى استنباط المضامين التربوية المتعلقة بالجانب التعبدي، والجانب الأخلاقي، والجانب الاجتماعي، وبيان الآثار التربوية لتلك المضامين على سلوك المسلم وأحواله المختلفة، وقد استخدم الباحث في دراسته المنهج الوصفي العلمي المستند إلى التحليل، والمنهج الاستنباطي التأملي، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة ما يلي:

١. غزارة السنة النبوية وراثتها بالمضامين التربوية والتوجيهات المنهجية التي تصلح شؤون الفرد وأحواله، وتضبط علاقته مع ربه ومع نفسه ومع سائر المخلوقات.

^١ مناع القطان: تاريخ التشريع الإسلامي، ط ١٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ، ص ٣٧ - ٧٥.

^٢ محمد بن سعيد بافيل: المضامين التربوية المستنبطة من كتاب الفتن من صحيح البخاري، ١٤٢٦هـ، رسالة ماجستير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

٢. لزوم جماعة المسلمين واجب حتمي على كل مسلم، لا يحق له أن يخلّ به، مادام لهم إمام موافق للكتاب والسنة.
- ومن أهم المقترحات التي قدمتها دراسة بافيل:
١. توجيه الدراسات العلمية في أحاديث المصطفى ﷺ لاستخراج كنوزها التربوية، واكتشاف توجيهاتها النفيسة، ورسم المناهج والنظريات التربوية على أساسها.
 ٢. أن تساهم وسائل الإعلام المختلفة في ترسيخ الإيمان بالغيب في نفوس المسلمين، وتربيتهم على مقتضياته من التسليم والإتباع، وتفقيهم فيما يتعين عليهم وقاية لهم من المواقف المنحرفة أو المعتقدات الضالة الزائفة.

ب- دراسة سعاد بنت سعيد الزهراني، بعنوان: **المبادئ التربوية المتضمنة في كتاب الأدب من صحيح الإمام البخاري**^١.

- وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز المبادئ التربوية من أحاديث كتاب الأدب من صحيح البخاري، وبيان دور الأسرة في تطبيق تلك المبادئ التربوية، وقد استخدمت الباحثة المنهج الوصفي والمنهج الاستنباطي، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة ما يلي:
١. إن الاختلاط بين الشعوب الإسلامية بمختلف ثقافتها له أثر كبير على التقدم العلمي وهذا ما اتضح في عصر الإمام البخاري، حيث ظهر تقدم المسلمين في مختلف العلوم.
 ٢. إن تطبيق المسلمين في العصور الإسلامية لمبادئ التربية الإسلامية كان سبب من أسباب انتشار الإسلام في مختلف الأمصار واتساع رقعته، فلم ينتشر بحد السيف بل بتطبيق أهله لمبادئه السمحة.

ومن أهم المقترحات التي قدمتها دراسة سعاد الزهراني:

١. إقرار مادة تحوي المبادئ التربوية الإسلامية داخل مناهج الطلاب في جميع المراحل الدراسية ابتداء من المرحلة الابتدائية وحتى المرحلة الجامعية، وعرضها بما يتناسب مع كل مرحلة، وبأسلوب يساعد على تأصيلها في نفوس الطلاب، والتأثير عليهم لتطبيقها.
٢. أن يتم اختيار المعلم وفق معايير معينة تراعي تطبيقه لمبادئ التربية الإسلامية ليكون قدوة صالحة للتلاميذ.

^١ سعاد بنت سعيد الزهراني: **المبادئ التربوية المتضمنة في كتاب الأدب من صحيح البخاري**، ١٣٢٦هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

ت- دراسة مروان بن محمد الحازمي، بعنوان: المضامين التربوية المستنبطة من بعض الأسئلة والأجوبة النبوية من خلال صحيح البخاري^١.

وتهدف هذه الدراسة إلى استنباط المضامين التربوية المتعلقة بالجانب التعبدية، وجانب المعاملات، والجانب الأخلاقي، وتطبيق تلك المضامين في المؤسسات التربوية، وقد استخدم الباحث في دراسته المنهج الاستنباطي، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة ما يلي:

١. جعل الإسلام الترغيب والترهيب عنصراً مهماً لتربية النفس في معظم مناحيها وأسلوباً ناجحاً في تقويمها حتى لا تنحدر ساقطة في مغريات الحياة الدنيا.

٢. أن الأزمنة المتأخرة سوف تعيش حالة من الاضطراب في الموازين والذي ينجم عنه فساد في المبادئ والأخلاق.

ومن أهم المقترحات التي قدمتها دراسة الحازمي:

١. التعمق في دراسة الأحاديث النبوية لاستخراج الآداب الاجتماعية التربوية من مكنونها.

٢. إجراء دراسات علمية حول الأسئلة النبوية وتصنيفها على ضوء الأسئلة في العصر الحديث.

ث- دراسة عوض بن ردة السعدي، بعنوان: المبادئ التربوية المستنبطة من الأربعين النووية^٢.

وتهدف هذه الدراسة إلى استنباط المضامين التربوية المتعلقة بالجانب الروحي والجانب الجسدي، والجوانب الأخلاقية الفردية والاجتماعية، وقد استخدم الباحث في دراسته المنهج التحليلي الاستنباطي، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة ما يلي:

١. اشتغال الأربعين النووية على مبادئ لا غنى لكل مسلم عنها؛ لاشتمالها على جميع جوانب الحياة المختلفة الدينية والدنيوية.

٢. أهمية العناية بشرح الحديث الشريف بما يلائم ظروف العصر، بحيث لا يخرج الشرح عن المعنى الجوهرية للحديث الذي نص عليه.

ومن أهم المقترحات التي قدمتها دراسة السعدي:

^١ مروان بن محمد الحازمي: المضامين التربوية المستنبطة من بعض الأسئلة والأجوبة النبوية، ١٤٢٥هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

^٢ عوض بن ردة السعدي: المبادئ التربوية المستنبطة من الأربعين النووية، ١٤٠٨هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

١. ضرورة استخراج التربية من القواعد الأساسية للتربية (القرآن والسنة).
٢. دراسة الجوانب التربوية الإسلامية في الحديث الشريف وبيان ما تشتمل عليه من آداب تحقق مفهوم الولاء لله ورسوله.

ج- دراسة محمد بن عبد العزيز الحلاف، بعنوان: نماذج من المبادئ التربوية المستنبطة من الأحاديث القدسية^١.

وتهدف هذه الدراسة إلى استنباط نماذج من المبادئ التربوية من الأحاديث القدسية المتعلقة بالجوانب الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية، والتعريف بها، وإبراز الآثار المترتبة عليها في حياة الإنسان، واعتمد الباحث في دراسته على المنهج الاستنباطي التحليلي للأحاديث القدسية في صحيح البخاري، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة ما يلي:

١. أن الأحاديث القدسية اشتملت على عددٍ من المبادئ التربوية التي لا غنى لكل مسلم عنها، فشملت الجانب الروحي والأخلاقي والاجتماعي، ودعت إلى التمسك بفضائل الأخلاق.
 ٢. لقد احتوى القرآن الكريم على الإطار النظري في تربية الإنسان، وجاءت السنة النبوية بالإطار التطبيقي لهذه التربية.
- ومن أهم المقترحات التي قدمتها دراسة الحلاف:
١. ضرورة العمل على تأصيل المناهج الدراسية في مختلف المراحل التعليمية تأصيلاً إسلامياً مرتبطاً بالكتاب والسنة.
 ٢. وجوب الاهتمام بدراسة الأحاديث النبوية، ووضعها في إطار مناهج الدراسة في مراحلها المختلفة.

■ علاقة الدراسة الحالية بالدراسات السابقة:

يمكن معرفة هذه العلاقة من خلال النقاط التالية:

(أ) أوجه الشبه:

- تتشابه الدراسات السابقة مع هذا البحث في موضوع الدراسة، إذ أنها جميعها عُنيت بدراسة الأحاديث النبوية.

^١ محمد بن عبد العزيز الحلاف: نماذج من المبادئ التربوية المستنبطة من الأحاديث القدسية من خلال صحيح

البخاري، ١٤١١هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

- وتتشابه دراسة محمد بافيل وسعاد الزهراني ومروان الحازمي في أنها بحثت تحديداً في صحيح الإمام البخاري رحمه الله كما هو الحال في هذه الدراسة.
- وتتشابه دراسة محمد بافيل ودراسة محمد الحلاف مع هذا البحث في مجال المضامين التربوية الاجتماعية.
- اتفقت جميع الدراسات السابقة مع هذا البحث في المنهج المستخدم فيها؛ حيث استخدم الجميع المنهج الاستنباطي (تحليل المحتوى). وهو ما حُدد لهذه الدراسة.

ب) أوجه الاختلاف:

- اختلفت الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة من حيث تحديد موضوع الدراسة؛ فدراسة محمد بافيل موضوعها المضامين التربوية (التعبدية والاجتماعية والأخلاقية)، ودراسة سعاد الزهراني موضوعها المبادئ التربوية التي لها دور في مجال الأسرة وتطبيقاتها التربوية عليها، ودراسة مروان الحازمي موضوعها المضامين التربوية (التعبدية والمعاملات والأخلاقية)، ودراسة عوض السعدي المضامين التربوية (الروحية والجسدية والأخلاقية الفردية والاجتماعية)، ودراسة محمد الحلاف نماذج من المبادئ التربوية (الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية)، بينما تبحث هذه الدراسة عن المضامين التربوية (الفردية والاجتماعية).
- كما اختلفت هذه الدراسة في الأحاديث موضع الدراسة، فقد تناولت دراسة محمد بافيل أحاديث كتاب الفتن من صحيح البخاري، ودراسة سعاد الزهراني أحاديث كتاب الأدب من صحيح البخاري، ودراسة مروان الحازمي الأحاديث المتضمنة على الأسئلة والأجوبة النبوية من صحيح البخاري، ودراسة عوض السعدي أحاديث الأربعين النووية، ودراسة محمد الحلاف الأحاديث القدسية.
- أما هذه الدراسة فقد تناولت أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري.

ج) مدى الاستفادة من الدراسات السابقة:

١- دراسة محمد بافيل:

- امتازت بحسن تنظيمها وجودة عرضها، وكونها تخدم الباحث في بعض المواضيع المتعلقة بلزوم جماعة المسلمين، ووجوب العدل ومنع أسباب العدوان.

٢- دراسة سعاد الزهراني:

استفاد منها الباحث في بعض المواضيع كمبدأ الحياء ومبدأ الرحمة ومبدأ الحلم ومبدأ التواضع، وما لتلك المبادئ من آثار، ووفرة النصوص الشرعية في ثناياها.

٣- دراسة مروان الحازمي:

اعتنت بالجانب الأخلاقي واستفاد منها الباحث في مضمون الرحمة وآثاره وتطبيقاته التربوية على الأسرة والمدرسة والمسجد ووسائل الإعلام.

٤- دراسة عوض السعدي:

اهتم فيها الباحث بالحديث عن الجانب الروحي والجانب الجسدي والجوانب الأخلاقية الفردية والاجتماعية، وأفاد منها الباحث فيما يتعلق بالجوانب الفردية والاجتماعية.

٥- دراسة محمد الحلاف:

استفاد منها الباحث في طريقة عرض المبادئ الاجتماعية، ومنهجية الاستنباط من الأحاديث القدسية.

الفصل الأول

ترجمة الإمام البخاري وكتابه الجامع الصحيح

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: حياة الإمام البخاري رحمه الله.

المبحث الثاني: نبذة عن كتاب الجامع الصحيح:

المبحث الأول: حياة الإمام البخاري

أولاً: اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه^١ الجعفي^٢، أسلم المغيرة على يد اليمان الجعفي والي بخاري، وكان مجوسياً، وقد طلب إسماعيل بن إبراهيم العلم، قال البخاري "سمع أبي من مالك بن أنس، ورأى حماد بن زيد وصافح ابن المبارك بكلتا يديه"^٣. قال الإمام السبكي "كان والده أبو الحسن إسماعيل بن إبراهيم من العلماء الورعين... روى عنه أحمد بن حفص، وقال دخلت عليه عند موته فقال: لا أعلم في جميع مالي درهماً من شبهة، قال أحمد بن حفص: فتصاغرت إلى نفسي عند ذلك"^٤، وبصلاح وورع والده كان إمامنا من العلماء الورعين الذين ملئوا الدنيا علماً وعملاً فرحمهما الله رحمة الأبرار وجزاهما عن سنة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم خير الجزاء.

^١ وقد اختلف في ضبط اسم جده الأعلى (بردزبه)، وقد ضبطه الأمير بن ماكولا بباء موحدة مفتوحة ثم راء ساكنة ثم دال مهملة مكسورة، ثم زاي ساكنة ثم باء موحدة ثم هاء. الحافظ الأمير علي بن هبة الله أبي نصر بن ماكولا: الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، ط ٢، ١٩٩٣م، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج ١، ص ٢٥٩. وقال ابن حجر "هذا هو المشهور في ضبطه". الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: هدي الساري مقدمة فتح الباري، ط ٢، ١٤٠٩هـ، دار الريان، القاهرة، ص ٥٠١. وقال الذهبي في السير "محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه، وقيل بذرزبه". محمد بن أحمد الذهبي: سير أعلام النبلاء، ط ٨، ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج ١٢، ص ٣٩١. وكذا ضبطه المزي، أبو الحجاج يوسف المزي: تذيب الكمال في أسماء الرجال، ١٤١٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج ٢٤، ص ٤٣٠. وبردزبه بالفارسية الزرّاع كذا يقوله أهل بخارى. ابن حجر، هدي الساري، ص ٥٠١.

^٢ والبخاري قيل له جَعْفِي لأن أبا جده أسلم على يدي أبي عبد الله المسندي "يمان" ويمان جعفي فنسب إليه لأنه مولاه من فوق، أحمد بن علي الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٢، ص ٦.

^٣ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٣٩٢.

^٤ عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، (د.ت)، دار إحياء الكتب العربية، دمشق، ج ٢، ص ٢١٣.

ثانياً: مولده وصفاته الخلقية:

ولد الإمام البخاري يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر شوال سنة أربع وتسعين ومائة (١٩٤هـ).^١ وكان رحمه الله شيخاً نحيفاً ليس بطويل ولا قصير (يميل) إلى السمرة^٢، وقد أبتلي أماننا رحمه الله رحمةً واسعةً بفقد بصره في صغره ولكن الله نور بصيرته وأكرمه برد بصره وذلك بسبب صلاح أمه وتعلقها بالله، روى القاضي أبي يعلى في طبقات الحنابلة قال: "ذهبت عينا محمد بن إسماعيل في صغره فرأت والدته في المنام إبراهيم الخليل عليه السلام فقال: لها يا هذه قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك ولكثرة دعائك قال: فأصبح وقد رد الله عليه بصره"^٣، وهذا من بركة صلاح الآباء على أبنائهم، نسأل الله من واسع فضله.

ثالثاً: نشأته وصفاته الخلقية:

كان والدا الإمام البخاري رحمهم الله من أهل الصلاح والعلم والفضل، وكان لصلاح الوالدين الأثر في صلاح الابن المبارك، ففي هذه البيئة الصالحة نشأ الإمام البخاري رحمه الله محباً للخير مقبلاً على العلم ورعاً تقياً عفيفاً، وكان "أول سماعه للحديث سنة خمس ومائتين وحفظ تصانيف ابن المبارك وهو صبي ونشأ يتيماً ورحل مع أمه وأخيه سنة عشر ومائتين بعد أن سمع مرويات بلده من محمد بن سلام والمسندي ومحمد بن يوسف البيكندي... شدا وصنّف وحدّث وما في وجهه شعرة، وكان رأساً في الذكاء، رأساً في العلم، ورأساً في الورع والعبادة"^٤، وقد كانت بداية طلبه للعلم رحمه الله في الكُتّاب، مثنياً ركبتيه بين يدي العلماء، متزيناً بالأدب، ومتجملٌ بالأخلاق النبوية، وناصحٌ لله ولرسوله فيما يتعلمه لا يخشى في الله لومة لائم، قال أبو جعفر محمد بن أبي حاتم الوراق النحوي: "قلت لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث؟ قال: أُلهمت حفظ الحديث وأنا في الكُتّاب، قال: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ قال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت

^١ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٦.

^٢ محمد بن أحمد الذهبي: تذكرة الحفاظ، (د.ت)، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٢، ص ٥٥٥. والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٦.

^٣ القاضي محمد بن أبي يعلى البغدادي الحنبلي: طبقات الحنابلة، ١٤٢٥هـ، مكتبة العبيكان، الرياض، ج ٢، ص ٢٥١.

^٤ شمس الدين الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ٢، ص ٥٥٥.

من الكُتَّاب بعد العشر فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، وقال يوماً: فيما كان يقرأ للناس سُفَيَّان عن أبي الزبير عن إبراهيم. فقلت له يا أبا فلان إن أبا الزبير لم يروه عن إبراهيم. فانتهرني. فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل ونظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت هو الزبير بن عدي بن إبراهيم. فأخذ القلم مني وأحكم كتابه فقال صدقت. فقال له بعض أصحابه ابن كم كنت إذ رددت عليه؟ فقال ابن إحدى عشرة، فلما طعنت في ست عشرة سنة حفظت كتب بن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء^١.

وبهذه المواقف تتجسد شخصية هذا العالم الفذ الذي ملأ الدنيا علماً وأخلاقاً وإتباعاً لهدي سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، وتظهر آثار إخلاصه في بقاء علمه والذكر الجميل له بعد موته، قال عنه ابن خزيمة: "وقد كان البخاري رحمه الله في غاية الحياء والشجاعة والسخاء والورع والزهد في الدنيا دار الفناء والرغبة في الآخرة دار البقاء"^٢، وكان رحمه الله عفيف اللسان يتحرى الدقة والصدق في كل ما يقوله وينقله، يقول عن نفسه "إني لأرجو أن ألقى الله ليس أحد يطالبني أني اغتبتة"^٣، بل كان يقول "ما اغتبت أحداً قط منذ علمت أن الغيبة حرام"^٤. وكان من شدة ورعه وخشيته لله لا يتكلم في أحد بما فيه صراحةً عند كلامه عن الرجال، وإنما يُعرض ويُكفي، قال أبو جعفر محمد بن يوسف الوراق "والبخاري في كلامه على الرجال تَوَقُّ زائد وتَحَرُّ بليغ يظهر لمن تأمل كلامه في الجرح والتعديل فإن أكثر ما يقول سكتوا عنه فيه نظر تركوه ونحو هذا وَقَلَّ أن يقول كذاب أو وضَّاع وإنما يقول كذَّبه فلان رماه فلان يعني بالكذب"^٥، وما ذاك إلا من ورعه وتقواه وتمسكه بهدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يتمثله قولاً وعملاً "قال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعته _يعني البخاري_ يقول: لا يكون لي خصم في الآخرة، فقلت: إن بعض الناس ينقمون

^١ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٧.

^٢ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي: البداية والنهاية، ط ٢، ١٤١٧هـ، دار المعرفة، بيروت ج ١١، ص ٢٩.

^٣ ابن كثير، المرجع السابق، ج ١١، ص ٢٩.

^٤ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥٠٤.

^٥ ابن حجر، المصدر السابق، ص ٥٠٤.

عليك في كتاب " التاريخ " ويقولون: فيه اغتياب الناس، فقال: إنما روينا ذلك رواية لم نقله من عند أنفسنا، قال النبي صلى الله عليه وسلم "بئس أخو العشيرة" ^١ يعني: حديث عائشة ^٢.

ومن صور ورعه وزهده ووفائه بالعهد رحمه الله رحمة الأبرار ما نقله أبو سعيد بكر بن منير قال: "كان حُمِلَ إلى محمد بن إسماعيل بضاعة أنفذها إليه فلان، فاجتمع بعض التجار إليه بالعشية فطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم فقال لهم انصرفوا الليلة، فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه تلك البضاعة بربح عشرة آلاف درهم فردهم وقال إني نويت البارحة أن أدفع إلى الذين طلبوا أمس بما طلبوا أول مرة فدفعتها إليهم بما طلبوا يعني الذين طلبوا أول مرة ودفع إليهم بربح خمسة آلاف درهم، وقال: لا أحب أن أنقض نيتي" ^٣، فهذه أخلاق العلماء الصادقين المخلصين الذين تجردوا لله ولم يحجبهم عن الله وأنوار العلم أطماع النفوس وأهواء الشياطين، وكما قيل فإن لكل شيء آفة، وآفة العلم الهوى والحرص، ومع غناه رحمه الله فإن التقوى كانت صفته وأخلاقه، وهي التي نال بسببها العلم كما قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٨٢)، وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ (سورة الحديد، آية: ٢٨)، فمن ذلك ما رواه علي بن محمد بن منصور قال "سمعت أبي يقول: كنا في مجلس أبي عبد الله محمد بن إسماعيل فرفع إنسان من لحيته قذاة فطرحها على الأرض، قال: فرأيت محمد بن إسماعيل ينظر إليها وإلى الناس فلما غفل الناس رأيت مد يده فرفع القذاة من الأرض فأدخلها في كفه، فلما خرج من المسجد رأيت أخرجها فطرحها على الأرض" ^٤، وما ذاك إلا لتقواه وتعظيمه لبيوت الله تبارك وتعالى القائل جل في علاه ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْكُمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (سورة الحج: آية: ٣٢)، وبركة العلم وصدق الطلب كان إمامنا رحمه الله متواضعاً لين الجانب سمحاً كريماً ومن ذلك ما رواه "محمد بن أبي حاتم قال: كنا بفربر^٥ وكان أبو عبد الله يبي رباطاً مما

^١ أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً، حديث رقم (٦٠٣٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب مداراة من يتقى فحشه، حديث رقم (٢٥٩١).

^٢ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٤٤١.

^٣ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ١٢.

^٤ الخطيب البغدادي، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٣.

^٥ فربر: بكسر أوله وقد فتحه بعضهم وثانيه مفتوح ثم باء موحدة ساكنة وراءه . بليدة بين جيحون وبخارى بينها وبين جيحون نحو الفرسخ وكان يعرف برباط طاهر بن علي، وقد خرج منها جماعة من العلماء والرواة، منهم: محمد بن يونس الفربري راوية صحيح محمد بن إسماعيل البخاري يقال: سمع الجامع من البخاري سبعون ألفاً لم يبق

يلي بخارى فاجتمع بشر كثير يعينونه على ذلك وكان ينقل اللبن فكنت أقول له يا أبا عبد الله إنك تُكفَى ذلك فيقول هذا الذي ينفعني، قال: وكان ذبح لهم بقرة فلما أدركت القدر دعا الناس إلى الطعام فكان معه مائة نفس أو أكثر ولم يكن علم أنه يجتمع ما اجتمع وكنا أخرجنا معه من فربر خبزاً بثلاثة دراهم وكان الخبز إذ ذاك خمسة أمان^١ بدرهم فألقيناه بين أيديهم فأكل جميع من حضر وفضلت أرغفة صالحة، وقال: وكان قليل الأكل جداً كثير الإحسان إلى الطلبة مفرط الكرم^٢، ولا عجب من أخلاق من تربى وتنشأ على العلم فكما قيل العلم ثلاثة أشبار من غاص في الشبر الأول تكبر ومن غاص في الشبر الثاني تواضع ومن غاص في الشبر الثالث علم أنه لا يعلم شيئاً وأدرك معنى قوله تعالى ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء: آية: ٨٥)، وصور كرم الإمام البخاري كثيرة ومآثره جمّة يقول عنه محمد بن أبي حاتم "وكان يتصدق بالكثير، يناول الفقير من أصحاب الحديث ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقل وأكثر من غير أن يشعر بذلك أحد، وكان لا يفارقه كيسه"^٣.

وما بلغ الإمام أبو عبد الله هذه المنزلة في الكرم وحب الباقي على الفاني إلا ببركة العلم، ومعرفته بحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، كما قال الله تعالى حاكياً عن المؤمنين من قوم قارون ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (سورة القصص، آية: ٨٠)، ولذلك كان يقول رحمه الله كما حكاه محمد بن أبي حاتم "وسمعتة يقول: كنت أستغل كل شهر خمس مئة درهم، فأنفقت كل ذلك في طلب العلم، فقلت: كم بين من ينفق على هذا الوجه، وبين

أحد منهم سوى الفريري، وروى أيضاً عن علي بن خشرم المروزي روى عنه أبو زيد القاشاني وأبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن حنبل السرخسي وغيرهما ومات في ثالث شوال سنة ٣٢٠هـ ومولده سنة ٢٣١هـ ومحمد بن علي بن عبد العزيز بن إبراهيم الكرابيسي ثم الفريري أبو البشر المعروف بالصغير فقيه صالح سمع أبا محمد عبد الكريم بن زكرياء بن سعيد الحافظ وأبا نصر أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد الرّيغدموني أجاز لأبي سعد وكانت ولادته في = سنة ٤٧٠هـ وتوفي في أوائل سنة ٥٤٩هـ بفربر فرييا: من قرى عسقلان. ينسب إليها أبو الغنائم محمود بن الفضل بن حيدر بن مطر الفريياني المطري لقيه السلفي وسمع الحديث عليه وعلى غيره. ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، ط ٨، ٢٠١٠م، دار صادر، بيروت، ج ٤، ص ٢٤٥-٢٤٦، باب الفاء والراء وما يليهما.

^١ المُنُّ: كيل أو ميزان، أو رطلان، كالمُنَّا: أماناً، وجمع المُنَّا: أماناء. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ط ٢، ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، باب النون- فصل الميم، ص ١٥٩.

^٢ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥٠٥.

^٣ محمد بن أحمد الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط ٢، (د.ت)، دار الكتاب العربي، بيروت، حوادث ووفيات ٢٥١-٢٦٠، ص ٢٦٤.

من كان خلوا من المال، فجمع وكسب بالعلم حتى اجتمع له، فقال أبو عبد الله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (سورة الشورى، آية: ٣٦)^١.

ومن صور سماحته وكظمه للغضب وعفوه وإحسانه رحمه الله أنه جاءته جارية، وأرادت دخول المنزل، فعثرت على محبرة بين يديه فقال لها: كيف تمشين؟ قالت: إذا لم يكن طريق كيف أمشي؟ فبسط يديه وقال: اذهبي فقد أعتقتك. فقيل له: يا أبا عبد الله قد أغضبتك، قال: أَرْضَيْتَ نَفْسِي بِمَا فَعَلْتُ^٢، وما تلك الأخلاق العالية إلا ترجمة عملية ومثال حي لما تعلمه الإمام البخاري عليه رحمة الله، حيث ضمن صحيحه في كتاب الأدب "باب الحذر من الغضب"، وأورد فيه قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (سورة الشورى، آية: ٣٧)، وقوله تعالى ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٣٤)، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^٣ فكظم الغيظ مرتبة عالية، وأعلى منها العفو، وأعلى منها وأشرف الإحسان إلى من أغضبك كما فعل إمامنا رحمه الله، متمسكاً ومعتصماً بالكتاب والسنة، فرحمة الله على العلماء الذين يربون الناس بأفعالهم قبل أقوالهم.

ومن صور عبادته وخشيته لله رحمه الله ما رواه مسبِّح بن سعيد قال "كان محمد بن إسماعيل البخاري إذا كان أول ليلة من شهر رمضان يجتمع إليه أصحابه فيصلي بهم ويقرأ في كل ركعة عشرين آية وكذلك إلى أن يختم القرآن، وكان يقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث من القرآن فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال"^٤، وكذلك قوله رحمه الله "ما اغتبت أحداً قط منذ علمت أن الغيبة تضر أهلها"^٥، وكان رحمه الله من المسارعين في الخيرات وعلى رأس ذلك الصلاة التي هي الصلة بين العبد وربّه، قال محمد بن أبي حاتم "وكان يصلي وقت السحر ثلاث عشرة ركعة، وكان لا

^١ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٤٤٩.

^٢ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥٠٤.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم (٦١١٤).

^٤ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ١٢.

^٥ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٤٤١.

يوقظني في كل ما يقوم، فقلت له: أراك تحمل على نفسك في كل هذا، ولا توقظني، قال: أنت شاب، ولا أحب أن أفسد عليك نومك^١.

ومن القصص التي تدل على تعلق هذا العالم الرباني بالله وعدم التفاته إلى ما دون ذلك أنه "دُعِيَ إلى بستان بعض أصحابه، فلما حضرت صلاة الظهر صَلَّى بالقوم، ثم قام للتطوع، فأطال القيام فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه، فقال لبعض من معه: انظر هل ترى تحت قميصي شيئاً؟ فإذا زُنبور قد أبره في ستة عشر أو سبعة عشر موضعاً وقد تورم من ذلك جسده، فقال له بعضهم: كيف لم تخرج من الصلاة أول ما أبرك؟ فقال: كنت في سورة فأحببت أن أتمها^٢. كما كان رحمه الله يحب كثرة التصدق حيث "كانت له جدّة ومالٌ جيّد ينفق منه سراً وجهراً وكان يكثر الصدقة بالليل والنهار"^٣، وهكذا ينبغي أن تكون حياة العلماء الصادقين، طاعات وقربات إلى رب الأرض والسموات، لينالوا بذلك أوفر الحظ والجزاء في الدنيا والآخرة.

وكان أبو عبد الله قد حقق التوازن في حياته ولم يركز على الجانب الروحي فحسب بل إنه كان يهتم بالجانب الجسدي، ويجعل كل ذلك بنية العبادة لينال خيري الدنيا والآخرة، قال عنه محمد بن أبي حاتم "وكان يركب إلى الرمي كثيراً فما أعلم أي رأيت في طول ما صحبته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين بل كان يصيب في كل ذلك ولا يُسبق"^٤، بل إنه رحمه الله كان في اهتمامه بالجانب البدني لنية الإعداد لأعظم عبادة بعد الصلاة وبر الوالدين، ألا وهي ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله قال عنه محمد بن أبي حاتم: "ورأيت استلقى على قفاه يوماً ونحن بفربر في تصنيف التفسير وكان أتعب نفسه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث فقلت له: يا أبا عبد الله سمعتك تقول يوماً إني ما أتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت فأبي علم في هذا الاستلقاء؟ فقال: أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم وهذا ثغر من الثغور خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو فأحببت أن أستريح وأخذ أهبة ذلك فإن غافصنا العدو كان بنا حراك"^٥.

^١ تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٢٠.

^٢ أبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٤٤٧.

^٣ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٠.

^٤ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥٠٤.

^٥ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ١٤.

وتمثل تلك التربية الإيمانية العظيمة المتكاملة في شتى مناحي الحياة، والمتوازنة لكل متطلبات الجسد والروح، بلغ ما بلغ به إمامنا وغيره من أئمة السلف رحمهم الله رحمة الأبرار وأسكنهم فسيح الجنان وجمعنا الله بهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

رابعاً: حياته العلمية:

رحل الإمام البخاري رحمه الله في طلب العلم إلى أكثر محدثي الأمصار^١، ورحل سنة عشر ومائتين بعد أن سمع الكثير ببلده من محمد بن سلام البيكندي ومحمد بن يوسف البيكندي وعبد الله بن محمد المسندي وهارون ابن الأشعث وطائفة، ورحل إلى بلخ ومرو ونيسابور والري وبغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة وواسط ومصر ودمشق وقيسارية وعسقلان وحمص، وسمع من خلائق يطول سردهم ذكر أنه سمع من ألف نفس^٢.

ولقد كان رحمه الله في رحلته لطلب الحديث والعلم مثلاً في الصبر والتضحية والجهاد في سبيل نشر العلم وإحياء القلوب بنور وحي السنة المطهرة قال عنه أحمد بن سيّار: "ومحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي أبو عبد الله طلب العلم وجالس الناس ورحل في الحديث ومهر فيه وأبصر وكان حسن المعرفة حسن الحفظ وكان يتفقه"^٣، وكان رحمه الله حريصاً على الأخذ من أهل العلم المعروفين بعلمهم وأمانتهم حتى قال عن نفسه: "كُتبت عن ألف وثمانين نفساً ليس فيهم إلا صاحب حديث"^٤، وهذا يدل على ما بذله رحمه الله في رحلاته بين البلاد واستقصائه في طلب الصحيح من الحديث. وقد ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله مراتب شيوخ الإمام البخاري رحمه الله الذين كتب عنهم وحدث عنهم وحصرهم في خمس طبقات الطبقة الأولى من حدثه عن التابعين، والطبقة الثانية من كان في عصر هؤلاء لكن لم يسمع من ثقات التابعين، والطبقة الثالثة هي الوسطى من مشايخه وهم من لم يلق التابعين بل أخذ عن كبار تبع الأتباع وهذه الطبقة قد شاركه مسلم في الأخذ عنهم، والطبقة الرابعة رفقاؤه في الطلب ومن سمع قبله قليلاً وإنما يخرج عن هؤلاء ما فاتته عن مشايخه أو ما

^١ القاضي أبو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ٢، ص ٢٤٣.

^٢ تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢١٣-٢١٤.

^٣ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٧.

^٤ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥٠٣.

لم يجده عند غيرهم، والطبقة الخامسة قوم في عداد طلبته في السن والإسناد سمع منهم للفائدة، وقد روى عنهم أشياء يسيرة وعمل في الرواية عنهم^١.

وذكر الذهبي رحمه الله أن "أعلى شيوخه الذين حدثوه عن التابعين هم أبو عاصم، والأنصاري، ومكي بن إبراهيم، وعبيد الله بن موسى، وأبو المغيرة، ونحوهم. وأوساط شيوخه الذين رروا له عن الأوزاعي، وابن أبي ذئب، وشعبة، وشعيب بن أبي حمزة، والثوري.

ثم طبقة أخرى دونهم كأصحاب مالك، والليث، وحماة بن زيد، وأبي عوانة. والطبقة الرابعة من شيوخه مثل أصحاب ابن المبارك، وابن عيينة، وابن وهب، والوليد بن مسلم. ثم الطبقة الخامسة، وهو محمد بن يحيى الذهلي الذي روى عنه الكثير ويدلسه، ومحمد بن عبد الله المخرمي، ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة، وهؤلاء هم من أقرانه^٢.

وبكثرة شيوخ الإمام البخاري رحمه الله يظهر مدى الشغف والنهم والصبر في طلب العلم لهذا العالم الجليل الذي يقول: "لا يكون المحدث كاملاً حتى يكتب عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه"^٣.

وقد عمر الإمام البخاري رحمه الله حياته بالعلم والتعلم ولم يكن يشغله عن ذلك شاغل فعن هانئ بن النضر قال "كنا عند محمد بن يوسف يعني: الفريابي بالشام، وكنا نتنزه فعلاً الشباب في أكل الفرساد^٤ ونحوه، وكان محمد بن إسماعيل معنا، وكان لا يزاحمنا في شيء مما نحن فيه، ويكب على العلم"^٥.

ومن شدة شغفه بالعلم أنه كان يشغله عن النوم، قال محمد بن أبي حاتم: "كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القبط أحياناً فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة

^١ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥٠٣.

^٢ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٣٩٥ - ٣٩٦.

^٣ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥٠٣.

^٤ الفرساد: الفرصيدُ والفرصيدُ، بكسرهما عَجْمُ الزَّيْبِ، وَعَجْمُ الْعَنْبِ، كالفَرَصَادِ، وهو الثُّوتُ، أو حَمْلُهُ، أو أَحْمَرُهُ، وصَيْغُ أَحْمَرُ. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، باب الدال، فصل الفاء، ص ٣٩١.

^٥ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٤٠٥.

مرة إلى عشرين مرة في كل ذلك يأخذ القداحة فيوري ناراً بيده، ويسرج، ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها، ثم يضع رأسه".^١

وقد "حدّث البخاري بالحجاز، والعراق، وخراسان، وما وراء النهر، وكتب عنه المحدثون وما في وجهه شعرة"^٢، وأخذ عنه رحمه الله وتلمذ عليه خلق كثير، ومما يدل على كثرة تلاميذه ما ذكره الفريبري أنه "سمع كتاب الصحيح لمحمد بن إسماعيل تسعون ألف رجل"^٣، وقال صالح بن محمد البغدادي: "كان محمد بن إسماعيل يجلس ببغداد وكنت أستلمي له ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفاً"^٤، أمّا عن تعداد تلاميذ الإمام البخاري فكما قال الإمام النووي "وأما الآخذون عن البخاري، فأكثر من أن يحصروا، وأشهر من أن يذكروا... وممن روى عنه من الأئمة الأعلام: الإمام أبو الحسين مسلم ابن الحجاج صاحب الصحيح، وأبو عيسى الترمذي، وأبو عبد الرحمن النسائي، وأبو حاتم، وأبو زرعة الرازيان، وأبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي الإمام، وصالح بن محمد جزرة الحافظ، وأبو بكر بن خزيمة، ويحيى بن محمد بن محمد بن صاعد، ومحمد بن عبد الله مطين، وكل هؤلاء أئمة حفاظ، وآخرون من الحفاظ وغيرهم"^٥.

والإمام البخاري رحمه الله ما وصل إلى هذه المرتبة في العلم إلا لما كان يتمتع به من مواهب في الحفظ والجد والحرص ولذلك كان يُقال "أنه كان ينظر في الكتاب مرة واحدة فيحفظه من نظرة واحدة"^٦، وكان يقول رحمه الله "أحفظ مائة ألف حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح"^٧.

ولعل من أعجب ما يُذكر من قوة حفظ الإمام البخاري رحمه الله وضبطه للعلم ما رُوي أنه "قدم بغداد، فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا وعمدوا إلى مئة حديث فقبلوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفَعوا إلى عشرة أنفس إلى كل رجلٍ عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس يلقون ذلك على البخاري، وأخذوا الموعد

^١ أبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٤٤٧.

^٢ تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢١٥.

^٣ القاضي أبو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ٢، ص ٢٥٠.

^٤ أبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٤٥٢.

^٥ يحيى الدين بن شرف النووي: تهذيب الأسماء واللغات، ١٤١٦هـ، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص ٩٠ - ٩١.

^٦ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٨.

^٧ أبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٤٦١.

للمجلس، فحضر المجلس جماعة أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ومن البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجلٌ من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث، فقال البخاري: لا أعرفه. فسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه، فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول: لا أعرفه فكان الفقهاء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: الرجل فهم، ومن كان منهم غير ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الفهم. ثم انتدب رجلٌ آخر من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة، فقال البخاري: لا أعرفه، فسأله عن آخر فقال: لا أعرفه، فلم يزل يلقي عليه واحداً بعد آخر حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول: لا أعرفه. ثم انتدب له الثالث والرابع إلى تمام العشرة، حتى فرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة، والبخاري لا يزيدهم على لا أعرفه. فلما علم البخاري أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم، فقال: أما حديثك الأول فهو كذا، وحديثك الثاني فهو كذا، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة، فرد كل متن إلى إسناده، وكل إسناده إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك، ورد متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها، وأسانيدها إلى متونها، فأقرَّ له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل".^١

ولذلك أثنى العلماء رحمهم الله على الإمام البخاري رحمه الله ووصفوه كما ذكره الحاكم أبو عبد الله البخاري بأنه "إمام أهل الحديث بلا خلاف بين أهل النقل، واعلم أن وصف البخاري، رحمه الله بارتفاع المحل والتقدم في هذا العلم على الأماثل والأقران، متفق عليه فيما تأخر وتقدم من الأزمان، ويكفي في فضله أن معظم من أثنى عليه ونشر مناقبه شيوخه الأعلام المبرزون، والحذاق المتقنون".^٢ وقال عنه الإمام ابن السبكي رحمه الله: "هو إمام المسلمين، وقدوة الموحدين، وشيخ المؤمنين، والمعوَّل عليه في أحاديث سيد المرسلين، وحافظ نظام الدين".^٣

وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل "ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل البخاري".^٤ وقال نُعيم بن حماد "محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة"،^١ ويكفي في هذا الباب قول الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله في معرض ذكر من أثنى على الإمام البخاري رحمة الله على الجميع "ولو فتحت باب ثناء الأئمة عليه ممن تأخر عن عصره لفني القرطاس ونفدت الأنفاس فذاك بحر لا ساحل له".^٢

^١ أبو الحجاج المزي، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٤٥٣ - ٤٥٦.

^٢ النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، ص ٨٩.

^٣ تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢١٢.

^٤ القاضي أبو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ٢، ص ٢٥٧.

ولقد أُلّف الإمام البخاري رحمه الله مؤلفات كثيرة وتصانيف عدة، قال الحافظ ابن حجر "وهذه التصانيف موجودة مروية لنا بالسماع أو بالإجازة"^٣، ومنها ما هو مطبوع متداول ومنها ما هو مفقود، فالمطبوع منها تسعة وهي:

١. الجامع الصحيح.
٢. الأدب المفرد.
٣. خلق أفعال العباد.
٤. جزء رفع اليدين في الصلاة.
٥. جزء القراءة خلف الإمام.
٦. التاريخ الكبير.
٧. التاريخ الصغير أو الأوسط.
٨. الضعفاء الصغير.
٩. الكنى.

أما المؤلفات المفقودة فهي:

١. بر الوالدين.
٢. الجامع الكبير.
٣. المسند الكبير.
٤. التفسير الكبير.
٥. كتاب الوجدان.
٦. كتاب الأشربة.
٧. قضايا الصحابة.
٨. كتاب العلل.
٩. كتاب الهبة.
١٠. أسامي الصحابة.
١١. المبسوط.

^١ أبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٤٥٩.

^٢ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥١٠.

^٣ ابن حجر، المصدر السابق، ص ٥١٦.

١٢ . الفوائد^١.

وهذه الكتب المفقودة لم يتم العثور عليها حتى الآن رغم أن بعضها كان موجود إلى عصر الإمام ابن حجر.

وهناك كتب أخرى ورد ذكرها في تراجم الإمام البخاري في مختلف المراجع يحسن ذكرها هنا للفائدة. وهي:

- ١ . الضعفاء الكبير.
- ٢ . الكنى المجردة.
- ٣ . كتاب الاعتصام.
- ٤ . كتاب الرد على الجهمية.
- ٥ . كتاب السنن في الفقه.
- ٦ . المشيخة.
- ٧ . انتقاء البخاري من حديثه لأهل بغداد.
- ٨ . التاريخ في معرفة رواة الحديث.
- ٩ . التواريخ والأنساب.
- ١٠ . العقيدة أو التوحيد.
- ١١ . أخبار الصفات^٢.

قال الإمام البخاري رحمه الله "أفمت بالبصرة خمس سنين مع كتي أصنف وأحج في كل سنة، وأرجع من مكة إلى البصرة. قال: وأنا أرجو أن يبارك الله تعالى للمسلمين في هذه المصنفات"^٣.

خامساً: محنته ووفاته:

كان عصر الإمام البخاري رحمه الله يموج بأنواع البدع والخلافات والتعصب التي ظهرت في القرنين الثاني والثالث، وما نتج عن ذلك من بعدٍ عن هدي خير المرسلين صلى الله عليه وسلم، لذلك كله جرد الإمام البخاري نفسه للرد على كل البدع بالسنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم،

^١ ابن حجر، المصدر السابق، ص ٥١٦-٥١٧.

^٢ عبد السلام المباركفوري: سيرة الإمام البخاري، تعليق عبد العليم البستوي، ١٤٢٢هـ، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ج ١، ص ٣٠٩-٣١١.

^٣ النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، ص ٩٢.

والتأمل لكتبه رحمه الله يجد أنه قد أورد أسماء كتبه وخاصة في الجامع الصحيح رداً على كل بدعة أو مذهب مخالف للثابت من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، مورداً فيه ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل الناس على علم الإمام البخاري ومجلسه، وكان من ذلك دخول الإمام البخاري رحمه الله نيسابور سنة مائتين وخمسين فاجتمع الناس عنده، فحسده بعض أهل العلم، عن الحسن بن محمد بن جابر قال: "سمعت محمد بن يحيى (الذهلي) يقول: لما ورد محمد بن إسماعيل البخاري نيسابور قال: اذهبوا إلى هذا الرجل العالم الصالح فاسمعوا منه. قال: فذهب الناس إليه وأقبلوا على السماع منه حتى ظهر الخلل في مجالس محمد بن يحيى، فحسده بعد ذلك وتكلم فيه"^١، وفي رواية ابن حجر أنه قال لأصحاب الحديث "إن محمد بن إسماعيل يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، فلما حضر المجلس قام إليه رجل فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق هو أو غير مخلوق؟ فأعرض عنه البخاري ولم يجبه ثلاثاً، فألح عليه فقال البخاري "كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة"^٢، وقال البخاري رحمه الله: "من زعم أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب؛ فإني لم أقله إلا أني قلت: أفعال العباد مخلوقة"^٣، واشتد الأمر على الإمام حتى رجع رحمه الله إلى علماء عصره، يطلب منهم النصح والصواب والرجوع عن خطئه إن أخطأ، قال رحمه الله: "قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: أنا رجل مبتلي، قد أبتليت أن أقول لك، ولكن أقول، فإن أنكرت شيئاً فردني عنه، القرآن من أوله إلى آخره: كلام الله، ليس شيء منه مخلوق، ومن قال: إنه مخلوق، أو شيء منه مخلوق، فهو كافر، ومن زعم أن لفظه بالقرآن مخلوق، فهو جهمي كافر؟ قال: نعم"^٤، ولكن أذى محمد الذهلي اشتد على الإمام البخاري رحمه الله حتى قال: "القران كلام الله غير مخلوق من جميع جهاته وحيث يتصرف، فمن لزم هذا استغنى عن اللفظ، وعمما سواه من الكلام في القران، ومن زعم أن القران مخلوق فقد كفر، وخرج عن الإيمان، وبانت منه امرأته، يُستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وجُعِل ماله فينا بين المسلمين، ولم يدفن في مقابر المسلمين، ومن وقف وقال: لا أقول مخلوق أو غير مخلوق، فقد ضاهى الكفر، ومن زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهذا مبتدع لا يُجالس ولا يُكلم، ومن ذهب بعد مجلسنا هذا إلى محمد بن إسماعيل البخاري فاتهموه، فإنه لا يحضر مجلسه إلا

^١ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٢٩.

^٢ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥١٥.

^٣ ابن حجر، المصدر السابق، ص ٥١٦.

^٤ القاضي أبو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ٢، ص ٢٥٩.

من كان على مثل مذهبه^١، فهذا الداء وهو الحسد بين أهل العلم أمر مذموم، ولكن حسد الأقران مشهور ومعروف في كل زمان ومكان، حتى قال السبكي رحمه الله "ولا يرتاب المنصف في أن محمد بن يحيى الذهلي لحقته آفة الحسد، التي لم يسلم منها إلا أهل العصمة. وقد سأل بعضهم البخاري، عما بينه وبين محمد بن يحيى، فقال البخاري: كم يعترى محمد بن يحيى الحسد في العلم، والعلم رزق الله يعطيه من يشاء"^٢، وبعد أن ظهر الحسد للبخاري رحمه الله في نيسابور، واشتد الأذى عليه، "قبض على لحيته، ثم قال ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (سورة غافر، آية: ٤٤). اللهم إنك تعلم أني لم أُرِدْ المُقَامَ بنيسابور أشراً ولا بطراً ولا طلباً للرياسة وإنما أبت عليّ نفسي الرجوع إلى الوطن لغلبة المخالفين، وقد قصدني هذا الرجل حسداً لما آتاني الله لا غير"^٣.

ولما رجع البخاري إلى بخارى وقع الخلاف بينه وبين أميرها، وذلك أن الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى كتب إلى البخاري أن يحمل إليه كتاب "الجامع" و"التاريخ"؛ ليقرأه عليه، ويسمع منه، وقيل: ليقرأ على أولاده ويعقد لهم مجلساً لا يحضره غيرهم، فامتنع الإمام البخاري، وقال: لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، ويُنَّ البخاري للأمير أن من أراد العلم فعليه أن يحضر في مجلسه، أو في داره؛ لأن العلم يُؤْتَى ولا يأتي، فكان ذلك سبب الوحشة بينهما، فأمر الأمير بمن يتكلم فيه وفي مذهبه حتى أخرجوه من البلد، ودعا البخاري على من أخرجهم، فلم يمض شهر على الأمير حتى ابتلاه الله، وكان عاقبة أمره إلى الذل والحبس، وابتلي من أعانه على إخراج البخاري بأنواع البلايا^٤.

ولما مُنِع البخاري من العلم خرج إلى "خَرْتَنَك" قرية على فرسخين من سمرقند، كان له بها أقرباء فبقي فيها أياماً قليلة، ثم توفي ليلة السبت عند صلاة العشاء ليلة عيد الفطر، ودُفن يوم الفطر بعد الظهر سنة ست وخمسين ومائتين، ودفن بها، وعاش اثنين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوماً، وكانت حياته كلها حافلة بالعلم معمورة بالعبادة، فجزاه الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء^٥.

^١ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ص ٣٠ - ٣١.

^٢ تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٣٠.

^٣ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥١٦.

^٤ ابن حجر، المصدر السابق، ص ٥١٨. والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٣٢. وأبو الحجاج المزني، تهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٤٦٤.

^٥ النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، ص ٨٦. وشمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٤٦٦.

سادساً: الدروس التربوية من سيرة الإمام البخاري رحمه الله:

سيرة الإمام البخاري رحمه الله مليئة بالدروس والعبر التي لا تخفى على كل مسلم، ولو سردنا تلك الدروس والعبر لطال بنا المقام، ولأخذت حيزاً كبيراً من البحث، ولكن الباحث يرى أن تكون الدروس مقتصرة على موضوع الدراسة، وهو الاعتصام بالكتاب والسنة، ولعل أبرزها وأهمها ما يلي:

- أن الإمام البخاري رحمه الله، تلقى التربية الإسلامية الصحيحة القائمة على مراد الله، وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالنظر في بداية حياته، نجد كيف حرص والداه على تربية نفس هذا الغلام المبارك وربطها بالله تعالى، والتوجه في تربيتهم له إلى القلب قبل السلوك والحوار، وإلى إصلاح الباطن قبل إصلاح الظاهر، وفي هذا تمسكٌ ظاهرٌ بالكتاب والسنة، حيث يقول مربي الأمة صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ. أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»، فمن هنا البداية الصحيحة لتربية النفوس وتركيتها، وتوجيهها للصالح من أمور الدنيا والآخرة، بل إن الله سبحانه وتعالى أقسم في كتابه العزيز أحد عشر قسماً متتابعاً على أمر عظيم ما تكرر في القرآن كله، ولم يُجمع هذا العدد من الأقسام إلا في هذا الموضع، وذلك من أجل تحقيق قضية واحدة، يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس، آية: ١-١٠)، فجواب الأقسام هو قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾، فتزكية النفوس وصلاحها مقصدٌ عظيم من مقاصد الشارع الحكيم، بل إن بعض أهل العلم يقول: إنها ربيع الرسالة المحمدية، وذلك لقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة الجمعة، آية: ٢)، وإلى هذا المعنى أشار العالم الرباني ابن القيم الذي بنى فكره وتربيته على الكتاب والسنة بقوله "فإن تزكية النفوس مسلّمٌ إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية ولأهم إياها وجعلها على أيديهم دعوةً وتعليماً وبياناً وإرشاداً لا خلقاً ولا إلهاماً،

^١ أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (١٥٩٩).

فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم" ^١، فتركية النفوس وتربيتها هي من اختصاص الشارع الحكيم الذي خلق فسوى القائل سبحانه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك، آية: ١٤)، ولذلك دلنا الله سبحانه وتعالى على الطريقة الصحيحة إلى التربية الإسلامية وهي - الاعتصام بالكتاب والسنة - المُرْكَاة من رب الأرض والسماء بقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (سورة الشورى، آية: ٥٢-٥٣)، فَمَنْ عنده مثل تلك التزكية ليقوم بهذا العمل؟ يقول ابن القيم رحمه الله "وتركية النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجيء بها الرسل فهو كالمرضى الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحتها إلا من طريقهم وعلى أيديهم وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان" ^٢، وهذا الأمر واضح وجلي في سيرة إمامنا، وكيف أن والداه لم تشغلهم أمور الدنيا عن الاهتمام بتربية ابنهم التربية الإسلامية الصحيحة، وربط قلبه بالله حتى أصبح إمام الدنيا، بل كان كما قال عنه الحسين بن محمد السمرقندي "كان محمد بن إسماعيل مخصوصا بثلاث خصال مع ما كان فيه من الخصال المحمودة كان قليل الكلام وكان لا يطمع فيما عند الناس وكان لا يشتغل بأمور الناس كل شغله كان في العلم" ^٣، وهذه المرتبة لا تكون إلا لمن تلقى تربية تجعل العلاقة مع الله الحياة الحقيقية، والتعامل مع الله الريح الأبدي، قال محمد بن أبي حاتم يحيى عن البخاري "وأملى يوماً عليّ حديثاً كثيراً، فخاف ملاًلي، فقال: طِبُّ نفساً، فإنَّ أهلَ المِلاهِي في مِلاهِيهم، وأهل الصناعات في صناعاتهم، والتجار في تجارتهم. وأنتَ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابِهِ...". ^٤

● أهمية دور الوالدين في التربية والتوجيه، فكلما كان الوالدان أقرب إلى الله، وأكثر علماً ومعرفة بالله، وأصدق ورعاً وخوفاً من الله، كان لهما الدور الأكبر في صلاح الأبناء،

^١ محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ١٤٠٣هـ، دار

الكتب العلمية، بيروت، ج ٢، ص ٣٢٧.

^٢ ابن القيم، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٢٨.

^٣ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٤٤٨.

^٤ شمس الدين الذهبي، المرجع السابق، ج ١٢، ص ٤٤٥.

وسلوكلهم طريق الخير والاستقامة، وترقيهم في مراتب العلم والشرف، وبالنظر إلى سيرة والد الإمام البخاري رحمه الله نجد كيف كان مثلاً في الورع والخوف من الله حين قال "لا أعلم في جميع مالي درهماً من شبهة"^١، وكذلك والدته رحمها الله حين تعلقت بالله في دعائها لولدها أن يرد الله عليه بصره، وكذلك في تحمل تربيته والعناية به بعد موت أبيه وهو طفل صغير، فسخرت حياتها لابنها، فرحم الله والديّ الإمام البخاري الذين تمسكا بأوامر الوحي من الكتاب والسنة في حياتهما وسلوكهما، وعلمهما علم اليقين أن خير ما يورث الآباء لأبنائهم الصلاح والتقوى، كما قيل في قوله تعالى ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ (سورة الكهف، آية: ٨٢)، قال الإمام ابن كثير رحمه الله "فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت السنة به"^٢، وقال القرطبي "ففيه ما يدل على أن الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا عنه"^٣، وقال الإمام السعدي "العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته"^٤، وقال صاحب الظلال "ولما كان أبوهما صالحاً فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته"^٥. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس "حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاح".^٦ وقال سعيد بن المسيب لابنه "لأزیدن في صلاتي من أجلك، أجلك، رجاء أن أحفظ فيك، ثم تلا هذه الآية (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا)، وقال عمر بن عبد العزيز "ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه"^٧، وقال ابن المنكدر "إن الله

^١ تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢١٣.

^٢ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، ١٤١٣هـ، دار المعرفة، بيروت، ج ٣، ص ١٠٥.

^٣ أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط ٥، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١١، ص ٢٧.

^٤ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ١٤١٥هـ، دار ابن الجوزي، الدمام، ج ٣، ص ٤٢.

^٥ سيد قطب: في ظلال القرآن، ط ٢٤، ١٤١٥هـ، دار الشروق، بيروت، ج ٤، ص ٢٢٨١.

^٦ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ١٠٥.

^٧ أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، ت: طارق عوض الله، ١٤١٥هـ، دار ابن الجوزي، الرياض، ج ١، ص ٤٨٩.

تعالى يحفظ العبد المؤمن في ولده وولد ولده، ويحفظه في دويرته وفي دويرات من حوله "١،
فَحَفِظَ اللهُ الابنَ المباركَ خيرَ حفظٍ، وبلغه مراتب العلم والورع والزهد، وكان إمام أهل
الحديث، ومقصد الباحث عن الصحيح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فرحم الله إمامنا
ووالديه وجميع المسلمين.

● وبالنظر إلى سيرة الإمام البخاري العلمية ورحلاته وتنقلاته في طلب العلم، وحرصه على
الأخذ من أهل العلم بدون النظر إلى أي شيء آخر، من تعصب لمكانٍ أو بلدٍ أو مذهبٍ،
"فحينما نطالع صحيح البخاري. وهو كتاب راعى فيه الإمام أقصى ما يمكن من الثبوت
والاحتياط، وكان من شدة احتياظه أنه ما كان يُدخل فيه حديثاً حتى بعد التأكد من صحته
إلا بعد ما يستخير الله - سبحانه وتعالى - نجد في أسانيد صحيحه من هذا الكتاب رجالاً
ليسوا من أهل السنة ولم يترك الإمام البخاري روايتهم مع أنه كان يخالفهم في مذهبهم"٢،
بل كان مقياسه أنهم أصحاب علم وحديث، معروفين بعلمهم وأمانتهم وصدقهم، حتى قال
عن نفسه: "كتبت عن ألف وثمانين نفساً ليس فيهم إلا صاحب حديث"٣، وهذا يدل على
أن مقياس طالب العلم والحقيقة النظر إلى ما قيل لا إلى من قال فإن كان صواباً أخذه وعمل
به وانتفع بمضمونه، وإن كان غير ذلك ردّه على صاحبه، كما قال صلى الله عليه وسلم
«الْكَلِمَةُ الْحَكِيمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»٤، وفي هذا منهج تربوي أصيل
أصيل مبني على أصل الشرع، وهو ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال وكّلي رسول
الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ، فجعل يحنثوا من الطعام، فأخذته
فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر الحديث فقال إذا أويت إلى
فراشك فاقراً آية الكرسي لن يزال عليك من الله حافظٌ، ولا يقربك شيطانٌ حتى تصبح،

١ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط ٤، ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٣، ص ١٤٨.

٢ المباركفوري، سيرة الإمام البخاري، ج ١، ص ١٣٥. يقول المباركفوري: "ولكن من الضروري أن نبين هنا أن التسامح كان محدوداً في ما لا يتطرق الشك من أجله في الرواية، ولذلك فإن من قاعدة المحدثين أنهم يقبلون رواية أهل الأهواء من المتشيعين والخوارج والمعتزلة وغيرهم بشرط أن لا يكون داعياً إلى بدعته وأن لا يكون من الذين يستحلون الكذب ولا يعتقد إباحة الكذب في حال من الأحوال".

٣ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥٠٣.

٤ أخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة، حديث رقم (٢٦٨٧). قال الألباني: ضعيف جداً.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، ذَاكَ شَيْطَانٌ»^١، فَأَخَذُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذَا الْخَبْرَ مِنْ إِبْلِيسَ وَمُوَافَقَةَ وَتَصَدِيقَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ يُؤْخَذُ مِنْ أَيِّ أَحَدٍ قَالَهُ، وَهَذَا مَا تَرَسَّمَهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي مَسِيرَتِهِ التَّعْلِيمِيَّةِ حَيْثُ يَقُولُ "لَا يَكُونُ الْمَحْدُثُ كَامِلًا حَتَّى يَكْتُبَ عَمَّنْ هُوَ فَوْقَهُ وَعَمَّنْ هُوَ مِثْلَهُ وَعَمَّنْ هُوَ دُونَهُ"^٢، وَذَلِكَ لِبَيَانِ أَنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ حَكْرًا عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْ كُلِّ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ وَمَعْرِفَةٌ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا مُوَافِقًا لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ عَلَى أَصُولِ أَهْلِ الْإِحْتِصَاصِ فِي كُلِّ فَنٍّ وَعِلْمٍ، وَفِي هَذِهِ الْمُنْهَجِيَّةِ فِي الطَّلَبِ يَكُونُ طَالِبُ الْعِلْمِ بَعِيدًا عَنِ التَّعَصُّبِ وَالتَّحِيزِ لِفِئَةٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ شَيْخٍ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مُتَجَهًّا نَحْوَ الْحَقِيقَةِ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ وَسَائِلٍ وَإِمْكَانَاتٍ، وَمَا يَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ سَعَةِ مَدَارِكِ الْعَقْلِ، وَتَوْفُرِ الْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ، وَحُرِيَّةِ اخْتِيَارِ الْأَرْجَحِ، وَلَاشِكَّ أَنَّ بَدَايَةَ الْوُصُولِ إِلَى أَيِّ حَقِيقَةٍ كَانَتْ سِوَاءً دِينِيَّةً أَوْ دُنْيَوِيَّةً لَا تَكُونُ إِلَّا "بِالْبَعْدِ عَنِ التَّرْتَمِ وَالجُمُودِ وَتَحْرِيرِ الذَّهْنِ مِنَ الْأَفْكَارِ الْمَسْبُوقَةِ، وَإِعْطَاءِ النَّفْسِ الْحُرِيَّةِ التَّامَةَ فِي الْبَحْثِ وَالدِّرَاسَةِ وَاكتِشَافِ الْحَقَائِقِ"^٣، وَهَذَا مَا اعْتَمَدَهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَسِيرَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ، وَمَا أَثْمَرَهُ مِنْ نَتَاجِ عِلْمِي كَانَ بِحَقِّ أَصْحَاحِ الْكُتُبِ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

● إن الناظر إلى سيرة الإمام البخاري رحمه الله يجد مدى سعة علم هذا الإمام الجليل، ومدى تأثير العلم في حياته العملية والسلوكية مع القريب والبعيد، وكيف أورث هذا العلم في نفسه خشيةً وورعاً وخوفاً من الله تعالى حتى قال عن نفسه: "إني لأرجو أن ألقى الله ليس أحد يطالبني أبي اغتبتته"^٤، وكذلك الأخلاق التي تربي عليها الإمام رحمه الله وكانت واقعاً حياً في حياته، وفي ما سبق من سيرته رحمه الله ما يدل على ذلك من صدقٍ وورعٍ وإخلاصٍ، وكانت تلك الأخلاق للإمام مفتاح قلوب الناس في زمانه حيث عاش الإمام البخاري رحمه الله في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجري (١٩٥ - ٢٥٦هـ)، وما كان في تلك الفترة من بداية ظهور الفرق والاختلافات في الأمة، وكيف عاصرها وتعامل معها رحمه الله

^١ أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، حديث رقم (٣٢٧٥).

^٢ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥٠٣.

^٣ نايف بن حامد الشريف: التربية الإسلامية وقضية التفكير العلمي، ١٤١١هـ، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية، جامعة أم القرى، ص ٧٥.

^٤ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٩.

بعلمٍ وثباتٍ وتوازن، وبالتأمل في تصانيف الإمام البخاري رحمه الله نجد كيف عالج تلك الآراء والأهواء بالعلم والدليل القاطع الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، فجدده قد بوب في كتابه الجامع الصحيح مثلاً كتاب "الفتن" وضمنه الرد على من يرى الخروج على الأئمة بالسيف من الخوارج وغيرهم، وكتاب "فضائل الصحابة" وكتاب "مناقب الأنصار" وضمنهما الرد على الشيعة^١ والنواصب^٢ والخوارج^٣ وغيرهم من المنحرفين عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم أو بعضهم، وأورد فيها مناقب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وفضل عائشة، ومعاوية وفضائل الحسن والحسين، ومناقب فاطمة رضي الله عنهم أجمعين، وجمعنا بهم في جنات النعيم، وهكذا يتعامل كل من تربى على الكتاب والسنة واعتصم بهما، مع الخلاف والمخالف بنهج متوازن، وتعامل عادل، وتمسك بهدي الوحين، امتثالاً لقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٨)، قال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ "أي: لا يحملنكم بعض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقاً كان أو عدواً؛ ولهذا قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه"^٤.

وفي سيرة الإمام البخاري رحمه الله نماذج عطرة في العدل مع المخالف والتعامل الراقي البعيد عن التعصب والمماراة، وحفظ اللسان عن كل أحد حتى في نقده للرجال، قال عنه أبو جعفر محمد بن يوسف الوراق "والبخاري في كلامه على الرجال تَوْقٌ زائد وتَحَرٌُّ بليغ يظهر لمن تأمل كلامه في الجرح والتعديل فإن أكثر ما يقول سكتوا عنه فيه نظر تركوه ونحو هذا وقلاً

^١ الشيعة: هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته: نصاً ووصية؛ إما جلياً وإما خفياً. واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده؛ وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده. أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، ط ٢، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ١٤٤.

^٢ الناصبة "النصب، بغض علي وتقدم غيره عليه". ابن حجر، هدي الساري، ص ٣٨٣.

^٣ الخوارج "كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يُسمى خارجياً سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان". الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ١٠٥.

^٤ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٣٢.

أن يقول كذاب أو وضّاع وإنما يقول كذّبه فلان رماه فلان يعني بالكذب"^١، ومن أشد كلمات الجرح عند البخاري أن يقول "منكر الحديث"^٢.

• من الدروس المستفادة من سيرة الإمام البخاري، أنه كان يعمل بما يعلم، وهذه الميزة هي التي أورثت علمه بركةً وقبولاً وحفظاً، ولا شك أن المحاضن التربوية يجب عليها أن تولي هذا الأمر غاية الاهتمام، وتخصه بوافر الوسائل، لكي يُترجم العلم إلى واقع ملموس في الحياة، حتى لا يحدث مثل ما نراه من انفصام بين العلم والعمل عند بعض المنتسبين إلى العلم، وبين مقاصد وأهداف الدين الإسلامي الحنيف وواقع الأمة المُخيف، وخاصة في المناهج الشرعية التي هي أساس التربية والتزكية والسعادة الدنيوية والأخروية، يقول العلامة السيوطي في ما يجب على طالب العلم "ينبغي أن يستعمل ما يسمعه من أحاديث العبادات والآداب وفضائل الأعمال فذلك زكاة الحديث وسبب حفظه"^٣، فالطريقة الصحيحة والمنهج العلمي الذي تربت عليه أجيال الأمة منذ عهد النبوة كان العمل بالعلم، كما قال أبو عبدِ الرَّحْمَنِ السلمي رحمه الله حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقَرِّئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَنْهُمْ كَانُوا يَقْتَرُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ. قَالُوا فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ"^٤، قال الإمام أحمد بن حنبل "ما كتبتُ حديثاً إلا وقد عملتُ به، حتى مرَّ بي أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً، فاحتجمتُ وأعطيتُ الحجام ديناراً"^٥، وكان وكيع بن الجراح أحد كبار المُحدِّثين_ يقول "إذا أردت أن تحفظ حديثاً فاعمل به"، وكان العلامة المُحدِّث إبراهيم بن إسماعيل يقول "كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به"^٦.

^١ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥٠٤.

^٢ المباركفوري، سيرة الإمام البخاري، ج ١، ص ١٢٠.

^٣ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ت: أبو قتيبة الفاريابي، ط ٣، ١٤١٧هـ، مكتبة الكوثر، الرياض، ج ٢، ص ٥٨٨.

^٤ أخرجه أحمد، باب حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (٣٢٥٢٩). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن من أجل عطاء. أحمد بن حنبل الشيباني: المسند، (د.ت)، مؤسسة قرطبة، القاهرة، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.

^٥ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص ٢٩٦.

^٦ السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ج ٢، ص ٥٨٨.

فرحم الله الإمام البخاري رحمةً واسعة، وجزاه عن أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم وسنته خير الجزاء،
ورزقنا الاعتصام بكتابه المبين وهدى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: نبذة عن كتاب الجامع الصحيح

المطلب الأول: التعريف بالجامع الصحيح:

أولاً: اسم الكتاب ومكانته:

ذكر النووي أن مؤلفه نص على تسميته "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه"^١، أما ابن حجر فنص على أن البخاري سَمَّى كتابه "الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه"^٢، والمشهور بين الناس باسم "صحيح البخاري".

ويُعتبر كتاب الجامع الصحيح من أول ما صُنّف في الأحاديث الصحيحة المجردة يقول الإمام البخاري "أخرجت هذا الكتاب يعنى الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث"^٣، وقال: "ما أدخلت في كتابي الجامع إلا ما صح..."^٤، ويُعدّ كتاب الجامع الصحيح أصح كتاب بعد كتاب الله عند علماء علماء الأمة، "فقال العلماء: هو أول مصنف صنف في الصحيح المجرد، واتفق العلماء أن أصحّ الكتب المصنّفة صحيحا البخاري ومسلم، واتفق الجمهور على أن صحيح البخاري أصحهما صحيحاً وأكثرهما فوائد"^٥، يقول ابن كثير "أجمع العلماء على قبوله وصحته، وكذلك سائر أهل الإسلام"^٦، وقال عنه أبو عبد الرحمن النسائي "ما في هذه الكتب كلها أجود من كتاب محمد بن إسماعيل البخاري"^٧، "و لم يحصل قط وعلى امتداد التاريخ الإسلامي أن نال أيُّ مصنّف لأيّ محدّث، أو لأيّ إمام أو فقيه من المتقدمين أو المتأخرين ما ناله هذا الكتاب من الفضل، والشرف، والقبول لدى الأمة. وأيُّ كتاب على وجه الأرض _ عدا كتاب الله _ تخضع له الأمة الإسلامية كلها؟"^٨.

^١ النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، ص ٩١.

^٢ ابن حجر، هدي الساري، ص ١٠.

^٣ أبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٤٤٢.

^٤ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٩.

^٥ النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، ص ٩١.

^٦ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٤-٢٥.

^٧ أبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٤٤٢.

^٨ المباركفوري، سيرة الإمام البخاري، ج ١، ص ٣١٧.

ثانياً: سبب التأليف ومكانه:

من أسباب تأليف الإمام البخاري للجامع الصحيح، وقدح الفكرة في ذهنه، ما رواه ابن حجر عن إبراهيم بن معقل النسفي قال "قال أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: كنا عند إسحاق بن راهويه فقال: لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح".^١

ومما سبق من الإشارة إلى عصر الإمام البخاري وما كان فيه من ظهور الفرق والاختلافات والرأي، واطراح السنن وتبع الأهواء، والخلط بين الصحيح والضعيف، جعل الإمام البخاري شديد الاعتناء بالصحيح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ويغار على المصدر الثاني للوحي، يقول ابن حجر عن سبب تأليف الإمام البخاري لكتابه الجامع الصحيح "فلما رأى البخاري رضي الله عنه هذه التصانيف ورواها وانتشق رباها واستجلى محياها، وجدها بحسب الوضع جامعة بين ما يدخل تحت الصحيح والتحسين والكثير منها يشمله التضعيف، فلا يُقال لغته سمين، فحرك همته لجمع الحديث الصحيح الذي لا يرتاب فيه أمين".^٢

ومما زاد في عزم الإمام البخاري على التأليف ما رآه في منامه، حيث يقول "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وكأنني واقف بين يديه ويدي مروحة أذب بها عنه فسألت بعض المعبرين فقال لي أنت تذب الكذب عنه، فهو الذي حملني على إخراج الجامع الصحيح".^٣

وقد مكث الإمام البخاري في تأليف الجامع ست عشرة سنة، قال عن هذا فيما رُوي عنه: "صنفت كتابي "الصحيح" لست عشرة سنة، خرجته من ستمائة ألف حديث، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى".^٤

أما مكان تصنيفه فقد قال عبد القدوس بن همام "سمعت عدة من المشايخ يقولون: حوّل البخاري تراجم جامعه بين قبر النبي صلى الله عليه وسلم ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين. وقال آخرون، منهم أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي: صنّفه ببخارى، وقيل: بمكة، وقيل: بالبصرة،

^١ ابن حجر، هدي الساري، ص ٩.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ص ٩.

^٣ ابن حجر، المصدر السابق، ص ٩.

^٤ القاضي أبو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٢٥٥. والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ١٤. وتاج الدين السبكي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٢١.

^٥ قال ابن حجر: "يعني بيّضها". هدي الساري، ص ١٥.

وكل هذا صحيح، ومعناه أنه كان يصنف فيه في كل بلدة من هذه البلدان، فإنه بقي في تصنيفه ست عشرة سنة كما سبق^١، ورُوي عن الإمام البخاري أنه قال "صنفت كتابي الجامع في المسجد الحرام..."^٢، وجمع ابن حجر هذا التعارض فقال "أنه ابتداءً تصنيفه وترتيبه وأبوابه في المسجد الحرام، ثم كان يخرج الأحاديث بعد ذلك في بلده وغيرها، ويدل عليه قوله: أنه أقام فيه ست عشرة سنة، فإنه لم يجاور بمكة هذه المدة كلها"^٣.

ثالثاً: منهج التأليف:

يظهر منهج الإمام البخاري في كتابه الجامع من خلال ما سبق، حيث اشترط رحمه الله أن لا يُدخَلَ في كتابه الجامع إلا الصحيح من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول رحمه الله "أخرجت هذا الكتاب -يعني الصحيح- من زهاء ستمائة ألف حديث"^٤، وكذلك قوله "ما أدخلت في كتابي 'الجامع' إلا ما صح، وتركت من الصحاح لحال الطول"^٥.

يقول الحافظ ابن حجر "وقد تقرر أنه التزم فيه الصحة وأنه لا يورد فيه إلا حديثاً صحيحاً، هذا أصل موضوعه، وهو مستفاد من تسميته إياه (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه)"^٦.

وكان البخاري رحمه الله يلجأ إلى الله في كل حديث يكتبه بعد التحري والتيقن من صحته، ويرأى من حوله وقوته، ويتعلق بالله سبحانه وتعالى، وفي هذا الأمر وقفةً تربوية، وفائدةً علمية، تتمثل في أن على الباحث المسلم مهما أُوتِيَ من العلم والمعرفة، أن يكون دائم التعلق بالله، فإن أصاب نسيب علمه إلى الله تعالى القائل ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء، آية: ٨٥)، طالباً الصواب والزيادة في مراتب العلم من العليم الخبير ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طه، آية: ١١٤)، وإن أخطأ نسبه إلى

^١ النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، ص ٩٢.

^٢ ابن حجر، هدي الساري، ص ٥١٣.

^٣ ابن حجر، المصدر السابق، ص ٥١٣-٥١٤.

^٤ القاضي أبو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٢٥٢. وأبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٤٤٢.

^٥ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٩. وأبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٤٤٢.

^٦ ابن حجر، هدي الساري، ص ١٠.

نفسه، وطلب الحق والصواب، رُوي عن البخاري أنه قال "صنفت كتابي الجامع في المسجد الحرام، وما أدخلت فيه حديثاً حتى استخرت الله تعالى، وصليت ركعتين، وتيقنت صحته"^١.

وكان رحمه الله يعرض كتابه على علماء عصره طالباً المشورة والنصيحة، قال أبو جعفر محمود بن عمرو العقيلي "لما أَلَّفَ البخاري كتاب الصحيح عرضه على أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلي بن المديني وغيرهم فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة إلا في أربعة أحاديث". قال العقيلي "والقول فيها قول البخاري، وهي صحيحة"^٢.

كما كان يحفظ كل ما يُدخله كتابه، قال محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل "تَحْفَظُ جميع ما أدخلت في المصنّف؟ فقال: لا يخفى عليّ جميع ما فيه"^٣، وقال أيضاً "كتبتُ عن ألف شيخٍ وأكثر، ما عندي حديث إلا أذكر إسناده"^٤، وكان من قوة حفظه يسمع الأحاديث في رحلاته ويحفظها، ثم يكتبها من حفظه يقول عن نفسه: "رُبَّ حديث سمعته بالبصرة كتبتّه بالشام، ورُبَّ حديث سمعته بالشام كتبتّه بمصر"^٥.

وكان البخاري رحمه الله لا يعمل في كتابه الجامع بجمع الأحاديث الصحيحة فقط، بل كان "لا يخليه من الفوائد الفقهية، والنكت الحكمية، فاستخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة فرقها في أبواب الكتاب بحسب تناسبها، واعتنى فيه بآيات الأحكام فانتزع منها الدلالات البديعة، وسلك في الإشارة إلى تفسيرها السبل الوسيعة. قال الشيخ محيي الدين (يحيى بن شرف النووي) نفع الله به: ليس مقصود البخاري الاقتصار على الأحاديث فقط، بل مراده الاستنباط منها والاستدلال لأبواب أرادها، ولهذا المعنى أدخل كثيراً من الأبواب عن إسناده الحديث، واقتصر فيه على قوله: فيه فلان عن النبي صلى الله عليه وسلم أو نحو ذلك، وقد يذكر المتن بغير إسناده، وقد يورده معلقاً، وإنما يفعل هذا لأنه أراد الاحتجاج للمسألة التي ترجم لها، وأشار إلى الحديث لكونه معلوماً، وقد يكون مما تقدم، وربما تقدم

^١ ابن حجر، المصدر السابق، ص ٥١٣. وأبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٤٤٣.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ص ٩.

^٣ أبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٤٤٣.

^٤ أبو الحجاج المزي، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٤٤٥.

^٥ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ١١. شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٤١١. أبو

الحجاج المزي، المرجع السابق، ج ٢٤، ص ٤٤٥.

قريباً، ويقع في كثير من أبوابه الأحاديث الكثيرة، وفي بعضها ما فيه حديث واحد، وفي بعضها ما فيه آية من كتاب الله، وبعضها لا شيء فيه البتة^١.

ويظهر منهج البخاري في كتابه من ناحية تسمية أبوابه، حيث ضمنها الرد على كل البدع التي ظهرت في عصره بالسنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وجعل لكل كتاب عنواناً مناسباً لما يسوقه فيه من أحاديث^٢، وكذلك الحال في ترتيبه للأبواب، حيث ابتدأه بكتاب بدء الوحي وختمه بكتاب التوحيد^٣، وأثبت تلك المنهجية الرائعة العجيبة الفقهاء والمحدثون حين قالوا "فقه البخاري في تراجمه".

وكذلك جعل الإمام البخاري رحمه الله منهجيته واضحة في الشروط التي جعلها أساساً لكل حديث يورده في كتابه الجامع الصحيح، نذكر منها:

١. أن يُخَرِّج الحديث المتفق على ثقة نقلته إلى الصحابي المشهور من غير اختلاف بين الثقات الأثبات.

٢. أن يكون إسناده متصلاً غير مقطوع.

٣. إن كان للصحابي راويان فصاعداً فحَسَن، وإن لم يكن إلا راوٍ واحد وصح الطريق إليه كفى.

٤. قال أبو بكر الحازمي: شرط الصحيح أن يكون إسناده متصلاً، وأن يكون راويه مسلماً صادقاً، غير مدلس ولا مختلط، متصفاً بصفات العدالة ضابطاً، متحفظاً، سليم الذهن، قليل الوهم، سليم الاعتقاد^٤.

٥. ثبوت السماع لكل راوٍ من شيوخه، ولا يكفي اللقاء والمعاصرة^٥.

^١ ابن حجر، هدي الساري، ص ١٠.

^٢ ذكر المباركفوري أن تراجم الأبواب في صحيح البخاري تختلف صورها، وتتنوع أغراضها، وذكر جملة من مقاصد وأهداف تراجم البخاري. المباركفوري، سيرة الإمام البخاري، ج ١، ص ٣٤٥ - ٣٤٩.

^٣ أورد ابن حجر في مقدمته مناسبة الترتيب بالأبواب نقلاً عن البلقيني إلى أن قال ولقد أبدى فيه لطائف وعجائب جزاه الله خير بمنه وكرمه. ابن حجر، هدي الساري، ص ٤٩٤ - ٤٩٧.

^٤ ابن حجر، المصدر السابق، ص ١١.

^٥ السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ج ١، ص ٦٩. وذكر الحافظ السيوطي أن هذا الشرط خاص بالبخاري في كتابه الجامع الصحيح، وليس لكل حديث صحيح.

رابعاً: عدد أحاديث وأبواب الصحيح:

يحتوي الجامع الصحيح على سبعة وتسعين (٩٧) كتاباً، تضم ثلاثة آلاف وتسعمائة وأربعة وعشرين (٣٩٢٤) باباً مرتبة على المسائل الفقهية والعقدية وغيرها، أما أحاديثه فيقول ابن حجر "قال الشيخ تقي الدين ابن الصلاح فيما روينا عنه في علوم الحديث: عدد أحاديث صحيح البخاري سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون بالأحاديث المكررة، قال: وقيل بإسقاط المكررة أربعة آلاف".^١ وذكر النووي أن "جملة ما في صحيح البخاري من الأحاديث المسندة سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثاً بالأحاديث المكررة، وبخذف المكررة نحو أربعة آلاف، وقد ذكرتها مفصلة مختصرة في أول شرح صحيح البخاري، وذكرت فيه جملة من أحوال البخاري، وورعه، وتعظيمه للعلم، وما يتعلق بصحيحه؛ كبيان فائدة إعادته الحديث الواحد في أبواب، وفائدة تحديده عن واحد في موضع، ثم يروى في موضع آخر عن رجل أو رجلين عنه، وبيان التعليق الذي فيه، وغير ذلك".^٢

خامساً: شروح الصحيح:

مما يبيّن مكانة و"جلالة قدر الجامع الصحيح وعظمته أن العلماء من السلف إلى الخلف مهما كانت فرقهم ومذاهبهم ما زالوا يخدمونه، فبعضهم ألف له شرحاً، وآخرون جمعوا رجاله، وأناس بحثوا في أبوابه الفقهية وتراجمه..."^٣، وهكذا نال كتاب الجامع الصحيح من الشروح والتعليقات والحواشي الكثير، ذكرها صاحب كتاب كشف الظنون وهي تبلغ اثنين وثمانين شرحاً، وجمع العلامة المباركفوري في سيرة الإمام البخاري ما يزيد عن مائة وثلاثة وأربعين شرحاً وتعليقاً ومختصراً، ونذكر منها:

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لشهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني، الشهير بابن حجر (ت ٨٥٢هـ)، وهذا الشرح الذي قال عنه أهل العلم من المحدثين "لا هجرة بعد

^١ ابن حجر، هدي الساري، ص ٤٨٩.

^٢ النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج ١، ص ٩٢.

^٣ المباركفوري، سيرة الإمام البخاري، ج ١، ص ٣٦٣.

^٤ مصطفى بن عبد الله حاجي خليفه: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ٥٤٥ وما بعدها.

^٥ المباركفوري، سيرة الإمام البخاري، ج ١، ص ٣٦٤ وما بعدها.

- الفتح"، وقال عنه صاحب كتاب كشف الظنون "وشهرته وانفراده بما يشتمل عليه من الفوائد الحديثية، والنكات الأدبية، والفوائد الفقهية، تُغني عن وصفه"^١.
٢. إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، لشهاب الدين أحمد بن محمد، المعروف بالقسطلاني (ت ٩٢٣هـ).
٣. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد الحنفي، الشهير بالعيبي (ت ٨٥٥هـ).
٤. أعلام السنن، للإمام أبي سليمان حمد بن محمد البستي (ت ٣٠٨هـ).
٥. التلويح في شرح الجامع الصحيح، للإمام الحافظ علاء الدين مغلطائي (ت ٧٨٢هـ).
٦. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، للعلامة شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الكرماني (ت ٧٨٦هـ).
٧. شواهد التوضيح، لسراج الدين عمر بن علي بن أحمد ابن الملقن (ت ٨٠٤هـ).
٨. الكوكب الساري في شرح الجامع الصحيح للبخاري، لأبي الحسن علي بن حسين بن عروة الموصلي (ت ٨٣٧هـ).
٩. شرح ابن بطال، للإمام أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، الشهير بابن بطال (ت ٤٤٩هـ).
١٠. شرح ابن التين، للإمام عبد الواحد بن التين السفّاقسي (ت ٦١١هـ).

المطلب الثاني: التعريف بكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من الجامع الصحيح:

جاء كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة في تسلسل الجامع الصحيح برقم ستة وتسعين (٩٦)، وعدد أبوابه ثمانية وعشرون (٢٨) باباً، وعدد أحاديثه (٩٦) حديثاً^٢.

وقال ابن حجر "اشتمل كتاب الاعتصام من الأحاديث المرفوعة وما في حكمها على مائة وسبعة وعشرين حديثاً، المعلق منها وما في معناه من المتابعة ستة وعشرون حديثاً وسائرهما موصول، المكرر منها فيه وفيما مضى مائة حديث وعشرة أحاديث والباقي خالص، وافقه مسلم على تخريجها سوى

^١ حاجي خليفه، كشف الظنون، ج ١، ص ٥٤٧.

^٢ محمد بن محمود العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (د.ت)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١، ص ٦. وقد ذكر عدد أحاديث صحيح البخاري مفصلة، نقلاً عن الحافظ محمد بن طاهر المقدسي بإسناده عن الحموي.

حديث أبي هريرة كل أمي يدخلون الجنة إلا من أبي، وحديث عمر نهيينا عن التكلف، وحديث أبي هريرة في مأخذ القرون، وحديث عائشة في الرفق، وحديثها لا أزكى به، وحديث عثمان في الخطبة، وحديث أبي سلمة المرسل في الاجتهاد، وحديث المشاورة في الخروج إلى أحد. وفيه من الآثار عن الصحابة ومن بعدهم ستة عشر أثراً^١.

وفي بيان معنى التسمية، قال ابن حجر عند شرحه لأحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: "والاعتصام افتعال من العصمة والمراد امتثال قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٣)، قال الكرماني: هذه الترجمة منتزعة من قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ لأن المراد بالحبل: الكتاب والسنة على سبيل الاستعارة، والجامع كونهما سبباً للمقصود وهو الثواب والنجاة من العذاب، كما أن الحبل سبب لحصول المقصود به من السقي وغيره. والمراد "بالكتاب" القرآن المتعبد بتلاوته.

و"بالسنة" ما جاء عن النبي صلى الله عليه و سلم من أقواله وأفعاله وتقريره وما همّ بفعله. والسنة في أصل اللغة الطريقة وفي اصطلاح الأصوليين والمحدثين ما تقدم وفي اصطلاح بعض الفقهاء ما يرادف المستحب.

قال ابن بطّال: لا عصمة لأحد إلا في كتاب الله أو في سنة رسوله أو في إجماع العلماء على معنى في أحدهما"^٢.

وكتاب الاعتصام في أصله صنّفه الإمام البخاري مفرداً جامعاً فيه بين الصحيح وغيره، قال محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا عبد الله يقول "صنّفْتُ كتاب "الاعتصام" في ليلة"^٣، ثم أورد منه في كتابه الجامع الصحيح على ما يوافق شرطه، وفيه يقول "يَنْظُرُ فِي أَصْلِ كِتَابِ الْإِعْتِصَامِ"، قال الحافظ ابن حجر "فيه إشارة إلى أنه صنّف كتاب الاعتصام مفرداً وكتب منه هنا ما يليق بشرطه في هذا الكتاب كما صنع في كتاب الأدب المفرد فلما رأى هذه اللفظة مغايرة لما عنده أنه الصواب أحال على مراجعة ذلك الأصل وكأنه كان في هذه الحالة غائباً عنه فأمر بمراجعته وأن يصلح منه"^٤.

^١ أحمد بن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط ٢، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١٣، ص ٤٢٥.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣٠٦.

^٣ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٤١٢.

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٠٧.

وفي المناسبة من تسلسل كتاب الاعتصام وترتيبه بين أبواب الجامع قال ابن حجر نقلاً عن البلقيني "ولما كانت الأحكام كلها تحتاج إلى الكتابة والسنة قال الاعتصام بالكتاب والسنة وذكر أحكام الاستنباط من الكتاب والسنة والاجتهاد وكراهية الاختلاف"^١.
وتظهر أهمية كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة عند الإمام البخاري من خلال إفراده بباب في كتابه الجامع، وفي ذلك يقول رحمه الله "لا أعلم شيئاً يُحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة"^٢.

^١ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٤٩٧.

^٢ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٤١٢.

الفصل الثاني

مفهوم الاعتصام وأسباب الاختلاف والتفرق والوسائل التربوية المعينة على الوحدة والاجتماع

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معنى الاعتصام:

- المطلب الأول: الاعتصام في اللغة والاصطلاح.
- المطلب الثاني: الاعتصام في القرآن والسنة.

المبحث الثاني: أسباب الاختلاف والتفرق، والوسائل التربوية المعينة على تحقيق الوحدة والاجتماع:

- المطلب الأول: أسباب الاختلاف والتفرق.
- المطلب الثاني: الوسائل التربوية المعينة على تحقيق الوحدة والاجتماع.

تمهيد

في هذا الفصل سوف يذكر الباحث مفهوم الاعتصام في اللغة والاصطلاح، والألفاظ التي وردت بنفس المعنى من الكتاب والسنة تأصيلاً للموضوع، واعتصاماً بمهدي الكتاب والسنة في طرح موضوع الاعتصام، ثم يذكر الباحث الأسباب التي أدت إلى اختلاف الأمة الإسلامية، وذلك بذكر ما تيسر من أنواع الاختلاف، وما نتج عن ذلك من تفرق ذميم أدى إلى تعطيل تنمية المجتمع الإسلامي واستقراره، ثم يذكر الباحث الوسائل التربوية للوحدة والاجتماع الذي هو لب البحث، وهو المراد من دراسة أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري رحمه الله، وما ذلك إلى للرجوع بالأمة إلى المعين الصافي والمنبع النقي لتهتدي بهديه وتسير على نوره لترتقي إلى معالي الخير دنيا وآخرة، وسأحاول إيضاح هذه المباحث والمطالب على النحو التالي:

المبحث الأول: معنى الاعتصام:

المطلب الأول: الاعتصام في المدلول اللغوي والاصطلاحي:

أولاً: المدلول اللغوي:

- لقد تعددت وتنوعت استخدامات العرب لكلمة "الاعتصام" بحسب سياقها أو مدلولها الذي وردت فيه، وهي كلمة ذات معاني عديدة واشتقاقات كثيرة ماثورة في كتب أهل اللغة، ومن ذلك ما يلي:
١. "العين والصاد والميم أصلٌ واحدٌ صحيح يدل على إمساكٍ ومنعٍ وملازمة. والمعنى في ذلك كله معنى واحد.
 ٢. العِصْمَةُ: أن يعصم الله تعالى عبده من سوءٍ يقع فيه.
 ٣. واعتصم العبد بالله تعالى: إذا امتنع.
 ٤. واستعصم: التجأ، وتقول العرب: أعصمتُ فلاناً، أي هيأتُ له شيئاً يعتصم بما نالته يده أي يلتجئ ويتمسك به، والعِصْمَةُ: كلُّ شيءٍ اعتصمتَ به^١.

^١ أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي: معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد هارون، (د.ت)، دار الجليل، بيروت، ج ٤، ص ٣٣١، مادة (عصم).

٥. "عَصَمَهُ اللهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ (يَعِصِمُهُ) مِنْ بَابِ ضَرْبِ حِفْظِهِ وَوَقَاهُ وَ (اعْتَصَمْتُ) بِاللَّهِ امْتَنَعَتْ بِهِ وَالاسْمُ (العِصْمَةُ)، وَ (عِصَامٌ) الْقَرْبَةُ رِبَاطُهَا وَسِيرُهَا الَّذِي تَحْمِلُ بِهِ وَالْجَمْعُ (عِصْمٌ) مِثْلُ كِتَابٍ وَ كُتُبٌ".^١

٦. "والعِصْمَةُ: المنع، يقال عَصَمَهُ الطَّعَامُ أَي مَنَعَهُ مِنَ الْجُوعِ. وَالْعِصْمَةُ أَيْضًا: الْحِفْظُ وَقَدْ عَصَمَهُ يَعِصِمُهُ بِالْكَسْرِ عِصْمَةً فَانْعَصَمَ وَ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ أَي امْتَنَعَ بِلَطْفِهِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَاعْتَصَمَ بِكَذَا وَاسْتَعَصَمَ بِهِ: غَذَا تَقَوَّى وَامْتَنَعَ، وَفِي الْمِثْلِ كُنْ عِصَامِيًّا وَلَا تَكُنْ عِظَامِيًّا يُرِيدُونَ بِهِ قَوْلَهُ: نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامًا وَعَلَّمَتْهُ الْكُرَّ وَالْإِقْدَامَا".^٢

٧. "العصمة: كل ما أمسك شيئاً فقد عصمه ﴿وَلَا تُمَسِّكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (سورة المتحنة، آية: ١٠)، أَي بِجِبَالِهَانِ أَي لَا تَرْغَبُوا فِيهِنَّ".^٣

٨. وَقَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ فِي مَعْجَمِهِ: "وَقَدْ عَصَمْتُ الرَّجُلَ، إِذَا مَنَعْتَ مِنْ ضَيْمِهِ. وَأَعْصَمَ بِالْحَبْلِ، إِذَا أَمْسَكَ بِهِ. وَاعْتَصَمَ الرَّجُلُ بِالرَّجْلِ، إِذَا لَجَأَ إِلَيْهِ".^٤ وَالْعِصْمَةُ "المنع. والعصمة ايضاً: الحفظ. وقد عصمه الله تعالى، أَي حَفِظَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَاللَّهُ يَعِصْمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (سورة المائدة، آية: ٦٧)، يَحْتَمِلُهَا... وَقِيلَ الْعِصْمُ: الْحَبَالُ".^٥ وَقِيلَ الْعِصْمَةُ "اسم لكل ما يُعْتَصَمُ بِهِ وَيَتَمَسَّكُ: مِنْ حَبْلِ، أَوْ عَقْدٍ، أَوْ سَبَبٍ آخَرَ".^٦

^١ أحمد بن محمد بن علي الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، (د.ت)، المكتبة العلمية، بيروت، كتاب العين، ج ٢، ص ٤١٤.

^٢ محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، ١٤٢٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، باب العين، ص ٢١٨.

^٣ أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ت: عدنان درويش ومحمد المصري، ١٤١٩هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٩٤٣.

^٤ الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري: المعجم في بقية الأشياء، ط ٢، ١٤١٣هـ، مكتبة الهداية، بيروت، باب العين، (العصم)، ص ١١٦.

^٥ محمد بن أبي بكر الرازي: تفسير غريب القرآن العظيم، ت: حسين ألمالي، ١٩٩٧م، مديرية النشر والطباعة والتجارة - التابعة لوقف الديانة التركية، أنقرة، باب الميم - فصل العين، ص ٤٦٠ - ٤٦١.

^٦ محمد الرازي، المرجع السابق، باب الميم - فصل العين، ص ٤٦٠ - ٤٦١.

٩. وقيل العصمة "المنعة، والعاصمُ: المانعُ الحامي، والاعتصامُ: الامتسакُ بالشيءِ أفتعال منه"^١.
والعصمة "المنعة؛ ومنه يقال للبدرة: عصمة، والبدرة: الحفارة للقافلة، وذلك بأن يرسل
معها من يحميها ممن يؤذيها"^٢.

١٠. والعصمة: "القلادة والجمع عصم وجمع الجمع أعصام"^٣.

وبالنظر في المعاني التي وردت في معاجم اللغة عن العصمة نجد أنها تدل على أمور عديدة، ومنها:
الإمسак والمنع والملازمة والالتجاء والحفظ والوقاية والقوة، وكل هذه المعاني أصل لمراد البحث
وأهدافه.

ثانياً: المدلول الاصطلاحي:

وقد وردت عدة معاني للاعتصام في الاصطلاح ومنها:

١. العصمة "ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها"^٤.

٢. والاعتصام بالله "التمسك بدينه، وطاعته"^٥.

٣. والاعتصام "الثقة بالله"^٦.

٤. والمعصوم "أي من عصمه الله بأن حماه من الوقوع في المهالك أو ما يجرُّ إليه، يُقال عصمه الله
من المكروه وقاه وحفظه، واعتصمتُ بالله لجأت إليه، وعصمة الأنبياء على نبينا وعليهم
الصلاة والسلام حفظهم من النقائص وتخصيصهم بالكمالات النفيسة، والنصرة والثبات في

^١ مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، (د.ت)، مكتبة
أنصار السنة المحمدية، باكستان، ج ٣، ص ٢٤٩.

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٤، ص ١٠٢.

^٣ محمد بن مكرم بن علي ابن منظور: لسان العرب، ١٤١٦هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٩،
ص ٢٤٤، باب العين - مادة "عصم".

^٤ محمد بن عبد الرحمن المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف، ت: د. محمد رضوان الداية، ١٤١٠هـ، دار
الفكر المعاصر، بيروت، باب العين - فصل الصاد، ص ٥١٦. والجرجاني، التعريفات، باب العين، ص ١٩٥.

^٥ محمد بن علي الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط ٢، ١٤١٨هـ، دار
الوفاء، المنصورة، ج ١، ص ٦٠١.

^٦ محمد الشوكاني، المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠٣.

الأمر، وإنزال السكينة، والفرق بينهم وبين غيرهم أن العصمة في حقهم بطريق الوجوب وفي حق غيرهم بطريق الجواز".^١

المطلب الثاني: الاعتصام في القرآن والسنة:

معاني ألفاظ العصمة والاعتصام في القرآن تدور إما حول المنع من المؤذي متعدية بالحرف (من) كقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (سورة المائدة، آية: ٦٧)، أو الامتناع بالله من المؤذي متعدية بالحرف (ب) كقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠١)، أو لازمة بنفسها دون تعدية كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (سورة يوسف، آية: ٣٢).^٢

ألفاظ العصمة والاعتصام التي وردت في القرآن والسنة:

١. المنع: قال السجستاني "عاصم: مانع، من قوله تعالى ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (سورة هود، آية: ٤٣)، أي لا مانع"^٣، قال الزجاج في قوله تعالى ﴿سَأَوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (سورة هود، آية: ٤٣) "أي يمنعني من الماء، والمعنى من تعريق الماء قال الأزهري والحذاق من النحويين اتفقوا على أن قوله لا عاصم بمعنى لا مانع"^٤، وقال البغدادي ﴿يَعْصِمُنِي﴾ (سورة هود، آية: ٤٣)، "أي: يمنعني"^٥. وفي حديث الإفك «فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ»^٦، قال ابن حجر في في معنى (فَعَصَمَهَا) "أي حفظها ومنعها"^٧، وحديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١١، ص ٦١٣.

^٢ عبد العزيز بن أحمد البغدادي: ترشيده الاختلاف لواجب الانتلاف، ١٤١٦ هـ، دار ابن حزم، بيروت، ص ٢١-٢٢.

^٣ أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني: غريب القرآن، ت: محمد أديب جمران، ١٤١٦ هـ، دار فتيية، باب العين- فصل العين المفتوحة، ص ٣٣٤.

^٤ ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٢٤٤، باب العين- مادة "عصم".

^٥ أبو عمر محمد بن عبد الواحد البغدادي: ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، ت: محمد يعقوب التركستاني، التركستاني، ١٤٢٣ هـ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ص ٢٠٤-٢٦٤.

^٦ أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب (لولا إذ سمعتموه قلمتم...)، حديث رقم (٤٧٥٠).

^٧ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٨، ص ٦١٣.

وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ
الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»^١، قال ابن حجر (عَصَمُوا) أي: مَنْعُوا، وَأَصْلُ الْعِصْمَةِ مِنْ
الْعِصَامِ وَهُوَ الْخَيْطُ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ فَمِ الْقَرْبَةَ لِيَمْنَعَ سَيْلَانَ الْمَاءِ^٢، وحديث عبد الله بن دينار
قال سمعت ابن عمر يتمثل بشعر أبي طالب (وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْعِمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى
عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ)^٣، قال ابن حجر "عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ": أَي يَمْنَعُهُمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ^٤.

٢. الامتناع بالله: قال البغدادي ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ (سورة النساء، آية: ١٤٦)، "أي: وامتنعوا بالله"^٥،
بالله^٥، وقال الرازي "واعتصم بالله من الآياتِ ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠١):
أي امتنع بلطفه من المعصية... واعتصم بكذا، واستعصم به: أي تقوى وامتنع. ومنه قوله
تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٣)... وقوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ
هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ (سورة الحج، آية: ٧٨): أي امتنعوا به من أعدائكم^٦، وقال الله عز و جل حكايةً
عن امرأة العزيز حين راودته عن نفسه ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي "تأبى عليها ولم يُجِبها إلى ما
طلبت"^٧.

٣. الملازمة: قال تعالى ﴿وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ﴾ (سورة الممتحنة، آية: ١٠)، قال القرطبي عند
تفسير هذه الآية "والعصم جمع العصمة؛ وهو ما اعتصم به، والمراد بالعصمة هنا النكاح"^٨،
وقال الرازي "أي بعقد انكحتهن، جمع عصمة، وهي العقدة، ويُقال العَقْد. ومنه قولهم:
عصمة المرأة بيد الرجل، أي عُقدة نكاحها؛ والمعنى: لا ترغبوا فيهن"^٩، وقال الزجاج "أصلُ
العِصْمَةِ الحَبْلُ وكلُّ ما أَمْسَكَ شيئاً فقد عَصَمَهُ تقول إذا كَفَرْتَ فقد زالتِ العِصْمَةُ"^{١٠}.

^١ أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة...)، حديث رقم (٢٥).

^٢ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ١٠٤.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، حديث رقم (١٠٠٨).

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٢، ص ٦٣٠.

^٥ البغدادي، ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، ص ٢٠٤ - ص ٢٦٤.

^٦ الرازي، تفسير غريب القرآن العظيم، باب الميم - فصل العين، ص ٤٦٠ - ٤٦١.

^٧ ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٢٤٤، باب العين - مادة "عصم".

^٨ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨، ص ٤٤.

^٩ الرازي، تفسير غريب القرآن العظيم، باب الميم - فصل العين، ص ٤٦٠ - ٤٦١.

^{١٠} ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٢٤٤، باب العين - مادة "عصم".

٤. الالتجاء: قال الله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ (سورة الحج، آية: ٧٨)، قال الشوكاني في تفسير هذه الآية "أي اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون، والتجئوا إليه في جميع أموركم، ولا تطلبوا ذلك إلاّ منه"١، وقال ابن المظفر "أَعَصَمَ إِذَا لَجَأَ إِلَى الشَّيْءِ وَأَعَصَمَ بِهِ"٢.
٥. الإمساك: "وَعَصَمَ إِلَيْهِ اعْتَصَمَ بِهِ وَأَعَصَمَهُ هَيَأُ لَهُ شَيْئًا يَعْتَصِمُ بِهِ وَأَعَصَمَ بِالْفَرَسِ امْتَسَكَ بَعْرِفَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٣) أَي تَمَسَّكُوا بِعَهْدِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠١) أَي مَنْ يَتَمَسَّكُ بِحَبْلِهِ وَعَهْدِهِ"٣. وعَهْدِهِ"٣. وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...»٤. قال الإمام النووي "وَأَمَّا لِإِعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ فَهُوَ التَّمَسُّكُ بِعَهْدِهِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ وَحُدُودِهِ، وَالتَّأَدُّبُ بِأَدَبِهِ"٥.
٦. البياض: يُقَالُ لِلْغُرَابِ أَعَصَمَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ أَيْبُضَ، وَقَالَ ابْنُ سَيْدِهِ وَالْأَعَصَمُ مِنَ الظُّبَاءِ وَالْوُعُولِ الَّذِي فِي ذِرَاعِهِ بِيَاضٌ، وَفِي الْحَدِيثِ «الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ كَالْغُرَابِ الْأَعَصَمِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْغُرَابُ الْأَعَصَمُ؟ قَالَ الَّذِي إِحْدَى رِجْلَيْهِ بِيَضَاءً»٦، يَقُولُ إِنَّمَا عَزِيزَةٌ لَا تُوجَدُ كَمَا لَا يُوجَدُ الْغُرَابُ الْأَعَصَمُ"٧. وفي المختللات المتبرجات قال صلى الله عليه وسلم: لا يدخل يدخل الجنة منهنّ إلا مثل الغراب الأعصم"٨. قيل: يا رسول الله وما الغراب الأعصم؟ قال:

١ الشوكاني، فتح القدير، ج ٣، ص ٦٤١.

٢ ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٢٤٤، باب العين - مادة "عصم".

٣ ابن منظور، المرجع السابق، ج ٩، ص ٢٤٤، باب العين - مادة "عصم".

٤ سبق تخريجه ص ٩.

٥ يحيى بن شرف النووي: شرح صحيح مسلم، ط ٢، ١٤١٤هـ، مؤسسة قرطبة، مكة المكرمة، ج ١٢، ص ١٥.

٦ أخرجه الطبراني، المعجم الكبير، حديث رقم (٧٨١٧) عن أبو أمامة صدي بن عجلان رضي الله عنه. سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الكبير، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، ط ٢، ١٤٠٤هـ، مكتبة العلوم والحكم، الموصل. قال الألباني: ضعيف (٥٢٤٦)، محمد ناصر الدين الألباني: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، ط ٣، ١٤١٠هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

٧ ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٢٤٤، باب العين - مادة "عصم".

٨ أخرجه البيهقي، كتاب النكاح، باب استحباب التزوج بالودود الولود، حديث رقم (١٣٢٥٦)، ونص الحديث عن أبي أذينة الصدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خير نسائكم الودود الولود المواتية الموسية إذا اتقين الله، وشر نسائكم المتبرجات المتخيلات وهن المنافقات لا يدخل الجنة منهنّ إلا مثل الغراب الأعصم". أحمد بن

الذي إحدى رجله بيضاء... قال ابن الأعرابي: الأعصم من الخَيْل الذي في يديه بياض قلّ أو كثر والوُعُول أكثرها عُصْمَةٌ. وقال الأصمعي: العُصْمَةُ بياض في ذراعي الظبي والوعول. وعن بعضهم: بياض في يديه أو إحداهما كالسَّوَار. وتفسير الحديث يطابق هذا القول إلا أن الرَّجُلُ موضوعَةٌ مكان اليد قالوا: وهذا غيرٌ موجود في الغربان فمنعناه إذن أنه لا يدخل أحد من المختالات المتبرّجات الجنة وقيل: إن الجناحَيْنَ للطائر كاليدين للبهيمة. والأعصم من الغربان: الذي في أحد جناحيه ريشةٌ بيضاء وهو قليل فيها فعلى هذا يدخل القليل النادرٌ منهم الجنة^١.

وهذا المعنى "البياض" للاعتصام هو ما تركنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من التمسك بالكتاب والسنة الذي هو موضوع البحث وأصله، وشبهه بالبياض لأنه واضح ونقي وطاهر وهو الصراط المستقيم لمن أراد النجاة والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، قال صلى الله عليه وسلم «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك و من يعيش منكم فسيري اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي و سنة الخلفاء المهديين الراشدين من بعدي»^٢، فشبه النبي صلى الله عليه وسلم التمسك بسنته وهدية وهدى خلفاءه من بعده بالبياض الذي تركنا عليه، وأوصانا أن نتمسك به ونعص عليه بالنواجذ وقت الاختلاف الذي أخبر به، وذلك لبيان طريق النجاة والسلامة.

٧. الثقة بالله والتوكل عليه: قال الله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ (سورة الحج، آية: ٧٨)، قال الطبري "وثقوا بالله وتوكلوا، عليه في أموركم"^٣، وقال ابن كثير "أي: اعتضدوا بالله، واستعينوا به، وتوكلوا عليه، وتأيّدوا به"^٤، وعن أبي العالية قال "الاعتصام: الثقة بالله"^٥.

الحسين البيهقي: السنن الكبرى، ت: محمد عبد القادر عطا، ١٤١٤هـ، دار الباز، مكة المكرمة. قال الألباني: حديث صحيح (٣٣٣٠)، محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته، ط٣، ١٤٠٨هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

^١ جار الله بن محمود بن عمر الزمخشري: الفائق في غريب الحديث، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ص٣٦٩، حرف العين.

^٢ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب العلم، حديث رقم (٣٣١). سكت عنه الذهبي في التلخيص.

^٣ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ط٣، ١٣٢٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٩، ص١٩٥.

^٤ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٢٤٧.

^٥ الشوكاني، فتح القدير، ج١، ص٦٠٣.

٨. الإيمان بالله: "عن ابن جريج، في قوله ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠١)، قال: يؤمن بالله" ^١.

٩. الحفظ والنصر والتأييد من الله: قال ابن كثير في قوله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (سورة المائدة، آية: ٦٧)، أي: بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك" ^٢، وروى الطبري عن قتادة في قوله تعالى ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ (سورة غافر، آية: ٣٣): أي من ناصر، وفي الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عَصِمَ مِنَ الدَّجَالِ» ^٣، أي يحفظ من فتنته، وفي حديث الإفك «فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ» ^٤، قال ابن حجر في معنى (فَعَصَمَهَا): أي حَفِظَهَا وَمَنَعَهَا، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مَا اسْتُخْلِِفَ خَلِيفَةً إِلَّا لَهُ بَطَانَتَانِ بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ» ^٥، ومنه أيضاً الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةٌ أُمْرِي...» ^٦ الحديث، قال المناوي في شرحه للحديث "أي الذي هو حافظٌ لجميع لجميع أموري" ^٧.

يتبين من معاني الاعتصام الواردة في الكتاب والسنة أنها تدل على أصل واحد، ومعنى واحد، وهو مقصد من مقاصد الشريعة، وإن اختلفت الألفاظ لكنها تدور جميعها حول وجوب التمسك بالكتاب والسنة، والبعد عن الاختلاف والتفرق، فالمنع يكون بمنع التفرق والاختلاف وهو من

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٣، ص ٣٦٤.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٨١.

^٣ أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، حديث رقم (٨٠٩).

^٤ سبق تخريجه ص ٥٨.

^٥ أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب المعصوم من عصم الله، حديث رقم (٦٦١).

^٦ أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ بالله من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، حديث رقم (٢٧٢٠).

^٧ محمد بن عبد الرؤوف المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ١٣٥٦هـ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، حرف الهمزة، ج ٢، ص ١٣٧.

مقاصد الشريعة، والامتناع بالله هو التقوي بالله وهو شرعه ودينه المتمثل في الكتاب والسنة، والملازمة هي المداومة والاتصاق بالكتاب والسنة والعمل بهما وبمقتضاهما، والالتجاء الرجوع إلى الكتاب والسنة وجعلهما حكماً لجميع أمور الحياة، والإمساك التمسك بالكتاب والسنة في جميع الأحوال، والبياض ذكرنا سابقاً أنه الطريق الذي بينه الرسول صلى الله عليه وسلم عند وقوع الاختلاف، وأن ذلك بالتمسك بهديه وهدى خلفائه من بعده، ليتحقق العلم اليقيني، والمخرج الحقيقي من مخاطر الاختلاف والتفرق، والتمسك بالكتاب والسنة توكلًا واعتماداً وطمأنينةً هو بإذن الله الطريق إلى آخر المعاني من الحفظ والنصر والتأييد من الله لمن تمسك بالكتاب والسنة ثقةً وإيماناً به سبحانه وتعالى، مبتعداً عن حظوظ النفس وأهوائها وأطماعها.

وهذه المعاني بلا شك تربي من فهمها على أهمية الوحدة والاجتماع، وخطر التفرق والاختلاف، وتجعله دائماً مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، لأنه استقى من معين الرب المربي جل جلاله، ومعين المربي المعصوم صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: أسباب الاختلاف والتفرق والوسائل التربوية المعينة على الوحدة والاجتماع:

المطلب الأول: أسباب الاختلاف والتفرق:

تمهيد

الاختلاف سنة الله في الحياة والخلق يقول تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الروم، آية: ٢٢)، وهو سنة الله القدرية والكونية يقول تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (سورة هود، آية: ١١٨-١١٩)، قال ابن كثير "أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم"^١، ويقول صلى الله عليه وسلم «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْعَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِيهَا»^٢.

فالاختلاف قائم بين البشرية منذ خلق الله آدم عليه السلام، إلا أن الاختلاف المذموم الذي نبه الشرع الحنيف إلى الحذر منه هو كل خلاف أدى إلى البغي والعدوان، يقول الله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢١٣).

والشريعة الإسلامية جاءت بالنهي عن أسباب التفرق المذموم الذي هو مخالف للفطرة الإنسانية، والقيم النبيلة، والأخوة الصادقة، فقال الله عز وجل ﴿وَلَا تَفْرُقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٣) قال قتادة "إن الله عز وجل قد كره لكم الفرقة، وقدم إليكم فيها، وحذركموها، ونهاكم عنها، ورضي لكم السمع والطاعة والألفة والجماعة، فارضوا لأنفسكم ما رضي الله لكم إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله"^٣. وقوله صلى الله عليه وسلم (وَلَا تَفْرُقُوا) قال النووي "فهو أمرٌ بلزوم جماعة المسلمين وتآلف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام"^٤.

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٤٨١.

^٢ سبق تخريجه ص ٩.

^٣ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٧، ص ٧٠.

^٤ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٢، ص ١٦.

وحرمت الشريعة الإسلامية كل سبب يوصل إلى التفرق كالسب، والسخرية، واللمز، والتنايز بالألقاب، وما أشبه ذلك قال صلى الله عليه وسلم «سبابُ المسلمِ فسوقٌ، وقِتالُهُ كفرٌ»^١، وقال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة الحجرات، آية: ١١)، بل وجعلت الشريعة الإسلامية للمحبة والأخوة سياجاً منيعاً، بتحريم البيع على بيع أخيه، أو الخطبة على خطبة أخيه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه، حتى يترك الخاطب قبله، أو يأذن له الخاطب»^٢، وكذلك بتحريم سوء الظن، والتجسس والغيبة قال الله تعالى محذراً عباده المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِمَّا ظَنَّنَا بِبَعْضِ الظَّنِّ إِنَّكُمْ وَلَا تَحْسَبُونَهَا عِزًّا وَمَنْ يَتَّبِعْ أَهْوَاءَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا أُوذِيَ لَحْمَ أَخِيهِ مِثْلًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ الْأَمْرِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات، آية: ١٢)، والكتاب والسنة تزخران بالنصوص في هذه المعاني لهدف تحقيق الأخوة ونشر المحبة والتسامح، وكل طريق تؤدي إليها، وبند التفرق والاختلاف، وكل سبيل يوصل إليه.

والاختلاف مأخوذ من الخِلاف وهو "المضادة، وقد خالفه مخالفة وخلافاً، وخالفه إلى الشيء عصاه إليه أو قصده بعدما نماه عنه وهو من ذلك... وتخالف الأمران واختلفا لم يتفقا وكل ما لم يتساوا فقد تخالف واختلف"^٣.

وفي الاصطلاح عرفه الجرجاني بأنه "منازعة تجري بين المتعارضين لتحقيق حق أو لإبطال باطل"^٤، وقيل "الاختلاف في المذاهب هو ذهاب أحد الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر"^٥. وهناك من جعل له تعريف أشمل وهو "تعدد الآراء، والاتجاهات في القضية الواحدة"^٦. كما عرّف بأنه "الاختلاف في الآراء، والنحل، والأديان، والمعتقدات، بما يسعد الإنسان به أو يشقى في الآخرة والدنيا"^٧.

^١ أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، حديث رقم (٤٨).

^٢ أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه، حتى ينكح أو يدع، حديث رقم (٥١٤٢).

^٣ ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص ١٨١-١٩٢، باب الخاء، مادة "خلف".

^٤ الجرجاني، التعريفات، باب الخاء، ص ١٣٥.

^٥ أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ت: محمد إبراهيم سليم، (د.ت)، دار العلم والثقافة، القاهرة، ص ١٥٧.

^٦ عبد الله إبراهيم الطريقي: فقه التعامل مع المخالف، ١٤١٥ هـ، دار الوطن، الرياض، ص ١٥.

والتفرق أشد أنواع الاختلاف بل هو من إفرزات الاختلاف، أي أن التفرق: اختلاف وزيادة، يقول الشاطبي في هذا المعنى "والتفرق ناشئ عن الاختلاف في المذاهب والآراء إن جعلنا التفرق معناه بالأبدان، وهو الحقيقة، وإن جعلنا معنى التفرق في المذاهب؛ فهو الاختلاف، كقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٥) ^٢.
وقبل ذكر أسباب الاختلاف والتفرق نوجز أنواع الاختلاف، والتي تختلف بحسب اعتباراته والمقصود منه، فمنها:

أولاً: الاختلاف باعتبار حقيقته ^٣، وينقسم إلى قسمين:

١. اختلاف التنوع ويكون على وجوه منها:

أ- "أن يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً، كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة رضي الله عنهم حتى زجرهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال «كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ» أي في القراءة، ثم قال زاجراً لهم عن الاختلاف _ لَا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا ^٤. ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان، والإقامة، والاستفتاح، والتشهدات، وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، وتكبيرات الجنازة، إلى غير ذلك مما قد شرع جميعه، وإن كان قد يقال إن بعض أنواعه أفضل ^٥.

ب- "أن تتنوع الأسماء والصفات مع اتحاد المسمى، فيعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى _ بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة _ كما قيل في اسم السيف الصارم والمهند، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم،

^١ عبد الكريم زيدان: مجموعة بحوث فقهية، ١٤٠٢ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٢٧٤.

^٢ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي: الاعتصام، ١٤١٨ هـ، مكتبة عباد الرحمن، القاهرة، ج ٢، ص ٥٧٧.

^٣ أسماء بنت سليمان السويلم: موقف الصحابة من الفرقة والتفرق، ١٤٢٦ هـ، دار الفضيلة، الرياض، ص ٦٨-٧١.

^٤ أخرجه البخاري، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، حديث رقم (٢٤١٠).

^٥ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ط ٦، ١٤١٩ هـ، دار العاصمة، الرياض، ج ١، ص ١٤٩.

وأسماء القرآن، فإن أسماء الله كلها تدل على مسمى واحد فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر؛ بل الأمر كما قال تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (سورة الإسراء، آية: ١١٠).^١

ت- "أن يذكر من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل، وتنبية المستمع على النوع - لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومته وخصوصه، مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى "لفظ الخبز" فأري رغيفاً، وقيل له: هذا، فالإشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده - مثال ذلك: ما نقل في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (سورة فاطر، آية: ٣٢). فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات، والمنتهك للمحرمات، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات، فالمتصدون هم أصحاب اليمين ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أو لَيْكَ الْمُقْرَبُونَ﴾ (سورة الواقعة، آية: ١٠-١١)، ثم إن كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل: السابق الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار. ويقول الآخر: السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة، فإنه ذكر المحسن بالصدقة، والظالم بأكل الربا، والعاقل بالبيع... فكل قول فيه ذكر نوع داخل في الآية ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتبسيه به على نظيره؛ فإن التعريف بالمثل قد يسهل أكثر من التعريف بالحد المطلق، والعقل السليم يتفطن للنوع كما يتفطن إذا أُشير له إلى رغيف فقيل له: هذا هو الخبز".^٢

ث- "أن يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين إما لكونه مشتركاً في اللفظ كلفظ ﴿قَسْوَرَةَ﴾ (سورة المدثر، آية: ٥١) الذي يراد به الرامي، ويراد به الأسد، ولفظ ﴿عَسْعَسَ﴾ (سورة التكويد، آية: ١٧) الذي يراد به إقبال الليل وإدباره، وإما لكونه متواطئاً في الأصل، لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشئيين، كالضمائر في قوله ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (سورة النجم، آية: ٨-٩)، وكلفظ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ (سورة الفجر، آية: ١-٣)، وما أشبه ذلك. فمثل هذا قد يجوز

^١ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ١٤١٨هـ، مكتبة العبيكان، الرياض، ج ١٣، ص ١٧٨.

^٢ ابن تيمية، الفتاوى، ج ١٣، ص ١٨٠-١٨١.

أن يراد به كل المعاني التي قالها السلف، وقد لا يجوز ذلك، فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة، وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنيان؛ إذ قد جَوَّز ذلك أكثر فقهاء المالكية والشافعية والحنابلة، وكثير من أهل الكلام، وإما لكون اللفظ متواطئاً فيكون عاماً إذا لم يكن لتخصيصه موجب، فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني^١.

٢. اختلاف تضاد^٢: وهو "القولان المتنافيان، إما في الأصول وإما في الفروع، عند الجمهور الذين يقولون: المصيب واحد، وهذا الخطب فيه أشد؛ لأن القولين يتنافيان"^٣.

ثانياً: الاختلاف باعتبار موضوعه^٤ وينقسم إلى قسمين:

١. الاختلاف في المسائل العلمية الاعتقادية: وتسمى مسائل الأصول "ومن هذا الباب ما هو من باب التأويل والاجتهاد الذي يكون الإنسان مستفرغاً فيه وسعه علماً وعملاً، ثم الإنسان قد يبلغ ذلك ولا يعرف الحق في المسائل الخبرية الاعتقادية، وفي المسائل العملية الاقتصادية، والله سبحانه قد تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان بقوله تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٨٦)... فهذا من أعظم أسباب اختلاف بني آدم من المؤمنين وغيرهم، ولهذا نجد في المختلفين كل طائفة تدعى العلم الضروري، فما يقوله إما من جهة القياس والنظر، وإما من جهة السماع والخبر، وإما من جهة الإحساس والبصر، ولا تكون واحدة من الطائفتين كاذبة بل صادقة... وعامة ما تنازعت فيه فرقة المؤمنين من مسائل الأصول وغيرها في باب الصفات والقدر والإمامة وغير ذلك، هو من هذا الباب فيه المجتهد المصيب، وفيه المجتهد المخطئ، ويكون المخطئ باغياً، وفيه الباغي من غير اجتهاد، وفيه المقصر فيما أمر به من الصبر^٥، والاختلاف في مسائل الاعتقاد بين المسلمين لا ينبغي أن يقود إلى الفرقة والاختلاف، والغي والعدوان، لأنه "ليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكاً، فإن المنازع قد يكون مجتهداً مخطئاً يغفر الله خطأه، وقد لا

^١ ابن تيمية، المرجع السابق، ج ١٣، ص ١٨٢-١٨٣.

^٢ الضدان: هما صفتان وجوديتان يتعاقبان في موضع واحد، يستحيل اجتماعهما، كالسواد والبياض. الجرجاني، التعريفات، باب الضاد، ص ١٧٩.

^٣ ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج ١، ص ١٥١.

^٤ السويلم، موقف الصحابة من الفرقة والتفرق، ص ٧١.

^٥ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية: الاستقامة، ٤٢٠ هـ، دار ابن حزم، بيروت، ج ١، ص ٢٦-٣٧.

يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يحو الله به سيئاته، وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناوئة له، لا يجب أن يدخل فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك، فهذا أولى^١

٢. الاختلاف في المسائل العملية الفقهية: وتسمى مسائل الفروع، وهو تعدد أقوال المجتهدين في المسائل العملية الفرعية التي لم يدل دليل قاطع على حكمها^٢، وهذا الاختلاف قائم بين علماء الإسلام، قديماً وحديثاً، ولم يكن هذا الاختلاف يقود إلى البغي والعدوان، أو التفسيق والتبديع، إلا في العصور المتأخرة التي انتشر فيها الجهل والتعصب والتقليد الأعمى وإتباع الهوى، بل كان مجال بحث ونظر واجتهاد من علماء الإسلام، وهذا من رحمة الله بعباده، "فلو شاء الله عز وجل لجعل النصوص الشرعية محكمة قطعية في دلالتها لا تحتل توارد الظنون ولا تكافؤ الأدلة المتعارضة، غير أن الله حكمه في أن تكون الفروع والجزئيات قابلة لهذا الخلاف"^٣، يقول الشاطبي "فإن الله حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالاً للظنون، وقد ثبت عند النظر أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف، لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكلليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف"^٤.

ثالثاً: الاختلاف باعتبار حكمه فينقسم إلى ثلاثة أقسام^٥:

١. الاختلاف المذموم: وهو الاختلاف الذي يقود إلى البغي والعدوان بين الناس بعضهم على بعض، وهو على أنواع:

أ- اختلاف الكفر والإيمان، فالبشر ينقسمون إلى مؤمن بالله وكافر به، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الاختلاف في آيات عدة، منها قوله تعالى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ

^١ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٣، ص ١١٦.

^٢ خالد بن سعد الخشلان: اختلاف التنوع حقيقته ومناهج العلماء فيه، ١٤٢٩هـ، دار كنوز إشبيلية، الرياض، ص ١٩.

^٣ محمود بن محمد الخزندار: فقه الائتلاف قواعد التعامل مع المخالف بالإنصاف، ١٤٢١هـ، دار طيبة، الرياض، ص ٢٦.

^٤ الشاطبي، الاعتصام، ج ٢، ص ٥٨١.

^٥ محمود بن محمد داود الصميدعي: منهج القرآن الكريم في تصنيف الأمة من الفرقة والاختلاف، ١٤٢٩هـ، دار دار النهضة، دمشق، ص ٥٩ - ٧٣ بتصرف.

بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَأَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (سورة البقرة، آية: ٢٥٦)، وهذا النوع من الاختلاف لا يقبل المهادنة ولا يقبل المجاملة على حساب الآخر لأنه اختلاف عقائدي، فلا يمكن الجمع بين عقيدتين مختلفتين والإيمان بهما معاً، وقد ورد أن المشركين من قريش دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعبدوا ربه سنة، وأن يعبد أوثانهم سنة، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: نعبد ربك سنة على أن تعبد أوثاننا يوماً واحداً، فأبى، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۖ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَّدتُّمْ ۖ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (سورة الكافرون، آية: ١-٦)، قال ابن عباس رضي الله عنه: "ليس في القرآن أشدَّ غيضاً لإبليس منه؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك"¹ وذلك للدلالة على أن الكفر والإيمان لا يلتقيان أبداً، بل يجب أن يبرأ الإنسان إلى ربه من الكفر، "وهذا الاختلاف فيه مخالفة للحق البين من غير هدى ولا علم، بل بمحض الهوى ولفرط الجهل، فالمخالف للحق مذموماً، والمتبع له محمود، فهذا اختلاف مذموم من جانب واحد وهو جانب المعرض عن الحق"².

ب- اختلاف أهل الأهواء والبدع، وقد سُموا بأهل الأهواء لأنهم يؤولون نصوص الدين بما يوافق أهوائهم وأفكارهم، وبما يخالف الحق تأويلاً فاسداً باطلاً، ومن أمثلتهم، الخوارج حيث تأوّلوا القرآن بحسب أهوائهم فخالفوا الحق الذي عليه جماعة المسلمين وانفصلوا عنهم واستحلوا دماءهم، واختلفوا معهم، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم الخوارج ودفع شرورهم ولو بقتالهم.

ت- الاختلاف الذي يقع بين المقلدين للمذاهب الإسلامية، وهذا النوع من الاختلافات يمكن عدّه من أوسع أنواع الاختلافات انتشاراً في بلاد المسلمين، حيث إن تقليد الأشخاص وجعلهم ميزاناً للحق والباطل، والتعصب لهم، والأخذ عنهم دون غيرهم، واعتبار أن رأيهم هو الصواب ورأي غيرهم باطل، هو من الأسباب الرئيسة للاختلافات الفقهية والعقائدية في الغالب، حيث إنهم يرتبون على ذلك نتائج خطيرة مفرقة للكلمة، ومشتتة للشمل، ولا شك أن هذا النوع من الاختلافات مذموماً قطعاً ولا وجه له؛ لأن

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠، ص ١٥٣.

² السويلم، موقف الصحابة من الفرقة والتفرق، ص ١٨.

المذاهب الإسلامية ما هي إلا وجوهٌ لتفسير نصوص الشريعة في القرآن والسنة واستنباط الأحكام على أساسها.

٢. الاختلاف المشروع: وهو الاختلاف الممدوح، وسبب كونه ممدوحاً، لأن أهم ما يمثله اختلاف المسلمين مع المشركين ومخالفتهم، وذلك يُعد من لوازم استمساك المسلمين بدينهم، والإسلام دينٌ أمر بمخالفة المشركين ونهى عن التشبه بهم، سواء كان هذا الأمر والنهي على وجه الحتم والإلزام، أم على وجه الندب والاستحباب، وسواء كان ذلك - أي الأمر والنهي - مما يتعلق باعتقادهم الباطلة أو بعبادتهم وأحوالهم الظاهرة، وتلك حقيقة أشار إليها القرآن بقول الكريم ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^١ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الجاثية، آية: ١٨-١٩)، وقد دخل في مفهوم (الذين لا يعلمون) كل من خالف شريعة الله وانتهج غيرها، ودخل في مفهوم (الأهواء) كل ما يهواه المشركون من أحوالهم الظاهرة التي هي من موجبات دينهم الباطل وتوابع ذلك، وكذلك نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن التشبه بالمشركين وأمر بمخالفتهم.

٣. الاختلاف السائغ (المقبول)، وهذا النوع من الاختلاف هو اختلاف المجتهدين في الأحكام الشرعية من فقهاء ومفتين في المسائل الاجتهادية التي يسوغ فيها الاجتهاد والاختلاف، وهي التي لا يوجد فيها نص قطعي ولا مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة، وهذا الاختلاف متعدد الأنواع:

أ- فمنه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً، ومن أمثلته: ما فهمه الصحابة من توجيه النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعد معركة الخندق حيث قال «لَا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ». فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم بل نصلي، لم يُرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فلم يُعنف واحداً منهم^١.

ب- ومنه ما يرجع فيه الاختلاف إلى اللفظ المشترك في اللغة، ومن ذلك مثلاً: الاشتراك في اللفظة المفردة في كلمة (قرء) الواردة في قوله تعالى بياناً لعدة المطلقات ذوات الحيض

^١ أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، حديث رقم (٤١١٩).

﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٢٨)، فإنها مشتركة بين الحيض والطهر، وثبت ورودها في كليهما على حد سواء.

ت- ومنه ما يكون المعنيان مختلفين لكن لا يتنافيان، فهذا قول صحيح، وذلك قول صحيح، ومن أمثله: الاختلاف الناشئ من تردد اللفظة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، فقد اختلفوا في معنى قوله تعالى ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ (سورة المائدة، آية: ٣٣)، الواردة ضمن عقوبات المحاربين لله ورسوله، فقد حملها جمهور الفقهاء على الإخراج من الأرض التي أرتكب فيها الإفساد وهو المعنى الحقيقي، وحملها آخرون من الفقهاء على السجن وهو المعنى المجازي لكلمة (ينفوا). ولكي يكون الاختلاف سائغاً مقبولاً لا بد أن يتوفر فيه شروط وإلا كان اختلافاً مذموماً، فمن تلك الشروط^١:

- أن يصدر من فقهاء هم أهل علم وبصيرة بالفقه واستنباط الأحكام. أي: علماء مجتهدين تتوافر فيهم شروط الاجتهاد المقررة في كتب الفقه وأصوله.
- أن يكون في المسائل التي لا يوجد دليل قطعي على حكمها من الكتاب والسنة، وهي المسائل الفرعية التي يسوغ الاجتهاد والنظر فيها.
- أن يكون قصد المجتهدين فيها الوصول إلى الحق والصواب، وأن يبذلوا قصارى جهدهم للوصول إلى ذلك.
- أن لا يؤدي هذا الاختلاف إلى التفرق والتقاطع واختلاف القلوب، لأن "من مسائل الخلاف ما يتضمن أن اعتقاد أحدهما يوجب عليه بغض الآخر ولعنه أو تفسيقه أو تكفيره أو قتاله، فإذا فعل ذلك مجتهداً مخطئاً كان خطؤه مغفوراً له، وكان ذلك في حق الآخر محنةً في حقه وفتنةً وبلاءً ابتلاه به، وهذه حال البغاة المتأولين مع أهل العدل، سواء كان ذلك بين أهل اليد والقتال من الأمراء ونحوهم، أو بين أهل اللسان والعمل من العلماء والعباد ونحوهم، وبين من يجمع الأمرين. ولكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي لا مجرد الاجتهاد... كما قال تعالى ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٩)... فلا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد السائغ بل مع نوع بغي^٢.

^١ عبد الكريم زيدان: الخلاف في الشريعة الإسلامية، (د.ت)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٢٨٩.

^٢ ابن تيمية، الاستقامة، ج ١، ص ٣١.

- تجريد القصد فلا يكون إلا لوجه الله تعالى للوصول إلى الحق وإن كان مع مخالفهم.

والاختلاف في حياة البشرية سنة كونية قدره وأراده الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (سورة هود، آية: ١١٨-١١٩)، "فأخبر سبحانه أنهم لا يزالون مختلفين أبداً مع أنه إنما خلقهم للاختلاف، وهو قول جماعة من المفسرين في الآية وأن قوله ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾؛ معناه: وللإختلاف خلقهم، وهو مروى عن مالك بن أنس، قال: خلقهم ليكونوا فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير، ونحوه عن الحسن"، فهذا الاختلاف الذي أراده الله وقدره ليس الاختلاف في الأشكال والهيئات والطباع، وإنما الاختلاف في الآراء والمعتقدات، وما ينتج عنها للإنسان في الدنيا من سعادة أو شقاء، وفي الآخرة من جنة أو نار، يقول الشاطبي: "وليس المراد هنا الاختلاف في الصور، كالحسن والقبح، والطويل والقصير، ولا في الألوان، كالأحمر والأسود، ولا في أصل الخلق، كالتام الخلق، والأعمى والبصير، والأصمّ والسَّمِيع، ولا في الخلق كالشجاع والجبان، والحواد والبخيل، ولا فيما أشبه ذلك من الأوصاف التي هم مختلفون فيها.

وإنما المراد اختلاف آخر، وهو الاختلاف الذي بعث الله النبيين ليحكموا فيه بين المختلفين؛ كما قال تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ...﴾ (سورة البقرة، آية: ٢١٣)، وذلك الاختلاف في الآراء والنحل والأديان والمعتقدات المتعلقة بما يسعد الإنسان به أو يشقى في الآخرة والدنيا^١.

ووقوع الاختلاف في الأمة الواحدة من القدر الذي قدره الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «افتترقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة أو اثنتين و سبعين فرقة، و النصرارى مثل ذلك، و تفرقت أمي على ثلاث و سبعين فرق»^٢.

وهذا القدر السابق من الله سبب من أسباب الاختلاف ولا كسب للعباد فيه^٣، وإنما هم مأمورون بالامتثال لأمر الله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٣)، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنْ

^١ الشاطبي، الاعتصام، ج ٢، ص ٥٧٧-٥٧٨.

^٢ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان، ج ١، حديث رقم (١٠).

^٣ الشاطبي، الاعتصام، ج ٢، ص ٥٧٧.

الْإِنِّينِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزِمِ الْجَمَاعَةَ»^١، والنصوص من الكتاب والسنة في هذا المجال أكثر من أن تُحصى، بالأمر بالاجتماع والألفة والمحبة، والنهي عن الاختلاف والتفرق والتقاطع والتدابير، ونحن مأمورون بالأخذ بأسباب الأخوة والتراحم، ومنهيون عن كل سبب يوصل إلى الفرقة والتباغض.

ونورد في هذا المبحث أسباب الاختلاف والتفرق، والوسائل التربوية المعينة على الوحدة والاجتماع:

أولاً: أسباب الاختلاف والتفرق:

أسباب الاختلاف التي تؤدي إلى التفرق كثيرة منها ما يكون بسبب المعتقد، وهو أشدها اختلافاً وتفرقاً؛ لأنه كما ذكرنا لا يمكن أن تجتمع عقيدتان معاً، فصد الكفر الإيمان، ومنها ما يكون بسبب الاجتهاد الفقهي بين فقهاء الأمة، وهذا لا شك أنه واسع ولكنه أقل من السابق، ومنها ما يكون بأسباب ذاتية بين أفراد الأمة الواحدة، وهذا لا حصر له ولا حد، ونبدأ بالأسباب العقائدية:

١. الأسباب العقائدية:

العقيدة في اللغة: من العَقْد؛ وهو الرَبْطُ، والإِبْرَامُ، والإِحْكَامُ، والتَّوْتُقُ، والشَّدُّ بقوة، والتماسُكُ، والمراسة، والإثبات، والملازمة، واليقين والجزم، والعَقْدُ نقيض الحل^٢.
والعقيدة ما يدين به الإنسان سواءً كان حقاً أو باطلاً، والعقائد هي "الأمر التي تُصدق بها النفوس، وتطمئن إليها القلوب، وتكون يقيناً عند أصحابها، لا يمازجها ريب ولا يخالطها شك"^٣.
وفي الاصطلاح الشرعي تعرف بأنها "العلم بالأحكام الشرعية العقيدية المكتسبة من الأدلة اليقينية ورد الشبهات وقوادح الأدلة الخلافية"^٤.

والله سبحانه وتعالى فطر الناس على عقيدة التوحيد ﴿فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (سورة الروم، آية: ٣٠)، وهي أصل فطرة الإنسان يقول الرسول صلى الله

^١ أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، ج ٤، حديث رقم (٢١٦٥). قال الألباني: حديث صحيح.

^٢ ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٣٠٩-٣١١، باب العين - مادة (عقد). والفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ٣٨٣، باب العين.

^٣ عمر سليمان الأشقر: العقيدة في الله، ط ٩، ١٤١٤هـ، دار النفائس، الأردن، ص ٩.

^٤ إبراهيم محمد البريكان: المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة والجماعة، ١٤٢٣هـ، دار ابن القيم، الدمام، ص ١٣.

عليه وسلم «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ... الحديث»^١، وأشهدهم على ذلك قبل أن يُخلقوا ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٧٢)، وكان الاختلاف في العقيدة الأساس لمبعث الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فقد كان الناس على التوحيد مجتمعين منذ آدم عليه السلام، ثم ما لبثوا حتى دخل الاختلاف والتفرق عليهم من جهة المعتقد، فتنفرق الناس أشتاتاً، منهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد الشجر، ومنهم من بقي موحداً لله تعالى، "وأصل هذا الاختلاف هو في التوحيد والتوجه للواحد الحق سبحانه، فإن الناس في عامة الأمر لم يختلفوا في أن لهم مديراً يديرهم وخالقاً أوجدهم، إلا أنهم اختلفوا في تعيينه على آراء مختلفة، من قائل بالاثنتين، أو بالخمسة، أو بالطبيعة، أو الدهر، أو الكواكب... إلى أن قالوا بالآدميين والشجر والحجارة وما ينحتونه بأيديهم، ومنهم من أقرَّ بواجب الوجود الحق، لكن على آراء مختلفة أيضاً"^٢، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ (سورة يونس، آية: ١٩)، يقول ابن كثير "أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام؛ قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٤٢)"^٣، بل لقد حصر الله الأديان التي عليها الناس في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سورة الحج، آية: ١٧)، ثم تأصل هذا الاختلاف في الناس بين المؤمنين والكفار، بل وأصبح خلافاً متشعباً بين فرق الإسلام، وملل الكفر، اختلافاً في الأصول، في المنهج والتلقي، والنظر والاستدلال، وتحولت العقيدة من بساطتها وسهولتها وسمو أهدافها إلى فلسفة، وأهواء، وأقيسة عقلية، ومهاترات كلامية، واختلافات حزبية، قادت البشرية إلى التفرق، والبغي، والظلم، والعدوان.

والمشكلة التي بدأت في تاريخ بني آدم وجعلته يتجه نحو الاختلاف والتفرق في باب العقائد، هو ذلك الفصام بين العلم والعمل، إما عن جهل، أو تعصب، أو تأوّل، أو إتباع للهوى، أو نزغ من

^١ أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم (١٣٨٥)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، حديث رقم (٢٦٥٨).

^٢ الشاطبي، الاعتصام، ج ٢، ص ٥٧٩.

^٣ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٤٢٦.

الشیطان، وما نتج عن ذلك من انتهاج لطريقة الفلاسفة والمتكلمين، لإفحام الخصوم والانتصار للقول والاعتقاد، ولو كان مخالفاً للصواب، والمنهج العلمي الصحيح أنه "لا بد أن تُعرض العقيدة بأسلوب العقيدة، إذ أن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها، ويُطفئ إشعاعها وإيجاءها... ومن هنا يبدو التعقيد والجفاف والنقص والانحراف في كل المباحث التي تحاول عرض العقيدة بهذا الأسلوب الغريب على طبيعتها، وفي هذا القلب الذي يضيق عنها"^١، مما أثمر عقيدة لم تُخالط شغاف القلوب بالتطبيق العملي لمقتضياتها، "والعقيدة التي تسكن في القلب، ولا يكون لها وجود في العلانية عقيدة خاوية باردة لا تستحق أن تُسمى عقيدة، وقد نرى كثيراً من الناس يعرفون الحقيقة على وجهها ولكنهم لا ينصاعون لها، ولا يصوغون حياتهم وفقها، بل قد يُعارضون الحق الذي استيقنوه ويحاربونه، فهذا إبليس يعرف الحقائق الكبرى معرفة يقينية، يعرف الله، ويعرف صدق الرسل والكتب، ولكنه نذر نفسه لمحاربة الحق الذي يعرفه، وفرعون كان يوقن بأن المعجزات التي جاء بها موسى إنما هي من عند الله، ولكنه جحد بما استكباراً وعلواً... إذن ليس الإيمان بمجرد معرفة باردة بالله، أو معرفة يستعلي صاحبها عن الإقرار بها، أو يرفض أن ينصاع لحكمها، بل هي عقيدة رضي بها قلب صاحبها، وأعلن عنها بلسانه، وارتضى المنهج الذي صاغه الله متصلاً بها"^٢. وكما يُعبر عنه الكيلاني^٣ "بأن الفصل بين المظهر الشعائري^٤ للعبادة وبين المظهر الاجتماعي والمظهر الكوني، هو فصل بين القول والعمل، لأن

^١ سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي، ط ١٠، ١٤٠٨هـ، دار الشروق، القاهرة، ص ١٦.

^٢ الأشقر، العقيدة في الله، ص ١٦-١٧.

^٣ ماجد عرسان الكيلاني: فلسفة التربية الإسلامية دراسة مقارنة بالفلسفات التربوية المعاصرة، ١٤٣٠هـ، دار الفتحة، الأردن، ص ١٠٩-١١٠.

^٤ يبين الكيلاني معنى المظاهر الثلاثة بقوله: "أما المظهر الشعائري: فهو يتمثل في شعائر وممارسات ترمز إلى أشكال الحب والطاعة التي يعبد بها الإنسان الخالق، وتطبيق هذا المظهر يتطلب من التربية تعريف المتعلمين بتفاصيل الشعائر والممارسات الدينية وتدريبهم على أدائها في ضوء التوجيهات الإسلامية المتعلقة بذلك.

وأما المظهر الاجتماعي: فموضوعه الثقافة والقيم والعادات والتقاليد والنظم، وتطبيق هذا المظهر يتطلب من التربية أن تعرف المتعلمين بشبكة العلاقات الاجتماعية التي يريد الله سبحانه، وأن تهيم لهم دراسة ممارسات الآخرين في الماضي والحاضر للوقوف على نتائجها وثمارها إيجاباً أو سلباً، ويتفرع عن ذلك دراسة الاجتماع البشري وتعاقب الحضارات، وتنوع الأحوال والأحداث، واكتشاف قوانينها وعلاقتها والنتائج التي تترتب عليها؛ لأن ذلك كله يرشد إلى معرفة أفعال الله وسننه في الاجتماع البشري ومعرفة آثار طاعته ومعصيته، لتكون ثمرة ذلك كله الوقوف على ثمرات المحبة الكاملة والطاعة الكاملة وأثرها في سعادة الإنسان وتوفير قوام حياته.

القول هو المظهر الديني للعبادة وهو القول أو الإعداد النظري للعبادة، بينما المظهر الكوني والاجتماعي هما العمل والتطبيق، والفصل بين القسمين موجب لمقت الله وعقوباته الشديدة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة الصف، آية: ٣)، ثم ذكر صور لذلك الفصل ومنها "الفصل بين الدين والسياسة، (ومنها) صرف الاعتقاد الديني عن أوامر الله إلى حياة الرسول والاحتفال بميلاده مثل المسيحية المتأخرة التي صرفت الاعتقاد إلى مقولات ألوهية المسيح والصلب والخلص، (ومنها) نقل مفهوم التوحيد من تطبيقاته الاجتماعية في واقع الاجتماع الإنساني إلى الجدل حول ذات الله بدل الاشتغال بخلق الله وما يجب أن تكون عليه المدلولات العملية لأوامر الله في الحياة البشرية".

وحيثما نتبع تاريخ هذا الاختلاف والتفرق في باب العقائد، والانحراف عن العقيدة الخالصة لله إلى اتخاذ الأرباب، نجد الفصل بين العلم عن العمل واضحاً جلياً، ولذلك أخبرنا الله عن حال اليهود بقوله ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (سورة الجمعة، آية: ٥)، يقول ابن كثير رحمه الله "يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، فلم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسيماً، ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرّفوه وبدّلوه، فهم أسوأ حالا من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها؛ ولهذا قال في الآية الأخرى ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٧٩)، وقال تعالى حاكياً عن حال اليهود والنصارى مع كتبهم التي أنزلها الله على أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ

وأما المظهر الكوني: للعبادة فموضوعه العلوم الطبيعية التي توفر للعالم المسلم دخول مختبر الآفاق وإبراز معجزات العصر وبراهينه وتوفير الشواهد التي تكشف عن عظيم صنع الله وقدرته، وتقنع المتعلم الجديد والأجيال الجديدة بوجود محبة الخالق محبة كاملة وطاعته طاعة كاملة، وتطبيق هذا المظهر يتطلب من التربية أن تدخل بالمتعلمين مختبر الكون لتعرفهم به وتوجههم إلى اكتشاف القوانين التي تنظم وجود الكائنات الحية والطبيعية واكتشاف خصائصها. أما تطبيقاتها وتدريب المتعلمين على أشكال التعامل معها والانتفاع بها حسب التوجيهات الإلهية. ومن خلال هذا التعليم والتدريب يصل المتعلم إلى الغاية من المظهر الكوني للعبادة، وهي معرفة دقة الصنعة الإلهية في المخلوقات، وكثرة أصنافها وتنوع أحوالها، ووفرة نعم الله الناتجة عن الانتفاع بها معرفة تفوق الحصر والإحاطة". الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ١٠١-١٠٣.

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٣٨٩.

مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ (سورة المائدة، آية: ٦٦)، قال الإمام الطبري "ولو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل... وعملوا بما أنزل إليهم من ربهم من الفرقان الذي جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم"، وجمع الله في الآية العمل بالتوراة والإنجيل وما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن، مع اختلاف هذه الكتب، ونسخ بعضها بعضاً؛ لأنها "متفقة في الأمر بالإيمان برُسل الله، والتصديق بما جاءت به من عند الله. فمعنى إقامتهم التوراة والإنجيل وما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم: تصديقهم بما فيها، والعمل بما هي متفقة فيه"، ولا شك أنها متفقة على إقامة الدين، والعمل به، على أساس توحيد الله بالعبادة وإفراده بما دون غيره ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (سورة الشورى، آية: ١٣)، ولكن ذلك التوجيه الرباني، والوصية الخالدة، بعدم الاختلاف في الدين لم تعمل به الإنسانية منذ بعثة نوح عليه السلام، فلم يقيموا الدين الإقامة الصحيحة الذي يشمل العلم والعمل به، ومن ثم وقعوا في الافتراق الذي حذر منه ربنا تبارك وتعالى.

والمعتقدات التي يعتقدونها الإنسان عموماً، وعقيدة التوحيد خصوصاً، لم توجد إلا لتنظيم حياة البشر وتوصلهم إلى السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، وهي في أصولها تدعوا إلى احترام الإنسان لإنسانيته، ونبذ الظلم والعدوان، وأن بني الإنسان شركاء على وجه الأرض لتحقيق الحكمة الإلهية من إيجادها، كلٌ بحسب معتقده وتصوره، ولكن الفصل بين القيم والمبادئ والتطبيق في واقع الحياة كان بداية المشكلة التي حدثت في باب العقائد، وما نتج عن ذلك من اختلاف وتفرق.

وعقائد الشرك على اختلافها وتنوعها ترجع إلى فكرة واحدة متجددة في كل زمان، تتخذ أشكالاً وألواناً حسب ما تستحسنه عقول البشر، وما يغلب على بيبئتها، وبدايته كان السبب في إرسال نبي الله نوح عليه السلام رسولاً إلى البشرية، ولكن الاختلاف تأصل بتمسكهم بمعتقدهم ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَئُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (سورة نوح، آية: ٢٣)، وتعاقب الشرك في الإنسانية يقول "فابر" في كتابه (أصل الوثنية): "وكما نجد عند الهنود ثلوثاً مؤلفاً من برهمة وفشنوسيفا، هكذا نجد عند البوذيين فإنهم يقولون إن بوذا إله ويقولون بأقانيمه الثلاثة...".^١ وكذلك "المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن الآلهة ثلاثة وهم (أتوم وشو

^١ الأقانيم جمع أقنوم: وهي كلمة يونانية الأصل تدل على شخصية متميزة، ويوازيها في الإنجليزية كلمة (person) (أي: شخص. انظر. القس فايز فارس: حقائق أساسية في الإيمان المسيحي، (د.ت)، دار الثقافة المسيحية، مطبعة القاهرة الجديدة، ص ٥٢.

وتغنوت)^٢ أو (أوزيريس وأيزيس وهورس)^٣، وهذا المعتقد كان قاعدة الوثنية الفرعونية، والمتبع لتاريخ الوثنية والشرك يجدها عند الفرس واليونان والرومان والأشوريين والفينيقيين والاسكندنافيين والنتر والمكسيكيين والكنديين^٤.

"وفي علم اللاهوت الإسكندري الذي كان يدرس قبل المسيح بسنوات كثيرة (الكلمة هي الإله الثاني) ويدعى أيضاً (ابن الله البكر)... وكان الإغريق يقولون بالإله المثلث الأقانيم، وإذا شرع كهنتهم في تقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات، ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع، ويرشون المجتمعين حول المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات إشارة إلى التثليث، وهذه الشعائر هي التي أخذتها الكنيسة بما وراءها من العقائد الوثنية وضممتها للنصرانية تضاهي بها قول الذين كفروا من قبل"^٥، وصدق الله حينما أخبرنا عن اليهود والنصارى بأنهم أشركوا معه غيره، متشبهين بمن سبقهم من الأمم التي أشركت بالله؛ وذلك لبيان السرد التاريخي لتسرب تلك المعتقدات الفاسدة على عقيدة التوحيد الخالصة ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ (سورة التوبة، آية: ٣٠).

واليهودية التي سبقت النصرانية كانت على التوحيد على نهج أنبيائها عليهم الصلاة والسلام يعبدون الله وحده، ويطبّقون شرائعه المنزلة في التوراة كما أمر، ثم لما طال عليهم العهد أشركوا بالله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ (سورة التوبة، آية: ٣٠)، ومما يدل على تركهم شريعة الله ووقوعهم في الشرك وعبادة الأصنام ما جاء في سفر الملوك الأول (٢٢/١٤) "وعمل يهوذا الشر في عيني الرب وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التي أخطأوا بها، وبنوا لأنفسهم مرتفعات، وأنصاباً، وسواري على كل تل مرتفع، وتحت كل شجرة خضراء"^٦.

^١ سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ط٣، (د.ت)، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ص ٣٠٥.

^٢ رندل كلارك: الرمز والأسطورة في مصر القديمة، ١٩٨٨م، ترجمة: أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ٣٩.

^٣ نخبة من الأساتذة النصارى: قاموس الكتاب المقدس، ط٢، (د.ت)، دار الثقافة المسيحية، ص ٩٠٤.

^٤ انظر النقول عن هذه الديانات، محمد طاهر التنير: العقائد الوثنية في الديانات النصرانية، ١٤٠٨هـ، مكتبة ابن تيمية، الكويت، ص ٣٥-٤٥.

^٥ سيد قطب، في ظلال، ج ٣، ص ١٦٤٠.

^٦ نقلاً عن الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص ٦٦.

وكذلك النصرانية كانت على التوحيد وعلى الطريق المستقيم، على نهج نبهم عيسى عليه الصلاة والسلام، ثم انحرفوا بعد ذلك عن التوحيد الخالص، وقالوا مقولتهم التي هي أساس عقيدتهم الخرفة **﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾** (سورة التوبة، آية: ٣٠). وبدأت لوثة الشرك تتسرب على عقيدة اليهود والنصارى الخالصة لله تعالى لتصبح عقيدة مشرقة مع الله الأبحار والرهبان الذين يُحلون ويُحرمون بمقتضى عقولهم، ووفق أهوائهم، وما يرونه من مصالح ومفاسد للبشرية فحارت العقول، وضلت البشرية عن مراد الله تعالى وأمره **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** (سورة التوبة، آية: ٣١).

وما تلك الادعاءات إلا نتاج الفلسفة النظرية التي كان يراها فلاسفة المسيحية حينما قعدوا عن العمل بمقتضى عقيدتهم النصرانية التي تدعو إلى التوحيد واتجهوا نحو التنظير والفلسفة متأثرين بما كانوا عليه من وثنية يقول الخلف "إن الناظر في كبار الدعاة إلى النصرانية في العصور الأولى والذين يشار إليهم بأنهم من أعظم الناس أثراً وتأثيراً في الديانة النصرانية نجدهم فلاسفة بل تعمقوا في الفلسفات الوثنية، وبعد تنصرهم نقلوا تلك الفلسفات معهم إلى الدين الجديد، وحاولوا أن يسدوا الثغرات التي يجدها في الديانة النصرانية بمزيج من الفلسفات التي كانوا عليها من قبل"، ولذلك "يرى فلاسفة المسيحية أن الله سبحانه وتعالى يتكون من ثلاثة أقانيم^٢، أو ثلاثة عناصر، أو أجزاء،

^١ الخلف، المرجع السابق، ص ٣٠٨.

^٢ يعتقد طائفة من النصارى هذا الاعتقاد و"أثبتوا لله تعالى أقانيم ثلاثة؛ قالوا: البارى تعالى جوهر واحد يعنون به: القائم بالنفس، لا التحيز والحجمية، فهو واحد بالجوهرية، ثلاثة بالأقنومية؛ ويعنون بالأقانيم الصفات: كالوجود، والحياة، والعلم، وسموها: الأب، والابن، وروح القدس، وإنما العلم تدرع وتجسيد دون سائر الأقانيم. الشهرستاني، الملل والنحل، ١٤١٣هـ، ج ٢، ص ٢٤٥. وقيل أن أصلها العقدي "ما قيل بعد دخول شاوول المسيحية، وبعد مؤتمر نيقية ٣١٨م من أن الله أقانيم ثلاثة: الأب، والابن، والروح القدس، وفي هذا يقول الأب بولس في كتابه (يسوع المسيح): "من الناس من يقولون لم يا ترى إله واحد في ثلاثة أقانيم (صفات)؟ أو ليس في تعدد الأقانيم انتقاص لقدرة الله؟ أو ليس من الأفضل أن يقال الله أحد فحسب؟ وبمضي في تبرير ذلك (الشرك) بالله فيقول: "ولكننا إذا اطلعنا على كنه الله (معاذ الله فإنه لا تدركه الأبصار) لا يسعنا إلا القول بالتثليث، إن الله محبة (يوحنا الأولى ١٦: ٤) ولا يمكن إلا أن يكون محبة، ليكون الله سعيداً (!) فالحبة هي مصدر سعادة الله، ومن طبع الحبة أن تفيض وتنتشر على شخص آخر فيضان الماء وانتشار النور، فهي إذ تفترض شخصين على الأقل يتحابان وتفترض مع ذلك وحدة تامة بينهما (!) فيكون الله سعيداً ولا معنى لإله غير سعيد وإلا انتفت عنه الألوهية، ولهذا ولد الله الابن (!! من الأزل نتيجةً لحبه إياه، ووهبه ذاته (!) ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته، وبأدب الابن الأب هذه

وهذه الأقانيم أو العناصر الثلاثة هي: الذات والنطق والحياة، فالله موجود بذاته ناطق بكلمته، حي بروحه، وكل خاصية من هذه الخواص أو العناصر التي يتكون منها الله تعطيه وصفاً معيناً، أو مظهراً خاصاً، فإذا تجلّى الله بصفته ذاتاً، سُمي الأب، وإذا نطق فهو الابن، وإذا ظهر كحياة فهو الروح القدس^١، وكان سعي الفلاسفة^٢، الوصول إلى سعادة الإنسان، لأن الموضوع الذي تعالجه الفلسفة هو الموضوع ذاته الذي يعالجه الدين، "إذ يزعم الفلاسفة أن مباحثهم تهدف إلى معرفة أصل الوجود وغايته، ومعرفة السبيل الذي يحقق السعادة الإنسانية عاجلاً أو آجلاً، وهذان موضوع علم الفلسفة بقسميها العلمي والعملية^٣، وإذا كان الإنسان الضعيف الذي إذا نام لا يدري أين باتت يمينه، بل إنه ليس له اختيار في وجوده في هذه الحياة أصلاً، أو تحديد جنسه، فهل يُعقل أن يصل إلى معرفة الخالق وكنهه، ولكنه الطريق المعوج الذي سلكه علماء الفلسفة لإثبات الخالق وتحديد كنهه، بطريقة العقل المحدود في قدراته، الذي يتخذ المعلوم طريقاً للوصول إلى المجهول، فتاه في ظلمات الجهل الذي وصل بسقراط أن قال "الشيء الوحيد الذي لا أزال أعلمه جيداً هو أنني لست أعلم شيئاً"^٤، وبهذا الجهل هرب العقل إلى ما يحيط به من البيئة والماديات التي حوله فأسس معتقدات، وصورّ أرباباً، "لذا فإن أساطين الفلسفة لم يستطيعوا أن يتخلّصوا من التأثير بالبيئة"^٥، فهذا أفلاطون مثلاً "غلبت البيئة الوثنية

الحبة، وثمره هذه الحبة المتبادلة بين الأب والابن كانت روح القدس، هو الحب إذاً يجعل الله ثالثاً وواحداً معاً (!!!). (يسوع المسيح للأب بولس، نقلاً عن أحمد شلبي: المسيحية، ج ٢، ص ١٢٧-١٢٨). علي جريشة:

الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ط ٥، ١٤٢٦هـ، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ص ٥٢.

ثم يمضي في التأكيد فيقول "ليس الله إذاً كائناً تائهاً في الفضاء، منعزلاً في السماء، لكنه أسرة (!) مؤلفة من أقانيم ثلاثة تسودها الحبة، وتفيض منها على الكون براءته، وهكذا يمكننا أن نقول إن كنه الله يفرض هذا التثليث !!!".

يسوع المسيح للأب

^١ محمد مجدي مرجان: **الله واحد أم ثالوث**، (د.ت)، دار النهضة العربية، بيروت، ص ١٠.

^٢ "من الفلاسفة حكماء الهند من البراهمة، لا يقولون بالنبوات أصلاً، ومنهم حكماء العرب، وهم شردمة قليلون، لأن أكثر حكمهم فلتات الطبع، وخطرات الفكر، وربما قالوا بالنبوات، ومنهم حكماء الروم، وهم منقسمون إلى القدماء، الذين هم أساطين الحكمة، وإلى المتأخرين منهم، وهم المشاءون، وأصحاب الرواق، وأصحاب أرسطوطاليس، وإلى فلاسفة الإسلام، الذين هم حكماء العجم...". الشهرستاني، الملل والنحل، ج ٢، ص ٣٦٨-٣٦٩.

^٣ محمد عبد الله دراز: **الدين**، ١٤٠٠هـ، دار القلم، الكويت، ص ٥٩-٦٠.

^٤ الأشقر، العقيدة في الله، ص ٣٦.

^٥ دراز، الدين، ص ٧٣.

على تفكيره بحكم العادة وتواتر المحسوسات، فأدخل في عقيدته أرباباً، وأنصاف أرباب لا محل لها في ديانات التوحيد"^١.

وهكذا فالفلسفة في كل صورها "عمل إنساني يتحكم فيه كل ما في طبيعة الإنسان من قيود وحدود، وتدرج بطيء في الوصول إلى المجهول، وقابلية للتغير والتحول، وتقلب بين الهدى والضلال، واقتراب أو ابتعاد عن درجة الكمال"^٢، وهذا ما يجعلنا نلاحظ الفرق الكبير بين الدين بأصوله ومنهجه ونظراته للخالق سبحانه وتعالى والإنسان والكون، وبين الفلسفة بمصادرها وطريقتها وتصويرها للخالق سبحانه وتعالى والإنسان والكون، "فهما يختلفان في المصادر والمنابع، وفي المنهج والاستدلال، وفي قوة التأثير والسيطرة، وفي الأسلوب وطريقة الاستدلال، وفي آثار كل منهما"^٣.

وبالنظر في تاريخ الإسلام نجد أن العقيدة الإسلامية كانت المنتظمة لأحوال المسلمين يسبغون تحت لوائها، ويعملون بمديها، حتى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ نشب الخلاف حول الخلافة، ولم يلبث أن نمت حتى أصبح مذاهب وأحزاباً "وكانت القضية الأولى التي، التي تشعبت حولها آراء الفرق ونبت حولها الخلاف، قضية الإمامة، أو الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تدبير شؤون المسلمين"^٤.

ثم ظهرت الفتن، بعد السنين الأولى من عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه، قوية عنيفة أدت في النهاية إلى مقتل الخليفة الأواب، "وكان الاختلاف بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإمامة ولم يحدث خلاف غيره في حياة أبي بكر رضي الله عنه وأيام عمر، إلى أن ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأنكر قوم عليه في آخر أيامه فعلاً كانوا فيما نقيموا عليه من ذلك مخطئين وعن سنن الحججة خارجين، فصار ما أنكروه عليه اختلافاً إلى اليوم، ثم قُتل رضوان الله عليه وكانوا في قتله مختلفين، فأما أهل السنة والاستقامة فإنهم قالوا: كان رضوان الله عليه مصيباً في أفعاله قتله قاتلوه ظلماً وعدواناً، وقال قاتلون خلاف ذلك، وهذا اختلاف بين الناس إلى اليوم"^٥.

^١ الأشقر، العقيدة في الله، ص ٣١، نقلاً عن عباس محمود العقاد: الله، ص ١٢٩.

^٢ الأشقر، المرجع السابق، ص ٣٠.

^٣ الأشقر، المرجع السابق، ص ٣٠.

^٤ أحمد جلي، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين "الخوارج والشيعة"، ص ٢٥.

^٥ الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ص ٣.

وبدأ عصر الفتن وظهر الغلو والتطرف من بعض الفرق تجاه الأخرى، وبدأ عصر التعصب والاقْتتال، ونسبت كل فرقة إلى الطائفة الناجية، ورمي المخالف بأبشع الأوصاف والتهم، كل ذلك غلوًّا في شخص أو مذهب أو عرق أو طائفة... وتطرفاً في رأي أو هوى.

وبدأ التنازع في مسائل الاعتقاد بدءاً بالإمامة وغيرها من مسائل العقيدة "وعامة ما تنازعت فيه فرقة المؤمنين من مسائل الأصول وغيرها في باب الصفات والقدر والإمامة وغير ذلك"^١، وكان الناس على خلاف بينهم في ما ذكرنا فمنهم "المجتهد المصيب، ومنهم المجتهد المخطئ، وقد يكون المخطئ باغياً، ومنهم الباغي من غير اجتهاد، ومنهم المقصر فيما أمر به من الصبر"^٢.

والسبب الذي أحدث ذلك الاختلاف الذي قاد إلى التفرق في المجتمع الإسلامي في باب العقائد هو الفصل بين العلم والعمل كما حدث للأمم السابقة، وجعل العقيدة مسائل وخلافات، وفلسفة ونزاعات، وأصبحت ظاهرة الاختلاف في باب العلم ومسائل الاعتقاد خصوصاً في العهد العباسي هي السمة البارزة في المجتمع الإسلامي، مما أدى إلى انهياره من الداخل وتداعي الأعداء عليه من الخارج.

ولا شك أن العلم قيمة عليا ونور للعقول ولكن "العمل هو الترجمة الحية والتجسيد العملي لنظريات العلم، ذلك أن العقيدة على المستوى النظري تحتاج إلى العمل ليعبر عنها ويبرزها من نية الضمير إلى عمل في الحياة على شكل عبادة قاننة من صيام وحج وجهاد وصلاة"^٣، لذا فإن التربية الإسلامية تؤكد بأن "العقيدة تمثل قاعدة الإيمان وأصله، فالإيمان: عقيدة تستقر في القلب استقراراً يلازمه ولا ينفك عنه، ويعلن صاحبها بلسانه عن العقيدة المستكنة في قلبه، ويُصدّق الاعتقاد والقول بالعمل وفق مقتضى هذه العقيدة"^٤.

ولو نظرنا إلى التوجيه العملي في التربية الإسلامية لوجدنا ذلك جلياً في كل الأوامر والتشريعات الربانية، ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى قرن بين الأمر بتوحيده بالعبادة وبين بر الوالدين ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (سورة الإسراء، آية: ٢٣)، وبين شكره على نعمته بالخلق والإيجاد، وشكر من كان السبب في ذلك ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ (سورة لقمان، آية: ١٤)، يقول الفخر الرازي "أعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه، ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين، وبيان المناسبة بينهما أن السبب

^١ ابن تيمية، الاستقامة، ج ١، ص ٢٦-٣٧.

^٢ ابن تيمية، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٦-٣٧.

^٣ توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٢م، القاهرة، ج ٢، ص ٢١٤.

^٤ الأشقر، العقيدة في الله، ص ١٦.

الحقيقي في وجود الإنسان هو الله، وأن السبب الظاهري هما الأيوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي، ثم أتبعه بتعظيم السبب الظاهري^١، وما ذلك إلا لربط الاعتقاد القلبي بالواقع العملي ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ (سورة سبأ، آية: ١٣)، "أي: وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم في الدنيا والدين... وفيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية"^٢، وبهذا التزاوج بين الاعتقاد والعمل كان هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى مثنيًا على نبيه يحيى عليه السلام بعد ذكره لعبادته وتقواه ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (سورة مريم، آية: ١٤)، وقال تعالى حاكياً عن حال عيسى عليه الصلاة والسلام وهو في المهدي بعد وصية الله له بالصلاة والزكاة ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (سورة مريم، آية: ٣٢).

والتربية الإسلامية تتسم بالواقعية "فهي تربية تنظر إلى الإنسان باعتباره مستخلفاً في هذا الكون، له أدواره المنوطة به، ويعبر عن هذه الأدوار بالعمل الدائم والدائب والمتقن، وهذا كله يقتضي مهارات بعينها تدفعها دوافع الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وأنه يحاسب الإنسان بما اكتسبت يده، وانظر إلى ارتباط الإيمان بالعمل في القرآن الكريم وصحيح السنة المطهرة فستجده عملاً شاملاً لجميع نواحي الحياة الإنسانية. بما يعود على الإنسان بكل ما هو نافع من عمران وحضارة وتقديم"^٣.

والتربية الإسلامية تنظر إلى العبادة بمفهومها الواسع الذي يشمل كل سلوك الإنسان ونشاطه، كم قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٦٢)، وهي الغاية التي أوجد الله الخلق جميعاً من أجلها، يقول تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات، آية: ٥٦)، وأرسل جميع الرسل من أجل تحقيقها، يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا﴾ (سورة النحل، آية: ٣٦)، يقول الكيلاني "اشتمل مفهوم العبادة في التربية الإسلامية على ثلاثة مظاهر: مظهر شعائري يجسد الرضا والمحبة، ومظهر اجتماعي يجسد التطبيق العملي لهذه المحبة، ومظهر كوني يجسد القناعة العقلية واليقين الراسخ... وتؤكد فلسفة التربية الإسلامية على وجوب تكامل المظاهر الثلاثة للعبادة ووحدهما لتكون ثمرة هذا التكافل، والمحصلة النهائية لعمل المظاهر الثلاثة هي (اليقين) في النفوس، و(الاستقامة) في السلوك والعلاقات، و(الرقى) في الممارسات.

^١ محمد ابن عمر الفخر الرازي: التفسير الكبير، ط ٤، ١٤٢٢هـ، دار احياء التراث العربي، بيروت، ج ٢٠، ص ٣٢١.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٥٣٦.

^٣ سعيد إسماعيل علي: التربية الإسلامية (المفاهيم والتطبيقات)، ط ٢، ١٤٢٦هـ، مكتبة الرشد، الرياض، ص ٢٥.

ولذلك كان الفصل بين المظاهر الثلاثة للعبادة حرقاً يؤدي إلى تعطيل فاعلية كل منها ويجيله إلى مجرد حركات وممارسات خاوية لا روح فيها ولا أثر لها^١.

وفي باب الأصول النظرية للعقيدة نجد الربط بالتطبيق والسلوك العملي من مقتضيات تلك العقيدة الإسلامية، يقول تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٧٧)، ففي هذه الآية الكريمة بيان لمفهوم الاعتقاد الإسلامي الشامل الجامع بين الإيمان القلبي والتصديق العملي، إذ الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية^٢، فذكرت الآية أصول الاعتقاد وهي الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین، ثم عقببت بالترجمة الحية، والسلوك العملي، لتفسير ذلك الاعتقاد، بالاهتمام بالجانب الاجتماعي للإنسان، وذلك بإعطاء المال للمحتاجين من القرابات واليتامى والمساكين وغيرهم من المستحقين، وإقام الصلاة إقامة تؤدي إلى الهدف الذي شرعت من أجله وهو التعاون على ذكر الله، ودوام الاتصال بالله، وتحقيق التعارف والتعاون الاجتماعي، والبعد عن الفحشاء والمنكر، وتركية النفس والمال بأداء الزكاة لمستحقيها، وقيل "بتركية النفس وتخليصها من الأخلاق الدنية الرذيلة"^٣، والوفاء بالعهد، والصبر في جميع الأحوال في حالة الفقر، وفي حالة المرض والسقم، وفي حالة قتال الأعداء ودفع ظلمهم^٤، وبذلك يصل الإنسان المسلم المتمثل بمنهج

^١ الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ١٠١-١٠٣.

^٢ معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان: أنه إقرار باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. يقول ابن تيمية "ومن أصول أهل السنة أن الدين والإيمان قول وعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية"، الفتاوى، ج ٣، ص ١٠٠. وللفائدة يُرجع إلى كتب بيان العقيدة، ومنها: محمد نعيم ياسين: الإيمان أركانه، وحقيقته، ونواقضه، ١٣١٢هـ، مكتبة السنة، القاهرة، ص ١٣٦-١٤٤، وابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، ط ٩، ١٤٠٨هـ، الكتب الإسلامي، بيروت، ص ٣٣١-٣٤٧.

^٣ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٢١٤.

^٤ ذكر ابن كثير هذا التفسير للآية الكريمة ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾، نقله عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومرة الهمداني، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك، والضحاك، وغيرهم، رحمة الله على الجميع. ابن كثير، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٥.

التربية الإسلامية إلى مرتبة الصديقين المتقين، لأن "هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾"^١.

فالعبارة إذاً ليست بالحركات أو الاتجاهات، وإنما بما ينتج عن الاعتقاد القلبي من عمل وسلوك، ولذلك قال حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: "ليس البر أن تُصلوا ولا تعملوا، فهذا حين تحول (أي القبلة) من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود، فأمر الله بالفرائض والعمل بها"^٢.

وهذه الآية ليست خاصة بالمسلمين، وإنما التوجيه فيها لليهود والنصارى، قال أبو العالية: "كانت اليهود تُقبل قبل المغرب، وكانت النصارى تُقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٧٧)، يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل"^٣.

ولحكمة الله في وقوع الاختلاف، وما ينتج عنه من تفرق بين الأمة، فإن الواجب على البشرية عموماً وأفراد الأمة الإسلامية خصوصاً على اختلاف مذاهبهم وفرقهم، أن يسعوا بأمر الله وحكمته إلى تضييق دائرة الخلاف، وأن يكونوا شركاء في المسؤولية الاجتماعية التي تضمن للجميع الحماية للأنفس، والأموال، والأعراض، وحرية الاعتقاد إذ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٥٦)، وتطبيق المعنى الاجتماعي للتربية الإسلامية، من خلال "الفعل الاجتماعي الذي تتعاون فيه كافة الجهود المجتمعية لتنمية وتزكية ما عند الأفراد من قوى وإمكانات وقابليات وقدرة لإكسابهم الخصائص الإنسانية المنبثقة من العقيدة الإسلامية وثوابتها، ومتغيرات العصر المقبولة عقدياً، ويتم خلال هذا الفعل الاجتماعي تعلم وتعليم الأفراد قيماً ومهارات اجتماعية تؤهلهم ليكونوا مشاركين في الحياة على أسس من قواعد والتزامات العقيدة الإسلامية السمحاء التي تحفظ لهم ولجتمعتهم هويته، وتجعلهم متمتعين بحصانة ثقافية تمكنهم من التفاعل اليقظ مع الهويات الثقافية في زمن صار فيه العالم متواصلاً متواصلًا لا يخفى على أحد تقدمه وتأثيره وخطره على الأفراد والمجتمع وذلك نتيجة للثورات المعرفية والمعلوماتية المتدفقة"^٤.

^١ ابن كثير، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٥.

^٢ ابن كثير، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٥.

^٣ ابن كثير، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٥.

^٤ سعيد إسماعيل علي (وآخرون)، التربية الإسلامية (المفاهيم والتطبيقات)، ص ٢٣-٢٤.

ولكن واقع البشرية عموماً، والمتبعين لدين الإسلام خصوصاً، يختلف عن الحقائق والمبادئ التي يؤمنون بها ويعتقدونها، فالإسلام بتربيته الشاملة، وتوازنه العادل، ومبادئه السامية، يأمر الإنسان بأداء الحقوق التي عليه تجاه ربه، والناس، والكون، في صورة متكاملة غير مجتزأة، وإلا خرج ذلك العمل بصورة مشوهة، لم يحقق الهدف الذي من أجله أوجبه الله وفرضه، ولذلك لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن النفر الذين، قال أحدهم أما أنا فإن أصلي ولا أنام، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^١، فالنبي صلى الله عليه وسلم عدل ذلك الفهم الخاطيء، والتطبيق المتشدد، والازدواجية في الحقوق، بإعطاء الباري جل شأنه حقوقه، وإعطاء النفس حقوقها، وإعطاء المجتمع بالزواج حقوقه، وقول النبي صلى الله عليه وسلم عندما أخبر بأن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يصوم ولا يفطر، ويصلي ولا ينام «فَصُمْ وَأُفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَظًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَظًّا... الحديث»^٢.

والإشارات والتوجيهات الربانية في كتابه الكريم، وسنة أفضل الخلق أجمعين، كلها تدعو إلى العمل المتوازن بين حقوق الله، وحقوق النفس، وحقوق الخلق، وإذا اختل هذا الميزان، أو طغى جانب على آخر، تكون النتيجة انحداراً نحو الهلاك، واختلالاً في المعتقد الذي يقود إلى الاختلاف والتفرق، ومن ثم البغي والعدوان والظلم، الذي يكون به هلاك المجتمع، ولا أدل على ذلك من واقع الاختلاف والتفرق المذموم الذي تعيشه البشرية كافة، والمسلمين خاصة، كل ذلك ناتج عن الفصل بين العلم والعمل، بين المعتقد وما يحمله من مبادئ إنسانية سامية، وأخلاق وأهداف نبيلة، وبين التطبيق في واقع الحياة اليومية.

والتربية الإسلامية بشمولها وربطها للعقيدة بالسلوك والعمل، تُربي أتباعها على التعامل الصحيح مع الخالق سبحانه وتعالى، ومع النفس، ومع الناس، ومع الكون، ومن ذلك، القسط مع الآخرين، وإن خالفوهم في المعتقد، يقول تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الممتحنة، آية: ٨)، قال الإمام الطبري رحمه الله "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرؤهم وتصلوهم، وتقسطوا

^١ أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم (٥٠٦٣).

^٢ أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب حق الأهل في الصوم، حديث رقم (١٩٧٧).

إليهم، إن الله عز وجل عمّ بقوله ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضاً دون بعض^١، فهذا مبدأ من مبادئ العقيدة الإسلامية في التعامل مع المخالف في المعتقد بالتعامل بالحسنى، والعدل في الأحكام، وعدم التعدي أو الظلم، وكذلك جميع المعتقدات وإن كنا نرى بطلانها إلا أنها تحمل في أصولها ما استحسنته عقول البشر من الحكمة والعدل والمصلحة والرحمة، ونبذ الظلم والعدوان، يقول ابن تيمية في بيان المحرمات "أحدهما ما يقطع بأن الشرع لم ييح منه شيئاً لا لضرورة ولا لغير ضرورة كالشرك، والفواحش، والقول على الله بغير علم، والظلم المحض، وهي الأربعة المذكورة في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ٣٣)، فهذه الأشياء محرمة في جميع الشرائع، وبتحريمها بعث الله جميع الرسل، ولم ييح منها شيئاً قط ولا في حال من الأحوال"^٢، ويقول ابن القيم "والشرائع كلها في أصولها وإن تباينت متفقة، مركزاً حسننها في العقول، ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة"^٣، ويقول في موضع آخر "وإذا تأملت الشرائع الناسخة والمنسوخة وجدتها كلها بهذه المنزلة، فمنها ما يكون وجه المصلحة فيها ظاهراً، ومنها ما يكون ذلك فيه خفياً لا يدرك إلا بفضل فطنة وجود إدراك"^٤.

والبشرية أجمعت على أهمية إيجاد قيم^٥ إنسانية عالمية تحفظ للإنسان حقوقه، وتصون له كرامته، بصرف النظر عن معتقده أو جنسه أو لونه أو لغته، وإنما لكونه إنساناً، ولا أدل على ذلك من

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ١٢، ص ٦٣.

^٢ ابن تيمية، الفتاوى، ج ١٤، ص ٢٦١.

^٣ محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: مفتاح دار السعادة ومنشور دار ولاية أهل العلم والإرادة، ١٤١٦ هـ، دار عفان، الخبر، ج ٢، ص ٣٢٠.

^٤ ابن القيم، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٨٤.

^٥ القيم: صفات أو مُثُل، أو قواعد... تقام عليها الحياة البشرية فتكون بها حياة إنسانية، وتعاير بها النظم والأفعال، لتعرف قيمتها الإنسانية من خلال ما تتمثله منها. كما عُرِّفت بأنها مجموعة من القواعد التي تقوم عليه الحياة الإنسانية، وتختلف بها عن الحياة الحيوانية. وعرفها بعض علماء الفكر الإسلامي، بأنها حكم يُصدره الإنسان على شيء ما مهتدياً بمجموعة المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع محمداً المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك. وعرفها بعضهم بأنها: مجموعة من المعايير والأحكام النابعة من تصورات أساسية عن الكون والحياة والإنسان والإله، كما صورها الإسلام، تتكون لدى الفرد والمجتمع من خلال التفاعل مع المواقف والخبرات الفردية والاجتماعية، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات حياته تتلاءم مع قدراته وإمكانياته، وتتجسد من خلال الاتجاهات أو

المؤتمرات والمواثيق الدولية والأممية باختلاف أديانها، للدعوة إلى ذلك، كما جاء في ميثاق الأمم المتحدة "نحن شعوب الأمم المتحدة، وقد آلينا على أنفسنا، أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب.. وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان، وبكرامة الفرد وقدره، وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية، وأن ندفع بالرقمي الاجتماعي قدماً، وأن نرفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح"^١، بل إنها تتكرر في أكثر من موضع في الميثاق عبارة "تعزيز وتشجيع احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس جميعاً، والتشجيع على ذلك إطلاقاً بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين"^٢، ويقول سير ريتشرد لفينجستون وكيل جامعة أكسفورد سابقاً، عن مدى أهمية المعايير الأخلاقية للحياة الإنسانية لتحقيق السعادة، وأن العلوم وحدها غير كافية لتحقيق السعادة^٣، ويقول أيضاً "إن الحياة التي لا معايير خلقية لها هي من بين جميع ألوان الحياة

الاهتمامات أو السلوك اللفظي أو العلمي بصورة مباشرة وغير مباشرة. ويُعرفها علماء الاجتماع والتربية بأنها محكات ومقاييس نحكم بها على الأفكار والأشخاص والأشياء والأعمال والموضوعات والمواقف الفردية والجماعية من حيث حسنها وقيمتها والرغبة بها، أو من حيث قبحها وعدم قيمتها وكراهيتها، أو في منزلة معينة ما بين هذين الحدين، وتعمل القيم بوعي أو بدون وعي كجزء من المؤثرات التربوية والاجتماعية في سلوك الإنسان والقرارات التي يتخذها والمنجزات التي ينجزها. والقيم في الإسلام لها ثلاثة أنواع: قيم عليا: وهي القيم الكلية الكبرى التي تسمو بالإنسان إلى معالي الأمور وترفع من مستواه على سائر المخلوقات كالحق والعبودية والعدل والإحسان، وقيم حضارية: وهي القيم المتعلقة والمرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبناء الحضاري للأمة الإسلامية متمثلة في التقدم العقلي والمادي معاً، وهي ذات طابع اجتماعي عمراني، كالاستخلاف والمسؤولية والحرية والمساواة والعمل والقوة والأمن والسلام والجمال وغيرها، وقيم خُلُقِيَّة: وهي القيم المتعلقة بتكوين السلوك الخلقي الفاضل عند المسلم ليصبح سجية وطبعاً يتخلق به ويتعامل به مع الآخرين لتكوين مجتمع إسلامي فاضل تسوده المحبة والوئام كالبر والأمانة والصدق والأخوة والتعاون والوفاء والصبر والشكر والحياء والنصح والرحمة. انظر: مانع بن محمد المانع: القيم بين الإسلام والغرب دراسة تأصيلية مقارنة، ١٤٢٦هـ، دار الفضيلة، الرياض، ص ١٥-٢٤، والكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٤٢٧-٤٣٧. محمود عطا حسين عقل: القيم السلوكية لدى طلبة المرحلتين المتوسطة والثانوية في الدول الأعضاء بمكتب التربية العربي لدول الخليج، دراسة نظرية وميدانية، ط ٢، ١٤٢٧هـ، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ص ٢٩-٣٨.

^١ علي صادق أبو هيبف: القانون الدولي العام، (د.ت)، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص ٩٢٣.

^٢ منى محمود مصطفى: القانون الدولي لحقوق الإنسان، ١٩٨٩م، دار النهضة العربية، القاهرة، ص ٣٩.

^٣ سير ريتشرد لفينجستون: التربية لعالم حائر، ترجمة: وديع الضبع، ١٩٤٨م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص ٨-٣٣.

أعظمها حقارة وجذباً وهي مريرة الوخز في حنايا الضلوع حتى وإن كانت حلوة المذاق على الشفاه^١.

وهذا الاهتمام الدولي والتحرك الأممي لإيجاد قيم عالمية أخلاقية فيما يتعلق بحقوق الإنسان وعلاقته مع الآخر، لا شك أنها نابعة من الإحساس بالخطر الذي يحدق بالإنسانية مع انتشار الحروب، وإنتاج الأسلحة النووية، وتسويق الفتن، واستخدام القوة للبطش بالضعفاء، بحجة أن الغاية تبرر الوسيلة، والتصارع القيمي، الذي يهز المجتمعات، ويقوّض أركانها، ويقلب هرم قيمها رأساً على عقب، لترتدّ إلى عصر الكهوف والغابة، أو الذوبان في بوتقة التفاعل الجاري بين القيم العالمية المختلفة^٢.

لذا "فإن ضرورة وجود المعايير والقيم الأخلاقية الإنسانية العامة لم تعد ضرورة من أجل حماية العالم من مخاطر الحروب والتقدم العلمي من غير هدف وغاية أو مثل عليا. بل وجودها ضرورة للعلاقات الفردية والاجتماعية والدولية التي تضبط العلاقات والسلوكيات من حيث الالتزام بالمسؤوليات وأداء الأمانات لأهلها وتنفيذ التعهدات والعقود والوعود وإعطاء كل ذي حق حقه، والاحتساب عن الغش والخديعة والمماطلة وإيذاء الناس وتخويفهم أو تهديدهم بالعدوان أو الاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض"^٣.

^١ سير ريتشرد، المرجع السابق، ص ١٧.

^٢ أورد د. الكيلاني في كتابه فلسفة التربية الإسلامية ص ٤٣١، حاجة الإنسانية إلى قيم معيارية عالمية، ويرى أن الحرب المقبلة بين البشرية هي حرب قيم وليست حروباً عسكرية مسلحة، "والواقع أن التحدي الكبير - الذي تواجهه المجتمعات البشرية على المستويين الإقليمي والعالمي - ليس هو خطر الحروب والأسلحة الذرية والنووية كما يشاع، وإنما هو خطر الزلازل الجارية في ميادين القيم. وسوف يشهد القرن القادم اختفاء ثقافات وذوبان مجتمعات من خلال عمليات الانصهار والذوبان والتحليل والتركيب الجارية في ميادين القيم. والمجتمعات التي تتحمل فيها نظم التربية ومؤسسات التوجيه مسئولياتها إزاء الزلازل الجارية في ميدان القيم سوف تواكب مجرى الحضارة المستقبلية وسوف تسهم في تحسين كيان الإنسان ونقله من التخلف إلى الرقي. أما المجتمعات التي تترك للاضطراب القائم في ميدان القيم ليسخرها دون أن تسخره ويتحكم باتجاهاتها دون أن تتحكم به، أو تكفي بالسلبيّة أو الآبائية فسوف ينتهي بها هذا الاضطراب إلى حد مصيرين: إما الارتداد إلى عصر الكهوف وحياة الغابة. وإما أن تذوب في بوتقة التفاعل الجاري بين القيم العالمية المختلفة".

^٣ مقدّاد بالجّن: منابع مشكلات الأمة الإسلامية والعالم المعاصر ودور التربية الإسلامية وقيمتها في معالجتها،

١٤١١هـ، دار عالم الكتب، الرياض، ص ١٠٧.

ولو أُسْتُخِرَت مبادئ وقيم تلك المواثيق والمؤتمرات لصالح بني الإنسان وما يعود عليه بالنفع والاستقرار من إحقاق العدالة، ونبذ الظلم والعدوان، وحفظ الضروريات الخمس التي كفلها الإسلام، لعمت البشرية الرحمة والهداية التي من أجلها أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وشرع الشرائع ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، آية: ١٠٧)، قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية "من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله، عُوِيَ مما أصاب الأمم من الخسف والقذف... وقال الطبري: إن الله أرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم. فأما مؤمنهم فإن الله هداه به، وأدخله بالإيمان به، وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة، وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله"^١، فأساس بعثته صلى الله عليه وسلم تحقيق الرحمة للعالمين، يقول عليه الصلاة والسلام عندما قيل له ادع على المشركين «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»^٢، ويقول في حلف الفضول^٣ الذي شهدته في الجاهلية مع المشركين، وكان قائماً على الرحمة بالضعيف، والنصرة للمظلوم «لَقَدْ

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٩، ص ١٠١.

^٢ أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث رقم (٢٥٩٩).

^٣ كان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة في شهر ذي القعدة، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر، وذلك لأن الفجار كان في شعبان من هذه السنة، وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف عبدالدار ومخزوماً وجمحاً وسهماً وعدي بن كعب، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل وزبروه - أي انتهروه - فلما رأى الزبيدي الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس - وقريش في أنديتهم حول الكعبة - فنأدى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته * بيطن مكة نائي الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته * يا للرجال وبين الحجر والحجر

إن الحرام لمن ما تت كرامته * ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ما بلّ بحرّ صوفة. وما رسي ثبير وحراء مكاهما. وعلى التأسي في المعاش، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر. ثم مشوا إلى العاص بن وائل فاتنزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه... وقد قيل إنما سمي هذا حلف الفضول لأنه أشبه حلفاً تحالفته جرهم على مثل هذا من نصر المظلوم على ظالمه. وكان الداعي إليه ثلاثة من أشرفهم اسم كل واحد منهم فضل: وهم الفضل بن فضالة، والفضل بن وداعة، والفضل بن الحارث". ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ص ٦٩٥-٦٩٨.

شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حَلْفًا مَا أَحِبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أَدْعَىٰ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لِأَجَبْتُ»^١.

وهكذا دين الإسلام دين الرحمة للبشرية جمعاء بقيمه ومبادئه السامية، لذا "فإن علماء الاجتماع والتربية وعلم النفس _ بعد رحلة شاقة عبر النفس الإنسانية والاجتماع البشري _ أخذوا يركزون على دور الدين كمصدر للقيم الإنسانية ويمجدون للدين الذي يرشحوه لإنتاج وتوجيه القيم المطلوبة مواصفات لا تنطبق إلا على الدين الإسلامي"^٢، فالحمد لله على نعمة الإسلام، وله الفضل أن جعلنا مسلمين.

ودور التربية الإسلامية هو تفعيل تلك القيم والمبادئ عن طريق التربية العملية في واقع الحياة الاجتماعية، وتربية النشء عبر المراحل التعليمية المختلفة على الالتزام بها وتطبيقها وفق قناعة عقلية ودافع إيماني، وابتغاء الأجر الأخروي، لنصل إلى الهدف الذي تنشده التربية الإسلامية في علاقة الإنسان بالإنسان وهي "علاقة القسط التي أساسها قول الله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحديد، آية: ٢٥)، إنها قضية واحدة، جاء بها الرسل كافة وتضمنتها الرسائل جميعها وهي إقامة علاقات الإنسان بالإنسان على أساس القسط، ولتتفرع عنها جميع العلاقات في ميادين الحياة كلها"^٣، يقول ابن القيم في فوائد قصة صلح الحديبية "أن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبغاة والظلمة، إذا طلبوا أمراً يُعظمون فيه حرمة من حرمت الله تعالى، أُجيبوا إليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فُيعاونون على ما فيه تعظيم حرمت الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويُمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مُرضٍ له، أُجيب إلى ذلك كائناً من كان، ما لم يترتب على إعانتته على ذلك المحبوب مبعوضٌ لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشقها على النفوس"^٤.

٢. الأسباب الفقهية:

^١ أخرجه البيهقي، السنن الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب إعطاء الفيء على الديوان ومن يقع به البداية، حديث رقم (١٢٨٥٩).

^٢ الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٤٣٢.

^٣ الكيلاني، المرجع السابق، ص ١٦٧.

^٤ ابن القيم، زاد المعاد، ج ٣، ص ٢٦٩.

الخلاف والاختلاف الفقهي هو ما يكون بين فقهاء الأمة الإسلامية وهو "أن تكون اجتهادكم، وآراؤهم، وأقوالهم في مسألة ما متغيرة"^١.

وترجع أسباب الاختلاف الفقهي إلى اختلاف الفقهاء في فهم النصوص الشرعية، واستنباط الأحكام منها، وتنزيلها على الوقائع والأحداث المستجدة، ومعرفة مرامي تلك النصوص الشرعية، ومقاصد التشريع، وتقدير المصالح والمفاسد، وهذا الاختلاف قد وقع بين الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وهم في وقت تنزل الوحي، ووجود الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم، إلا أن ذلك الاختلاف لم يكن طريقاً للتفرق، والشحناء والبغضاء، وإتباع الهوى، بل كان اختلافاً قائماً على اجتهادٍ مستنبطٍ من نصوص الكتاب والسنة، أو ما لا نص فيه أصلاً، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، منها اختلافهم في قول الرسول صلى الله عليه وسلم حينما قال في غزوة الأحزاب لا يصلين العصر أحد إلا في بني قريظة، ففهم بعض الصحابة ذلك على أنه أمر فلم يصلوا العصر إلا في بني قريظة، وفهم البعض الآخر على أن ذلك لحثهم على السرعة والاستعجال فصلوا العصر حين أدركهم الوقت في طريقهم، فلما أخبروا الرسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينكر على أحد من الطائفتين، وهكذا في مسائل الفروع اختلف الصحابة والأئمة والفقهاء، والأمثلة ذلك كثيرة، والعبرة أن ذلك لم يزددهم إلا أخوةً ومحبةً وإعذاراً لبعضهم البعض، وما أجمل علم وفقه الإمام مالك رحمه الله حينما استشاره الرشيد أن يحمل الناس على موطنه فمنعه من ذلك وقال "إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الأمصار وقد أخذ كل قوم من العلم ما بلغهم، وصنّف رجل كتاباً في الاختلاف فقال أحمد لا تسمّه كتاب الاختلاف ولكن سمّه كتاب السنة"^٢، وهذا الاختلاف رحمة من الله تعالى على الأمة يقول عمر بن عبد العزيز رحمه الله "ما يسرني أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا لم يكن لنا رخصة"^٣، وهذا الاختلاف دليلٌ على سعة ومرونة واستمرارية هذا الدين، وصلاحية تربيته لكل زمان ومكان، لأن "اختلاف الآراء الاجتهادية يُثري به الفقه، وينمو ويتسع، نظراً لأن كل رأي يستند إلى أدلةٍ واعتباراتٍ شرعيةٍ أفرزتها عقولٌ كبيرة، تجتهد وتستنبط، وتقيس وتستحسن، وتوازن وترجح، وتؤصل، وتقعد القواعد، وتفرع الفروع والمسائل.

^١ محمد الروكي: نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، ١٤١٤هـ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ص ١٧٩.

^٢ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٣٠، ص ٤٨.

^٣ ابن تيمية، المرجع سابق، ج ٣٠، ص ٤٨.

وبهذا التعدد المختلف المشارب، المتنوع المسالك، تتسع الثروة الفقهية التشريعية، وتختلف ألوانها، من مدرسة الحديث والأثر، إلى مدرسة الرأي والنظر، إلى مدرسة الوقوف عند الظواهر، إلى مدرسة الاعتدال أو الوسط، التي تأخذ من كل مدرسة أحسن ما لديها، متجنباً نقاط الضعف لكل مدرسة حسبما يهدي إليه اجتهادها، غير متحيزة لهذه أو تلك، ولا لهذا الإمام أو ذاك، ولا لهذا القول أو ضده، وفي النهاية يصبح من وراء هذه المدارس والمشارب والمذاهب والأقوال، كنوزٌ لا يُقدَّر قدرها، وثروة لا يعرف قيمتها إلا أهل العلم والبحث^١، وأذكر على سبيل الإجمال أسباب الاختلاف الفقهي^٢، ومنها:

- الاختلاف في فهم بعض النصوص الشرعية.
- الاختلاف في تنزيل بعض الأحكام على الوقائع لتجديدها وكثرتها.
- الاختلاف في ثبوت الأدلة الشرعية من السنة النبوية.
- الاختلاف في تقدير المصالح والمفاسد في الأمور.
- الاختلاف في بعض قواعد الاجتهاد والاستنباط.
- طبيعة اللغة العربية.

٣. الأسباب الفردية الذاتية^٣ وهي كثيرة، ومنها:

- أ- الابتداع والإحداث في الدين، مما يفضي إلى الجدل والخصومات، وترك السنن، وإتباع المتشابه، ولا تُحیی بدعة إلا بموت سنة، وبذلك تُنقض عرى الدين، ويبدأ الناس في الفرقة والاختلاف معرضين عن أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالاعتصام بالكتاب والسنة.
- ب- الجهل بدين الله تعالى وقلة العمل، وتصدّر الأحداث والأئمة المضلين، يقول ابن تيمية عن أسباب الاختلاف "ويكون سببه - تارة - جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق: في الحكم، أو في الدليل، وإن كان عالماً بما مع نفسه من الحق حكماً ودليلاً. والجهل والظلم:

^١ يوسف القرضاوي: الصحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، ط٢، ١٤٢٧هـ، دار الشروق، القاهرة، ص ٥٥.

^٢ الصمديعي، منهج القرآن الكريم في تحصيل الأمة من الفرقة والاختلاف، ص ٧٤-٨٨.

^٣ جمال أحمد بادوي: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، ١٤١٢هـ، دار الوطن، الرياض، ص ١٣٧-٢٦٨.

هما أصل كل شر، كما قال سبحانه ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٧٢)^١.

ت- إتباع الهوى الذي هو رأس كل الخطايا، يقول الله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (سورة النازعات، آية: ٤١)، وقد ذم الله تعالى إتباع الهوى في كتابه الكريم قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (سورة الجاثية، آية: ٢٣)، قال قتادة في معنى هذه الآية: "لا يهوى شيئاً إلا ركبه لا يخاف الله"^٢، "ولم يأت في القرآن ذكر الهوى إلا في معرض الذم"^٣، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عوف بن مالك رضي الله عنه بقوله «ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة، أعظمها فرقة قوم يقيسون الأمور برأيهم فيحرمون الحلال ويحللون الحرام»^٤. "ولذلك سُمي أهل البدع أهل الأهواء؛ لأنهم اتَّبَعُوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها حتى يصدرُوا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك. وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقيح، ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم، ويدخل في غمارهم من كان منهم يغشى السلاطين لنيل ما عندهم، أو طلباً للرياسة، فلا بد أن يميل مع الناس بهواهم، ويتأول عليهم فيما أرادوا حسبما ذكر العلماء، ونقله الثقات من مصاحبي السلاطين"^٥، وإتباع الهوى له عدة مقاصد فقد يكون طلباً للرياسة أو المنصب أو الجاه أو الشهرة أو غروراً بالنفس أو غير ذلك، يقول ابن تيمية "وهذا الاختلاف المذموم من الطرفين يكون سببه تارة: فساد النية؛ لما في النفوس من البغي والحسد وإرادة العلو في الأرض، ونحو ذلك، فيجب لذلك ذم قول غيرها، أو فعله، أو غلبته ليطمئن عليه، أو يجب قول من يوافقه في نسب أو مذهب أو بلد أو صداقة، ونحو ذلك، لما في قيام قوله من حصول الشرف والرئاسة، وما أكثر هذا من بني آدم، وهذا ظلم"^٦، بل لقد عدَّ بعض أهل العلم إتباع الهوى أنه سبب ظهور علم الخلاف في الأمة الإسلامية يقول أبو حامد الغزالي عن علماء السلف

^١ ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج ١، ص ١٤٨.

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ١١، ص ٢٦٢.

^٣ الشاطبي، الاعتصام، ج ٢، ص ٥٩١.

^٤ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الفتن والملحاح، حديث رقم (٨٣٢٥). قال الذهبي: حديث صحيح ولم يخرجاه.

^٥ ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج ١، ص ١٤٨.

^٦ ابن تيمية، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٨٧-٥٨٨.

رحمهم الله وحال من جاء بعدهم مع العلم "فكانوا" أي علماء السلف_ إذا طلبوا هربوا وأعرضوا، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات، فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم، فاشربوا لطلب العلم توصلاً إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة، فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة وتعرفوا إليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم... ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها فعلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف، ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين، إشفافاً على خلق الله ونصيحة لهم^١، يقول "فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافات والمناظرات لا غير ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لملوا أيضاً معهم، ولم يسكنوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين"^٢، فاتباع الهوى مصدره النفس وما تميل إليه وترغب فيه، لذلك تُؤوّل وتُحرف وتفتري وتكذب وتستحل، وتلبس بالدين، أو بالإصلاح والتنوير للوصول إلى مآربها وأطماعها الشخصية، لذلك جاء التحذير النبوي من هذا المسلك المهلك بقوله عليه الصلاة والسلام «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ، وَثَلَاثٌ كَفَّارَاتٌ، وَثَلَاثٌ دَرَجَاتٌ. فَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشَحُّ مُطَاعٍ، وَهَوَى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ... الحديث»^٣، فبدأ الحديث بالشح الذي هو رأس كل بلاء وهوى، لذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم

^١ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ٤٥-٤٦.

^٢ أبو حامد الغزالي، المرجع السابق، ج ١، ص ٤٦.

^٣ أخرجه الطبراني، المعجم الأوسط، حديث رقم (٥٧٥٤). سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الأوسط، ت: طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني، ١٤١٥هـ، دار الحرمين، القاهرة. قال الألباني: حسن لغيره، حديث رقم (٢٦٠٧). محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الترغيب والترهيب، ١٤٢١هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

قوله «وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»^٢، بل وأخبر عليه الصلاة والسلام أن الشح من علامات الساعة التي يقلُّ العمل فيها بالعلم، وتظهر بسببه الفتن والاختلافات والتفرق وكثرة القتل، يقول عليه الصلاة والسلام «يَتَفَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَتَظْهَرُ الْفِتْنُ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ». قالوا يا رسول الله أيُّم هو، قال «الْقَتْلُ الْقَتْلُ»^٣، قال ابن حجر "وأما قوله (ويلقى الشح) فالمراد إلقاؤه في قلوب الناس على اختلاف أحوالهم، حتى يبخل العالم بعلمه فيترك التعليم والفتوى، ويبخل الصانع بصناعته حتى يترك تعليم غيره، ويبخل الغني بماله حتى يهلك الفقير، وليس المراد وجود أصل الشح لأنه لم يزل موجوداً"^٤، لذلك من عصمه الله ووقاه من الشح فقد أفلح ونجا في الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ٩).

ث - تحكيم العقل البشري، وتقديمه على النص الشرعي، ولا شك أن العقل حاسة لا تدرك كل الأشياء، ولا تعرف الحكمة من كل شيء، فإذا كان العقل دليل الإنسان لم يدلّه إلا على ما استحسنته، فيكون الاختلاف المذموم بين الناس لاختلاف عقولهم وما يستحسنونه لأنفسهم وفق أهوائهم، "أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: "كيف تختلف هذه الأمة ونبينا واحد وقبلتها واحدة، زاد سعيد وكتابها واحد، قال: فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين: إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيما أنزل، وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيما نزل فيكون لكل قوم فيه رأي فإذا كان كذلك اختلفوا"^٥، وكل من عارض أدلة الشرع بعقله، فإنه متبع لهواه، ولهذا سُمي أهل الأهواء بذلك، لأنهم لم يأخذوا بأدلة الشرع، بل "ردُّوا كثيراً من الأحاديث الصحيحة

^١ قال النووي "قال جماعة: الشح أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل، وقيل هو البخل مع الحرص، وقيل البخل في أفراد الأمور والشح عام، وقيل البخل في أفراد الأمور والشح بالمال والمعروف، وقيل الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده". النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٦، ص ٢٠٢-٢٠٣.

^٢ أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٧٨).

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، حديث رقم (٧٠٦١)، ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، حديث رقم (١٥٧). واللفظ للبخاري.

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٢١.

^٥ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٢، ص ٥٩٤.

بعقلوهم، وأسأؤوا الظن بما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم وحسنوا ظنهم بأرائهم الفاسدة، حتى ردوا كثيراً من أمور الآخرة وأحوالها؛ من الصراط، والميزان، وحشر الأجساد، والتَّعْييم والعذاب الجسميين، وأنكروا رؤية الباري... وأشبه ذلك، بل صيَّروا العقل شارعاً جاء الشرع أو لا، بل إن جاء؛ فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل... إلى غير ذلك من الشناعات"^١.

ج- التقليد والتعصب للأقوال والأشخاص، والتصميم على إتباع العوائد، وهو إتباع ما كان عليه الآباء والأجداد، أو الأشياخ، وهذا في حقيقته نابع من الجهل والهوى، ولا يزيل غشاوة التقليد والتعصب إلا العلم الذي ينير العقول ويجعلها تسير في فضاء رحب وتأخذ من كل عالم فوائده، وتطلب الحق أين كان وممن كان، والتعصب داءٌ خطيرٌ ومرضٌ قاتلٌ يصيب صاحبه بالعزلة والعدوانية وعدم التسامح والارتياح والإسقاط والنظرة التأميرية والقسوة وغيرها من الأمراض النفسية المزمنة^٢.

ح- الكذب والافتراء على منهج أهل السنة والجماعة وعقيدة السلف الصالح، وهذا واضح ومشاهد في كثير من وسائل الإعلام التي تصور مذهب بلدنا مثلاً على أنه مذهب وهابي أو حنبلي لإيجاد فرقة بين المسلمين، ولزرع العداوات بين أبناء الأمة الواحدة، فالحق أن مذهب هذه البلاد الطاهرة مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب الأئمة الكبار أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وغيرهم من الأئمة الأعلام رحمهم الله، وهو ما عليه عموم المسلمين إلا ما كان من اختلافات فقهية لا تصل إلى الفرقة والاختلاف.

خ- مخالفة المنهجية العلمية الصحيحة في النظر والتلقي والاستدلال، وهذه المخالفة هي التي أوجدت طوائف وفرق بين أهل الإسلام، وزادت من حدة الفرقة والاختلاف، جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال كان نفرٌ جلوسٌ بباب النبي صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم ألم يقل الله كذا وكذا، وقال بعضهم ألم يقل الله كذا وكذا، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج كأنما فقيء في وجهه حب الرمان فقال «بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ بِهَذَا بُعِثْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ إِنَّمَا ضَلَّتْ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِمَّا

^١ ابن تيمية، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٨٨.

^٢ انظر: ريتشارد هرير دكميجيان: الأصولية في العالم العربي، ترجمة وتعليق: عبد الوارث سعيد، ١٤٠٩هـ، دار الوفاء، مصر، ص ٥٨-٦٣.

هَاهُنَا فِي شَيْءٍ أَنْظُرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ وَالَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»^١، فمنهجية ضرب النص بالنص، أو نقض الحكم بالحكم، بدون مراعاة ضوابط أهل العلم في ذلك من الأصوليين والمحدثين والفقهاء، يُوقع صاحبه في تشتتٍ وحوضٍ واختلالٍ واختلاف.

د- ومنها أيضاً: البغي يقول الله تعالى محذراً للناس بعد أن وقع أهل الكتاب في هذا المنزلق الخطير ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٩)، ويقول تعالى ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الجاثية، آية: ١٧)، ويقول سبحانه ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الشورى، آية: ١٤)، يقول ابن تيمية "و أنت إذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة - علمائها و عبادها و أمرائها و رؤسائها - وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل، كما بغت الجهمية على المستننة في محنة الصفات و القرآن؛ محنة أحمد و غيره، و كما بغت الراضية على المستننة مرات متعددة، و كما بغت الناصبة على عليّ و أهل بيته، و كما قد تبغي المشبهة على المنزهة، و كما قد يبغي بعض المستننة إما على بعضهم و إما على نوع من المبتدعة، بزيادة على ما أمر الله به..."^٢.

٤. الأسباب الخارجية الأجنبية^٣، ومنها:

- اتساع الفتوحات الإسلامية، وتأثر المسلمين بالثقافات والأفكار الدخيلة عليهم.
- تسلل فئة من الزنادقة إلى الإسلام زوراً وبهتاناً، لتحريفه والطعن فيه وإثارة الشبهة حوله
- ترجمة كتب الفلسفة والمنطق، وتشجيع دراستها والتعمق فيها.
- الجهل الكبير لدى طائفة ممن دخل في الإسلام من الملل الأخرى، مستصحيين عقائد وشبههاً فاسدة، أفسدوا بها غيرهم.

المطلب الثاني: الوسائل التربوية المعينة على الوحدة والاجتماع:

^١ أخرجه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، حديث رقم (٦٨٤٥). قال شعيب الأرنؤوط: صحيح، وهذا إسناده حسن.

^٢ ابن تيمية، الفتاوى، ج ١٤، ص ٢٦٩.

^٣ بادي، وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، ص ١٣٧-٢٦٨.

لا شك أن شرع الله أوجد للمجتمع المسلم الوسائل الكفيلة بوحده وقوته، ومن ذلك قول الله تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٣)، قال ابن جرير رحمه الله "يعني بذلك جل ثناؤه وتعلقوا بأسباب الله جميعاً، يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله"، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللَّهِ. وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ»^١، وقوله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^٢، وقوله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...»^٣. لذا فالإسلام جاء بتأليف القلوب، وجمعها على الحق، ومناصرة المؤمنين، ومعاونتهم على البر والتقوى قال الله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (سورة المائدة، آية: ٢)، فالله سبحانه وتعالى يأمر عباده بتنمية الخير وتكثيره، وإمارة الشر وتقليله، ويأمر بالأسباب التي تجلب المودة والأخوة بين المؤمنين، من التعاون على البر والتقوى، وبذل النصيحة، والمشاركة في الأفراح، والمواساة في المصائب، ووجوب تلبية الدعوة، وبذل السلام، ونشر الابتسامة للخلق، وتقديم المعروف، والتضحية والإيثار، وينهى عن الأسباب التي تجلب العداوة والبغضاء، من الغش في المعاملات، والخطبة على خطبة أخيه، أو البيع على بيعه، وتحريم الغيبة، والنميمة، وتحريم الأذية باللسان أو اليد ولو كان للحيوان، فما الظن بالإنسان، وتحريم الظلم والتعدي، وحدّ الحدود لكل من يسيء للناس سواءً بالترويع، أو القتل، أو السرقة، أو الفاحشة، أو القذف، وكل ذلك يدل على أن الإسلام يبيّن مجتمعه على التآلف والمحبة والأخوة بين أفراد، ويحرم الفرقة والاختلاف والبغي، "يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعبادة الكافرين ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ (سورة المتحنة، آية: ٧) أي: محبة بعد البغضة، ومودة بعد النفرة، وألفة بعد الفرقة، ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٣، ص ٣٧٨.

^٢ أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (١٢١٨)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

^٣ سبق تخريجه ص ٩.

^٤ سبق تخريجه ص ٩.

والمتابينة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى
 ممتنًا على الأنصار ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ
 إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ الآية (سورة آل عمران، آية: ١٠٣)، وكذا قال لهم
 النبي صلى الله عليه وسلم «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي»،
 وقال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
 مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٦٢-٦٣). وفي الحديث
 «أَحِبِّ حَبِيبِكَ هَوْنَا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِضَتِكَ يَوْمًا مَا وَأَبْغَضَ بَغِضَتِكَ هَوْنَا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ
 حَبِيبِكَ يَوْمًا مَا»^٢.

ولدوام تلك الألفة التي أوجدها الله بين عباده المؤمنين لا بد من الالتزام بأصول شرعية عظيمة
 وهي:

١. تصحيح الاعتقاد الشرعي، والالتزام منهج السلف الصالح في ذلك.
 ٢. تحكيم كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في كل شؤون الحياة ومجالاتها.
 ٣. الإخلاص لله تعالى، وتجريد المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم.
 ٤. التفقه في دين الله، والعناية بطلبه ونشره.
 ٥. طلب الحق وتحريره، وإتباع الدليل والالتزام به^٤.
- كذلك من الوسائل التربوية المعينة على الوحدة والاجتماع ما سنناقشه في الفصلين القادمين، وهي:
١. تصحيح التصورات العقلية والشرعية.
 ٢. البناء العلمي.
 ٣. التوسط والاعتدال.
 ٤. القدوة الحسنة.
 ٥. تحقيق مبدأ العدل.
 ٦. تحقيق مبدأ الشورى.

^١ أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، حديث رقم (٤٣٣٠).

^٢ أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض، حديث رقم (١٩٩٧)، قال
 الألباني: حديث صحيح.

^٣ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٣٧٣.

^٤ بادي، وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، ص ٢٧٢-٢٧٣.

٧. تحقيق مبدأ السمع والطاعة.
٨. تحقيق مبدأ الوحدة والاجتماع.
٩. تحقيق مبدأ الحوار.
١٠. تحقيق مبدأ الاستقلالية.
١١. تحقيق مبدأ حفظ الأمن الفكري.
١٢. تحقيق مبدأ احفظ الأمن المادي.

وهذه الوسائل مبنية بناء تربوي، بحيث تكون البداية من الفرد، ومن بوابة الفكر، ومنع التصحيح الذي فيه، وهو العقل الذي تتكون فيه وتشكل التصورات العقلية والشرعية، ثم المغذي لهذا العقل الذي يُرسخ فيه المفاهيم والمعتقدات وهو العلم الذي يبينه وفق تصوراته ومنطقه، ثم تكون الترجمة السلوكية التطبيقية لتلك التصورات الصحيحة توسطاً واعتدالاً في الفكر والتطبيق، ثم أخيراً صورةً حيةً مشاهدة، وواقعاً ملموساً لتلك الممارسات والسلوكيات فتكون خير وسيلة لنشر تلك المفاهيم والسلوكيات، وقدوةً حسنةً للغير، والخاتمة أفراداً داخل المجتمع يؤسسونه وينونه على أعلى مراتب الوحدة والاجتماع من خلال ممارسات وتطبيقات مفاهيم العدل والشورى والسمع والطاعة في كافة المراتب والاتجاهات، ويحمونه بتحقيق مبادئ الحوار والاستقلال وحفظ الأمن الفكري والمادي، وبذلك يصل المجتمع إلى القوة المادية والتقدم الحضاري والاستخلاف الرباني.

الفصل الثالث

المضامين التربوية المستنبطة من أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري المتعلقة بالفرد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المضامين التربوية في الجانب الفكري:

- المطلب الأول: تصحيح التصورات العقلية والشرعية.
- المطلب الثاني: البناء العلمي.

المبحث الثاني: المضامين التربوية في الجانب السلوكي:

- المطلب الأول: التوسط والاعتدال.
- المطلب الثاني: القدوة الحسنة.

تمهيد

في هذا الفصل سوف يذكر الباحث الأحاديث الدالة على المضامين التربوية المتعلقة بالفرد من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري، وذلك بذكر التعريف اللغوي والاصطلاحي للمضمون، مع بيان متعلقاته، ثم إيراد شرح موجز للحديث مع بيان وجه استنباط المضمون المتعلق

به، ثم ذكر كيفية التطبيق التربوي لذلك المضمون مع ذكر ما يتعلق به من أنواع، أو أقسام، أو ضوابط، للمضمون المستنبط من الأحاديث الواردة. وهذا الفصل مكمل للفصل السابق في عرض الوسائل التربوية المعينة على وحدة واجتماع الأمة، وتوضيح ذلك من أحاديث الباب، لتكون نبراساً للمسلم في تحقيق وحدة مجتمعه وتقدمه واستقراره. وسأحاول إبراز هذه المضامين على النحو التالي:

المبحث الأول: المضامين التربوية في الجانب الفكري

في البداية الفكر لغةً هو "الفاء والكاف والراء تردُّدُ القلب في الشيء، يقال تفكَّرَ إذا ردَّدَ قلبه معتبراً، ورجلٌ فكِّيرٌ: كثير الفكر"، و"الفكرُ والفكرُ إعمال الخاطر في الشيء"^٢، و"الفكرُ بالكسر ويُفتحُ: إعمالُ النَّظَرِ في الشيءِ كالفِكرَةِ والفِكرَى بكسرهما"^٣، و"التَّفَكُّرُ التأمل"^٤، وعرفه الجرجاني بأنه "ترتيب أمور معلومة لتؤدي إلى مجهول"^٥. وقال بعض الأدباء "الفكر مقلوب عن الفك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبجثها طلباً للوصول إلى حقيقتها... والفكرة: قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكير: جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب"^٦. والفكر "الفكرة والصورة الذهنية لأمر ما وجمعها فكر"^٧. والتفكير في الاصطلاح "التصور الذهني أو حصول صورة الشيء في الذهن، أو إعمال العقل في الأشياء للوصول إلى معرفتها"^١.

^١ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٤٤٦، باب الفاء والكاف وما يثنتهما.

^٢ ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٣٠٧، باب الفاء، مادة "فكر".

^٣ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص٥٨٨، باب الراء، فصل الفاء.

^٤ الرازي، مختار الصحاح، ص٢٤٩.

^٥ الجرجاني، التعريفات، باب الفاء، ص٢١٧.

^٦ الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ت: صفوان عدنان داوودي، ط٢، ١٤١٨هـ، دار القلم، دمشق، ص٦٢٣ - ٦٤٣.

^٧ إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، باب الفاء، ج٢، ص٦٩٨.

والفكر اصطلاحاً هو "ظاهرة عقلية تنتج عن عمليات التفكير القائم على الإدراك، والتحليل، والتعميم. ويتميز الفكر عن العاطفة التي تصدر عن ميل انفعالي لا تستند على التجربة، وتدور حول فكرة، أو موضوع. كما يتميز الفكر عن الإرادة التي ترمي إلى ترجيح كفة الميول القائمة على أحكام تقويمية"^٢، وقيل هو "مجموع الأسس النظرية والمفاهيم والمعاني التي تكمن خلف مظاهر السلوك الإنساني"^٣، "والفكر بهذه الإحاطة الشاملة هو تعبير عن واقع اجتماعي معين"^٤، "والفكر إذا كان تعبيراً عن واقع اجتماعي، فإنه في الوقت ذاته أداة لتغيير هذا الواقع أيضاً"^٥.
ويُعرّف التربويون الجانب الفكري بأنه "صفة للعمليات الواعية التي تتضمن التذكر والفهم والبحث عن العلل والأسباب وإصدار الأحكام"^٦.

ولعل التعريف في الاصطلاح التربوي هو ما ينطبق على دراسة الباحث في التصحيح للتصورات العقلية والشرعية على أساس الكتاب والسنة، معتمداً على أحاديث الباب في بيان وتوضيح ذلك.
والفكر الإنساني يشوبه الانحراف عن الحق في مفاهيمه لأسباب عدة^٧، ومنها:
١. ما يكون ناشئاً عن خطأ فكري بحت، أدى إليه غموض الحقيقة، أو قصور النظر، أو الجهل بطريقة البحث السليم، أو حصر التفكير في جانب من جوانب البحث حيث الحقيقة موزعة في جوانب شتى من الساحة، وبذلك لا تستبين الحقيقة على وجهها الصحيح، فيكون الانحراف عن الحق.

^١ جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ١٤١٤هـ، الشركة العربية للكتاب والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ج٢، ١٥٧.

^٢ زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ١٩٧٨م، مكتبة لبنان، بيروت، ص٤٢٥.

^٣ عبد السميع سيد أحمد: مقدمة لكتابة تاريخ التربية في (دراسات تربوية)، ١٩٨٧م، رابطة التربية الحديثة، القاهرة، م٢، ج٧، ص١٢٧-١٢٨.

^٤ مصطفى عبد القادر زيادة وآخرون: الفكر التربوي مدارسه.. واتجاهات تطوره، ط٣، ١٤٢٧هـ، مكتبة الرشد، الرياض، ص٢١.

^٥ محمد منير مرسي: الاتجاهات المعاصرة في التربية المقارنة، ١٩٩٣م، عالم الكتب، القاهرة، ص٤٠.

^٦ عبد العزيز بن سعود العمر: لغة التربويين، ١٤٢٨هـ، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، باب الفاء، ص٢٢٩.

^٧ عبد الرحمن حسن جنبكه الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها، ط٦، ١٤٢٣هـ، دار القلم، دمشق، ج١، ص٧٠٩-٧١٠.

٢. ما يكون ناشئاً عن إتياع غير بصير، وتقليد أعمى، دفع إليه تعصب ذميم، أو ثقة عمياء، أو تعطيل لأدوات البحث والمعرفة، وكل ذلك ينشأ عن جهل أو تقصير أو هوى.

٣. ما يكون الباعث عليه هوى من أهواء النفس، أو شهوة من شهواتها، أو مطلب من مطالبها، فتزين له أهواؤه وشهواته ومطالبه صورة من صور الباطل، فتجعله ينادي بأنها هي الحق.

والتفكير له أنواع عدة، حيث يرى بعض الباحثين أنه ثلاثة أنواع: سطحي، وعميق، ومستنير. فالتفكير السطحي: هو تفكير عامة الناس، والتفكير العميق: هو تفكير العلماء، والتفكير المستنير: هو تفكير القادة والمستنيرين من العلماء.

والتفكير السطحي هو آفة الشعوب، وهو عبارة عن نقل الواقع فقط إلى الدماغ، دون البحث في سواه، ثم الخروج بالحكم السطحي، وسببه ضعف الإحساس أو ضعف المعلومات ويعتبر هذا التفكير بدائياً.

أما التفكير العميق فهو التعمق في التفكير، أي التعمق في الإحساس بالواقع، والتعمق في المعلومات التي ترتبط بهذا الإحساس، بل يعاود الإحساس بالواقع ويحاول أن يحس فيه بأكثر مما أحس، إما عن طريق التجربة وإما بإعادة الإحساس، وهذا هو تفكير العلماء والمفكرين، فالتفكير العميق هو التعمق في الحس والمعلومات والربط.

أما التفكير لمستنير فهو التفكير العميق نفسه مضافاً إليه التفكير بما حول الواقع وما يتعلق به للوصول إلى النتائج الصادقة، أي أن التفكير العميق هو التعمق بالفكر نفسه، ولكن التفكير المستنير هو أن يكون إلى جانب التعمق بالفكر، التفكير بما حوله وما يتعلق به، من أجل غاية مقصودة، وهي الوصول إلى النتائج الصادقة^١.

والتفكير الجيد الفعّال ينعكس على الفرد بنتائج إيجابية^٢، ومنها:

١. نتائج موثوقة، قابلة للتصديق، أكثر دقة، وأكثر حكمة.

٢. طرح آراء أكثر انفتاحاً، وأوسع شمولاً، وأكبر عمقاً.

^١ المانع، القيم بين الإسلام والغرب، ص ٢٢٠-٢٢١، نقلاً عن د. محامي منير محمد الشواف: تهاقت القراءة المعاصرة، ص ١٠١-١٠٢.

^٢ عبد الرشيد عبد العزيز حافظ وآخرون: التفكير والبحث العلمي، ١٤٣٠هـ، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ص ٧-٨.

٣. الوصول إلى قرارات أكثر نضجاً ورشداً مما يرتقي بشخصية الفرد ويجنبه عواءق القرارات المرتجلة.

٤. يؤدي إلى فكر نقدي دقيق، وإصدار أحكام نقدية تتسم بالقوة والحكمة.

٥. يتسم المفكر الجيد بمجموعة من الاتجاهات والخصائص منها:

أ- الاعتماد على مصادر دقيقة وموثوقة.

ب- البحث عن البدائل والموازنة بينها.

ت- الموضوعية والتروي وعدم التحيز والانقياد.

ث- التمييز بين الفكرة وصاحبها، وبين الرأي والحقيقة.

٦. الابتعاد عن السلوكيات تغير الفعالة، مثل:

أ- استخدام المناورات اللغوية.

ب- التفكير بطريقة (إما... أو...).

ت- الانسياق نحو الأفكار الداعية والمألوفة.

ث- إصدار الأحكام وفق معايير جزئية.

والتفكير له عدة عمليات، كل عملية أساس في هذا المبحث، فالتفكير الناقد^١ أساس في تصحيح التصورات العقلية والشرعية؛ "لأنه منهج علمي في التعامل مع المعلومات والمواقف المختلفة... والمفكر الناقد يستطيع التوصل إلى قرارات فعالة، ومعرفة ثابتة من خلال قدراته العالية على معالجة المعلومات، وتقييمها ومحاكمتها منطقياً، وبفعالية عالية"^٢، ويتسم التفكير الناقد بالوضوح والصحة والدقة والربط والعمق والاتساع والمنطق والدلالة^٣.

^١ التفكير الناقد عرفه بول وآخرون بأنه "نوع من التفكير في أي موضوع، أو محتوى، أو مشكلة، التي يقوم بها المفكر لتحسين نوعية تفكيره بالأخذ على عاتقه توظيف نظامه الموروث من التفكير وفرض معايير عقلية عليه"، ويعرفه جروان بأنه "نشاط عقلي مركب محكوم بقواعد المنطق والاستدلال، ويقود إلى نواتج يمكن التنبؤ بها، وغايته التحقق من الشيء وتقويمه بالاستناد إلى معايير أو محكات مقبولة، ويتألف من مجموعة مهارات يمكن استخدامها بصورة منفردة أو مجتمعة، وتصنف ضمن ثلاث فئات هي مهارات الاستقراء، ومهارات الاستنباط، ومهارات التقويم"، وعرفه أنيس وآخرون بأنه "التفكير العقلي والتأملي الذي يركز على إقرار ما نؤمن به وما نقوم به". عبد الرشيد حافظ وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٢.

^٢ عبد الرشيد حافظ وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٢.

^٣ انظر: عبد الرشيد حافظ وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٣-٢٤.

بينما التفكير الإبداعي^١ أساسٌ في البناء العلمي؛ لأنه "الوسيلة التي بواسطتها نستطيع أن نلحق بسباق الابتكارات، والاختراعات، فمن المهم عدم الاكتفاء بإعادة وتكرار ما هو معروف، واستثارة التفكير الإبداعي ضرورة ملحة في ظل ما تقدمه لنا التقنية الحديثة من أدوات وطرق لحل مشاكلنا، أو لتحسين جودة ونوعية أسلوب حياتنا، فالتفكير الإبداعي يحثنا باستمرار على التفكير والاكتشاف والإبداع، الأمر الذي يساعد على الارتقاء بقدراتنا العقلية، وبالتالي الحصول على نواتج فعالة"^٢، ويتسم التفكير الإبداعي بالطلاقة والمرونة والأصالة والحساسية للمشكلات والقدرة على الإثراء^٣. هذا عن الفكر وما له صلة بمعناه، أما عن أسسه وروافده وتطبيقاته فسوف أُبينها من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: تصحيح التصورات العقلية والشرعية:

الحديث عن تصحيح التصورات العقلية والشرعية غاية في الأهمية؛ لأنه مصدر الصواب والخطأ، ونقطة التصحيح، وبه صلاح الفكر والسلوك، يقول الإمام أحمد رحمه الله^٤ "أكثر ما يُخطئ الناس من جهة التأويل والقياس، فالتأويل في الأدلة السمعية _الكتاب والسنة_، والقياس في الأدلة العقلية،...

^١ التفكير الإبداعي عرفه تورانس بأنه "عملية الإحساس بالمشكلات، والفجوات الموجودة في المعلومات، وتحديد مواطن الضعف بحثاً عن الحلول، ووضع التخمينات أو صياغة الفرضيات، واختبار وإعادة اختبار صحة الفرضيات والاحتمالات، وأخيراً الوصول إلى النتائج"، ويعرفه جروان بأنه "نشاط عقلي مركب وهادف توجهه رغبة قوية في البحث عن حلول أو التوصل إلى نواتج أصيلة لم تكن معروفة سابقاً"، ويعرفه هونيج بأنه "التفكير المتشعب الذي يتضمن تحطيم وتقسيم الأفكار القديمة، وعمل روابط جديدة، وتوسيع حدود المعرفة، وإدخال الأفكار العجيبة والمدهشة، أي توليد أفكار، ونواتج جديدة من خلال التفاعل الذهني، وزيادة المسافة المفاهيمية بين الأفراد وما يكتسبه من خبرات". نقلاً عن المرجع السابق، ص ١٧.

^٢ عبد الرشيد وآخرون، المرجع السابق، ص ١٧.

^٣ انظر: المرجع السابق، ص ١٨-٢٠.

^٤ هو أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي، أبو عبد الله، إمام بغداد، وإمام الحنابلة، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وهو المجاهد في محنة خلق القرآن، ولد سنة (١٦٤هـ)، ومات سنة (٢٤١هـ). انظر ترجمته: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص ١٧٧-٣٥٨، وأبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي: طبقات الفقهاء، (د.ت)، دار القلم، بيروت، ص ١٠١.

والتأويل الخطأ إنما يكون في الألفاظ المتشابهة، والقياس الخطأ إنما يكون في المعاني المتشابهة. وقد وقع بنو آدم في عامة ما يتناوله هذا الكلام من أنواع الضلالات^١.

والتصورات هي كل عمل ذهني يترجم للعقل ما يدور في المحيط الخارجي بغض النظر عن صحته أو عدمه، أو منطقيته أو عدمها، ويُعرف التربويون التصور بأنه "ترجمة وفهم ما يصل إلينا عن طريق الحواس ويشكل تصوراتنا العقلية عن العالم المحيط، والإدراك مفهوم عام يصف العملية العقلية التي من خلالها نعرف ماذا يدور حولنا؛ وهو مفهوم يصف قدرتنا على استقبال وتحليل وترجمة وفهم وتنظيم ما يصل إلينا من البيئة المحيطة من مثيرات ومعلومات عن طريق حواسنا"^٢.

وتصحيح التصورات العقلية والشرعية من أهم أبواب العلم؛ لأنه يبني عليها كافة الأفكار والمعتقدات، والأعمال والسلوك، وإذا صحت تلك التصورات كانت خير بيانٍ للحق، وخير داعيةٍ للبناء والاصلاح والتغيير، وخير وسيلة لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة، "وكثيراً ما يضيع الحق بين الجهال الأميين، وبين المحرفين للكلم الذين فيهم شعبة نفاق... كما أخبر سبحانه عن أهل الكتاب حيث قال ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (سورة البقرة، الآيات: ٧٥-٧٨)، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر أن هذه الأمة تتبع سنن من قبلها حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه^٣، وجب أن يكون فيهم من يحرف الكلم عن مواضعه، فيغير معنى الكتاب والسنة فيما أخبر الله به أو أمر به، وفيهم أميون لا يفقهون معاني الكتاب والسنة، بل ربما يظنون أن ما هم عليه من الأمانى التي هي مجرد التلاوة، ومعرفة ظاهر من القول، هو غاية الدين، ثم قد يناظرون المحرفين وغيرهم من المنافقين أو الكفار، مع علم أولئك بما لم يعلمه الأميون فإما أن تضل الطائفتان، ويصير كلام هؤلاء فتنة على أولئك حيث يعتقدون أن ما يقوله الأميون هو غاية علم الدين، ويصيروا في طريقي النقيض، وإما أن يتبع أولئك الأميون أولئك المحرفين في بعض ضلالهم، وهذا من بعض أسباب تغيير الملل، إلا أن هذا الدين محفوظ"^٤.

ولبيان الطرق التربوية لتصحيح التصورات العقلية والشرعية يبدأ الباحث بما يلي:

^١ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٣، ص ٤١.

^٢ العمر، لغة التربويين، باب الثاء، ص ٩٩-١٠٠.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (لتبعن سنن من كان قبلكم)، حديث رقم (٧٣٢٠)، ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث رقم (٢٦٦٩).

^٤ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٢٥، ص ٧٤-٧٥.

أولاً: تصحيح التصورات العقلية:

من خصائص التربية الإسلامية أنها عقلانية "أي أنها تربية تحترم عقل الإنسان؛ ذلك لأن العقل هو أداة الإنسان التي وهبها الله له للتعلم والفهم وهو مناط التكليف، لذلك تجد القرآن الكريم يكثر من ذكر وظائف العقل المتنوعة، وكذلك مستوياته، لأنه مما تميّز به الإنسان عن غيره من الكائنات الحية الأخرى التي خلقها الله في هذا الكون الواسع والعميق إذ من وظائف العقل التي حبا الله بها الإنسان أن يفكر ليفهم، ويدرك العلاقات والسنن التي يسيّر الله بها حركة الكون والحياة فيقتنع ويدرك حقيقة نفسه، وكل هذه الوظائف تيسّر للإنسان التعلم الصحيح، بل هي أساسه"^١.

واختلف العلماء في تعريف العقل وبيان حده ففي اللغة قال ابن فارس "العين والقاف واللام أصلٌ واحد منقاس مطرد، يدلُّ عَظْمُهُ على حُبْسَةِ في الشَّيْءِ أو ما يقارب الحُبْسَةِ. من ذلك العَقْلُ، وهو الحابِس عن ذَمِيم القَوْل والفِعْل.

وقال الخليل: العَقْل: نقيض الجهل. يقال عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلاً، إذا عَرَفَ ما كان يجْهله قبل، أو انزَجَرَ عَمَّا كان يفعلُه. وجمعه عقول. ورجل عاقلٌ وقوم عُقلاء. وعاقلون. ورجل عَقُول، إذا كان حَسَنَ الفَهم وافر العَقْل"^٢.

وفي الاصطلاح تعددت تعريفاته قال الفيروز آبادي "العقل العلم، أو بصفات الأشياء، من حسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين، وشر الشرين، أو مطلقاً لأمر، أو لقوةٍ بها يكون التمييز بين القبح والحسن، ولعانٍ مجتمعة في الذهن، يكون بمقدمات يستتب بها الأغراض والمصالح، ولهيئةٍ محمودةٍ للإنسان في حركاته وكلامه، والحق أنه نور روحاني، به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية، وابتداء وجوده عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ"^٣، وقال سيبويه "هو صفة"^٤.

وقال الإمام أبو عبد الله المازري رحمه الله "اختلف الناس في العقل ما هو ف قيل هو العلم وقيل بعض العلوم الضرورية وقيل قوة يميز بها بين حقائق المعلومات"^٥ وقيل "العَقْلُ الحِجْرُ والنُّهْيُ ضد

^١ سعيد إسماعيل، التربية الإسلامية (المفاهيم والتطبيقات)، ص ٢٥.

^٢ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٤، ص ٦٩، مادة (عقل)، باب العين والقاف وما يثلاثهما في الثلاثي.

^٣ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، باب اللام - فصل العين، ص ١٣٣٦.

^٤ الرازي، مختار الصحاح، باب العين، ص ٢٢٢. إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح

العربية، ١٩٩٠م، دار العلم للملايين، بيروت، ج ٥، ص ٣٥، مادة (عقل).

^٥ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ٢، ص ٨٩.

الحق والجمع عقول"^١، ويقول الجرجاني "العقل: جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقاً ببدن الإنسان، وقيل: العقل: نور في القلب يعرف الحق والباطل، وقيل: العقل: جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، وقيل: قوة للنفس الناطقة، وهو صريح بأن القوة العاقلة أمر مغاير للنفس الناطقة، وأن الفاعل في التحقيق هو النفس والعقل آلة لها، بمنزلة السكين بالنسبة إلى القاطع"^٢. وقيل "العقل والنفس والذهن، واحد، إلا أنها سميت عقلاً لكونها مدركة، وسميت نفساً لكونها متصرفة، وسميت ذهناً لكونها مستعدة للإدراك، وما يعقل به حقائق الأشياء"^٣.

وقسم الفلاسفة العقل إلى "العقل المستفاد: وهو أن تحضر عنده النظريات التي أدركها بحيث لا تغيب عنه، والعقل بالفعل: وهو أن تصير النظريات مخزونة عند القوة العاقلة بتكرار الاكتساب، بحيث تحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت من غير تجشم كسب جديد، لكنه لا يشاهدها بالفعل، والعقل بالملكة: وهو علم بالضروريات، واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات، والعقل الهولاني: وهو الاستعداد الخاضع لإدراك المعقولات، وهي قوة محضة خالية عن الفعل كما للأطفال، وإنما نسب إلى الهولي لأن النفس في هذه المرتبة تشبه الهولي الأولي الخالية في حد ذاتها من الصور كلها"^٤.

وتعريف العقل في علم النفس أنه "نشاط المخ وعلاقاته بالجسم"^٥.

وفي علم الاجتماع يُعرّف بالوعي الاجتماعي وهو "مجموعة التصورات التي تبناها مجموعة اجتماعية معينة"^٦.

ويُعرفه جون لوك بأنه "عنصر أولي بسيط التكوين لا يتجزأ ولا يتحلل كما هو الشأن في الشيء المادي"^٧، فالعقل عند هؤلاء يولد صفحة بيضاء مهياً لتقبل ما تخطه عليه التجربة من معاني ومبادئ

^١ ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٣٢٦، مادة (عقل).

^٢ الجرجاني، التعريفات، باب العين، ص ١٩٦-١٩٨.

^٣ الجرجاني، المرجع سابق، باب العين، ص ١٩٦-١٩٨.

^٤ الجرجاني، المرجع سابق، باب العين، ص ١٩٦-١٩٨.

^٥ عاطف أحمد: نقد العقل الوضعي دراسة في الأزمة المنهجية لفكر زكي محفوظ، ١٩٨٠م، دار الطليعة، بيروت، ص ١٣٣.

^٦ عاطف أحمد، المرجع السابق، ص ١٣٣.

^٧ عزمي إسلام: جون لوك، ١٩٦٨م، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٣٢٠.

ويحصل بنقل الإحساس إلى الذهن صور المحسوسات من ألوان وأبعاد ونحوها، وبالتفكير تنشأ الصور الذهنية من تخيل وتذكر ونحوها^١.

ويُعرفه أصحاب المذهب العقلي بأنه "عبارة عن مجموعة المبادئ البديهية القبليّة المنظمة للمعرفة، المتميزة بضرورتها (صدقها) وكليتها وعموميتها، واستقلالها عن كل تجربة"^٢.
وقيل العقل "إدراك الإنسان للحقائق الضرورية والأبدية يتميز بها عن الحيوان، وهي التي تسمو به إلى معرفة ذاته"^٣.

وليس لاسم العقل وجود في كتاب الله العزيز وإنما يوجد ما تصرف منه نحو:
تعقلون: وردت في أربعة وعشرين موضعاً من القرآن.
يعقلون: وردت في اثنتين وعشرين موضعاً من القرآن.
نعقل: وردت في موضع واحد من القرآن.
يعقلها: وردت في موضع واحد من القرآن.
عقلوه: وردت في موضع واحد من القرآن.

وقد ورد في القرآن ألفاظ مرادفة للعقل بصيغة المصدر في عدة مواضع من كتاب الله الكريم، منها: "الحجر، والثهي، والألباب، والأحلام، والأبصار، والفؤاد، والقلب"^٤، وفي القرآن ذكر لوظائف العقل، والتي هي ثمرته والحكمة من وجوده في الإنسان دون سائر المخلوقات، ومنها: "التفكير، والتذكر، والنظر، والعلم، والإدكار، والإعتبار"^٥.

والتصورات العقلية هي الأساس في تفكير الإنسان، وهي الدالة على وجود عقله وكمال إنسانيته، وبصحة تصوره العقلي وبنائه الفكري يسعد أو يشقى الإنسان في حياته وآخرته، ونجد في كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم الدلائل والإشارات إلى قيمة تلك التصورات العقلية والتي تُسيّر الإنسان وفق تصوره وإدراكه للحقائق الدنيوية والأخروية، في سياقٍ ثنائي متوازن يحقق للإنسان رغباته وحجته الدنيوية، والنجاة والسعادة الأخروية، يقول تعالى ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا

^١ توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ط٧، ١٩٧٩م، دار النهضة العربية، القاهرة، ص ٣٥٠-٣٥١.

^٢ الطويل، المرجع السابق، ص ٣٤٢-٣٤٤.

^٣ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج ٢، ص ٨٧.

^٤ خليل بن عبد الله الحدري: منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، ١٤٢٥هـ، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ص ٥١-٥٣.

^٥ الحدري، المرجع السابق، ص ٦٤.

مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿سورة النحل، آية: ٩٧﴾، والعمل كونه صالحاً أو سيئاً لا يميزه إلا العقل، والعقل نور البصيرة التي يبصر بها الإنسان الحقائق فإذا فقد ذلك النور فقد التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، مثله مثل من فقد نور البصر الذي يفقد التمييز بين النافع والضار، والحسن والقبيح، قال تعالى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (سورة الحج، آية: ٤٦)، فالعقل المبني على هدي الكتاب والسنة يرى بنور الله العمل الصالح فيعمله، ويرى بنور الله العمل السيئ فيتجنبه، أما العقل المبني على الهوى فلا يرى ولا يعمل إلا بما أُشرب من هواه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَيْبَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخِرُ أَسْوَدًا مَرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًّا^١ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»^٢.

والذي عليه جمهور العلماء والمفسرين أن العقل مكانه القلب، والعقل الذي تعنيه التربية الإسلامية إنما هو بمعنى "التعقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويبصر ويتدبر ويحسن الأدكار والرواية"^٣، وهذا العقل هو الذي وردت أدلة الكتاب والسنة عليه، ونحن مأمورون بالاعتصام بهما عند كل ما يشكل علينا فهمه أو يغيب عنا علمه، والإنسان من خلق الله الذي يقول عنه ربنا تبارك وتعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك،

^١ في آخر الحديث، قال أبو خالد فقلت لسعد يا أبا مالك ما أسود مرباداً قال: شدة البياض في سواد. قال: قلت: فما الكوز مجحياً، قال: منكوساً. وبين النووي عند شرحه للحديث معنى الكلمتين فقال: "وفسره الراوي في الكتاب بقوله: منكوساً، وهو قريب من معنى المائل. قال القاضي عياض: قال لي ابن سراج: ليس قوله كالكوز مجحياً تشبيهاً لما تقدم من سواده، بل وصف آخر من أوصافه، بأنه قلبٌ وتكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة... قال القاضي رحمه الله: شبه القلب الذي لا يعي خيراً بالكوز المنحرف الذي لا يثبت الماء فيه. وقال صاحب التحرير: معنى الحديث أن الرجل إذا اتبع هواه وارتكب المعاصي دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام، والقلب مثل الكوز فإذا انكب انصب ما فيه، ولم يدخله شيء بعد ذلك. وأما قوله في الكتاب: (قلت لسعد: ما أسود مرباداً؟ فقال: شدة البياض في سواد) فقال القاضي عياض رحمه الله: كان بعض شيوخنا يقول إنه تصحيف وهو قول القاضي أبي الوليد الكناي. قال: أرى أن صوابه شبه البياض في سواد".

النووي، شرح صحيح مسلم، ج ٢، ص ٢٢٧-٢٢٨.

^٢ أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ وأنه يأرز بين المسجدين، حديث رقم (١٤٤).

^٣ معروف زريق: علم النفس الإسلامي، ١٤٠٨ هـ، دار المعرفة، دمشق، ص ٩١.

آية:١٤)، يقول الفخر الرازي رحمه الله "معنى الآية أن من خلق شيئاً لا بد وأن يكون عالماً بمخلوقه، وهذه المقدمة كما أنها مقررة بهذا النص فهي أيضاً مقررة بالدلائل العقلية... فثبت أن من خلق شيئاً فإنه لا بد وأن يكون عالماً بحقيقة ذلك المخلوق، وبكميته وكيفيته"، ثم يقول في الإثبات العقلي لمعنى الآية "يلزم من كونه خالقاً لها كونه عالماً بها لأن خالق الشيء يجب أن يكون عالماً به"^١.

ومن هذه القاعدة الشرعية العقلية، والمصدر الرباني اليقيني، نعرف مكان العقل في الإنسان، يقول تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (سورة الحج، آية:٤٦)، قال الإمام القرطبي رحمه الله "وأسند التعقل إلى القلوب لأنها محل العقل، كما أن الآذان محل السمع"، ويقول الإمام الشنقيطي رحمه الله "والآية تدل على أن محل العقل في القلب، ومحل السمع في الأذن، فما يزعمه الفلاسفة من أن محل العقل الدماغ باطل"، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِيُونَ﴾ (سورة الأعراف، آية:١٧٩)، والفقهاء هو العلم وهو "عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه"^٢، فهو عمل عقلي محض، وأسنده الله تعالى في الآية إلى القلب الذي هو محله.

ولقد علّق الرسول صلى الله عليه وسلم صلاح الجسد وفساده بصلاح القلب، الذي هو بمنزلة الموجه لكل أعضاء الجسد، ولا يكون كذلك إلا بقوة عاقلة وإدراك وإرادة، تعرف النافع فتسعى في تحصيله، وتعرف الضار فتسعى في دفعه، وتلك هي حقيقة العقل ووظيفته «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^٣، وكل الأعضاء بوظائفها داخلية في قوله "كله".

ونجد في كتاب الله تعالى وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم أن الانتفاع بالهدى والذكرى والموعظة والقصص التي أنزلها الله إنما يكون بالقلب، قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى

^١ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج ٣٠، ص ٥٨٩-٥٩٠.

^٢ الجرجاني، التعريفات، باب الفاء، ص ٢١٦.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استقرأ لدينه، حديث رقم (٥٢). ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (١٥٩٩).

السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» (سورة ق، آية: ٣٧)، بل إن القلب محط نظر الرحمن سبحانه وتعالى، يقول صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^١. وقد أثبت الطب البشري في العلم الحديث، أن القلب هو العقل الثاني المتحكم في المشاعر والسلوك، وله ارتباط وثيق بالدماغ وأجريت في ذلك دراسات وبحوث لا مجال لذكرها^٢. والعقل له قوتان قوة إدراك وعلم، وقوة إرادة وعمل، والأولى أهم وأولى بالعناية والاهتمام، وتوجيه التربية، وصرف الطاقات، وبذل الأوقات؛ لأنها القوة التي تُميّز كل إنسان عن غيره، وهي التي تتشكل منها التصورات والمفاهيم والمعتقدات، وهي الدافعة للإنسان في جلب المنافع ودفع المضار، وهي بمثابة المخترع في الإنسان يُحلّل ويُصنّف فيها النافع والضار، ولذلك تكمن الخطورة في هذه القوة؛ لأنها تحدد للجبلّة ما هو النافع، فتسعى الجبلّة لتحقيقه، وما هو الضار، فتسعى الجبلّة لدفعه، وهذا هو دور القوة الإدراكية العلمية في القلب، وإبليس عدو الإنسان الأكبر أحرص ما يكون أن يصل إلى هذه القوة ليفسدها، ويسخرها لمصلحته، تحقيقاً ليمينه، ووفاءً بقسمه ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة ص، آية: ٨٢).

ومثال ذلك لو أن إنساناً عُرض عليه مال عن طريق رشوة أو غش أو سرقة أو اختلاس، فإنه في أقل من دقيقة تدور في ذهنه دورة كاملة عبر الدماغ تُرسل كل الملفات المخزنة فيه المتعلقة بقضية المال إلى القلب ثم إلى قوة الإدراك وتُفتح تلك الملفات، وتبدأ قوة الإدراك في القلب لتحكّم، فإن كان مدونٌ في القوة العلمية أن ذلك ضمن النافع، فإنه سينشأ مباشرة قوة إرادية طلبية بالحب، ثم الطلب، ثم تتوجه عبر الدماغ إلى اليد أن خذي هذا المال، وهذه العملية تظهر من قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ»^٣، وهذه العملية مع الإنسان في كل أحواله وأفعاله وأقواله، بل وفي نواياه المضمرة، والعجيب أنهما معه حتى في تصرفاته اللاإرادية.

ومنهج القرآن الكريم في التذكير والتنبيه، وأوامر التعقل والتفكير والخشوع، وكل ما فيه إعمالٌ للعقل تجد الخطاب موجهاً إلى القلب، لذلك جاء البيان الرباني بنزول القرآن على أهم المواضع وأشرفها وأكرمها وهو قلب خير البشر صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ

^١ أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، حديث رقم (٢٥٦٤).

^٢ انظر كتاب نقض أصول العقلايين لسليمان بن صالح الخراشي، ص ١٤ وما بعدها.

^٣ سبق تخريجه ص ١١٣.

الْعَالَمِينَ ﴿۱۹۲﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿۱۹۳﴾ عَلَيَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿۱۹۴﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢-١٩٥﴾.

إذا ثبت ذلك يظهر لنا أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة، والمنهجية التربوية الإسلامية في استصلاح الناس، وتعديل سلوكهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأفكارهم، وتوجيه كافة القوى والإمكانات إلى القلب في قوته العلمية الإدراكية، بخلاف مناهج التربية الحديثة التي تُركّز على السلوك باعتباره عاملاً مستقلاً بذاته، وتسعى لإصلاحه وتغييره بطرق سلوكية مضادة، أو بمعالجات نفسية تعتمد على اللاشعور مثل التنويم المغناطيسي، أو التداوي الحر، أو التنفيس الإنفعالي، أو تفسير الأحلام، أو غير ذلك من أساليب نظرية التحليل النفسي التي أسسها سيجموند فرويد (١٩٣٣)، والتي تعتمد على "أن الجهاز النفسي يتكون من الهو والأنا والأنا الأعلى، أما الهو (Id) فهو منبع الطاقة الحيوية والنفسية، ومستودع الغرائز والدوافع الفطرية التي تسعى إلى الإشباع في أي صورة وبأي ثمن، وهو الصورة البدائية للشخصية قبل أن يتناولها المجتمع بالتهذيب، أما الأنا الأعلى (Super-ego) فهو مستودع المثاليات والأخلاقيات والضمير والمعايير الاجتماعية والقيم الدينية، ويعتبر بمثابة سلطة داخلية أو رقيب نفسي، أما الأنا (Ego) فهو مركز الشعور والإدراك الحسي الخارجي والداخلي والعمليات العقلية والمشرف على الحركة والإدارة والمتكفل بالدفاع عن الشخصية وتوافقها وحل الصراع بين مطالب الهو وبين مطالب الأنا الأعلى وبين الواقع، ولذلك فهو محرك منفذ للشخصية، ويعمل في ضوء مبدأ الواقع من أجل حفظ وتحقيق الذات والتوافق الاجتماعي. ويرى فرويد أن الجهاز النفسي لا بد أن يكون متوازناً حتى تسير الحياة سيراً سويماً، ولذلك يحاول الأنا حل الصراع بين الهو والأنا الأعلى، فإذا نجح كان الشخص سويماً، وإذا أخفق ظهرت أعراض العصاب"^١، وفي مجال البحوث السلوكية التطبيقية "يُجمع المؤرخون على أن عقد الستينيات من القرن العشرين هو عقد انبثاق تكنولوجيا تعديل السلوك، وعلى أية حال، فلقد ظهرت دراسات عديدة في النصف الأول من القرن العشرين شكلت بمجمعتها تطورات هامة في تاريخ تعديل السلوك. ويُجمع المؤرخون على أن من أوائل مُعدّلي السلوك لايتنر ويتمر وهو الذي يُعتبر أيضاً الأب الحقيقي لعلم النفس العيادي الأمريكي، فلقد افتتح ويتمر أول عيادة نفسية في جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت أساليبه العلاجية تركز على تغيير السلوك الظاهر وليس العمليات النفسية الداخلية... وفي عام ١٩٣٢ استخدم ستانلي جري مصطلح "تعديل السلوك" لأول مرة في أدب العلاج النفسي حيث نشر مقالة دعا فيها إلى التركيز على السلوك الظاهر

^١ حامد عبد السلام زهران: التوجيه والإرشاد النفسي، ط٣، ١٤٢٣هـ، عالم الكتب، القاهرة، ص ١٢٣-١٢٤.

ومحاولة تحليله وتعديله وفق مبادئ التعلم، وفي بداية الثلاثينات أيضاً أجرى الأمريكي نايت دونلاب بحثاً علمية هامة حول تعلم العادات وأساليب التخلص منها، وقد استند هو الآخر إلى مبادئ التعلم لتغيير العادات، ولعل أكثر الأساليب العلاجية التي اقترنت باسم دونلاب هو أسلوب الممارسة السلبية (Negative Practice) الذي يحاول مساعدة الشخص على التخلص من العادة السيئة عن طريق تأديتها بشكل متكرر وذلك بغية أن تصبح مملة ومقيدة، وفي عقد الثلاثينات أيضاً ابتداءً ولتر فيتلين وفريدريك ليمير باستخدام المعالجة بالتنفير لمعالجة الإدمان على الكحول، وقد اشتمل العلاج على إقتران الكحول بالغثيان وذلك وفق مبادئ الإشراف الكلاسيكي^١. إن الدراسات التي أجراها هذان الباحثان على مدى ثلاثين سنة كانت ذات أثر بالغ على ميدان تعديل السلوك، من حيث استخدام الخطوات المنظمة والتقييم الموضوعي والمنهجية التجريبية^٢، وعندما نرجع إلى بداية دعوة نبينا صلى الله عليه وسلم وكيف كانت الأمة غارقة في الزنا والخمر والظلم الطبقي وفي قضايا الفساد السلوكي في كل اتجاه.. فيبدأ المنهج الرباني الصادر من الوحي السماوي فيأمر رسول الأمة صلى الله عليه وسلم أن يتغاضى عن تلك السلوكيات كلها، ويوجه دعوته على المركز الرئيس في إصلاح هذا كله، فيتجه الاستصلاح إلى تلك المضغة بمقوم رئيس وهو أن تعرف ربها المعرفة التي ينشأ عنها استحقاق العبادة والتشريع لله سبحانه وتعالى، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن القرآن «إنما نزل أوّل ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أوّل شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزونا لقالوا

^١ أول من صنف نموذج الإشراف الكلاسيكي هو عالم الفسيولوجيا الروسي إيفان بافلوف والذي يشتمل على تغيير الظروف التي تستجّر الإستجابة، وكان لهذا النموذج أثرٌ بالغ في مسار علم النفس، إذ شكل قاعدة أساسية في تفسير الكثير من السلوكيات الإنفعالية الإنسانية، فقد كان بافلوف مهتماً بدراسة لعاب الكلب، وفي دراسته وجد أنه إذا أحدث صوتاً (مثيراً شرطياً) مباشرة قبل أن يضع الطعام (مثير غير شرطي) في فم الكلب، أصبح الصوت وحده بعد فترة زمنية معينة يؤدي إلى سيلان لعاب الكلب، ولقد أدت هذه الدراسات إلى اكتشاف إحدى ميكانيزمات التعلم المعروفة باسم الانعكاس الشرطي (Conditioned Reflex) وهي تعني أن المثير الحيادي (الصوت) إذا تزامن حدوثه مع حدوث المثير الشرطي (الطعام) فإنه يكتسب القدرة على إحداث الإستجابة (العاب) التي كان يستجرحها في الماضي المثير غير الشرطي فقط. انظر: جمال الخطيب: تعديل السلوك الإنساني، ١٤٢٣هـ، مكتبة الفلاح، الكويت، ص ٦١-٦٢.

^٢ الخطيب، المرجع السابق، ص ٧١-٧٣.

لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب ﴿بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ (سورة القمر، آية: ٤٦)، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده...^١ .

وعندما بُني هذا الأصل في القلوب انتهت مشكلة الخمر في آية واحدة، يقول أنس رضي الله عنه: كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمريهم يومئذ الفضيخ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً ينادي «أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ». قال: فقال لي أبو طلحة اخرج فأهرقها، فخرجت فهرقتها، فجرت في سكك المدينة^٢، وفي رواية مسلم قال أنس رضي الله عنه: إني لقائم أسقيها أبا طلحة وأبا أيوب ورجالاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتنا إذ جاء رجل فقال هل بلغكم الخبر؟ قلنا لا، قال فإن الخمر قد حرمت، فقال يا أنس أرق هذه القلال، قال فما راجعوها ولا سألوا عنها بعد خبر الرجل^٣، وكذلك انتهت مشكلة التبرج بآية نزلت في الليل، وما حكى لنا التاريخ أن امرأة عارضت أو عصت، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها «يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (سورة النور، آية: ٣١) شققن مروطنهن فاحترمن به»^٤، هذا التعامل الراقى مع الأحكام الشرعية ليس مبني على أنها أغلالٌ مُقَيِّدَةٌ، أو أنها للمنع والحرم، وإنما على أنها تكريمٌ وسبيلٌ إلى السعادة الأبدية، لذلك استقبل الحكم استقبال الظامئ للماء البارد، وهذا يوم أن كانت التربية مبنية على معرفة الله، ومعرفة الحق الذي له سبحانه، فنشأت الحبة، ومن ثم القبول في النفوس، والإذعان القلبي والتطبيق السلوكي في الواقع لأوامر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، يقول ابن القيم رحمه الله في بيان تأثير قوة القلب للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوته العلمية والإرادية، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها^٥، وهذه القوة العلمية لا بد من تنميتها بالوحي الذي يوجهها في وظائف العقل التي من أجلها أوجده الله، فتكون علاقة تكاملية بين الوحي

^١ أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، حديث رقم (٤٩٩٣).

^٢ أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب صب الخمر في الطريق، حديث رقم (٢٤٦٤).

^٣ أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر...، حديث رقم (١٩٨٠).

^٤ أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب (وليضربن بخمرهن على جيوبهن)، حديث رقم (٤٧٥٨)، وذكر المفسرون سبب نزول آيات الحجاب في سورة الأحزاب (آية: ٥٣ وآية: ٥٩)، وسورة النور (آية: ٣١).

^٥ محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: الفوائد، ت: محمد عبد القادر الفاضلي، ١٤٣٢هـ، المكتبة العصرية، بيروت، ص ٢٨.

والعقل، يقول الكيلاني "وتظهر أهمية التكامل بين الوحي والعقل من الآيات الواردة في آخر سورة الحشر وذلك عند قوله تعالى ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ١٣)، وقوله تعالى ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ١٤)، وقوله تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضُرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ٢١)، فالذي لا تنمو قدراته العقلية لتشتمل على قدرة (الفقه) وقدرة (العقل) وقدرة (التفكير) لا يفقه مصدر القوة الحقيقي، ولا يعقل عوامل الوحدة الصائبة، ولا يتفكر بالنواميس والقوانين الاجتماعية والكونية التي توجه إليها آيات القرآن وأمثاله. والخلاصة: أن الله أودع في الإنسان نعمة العقل لتكون أداة توصل إلى معرفته سبحانه وتعالى، وليتدبر من خلالها آيات الله في الكتاب؛ ليهتدي بها وليشهد آياته في الآفاق فيشهدها ويتنفع بها".^١

والتربية الإسلامية حين تبدأ في تربية أجيالها من القلب الذي هو مكان العقل، تبدأ في تربيته من معرفة بذلك القلب الذي هو مكون من لحم ودم، ولكنه يخفق بالمشاعر والأحاسيس، ويقوم على العاطفة والوجدان التي هي طريقة الوصول إليه، لذلك جاء التوجيه الرباني لنبيه صلى الله عليه وسلم بدعوة الناس إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة النحل، آية: ١٢٥)، قال الإمام الشوكاني رحمه الله في بيان معنى الموعظة الحسنة "هي الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة"^٢، وقال الإمام البغوي رحمه الله "هو القول اللين الرقيق من غير غلظة ولا تعنيف"^٣، وهذا كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم الذي بُعث رحمة للعالمين ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٩)، قال ابن كثير رحمه الله "الفظ: الغليظ، المراد به هاهنا غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: (غليظ القلب)، أي: لو كنت سيئ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم"^٤، بل إن الله أمر كليمه موسى عليه الصلاة والسلام بإلانة القول لأكبر عدو وظالم عرفته الإنسانية بقوله تعالى

^١ الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٣٣٨.

^٢ الشوكاني، فتح القدير، ج ٣، ص ٢٨١.

^٣ أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي: معالم التنزيل، ١٤١٤ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٣، ص ٧٤.

^٤ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٤٢٩.

﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (سورة طه، آية: ٤٤)، يقول ابن كثير رحمه الله "هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين"^١، وأمر الله سبحانه التعامل مع من أساء بالحسنى حتى تزول العداوات وتصفو النفوس ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (سورة فصلت، آية: ٣٤)، وأمر الله المؤمنين بالكلام الحسن مع كل الناس ﴿وقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (سورة البقرة، آية: ٨٣)، قال ابن كثير رحمه الله "أي: كلموهم طيباً، ولينوا لهم جانباً"^٢، والمواقف النبوية في التعامل مع الناس انطلاقاً من القلوب أكثر من أن تحصر في بحث، حيث كان عليه الصلاة والسلام مثلاً في السماحة والبشاشة والعطاء التي بها ملك القلوب، ولا أدل على ذلك من تعامله مع المشركين يوم فتح مكة، وعطاءه لهم في غزوة حنين حتى قال قائلهم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، كل ذلك تأليفاً للقلوب، ومعرفة منه صلى الله عليه وسلم وهو الذي رباه ربه، أن الدخول إلى القلب والتودد إليه بما يجب بداية الهداية، وبوابة قبول الحق، ولذلك جعل الله سهماً من الغنائم للمؤلفة قلوبهم، وهذا الاهتمام الشرعي في التعامل مع القلوب واحتوائها، وكيفية التأثير فيها؛ لأنها مكان العقل، لا يكون إلا من معرفة ربانية بهذا الإنسان وبهذه المضغة المسيطرة على مشاعره وأفكاره وأحكامه.

والتربية الإسلامية حين تهتم بالعقل، فإنها تفتح له المجال في الآفاق وفي الأنفس وفي الأمم وفي كل ما خلق الله لينظر نظرة تفكر وتعقل، ونظرة بناء واستخلاف، ونظرة محاسبة وجزاء، مع ما وهبه الله من أدوات التعلم التي يدفع بها الجهل عن نفسه ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة النحل، آية: ٧٨)، فهذه الأدوات إذا بُنيت على وحي الله سمعت وأبصرت وعقلت، وإذا بُنيت على الأهواء والأوهام والتنبؤات ضلت وانحرفت، ﴿فَمَنْ أَتَّبَعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (سورة طه، آية: ١٢٣)، أي من سار على منهج الله ووحيه لا يضل عقله ولا تشقى نفسه، ولذلك "حين انفصل العقل عن الوحي ضل العقل _في مرحلة ما_ على الاستبصار وضرب الحصا وقراءة حركات النجوم كمنهاج للمعرفة، فتحكم السحرة والعرافون في حضارات ودول كما حدث في الحضارة الفرعونية والحضارة البابلية، وفي مرحلة ما لجأ العقل إلى الاستبصار بقوى وأرواح غيبية موهومة، وفي مرحلة ثانية اقتصر العقل الإنساني على الجدل الذي لا تؤيده مشاهدات الحواس في ميادين الآفاق والأنفس فضل وانحرف، وفي مرحلة العصر التكنولوجي

^١ ابن كثير، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦١.

^٢ ابن كثير، المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٤.

طرح العقل المنفصل عن الوحي - وما زال يطرح - تنبؤات وحلولاً لمشكلات العصر تبدو نتائجها الخاطئة وآثارها المدمرة واضحة، الأمر الذي جعل المختصين من العلماء - من أمثال أبراهام ماسلو، ورينه دوبو، وتيودور روزاك - يأخذون على ملحد القرن التاسع والعشرين إيداره الانفعالي عن الأسئلة التي يطرحها الدين؛ لأن القائمين على الدين آنذاك طلوعوا عليه بإجابات لا يستسيغها العقل السليم!!^١.

يقول هربرت سبنسر في بيان قصور العقل وحدوده "وأى غرابة فيما يصادف العقل البشري من إيهام لا يقوى على معرفته؟ إنه أُعد لكي يفهم ظواهر الأشياء ولا يعدوها إلى ما خفي من أстарها، ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن ننكر هذا الشعور الذي تضطرب به نفوسنا، من أن وراء هذا الغشاء حقيقة كامنة حسبَ العقل أن يدرك وجودها، أما إذا همَّ نحوها بالتحليل والتعليل حرّاً صريعاً"^٢، ويقول ألكسيس كاريل "إن العقل وحده لا يستطيع إيجاد العلم، ولكنه عاملٌ لا مفر منه في الابتداء.. والعلم بدوره يقوي العقل.. فقد جلب للإنسانية موقفاً عقلياً جديداً، علاوة على الوصول إلى الحقيقة بواسطة الملاحظة والتجريب والتفكير المنطقي"^٣.

وهكذا تستمر الحيرة والتخبط على كل عقل أغفل علم الشرع، وبنى عقيدته وفلسفته في الحياة على تصورات العقل المجرد، الذي يحكم على المجهول بمعطيات المعلوم، ويتدرج في فهم الحقائق، وتتقلب في أوجهٍ وتنبؤاتٍ وأمزجةٍ مختلفة، وهذا هو مذهب العقلانية الحديثة^٤ وهو "مذهب فلسفي

^١ الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٣٣٩.

^٢ سعود بن سعد العتيبي: ضوابط استعمال المصطلحات العقديّة والفكرية عند أهل السنة والجماعة، ١٤٣٠هـ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، ص ٣٣٣، نقلاً عن: عدنان زرزور، مقالة في المعرفة، ص ٨٨.

^٣ ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة: شفيق أسعد فريد، ١٤٢٣هـ، مكتبة المعارف، بيروت، ص ١٣٤.

^٤ المذهب العقلاني يقوم على أن العقل لا الوحي هو المرجع الوحيد في تفسير كل شيء في الوجود، والوصول إلى المعرفة عن طريق الاستدلال العقلي وليس بالتجربة، كما أن العقلانية لا تؤمن بالمعجزات أو خوارق العادات، وتُخضع العقائد الدينية للاختبار بمعيار عقلي، وفي عصر النهضة ونتيجة احتكاك أوروبا بالمسلمين في الحروب الصليبية والاتصال بمراكز الثقافة في الأندلس وصقلية والشمال الأفريقي، أصبح العقل الأوروبي في شوق شديد لاسترداد حريته في التفكير، فعاد ولكنه عاد إلى الجاهلية الإغريقية ونفر من الدين الكنسي وسخر العقل للبعد عن الله، وأصبح التفكير الحر معناه الإلحاد، وذلك أن التفكير الديني معناه عندهم الخضوع للقيّد الذي قيدت به الكنيسة العقل وحجرت عليه أن يفكر.

يؤكد أن العقل هو الأساس والوحيد في فهم الحقيقة، أي أن المعرفة الحقيقية هي ما وافقت العقل^١، مغفلةً الشرع وما يطرحه من تصورات وتنبؤات وحقائق علمية موافقة للعقل السليم، والتفكير الصحيح، ولا شك أن الحقيقة المطلقة لا تنطبق إلا على علم الشرع الذي هو وحي ربي، أما ما عدا ذلك من حقائق علمية وعقلية فإنها ربما تكون في يوم من الأيام خرافةً عفى عليها الزمن، يقول كاريل "فالحقيقة المستمدة من العلم تختلف اختلافاً تاماً عن تلك المستمدة من الإيمان، فالأخيرة أكثر عمقاً ولا يمكن التشكيك فيها بالمجادلات"^٢.

وموقف العقلانية الحديثة كما يصفه العقل "وتحرص المدرسة العقلية على تحكيم العقل وتقديمه على النص الشرعي في الاعتبار والاستدلال والاحتكام إلى العلم الظني، وتحكيم العواطف والأهواء في أصول العقيدة ونصوصها، ومقررات الدين الثابتة، كالحلال القطعي، والحرام القطعي، دون اعتبار للوحي ولا تسليم للنص المعصوم، ولا احترام لما جاء عن الله صريحاً، أو ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحاً. أي أن الاتجاهات العقلانية على العموم تعتبر دلالة الاستنتاج والحكم العقلي والرأي البشري مقدمة على دلالة النص، الذي هو وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا هو الأصل في كتاباتهم وبحوثهم وهو الأساس والقاعدة عندهم"^٣.

يقول عبد المتعال الصعيدي في كتابه (حرية الفكر في الإسلام) عن كيفية تعامل العقل مع النقل "لا شك أن إخضاع دليل النقل لدليل العقل، فيه من الحرية العلمية كل ما تتسعه هذه الكلمة من معنى، ومما يعطي العلماء سلطة واسعة أمام الجامدين من رجال الدين فلا يكون لأولئك الجامدين سلطان عليهم أصلاً، ولا يكون لهم أن يسلكوا سبيل التعسف معهم، إنما هو قرع الدليل بالدليل، وما أضعف دليل الجمود أمام دليل التجديد. ويرى "أنه لا بد أن يكون العقل سلطان على النقل، حتى يهيئه للحكم الذي يسعد الناس"^٤.

ويتضح أن العقلانية أو المذهب العقلي مذهب فكري فلسفي يقوم على العقل فقط ويُنكر الوحي الإلهي أو التجربة البشرية، وينكر المعجزات وخوارق العادات، ويُخضع العقائد الدينية للعقل، وهنا تكمن علله مناوئاً ليس فقط للفكر الإسلامي، بل لكل دين سماوي. انظر: المانع: القيم بين الإسلام والغرب، ص ٢٤٤-٢٤٥، نقلاً عن الموسوعة المسيرة للأديان والمذاهب المعاصرة، ١٤٠٩هـ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، مطبعة سفير الرياض، ج ٢، ص ٨٠٦-٨٠٧.

^١ العمر، لغة التبريين، باب العين، ص ٢١٢.

^٢ ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، ص ١٣٤.

^٣ ناصر عبد الكريم العقل: الاتجاهات العقلانية الحديثة، ١٤٢٢هـ، دار الفضيلة، الرياض، ص ٣٦١.

^٤ نقلاً عن العقل، المرجع السابق، ص ٣٦١-٣٦٢.

ولا شك أن من كان حاله مع العقل بهذه الطريقة فإنه كحال ومصير الوليد بن المغيرة حينما أعمل قدراته العقلية بالتفكير المضاد للشرع والحق والمنطق، فكانت نتيجته ومصيره كما قال تعالى ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصَلِّيهِ سَقَرَ﴾ (سورة المدثر، الآيات: ١٨-٢٦).

وفي خضم هذه الرؤية المشوشة، والعلاقة المتناقضة بين العقل والنقل كانت "العقول المؤيدة بالتوفيق ترى أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الموافق للعقل والحكمة، والعقول المضروبة بالخذلان ترى المعارضة بين العقل والنقل وبين الحكمة والشرع"^١، يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله "أما العلوم الدينية فهي المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفهم معانيهما بعد السماع، وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الأدوية والأمراض، فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب، وإن كان محتاجاً إليها، كما أن العقل غير كاف في استدامة صحة أسباب البدن، بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء، إذ مجرد العقل لا يهتدي إليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل، فلا غنى بالعقل عن السماع، ولا غنى بالسماع عن العقل، فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين، فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة، وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها، كما يستضر المريض بالغذاء، وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن، هو ظنٌ صادرٌ عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض، فيعجز عن الجمع بينهما، فيظن أنه تناقضٌ في الدين، فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين؛ وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقضاً في الدين وهيئات، وإنما مثاله مثال الأعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني الدار، فقال لهم ما بال هذه الأواني تُركت على الطريق لم لا تُرد إلى مواضعها، فقالوا له

^١ ابن القيم، الفوائد، ص ١٣٦.

تلك الأواني في مواضعها، وإنما أنت لست تهتدي للطريق لعماك، فالعجب منك أنك لا تُحيل عثرتك على عماك، وإنما تُحيلها على تقصير غيرك، فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية^١. وما أصدق قول المتنبي:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً*** وآفته من الفهم السقيم^٢

ثانياً: الأحاديث المتضمنة لتصحيح التصورات العقلية من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا تُؤْفَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^٣، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، عَصَمَ مِنِّي مَالُهُ وَنَفْسُهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ» فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهِ. فَقَالَ عُمَرُ فَوَ اللَّهُ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.

في هذا الحديث نجد استعمال العقل المبني على الكتاب والسنة واضحاً في فعل أمير المؤمنين أبو بكر رضي الله عنه حين استند إلى القياس، والقياس^٤ عملٌ وتقديرٌ عقلي، يُصدر الحكم على المجهول، من

^١ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٦-١٧.

^٢ أحمد بن الحسين المتنبي: ديوان المتنبي، ط ٢٠٠٠، ١٤١٩ هـ، دار صادر، بيروت، ص ٢٣٢.

^٣ سيأتي بيان المراد بقول النبي صلى الله عليه وسلم «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، بذكر أقوال أهل العلم في ذلك، في الفصل الرابع، المبحث الثاني، مطلب (تحقيق مبدأ حفظ الأمن المادي)، وذلك في بيان مفهوم الجهاد في التربية الإسلامية.

^٤ يعد القياس المصدر الرابع من مصادر التشريع الإسلامي، وهو في اللغة: التقدير، "فاس الشيء بغيره، أو على غيره فانقاس: قدره على مثاله". الرازي، مختار الصحاح، باب القاف، ص ٢٧٠. وعند أهل الكلام والمنطق: "قول مؤلف من قضايا إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر، كقولنا: العالم متغير، وكل متغير حادث، فإنه قول مركب من قضيتين إذا سلمتا لزم عنهما لذاتهما: العالم حادث". الجرجاني، التعريفات، باب القاف، ص ٢٣٢. وعند الأصوليين: "رد فرع إلى أصل بعلة جامعة بينهما". القاضي أبو يعلى الحنبلي: العدة في أصول الفقه، ت: أحمد المبارك، ١٤٠٠ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ١٧٤. وعرفه الخلاف فقال: "هو إلحاق واقعة لا نص على حكمها، بواقعة ورد نص بحكمها، في الحكم الذي ورد به النص؛ لتساوي الواقعتين في علة هذا الحكم". عبد

معطيات معلومة وهي الاشتراك في العلة والسبب، أو الدلالة لحكم المعلوم، يقول ابن القيم بعد أن بيّن الأقيسة الواردة في كتاب الله " وكلها أقيسة عقلية ينه بها عباده على أن حكم الشيء حكم مثله... وقد اشتمل القرآن على بضعة وأربعين مثلاً تتضمن تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم"، والقياس يُستعمل عند عدم وجود النص من الكتاب والسنة أو الإجماع، قال ابن حجر "وقد علم الجميع بأن النصوص لم تحط بجميع الحوادث، فعرفنا أن الله قد أبان حكمها بغير طريق النص وهو القياس، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (سورة النساء، آية: ٨٣)، لأن الاستنباط هو الاستخراج وهو بالقياس؛ لأن النص ظاهر، ثم ذكر في الرد على منكري القياس وألزمهم التناقض، لأن من أصلهم إذا لم يوجد النص الرجوع إلى الإجماع. قال فيلزمهم أن يأتوا بالإجماع على ترك القول بالقياس ولا سبيل لهم إلى ذلك، فوضح أن القياس إنما ينكر إذا استعمل مع وجود النص أو الإجماع لا عند فقد النص والإجماع. وباللّٰه التوفيق"^٢.

وأبو بكر رضي الله عنه بنى حكم قتال المرتدين لتركهم الزكاة، إلحاقاً بحكم قتال من ترك الصلاة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد

الوهاب خلاف: علم أصول الفقه، ط ٤، ١٤٠١هـ، دار القلم، الكويت، ص ٥٢. "والقياس يحتل المرتبة الرابعة في التشريع الإسلامي فهو يأتي بعد: القرآن، السنة، الإجماع. غير أن له أهميه في الفقه الإسلامي تميزه عن بقية الأدلة الثلاثة، وذلك للأمور التالية:

١. القياس له علاقة متينة بالقران والسنة والإجماع وذلك لاشتمال هذه الأدلة الإجمالية الثلاثة على نصوص فيها علل شرعية، تحتاج للقياس من أجل استنباط أحكام شرعية، وبدون القياس لا يمكن استنباط هذه الأحكام.

٢. أن وقائع الحياة تتجدد وتتنوع، والمسلم مطلوب أن يسير أعماله وفق أحكام الشرع، فلا بد للوقائع الجديدة من أحكام شرعية تبين موقف المسلم من هذه الوقائع ولا يكون ذلك إلا بالقياس.

٣. أن القياس قد زود وأثرى الفقه بأحكام شرعية عملية كثيرة منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى يومنا هذا. أحمد آل عليان: تاريخ التشريع الإسلامي، ١٤٢٢هـ، دار اشبيلية، الرياض، ص ١٤٧-١٤٩.

^١ محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، ط ٢، ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ١٠١.

^٢ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٧٠، أورد ابن حجر كلامه نقلاً عن ابن بطال في رده على ابن الطيب رحمة الله على الجميع.

كفر»^١، قال ابن حجر معلقاً على رواية ابن عمر^٢ "و لم يستدل أبو بكر في قتال مانعي الزكاة بالقياس فقط، بل أخذه أيضاً من قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه إلا بحق الإسلام، قال أبو بكر: والزكاة حق الإسلام"^٣، وفعل أمير المؤمنين أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتاله المرتدين يُظهر كيف بنى تصورهِ العقلي على أساسٍ شرعي، وكيف صحّح تصورات الصحابة المعارضين للقتال ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٢. (٧٣١٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي وَكَدَّتْ غُلَامًا أَسْوَدَ، وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ». قَالَ نَعَمْ. قَالَ «فَمَا أَلْوَأْنَهَا». قَالَ حُمْرٌ. قَالَ «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقٍ». قَالَ إِنَّ فِيهَا لَوْرُقًا. قَالَ «فَأَنَّى تُرَى ذَلِكَ جَاءَهَا». قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عِرْقٌ نَزَعَهَا. قَالَ «وَلَعَلَّ هَذَا عِرْقٌ نَزَعَهُ». وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُ فِي الْإِنْتِفَاءِ مِنْهُ.

في هذا الحديث يظهر من توجيه النبي صلى الله عليه وسلم الأسئلة للأعرابي ليصحح له الفهم ويصوب له التصور العقلي في قضية ولده، وفيها أن الأعرابي استنكر أن يأتيه ولد أسود غير لونه ولون أمه، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن صحح له ذلك التصور العقلي بعيداً عن الحكم الشرعي في تلك الواقعة وهو نفى الولد وما يتبعه من قذف ولعان، وإنما بضرب المثال والقياس التشبيهي على الجمل الأورق^٤، قال ابن حجر "في الحديث ضرب المثل وتشبيه المجهول بالمعلوم تقريباً لفهم السائل، واستدل به لصحة العمل بالقياس، قال الخطابي هو أصل في قياس الشبه، وقال ابن العربي فيه دليل على صحة القياس والاعتبار بالنظير"^٥، والمراد بنزع العرق في الحديث الرجوع إلى الأصول من الأجداد في لونه وشبهه، قال ابن حجر "المراد بالعرق الأصل من النسب شبهه بعرق الشجرة، ومنه قولهم فلان عريق في الأصالة أي أن أصله متناسب، وكذا معرق في الكرم أو اللؤم،

^١ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان، حديث رقم (١١).

^٢ رواية ابن عمر رض الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أمرت أن أقاتل الناي حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله). أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)، حديث رقم (٢٥).

^٣ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ١٠٣.

^٤ الجمل الأورق "وهو الأسمر، والورقة: السمرة، يُقال: جملٌ أورقٌ وناقَةٌ ورَقَاءٌ". ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، حرف الواو، باب الواو مع الراء، ج ٥، ص ١٧٥.

^٥ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٩، ص ٥٥٤.

وأصل النزاع الجذب، وقد يُطلق على الميل، ومنه ما وقع في قصة عبد الله بن سلام حين سئل عن شبه الولد بأبيه أو بأمه، نزحُ إلى أبيه أو إلى أمه^١، والحديث ظاهر المعنى في بيان تصحيح التصورات العقلية على أساس عقلي محض، وتسلسل منطقي بدهي، ليُصحح ويُقوّم ما اختل من تصورات ذلك الأعرابي.

٣. (٧٣١٥) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: إِنَّ أُمَّي نَذَرْتُ أَنْ تَحُجَّ فَمَاتَتْ قَبْلَ أَنْ تَحُجَّ أَفَأَحُجُّ عَنْهَا، قَالَ «نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمَّكِ ذَيْنِ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ». قَالَتْ نَعَمْ. فَقَالَ «فَاقْضُوا الَّذِي لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ».

في الحديث إجابة النبي صلى الله عليه وسلم للسائلة بالحج عن أمها قياساً بقضاء الدين عنها، وبيان أن الله سبحانه وتعالى أحق بقضاء العبادات من العباد في قضاء الديون، إلحاقاً بالحكم، وتشبيهاً بالحال، وتقريباً للفهم، قال ابن حجر "فيه مشروعية القياس وضرب المثل ليكون أوضح وأوقع في نفس السامع، وأقرب إلى سرعة فهمه، وفيه تشبيه ما اختلف فيه وأشكل بما اتفق عليه... وفيه أن وفاء الدين المالي عن الميت كان معلوماً عندهم مقرراً، ولهذا حسن الإلحاق به"^٢، والمرأة حين سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قضاء الحج عن أمها يظهر منه الاستشكال في تصورهما الشرعي لهذه المسألة، ولكن جواب النبي صلى الله عليه وسلم يبيّن أن الإشكال في التصور العقلي بدليل ضرب المثل بأولوية قضاء الحج الذي هو وفاءً لله على قضاء الدين الذي هو وفاءً لعباد الله، وهذا ظاهرٌ فيه الترتيب المنطقي العقلاني.

ثالثاً: الاستدلالات العقلية في الكتاب والسنة:

الاستدلالات العقلية في الكتاب والسنة التي أمرنا بالاعتصام بهما كثيرة جداً؛ وذلك لأن المخاطبَ بهما أهل العقول، كل ذلك ليتعود العقل المسلم على تفعيل قدراته العقلية على أسس منطقية بعيدة عن الخرافة والأوهام والتخبطات والتخرصات، بل إن العقل في التربية الإسلامية هو أداة فهم وتفعيل نصوص الوحي في الواقع، ولذلك أنتج العقل البشري العلوم التي تستنبط تلك الأحكام المتجددة من خلال علم أصول الفقه العقلي بفروعه وأدواته المتعددة القياس والاجتهاد واستصحاب

^١ ابن حجر، المصدر السابق، ج٩، ص٥٥٤.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج٤، ص٨٠-٨١.

الحال^١ والاستحسان^٢ والاستصلاح أو المصلحة المرسل^٣ وغير ذلك من أدلة الأحكام، ومن تلك الاستدلالات العقلية الواردة في الكتاب والسنة ما يلي:

١. ضرب الأمثال والجمع بين المتفقات والتفريق بين المختلفات:

القرآن الكريم والسنة النبوية فيهما من ضرب الأمثال^٤ ما لا عد له ولا حصر، وذلك للتقريب للأذهان، وتقرير الحجج من المشهود المحسوس على المطلوب الغيبي، يقول البقاعي في قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّمَّا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٤٣)، "تصويراً للمعاني المعقولات بصور المحسوسات، لعلها تقرب من عقولهم فينتفعوا بها، وهكذا حال التشبيهات كلها في طرق للأفهام إلى المعاني المحتجبة في الأستار، تبرزها وتكشف عنها وتصورها"^٥.

^١ استصحاب الحال أو دليل العقل وهو البقاء على حكم الأصل، فهو دليل عند انتفاء الدليل إحالةً بالاستدلال على الغير، وهو على ضربين: استصحاب براءة الذمة حتى يدل دليل شرعي على الوجوب واستصحاب حكم الإجماع. ابن قدامة، روضة الناظر، ص ١٣٧-١٤١.

^٢ الاستحسان له ثلاث معاني: أحدها أن المراد به العدول بحكم المسألة عن نظائرها لدليل خاص من كتاب أو سنة، الثاني أنه ما يستحسنه المجتهد بعقله، الثالث أن المراد به دليل ينقدح في نفس المجتهد لا يقدر على التعبير عنه. ابن قدامة، المرجع السابق، ص ١٤٧-١٤٨.

^٣ الاستصلاح أو المصلحة المرسل هو اتباع المصلحة المرسل، والمصلحة هي جلب المنفعة، أو دفع المضرة، وهي ثلاثة أقسام: الأول شهد الشرع باعتباره، والثاني شهد ببطالانه، والثالث ما لم يشهد له بإبطال ولا اعتبار معين، وهذا على ثلاثة ضروب: أحدها ما يقع في مرتبة الحاجات، والضرب الثاني ما يقع موقع التحسين والتزيين ورعاية حسن المناهج في العبادات والمعاملات، والضرب الثالث ما يقع في رتبة الضروريات وهي ما عرف من الشارع الالتفات إليها وهي خمسة أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسبهم وما لهم. ابن قدامة، المرجع السابق، ص ١٤٨-١٥٠.

^٤ وللوقوف التام على حقيقة الأمثال القرآنية وما تظمنتها من الأقيسة العقلية بقول شيخ الإسلام ابن تيمية "ينبغي أن يُعرف أن مدار ضرب المثل ونصب القياس على العموم والخصوص، والسلب والإيجاب، فإنه ما من خير إلا وهو عام أو خاص، سالب أو موجب، فالمعين خاص محصور، والجزئي أيضاً خاص غير محصور، والمطلق إما عام، وإما في معنى الخاص، فينبغي لمن أراد معرفة هذا الباب أن يعرف صيغ النفي والعموم فإن ذلك يجيء في القرآن على أبلغ نظام". ابن تيمية، الفتاوى، ج ١٤، ص ٤١. وضرب المثل في القرآن الكريم على نوعين: الأمثال المعينة، والأمثال الكلية، ولكل منهما ميزة وخاصية تميزه عن غيره، انظر: سعود بن عبد العزيز العريفي: الأدلة العقلية النقلية على

أصول الاعتقاد، ١٤١٩هـ، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ص ١١٦-١٢٤.

^٥ إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٥، ص ٥٦٢.

و"الأمثال المضروبة في القرآن هي أوسع المجالات التي كان من خلالها عرض الأدلة العقلية النقلية، وذلك أن ضرب المثل هو القياس العقلي بعينه، فإن المثل مأخوذ من المثل، وهو النموذج الذي يقاس عليه، لوجود المماثلة والمشاكلة بينه وبين ما يقاس عليه"^١، ويقول ابن تيمية " والقياس هو ضرب المثل وأصله والله أعلم تقديره، فضرب المثل للشيء تقديره له، كما أن القياس أصله تقدير الشيء بالشيء و منه ضرب الدرهم و هو تقديره..."^٢، ويقول ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٤٣) "فالقياس في ضرب الأمثال من خاصة العقل وقد ركز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما"^٣، يقول ابن تيمية "وقد اتفق العقلاء على أن ضرب المثل مما يعين على معرفة الكليات، وأنه ليس الحال إذا ذكر مع المثل كالحال إذا ذكر مجرداً عنه، ومن تدبر جميع ما يتكلم فيه الناس من الكليات المعلومة بالعقل في الطب والحساب والصناعات والتجارات وغير ذلك وجد الأمر كذلك... ومن أعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف"^٤.

وأقتصر لضرب المثل على ذكر مثالين من القرآن في قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم﴾ (سورة النحل، آية: ٧٥-٧٦)، تضمنت هاتين الآيتين قياسين وتمثيلين لرجلين ثم نفى التسوية بينهما بقوله هل يستوون، وما ذلك إلا لإعمال العقل في ما ورد به النقل من أمثلة محسوسة لتصل به إلى الإيمان الغيبي بالله تعالى وقدرته ووحدانيته، يقول ابن القيم "هذان مثالان متضمنان قياسين من قياس العكس، وهو نفى الحكم لنفي علته وموجبه، فإن القياس نوعان: قياس طرد يقتضي إثبات الحكم في الفرع لثبوت علة الأصل فيه، وقياس عكس يقتضي نفى الحكم عن الفرع لنفي علة الحكم فيه.

فالمثل الأول ما ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء ينفق كيف يشاء على عبده سراً وجهراً ليلاً ونهاراً يمينه مالأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء فكيف تجعلونها شركاء لي وتعبدها من دوني مع هذا التفاوت

^١ العريفي، الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، ص ١١٦.

^٢ ابن تيمية، الفتاوى، ج ١٤، ص ٣٧.

^٣ ابن القيم، أعلام الموقعين، ج ١، ص ١٠١.

^٤ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٩، ص ١٢٨.

العظيم والفرق المبين... وأما المثل الثاني فهو مثل ضربه الله سبحانه لنفسه ولما يعبدون من دونه أيضاً، فالصنم الذي يعبدون من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق بل هو أبكم القلب واللسان قد عدم النطق القلبي واللساني ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ولا يقضي لك حاجة والله سبحانه حي قادر متكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد^١.

٢. قياس الأولى:

جاءت الشريعة الإسلامية بما يوافق العقل السليم الصحيح، فكل أوامر الشرع ونواهيها توافق المنطق السليم، وجعل الإسلام القياس مصدر من مصادر التشريع وهو في الحقيقة عمل عقلي منطقي، إلا أن استخدام العقل في أوامر الشرع يحتاج إلى فهم وفقه وإعمال لأدوات العلم الصحيح كأصول الفقه واللغة العربية ومعرفة الناسخ والمنسوخ ونحو ذلك، ومن أنواع القياس ما يُعرف بقياس الأولى، فكثيراً ما نجد في نصوص الشريعة أن الله تعالى أو نبيه صلى الله عليه وسلم يشير إلى حكم، فيُفهم منه أن ما فوِّقه يشاركه في الحكم، ومن هذا الباب قول الله تعالى في حق الوالدين ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ (سورة الإسراء، آية: ٢٣)، فإذا كان النهي عن قول كلمة أف غير المسموعة أو عن النهي وهو رفع الصوت فما فوِّقه من قول أو فعل مشارك له في النهي والحرمة من باب أولى، ومنه أيضاً قول النبي صلى الله عليه وسلم «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه»^٢، فإن كان هذا اللعن لمن أشار إلى شقيقه بحديدة وهو مازح، فكيف بمن يشير بسكينة أو مسدس؟ وكيف إن كان جاداً مهدداً لا مازحاً؟ بل كيف بمن أصاب بسلاحه أخاه المسلم؟ لا شك أن له النصيب الأكبر من لعنة الملائكة من باب أولى، وقياس الأولى غالباً ما يُستخدم في القرآن لإثبات مسائل الاعتقاد والعلم بالله تعالى وصفاته، وإمكان المعاد وغيرها، يقول ابن تيمية "العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولي تستوي أفراده فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثل شيء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها، ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى يقين بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب

^١ محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: الأمثال في القرآن الكريم، ت: إبراهيم محمد، ١٤٠٦ هـ، مكتبة الصحابة، طنطا، ص ٢١.

^٢ أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم، حديث رقم (٢٦١٦).

لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها، ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلاً أو شمولاً كما قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (سورة النحل، آية: ٦٠)^١.

٣. السبر والتقسيم:

من الأدلة العقلية النقلية طريقة السبر والتقسيم، وهما متغايران متلازمان في الدلالة في العقليات، فالسبر في العقليات اختبار الأوصاف، لإبطال الباطل منها وإبقاء الصحيح، والتقسيم حصر أوصاف المحل وتقسيم الصحة والبطلان بينهما فيعتبر ما هو العلة، ويُلغى ما ليس بعلة^٢، وتعرّف أوضح "حصر الأوصاف التي تحتمل أن يُعلّل بها حكم الأصل في عدد معين، ثم إبطال ما لا يصلح بدليل، فيتعين أن يكون الباقي علة"^٣، وقد ذكر ابن قدامة أن البرهان خمسة أضرب، وذكر منها السبر والتقسيم وقال "في الجملة كل نقيضين ينتج إثبات أحدهما نفي الآخر ونفيه إثبات الآخر، ولا يشترط إحصار القضية في قسمين، لكن من شرطه إستيفاء أقسامه، أما إذا لم يحصر إحتمل أن الحق في قسم آخر، فإن كانت ثلاثة كقولنا العدد مساوٍ أو أقل أو أكثر فإثبات واحد ينتج نفي الآخرين، ونفي الآخرين ينتج إثبات الثالث، وإبطال واحد ينتج إحصار الحق في الآخرين"^٤، ومن أمثلة مسلك السبر والتقسيم العقلي عند الفقهاء "أن تحريم الربا في البر ثبت لعلة، وهذه العلة يحتمل أن تكون: كونه مكيفاً، أو كونه موزوناً، أو كونه مطعوماً، أو كونه مقتاتاً، أو كونه مدخراً، أو كونه مالاً، وعجز عن استنباط علة أخرى فوق هذه العلة الست، فهذا يُسمى بالتقسيم، ثم يبدأ بسبر واختبار تلك الأوصاف، وينظر فيها ويسقط ما لم يجده مناسباً، وما لا يصلح لتعليل الحكم به، فإذا أبطلها كلها إلا واحدة كانت هي العلة، فيقول: إن علة تحريم الربا في البر هي: الاقتيات، فيقيس كل شيء مقتات عليه كالأرز، والذرة، فيحرم الربا فيهما؛ قياساً على البر"^٥، والأمثلة على استعمال العقل وهو

^١ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٣، ص ١٨٥.

^٢ انظر: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي: البحر المحيط في أصول الفقه، ت: عبد الستار أبو غدة، ج ٥، ص ٢٢٢، وأحمد بن عبد اللطيف العبد اللطيف: منهج إمام الحرمين في دراسة العقيدة، ١٤١٣هـ، مؤسسة الملك فيصل الخيرية، الرياض، ص ١٧٣.

^٣ عبد الكريم بن علي النملة: الجامع لمسائل أصول الفقه، ط ٤، ١٤٢٣هـ، مكتبة الرشد، الرياض، ص ٣٥٧-٣٥٨.

^٤ عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي: روضة الناظر وجنة المناظر، ط ٤، ١٤١٤هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ٢٥.

^٥ النملة، الجامع لمسائل أصول الفقه، ص ٣٥٨.

(مسلك السير والتقسيم) في القرآن والسنة كثيرة، ومنها في إثبات العقائد قوله تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (سورة الطور، آية: ٣٥)، ذكر الله تعالى في هذه الآية الدليل بصيغة الاستفهام، وفيه تقسيم حاصر، مع اختبار عقلي بدهي له لا يمكن إنكاره، وهو خلقهم من غير خالق وهذا ممتنع، أو خلقهم لأنفسهم وهذا أشد امتناعاً، فيعلم أن لهم خالقاً خلقهم وهو الله سبحانه وتعالى.

٤. الافتقار إلى الدليل نفيًا وإثباتًا:

من الاستدلالات العقلية النقلية في أدلة الوحي إثبات العلم بالدليل إما نفيًا، أو إثباتًا، والقاعدة تقول "عدم العلم بثبوت الشيء، لا يعني العلم بعدم ثبوته، كما أن عدم الوجود لا يعني عدم الوجود. وقد استخدم القرآن العظيم هذه القاعدة في مجادلة المشركين ومنكري النبوات، حيث إن غاية ما يستندون إليه في تكذيبهم وعنادهم: أنهم لا علم لهم بما جاءهم به الرسل، وهذا في حد ذاته لا يصلح أن يكون مسوغاً للتكذيب، فضلاً عن أن يكون حجة لهم على شركهم وتكذيبهم، بل غاية ما يسعهم إذ لم يعلموا صدق الرسل أن يتوقفوا في شأنهم حتى ينظروا فيما أيدهم الله به من الآيات الدالة على صدقهم، أما أن يبادروا بالتكذيب لمجرد أنهم علموا ما لم يعلموا، فهذا مخالف لصريح العقل. كما أنهم لم يأتوا ببرهان على صحة شركهم أصلاً"^١، والقرآن الكريم والسنة النبوية فيهما ما يدل على هذه القاعدة العقلية الصحيحة، وخاصة في الأمور الغيبية، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على الفلاسفة وطريقتهم في نفي الغيبات بطريقة العقل المحض "وأما الغيب الذي تخبر به الأنبياء والكليات العقلية التي تعم الموجودات كلها، و تقسيم الموجودات كلها قسمة صحيحة فلا يعرفونها البتة، فإن هذا لا يكون إلا ممن أحاط بأنواع الموجودات، وهم لا يعرفون إلا الحسيات، و بعض لوازمها وهذه معرفة بقليل من الموجودات جداً فإن ما لا يشهده الآدميون من الموجودات أعظم قدراً و صفة مما يشهدونه بكثير، ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة إذا سمعوا أخبار الأنبياء بالملائكة والعرش والكرسي والجنة والنار وهم يظنون أن لا موجود إلا ما علموه هم، والفلاسفة يصيرون حائرين متأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه، وإن كان هذا لا دليل عليه وليس لهم بهذا النفي علم، فإن عدم العلم ليس علماً بالعدم، لكن نفيهم هذا كنفى الطبيب للجن لأنه ليس في صناعة الطب ما يدل على ثبوت الجن، وإلا فليس في علم الطب ما ينفي وجود الجن، وهكذا تجرد من عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه، فيبقى بجهله نافياً لما لم يعلمه، وبنو آدم ضالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضالهم فيما أثبتوه وصدقوا به، قال تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ (سورة يونس، آية: ٣٩)، وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة

^١ العريفي، الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، ص ١٣٢.

الحس والعقل فإذا أثبتوا شيئاً وصدقوا به كان حقاً^١، ومن الأمثلة على هذا المسلك العقلي النقلي قوله تعالى ﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة يونس، آية: ٦٨)، ففي هذه الآية يرد الله باستنكار دعوى من ادعى لله الولد بغير دليل، والقول عليه بغير علم، وأن ذلك مخالف لمنطق العقول الصحيحة، والفطر السليمة، إذ كيف يكون له ولد مما خلق، وكل شيء مملوك له، عبد له سبحانه وتعالى، وكيف تصلح الدعوى أن تكون دليلاً بغير حجة أو برهان، فعدم إيمان المشركين بوحداية الله تعالى لا يعني عدم وحدانيته سبحانه وتعالى، وهذا استدلال عقلي تزخر به أدلة الكتاب والسنة.

٥. دلالة الأثر على المؤثر:

لا يشك عاقل أن الألفاظ تدل على معانيها، والدليل يدل على مدلوله، وتلك عملية عقلية بحته إذ ما من أثر إلا بمؤثر، وفي القرآن والسنة أدلة كثيرة تسلك هذا المسلك العقلي، وخاصة في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى، مع أن معرفة الله ووجوده فطرة فطر الله كل إنسان عليها، ولا يشك في ذلك إلا من فسدت فطرته، وانطفأ نور عقله، كما قال الله تعالى حاكياً عن فرعون وإنكاره لوجود الله مع علمه بالحق ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة الإسراء، آية: ١٠٢)، وقوله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (سورة النمل، آية: ١٤)، يقول ابن تيمية في سياق كلامه عن الأدلة العقلية في الكتاب والسنة "فعلّم أن في فطرة الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة النافع، وحينئذ بالإقرار بوجود الصانع ومعرفته والإيمان به هو الحق أو نقضيه؟ والثاني معلوم الفساد قطعاً فتعين الأول وحينئذ فيجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان به"^٢، والفطرة السليمة تعرف ربها قطعاً بدون دليل، فكل شيء يدل على وجود الخالق سبحانه وتعالى، كما جاء عن الأعرابي الذي سُئل: كيف عرفت ربك؟ فقال - بفطرته السليمة -: "البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وجبال وبحار وأنهار، أفلا تدل على السميع البصير؟"^٣، وهذا المسلك العقلي في إثبات وجود الله واستحقاقه للعبادة دون غيره نبه الله به المشركين المنكرين من خلال الأمر بقوله ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ

^١ ابن تيمية، الفتاوى، ج ١٧، ص ١٨٣.

^٢ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، ت: محمد رشاد سالم، ١٣٩١م، دار الكنوز الأدبية، الرياض، ج ٤، ص ٣٢٥.

^٣ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن الوزير: ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، ١٤٠٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٨٣.

وَالْأَرْضِ ﴿سورة يونس، آية: ١٠١﴾، أي من الآيات والدلائل والعيبر، ففي السموات الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وفي الأرض الجبال والبحار والأنهار والأشجار وغيرها، كلها تدل عقلياً على وجود رب خالق وقدير ﴿أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَثَلَّةً مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة النمل، آية: ٦١)، وفي استشارة العقل للتفكير المنطقي ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٦١)، كل ذلك يدل على استخدام الوحي للأدلة العقلية وتفعيلها في أهم قضايا الدين، وجعلها السمة البارزة في جميع القضايا والمجالات.

رابعاً: الطرق التربوية لتصحيح التصورات العقلية:

وتعتمد على الخطوات التالية:

١. بناء التفكير على أسس علمية منطقية، وهذا لا يكون إلا بطلب العلم من خلال القراءة الواعية، والاطلاع المتبصر، والملاحظة والنظر، والتجربة والاستنتاج، ولذلك جاء التوجيه الرباني في أول آية نزلت باقراً، التي هي مفتاح العلم، وأساس الفكر، وقاعدة التصحيح، ومنبع الخير والفضل، والتفكير إذا لم يُبنى على أسس علمية صحيحة فإنه يشوه المعلومات، ويدرك الأشياء بطريقة خاطئة، الأمر الذي يترتب عليه تفكير خاطئ وغير منطقي، ويفرز أنواعاً من التفكير الشاذ كما يُعبّر عنه أرون بيك وهي التفكير الثنائي، والتخمين الاعباطي، والإفراط في التعميم، وتعظيم الأمور^١، ولكي يستطيع الشخص التعامل بواقعية مع خبراته، وتغيير أنماط تفكيره وإدراكه للأمور بما يُسمى بعملية التحقق من الواقع، واختبار الفرضيات، والتي تتم على ثلاث مراحل وهي:

^١ التفكير الثنائي: ويشمل التفكير بطريقة مطلقة، مثل الاعتقاد بأن الإنسان الذي يرتكب خطأ واحداً هو إنسان سيء، لا يفعل إلا الأخطاء، ولا يصدر عنه غير ذلك. والتخمين الاعباطي: ويشمل الخروج باستنتاجات اعتماداً على أدلة غير كافية، كأن يغضب الإنسان نتيجة كلمة، أو نظرة غاضبة من شخص آخر، وهذه الكلمة أو النظرة لم تكن أصلاً موجهة نحوه هو شخصياً. والإفراط في التعميم: ويشمل تبني اعتقادات وأفكار عامة بناءً على خبرات محدودة، كأن يعتقد الشخص أنه فاشل في كل شيء إذا فشل مرة واحدة. وتعظيم الأمور: ويشمل المبالغة في معنى أو أهمية الأحداث أو الخبرات، كأن يشعر الشخص أن عدم قدرته على تحقيق ما يصبو إليه كارثة. الخطيب، تعديل السلوك الإنساني، ص ٣٤٧.

- أ- تدريب الشخص على التعرف إلى أنماط التفكير التلقائية، التي تنم عن فهم خاطئ للأمور والواقع.
- ب- تدريب الشخص على التعامل مع تلك الأفكار بموضوعية، إذ يتم مساعدته على إدراك الأمور بطرق أخرى.
- ت- وفي المرحلة الأخيرة، يُشجع الشخص على تصويب الأفكار الخاطئة، وغير التكيفية، والاستنتاجات الاعتباطية، والتعميمات، وتعظيم الأمور¹.
- وهذا كله يعتمد على تدريب العقل على طرق الاستدلال الصحيح، والتعرف على الحقائق، من خلال البحث العلمي المنضبط الذي يعتمد على الثبوت والصحة، والتأمل والدقة، والاستقراء العام، وربط الأسباب بالمسببات، لتكون طريقة عمل العقل وفق تصور علمي صحيح.
٢. تحرير العقل من كل ما يعوق صحة تفكيره، كالإعتماد على الخرافات والأوهام، أو على الطرق غير المنطقية، أو الخوض في علم الغيبيات التي اختص الوحي بها، أو التقليد الأعمى، والتعصب المذموم، وإلا كان ذلك سبباً في هدر طاقته، واختلال تصورات.
٣. تفعيل طاقة العقل في استخلاص حكم التشريع وأسراره، ومقاصده وغاياته، وتفعيلها على الواقع لاستثمار الأرض بمواردها وطاقاتها، والاستفادة من ذلك لإصلاح الدنيا والآخرة.
٤. معرفة حدود وإمكانيات العقل حتى لا يخرج عن حدوده وإمكاناته فيكون سبباً في ضلاله وشقاءه، واختلال تصورات.
٥. تعويد العقل على مهارات التفكير الصحيح كالانفتاح على كل جديد مع التمييز بين النافع والضار، والتقبل لآراء المخالف، والتروّي قبل إصدار الأحكام أو الأفعال، والاستقلال في الفكر بحثاً عن الحقائق بأدلتها.
٦. الاعتماد على الدليل والبرهان في الأخذ بالأحكام أو إصدارها، وتعويد العقل على عدم قبول أي رأي أو فكرة إلا بدليلها الشرعي إن كانت شرعية، أو العقلي إن كانت مادية، وهذا منطبق العقل وفطرته التي فطره الله عليها، وحين تغيب هذه المنهجية أو تتداخل تختل تصورات العقل وتتخبط في دوامة من التناقضات، يقول الحدري "إن لكل معرفة مصدرها الذي تؤخذ منه، فالمعارف الشرعية مصدرها الوحي، والمعارف العقلية مصدرها العقل، والخلط بين الأمرين عند طلب المعلومة يورث الخلل، ويوقع في الخطأ وهو ما تستهجنه

¹ الخطيب، المرجع السابق، ص ٣٤٧-٣٤٨.

المنهجية العلمية الإسلامية^١، ولذلك جاء عن علي رضي الله عنه قوله "لو كان الدين بالرأي لكان مسح باطن الخف أولى من ظاهره"^٢.

خامساً: تصحيح التصورات الشرعية:

التصورات الشرعية هي المبنية على أساس الكتاب والسنة، فإذا بُنيت تلك التصورات على أساس صحيح كان البنيان قوياً وسليماً، وإذا كانت على أساس خاطئ أتى ذلك التصور بالعجائب والغرائب، قال الله تعالى ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة التوبة، آية: ١٠٩)، قال الطبري رحمه الله: "وإنما هذا مثلٌ. يقول تعالى ذكره: أي هذين الفريقين خير؟ وأي هذين البنايين أثبت؟ أمّن ابتداءً أساس بنائه على طاعة الله، وعلم منه بأن بناءه لله طاعة، والله به راضٍ، أم من ابتداءً بنفاق وضلال، وعلى غير بصيرة منه بصواب فعله من خطئه، فهو لا يدري متى يتبين له خطأ فعله وعظيم ذنبه، فيهدمه، كما يأتي البناء على جرف ركيّة لا حابس لماء السيول عنها ولغيره من المياه، ثريّة التراب متناثرة، لا تُلبثه السيول أن تهدمه وتشره؟"^٣.

والتصورات الشرعية توافق العقل وتنيره، وهي بحاجة إليه لتدلّه على الموازنة بين الحقوق والواجبات، وتبصره في الأمور المتشابهة، وتفعله في اختيار الأفضل والأوجب والأصلح، كل ذلك بعمليات عقلية، وتصورات ذهنية صافية نقية، ولذلك كان العقل أداة مهمة في التربية الإسلامية، لها احترامها، ولها الحرية في الاختيار والتصرف في حدود وضوابط ربانية، من تعداها أتعب عقله فيما لا فائدة فيه. وحين تنفصل التصورات الشرعية عن العقل تأتي تلك التصورات بالعجائب المتناقضة، والإزدواجية في الأفكار والأفعال، بل وتجعل كل من فصل بين العقل والشرع يسير إلى طرفي نقيض إما غلو مُفَرِّط، وإما تقصير مُفَرِّط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، فالعقل الصحيح الأداة الضابطة، والمعيار المحكم لأعمال الإنسان، يقول تعالى ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (سورة الإنسان، آية: ٣)، قال الإمام الشوكاني رحمه الله "منافعه ومضاره التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله"^٤، بل إن

^١ الحدري، منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، ص ٥٨٠-٥٨١.

^٢ أبو الحسين محمد بن علي البصري: المعتمد في أصول الفقه، ت: خليل الميس، ١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٢، ص ٢٢١.

^٣ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٦، ص ٤٧٨.

^٤ الشوكاني، فتح القدير، ج ٥، ص ٤٥٨.

الله تعالى في كتابه يُبين أن العقل طريق الهداية كما قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة الزمر، آية: ٩)، ولا نجد في كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم أن أحداً ضلَّ بسبب عقله الصحيح، وإنما بسبب فساد العقل إما بالهوى أو الشهوة أو الكِبَر أو الضلال أو غير ذلك من أمراضه وعلله.

يقول الكيلاني عن أهمية دور العقل الصحيح مع الوحي "وحين انفصل الوحي عن العقل النير، تعرّض للتأويل المنحرف، وتبرير الممارسات الظالمة والمنحرفة، وأصبح أسفاراً معطلة لا يُنتفع بها، ولا تسلم من إساءات القاصرين عقلياً"^١، وهذا القصور يتناول طرفي الانحراف المفرط والمفرط، يقول الدكتور العقل عند ذكر شبهات العقلانيين وكيفية تعاملهم مع الوحي بأنه يتسم "بالجرأة على تأويله (أي القرآن) وتحريف آياته حسب مقتضيات الحياة الجاهلية المعاصرة، والمصالح الشخصية، وحسب الآراء الفردية، والميل إلى التفسيرات التي تحملها معاني الألفاظ، والتي تعطل الآيات من معانيها لتلائم بزعمهم مع النظريات والمدنية والحضارة الغربية الحديثة، مهما تكون ظنية أو باطلة، وتميل كذلك بعض هذه المدارس العقلانية إلى الرّمزية، والمعاني السلبية في تفسير كثير من آيات العقيدة وغيرها"^٢، ويقول في كتاب آخر عن تعامل المغالين غير العقلاني مع نصوص الوحي بأنه يأخذ "بظواهر النصوص دون فقه ولا اعتبار لدلالة المفهوم، ولا قواعد الاستدلال، ولا الجمع بين الأدلة، ولا اعتبار لفهم العلماء، ولا نظر في أعدار الناس"^٣، ولا شك أن استخدام نصوص الشرع بعقلانية مفرطة يجعل منها آراء واجتهادات معرضة للقبول أو الرفض حسب الأهواء والرغبات، ويُزيل قداستها ليلبسها العقل بنقصه وعجزه، وبالمقابل فإن استخدام نصوص الشرع بدون تعقل وفقه وفهم لنصوصها يُثمر الفهم والتصور الخاطيء، والتعصب للرأي أو الاجتهادات الشخصية، والإقصاء، وعدم تقبل رأي الآخر، وأحادية التفكير، وعدم مراعاة الأولويات واعتبار المصالح والمفاسد، وانتشار هوس التبديع والتكفير والتفسيق، وعدم تحمّل التأويل أو الاجتهاد للمخالف، وغير ذلك مما لا حصر له، يقول ابن تيمية في بيان سبب ضلال الخوارج وغيرهم ممن سار على فهمهم في التعامل مع نصوص الشرع بلا عقل ولا فهم، "وكان سبب خروجهم ما فعله أمير المؤمنين عثمان وعلي ومن معهما من الأنواع التي فيها تأويل فلم يَحتملوا ذلك، وجعلوا موارد الاجتهاد، بل الحسنات ذنوباً، وجعلوا الذنوب كفرة، ولهذا لم

^١ الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٣٣٩.

^٢ العقل، الاتجاهات العقلانية الحديثة، ص ١٦٠.

^٣ ناصر عبد الكريم العقل: الأهواء والافتراق والبدع عبر تاريخ الإسلام، ط ٢، ١٤١٧هـ، دار الوطن، الرياض،

يخرجوا في زمن أبي بكر وعمر، لإنتفاء تلك التأويلات وضعفهم... فهؤلاء أصل ضلالهم: إعتقادهم في أئمة الهدى وجماعة المسلمين أنهم خارجون عن العدل، وأهم ضالون... ثم يُعدون ما يرون أنه ظلم عندهم كفرةً، ثم يرتبون على الكفر أحكاماً ابتدعوها.

فهذه ثلاث مقامات للمارقين... في كل مقام تركوا بعض أصول دين الإسلام، حتى مرقوا منه كما مرق السهم من الرمية^١.

وعلاج هذا الانحراف المزدوج لا يكون إلا بالرجوع إلى نصوص الوحي بإيمانٍ يقيني، وعقلٍ راشد، ورأيٍ سديد، ومنهجٍ متوسط ينظر ويتأمل، ويفهم ويطبق بفقهِ واعٍ لدين الله تعالى، لذا امتدح الله تعالى صفوة خلقه بقوله ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (سورة ص، آية: ٤٥)، قال ابن عباس رضي الله عنه "﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ أولي القوة، ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ الفقه في الدين... وقال قتادة والسدي: أعطوا قوةً في العبادة وبصراً في الدين"^٢، وقال ابن كثير "يعني بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة"^٣، ويقول تعالى ذكره في مقام التكريم والامتنان الإلهي لأولي الألباب ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٦٩) وجاء في معاني الحكمة بأنها الفهم والعقل والفقهِ في دين الله تعالى^٤، يقول سيد قطب رحمه الله في معنى إتياء الحكمة بأنه "أوتي القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود، وأوتي إدراك العلل والغايات فلا يضل في تقدير الأمور، وأوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال.. وذلك خيرٌ كثيرٌ متنوع الألوان.. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ فصاحب اللب _ وهو العقل _ هو الذي يتذكر فلا ينسى، ويتنبه فلا يغفل، ويعتبر فلا يلج في الضلال.. وهذه وظيفة العقل.. وظيفته أن يذكر موحيات الهدى ودلائله، وأن ينتفع بها فلا يعيش لاهياً غافلاً. هذه الحكمة يؤتيها الله من يشاء من عباده"^٥، والفقهِ والبصيرة العقلية لا تكون إلا لمن نور الله عقله بنور الوحي والهداية والتصور الصحيح لكل شيء، ويقول صلى الله عليه وسلم في بيان أهمية الوعي العقلي والفقهِ المقاصدي والفهم الرباني لنصوص الكتاب والسنة، وثمره ذلك الفقهِ والفهم على الواقع «نَصَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ يَسْمَعُهَا، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَا

^١ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٢٨، ص ٢٦٧-٢٧١.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٤٤.

^٣ ابن كثير، المرجع السابق، ج ٤، ص ٤٤.

^٤ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣٢٩.

^٥ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٣١٢.

فَقَهْ لَهُ، وَرَبَّ حَامِلٍ فَقَهْ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يَعْلَمُ عَلَيْهِنَّ قَلْبٌ مُؤْمِنٍ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ،
وَالطَّاعَةُ لِذَوِي الْأَمْرِ، وَتُرُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»^١.

يقول الموجان في بيان هذا الفقه بأنه "الذي لا يعتمد على قراءات فجة، ولا على فهم سطحي
لنصوص الشرع، يخطف الآيات والأحاديث خطأً دون تبصُّرٍ وتعمقٍ لأسرارها ومقاصدها، إنما نريده
فقهاً رشيداً متكاملًا يقوم على منهجٍ سديد" ^٢.

ولقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم الناس مع العلم إلى ثلاثة أقسام كما جاء في الحديث «مَثَلُ
مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَفِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ،
فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا
وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ
مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ
هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^٣، فالقسم الأول يأخذ العلم بفقهه وفهم فتظهر آثاره وبركاته على
صاحبه والناس والأمة، كالكلأ والعشب، والقسم الثاني يأخذ من العلم الحفظ بدون فقه أو فهم، فهو
ناقلٌ وحاملٌ له إلى غيره، فنفعه للناس والأمة، كنفع الأرض للناس بإمسك الماء، والقسم الثالث من
يأخذ العلم ويخطفه خطأً فلا ينتفع به في نفسه لعدم فقهه وفهمه، ولا ينتفع به غيره لعدم حفظه
وإتقانه، إنما حاله حركات جوفاء ومظاهر كاذبة كالأرض القيعان الجدباء التي لا تمسك ماءً ولا تنبت
كلأً، يقول النووي معلقاً على الحديث "ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع وكذلك الناس... فالنوع
الأول من الناس يبلغه الهدى والعلم فيحفظه فيحيا قلبه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع وينفع، والنوع
الثاني من الناس لهم قلوبٌ حافظةٌ لكن ليست لهم أفهامٌ ثاقبةٌ ولا رسوخٌ لهم في العقل يستنبطون به
المعاني والأحكام وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به فهم يحفظونه حتى يأتي طالبٌ محتاج
متعطشٌ لما عندهم من العلم أهل للنفع والانتفاع فيأخذونه منهم فينتفع به فهؤلاء نفعوا بما بلغهم،

^١ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب العلم، حديث رقم (٢٩٤). قال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

^٢ أحمد حسين الموجان: الإرهاب روافده... وأسبابه الفكرية... علاجه أقوال العلماء فيه، ١٤٢٥هـ، سنا
الفاروق، جدة، ص ١٤٧.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، حديث رقم (٧٩). ومسلم، كتاب الفضائل، باب
بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم، حديث رقم (٢٢٨٢).

والنوع الثالث من الناس ليست لهم قلوبٌ حافظةٌ ولا أفهامٌ واعيةٌ فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه لنفع غيرهم والله أعلم^١.

وأخذ العلم وتطبيقه بفهم وفقه هو المنهج الذي أرسل به النبي صلى الله عليه وسلم، ففي قصة أولئك الذين اجتهدوا في تطبيق مفهوم العبادة، حينما قال أحدهم أنا أصلي ولا أنام، وقال الآخر وأنا أصوم ولا أفطر، وقال الثالث أنا أعتزل النساء، فكان الجواب النبوي القائم على المنهج التربوي الأصيل المتكامل، والنظرة الشاملة للإنسان، «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذًا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَعِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^٢.

وفي قصة ذي الخويصرة التميمي الذي اختلَّ تصوره في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبنى تصوره الشرعي بدون عقل أو فهم أو فقه حينما قال والنبي صلى الله عليه وسلم يقسم الغنائم بعد حنين (اعدل يا محمد)، فقال الرحيم صلى الله عليه وسلم «وَيْلَكَ مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ»، وفي رواية (اتق الله يا محمد)، فقال صلى الله عليه وسلم «فَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ إِنْ عَصَيْتُهُ أَيُّمْنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمُنُونِي»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعني أضرب عنقه يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم «دَعَهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْفَرُ أَحْدَكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ فِي قُدْزِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، يُنْظَرُ فِي نَصَلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي رِصَافِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَضِيْبِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالِدَّمَ، آيْتُهُمْ رَجُلٌ إِحْدَى يَدَيْهِ - أَوْ قَالَ تَدْيِيهِ - مِثْلُ تَدْيِ الْمَرْأَةِ - أَوْ قَالَ مِثْلُ الْبُضْعَةِ - تَدْرُدُرُ، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ». قال أبو سعيد أشهد أني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وأشهد أن علياً قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي صلى الله عليه وسلم. قال فنزلت فيه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ (سورة التوبة، آية: ٥٨)^٣، قال ابن حجر في الحديث "الرجح عن الأخذ بظواهر جميع الآيات القابلة للتأويل التي يفضي القول بظواهرها إلى مخالفة إجماع السلف، وفيه التحذير من الغلو في الديانة، والتنطع في العبادة بالحمل على النفس فيما لم يأذن فيه الشرع، وقد وصف الشارع الشريعة بأنها سهلة سمحة"^٤، فهذه حال كل من أخذ بظواهر

^١ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٥، ص ٦٩.

^٢ سبق تخريجه، ص ٨٦.

^٣ أخرجه البخاري، كتب استنابة المرتدين، باب من ترك قتال الخوارج للتألف، وأن لا ينفر الناس عنه، حديث رقم (٦٩٣٣). ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم (١٠٦٣-١٠٦٤).

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٢، ص ٣٧٢-٣٧٣.

نصوص الكتاب والسنة وانعدم فقهه وفهمه، وغابت عنه مقاصد التشريع، واختلاف الأحوال والظروف، فإنه يأتي بأفعالٍ شائنةٍ شنيعةٍ كالتكفير والقتل والتفجير والتدمير وغيرها من سلوك الإرهاب المُشَاهَد الذي أخبر عن مظاهره نبينا صلى الله عليه وسلم، وأتى به الخوارج على أتم حال، وفي قصة مناظرة ابن عباس رضي الله عنه لهم في خروجهم على علي رضي الله عنه وقتالهم له، خير دليل على فساد تصوراتهم الشرعية وضعف بناءهم الفكري، ويُظهر حقيقتهم وصف ابن عمر رضي الله عنه لهم بقوله "إنهم شرار خلق الله، انطلقوا إلى آياتٍ نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين"^١، قال ابن حجر "وكان أول كلمة خرجوا بها قولهم (لا حكم إلا الله) وانتزعوها من القرآن وحملوها على غير محلها"^٢، فما كان منهم بعد أن سمعوا الحق بأدلتها الشرعية والعقلية من حبر الأمة وترجمان القرآن إلا أن رجع طائفةٌ كبيرةٌ منهم إلى الحق، وانظر إلى فقه وعلم ابن عباس حينما سأله علي رضي الله عنهما بعد المناظرة عن الخوارج إن كانوا من المنافقين، فقال رضي الله عنه بلسان المصلح، الحريص على الوحدة والجماعة، والتغيير والتصحيح "والله ما سيماهم بسيماء المنافقين، إن بين أعينهم لأثر السجود وهم يتأولون القرآن"^٣، وفي رواية أن علي رضي الله عنه سُئل عن أهل النهروان - وهم الخوارج الذين قاتلهم وقتلهم رضي الله عنه - أمشركون هم؟ فقال رضي الله عنه بلسان المؤمن: من الشرك فرّوا، قيل أمانفون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، فليل فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: قومٌ بغوا علينا، فنصبرنا عليهم^٤.

وفي قصة الخوارج الذين اختلّ تصورهم العقلي في كثيرٍ من القضايا، ومن ذلك تصورهم أن جمال اللباس والهئية منافٍ للدين والورع، يقول ابن عباس رضي الله عنه حين ناظرهم، فخرجت إليهم، ولبست أحسن ما يكون من حُلل اليمن، - قال أبو زميل: كان ابن عباس جميلاً جهيراً -، قال ابن عباس: فأتيتهم وهم مجتمعون في دارهم قائلون، فسلمت عليهم، فقالوا: مرحباً بك يا ابن عباس، فما هذه الحُلّة؟ قال قلت: ما تعيينون عليّ! لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما

^١ أخرجه البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم (٦).

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ٦، ٧٦٨.

^٣ عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني: شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، ١٣٨٧هـ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ج ٢، ص ٣١٠.

^٤ أخرجه البيهقي، السنن الكبرى، كتاب قتال أهل البغي، باب الدليل على أن الفئة الباغية منهما لا تخرج بالبغي عن تسمية الإسلام، حديث رقم (١٦٤٩٩).

يكون من الحُلل ونزلت ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (سورة الأعراف، آية: ٣٢).^١

وفي موقفٍ آخر، يُبيّن كيفية التعامل الصحيح مع نصوص الكتاب والسنة فهماً وفقهاً، وتطبيقاً وسلوكاً، ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما "أن رجلاً أتياه في فتنة ابن الزبير فقالا إن الناس قد ضيّعوا، وأنت ابن عمر وصاحب النبي صلى الله عليه وسلم فما يمنعك أن تخرج؟ فقال بمنعني أن الله حرّم دم أخي، فقالا ألم يقل الله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٩٣)، فقال قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله"^٢، وفي رواية أخرى تُبين كيف صحّح ابن عمر رضي الله عنه فهم ذلك الرجل للآية، وطريقة تنزيلها على الواقع، "قال يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحج وتعتمر عاماً، وترك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وقد علمت ما رغب الله فيه؟ قال يا ابن أخي بُني الإسلام على خمسٍ إيمانٍ بالله ورسوله، والصلاة الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت، قال يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (سورة الحجرات، آية: ٩)، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٩٣)، قال فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يُفتن في دينه إما قتلوه، وإما يعذبوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، قال فما قولك في علي وعثمان؟ قال أما عثمان فكأن الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن تعفوا عنه، وأما علي فابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه، وأشار بيده فقال هذا بيته حيث ترون"^٣.

وأخذ النصوص الشرعية بفهمٍ ووعي يجعل المسلم في تطبيقه لأحكام وتشريعات الدين يأخذ بالأرفق والأيسر، كما قال صلى الله عليه وسلم «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَالرُّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»^٤، فيجب على الفرد أن

^١ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب قتال أهل البغي، حديث رقم (٢٦٥٦). قال الذهبي: صحيح على شرط مسلم.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله...)، حديث رقم (٤٥١٣).

^٣ أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله...)، حديث رقم (٤٥١٤-٤٥١٥).

^٤ أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر...، حديث رقم (٣٩).

يرفق بنفسه عند الأخذ بتعاليم الدين وتطبيقها، لأن من أخذ هذا الدين بعنف وبصورة غير طبيعية كانت نهايته مخزنة مؤلمة وسريعة، وهذا الذي أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه حينما قال حنظلة الأسدي رضي الله عنه _ وكان من كُتَّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم _ لقيني أبا بكر فقال كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت نافق حنظلة قال سبحان الله ما تقول؟ قال قلت نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يُذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً، قال أبو بكر رضي الله عنه فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ذاك؟ قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُوْمُونَ عَلَيَّ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتَكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَيَّ فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةَ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثلاث مرَّاتٍ^١، وهذا الحال وهو التوسط والرفق واليسر في الأخذ بتشريعات رب العالمين القائل سبحانه ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٥٨)، إنما هو حال من أخذ تلك التشريعات والأحكام بفهم وفقه، بخلاف حال الخوارج الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة العبادة والتشديد على النفس وعلى الناس، وما ذاك إلا الخلل في التصور الشرعي لمفهوم العبادة والدين والدنيا، جاء عن عمر بن يحيى قال سمعت أبي يحدث عن أبيه قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ قلنا لا، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعاً، فقال له أبو موسى يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفاً أمراً أنكرته، ولم أرَ والحمد لله إلا خيراً، قال فما هو، فقال إن عشت فستراه، قال رأيت في المسجد قوماً حلقتاً جلوساً ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصاً، فيقول كبروا مائة فيكبرون مائة، فيقول هللوا مائة فيهللون مائة، ويقول سبحوا مائة فيسبحون مائة، قال فماذا قلت لهم؟ قال ما قلت لهم شيئاً انتظار رأيك أو انتظار أمرك، قال أفلا أمرتهم أن يعدُّوا سيئاتهم، وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم، ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلقة، فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا يا أبا عبد الله حصاً نعدُّ به التكبير والتهليل والتسبيح، قال فعُدُّوا سيئاتكم، فأنا ضامنٌ أن لا يضيع من

^١ أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، حديث رقم (٢٧٥٠).

حسانتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون، وهذه ثيابه لم تُبَلِّ، وآنيتيه لم تُكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدي من ملة محمد، أو مفتتحوا باب ضلالة، قالوا والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير، قال وكم من مرید للخير لن يصيبه، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا أن قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وأيم الله ما أدري لعل أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم، فقال عمرو بن سلمة رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج^١.

وكذلك الفقه والفهم في دين الله تجعل المسلم متأنياً في إصدار الأحكام، متحرزاً عن اتمام المقاصد والنيات، كما جاء التوجيه النبوي الواضح الجلي في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه الذي يقول فيه بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في إلى الحُرقة من جهينة، فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناها قال لا إله إلا الله، فكفَّ الأنصاري، فطعنته برمحى حتى قتلتها، فلما قدمنا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال «يَا أُسَامَةُ أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قلت كان مُتَعَوِّدًا. فما زال يكررها حتى تمتيت أي لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم^٢، وهذا يبيِّن أن الشرع قائم على التعقل والتثبت، وأن التسرع في إصدار الأحكام والتكفير أو التفسيق واتهام النوايا والمقاصد إنما هو سلوك من فسدت تصوراتهم الشرعية.

والأمثلة على تصحيح التصورات الشرعية كثيرة جداً في كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم على مستوى الأفكار والمعتقدات، أو التعامل والسلوك مع أهل الكتاب والمشركون والمنافقين والمسلمين، كيف لا وذلك الزمن _ زمن تنزل الوحي _ كان لتصحيح المعتقدات والتصورات حول الآلهة والكون والإنسان وسائر المخلوقات، فكم أثير من الشبهات، وكم اختلت التصورات في الجانبيين الفكري و السلوكي التطبيقي، والوحي يُصحح في كل واقعة، ويوجه عند كل قضية، ويرد عند كل خطأ، وما ذلك إلا لتكون تربية للعالم أجمع على امتداد الزمن.

^١ أخرجه **الدارمي**، المقدمة، باب في كراهية أخذ الرأي، حديث رقم (٢٠٤). قال حسين سليم أسد: إسناده جيد. عبد الله بن الرحمن الدارمي: **السنن**، ت: فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، الأحاديث مذيبة بأحكام حسين سليم أسد عليها.

^٢ أخرجه **البخاري**، كتاب المغازي، باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، حديث رقم (٤٢٦٩). **ومسلم**، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، حديث رقم (٩٦).

سادساً: الأحاديث المتضمنة لتصحيح التصورات الشرعية من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. (٧٢٦٨) عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ لِعُمَرَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ أَنَّ عَلَيْنَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا. فَقَالَ عُمَرُ إِنِّي لِأَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ فِي يَوْمٍ جُمُعَةٍ.

في الآية الكريمة بيان واضح بأن الدين كامل فلم ينقص منه شيئاً، وأنه تام فلا يحتاج إلى زيادة، وأنه سبحانه رضىه لنا فلا يسخطه أبداً، وكان نزول الآية يوم عرفة في يوم الجمعة وهما عيدان للمسلمين اجتمعا في تلك السنة برحمة الله حتى يكونا عيداً لهم إلى قيام الساعة فرحاً وسروراً بإكمال الدين وتمام النعمة وحصول الرضا، وهذه الآية تصحح التصورات الشرعية عند من يظن أن له الأهلية في التعامل مع الشرع بمنطق المصحح والمعدّل والمكمل لأصوله وثوابته إما بعقله، أو ولايته وهواه، وقد بدأ هذا التصور العجيب وهو تحكيم العقل والهوى وتقديمهما على النص الشرعي بعد القرون الثلاثة المفضلة، يقول ابن رجب رحمه الله "ومما أُحْدِثَ في الأمة بعد عصر الصحابة والتابعين الكلام في الحلال والحرام بمجرّد الرأْي، وردُّ كثيرٍ ممَّا وردت به السنّة في ذلك لمخالفته للرأْي والأقيسة العقلية"، وأما اجتهاد الصحابة في المسائل التي لا نص فيها وقياسهم العقلي عليها إنما كان على أصل شرعي يُرجع إليه، ومثاله ما سبق من قتال أبو بكر مانعي الزكاة وتوقف عمر رضي الله عنه والصحابة عن ذلك حتى بيّن لهم أبو بكر رضي الله عنه الأصل الذي يرجع إليه من الشرع فوافقه الصحابة على ذلك.

والعقل تابع للشرع في الفهم والاستنباط والرأْي والاجتهاد، ولا يمكن أن يكون مستقلاً بذاته وإلا شَرَّقَ وغرَّبَ في التيه والضلال، نقل ابن حجر عن أبو المظفر بن السمعاني قوله "إن العقل لا يوجب شيئاً، ولا يُحرّم شيئاً، ولا حظ له في شيءٍ من ذلك، ولو لم يرد الشرع بحكمٍ ما وجب على أحدٍ شيء، لقوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (سورة الإسراء، آية: ١٥)، وقوله ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (سورة النساء، آية: ١٦٥)، وغير ذلك من الآيات. فمن زعم أن دعوة

^١ يقصد الباحث بالولاية، الولاية الشرعية وهي التي اتجهت بعض الفرق والطوائف إلى اعتقادها في أتمتهم ليكونوا طريقاً لهم للوصول إلى الحقائق الشرعية، والأخذ بها على سبيل الوجوب، يقول الجرجاني "الولاية في الشرع: تنفيذ القول على الغير، شاء الغير أو أبي"، ص ٣٢٩، باب الواو.

رسل الله عليهم الصلاة والسلام إنما كانت لبيان الفروع لزمه أن يجعل العقل هو الداعي إلى الله دون الرسول ويلزمه أن وجود الرسول وعدمه بالنسبة إلى الدعاء إلى الله سواء، وكفى بهذا ضلالاً^١.

٢. (٧٢٧٥) عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ قَالَ جَلَسَ إِلَيَّ عُمَرُ فِي مَجْلِسِكَ هَذَا فَقَالَ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدْعَ فِيهَا صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، قُلْتُ مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ، قَالَ لِمَ، قُلْتُ لَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبُكَ، قَالَ هُمَا الْمَرَّانِ يُقْتَدَى بِهِمَا.

هذا الحديث يبين أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد توزيع ما في الكعبة من الأموال، وهي المعبر عنها بصفراء وبيضاء وهي الذهب والفضة قال ابن حجر "قوله فيها أي الكعبة، وقوله صفراء ولا بيضاء أي ذهباً ولا فضة، قال القرطبي غلط من ظن أن المراد بذلك حلية الكعبة، وإنما أراد الكنز الذي بها، وهو ما كان يهدى إليها فيدخر ما يزيد عن الحاجة، وأما الحلبي فمحبسة عليها كالقناديل فلا يجوز صرفها في غيرها، وقال ابن الجوزي كانوا في الجاهلية يهدون إلى الكعبة المال تعظيماً لها فيجتمع فيها"^٢، فكان اجتهاد عمر رضي الله عنه أن يوزع المال في المسلمين ولا يكون حبيساً في الكعبة؛ لأن الحكمة من وجود المال إنفاقه لا كثره، وكان هذا التصور عند أمير المؤمنين رضي الله عنه مبني على أساس شرعي، واجتهاد سائغ، لكنه رجع عنه عندما ذُكر بأن النبي صلى الله عليه وسلم وخليفته أبو بكر لم يفعلوا ذلك، اقتداءً واعتصاماً وتسليماً وطمأنينةً بهدي وحكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقدم ذلك على ما رآه - بإجتهادٍ عقلي - من مصلحةٍ وحكمةٍ شرعيةٍ محققة، قال ابن بطلال "أراد عمر قسمة المال في مصالح المسلمين، فلما ذكره شيبه أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر بعده لم يتعرضا له لم يسعه خلافهما، ورأى أن الاقتداء بهما واجب، قلت وتماهه أن تقرير النبي صلى الله عليه وسلم منزلاً منزلة حكمه باستمرار ما ترك تغييره فيجب الاقتداء به في ذلك لعموم قوله تعالى واتبعوه وأما أبو بكر فدل عدم تعرضه على أنه لم يظهر له من قوله صلى الله عليه وسلم ولا من فعله ما يعارض التقرير المذكور ولو ظهر له لفعله لا سيما مع احتياجه للمال لقلته في مدته فيكون عمر مع وجود كثرة المال في أيامه أولى بعدم التعرض"^٣.

وكان هذا ديدن عمر رضي الله عنه وهو من وافقه الوحي في أكثر من موضع، ومع ذلك كان وقافاً عند حدود الله، أي أنه كان موفقاً في الاجتهاد ولكن إذا خالف اجتهاده الوحي فإنه يرجع إليه بالسمع والطاعة، وفيه قول النبي صلى الله عليه وسلم «لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ، فَإِنْ

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٤٣٧.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٨٢.

^٣ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣١٤.

يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ»^١، "واختلف في تأويله فقيل مُلْهِمُ قاله الأكثر، قالوا المُحَدَّثُ بالفتح هو الرجل الصادق الظن وهو من أُلْقِيَ في رَوْعِهِ شيء من قبل المَلَأِ الأعلى فيكون كالذي حَدَّثَهُ غيره به... وقيل من يجري الصواب على لسانه من غير قصد، وقيل مُكَلِّمُ أي تكلمه الملائكة بغير نبوة"^٢. فإذا كان هذا هدي عمر رضي الله عنه بعقله وتقواه وورعه في التعامل مع نصوص الوحي وتقديمها على العقل والرأي، فكيف بمن جاء بعده بقرون وهم بلا شك دونه في الرأي والتقوى والورع.

٣. (٧٢٨٤) عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالُهُ وَنَفْسُهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ».

في هذا الحديث تقرير قاعدة شرعية وهي أن المسلم معصوم النفس والمال، وكانت هذه القاعدة الحجة في جواب عمر على أبي بكر ومنعه من قتال من قال لا إله إلا الله، وسبقت الإشارة إلى أن أبو بكر قاتلهم لأنهم نقضوا هذه الكلمة بمنعهم الزكاة، والزكاة قرينة الصلاة في أكثر المواضع من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وهي ثالث أركان الإسلام، ووجه الشاهد من الحديث أن عمر رضي الله عنه بين هذه القاعدة في التعامل مع الناس بالظاهر منهم، فمن قال لا إله إلا الله ولم يأتي بناقضٍ صريح، أو فعلٍ مخالفٍ واضحٍ لها فهو مسلم معصوم النفس والمال، ولا يجوز الاعتداء عليه في نفسه أو ماله أو نيته، وإنما يُعامل معاملة المسلمين، له ما لهم من حقوق وواجبات، وعليه ما عليهم من أداءٍ للحقوق والواجبات، قال ابن حجر في قوله صلى الله عليه وسلم (وحسابه على الله) "أي في أمر

^١ أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حديث رقم (٣٦٨٩).

^٢ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٧، ص٦٢.

^٣ جاء في صيغة الحديث "أقاتل" على وزن أفاعل، أي أقاتل من يقاتلني، بخلاف "أقتل" التي تفيد عموم القتل، ولهذا عندما سُئل الكرماني عن حكم قتل تارك الصلاة استدلالاً بهذا الحديث أجاب رحمه الله "بأن حكمهما واحد لا اشتراكهما في الغاية، - قال ابن حجر - وكأنه أراد في المقاتلة، أما في القتل فلا، والفرق أن الممتنع من إيتاء الزكاة يمكن أن تؤخذ منه قهراً بخلاف الصلاة، فإن انتهى إلى نصب القتال ليمنع الزكاة قوتل، وبهذه الصورة قاتل الصديق مانعي الزكاة، ولم ينقل أنه قتل أحداً منهم صبراً، وعلى هذا ففي الاستدلال بهذا الحديث على قتل تارك الصلاة نظر، للفرق بين صيغة أقاتل واقتل والله أعلم. وقد أطنب ابن دقيق العيد في شرح العمدة في الإنكار على من استدل بهذا الحديث على ذلك، وقال لا يلزم من إباحة المقاتلة بإباحة القتل؛ لأن المقاتلة مفاعلة تستلزم وقع القتال من الجانبين، ولا كذلك القتل، وحكى البيهقي عن الشافعي أنه قال ليس القتال من القتل بسبيل، فقد يحل قتال الرجل ولا يحل قتله". ابن حجر، المصدر السابق، ج١، ص١٠٤.

سرايرهم، ولفظة على مشعرة بالإيجاب... أي هو كالواجب على الله في تحقق الوقوع، وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه الظاهر"^١.

ففي هذا الحديث دليل على أن التصور الشرعي الخالي من المنطق العقلي الذي يترجم ما يحمله الشرع من قواعد وأحكام، ومصالح ومفاسد، وعموم وخصوص، وتفريق بين المختلفات، وجمع بين المتشابهات، واستخدام للقياس والأشباه والنظائر، يكون تصوراً خاطئاً، ويثمر نتائج خاطئة، كما سبق الإشارة إلى بعض صورته في تصحيح التصورات الشرعية.

وهذا التصور الشرعي لا بد أن يُصحح عند من يقدم عقله على النص الشرعي في التعامل مع الناس، ويطبق هذه القاعدة بمنطق العقل الخالي من الشرع، وهي عصمة النفس والمال على كل أحد، لأن هذه القاعدة لها ضوابطها وحدودها الشرعية، فمن ارتد عن دين الله بالقول أو الفعل الواضح الصريح المتعمد، وقامت عليه الحجة وبان له الدليل القطعي اليقيني، واستتابه إمام المسلمين ثلاثة أيام، وكان بالغاً عاقلاً مختاراً، وأصرَّ على الكفر وترك الأركان، فإنه يُقتل ولو قال لا إله إلا الله ظاهراً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^٢، إلا أن يقولها إقراراً وعملاً بمقتضاها، فإنه يعصم نفسه وماله، وهكذا في جميع أحكام وشرائع الدين يجب أن تُصحح تصوراته ويُأخذ بكامل ضوابطه وأحكامه ومقاصده الشرعية ولو خالف العقول والآراء، يقول ابن حجر في قتال أبو بكر مانعي الزكاة وتقديمه للوحي على الرأي "وفي القصة دليل على أن السنة قد تخفى على بعض أكابر الصحابة ويطلع عليها آحادهم ولهذا لا يلتفت إلى الآراء ولو قويت مع وجود سنة تخالفها"^٣.

وفي المقابل نجد أن هذا التصور الشرعي لا بد أن يُصحح أيضاً عند من يُقدم هواه على النص الشرعي، إما تأوُّلاً أو جهلاً، فيطبق هذه القاعدة بظواهر نصوص الشرع دون تفعيل لمنطق العقل من فهم صحيح، ومعرفة للضوابط والحدود الشرعية في التعامل مع المسلمين، فيطلق ألفاظ التكفير والتبديع على كل من خالفه الرأي، ويحكم على البواطن والظنيات، ويتهم المقاصد والنيات، ويستحل الأنفس والمحرمات، بغير اعتبار لعموم الأدلة وقطعية دلالتها في تحريم الاعتداء على المسلم في نفسه أو ماله أو عرضه، يقول ابن حجر في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث (وحسابه على الله): "ويؤخذ منه ترك تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد الملتزمين للشرائع، وقبول توبة الكافر من كفره من غير تفصيل

^١ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٤.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب حكم المرتد والمرتدة، حديث رقم (٦٩٢٢).

^٣ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ١٠٣.

بين كفر ظاهر أو باطن"^١، وهذا التصور الشرعي الخالي من العقل والفهم هو في الحقيقة تصور بدائي جاهلي، لا يُفعل القدرات العقلية التي وهبها الله للإنسان، ولا يُعمل الفكر في نصوص الشرع التي جاءت من أجل سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، بل هو تصور يعتمد على الاستعجال والأخذ بالظواهر، وهذه ليست من الصفات التي أمر الله عباده المؤمنين بالعمل بها من الصبر والأناة والحلم والثبوت والورع "ومهما يكن من أمر فإن الأناة في إصدار الحكم والصياغة الدقيقة له أمر في غاية الأهمية؛ وقد لوحظ أن الإنسان البدائي أقل صبراً على البحث والملاحظة، وأكثر مسارعة إلى إصدار الأحكام العامة الكبيرة. أما المتحضر فهو أكثر صبراً على الملاحظة، وأكثر حذراً في الإقدام على أحكام لم تستوف مقدماتها، وما تحتاجه من الملاحظة والتجربة. وليس أعون على ذلك من صياغة الحل في فترات زمنية متعددة؛ أن ذلك سيعني - عند توفر الاهتمام - اشتغال الدماغ بالحل خلال تلك الفترات، وهذا سيؤدي إلى المزيد من النضج والكمال"^٢، وهذا ما تنشده التربية الإسلامية في تربية أتباعها على العقل المتبصر القائم على شرع الله، يقول الدكتور الموجان في دراسته لظاهرة الإرهاب "إن أول ما يجب على شبابنا أن يصنعوه هو تصحيح نظرهم وتقويم أفكارهم؛ حتى يعرفوا دينهم على بصيرة ويفقهوه عن بينة، ونقطة البداية في هذا الفقه المنشود هي سلامة المنهج الذي يجب أن يسلكوه في فهم الإسلام، والتعامل مع أنفسهم ومع الناس والحياة على أساسه"^٣.

٤. (٧٢٩٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا تُوَاصِلُوا»، قَالُوا إِنَّكَ تُوَاصِلُ، قَالَ «إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَبِيْتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي». فَلَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوِصَالِ قَالَ فَوَاصِلَ بِهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَيْنِ أَوْ لَيْلَتَيْنِ، ثُمَّ رَأُوا الْهَيْلَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَوْ تَأَخَّرَ الْهَيْلَالُ لَزِدْتُمْ». كَالْمُنْكَلِ لَهُمْ.
٥. (٧٣٠١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ صَنَّعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئاً تَرَخَّصَ وَتَنَزَّ عَنْهُ قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ ثُمَّ قَالَ «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَنْتَزَهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُهُم بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ حَشِيَّةً».

هذا الحديث الأول دلالة واضحة في تصحيح النبي صلى الله عليه وسلم لتصورات بعض أصحابه الذين أرادوا وصل الصيام اقتداءً به صلى الله عليه وسلم حيث كان يصل صيام اليوم باليومين وأكثر، وهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم التي اختص بها لقوله «إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَبِيْتُ يُطْعِمُنِي

^١ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٤.

^٢ عبد الكريم بكار: فصول في التفكير الموضوعي، ط ٤، ١٤٢٦هـ، دار القلم، دمشق، ص ٤٠.

^٣ الموجان، الإرهاب روافده وأسبابه الفكرية، ص ١٤٧.

رَبِّي وَيَسْتَقِينِي»، فلم ينتهوا فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم ويُصحح تصورهم الخاطيء في متابعتهم له فيما أُختص به من عبادة بمواصلة الصيام حتى يتبين لهم عدم القدرة على ذلك، وأن مواصلته صلى الله عليه وسلم إنما هو عمل خاصٌ به خارج عن العادة البشرية لما له من مكانةٍ عند ربه، يقول ابن حجر "وأما مواصلته بهم بعد نهيهم فلم يكن تقريراً بل تقريراً وتنكيلاً فاحتمل منهم ذلك لأجل مصلحة النهي في تأكيد زجرهم لأنهم إذا باشروه ظهرت لهم حكمة النهي وكان ذلك ادعى إلى قلوبهم لما يترتب عليهم من الملل في العبادة والتقصير فيما هو أهم منه وأرجح من وظائف الصلاة والقراءة وغير ذلك، والجوع الشديد ينافي ذلك، وقد صرح بأن الوصال يختص به لقوله لست في ذلك مثلكم وقوله لست كهيتكم"^١، وهذا التصور مبني على التعمق والتشدد المنهي عنه لذا قال صلى الله عليه وسلم في رواية أخرى «لَوْ مُدَّ بِي الشَّهْرُ لَوَاصَلْتُ وَصَالاً يَدْعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ...»^٢.

وفي الحديث الثاني أيضاً دلالة واضحة في تصحيح النبي صلى الله عليه وسلم لتصورات بعض الصحابة الذين تنزهوا عن ما ترخص فيه؛ وذلك لتصورهم أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما ترخص لأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأهم أحوج إلى زيادة العمل لينالوا المغفرة والأجر، ولكن هذا التصور غير صحيح لأن الأفضل والأكثر أجراً هو إتباع النبي صلى الله عليه وسلم في العزائم والرخص يقول ابن حجر "إن الخير في الإتيان سواء كان ذلك في العزيمة أو الرخصة، وإن استعمال الرخصة بقصد الإتيان في المحل الذي وردت أولى من استعمال العزيمة بل ربما كان استعمال العزيمة حينئذٍ مرجوحاً كما في إتمام الصلاة في السفر، وربما كان مذموماً إذا كان رغبة عن السنة... ونقل ابن التين عن الداودي أن التنزه عما ترخص فيه النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم الذنوب؛ لأنه يرى نفسه اتقى الله من رسوله وهذا الحاد. قلت لا شك في إلحاد من اعتقد ذلك، ولكن الذي اعتل به من أشير إليهم في الحديث أنه غفر له ما تقدم وما تأخر، أي فإذا ترخص في شيء لم يكن مثل غيره ممن لم يغفر له ذلك فيحتاج الذي لم يغفر له إلى الأخذ بالعزيمة والشدة لينجو، فأعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه وإن كان غفر الله له لكنه مع ذلك أخشى الناس لله وأتقاهم، فمهما فعله صلى الله عليه وسلم من عزيمة ورخصة فهو فيه في غاية التقوى والخشية، لم يحمله التفضل بالمغفرة على ترك الجد في العمل قياماً بالشكر ومهما ترخص فيه فإنما هو للإعانة على العزيمة ليعملها بنشاط،

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٤، ص ٢٥٧.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب التمني، باب ما يجوز من اللؤ، وقوله تعالى: (لو أن لي بكم قوة)، حديث رقم (٧٢٤١).

وأشار بقوله (أعلمهم) إلى القوة العلمية، وبقوله (أشدهم له خشية) إلى القوة العملية أي أنا أعلمهم بالفضل وأولاهم بالعمل به^١.

فالتصور الشرعي الصحيح لمفهوم العبادة وتطبيق شرائع الدين هو أن يكون ذلك التصور قائم على الكتاب والسنة، وما عدا ذلك من التصورات المبنية على الأهواء أو العقول الخالية من فقه وفهم الدليل الشرعي، فإنها باطلة وردّ على أصحابها، وهذا منافٍ لمنطق العقل المسلم الذي لا يقبل ولا يعمل أي عبادة لله إلا بدليلها الشرعي، ومنافٍ لسماحة الدين ويسره الذي ينهى عن التنطع والتعمق المذموم الذي يُفضي إلى التنازع والتفرق بين المسلمين، وإلى ذلك أشارت الأحاديث السابقة، يقول ابن حجر "قال ابن بطلان في أحاديث الباب ما ترجم له من كراهية التنطع والتنازع لإشارته إلى ذم من استمر على الوصال بعد النهي... وإشارته صلى الله عليه وسلم إلى ذم من شدد فيما ترخص فيه"^٢.

سابعاً: الضابط في تصحيح التصورات الشرعية:

لا شك أن لكل شريعة أو قانون هدف وغاية، وهدف الشريعة الإسلامية والقانون الإلهي هو تحقيق السعادة الدنيوية والأخروية، بإقامة مصالحهما، والتي يقول عنها الإمام الشاطبي بأنها "تعود إلى إقامة المصالح الأخروية والدنيوية"^٣.

وهذه المصالح يُعبّر عنها في الاصطلاح الشرعي بالمقاصد الشرعية وهي "غاياتها، والحكم والمعاني والمصالح التي شرعت الأحكام من أجلها"^٤، وهذه المقاصد جهديّ عقليّ في نصوص الأحكام والشريعة عامة فهماً ونظراً وتأملاً واستنباطاً، وفي المستجدات والنوازل قياساً وموازنةً وتجريداً.

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٤٦.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣٤٧.

^٣ أبو إسحاق الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، (د.ت)، دار الباز، مكة المكرمة، ج ٤، ص ١٩٥.

^٤ الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية، ط ٢، ٢٠٠١م، الشركة التونسية للتوزيع، ص ٥٠.

والمقاصد تنقسم إلى قسمين عام وخاص باعتبار العموم والخصوص في أحكام التشريع، فالعام ما جاء لتحقيق هدف مصالح الناس في الدنيا والآخرة، ومنها إرسال الرسل وإنزال الشرائع لتحقيق النظام والعدل والخير والسعادة للبشرية جمعاء ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (سورة الحديد، آية: ٢٥)، والخاص ما جاء لتحقيق أهداف الأحكام التفصيلية التي شرعت لكل مجال من مجالات الحياة، وهذه الأهداف والتي يُعبر عنها بالمصطلح الشرعي بالمقاصد منها ما هو ضروري لا تستقيم حياة الناس إلا بها، ومنها ما هو دون ذلك أي تستقيم الحياة ولكن مع وجود المشقة والضيق، ومنها ما هو كمالي وهو ما يتعلق بالزينة ومحاسن العادات، وما يهمننا في موضوع تصحيح التصورات الشرعية في باب المقاصد هو علم الضروريات، وهي حفظ الدين، والنفوس، والعقل، والعرض، والمال، وقد كفلت الشريعة الإسلامية بنصوصها وأحكامها حفظ هذه الضروريات لجميع الناس "من جانب الوجود بأن شرع ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، ومن جانب العدم بإبعاد ما يجلب عليها الاختلال الواقع أو المتوقع منها"^١، ومن ذلك:

١. حفظ الدين: وذلك بالإهتمام بتصحيح التصورات الشرعية فكراً واعتقاداً، وتطبيقاً وسلوكاً، فجعل الإسلام باب الحرية مفتوحاً للناس في اختيار العقيدة والدين، ونهى عن الإكراه، وأباح التعايش مع مختلف الأديان، ونهى عن التعدي والظلم، بل جعل من أهداف الجهاد تحقيق العدالة وتهيئة جو الحرية العقديّة وذلك من خلال تأمين أماكن إقامتها، قال تعالى ﴿وَكَوْلًا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (سورة الحج، آية: ٤٠).

٢. حفظ النفس: وذلك بأن جعل الحياة الإنسانية مقدسة، فحرم الاعتداء عليها بالقتل جنايةً أو انتحاراً، وحرّم التعدي على كرامة الآدمي بالقذف أو السب، وشرّع لذلك القصاص والحدود.

٣. حفظ العقل: وذلك بأن جعل له أهمية كبرى لأنه مناط المسؤولية والتكليف، وبه كُرم الإنسان وفضل على سائر المخلوقات وتهيئاً للقيام بالخلافة في الأرض وحمل الأمانة، لذلك حافظ الإسلام عليه وسن من التشريعات ما يضمن سلامته، فحرم كل ما من شأنه أن يؤثر على العقل ويضر به أو يعطل طاقته كالخمر وغيره، فشرع العقوبة الرادعة لذلك، وربّاه على الاستقلال في الفهم والنظر وإتباع الدليل والبرهان، ونبذ التقليد والتبعية، وحرّره من سلطان

^١ المانع، القيم بين الإسلام والغرب، ص ١٩٧.

الخرافة والأوهام، بتحريم السحر والكهانة والشعوذة وغيرها من أساليب الدجل والخرافة،
وصانه من التثنت والضياح. يمنع الخوض في الغيبات من غير علم من الوحي.

٤. حفظ العرض: وذلك بأن حرّم الإسلام الزنا ودواعيه وأسبابه وما يقرب إليه، وأباح الزواج
والتعدد، وحرّم الاعتداء على الأعراس بالفعل أو القول أو مجرد النظر، وأمر بغض البصر،
والحجاب، وإقامة الحدود.

٥. حفظ المال: وذلك بأن حرّم الإسلام الربا، وأباح البيع، وحرّم الاعتداء عليه بالسرقة أو
الاختلاس أو الرشوة أو الاحتكار، وأوجب الحدود، وأمر بالعمل والإنفاق، ونهى عن الغش
والبخل، وأمر بالأمانة والصدق.

وفي تحقيق حفظ تلك الضروريات، وإقامتها على نهج الله، أوجب الشرع المطهر على عموم
الناس المتابعة والطاعة لولي الأمر الذي يلي أمورهم ويدير مصالحهم وقيم شعائرهم، في جو من
الأمن والطمأنينة على الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وبهذا تستقيم الحياة وتُعمّر الأرض
وتتحقق مقاصد الشرع الحنيف.

وهذه المقاصد أو "القواعد التشريعية استمدتها علماء أصول الفقه الإسلامي من استقراء الأحكام
الشرعية، ومن استقراء عللها وحكمها التشريعية، ومن النصوص التي قررت مبادئ تشريعية عامة
وأصولاً تشريعية كلية، وكما تجب مراعاتها في استنباط الأحكام من النصوص تجب مراعاتها في
استنباط الأحكام فيما لا نص فيه، ليكون التشريع مُحققاً ما قُصِد به موصلاً إلى تحقيق مصالح الناس
والعدل بينهم".^١

والصور التي تُبيّن الخلل في التصورات الشرعية والفهم المقاصدي لها وخاصة في ما أوجبه الشرع
من حفظ الضروريات أكثر من أن تُحصى في بحث،_ ولكن حسبنا أبرز تلك الصور مما يُشار إليه في
فصول ومباحث هذا البحث_، والتي حرّرت على الأمة الإسلامية الويلات، وأساءت إلى قيم وتعاليم
وسماحة الإسلام العالمية، ومن صور ذلك الخلل في التصور الشرعي لهذه الضروريات ما يحدث من
بعض الأفراد أو الجماعات من الاعتداء على الناس، أو مصالحهم، أو الاعتداء على المعاهدين
والمستأمنين، ووصف ذلك بالجهاد، واعتقاد أن في ذلك تحقيقاً لمصالح الأمة، والحق أن في هذا من
المفاسد، والمخالفات الشرعية، والتعارض مع مقاصد الشريعة ما يوجب القطع بجرمته لما يترتب عليه
من إخفاف ذمم المسلمين بالاعتداء على المعاهدين والمستأمنين، واستبدال الأمن بالخوف في المجتمعات

^١ عبد الوهاب خلاف: علم أصول الفقه، ط ٢، (د.ت)، مكتبة الدعوة الإسلامية شباب الأزهر، ص ١٩٧.

والأقليات الإسلامية الآمنة، وإراقة الدماء المعصومة، والإفساد في الأرض، والتنفير من الإسلام، وتهيج الأمم الكافرة واتخاذهم من تلك الأعمال ذرائع يتسلطون بها على المسلمين ومصالحهم وبلادهم.

ثامناً: الطرق التربوية لتصحيح التصورات الشرعية:

١. معرفة الأولويات _ أو ما يُسمى بفقهِ الأولويات _ في الأحكام، والتطبيق، والأخذ، والترك، وكيفية التعامل مع الأحداث والمستجدات وفق تصورٍ إسلامي صحيح، ورؤيةٍ شرعيةٍ مؤصلة، تراعي الأحوال والظروف والمصالح والمفاسد.
٢. معرفة أن الشرع جاء بجلب المصالح وتكثيرها ودرء المفاسد وتقليلها، وذلك بتفعيل القواعد الشرعية المستنبطة مقاصدياً من الوحي _ أو ما يُسمى بفقهِ المقاصد _، ومنها قاعدة رفع الحرج، والمشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات، ولا ضرر ولا ضرار، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، واليقين لا يزول بالشك، والأصل في العادات الإباحة، وغيرها من القواعد الشرعية التي تُعطي المسلم ملكةً فريدةً في العيش بيسرٍ وسهولة، والنظر دائماً إلى الأصلاح.
٣. معرفة حِكَم التدرج في التشريع الإسلامي وما يحمله من معاني وإشارات تربوية في كيفية الفهم والتعامل مع أحكام الشرع وفق مقاصده وأهدافه.
٤. التمييز بين النص وتفسيره، وأن القداسة والعصمة لا تكون إلا لنصوص الكتاب والسنة، والأحكام القطعية للمحكم منها، وما عدا ذلك فهو اجتهاد يؤخذ منه ويُرد، ومن هذا الفهم يظهر التصور الصحيح للشرع من خلال نصوصه وأحكامه القطعية وما تحمله من مقاصد لا من خلال التفسير والتأويل القائم على العقل المجرد، أو الولاية القاصرة، وكما قيل أن الرجال يُعرفون بالحق، ولا يُعرف الحق بالرجال.
٥. معرفة الأحكام الشرعية التي يشترك فيها الناس كافة مسلمهم وكافرهم من حرمة الاعتداء بالقول أو الفعل على أديانهم أو أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم، وهذه المعرفة ثمرة من ثمار علم المقاصد التي تضبط التصور الشرعي في التعامل مع الناس، وتحفظ لهم الحقوق الإنسانية الإسلامية العالمية.
٦. توجيه الطاقات العلمية والبحثية نحو القضايا الكبرى، والمصالح العامة التي تهم الأمة، وتوحد كلمتها، وتحقق ألفتها، والبعد عن المسائل الخلافية التي تُشغل وتُفرق وتزيد من بلاء الأمة.

٧. التدريب العملي على التعامل الشرعي مع الأحداث والمستجدات في أي مكان وزمان، والتكليف معها وفق ضوابط الشرع وسماحته وهديه، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٥٨)، وذلك من خلال تعميق الوعي بالواقع _أو ما يُسمى بفقهِ الواقع_، والقراءة الواعية والتنزيل الصحيح لنصوص الشرع على الواقع، ومعرفة أن الدين بنصوصه وتشريعاته لم يأتي ليعالج ويتعامل مع واقعٍ بعينه كواقع النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام، أو مع دين معين كالإسلام، أو مع طبقة بعينها كالفقراء مثلاً دون الأغنياء، أو مع جنس معين كالرجل دون المرأة، بل هي تربية شاملة متكاملة تأخذ الواقع بجميع أطيافه وأديانه وطبقاته إلى بر الأمان والسعادة والتقدم في الدنيا، والآخرة لمن آمن منهم.
٨. توسيع نطاق العلم الشرعي ليشمل محددات وضوابط الأحكام الشرعية، لكي تتكون في العقل معرفة المسكوت عنه، أو النصوص المحتملة، _أو ما يُسمى بمنطقة العفو_، وهذا التصور يُعالج كثيراً من القضايا التي أصابها التشدد والتطرف.
٩. تفعيل دور القراءة الواعية الناقدة التي تعالج الثقافة السطحية والحرفية، وذلك من خلال تفعيل التفقه والاعتبار العقلي لدلالة المفهوم، وقواعد الاستدلال، والجمع بين الأدلة، وما يترتب على ذلك من نظرة شرعية عقلية تراعي الأحوال والظروف، وتثبت في الأحكام، وتنظر بشمولٍ ووعي، وتطبق بتوسط واعتدال، مستصحباً البراءة والإباحة الأصلية.
١٠. توسيع دائرة الرأي الفقهي، والاطلاع على آراء الصحابة والأئمة والعلماء رضي الله عنهم ورحمهم، لما في ذلك من معرفةٍ لمسائل الخلاف، وسعة دائرته، وحجية أدلته، لاختيار الأصلح والأيسر، وما يترتب على ذلك من عقليةٍ تنبذ التعصب والتفوق والتزمت.
١١. البناء العلمي المتكامل، والذي يقوم على قواعده وأسسهِ الشرعية، والنظرة والاستنتاج العقلي، بالروح والوجدان الإيماني، والخلق والتعامل النبوي، ليكون لبنة في بناء الحضارة الإنسانية ومثالاً حياً للبشرية.
١٢. الأخذ بمنهج التوسط والاعتدال علماً وفكراً، وعملاً وسلوكاً، وهذا لا يكون إلا بالأخذ عن أصحاب هذا المنهج من العلماء والمربين والدعاة والمصلحين الذين بنوا الدين والدنيا؛ لأنهم أخذوا علمهم وفكرهم من مشكاة الوحي وهدى الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

تاسعاً: الفوائد التربوية لتطبيق مبدأ تصحيح التصورات العقلية والشريعة، وخاصة في جانب الوحدة والاجتماع ونبذ الفرقة والاختلاف:

لا شك أن تصحيح التصورات العقلية والشريعة لها من الفوائد التربوية العظيمة في جانب التصور والفكر، وفي جانب التطبيق والسلوك، وهذه الفوائد ثمراتها بناء المجتمع الإنساني المسلم وفق منهج الله، ليحقق العمارة الحقيقية للإنسان والارض وكل ما خلق الله، ويفوز بشرف الاستخلاف الرباني، فيكون من الفائزين في الدنيا والآخرة، ومن تلك الفوائد والثمرات التربوية ما يلي:

١. سعة الإدراك والأفق:

وهي التي تورث صاحبها سعة الصدر، وتقبّل آراء الغير، وشيوع روح الإعذار والتسامح، وكما قيل من كثر علمه كثر إعداره وقل إنكاره، لأن العلم المبني على التصور العقلي والشرعي الصحيح يورث تلك الصفة، أما ضيق الأفق فإنه لا يتسع صدره للمحاورة ولا للنقاش، ولا لسماع قول الآخر -فضلاً عن قبوله بالتعدد أو سنة الاختلاف- فهو يقف في وجه المخالف متجهماً من أول كلمة، مقررأً رأيه، ومسفهأً لما سواه، متعصبأً لرأيه أو مذهبه، ويحكم على المخالف بقاعدة (من لم يكن معي فهو ضدي)، فتنشأ العقلية على منهج (المسلم من كان على مذهبي، أو طريقي، أو منهجي، وما عدا ذلك كافر، أو فاسق، أو مفسد)، ولا شك أن ذلك مخالفٌ للمنهج التربوي الإسلامي الأصيل الذي يبني العقول على الانفتاح والمعرفة وطلب الحق، والمجادلة بالحسن، وقصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود ومجادلته له أوضح مثال في هذا المقام، فقد بنى النمرود تصوره وفكره على أساس الهوى والتجبر، بسبب الملك والسلطان الذي وهبه الله إياه، حيث قيل أنه ملك الأرض من مشرقها إلى مغربها، فكان تصوره العقلي بعيداً عن شرع الله ومنهجه، حتى نازع الرب جل جلاله في ربوبيته، وكانت سعة أفق إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وتصوره العقلي المبني على شرع الله، أن جادله وتنازل معه جديلاً في أهم قضايا الاعتقاد، حتى يقيم الحجة العقلية، والبرهان الحسي على ذلك الكافر، يقول تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٥٨)، وقبول إبراهيم عليه الصلاة والسلام لحجة النمرود في قدرته على الإحياء والإماتة المجازية لا الحقيقية جديلاً؛ حتى يتم

الحوار وتستمر المناقشة رغبة منه في هداية النمرود وإسلامه، وانتقاله عليه الصلاة والسلام إلى الدليل الثاني ليُصحح تصوره العقلي وبينه على منهج الله "وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه... وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويُبين بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني"^١.

وفي قصة نبي الله موسى عليه السلام مع عدو الله فرعون أروع الأمثلة على سعة أفق نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام حينما أراد فرعون صرف الناس عن دعوة موسى عليه السلام بالمنة عليه بالترية أولاً، ثم بقضية قتله للقبطي ثانياً، ثم بالاستفهام عن ربوبية الله جل جلاله على سبيل السخرية ثالثاً، ثم بالرمي بالجنون رابعاً، ثم بالتهديد بالسجن أخيراً، وموسى عليه السلام في كل ذلك لا يجيد عن قضيته ومحور دعوته، تدرجاً للإفهام، وتحريراً للعقول، يقول تعالى ﴿فَأْتِيََا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن أرسل معننا بني إسرائيل ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قَالَ لَعِنَ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ...﴾ (سورة الشعراء، الآيات ١٦ - ٣٢)، والأمثلة في القرآن أكثر من أن تُحصى.

وفي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من الأمثلة على سعة الأفق وسعة الصدر ما يطول ذكره ومن ذلك، قصة قريش عندما بعثوا عتبة بن ربيعة وهو من رؤساءهم ليحاور النبي صلى الله عليه وسلم، ويتكلم معه وفق تصوره العقلي المبني على المادة والشرك، حتى قال يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبثت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، ولما رأى سكوت النبي صلى الله عليه وسلم وسعة صدره وتقبله الظاهري لكلامه، ظن أنه قادرٌ على شيء وبدأ يعرض الدنيا على من عرضت له الدنيا

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣٢١.

صلى الله عليه وسلم، ويقول إن كنت تريد المال، وإن كنت تريد النساء، وإن كنت تريد الملك... والنبي صلى الله عليه وسلم لا يكلمه بكلمه وهو ينتقل من عرض إلى آخر حتى انتهى وفرغ من كلامه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم يقيناً بطلان كلامه، وضعف حجته، وسوء نيته وقصده، ثم قال صلى الله عليه وسلم بلسان الحكمة الربانية، والأدب القرآني: أفرغت يا أبا الوليد؟ وكأنه صلى الله عليه وسلم مستعد لسماع ما هو أكثر من ذلك المشرك، لأنه صلى الله عليه وسلم يريد هدايته، فلا بد أن يسمع منه ليعرف العجل ويعالجها بالمنهج التربوي الإسلامي الراقى. فما بالك إذا كان المحاور لك زوجةً أو أخاً أو ابناً أو طالباً أو أحداً من إخوانك المسلمين؟ أفلا يكون أحق بالسماع من ذلك المشرك؟ لتألف القلوب، وتجتمع على كلمة سواء. وهكذا كلما صحَّ التصور العقلي والشرعي _بتفعيل العقل والفقه في نصوص الشرع، وتزيين العقل والفهم بلباس الشرع_، أعطى الفرد قدرةً على الفهم والتكليف، والدعوة والبناء، والإصلاح والتغيير.

٢. ضبط المصطلحات والألفاظ الشرعية بضوابط الشرع، والموازن والتقدير العقلية بضوابط المنطق:

إن فهم الحياة ومعطياتها وطبيعتها وعلومها وسننها لا تقل أهمية عن فهم العلوم الشرعية، بل إن الله فتح للناس باب الفهم والتفكير والنظر والاعتبار في شتى مجالات الحياة، وما حدث ويحدث في العالم من كثرة الاختلاف وما ينتج عنه من افتراق، كل ذلك بسبب اختلال موازين الأفهام، وتخبط التقديرات العقلية، وغياب أصحاب العقلات الواعية، والبصائر النيرة. فالتصور الشرعي إذا لم يُبنى على العقل الصحيح، فإنه يفسد تصوره للأمور وإدراكها، مما يثمر حلولاً وأحكاماً وفتاوى وتصرفات خاطئة ناتجة عن ذلك التصور، فمثلاً: في قضية المعاصي يجعل الصغائر من الكبائر، والمباحات من المحرمات، وفي الطاعات يجعل السنن من الواجبات والأركان، وفي الأخذ بالأحكام يجعل المختلف فيه كالمتفق عليه.. وهكذا في المسائل التي تدور بين العموم والخصوص والناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد.. وغيرها، ويتعامل مع نصوص الشرع وفق هواه ونظرته وفهمه الشخصي القاصر.

وفي التصور العقلي المبني على غير هدي الكتاب والسنة النقيض من الأول، فهو يجعل الكبائر من الصغائر، ويجعل الواجبات والأركان من السنن والمستحبات، والمحرمات من المباحات، ويجعل الأحكام المتفق عليها أو على صحتها كالمختلف فيها، أو يحمل الآيات والنصوص على غير محلها، ويتعامل بسلاح العقل في ميدان غير ميدانه، فيأخذ به إلى التردد والتخبط، والشك والخيرة.

والصواب سلوك المنهج الوسط من بناء تصور عقلي على هدي الكتاب والسنة، وإعطاء المصطلحات والألفاظ قيمتها اللغوية والشرعية، وإنزال الأمور والأحكام منزلتها من الصحة والفساد، والوجوب وعدمه، والإباحة والتحریم.

وهذا الميزان العقلي والانضباط الشرعي يُثمر الانطلاق في قضايا العصر المستجدة على أساس قوي ومتين، بعيد عن الإفراط، أو التفريط، والعزلة والإنكفاء، أو الإنهيار والانسلاخ.

٣. إلزام كل قول أو فعل ما يلزمه:

وهذا لا يكون إلا على تصور عقلي صحيح، يستقي من المعين الصافي الكتاب والسنة الذي يبيّن التصورات على التقيّد بالأقوال والأفعال في نطاقها الصحيح، وفي مجالها الذي تشملها بدون تعميم أو تحجيم أو تسطيح، والتأكد من الأحوال، والدقة في الأحكام، والورع والاحتياط في المشابه، يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ...﴾ (سورة الحجرات، آية: ١٢)، أمر الله باجتنب أكثر الظن المباح خشية الوقوع في البعض المحرم، وما ذلك إلا لإلزام الناس الحقيقة الواضحة والبعد عن الشكوك والتأويلات، وإلزام ما لا يلزم، أما التصور السطحي للأمور فإنه يجعل الناس يبنون تصوراتهم الشرعية وفق أهوائهم ومشاربهم وعلى عمليات حسابية رياضية بحته خالية من البحث والفكر والتأمل والإطلاع، وبعيدة عن معرفة الأحوال والظروف والملابسات، واختلاف الوقائع والأحداث، فمثلاً، إذا وجد من يسمع الغناء ويحبه، قال هذا فاسد، ومن كان فاسداً ورضي بالفساد في بيته فهو ديوث، ومن كان ديوث فهو لا يدخل الجنة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول «ثلاثة لا يدخلون الجنة العاق بوالديه والديوث ورجلة النساء»^١، فبني، وقرر، وألزم، وأدخل الناس النار، لأنه بنى على قواعد واحتمالات لم يتبينها من المحكوم عليه، مع العلم بأن الغناء محرم شرعاً إلا أن ترتيب الأحكام عليه بهذه الطريقة يدل على خلل في التصور الشرعي والعقل معاً، ومنهم من تقول له رحمة الله واسعة، والله غفور لذنوب العباد، فيقول في نفسه: المرجئة يقولون إن الله غفور بالعباد، والمرجئة يسهلون المعاصي، إذاً فهذا مرجئ، فهو إذاً مبتدع أو زنديق، وهو ضالّ مضلّ... وكذلك في مسألة التكفير تجدد الغلاة المكفرة كفروا بعض المسلمين واتجهوا بعد ذلك إلي من لم يكفرهم من المسلمين فكفروهم ويحتجون بالقاعدة الشرعية "من لم يكفر الكافر فهو كافر" والقاعدة

^١ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان حديث رقم (٢٤٤)، قال الذهبي: صحيح الإسناد.

صحيحة لكن الفهم المبني على غير الكتاب والسنة كان سبباً في وقوعهم في تكفير أهل الإسلام نسأل الله السلامة^١، وهكذا في دوامة التصورات غير المنطقية وغير العقلية.

وعلى النقيض تجد من بني تصوراته العقلية على غير هدي الكتاب والسنة يقول مثلاً، التطرف الديني محرّم عقلاً، فنقول وشرعاً لأن التطرف يعني الميل عن الوسط، ودين الإسلام دين الوسطية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤٣)، فيبني على تصوره العقلي بأن منابع التطرف نصوص القرآن الكريم أو التمسك بالدين في جميع شؤون الحياة، فتجده يدعوا إلى التحرر وتقديس التنوير العقلي، واتهام كل من يهتم بالقرآن الكريم أو يتمسك بالدين في جميع تفاصيل الحياة بأنه متطرف، وهذا الحكم مخالفٌ في أصله لمنطقه العقلي، فالعقل يبني المسببات على الأسباب، ويحكم على النتائج بالنظر في تفاصيل الأحداث والوقائع، ولو بحثنا في أسباب التطرف الديني من منطلق عقلي وتأصيل شرعي لوجدنا أنه خللٌ في التصور العقلي لذلك الشخص فينتج عنه خللٌ في الفهم، أو التطبيق، لذلك جاءت التربية الإسلامية بتصحيح التصورات الشرعية على أسس منطقية عقلية مقاصدية من هدي الكتاب والسنة.

٤. غلبة الفكر العقلاني على الفكر العاطفي:

الإنسان مكون من عقل وعاطفة، ولا يمكن الفصل بينهما لأنهما من مصدر واحد وهو القلب، فالعقل والعاطفة تراوحت فريد تميز به الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات، بل إن الله تعالى جعل ذلك التراوحي واقعاً ملموساً في حياة الإنسان وهو علاقة الزواج بين الذكر والأنثى، فالذكر بعقله والأنثى بعاطفتها، ولا تتم السعادة الزوجية بين الذكر والأنثى إلا بمقدار التوافق بين عقل الرجل وعاطفة الأنثى، ولكلٍ منهما عقلٌ وعاطفة، لكن الغالب الأعم أن الرجل بفطرته التي فطره الله عليها يغلب عليه التفكير بعقله أكثر من عاطفته، والمرأة بفطرتها يغلب عليها التفكير بعاطفتها أكثر من عقلها، لذلك جعلت التربية الإسلامية للمرأة ولياً يرعى مصالحها ويدبر شؤونها، وخاصة في باب الزواج، فلا يكون الزواج شرعياً إلا بوجود ولي للمرأة لكي ينظر لها بعين العقل قبل العاطفة في الزوج الصالح لها، مع احترام إنسانيتها واختيارها للزوج الذي ترتضيه، لذلك جاءت التربية الإسلامية لتوازن عند الرجل والمرأة مسألة العقل والعاطفة بميزان شرعي دقيق، وعدم تغليب جانب على الآخر، بل جعل العاطفة تنقاد للعقل لكي تسير في الاتجاه الصحيح اعتقاداً واستدلالاً، وعملاً وسلوكاً، والأمثلة على ذلك كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فمن ذلك، أمر الله تعالى أن

^١ عائض بن عبد الله القرني: الخلافاً أسبابه وآدابه، ١٤٢٠هـ، موقع حملة السكينة، ص ١٣-١٥.

تُقام الحدود على كل من خالف أوامر الشرع بعيداً عن العواطف وتقديرات العقل البشرية التي ربما ترى في تطبيق تلك الحدود عدم إنسانيتها أو جورها وظلمها، قال تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة النور، آية: ٢٠)، فأمر الله المؤمنين بعدم الالتفات إلى العواطف عند تطبيق الحد يدل على تغليب العقل على العاطفة، وفهم الحكمة من تقرير الأحكام، وتطبيق الحدود، وفي قصة المرأة المخزومية التي سرقت وأراد أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حبه أن يشفع فيها، فجاءه الجواب القاطع، والحد الفاصل بين العقل والعاطفة، «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ». ثم قام فخطب قال «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^١، والأمثلة في تغليب العقل المبني على الكتاب والسنة على العاطفة لا حصر لها، كل ذلك ليعيش المجتمع في حالة من الاستقرار والتوازن، والتعايش والتسامح، بعيداً عن الاندفاع والتسرع، والاختلاف والتفرق، وحينما يترى الأفراد على العواطف والشعارات يكون المجتمع كالسفينة المتهالكة في وجه الأمواج العاتية تغرق عند أول جولة، وما ذلك إلا لأن المجتمع متفكك من الداخل تتحكم فيه الأهواء والشبهات، وتسيطر عليه العواطف والشهوات.

لذا فإن التربية الإسلامية تربي العقل والعاطفة عند الإنسان بميزان الكتاب والسنة، فلا يطغى جانب على الآخر، فمثلاً في قضايا المعاصرة نجد من يتسرع في إصدار الأحكام (بدافع العاطفة وحب الدين، أو الهوى) على الحكام لأخطاء وقعوا فيها، أو على العلماء لاجتهادات أفتوا بها، أو ربما على الصحابة لاختلافات وقعت بينهم، فتجد الأحكام المنقادة بعاطفة وكلام ناري، والتشكيك في النوايا، واستخدام العبارات التي ترفض قبول الحق، وتفرق ولا تجمع، وتهدم ولا تبني، وتفسد ولا تصلح؛ لأن القائل لم يتدبر فيه بعقله بل بعاطفته، وقد يقع أكبر من ذلك في مسائل عقدية بسبب الحماس المندفع وغير المؤهل عقلاً وشرعاً، لذا كان العقل المبني على الشرع الميزان لهذه العاطفة، والعقل يأتي تبعاً للشرع لأن الإسلام - والله الحمد - جاء لأهل العقول، فإن المنحون مرفوع عنه القلم والتكليف، قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٤٣)، وما أجمل عاطفة الشباب إذا كانت موجهة بعقول الحكماء الذين بنوا حكمتهم على هدي الله تعالى

^١ أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، حديث رقم (٦٧٨٨)، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، حديث رقم (١٦٨٨).

وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنها تبني الدول، وتحفظ المجتمعات، وتنمي القدرات، وتستحق أن تنال شرف ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (سورة البقرة، آية: ٣٠).

المطلب الثاني: البناء العلمي:

أولاً: معنى العلم:

العلم في اللغة قال ابن فارس "العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدل على أثرٍ بالشيء يتميِّز به عن غيره"^١، وقال ابن منظور "العلم نقيض الجهل،... وعلمت الشيء أعلمه علماً عرفته"^٢،

وقال الفيومي "يُقَالُ عَلِمَ يَعْلَمُ إِذَا تَيَقَّنَ، وَجَاءَ بِمَعْنَى الْمَعْرِفَةِ أَيضًا، كَمَا جَاءَتْ بِمَعْنَاهُ ضُمِّنَ كُلُّ وَاحِدٍ مَعْنَى الْآخِرِ لِاشْتِرَاكِهَمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مَسْبُوقًا بِالْجَهْلِ لِأَنَّ الْعِلْمَ وَإِنْ حَصَلَ عَنْ كَسْبٍ فَذَلِكَ الْكَسْبُ مَسْبُوقٌ بِالْجَهْلِ"^٣.

وقال الفيروز آبادي "عَلِمَهُ، كَسَمِعَهُ، عَلِمًا، بِالْكَسْرِ عَرَفَهُ، وَعَلِمَ هُوَ فِي نَفْسِهِ، وَرَجُلٌ عَالِمٌ وَعَلِيمٌ جَمَعَهُ عُلَمَاءٌ وَعُلَامٌ، كَجُهَّالٍ"^٤.

وفي الاصطلاح قال الراغب الأصفهاني "العلم: إدراك الشيء بحقيقته؛ وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذات الشيء. والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه"^٥.

وقال الجرجاني: "العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وقال الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل، والأول أخص من الثاني"^٦.

"والعلم هو ثمرة العقل الذي يميز به بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، والحسن والقبيح، وهو المحرك للإرادة بين الأخذ والترك"^١، لذلك هذا العلم هو الذي يعصم صاحبه من الأفكار والتصورات

^١ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٤، ص ١٠٩، باب العين واللام وما يثلثهما.

^٢ ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٣٧٠-٣٧٤، باب العين، مادة "علم"، والجوهري، الصحاح، ج ٥، ص ٣٥٦، باب الميم، فصل العين، مادة (علم).

^٣ أحمد بن محمد الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ت: يوسف الشيخ محمد، ط ٢، ١٤١٨هـ، المكتبة العصرية، بيروت، ص ٢٢١.

^٤ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ١٤٧١-١٤٧٢، باب الميم، فصل العين، مادة (علمه).

^٥ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٨٠.

^٦ الجرجاني، التعريفات، باب العين، ص ١٩٩-٢٠٠.

الخاطئة، ويدله على كل خير ونفع وصلاح، وهو العلم الذي أمرنا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالاعتصام به وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن فيهما خير وسعادة الدنيا والآخرة، يقول تعالى آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طه، آية: ١١٤)، قال الألويسي "أي سل الله عز وجل بدل الاستعجال زيادة العلم مطلقاً أو في القرآن"^٢، ويقول الباز "وما العلم إلا ما يعلمه الله فهو الباقي الذي ينفع ولا يضر، ويثمر ولا يخبث"^٣، فاللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً يا أكرم الأكرمين.

ثانياً: الأحاديث الواردة في البناء العلمي من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. أورد الإمام البخاري في جامعه "باب قول الله تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) وَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ".

قال ابن حجر "والوسط العدل... وحاصل ما في الآية الامتنان بالهداية والعدالة"^٤، ثم بين سبب استشهاد البخاري بالآية على أهل العلم فقال "وأما قوله (وما أمر إلى آخره) فمطابقتها لحديث الباب خفية وكأنه من جهة الصفة المذكورة وهي العدالة لما كانت تعم الجميع لظاهر الخطاب أشار إلى أنها من العام الذي أريد به الخاص أو من العام المخصوص؛ لأن أهل الجهل ليسوا عدولاً، وكذلك أهل البدع، فُعرف أن المراد بالوصف المذكور أهل السنة والجماعة، وهم أهل العلم الشرعي، ومن سواهم ولو نُسب إلى العلم فهي نسبة صورية لا حقيقية"^٥، وتفسير البخاري (الجماعة) بأنهم أهل العلم يدل على مكانة العلم وأهميته، وأنه عصمة لصاحبه من الفتن التي تقود إلى الاختلاف والتفرق، ولذلك جاءت الآيات والأحاديث بوجوب لزوم هذه الجماعة وهم المعتصمون بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم علماً وعملاً.

^١ حمدي عبد العال: الأخلاق ومعياريها بين الوضعية والدين، ط ٣، ١٤٠٥هـ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ص ٣٢.

^٢ أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألويسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٤٢١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١٦، ص ٧٦٧.

^٣ أنور الباز: التفسير التربوي للقرآن الكريم، ٢٠٠٧م، دار النشر للجامعات، القاهرة، ج ٢، ص ٣٤١.

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٩٠.

^٥ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣٩٠-٣٩١.

٢. (٧٢٧٠) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ ضَمَّنِي إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ».

في هذا الحديث يظهر حرص النبي صلى الله عليه وعلى ابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ويظهر التعامل التربوي من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ضمَّه إليه، وما يتبع ذلك من أثر معنوي في نفس ذلك الصبي، ثم تخصيصه بتلك الدعوة التي ارتفع بها وكان حبر الأمة وترجمان القرآن، وما ذلك إلا لعلمه صلى الله عليه وسلم أنه لا عاصم للإنسان من فتن الشهوات والشبهات إلا العلم بكتاب الله تعالى الذي هو طريق القوة والخير والسعادة في الدنيا والآخرة، وأنه الأساس في تحقيق البناء العلمي بأهدافه وغاياته، وهو ما يجعل الفرد ينطلق بفطرة سليمة ونظرة صحيحة وفهم مستقيم لآيات الله وأوامره، فيثمر تصوراً وتطبيقاً صحيحاً بيني الدنيا والآخرة معاً، ومما يبين أثر تلك الدعوة النبوية على ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يدخله مع أشياخ بدر، فقال بعضهم لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال إنه ممن قد علمتم، قال فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال ما تقولون في ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿ (سورة النصر، آية: ١-٢)، حتى ختم السورة، فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي يا ابن عباس أذلك قولك؟ قلت لا، قال فما تقول؟ قلت هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فتح مكة، فذاك علامة أحلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (سورة النصر، آية: ٣). قال عمر ما أعلم منها إلا ما تعلم^١، قال ابن القيم "قد يقصُر فهم أكثر الناس عن فهم ما دلت عليه النصوص وعن وجه الدلالة وموقعها، وتفاوت الأمة في مراتب الفهم عن الله ورسوله لا يحصيه إلا الله، ولو كانت الأفهام متساوية لتساوت أقدام العلماء في العلم،... ودعا النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس أن يفقه في الدين ويعلمه التأويل، والفرق بين الفقه والتأويل أن الفقه هو فهم المعنى المراد، والتأويل إدراك الحقيقة التي يؤول إليها المعنى التي هي أُخَيَّتُهُ وأصله، وليس كل من فقه في الدين عرف التأويل، فمعرفة التأويل يختص به الراسخون في العلم"^٢، فهذه المنزلة العلمية التي وصل إليها ابن عباس رضي الله عنه كانت النور والهداية والعصمة له في تعامله مع الفتن والأحداث التي مرَّت بها الأمة في عصره،

^١ أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب - رقم (٥٢) ولم يسمي -، حديث رقم (٤٢٩٤).

^٢ ابن القيم، أعلام الموقعين، ج ١، ص ٢٥٠.

وهذا كله يُبين أهمية البناء العلمي الصحيح لأفراد الأمة ليعيشوا الواقع والمستقبل في سعادة وأمان وإحياء.

٣. (٧٢٧٦) عن حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ فَقَرَأُوا الْقُرْآنَ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ». في هذا الحديث بيان نبوي أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال و"الجذر الأصل"^١، أي أصلها، ثم بيّن فضل كتاب الله وسنته صلى الله عليه وسلم قراءةً وتعلماً، وذلك لما فيهما من الخير والنفع للمسلم دنيا وأخرى، وهو نفس معنى الحديث السابق.

٤. (٧٣٠٧) عَنْ عُرْوَةَ قَالَ حَجَّ عَلَيْنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُمُوهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِلَعْنِهِمْ، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتَوْنَ بِرَأْيِهِمْ، فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ». في الحديث بيان فضل ومكانة العلم، وأنه يعصم صاحبه من الجهل، والقول على بغير علم، وأن من علامات الساعة رفعه، وانتشار الجهل بين الناس بموت حملته فلا يبقى إلا أناسٌ جهال يتركون كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ويُفتون بما يوافق آراءهم وتستحسنه عقولهم، وهذا يدل على أن الناس في ذلك الزمان يتبعون الرجال أيًا كانوا، بدون دليل ولا حجة وهو ما يكون سبباً لهلاكهم، يقول عليه الصلاة والسلام «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا يَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَكْتُمُ فِيهَا الْهَرَجُ، وَالْهَرَجُ الْقَتْلُ»^٢، وإخبار نبينا صلى الله عليه وسلم بأن من تلك الفتن التي تنتج عن الجهل كثرة القتل، وما يصحبه من تفرق واختلاف وشر وبلاء، يجعل المسلمين يأخذون بقدر الله في دفع تلك الفتن، ولا يكون ذلك إلا بالعلم الرباني الذي يبيّن الدنيا والآخرة، ويحفظ حقوق الله وحقوق العباد، ويُسخّر كل القدرات والإمكانات لإعمار الأرض، وبناء الإنسان، ونشر القيم والفضائل، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله بعد أن ساق أسباب الاختلاف "هذه الأسباب... راجعة في التحصيل إلى وجه واحد، وهو الجهل بمقاصد الشريعة والتخرف على معانيها بالظن من غير تثبت، أو الأخذ فيها بالنظر الأول، ولا يكون ذلك من راسخ في العلم"^٣.

٥. (٧٣١٠) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٤٩.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، حديث رقم (٧٠٦٣).

^٣ الشاطبي، الاعتصام، ج ٢، ص ٥٩٤.

اللَّهُ. فَقَالَ «اجْتَمِعْنَ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا». فَاجْتَمَعْنَ فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ... الحديث

يظهر في هذا الحديث حرص المرأة المسلمة على التعلم، وتظهر شخصيتها الواثقة في طلبها من رسول الأمة صلى الله عليه وسلم أن يُخصص لها ولأخواتها يوماً ومكاناً للتعلم، ولم يمنعها الحياء؛ لأن ذلك الحيل تربي على أنه لا حياء في الدين، وأن الرفعة والسعادة في الدنيا والآخرة لا تحقق إلا بالعلم، ولذلك قيل من أراد سعادة الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد سعادة الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم، ولا تتحقق سعادة الدنيا والآخرة إلا بالعلم الرباني الذي أشارت إليه تلك المرأة بقولها "مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ"، فكانوا يتسابقون في طلب العلم والمعرفة والحقيقة صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً.

٦. (٧٣١٢) عن مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ يَخْطُبُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللَّهُ، وَكَنْ يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ».

الحديث يبين فضل العلم المبني على فقهه وفهمه، قال ابن حجر يُفَقِّهُهُ "أي يُفَهِّمُهُ... ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع فقد حرم الخير"^١. والحديث يُعطي دلالة واضحة على أن من ثمار العلم حصول الخير والتوفيق من الله تعالى، والذي به يُنال نور البصيرة والفهم في الدين فكراً وسلوكاً، وصحةً وقبولاً، قال ابن حجر في تبويب البخاري (باب العلم قبل القول والعمل) "قال ابن المنير أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل"^٢، فالبناء العلمي الصحيح أساس الخيرية لهذه الأمة في تحقيق أسباب العزة والقوة والتقدم، والاجتماع والاتلاف.

٧. (٧٣١٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَيْهِ هَلَكْتَهُ فِي الْحَقِّ، وَآخَرُ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا».

في هذا الحديث بيان أن الحسد _حسد الغبطة الذي هو تمنى حصول الخير والنعمة مع عدم تمنى زوالها عن صاحبها_ "قال ابن المنير المراد بالحسد هنا الغبطة"^٣، وخص النبي صلى الله عليه وسلم المال

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ٢١٨.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٢.

^٣ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ١٥١.

والحكمة التي لها مدلولات كثيرة، يقول ابن حجر "وضابطها ما منع الجهل وزجر عن القبح"^١، وهذا الضابط لا يتحقق إلا في العلم الذي يرفع الجهل وينهى عن القبائح، ولا شك أن تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم المال والعلم بالغبطة وتمني حصولهما يدل على أنهما من أجل وأعظم ما يقرب إلى الله؛ لأنهما القوة - المادية والعلمية - التي يتوصل بهما إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

٨. (٧٣٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال إنكم تزعمون أن أبا هريرة يُكثِرُ الْحَدِيثَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهُ الْمَوْعِدُ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مِسْكِينًا أَلْزَمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مِلءِ بَطْنِي، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَشْغَلُهُمُ الصَّقُّ بِالْأَسْوَاقِ، وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ يَشْغَلُهُمُ الْقِيَامُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، فَشَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَالَ «مَنْ يَسْطُرْ رِذَاءَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي ثُمَّ يَقْبِضَهُ، فَلَنْ يَنْسَى شَيْئًا سَمِعَهُ مِنِّي». فَسَطَّطْتُ بُرْدَةً كَانَتْ عَلَيَّ، فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا نَسِيتُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْهُ.

وهذا الحديث يبين حرص راوية الإسلام أبو هريرة رضي الله عنه على العلم وكيف ناله بالجد والاجتهاد وملازمة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخطوة ببركة دعائه، يقول ابن حجر "السبب الأصلي الذي اقتضى له كثرة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ملازمته له ليجد ما يأكله، لأنه لم يكن له شيء يتجر فيه، ولا أرض يزرعها ولا يعمل فيها، فكان لا ينقطع عنه خشية أن يفوته القوت، فيحصل في هذه الملازمة من سماع الأقوال ورواية الأفعال ما لا يحصل لغيره ممن لم يلازمه ملازمته، وأعاناه على استمرار حفظه لذلك ما أشار إليه من الدعوة النبوية له بذلك"^٢، ولذلك نجد أن العلم الذي حازه أبو هريرة كان سبباً في تجنبه للفتن والأهواء التي حدثت في زمن الصحابة، وكان مما أثار عنه ما رواه ابن أبي شيبة "أن أبا هريرة كان يمشي في السوق ويقول: اللهم لا تدركني سنة ستين ولا إمارة الصبيان"^٣، وما ذلك إلا لعلمه من النبي صلى الله عليه وسلم قوله «هَلَكَةُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيَّ غِلْمَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ»^٤، قال ابن حجر "أولهم يزيد كما دل عليه قول أبي هريرة رأس الستين وإمارة الصبيان فإن يزيد كان غالباً ينتزع الشيوخ من إمارة البلدان الكبار ويوليها الأصغر من أقرابه"^٥، مع

^١ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ١٥١.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣٩٨-٣٩٩.

^٣ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ١٢.

^٤ أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: هلاك أمتي على يدي أغلمية سفهاء، حديث رقم (٧٠٥٨).

^٥ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ١٣.

ذلك لم يُقدِّم أبو هريرة رضي الله عنه على الخروج على السلطان، وإثارة الفتن عليه وعلى الأمة، وذلك لظهور بركة وثمره العلم على فكره وسلوكه، وعلمه بأن طاعته أخف وأيسر من هلاك الأمة بالفتن في الخروج عليه، وذلك لما يترتب عليه من سفكٍ للدماء واعتداءٍ على الحرمات، قال ابن بطال "وفي هذا الحديث أيضاً حجة لما تقدم من ترك القيام على السلطان ولو جار، لأنه صلى الله عليه وسلم أعلم أبا هريرة بأسماء هؤلاء وأسماء آبائهم ولم يأمرهم بالخروج عليهم مع إخباره أن هلاك الأمة على أيديهم لكون الخروج أشد في الهلاك وأقرب إلى الاستئصال من طاعتهم، فاختار أخف المفسدتين وأيسر الأمرين"^١، فانظر كيف يُبصِّر العلم صاحبه في مواطن الفتن، ويفتح له أبواب مقاصد الشرع بيسره وسماحته.

ثالثاً: التطبيق التربوي لمبدأ البناء العلمي:

من المعقولات أن العلم الذي ينفع البشرية يرفع صاحبه في الدنيا، ومن الوحي أن ذلك العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (سورة المجادلة، آية ١١)، قال الإمام الشوكاني "أي: ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة"^٢.

والسبب الرئيس في ضلال الخلق على كثرة صوره وأنواعه، وتعدد مظاهره وأشكاله، سواء كان في الأفكار والتصورات، أو التطبيق والسلوكيات، يعود في حقيقته إلى سببين، الجهل والظلم، يقول تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (سورة الاحزاب، آية: ٧٢)، ولا يرفع ذلك الجهل عن الإنسان إلا العلم الرباني الذي علمه الله إياه، وطلب منه الدعاء للاستزادة منه ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طه، آية: ١١٤).

والعلم هو الأساس في تشكيل فكر الإنسان وما يترتب عليه من سلوك، وعلى قدر صحة العلم وقوته وفهمه تكون حياة الإنسان، يقول دراز "إن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها فكره وعقيدته، فالإنسان مقود أبداً بفكرة صحيحة أو فاسدة"^٣، وهكذا العلم يُعطي الإنسان نور البصيرة فيعي ويفهم ويعقل ويميز الصحيح من الفاسد، يقول ابن حجر في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ (سورة الملك، آية: ١٠)، "أي سمع من يعي ويفهم (أو

^١ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ١٣.

^٢ الشوكاني، فتح القدير، ج ٥، ص ٢٥١.

^٣ دراز، الدين، ص ٩٩.

نعقل) عقل من يميز، وهذه أوصاف أهل العلم. فالعنى لو كنا من أهل العلم لعلمنا ما يجب علينا فعملنا به فنحنونا^١.

ولكن السؤال الذي ينبغي أن يُطرح، ما هو ذلك العلم الذي يؤتي ثماره التربوية وحكمته الربانية في البناء الإنساني والحضاري، مع العلم أن علماء الشرع والتربية أجمعوا على عالمية التربية الإسلامية وشمولها وصلاحتها لكل زمان ومكان؟ والجواب هو العلم الذي يقوم على قواعد ربانية تربوية، "فالمسلمون مكلفون بمهذبة الفكر الإنساني، والقلب الإنساني والواقع الإنساني في كل موقع من دنيا الناس! وهل يستطيع ذلك جاهل بقضايا الفكر والقلب والواقع؟"^٢، وهذه القواعد هي:

أولاً: قاعدة ربط العلم بغايته:

غاية العلم هو تحقيق الخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (سورة فاطر، آية: ٢٨)، قال ابن مسعود رضي الله عنه "ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية"^٣، لذلك العالم الحقيقي هو صاحب الخشية لله عز وجل ولو كان أمياً، كما قال مجاهد "إنما العالم من خشى الله عز وجل"^٤، وتحقيق الخشية لا يكون إلا بتعظيم الله وإجلاله في القلوب والتي طريقها كما يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله "وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين، إحداها معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان فإن من لا يعتقد عظمته لا تدعن النفس لتعظيمه، الثانية معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبداً مسخراً مربوباً حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيُعبر عنه بالتعظيم، وما لم تتمتع معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغني عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه، وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسلطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة هذا مع مطالعة

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ٢١٣.

^٢ محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، ١٤٢١هـ، دار القلم، دمشق، ص ٩١.

^٣ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٥٦١.

^٤ الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ص ٤٥٩.

ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يُشاهد من ملوك الأرض، وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبه^١.

وبذلك يُفَعَّل العلم بكل جوانبه ووفق مقاصده على كافة التطبيقات بحيث يكون علماً ربانياً يُسعد الإنسان دنياً وأخرى، ويظهر الخلل في عدم تطبيق هذه القاعدة، حينما يصبح العلم أداة لنيل الشهوات، وطلب الرياسة، وحب التصدر والتسلط، ووسيلة لزرع الفتنة والفرقة بإظهار التعالم في المسائل والغرائب، فيفقد العلم نوره وبركته بفقده الغاية منه، يقول الغزالي في سبب هذا الخلل "وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم في الدنيا فمن أحاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا، ولذلك قال الثوري فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء، آية: ٧٤)"^٢، لذا جاء التوجيه النبوي بالمثال الحي لِيُبَيِّن أثر هذه الآفات والفتن على العلم والدين «مَا ذُبَّانِ جَائِعَانِ أُرْسِيلاً فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الرَّجُلِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرْفِ لِدِينِهِ»^٣، فالحرص على المال والشرف والجاه مفسدٌ للدين كما يفسد الذئبان في قطع الغنم، والمعروف أن الذئب لا يكتفي بصيد ما يأكله إنما حب القتل طبعه، فإذا جاع قتل كل من يقدر عليه من الغنم إفساداً وتعدياً لشراهة طبعه وحدة جوعه، فإذا انتهى من إشباع غريزة القتل أكل على قدر حاجته ثم ذهب وترك ما أفسده وراء ظهره، وهذه حال من استولى عليه حب المال والشرف على قلبه، فإنه يصبح حريصاً عليها شرهاً بما ولو كان ذلك على حساب دينه وعلمه، وخصَّ الحديث المال والشرف لأنه كما يقول المباركفوري "أما المال فإفساده أنه نوع من القدرة يحرك داعية الشهوات ويجر إلى التنعم في المباحات فيصير التنعم مألوفاً وربما يشتد أنسه بالمال ويعجز عن كسب الحلال فيقتحم في الشبهات مع أنها ملهية عن ذكر الله تعالى، وهذه لا ينفك عنها أحد. وأما الجاه

^١ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ١٥٥.

^٢ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٦٢.

^٣ أخرجه ابن حبان، كتاب الزكاة، باب ما جاء في الحرص وما يتعلق به، حديث رقم (٣٢٢٨). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ت: شعيب الأرنؤوط، ط ٢، ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

فيكفي به إفساداً أن المال يبذل للجاه ولا يبذل الجاه للمال وهو الشرك الخفي، فيخوض في المرآة والمداهنة والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة، فهو أفسد وأفسد انتهى^١.

أما العلم الذي يُبنى على الخشية فإنه يهذب الطبع ويزكي النفس ويجلو القلب ويدعوا للعمل والبناء ويوجه للإصلاح والإئتلاف والاجتماع، "وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد، فقال عز وجل في علماء الدنيا ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٨٧) وقال تعالى في علماء الآخرة ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٩٩)^٢.

ولا شك أن العلم الذي يُبنى على معرفة الله وخشيته، والأخذ من وحي الله الذي هو أشرف العلوم، فإنه يُعطي صاحبه النظرة المتأنية الواعية للمستجدات والنوازل والأطروحات، والشمول في أخذ العلم، والاستفادة منه دنيا وأخرى لصالح البشرية عموماً، وهذا ما وجَّهنا إليه القرآن في أول آية نزلت ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (سورة العلق، آية: ١)، قال ابن كثير "وهنَّ أول رحمةٍ رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم... وأن من كرمه تعالى أن علَّم الإنسان ما لم يعلم، فشرَّفه وكرَّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة"^٣، وهذه القراءة التي أمر الله بها هي مفتاح العلم الذي يفتح العقول على المعارف والخبرات والإنتاج البشري بيقيد (اسم الرب) الذي به تُنار بصائر العقول لتأخذ العلم ببصيرة ربانية، وفهمٍ واسعٍ شاملٍ لحياة الإنسان وآخرفته، يقول الإمام الشوكاني في الآية "أي اقرأ ملتبساً باسم ربك، أو مبتدئاً باسم ربك، أو مفتتحاً... وقيل الباء بمعنى على، أي: اقرأ على اسم ربك، يقال افعَل كذا بسم الله، وعلى اسم الله قاله الأخفش. وقيل: الباء للاستعانة، أي: مستعيناً باسم ربك"^٤.

ويقول الكيلاي في بيان أهمية المعرفة وربطها بالغاية التي تتوجه إليها "أن القراءة _ أو المعرفة _ باسم الرب (الذي خلق) أو (رب العالمين) هي معرفة شاملة، والتربية التي تقوم على أساسها تربية

^١ أبو العلا محمد بن عبد الرحمن المباركفوري: تحفة الأحمدي بشرح جامع الترمذي، ١٤١٥هـ، دار الفكر، بيروت، ج٧، ص٧٨.

^٢ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج١، ص٦٢.

^٣ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٥٦٤.

^٤ الشوكاني، فتح القدير، ج٥، ص٦٢٧-٦٢٨.

شاملة تؤدي إلى كمال الإنسان وسعادته وإكرامه، وإشاعة السلام والأخوة والوحدة في حياته...
بعكس الفلسفات التربوية الأخرى التي تقتطع قطعاً بشرياً تربيته وتعلمه على حساب قطاعات
ومجموعات بشرية أخرى، طبقاً لقواعد وأصول يضعها أناس لم يخلقوا الإنسان ولم يشتركوا في
تصميمه أو هندسته، وبذلك تبذر بذور الفرقة وتشيع أسباب الصراع بين الجماعات البشرية، وبينها
وبين العوالم المحيطة بها^١.

والحقيقة أن الفصل بين العلم والغاية وخاصةً على مستوى التعليم أدى كما يقول ابن باديس إلى
"تكوّن ثقافة لفظية، يهتم أصحابها بالمناقشات اللفظية العميقة طوال سنيّ الدراسة"^٢، وبذلك يُحرم
الأفراد والمجتمع من ثمرات العلم التي توجّه نحو البناء والإعمار، وجمع القلوب وتوحيد الأمة، وربطها
برباط المحبة والإخاء، ويُدخلها في مستنقع الجدال والمرء والخصومة والاختلاف والتفرق، يقول الإمام
مالك رحمه الله "المراء في العلم يقسي القلب ويورث الطعن"^٣، ويقول ابن رجب "فما سكت من
سكت عن كثرة الخصام والجدال من سلف الأمة جهلاً ولا عجزاً، ولكن سكتوا عن علم وخشية"^٤،
وهذا ما كان عليه الصدر الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا ولكن علمهم
جمعهم على كلمة سواء لا اعتصامهم بقول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ
وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (سورة الإسراء، الآيات ١٠٧-١٠٩)، قال الشاطبي رحمه الله "الاختلاف في بعض القواعد
الكلية لا يقع في العادة الجارية بين المتبحّرين في علم الشريعة الخائضين في لجتها العظمى، العالمين
بموادها ومصادرها، والدليل على ذلك اتفاق العصر الأول وعامة العصر الثاني"^٥، ولكي يُربط العلم
بالغاية منه ويؤتي ثماره لا بد من تحقيق القاعدة الثانية.

ثانياً: قاعدة ربط العلم بروحه وحقيقته:

إن غاية العلم وهي الخشية لا تتحقق إلا بربطه بروحه وهي معانيه وأسراره ومقاصده
وروحانيته، يقول الإمام مالك رحمه الله تعالى "إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله

^١ الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٣١٦.

^٢ عمار الطالبي: ابن باديس: حياته وآثاره، ط ٢، ١٤٠٣هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج ١، ص ١٠٨.

^٣ أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي: مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، ت: طلعت فؤاد
الحلواني، ط ٢، ١٤٢٥هـ، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ج ٣، ص ٢٠.

^٤ ابن رجب، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠.

^٥ الشاطبي، الاعتصام، ج ٢، ص ٥٨٤-٥٨٥.

في القلب، قال أحمد بن صالح المصري معناه: أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية، وأما العلم الذي فرض الله عز وجل أن يُتَّبَع فإنما هو الكتاب والسنة وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من أئمة المسلمين، فهذا لا يدرك إلا بالرواية، ويكون تأويل قوله (نور) يريد به فهم العلم، ومعرفة معانيه^١.

والعلم بلا روح يموت كما يموت الجسد إذا فقد الروح، أما إذا بُني العلم بروحه فإنها تُشرق النفوس، وتفتح المدارك، وتصفو الأفهام، وتصدق النوايا، وتُنار العقول بنور الفقه والفهم، والقلوب بنور الإيمان واليقين، ويُورث ذلك العلم عملاً مثمراً صادقاً مخلصاً يجمع ولا يفرق، ويُصلح ولا يُفسد، ويبني ولا يهدم؛ لأنه ارتبط بحقيقة العلم الذي يقول الله عنه ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٤٣)، وهم علماء العقول والقلوب، وهذا الذي نال به أبو بكر رضي الله عنه السبق على الأمة، وليس بكثرة الصلاة والصيام، وإنما بما قر في قلبه من إيمانٍ ومحبة، وتعظيمٍ وإجلالٍ لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فكان رضي الله عنه صاحب الإيمان الصادق، واليقين الخالص؛ لأنه رضي الله عنه بعلمه وفقهه اتجه إلى إصلاح القوة العلمية الإدراكية في قلبه، وغذاها به.

وعلى هذا العلم وهذه الروح ربى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الجيل الفريد من الصحابة الكرام الذين استقوا العلم بروحه فأثروا فكراً متجدداً، وإيماناً صادقاً، وعملاً مخلصاً، وأعلنوا الثورة على العصبية والآبائية، والتقليد والجمود، والهوى والشهوة، يقول الكيلاني^٢ في إظهار الفرق بين الإيمان اليقيني الذي هو نابغ من علم الدين وروحه الحقيقية، والعصبية الدينية التي هي نابغة من علم الدين وروح الأنا والأنانية، وهذه الفروق في حقيقتها مظاهر وثمار ونتائج كل منهما، وهي:

أ- يقوم الإيمان اليقيني على البراهين والشواهد التي تقدمها الآفاق والأنفس بتوجيه آيات الكتاب. أما العصبية الدينية فهي كالعصبية القبلية حمية وتناصر انفعالي أو تصارع عاطفي يقومان على وراثته الكتاب وتقليد فهم الآباء دون شواهد ولا براهين.

ب- الإيمان اليقيني يفرز التركيز على العلم والعمل. أما العصبية الدينية فتفرز التركيز على التقليد والأشكال.

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٥٦١.

^٢ ماجد عرسان الكيلاني: مناهج التربية الإسلامية، والمربون العاملون فيها، ١٤١٦هـ، عالم الكتب، بيروت، ص ١١٢.

ت- الإيمان اليقيني بفرز الطمأنينة والشجاعة أمام الأقوياء والشفقة والتواضع مع الضعفاء، ويوجه للإنشغال بمشكلات الحاضر وتحديات المستقبل. أما العصبية الدينية فتفرز التوتر والجبين أمام الأقوياء والإنشغال بتصيد أخطاء الضحايا والضعفاء، وافتعال معارك الفخر والهجاء نحو الأسلاف ومنجزات الماضي.

ث- الإيمان اليقيني يعزز روح الدين ورسائله الإصلاحية بين الناس كلهم. أما العصبية الدينية فتفرز تديناً مصنوعاً انتهازياً يناصر البغي ويرفع مصحف صفين ويفتعل المعارك مع المخلصين.

ج- الإيمان اليقيني يرتقي بالفكر ويعمق الثقة بالنفس ويدفع للتفاعل مع الآخرين والانفتاح على خبراتهم أنى كانت. أما العصبية الدينية فتفرز الجمود والانغلاق وتشيع الريبة والشك وتنتشر التقليد والامية الفكرية.

ح- الإيمان اليقيني يقود إلى الصواب والإخلاص والحكمة. أما العصبية الدينية فتفرز الحماسة وتنتهي بأصحابها إلى الخطأ والفسل.

خ- الإيمان اليقيني يدفع المؤمن للمرابطة على ثغور المعرفة بغية توسيع (دار العلم الإسلامي). أما العصبية الدينية فتغلق باب الاجتهاد وترتد إلى تراث الماضي لتقييم لأعلامه نصباً فكرية وتماثيل شعرية وتمايم مديح تملأ الملخصات والشروحات.

وللأسف فإن واقع بعض علماء الأمة وقع ضحية هذا الفصل المميت مع ما قدموه من علوم جليلة وخدمة عظيمة إلا أنهم أضعفوا العلم في نفوس الناس بسبب عدم ربطه بروحه وحقيقته التي تُفعّل وتوظفه في مساره الذي رُسم من أجله، وتحقق أهدافه التي قام عليها، وهو السبب الذي جعل "العصور المتأخرة بعدت بعداً كبيراً عن روح الإسلام، واهتمت بالجسم والمادة حتى أصبحت الدراسات الإسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح، وجرت عدوى هذه الدراسات إلى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التي كان يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها..."¹.

والأمثلة على الفصل بين العلم وروحه لا حصر لها، ذكر بعضاً منها الدكتور أحمد شلبي في كتابه المجتمع الإسلامي، وأورد في ذلك فصل الفقهاء بين العبادات وحقيقتها، وضرب أمثلة لعدة عبادات منها الصلاة التي هي علاقة ورباطٌ روحي بين العبد وربّه، وهي الخلاص والمنجى للعبد من مشكلات الحياة وتعقيداتها وأحداثها، وهي المحطة للتزود بالطمأنينة والهدوء والسكينة، وهي العلاقة التي تربط المسلمين في صفٍ واحد برباط الأخوة والتراحم والمحبة باختلاف المذاهب أو التوجهات، يقول

¹ أحمد شلبي: المجتمع الإسلامي، ط ٩، ٢٠٠٠م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص ٢٤٩.

"و كثيرٌ من الفقهاء كانوا على صلة بالخلفاء وهم يعرفون آداب الدخول على الخليفة والمثول بين يديه والحديث في حضرته، وقد صور بعضهم هذه الآداب أروع تصوير... وهكذا عرف العلماء والفقهاء هذا الأدب واتبعوه وأوصوا به ليكون سلوك من يجلس في حضرة الخليفة... فماذا دونوا لمن يكون في حضرة الإله؟

الحقيقة أنهم لم يدونوا شيئاً من هذا القبيل^١، وكان كل اهتمامهم أو جلته متجهاً اتجاهاً مادياً جافاً، جعل من الصلاة عملية أوتوماتيكية، كأنما تقوم بها ماكينة لا قلب لها ولا إحساس، وجعل من الوضوء والتيمم وسيلة لدخول الصلاة، أما ما في الصلاة من تفرغ إلى الله لحظات، وما فيها من آداب اجتماعية رائعة، وما في الوضوء واللبس من إعداد الشخص للمثول في حضرة العلي العظيم، فلم ينل من عناية الفقهاء اهتماماً ذا بال، وحتى كلمة (الخشوع) التي قفزت إلى اصطلاحات الفقهاء خرجوا بها عن معناها، وفسروها على مقتضى اتجاههم بالتأني في السجود أو الركوع، دون أن يوردوا أهم معاني هذه الكلمة من الخشوع والتفكير في الله والإجلال لذاته^٢، وبذلك أنعدمت ثمرة الصلاة في سلوك الأفراد^٣ التي وصفها الله تعالى بقوله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٤٥).

^١ هذا التعميم ليس على إطلاقه فهناك من كتب من علماء الأمة في أعمال القلوب وغاص في دقائق المعاني لبعض العبادات كالإمام الشافعي والإمام أحمد وابن تيمية وتلميذه ابن القيم وأبو حامد الغزالي والإمام الشاطبي وابن أبي الدنيا وابن الجوزي وغيرهم الكثير رحمة الله على الجميع، ولكنهم في تعداد علماء الأمة قليل، وكلٌ منهم تبحر وتوسع في علمه وتخصصه.

^٢ شلبي، المجتمع الإسلامي، ص ٢٥٣-٢٥٤.

^٣ لا شك أن الصلاة باب كل خير، ومفتاح كل برّ ذلك لأن فيها أعظم عمل وهو السجود لله تبارك وتعالى الذي يقول عنه صلى الله عليه وسلم «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (٤٨٢). والسجود لله تعالى يورث القلب تواضعاً لله تعالى وللحق وللخلق، والنفس قوة وعزيمة وثباتاً، والروح سعادة وابتهاجاً وأنساً، والسلوك عملاً خالصاً صالحاً، ولا أدلّ على ذلك من موقف سحرة فرعون حين قالوا قبل السجود لله تعالى ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ﴾ (سورة الشعراء، آية: ٤٤)، ثم جاءهم النور الإلهي ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ﴾ (سورة الشعراء، آية: ٤٦)، فكان موقفهم بعد أن ذاقوا حلاوة السجود لله رب العالمين ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إِنَّا أُمَّتًا بَرِّبْنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (سورة طه، آية: ٧٢-٧٣)، وهكذا يعمل السجود لله تعالى في نفوس المؤمنين يُغيّر أحوالهم إلى خير حال إذا فقهوا معنى الصلاة والسجود الحقيقي.

ومن العبادات التي فقدت روحها وحيويتها، عبادة الزكاة التي نفعها متعددي لكافة أفراد المجتمع، والتي هي التشريع الرباني لتحقيق التكافل والتراحم بين أبناء المجتمع، وأبرز الفصل فيها آثاراً واضحةً جليلة في واقع الأمة من كثرة الأغنياء والأموال وكثرة الفقراء والمحتاجين من جهة أخرى، وانعدام أثر الزكاة في رفع الفقر عن الفقراء، وأصبح العلم بها وبأحكامها أرقاماً ونسباً وأنصبه توصل في النفوس الشُّح والحساب المادي، وتجعل العمل بها بخلاً في العطاء لا يفي بحاجات الفقراء، ولا يرفع عنهم ذل الفقر. بمشاريع تنموية تحقق الهدف والمقصد الأعلى من الزكاة، وهو نقل الفقراء من متقبلين للزكاة إلى باذلين لها، ومن سلبيين عاطلين إلى إيجابيين فاعلين، كما قيل في الحكمة "لا تعطيني سمكة ولكن علمني كيف أصطاد سمكاً"، وبذلك تقل طبقة الفقراء في المجتمع عاماً بعد عام، وتزيد طبقة الأغنياء حتى يصل المجتمع إلى الكفاية والرخاء والاستقرار، والألفة والاجتماع، والمصيبة الأكبر حين يكون العمل بها احتيالياً وتفلتاً، فيُحرم الفقير من حقه بتأويلات وتبريرات من أعمى الطمع والجشع قلبه، وكل ذلك ناتج عن الغفلة عن معاني الزكاة الحقيقية، الزكاة التي تُزكي القلب والنفوس والمال والأبناء والأهل والعمر والحياة، الزكاة التي هي صفقة عقد مع الله تعالى القائل جل في علاه ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سورة سبأ، آية: ٣٩)، الزكاة التي ينال بها العبد رحمة الله في الدنيا بصرف البلايا والفتن والأمراض والآفات والمصائب، وفي الآخرة بالوقاية من النار ودخول الجنة، كما قال تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ٧١)، كل تلك المعاني وغيرها الكثير في نصوص الكتاب والسنة التي تجعل النفوس مقبلة على أدائها بمحبة وإخلاصٍ ويقينٍ ورغبة. يقول ابن القيم رحمه الله عن حقيقة العبودية "الله على العبد عبوديتين عبودية باطنة وعبودية ظاهرة، فله على قلبه عبودية، وعلى لسانه وجوارحه عبودية، فقيامه بسورة العبودية الظاهر مع تعريه عن حقيقة العبودية الباطنة مما لا يقربه إلى ربه، ولا يوجب له الثواب وقبول عمله، فإن المقصود امتحان القلوب وابتلاء السرائر، فعمل القلب هو روح العبودية ولبها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح" ، ويقول ابن الجوزي رحمه الله في نقد الفقهاء وكيفية تلبس إبليس عليهم في باب العلم "أهم جعلوا النظر جلَّ اشتغالهم ولم يمزجوه بما يرقق القلوب من قراءة القرآن وسماع الحديث وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعلوم أن القلوب لا تخشع بتكرار إزالة

^١ محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: بدائع الفوائد، ت: هشام عطا وعادل العدوي وأشرف أحمد، ١٤١٦هـ، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ج ٣، ص ١٩٢.

النجاسة والماء المتغير، وهي محتاجة إلى التذكار والمواظب لتنهض لطلب الآخرة، ومسائل الخلاف وإن كانت من علم الشرع إلا أنها لا تنهض بكل المطلوب"^١.

وما أجمل ما قاله الإمام الشافعي رحمه الله الرائد في علمه وفقهه وروحانياته، والذي أراد به الجمع بين فقه وعلم الفقهاء، وروحانية ومعاني الصوفية إذ يقول:

فقيهاً وصوفياً فكن ليس واحداً فإنني وحق الله إياك أنصح
فذلك قاسٍ لم يذق قلبه تقياً وهذا جهولٌ كيف ذو الجهل يصلح^٢

هذا الفصل على مستوى الفقهاء وفي باب العبادات فكيف بالعلوم الأخرى، وكيف بأعظم العلوم وهو كتاب الله تبارك وتعالى الذي اعتنى به العلماء عناية فائقة من حيث تفسير كلماته وشرح آياته وسرد قصصه ونقل المرويات والآثار، ولكن أين غابت روحه؟ وكيف ضاع جماله؟ ولماذا فقدت لذة تلاوته وسماعه؟ وكيف ضعُف تأثيره في النفوس والواقع؟ الجواب لأن علماء التفسير رحمهم الله إلا من رحم الله^٣ "أهملوا إبراز جمال القرآن في أسلوبه ومعانيه، وما يدعوا له من خلقٍ وبرٍ وعملٍ صالح، وأحالوا الروح المتدفقة والمعنى الخلاب والأسلوب المعجز إلى قواعد نحوية ودراسات

^١ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ت: السيد الجميلي، ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ١٤٦.

^٢ محمد بن إدريس الشافعي: ديوان الإمام الشافعي، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، ط ٣، ١٤٢٦هـ، دار المعرفة، بيروت، قافية الحاء، ص ٤٢، نقلاً عن الجوهر النفيس من أشعار محمد بن إدريس، ص ١٤.

^٣ وممن اعتمد في تفسيره على منهج البيان الوعظي الذي يؤثر في النفوس ويهز المشاعر مدرسة المفسرين الكوفيين وإمامهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وتلاميذه أمثال الحسن البصري وعلقمة النخعي وعامر الشعبي... وغيرهم رحمة الله على الجميع، ومن كتب التفسير التي اهتمت بهذا الجانب: (مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير) للفخر الرازي رحمه الله، الذي أشار إلى المعاني والأسرار القرآنية، وتفسير (في ظلال القرآن) لسيد قطب رحمه الله الذي أبرز المعاني القرآنية والجمال الرباني في صورة أدبية حية مشاهددة، مع ما وقع فيه من أخطاء في العقيدة والحديث والتفسير، وقد بين هذه الأخطاء لتفسير الظلال الشيخ الدويش في كتابه "المورد العذب الزلال في أخطاء الظلال"، وهذا منهجٌ إسلاميٌ علمي، أن كلُّ يؤخذ من قوله ويُرد إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم، أما غيره فيُعرض كلامه على الكتاب والسنة فما وافق أخذ به، وما خالف تُرك، وهو معنيٌّ من معاني الاعتصام بالكتاب والسنة في موضوع البحث والدراسة.

بلاغية وفقهية"١، وكان الأخرى بعلماء التفسير رحمهم الله مع ما قدموه من شرح وتوضيح واستنباطاتٍ فقهية ونحوية وبلاغية أن يُلبسوا ذلك بلباس التقوى ومعرفة المنزّل قبل التنزيل، وذلك بإبراز المقاصد الربانية سواءً في الأحكام أو القصص أو غيرها من علوم القرآن ليكون التأثير في النفوس أكبر ويكون العمل بها عن صدقٍ ويقينٍ ومحبةٍ وخشية٢، وذلك بربطها بمصدر القوة والتأثير، ومثال ذلك في آيات الطلاق والتعامل مع المرأة المطلقة نجد أن الله تعالى دائماً يهتم الآيات بالحث على تقوى الله، وأنه سبحانه بصيرٌ وعلِيمٌ وخبيرٌ، كل ذلك حتى يأخذ المسلم الحكم بخشيةٍ لله فيثمر عملاً به صادقاً رحيماً محسناً كما قال تعالى ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٢٩)، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٣٧)، وقوله تعالى ﴿أَسْكِنُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُمْ وَلَا لَحْمٌ لَّهُمْ إِن كُنْ أُولَئِكَ حَمَلٌ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ يُبْنِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُم فَاسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى﴾ (سورة الطلاق، آية: ٦)، أما إذا غابت هذه المعاني، وأصبح أخذ الأحكام مجرداً فإنه يُثمر عملاً انتقامياً من الرجل، واستغلالاً للتشريع الرباني من ولايةٍ وقوامةٍ لإذلال وإهانة المرأة، وسلبها حقوقها وإنسانيتها، وربما في بعض الأحوال للضغط عليها لتتنازل عن حقوقها أو شروطها في العقد مقابل رؤية الأبناء أو الطلاق، وهذا الأمر مشاهدٌ في بعض الحالات في المحاكم ولجان الصلح، وهو الأمر الذي يسبب الاختلاف والتفرق على نطاق الأسرة فكيف غيرها من الأحكام التي يكون المقصد الرباني فيها صلاح ومصالح المجتمع أو البشرية؟

وأما في باب التوحيد هذا الباب الذي تسبب الاختلال في فهمه إلى تفريق الأمة الإسلامية إلى جماعات وطوائف كلٌّ منها يدعي الدفاع عن جناب التوحيد ويكيل لخصمه تهم الابتداع والكفر، وما ذاك إلا لعدم الفهم الحقيقي، والتصور الصحيح لمفهوم التوحيد، ذلك المعنى الذي يمتلئ به القلب

١ شلبي، المجتمع الإسلامي، ص ٢٦٣. وهذا دليلٌ على أن كتاب الله معينٌ لا ينضب وأن كلُّ يأخذ منه حسب تخصصه وعلمه وفهمه، فهو معجزة الله الخالدة إلى قيام الساعة، ولكن الخلل هو في عدم ربط تلك المعاني والاستنباطات بالمقصد الرباني من الإعجاز والبلاغة والتشريع القرآني.

٢ من الأمثلة التربوية الإيمانية في كلام الله تعالى ما جاء في توجيهه الله لموسى عليه السلام في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا آتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى إِنَّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (سورة طه، الآيات: ١١-١٤)، ففي هذه الآيات توجيهٌ تربوي في الأخذ والتلقي عن الله تعالى بتقديم أدب المكان بخلع النعلين، وأدب الحديث الاستماع قبل التوجيه والأمر بالتوحيد والصلاة لتهيئة القلوب بالتعظيم قبل الأخذ أو الفعل.

حبةً وخشياً، ورغبةً ورهبةً، وهو "أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط وأن يعبد عبادته يفرد بها فلا يعبد غيره... فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصديقين، فانظر إلى ماذا حوّل وبأي قشر قُنع به، وكيف اتخذوا هذا معتصماً في التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي، وذلك كإفلاس من يصيح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ (سورة الأنعام، آية: ٧٩)، وهو أول كذب يفتح الله به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجهاً إلى الله تعالى على الخصوص: فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلّا إلى الكعبة وما صرفه إلّا عن سائر الجهات، والكعبة ليست جهة للذي فطر السموات والأرض حتى يكون المتوجه إليها متوجهاً إليه، تعالى عن أن تحده الجهات والأقطار. وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب المتعبد به فكيف يصدق في قوله وقلبه متردد في أوطاره وحاجاته الدنيوية ومتصرف في طلب الحيل في جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب، ومتوجهة بالكلية إليها فمتى وجهه وجهه للذي فطر السموات والأرض وهذه الكلمة خير عن حقيقة التوحيد فالموحد هو الذي لا يرى إلا الواحد ولا يوجه وجهه إلّا إليه، وهو امتثال قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرَهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (سورة الأنعام، آية: ٩١)، وليس المراد به القول باللسان، وإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى، وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب وهو معدن التوحيد ومنبعه".^١

وحقيقة التوحيد هي معرفة الله تعالى المعرفة القلبية التي ينشأ عنها التحقق في القلوب، والتعلق به سبحانه وتعالى، والتخلق بمعاني تلك المعرفة واقعاً وسلوكاً، ولذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^٢، فكيف تتحقق مقاصدها في القلوب، ويتعلق بها ويتخلق بها من كان همها حفظها مجرداً دون فهم ومعرفة لمعانيها، أو من كان علمه بما بمسائل خلافية، ونقاشات كلامية، بعيدة عن الروح والمضمون، والتي هي في حقيقتها أبواباً وطرقاً إلى الله تعالى تورث في القلوب معاني القرب والأنس والسعادة والعلم والغنى والفرج والنصر، وتورث الجوارح معاني التفرّد في العمل والبذل والتضحية.

ومثله دراسة السيرة النبوية حينما تكون دراسة جافة، أو جزئية تُركز على الغزوات والأحداث المجردة عن واقع العهد النبوي، والمعاني الإيمانية، والفضائل الأخلاقية، والحياة الاجتماعية، وعرض

^١ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٣٨-٣٩.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحد، حديث رقم (٧٣٩٢)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، حديث رقم (٢٦٧٧).

السيرة النبوية بأسلوبٍ تاريخي، أو أسلوبٍ إعجازي، والغفلة عن دراسة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كإنسان تختلف عليه مشاعر الفرح والحزن، والرضى والغضب، والحب والبغض، وتعدد عليه المواقف والأحداث المختلفة، وكيف كان يتعامل معها بإيمانٍ وصبرٍ ويقين، وفقهٍ وفهمٍ ومراعاةٍ للواقع، فتحدث تلك الدراسة محبةً في النفوس، وتشوقاً في القلوب، وتعلقاً بالمنهج، وتخلقاً بالهدي النبوي الكريم، ويعي القلب معنى قوله عليه الصلاة والسلام «مَنْ أَشَدَّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»^١.

وهذا الخلل في قاعدة البناء العلمي أفرز ضعفاً في قلوب حملة العلم فضلاً عن العامة، وأصبح العلم سلعة وتجارة تُباع وتُشترى بحسب النزعات والأهواء، ويُسيّر ويُوَجَّه بحسب الأطماع والشهوات، ويورث ويُخصص لبعض الأشخاص والفتيات، وظهر التعالم والتجاسر على الفتيا، والتعصب للمذهب والأشياخ، وأصل فنُّ الجدل والمراء، وبرز الاهتمام بالردود وإصدار الأحكام وتتبع الزلات والعثرات، واتجه العلم نحو الاختلاف وقاد للفرق والهدم والفتن، وصدق صلى الله عليه وسلم حيث يقول «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَّتْهُمُ الْأَسْنَانُ، سَفِهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ... الحديث»^٢، وصار العلم بهذه الصورة وسيلة وطريق كل من أراد إرضاء الأنا وإشباع الذات بإسماعها رجوع صدى صوتها والترنم بتحذلق ألفاظها بغض النظر عن المقاصد الدينية والمصالح الدنيوية، يقول الدكتور علي بن بجيت "فإنه مما لا شك فيه أن هذا الجفاف الذي أصاب مناهج التعليم من حيث الاهتمام بالجسم والمادة دون الروح والمعنى كان من الأسباب التي ساعدت على تفلت المسلمين من أحكام الدين والعبادات على مر القرون، فكم نرى من الفقهاء بل ربما من المفتين الذين لم يراعوا الله حرمة، ولم يراعوا ما تعلموه من تلك الدراسات الجافة، فكيف بمن سواهم من التلاميذ فضلاً عن العامة"^٣، وهذا الأمر واضحٌ في الأمة فإن مخرجات التعليم تُظهر مدى التفلت الديني والأخلاقي.

^١ أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فيمن يود رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بأهله وماله، حديث رقم (٢٨٣٢).

^٢ أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٦١١). ومسلم، كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج، حديث رقم (١٠٦٦).

^٣ علي بن بجيت الزهراني: الانحرافات العقيدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة، ط٢، ١٤١٨هـ، دار طيبة، مكة المكرمة، ج٢، ص٤٨.

أما سبب ظهور هذا النوع من المتعلمين أو المتلبسين برداء العلم فلا شك أنه الفصل بين العلم وروحه التربوية المزكية للنفوس، والتي كانت منهجاً للنبي صلى الله عليه وسلم في تربيته للناس ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة الجمعة، آية: ٢)، فكان الاهتمام النبوي بالتركية قبل العلم، يقول ابن عمر رضي الله عنهما «لَقَدْ عَشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَإِنَّ أَحَدَنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا، وَحَرَامَهَا، وَأَمْرَهَا، وَزَجْرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ فِيهَا كَمَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ الْقُرْآنَ، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَجْرُهُ وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ يَنْشُرُهُ نَشْرَ الدَّقْلِ»^١.

وهذا الفصل أو الفصام سببه في عصرنا أسوأ من ذلك كما يقول الحميدي "ولقد تعرضت علوم الدين بعد ذلك للجفاف حينما استخلصت من الكتاب والسنة وطراً عليها الاختصار، فجرد بعضها من الأدلة، واختلط في بعضها ما ليس منها.

ومن ذلك مباحث العقيدة التي تعرضت للمباحث العقلية وقلَّ فيها الاستشهاد بالكتاب والسنة في بعض الكتب فلم يكن لها تأثير في تنمية الوازع وتقوية الإيمان... وفي القضايا العملية تم تجريد الفقه أيضاً من الكتاب والسنة في كثير من المسائل، وكثرت المختصرات التي تُبَيِّنُ فيها الأحكام على شكل مسائل مجردة من الأدلة، وكان غرض الفقهاء من ذلك تقريب الفقه لطلاب العلم، ولكن نتج عن ذلك ضعف في الالتزام بالدين لأن قول الفقيه: هذا حلال، وهذا حرام، وهذا واجب، وهذا مكروه، وهذا مستحب، لا يصل إلى مستوى عرض نصوص الكتاب والسنة في تنمية الوازع الديني وتقوية الإيمان، فحصل بسبب هذا التجريد نوع من قساوة القلوب وقلة الورع"^٢، وليت الأمر يقتصر على ذلك في التعليم وبيان العلم بل تجاوز إلى الاهتمام بالمتون وأقوال العلماء وتقديمها في الحفظ والفهم والتفسير على نصوص الكتاب والسنة، ويهتم بالألفاظ والمباني على حساب المقاصد والمعاني، ويُنزل ويُطبق ما تعلمه على كل حال وفي كل واقعة بدون فهمٍ للدلالة أو التطبيق، أو مراعاةٍ للمصالح والمفاسد، أو فقهٍ للمآلات والمقاصد، أو وعيٍ للواقع والمستجدات، كل ذلك سببه "المغالاة في الاهتمام بكتب الفقه إلى حد أن بعض العلماء يكلفون تلاميذهم بحفظ متون تخلو غالباً من الأدلة، بينما لا يكلفونهم

^١ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان، حديث رقم (١٠١). قال الذهبي: حديث صحيح على شرط الشيخين ولا علة له.

^٢ عبد العزيز بن عبد الله الحميدي: الرسائل الشمولية، (د.ت)، دار عيون المعرفة، مكة المكرمة، ١٠٨-١٠٩.

بِحفظ الأدلة من الكتاب والسنة، كما أن بعض العلماء الذين استدلوا بآيات الأحكام يذكرون صدر الآية المشتمل على بيان الحكم ويتركون آخرها الذي يحتوي على التبشير والإنذار، والوعد والوعيد، وذكر صفات الله تعالى، مما يدل على إغفال الناحية التربوية لدى هؤلاء العلماء وغلبة الناحية الفقهية على أذهانهم، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم وتلاميذهم يربون الناس على الورع والتقوى قبل أن يعلموهم الأحكام، فلما ضعفت نظرة العلماء إلى هذه المعاني السامية نتج عن ذلك انخفاض في مستوى الاستقامة والوازع الديني.

ومن سلبيات هذا المنهج فهم الإسلام من خلال اجتهادات العلماء لا من خلال النصوص الشرعية، كما أن من سلبياته ضعف الاجتهاد وغلبة التقليد بسبب البعد عن فهم النصوص^١.

يقول العلامة محمد رشيد رضا "لم يُقصر المصنّفون من المتقدمين في شيءٍ من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم! والجمع بين النصوص التي وردت في ذلك، والحث على الاعتبار بها!

ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام، وقواعد الكلام، لأفادوا الأمة بما يحفظ دينها ودنياها، وهو ما لا يغني فيه التوسع في دقائق مسائل النجاسة، والطهارة، والسلم، والإجارة، فإن العلم بسنن الله تعالى في عباده لا يعلوه إلا العلم بالله تعالى، وصفاته، وأفعاله بل هو منه، أو من طريقه ووسائله^٢.

وهذا العلم هو المطلوب، الذي يتجه إلى القلوب بالتربية والتزكية قبل الجوارح والسلوك، وهو الذي يُعرّف للإنسان المُشرّع قبل الشرع، والامر قبل الأمر، فيُعزّي قوة الإدراك في القلب على مستوى المفاهيم تصحيحاً واعتدالاً وتوسطاً، وعلى مستوى القبول والإذعان بحجة وانقياد لأوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم، فتتجه قوة الإرادة والعمل إلى كل خيرٍ ونفعٍ وصلاحٍ واجتماعٍ وألفةٍ، فالواجب أن تُوجه مناهج التعليم الشرعي إلى الاهتمام بهذا الجانب التربوي في صياغتها وطريقة عرضها، "لأن الدين هو الشيء الوحيد الذي لا تغني فيه المعرفة النظرية عن التطبيق العملي.. فنحن قد نمد الطالب بما يُمكنه من البحث والدرس والتغلب على مصاعب الامتحان، ولكننا لا نستطيع أن نشق به الطريق إلى قلبه، لنجعله عنصراً من تركيبه الطبيعي، على الوجه الذي يحقق انفعاله به وتذوقه لمعانيه.. ما دمنا واقفين به عند حدود العمل الذهني الصرف.

ولعل قصور الكثيرين عن الإحاطة بهذه الحقيقة هو الذي يقيم الحواجز بين عملهم بالدين، كموضوع ثقافي، وبين إحساسهم به كطاقة تملأ الكيان كله بإشعاع يضيء ظلمات الجهول... وبديهي أن في

^١ الحميدي، الرسائل الشمولية، ص ١٠٩-١١٠.

^٢ نقلاً عن محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص ١٣-١٤.

هذه الحقيقة ما يجعلنا نؤمن أن (التربية الدينية) ليست تعليماً يستهدف حشو الآذان بطائفة من المفاهيم الفلسفية، ولكنها قبل ذلك ومع ذلك تدريب روحي على تحقيق هذه المفاهيم، يجعل الطالب قادراً على ترجمتها إلى سلوك متطور.. وإلا كان كالمريض الذي يدرس وصفة طبيبه حتى يستظهر حروفها، ولكنه لا يفكر بتنفيذها عملياً في معالجة دائه! _على تعبير العلامة المودودي"¹.

إن تذوق حلاوة العلم، والحياة بروحه وأخلاقه يُكسب الفرد حساً أخلاقياً وأديباً لا نظير له "فقد أبرز الإحساس الأدبي نفسه في جميع الأحقاب، وظهرت أهميته الجوهرية منذ فجر تاريخ البشرية. وهو مرتبطٌ بالإحساس العقلي والديني والشعور بالجمال.. إنه يحملنا على التفريق بين الصواب والخطأ واختيار الصواب بالترفضيل عن الخطأ.. والإرادة والعقل وظيفة واحدة من المخلوقات عالية التمدين، ومن الإرادة والعقل تأتي جميع القيم الأدبية... إن العقل وقوة الإرادة والأخلاق ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً، بيد أن الإحساس الأدبي أهم بكثير من العقل، وحينما يُفقد هذا الإحساس من أحد الشعوب فإن كيانه الاجتماعي كله يبدأ في الانهيار البطيء"².

وقف النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم عند الكعبة وأخذ يقرأ المعين الروحي، والجمال الأدبي الرباني قوله تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (سورة النجم، آية: ١) رافعاً بها صوته وسط كفار قريش فلما تابعت الآيات في آذانهم، وتوالت البيئات على قلوبهم، وسرت روحه وجماله في أعماق نفوسهم، انظروا ساجدين لرب العالمين حين وصل عليه الصلاة والسلام عند قوله تعالى ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (سورة النجم، آية: ٦٢)، قال ابن عباس رضي الله عنهما «فَسَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهُوَ أُمِّيَّةُ بْنُ خَلْفٍ»³، وفي رواية «وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ»⁴ بهذه القوة! وبهذا التأثير! يصل نور العلم الرباني إلى البشرية إذا توجه إليهم بروحه وحقيقته، فإنه يسري في أعماقهم سريان الماء البارد العذب في فم العطش المنقطع.

ولقد نبّه أبو حامد الغزالي إلى هذا المعنى في كتاب العلم بقوله "وأما القسم الحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة

¹ محمد المجذوب: مشكلات الجيل في ضوء الإسلام، ط ٥، ١٤١٣ هـ، دار الشواف، الرياض، ص ٢٦٩-٢٧٠.

² ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، ص ١٤٠-١٤٢.

³ أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى (فاسجدوا لله واعبدوا)، حديث رقم (٤٨٦٣).

⁴ أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى (فاسجدوا لله واعبدوا)، حديث رقم (٤٨٦٢).

على الدنيا، فإن هذا علمٌ مطلوبٌ لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة" ^١، وهذا العلم هو الذي تقدّم وتفضّل به الصحابة رضوان الله عليهم على غيرهم "حتى أنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله: لقد مات تسعة أعشار العلم" ^٢، وبهذا العلم سيطرت روح الإسلام بتشريعاته على المجتمع الإسلامي الأول، وظهرت آثاره في الأخلاق والسلوك، جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "أهدي لرجلٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا، قال: فبعث إليه فلم يزل يبعث به واحداً إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول، فنزلت ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (سورة الحشر، آية: ٩) إلى آخر الآية" ^٣، ولن يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها، فلا صلاح ولا هداية، ولا تربية ولا عمل مثمر إلا على علمٍ قائم على العقل والصحة والروحانية، علم يخاطب العقل، ويناجي القلب لتظهر بركته على الأفكار والسلوك، وعلى الأفراد والمجتمع، وما أبلغ القائل:

إذا الورود خلت من طيب نفحتها	فلا تراحم بها في الأرض بستانا
إذا الوجوه خلت من نور سجدتها	لم تستحق غداة الموت أكفانا
إذا القلوب خلت من ذكر خالقها	فهي الصخور التي تحتل أبدانا
إذا خلا المرء من فهمٍ ومعرفةٍ	ظلمت نفسك لو تدعوه إنساناً ^٤

ثالثاً: قاعدة ربط العلم بالعمل:

العلم أساس العمل، فلا بد للإنسان قبل العمل أن يتعلم حتى يكون عمله صحيحاً شرعاً وعقلاً وإلا عدّ من أهل الطيش والجهل، وقد بوّأ الإمام البخاري في كتاب العلم بقوله (باب العلم قبل القول والعمل) واستدل بالآية الكريمة ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (سورة محمد، آية: ١٩)، وأورد جملة من

^١ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٤٣.

^٢ أبو حامد الغزالي، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٨.

^٣ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، سورة الحشر، حديث رقم (٣٧٩٩). قال هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: عبيد الله بن الوليد ضعفوه.

^٤ نقلاً عن العفاني، رائق الشهد من شعر الدعوة والرفائق والزهد (مع الله)، ص ٥٨-٥٩.

الآيات والأحاديث والآثار في أهمية العلم وفضله، ومن ذلك قول ابن عباس رضي الله عنه "كونوا ربانيين^١، حكماء فقهاء ويقال الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره"^٢.

والدافع الحقيقي الذي يوجه العلم نحو العمل الصالح المثمر النافع هو تفعيل روح العلم ولا يكون ذلك إلا بتفعيل الإيمان اليقيني الذي أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بطلبه، بل وجعله من أفضل وأشرف العطايا الربانية للعبد يقول عليه الصلاة والسلام «سلوا الله العفو والعافية واليقين في الأولى والآخرة فإنه ما أوتي العبد بعد اليقين خيراً من العافية»^٣، "فإن اليقين هو رأس مال الدين... وفي وصية لقمان لابنه: يا بني لا يُستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عاملٌ حتى ينقص يقينه"^٤، ولذلك أمر الله بني إسرائيل بالإيمان ليكون دافعاً لهم نحو العمل بقوله تعالى ﴿وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (سورة البقرة، آية: ٤١)، يقول صاحب الظلال "ومع أن هذا النص القرآني كان يواجه ابتداءً حالة واقعة من بني إسرائيل، فإنه في إيجائه للنفس البشرية، ولرجال الدين بصفة خاصة، دائم لا يخص قوماً دون قوم ولا يعني جيلاً دون جيل.

إن آفة رجال الدين - حين يصبح الدين حرفةً وصناعةً لا عقيدةً حارة دافعة - أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، يأمرون بالخير ولا يفعلونه، ويدعون إلى البر ويهملون، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويؤولون النصوص القاطعة خدمةً للغرض والهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان كما كان يفعل أحرار يهود!

^١ قال ابن حجر: "وقال الأصمعي والإسماعيلي الرباني نسبة إلى الرب أي الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل، وقال ثعلب قيل للعلماء ربانيون لأنهم يربون العلم أي يقومون به وزيدت الألف والنون للمبالغة. والحاصل أنه اختلف في هذه النسبة هل هي إلى الرب أو إلى التربية، والتربية على هذا للعلم، وعلى ما حكاه البخاري لتعلمه والمراد بصغار العلم ما وضح من مسأله وبكباره ما دق منها. وقيل يعلمهم جزئياته قبل كاياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده. وقال ابن الأعرابي: لا يقال للعالم رباني حتى يكون عالماً معلماً عاملاً".

ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ٢١٤.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٢.

^٣ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الدعاء والتكبير والتهيل والتسبيح والذكر، حديث رقم (١٩٣٨). قال

الذهبي: حديث صحيح الإسناد.

^٤ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٧٢.

والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم ولكن في الدعوات ذاتها، وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم، لأنهم يسمعون قولاً جميلاً، ويشهدون فعلاً قبيحاً، فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل، وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة، وينطفئ في قلوبهم النور الذي يشع الإيمان، ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين.

إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها، ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعياً لما ينطق.. عندئذ يؤمن الناس، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق.. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها، وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها.. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة، لأنها منبثقة من حياة" ^١.

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم ربى أصحابه على العلم واليقين الذي قادهم إلى العمل والبناء، إيماناً وتصديقاً بموعود الله للعامل في الدنيا والآخرة القائل سبحانه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الزمر، آية: ٩)، قال الشوكاني "المراد بالذين يعلمون هم العاملون بعلمهم، فإنهم المنتفعون به، لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم" ^٢، يقول تعالى موجهاً عباده المؤمنين بعد غزوة أحد، وما حدث فيها من قتل وجرح وهزيمة للمسلمين نتيجة المخالفة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آل عمران، آية: ٦٥)، قال الإمام الشوكاني الآية "أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عن سؤا لهم بهذا الجواب، أي: هذا الذي سألتهم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من لزوم المكان الذي عينه لهم، وعدم مفارقتهم له على كل حال" ^٣.

وهذا ما تفتقده محاضن التربية ومنابر الدعوة والتوجيه حيث يُبنى العلم بلا روح ولا يقين، ويُثمر عملاً _إن وجد_ بلا نفع ولا فائدة للأفراد والمجتمع، إنما هو جدالٌ وخصومات، ومراءٍ واختلافات، طلباً للحجاء والمكانة، أو المال والإشادة، يقول أبو حامد الغزالي عن واقع العلم في عصره "ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض في الجدال والغوص في إبطال المقالات، ثم مال الناس إليه

^١ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٦٨.

^٢ الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ص ٥٩٦.

^٣ الشوكاني، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٤٣.

وإلى القصص والوعظ بها، فأخذ علم اليقين في الاندرا من ذلك الزمان فصار بعد ذلك يُستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكايد الشيطان وأعرض عن ذلك إلا الأقلون، فصار يُسمى المجادل المتكلم عالماً والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالماً^١، وقد تحدثنا في القاعدة السابقة عن كيفية ربط العلم بروحه لكي يكون متجهاً نحو البناء وتحقيق الألفة والاجتماع، والترابط بين روح العلم والعمل واضحٌ جلي كما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله "(إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم، قالوا: وكيف يكون منافقاً عليمًا؟ قال: عليم اللسان جاهل القلب والعمل)، وقال الحسن رحمه الله (لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرى السفهاء)، وقال رجلٌ لأبي هريرة رضي الله عنه أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال كفى بترك العلم إضاعةً له"^٢، وهذا الفهم نابغٌ من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كبرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة الصف، الآيات ٢-٣)، ومن قوله تعالى في ذم اليهود الذين أُعطوا التوراة للعمل بها ولم يعملوا بها ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الجمعة، آية: ٥).

فالعلم الصحيح مفتاح العمل، والعمل بالعلم باب الهبات الإلهية والفتوحات الربانية، فالله تعالى فضله ومنه امتن على نبيه يوسف عليه السلام بعد أعماله الفاضلة بقوله ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة يوسف، آية: ٢٢)، وامتن على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بعد جهاده الطويل بقوله ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة القصص، آية: ١٤)، والباب مفتوح برحمة الله وفضله للمحسنين العاملين إلى قيام الساعة، "فكم من متعلمٍ طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة، وكم من مقتصر على المهم في التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوي الألباب"^٣.

والعلم بهذه المرتبة يضبط العمل ويهذبه ويزكيه ويجعله يتعامل التعامل الصحيح في كل الوقائع والأحداث، ويُجسد الدين بصورة حية واقعية، ويُحقق التوازن بين الانفعالات والعواطف والتصرفات، ويُكسب العامل التروّي والتعقل في إصدار الأحكام، والنظر إلى العواقب والمآلات.

^١ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٧٨.

^٢ أبو حامد الغزالي، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٠.

^٣ أبو حامد الغزالي، المرجع السابق، ج ١، ص ٧١.

رابعاً: قاعدة ربط العلم بالواقع:

الواقع دائماً متغير ويتميز بكثرة المستجدات التي لا تنتهي، والعلم الجامد الذي لا يواكب الواقع ومستجداته لا يصلح أن يكون علماً ذا قيمة وفائدة، ولا يرقى أن يكون علماً عالمياً يصلح لكل زمان ومكان، لذا فإن التربية الإسلامية بواقعيتها وعالميتها جعلت الواقع سبباً لمصدر من مصادر التشريع وهو القياس، وذلك بفتح باب الاجتهاد^١ الذي يسعى فيه العلماء الراسخون المجتهدون إلى مواكبة المستجدات، والنهوض بالأمة في كافة الأزمان والأحوال؛ لأنها تربية صالحة لكل زمان ومكان، ولكن الواقع الذي أدى إلى "إغلاق باب الاجتهاد ورفض إعادة فتحه من جديد ومعاينة المجتهدين كان انحرافاً عظيماً دفعت الأمة ثمنه غالباً، دفعت ثمنه أولاً تخلفاً علمياً مريعاً، وجموداً مزمناً، ودفعت ثمنه ثانياً يوم تلقفها دعاة الغزو الفكري يقودونها بعيداً عن الإسلام الذي يحظر الاجتهاد ويعاقب المجتهدين، كما تعلق بذلك من تولى قيادتها من دعاة الغزو الفكري"^٢.

والعلم الذي يفرضه احتياج الواقع سواء كان من علوم الشرع، أو علوم الطبيعة، يصبح علماً ضرورياً يجب على الأمة الاهتمام به، والعناية بدراسته وتطويره، ليحدث الترابط بين العلم والواقع، ويُفعل العلم عملياً على أرض الواقع، فتظهر الآثار، وتحصل البركات، ويعم التقدم والتطور، وحين ينفصل العلم عن الواقع بمشكلاته ومتطلباته، فإنه ينعدم تفعيل العلم بفهم ووعي، وابتكار واجتهاد؛ لأنه فقد مصدر القوة والإثراء والإبداع، ويسود جو الجمود والتقليد والبلادة العلمية فقد "ترى مطلعاً على جملة من علوم الدين، بيد أن إدراكه للبيئة من حوله قاصر، وإدراكه للكون والحياة أشد قصوراً، ومن ثم يصدر أحكاماً وفتاوى تُصيب الدين في مقتله"^٣، ويكون الواقع كما ذكر المؤرخ الشيال عن واقع الأمة في فترة من فترات ضعفها أنه أصابها "جمود الدراسات وتأخرها، بحيث أصبح المدرسون يرددون ما قاله السابقون، ويدرسون المتون والكتب القديمة دون أن يؤلفوا أو يكتبوا جديداً، فانعدم الابتكار، وأثر هذا بالتالي في الطلاب، فأصبحوا يعيدون ما يسمعون ويعنون بالمسائل الشكلية التافهة، ويعتمدون على الاستدكار والحفظ عن ظهر قلب دون الفهم أو الوعي السليم.

ونستطيع أن نتبين من تراجم شيوخ هذا العصر وعلمائه أن بعضهم كان غزير الإنتاج، فكم من عالم أنتج العشرات من الكتب والرسائل، ولكننا لا نستطيع أن نجد من بينها بحثاً له قيمة، أو كتاباً يضيف

^١ سيأتي الحديث عن الاجتهاد في الفصل الرابع، المبحث الثاني، مطلب (تحقيق مبدأ الاستقلالية _ استقلال الفكر).

^٢ الزهراني، الانحرافات العقديّة، ج ٢، ص ٢٥٩.

^٣ محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص ٥٠.

إلى العلم جديداً، أو رسالة فيها شيءٌ من الابتكار، أو أصالة الفكر، وإنما كان أقصى ما يفعله الواحد منهم أن يكتب شرحاً لمثن أو يضيف حاشية على شرح^١.

ومكمن المشكلة في فصل العلم عن الواقع في العصور المتأخرة هو غفلة المسلمين عن مصدر القوة في التشريع الإسلامي حيث جاءت النصوص الكثيرة المستفيضة التي تحث على التفكير والتدبير والتسخير وعمارة الأرض والسعي فيها لأخذ الفائدة والعبرة، فقد "توالى الآيات تطلب من المسلمين التفكير والتدبير في ملكوت السموات والأرض، وتخبرهم أن الله سخر للإنسان ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، وأن عليه أن يبذل جهده في التعلم لتحقيق ذلك التسخير في عالم الواقع، وأن القوة مطلبٌ من مطالب هذه الأمة من أجل المحافظة على عقيدتها وكيانها، ومن أجل منع الفتنة عن المسلمين، والقوة لا تتأتى بغير العلم. وقد أثمرت هذه التوجيهات الربانية ظهور المنهج التجريبي العلمي على يد المسلمين حين كانوا مسلمين حقاً، وبالمنهج التجريبي تقدمت العلوم تقدماً هائلاً، ووضعت اللبنة التي يقوم عليها صرح التقدم العلمي في الوقت الحاضر"^٢، كل ذلك لم يتأتى بعقلية منغلقة أو متفوقة، إنما بعقلية واعية منفتحة، نظرت إلى الإرث العلمي والحضاري الذي وصل إليها من الأمم والشعوب السابقة، وطورته في واقعها وبنيت عليه علماً وحضارةً بمنهج رباني، وحين فرطت الأمة في واجبهها تجاه العلم، وقصرت في ربطه بالواقع، أخذ زمام خلافة البناء غيرها من الأمم فبنته وطورته بمنهج إنساني برجماتي، لذلك فإن المتعلم مُطالب "أن يعي ثقافة عصره ليدير حوار مع مفردات هذا العصر، مطالباً كذلك بأن يعي ثقافة كل العصور، انطلاقاً من قضية مسلمة هي: أن الثقافة شجرةٌ غائصةٌ في تربة الزمن، وفروعها ضاربةٌ في آفاق كل العصور"^٣.

فالمنهج العلمي الصحيح _في العلم والتعليم، والإصلاح والتغيير، والدعوة والتصحيح، والتقدم والتطور_ هو ربط العلم بالواقع لمعرفة احتياجاته، ومعالجة مشكلاته، وتفعيل طاقاته ومنجزاته، على جميع المستويات العلمية والتعليمية والإعلامية والدعوية والترفيهية... وغيرها من مناشط الحياة، وهذا ما صححته الأمم في بداية ثورتها الصناعية والحضارية، والأمثلة على ذلك لا عدّها ولا حصر كأوروبا وأمريكا واليابان والصين والهند وماليزيا وغيرها ممن أثرى العلم من الواقع، وفعل الواقع بالعلم، وهذا

^١ جمال الدين الشيال: الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي، ١٩٥٨م، المطبعة الكمالية، القاهرة، ص ١١.

^٢ محمد قطب: العلمانيون والإسلام، ١٤١٤هـ، دار الوطن، الرياض، ص ٥٠.

^٣ مجلة منار الإسلام، السنة الأولى، العدد الرابع، الإمارات العربية المتحدة، ١٤٠٦هـ، مقال "تأملات في تكوين الشخصية الإسلامية"، محمد أحمد العزب، ص ١٨١.

هو منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والوسائل، والحياة والسلوك، والأخذ بأسباب القوة عموماً.

وهذا ما يجعل التربية الإسلامية تنادي بالاهتمام بالواقع، "فالمطلوب من العالم الديني أن يقوم بدراسة كافية لأنماط الجاهلية المعاصرة له ثم يبذل جهده في معالجتها، لأن هذا هو المطلب الشرعي المكلف به من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما أن يقوم العالم الديني بالتنقيب في بطون الكتب فيردد ما قاله الأقدمون في معالجة أنواع المخالفات قد لا تكون موجودة في مجتمعه أصلاً، وقد يكون وجودها ضئيلاً لا يؤثر في تغيير المفاهيم الإسلامية فإن هذا العالم يجارب في غير ميدانه، ويضع نفسه في غير موضعه المناسب له، ويترك محالب الجاهلية تهيمن على مجتمعه وهو يجارب في ميدان آخر لا يفكر به أفراد مجتمعه.

وتكون المصيبة أكبر حينما توجه المناهج الدراسية وجهة علمية مجردة عن مراعاة الواقع الاجتماعي المعاصر، فتكون الدراسة بذلك غير مجدية في تصحيح المفاهيم الخاطئة، ولا يجد الطلاب إقبالاً على دراسة هذه المناهج لأنها لا تعالج الواقع الذي يعيشون فيه، بل يدرسونها ملزمين ليحصلوا على الشهادة ثم لا يكون لها أثر في حياتهم العملية¹، وهذا حال من يكون متخصصاً في العلم الشرعي فكيف الحال مع غير المتخصصين! وكيف حال العلوم الأخرى! إن دراسة الواقع دراسة واعية لمعرفة احتياجات سوق العمل، وتصحيح الواقع دنيوياً، وربطه بالعلم الشرعي، وتنزيل نصوصه عليه تنزيلاً عقلياً واعياً لأن هذه النصوص لم تأتي لواقع بعينه بل هي صالحة لكل واقع، يجعل من أفراد المجتمع فاعلين في مجتمعهم بناءً وإصلاحاً، وتضحياً وتقدماً، وما ذاك إلا للتفاعل الإيجابي بين الفهم والوعي الصحيح للشرع والواقع، وعند اختلال هذا الفهم والوعي شرعاً أو واقعاً، أو عند الخلل في تنزيل نصوص الشرع على الواقع، تحدث الكارثة الاجتماعية من ضعفٍ وتبعية وإنعزال، أو إرهابٍ وخرابٍ وفتن، أو خلل الفتاوى والإجتهادات التي تقود للإختلاف والتفرق.

فالبناء العلمي في التربية الإسلامية يقوم على هذا الشمول في المصدر والتطبيق؛ لكي تظهر ثمراته وتنتج على واقع البشرية، ومن هذه الثمرات وأهمها نور البصيرة التي تميز بين الحق والباطل ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سورة سبأ، آية: ٢٦)، والحكم على الأمور بمعرفة الحقائق لا من خلال المظاهر ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وقال الذين أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (سورة القصص، آية: ٧٩-٨٠).

¹ الحميدي، الرسائل الشمولية، ص ١٧٥-١٧٦.

ومن ثمراته أيضاً أنه يجعل المسلم يعبد الله بعقلٍ واعٍ، وبصيرةٍ ربانية، وفقهٍ واقعي، فيُصِرُّ الملكة العقلية في اختيار الأولى والأوجب والأصلح في تعامله مع ربه، ومع نفسه، ومع الآخرين، ويُكسبه فن التواصل الاجتماعي والتعامل الأخلاقي، ويمنحه ملكة التوسط في منهجه وفكره وسلوكه، ويعيظه القدرة على الموازنة بين احتياجات الروح والنفس، فلا غلو ولا تقصير، ولكن بناء الدنيا والآخرة في خط متوازي لهدف واحد وهو تحقيق السعادة الدنيوية والأخروية عن طريق رضى الله سبحانه وتعالى، وهذا الطريق هو الذي انتهجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته الناس لدين الله وذلك بربط واقعهم بالعلم الرباني - الكتاب والسنة - فتحوّل ذلك المجتمع من الفوضى الفكرية والأفعال الطاغية من قتلٍ ونهبٍ وسلبٍ وإتلافٍ، إلى نفوسٍ مؤمنةٍ مطمئنة، مصلحةٍ لا مفسدة، رحيمةٍ لا غليظة، متوسطةٍ في معتقدها وفكارها وسلوكها ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤٣).

ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى ثمرات العلم التي ترفع من مستوى فهمه وإدراكه لحقائق الأمور، وتبصره باحتياجات الواقع ومشكلاته، وتدفعه نحو البناء والإصلاح والتغيير إلا من خلال تأصيله على الوحي، وضبطه بالعقل البصير، وإلا كان علماً لا يؤدي رسالة ولا يعرف غاية، "والخلاصة أن المشكلة التي تعاني منها مناهج المعرفة المعاصرة هي الانشقاق بين الوحي وبين العقل والحواس، فالغرب اعتمدوا العقل والحواس دون الوحي كصاحب البصر السليم الذي يستغني بسلامة بصره عن نور الشمس ونور المصابيح، بينما يهملون في مؤسسات التربية الإسلامية التقليدية تنمية القدرات العقلية ومهارات الحواس ويريدون من الوحي أن يقوم بوظيفته ووظائف العقل والحواس مجتمعة، فصار مثلهم مثل الذي يعتمد على قوة نور الشمس ونور المصابيح بينما العمى يضرب أبصارهم فهل يبصرون؟"^١.

فإذا تحقّق ذلك الفهم والوعي أثمر علماً يبيّن الدنيا والآخرة معاً ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (سورة القصص، آية: ٧٧)، وهو ما نتحدث عنه في القاعدة الخامسة.

خامساً: قاعدة ربط العلم الأخروي بالعلم الدنيوي:

العلم الحقيقي هو ذلك العلم الذي يجمع بناء الدنيا والآخرة، ويحقق سعادتهما، والتربية الإسلامية قائمة على العلم الذي به السعادة والطمأنينة والتقدم في الدنيا والآخرة، حتى قيل (من أراد سعادة الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد سعادة الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم)، أي أن قوام الدنيا والآخرة بالعلم، والدين الإسلامي بنصوصه وتشريعاته هو "الذي دفع المسلمين إلى طلب العلم،

^١ الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٣٦٤.

والتعمق فيه، والبحث الجاد في مجالاته المختلفة.. وإن روح البحث العلمي سواءً النظري أو التجريبي لم تكن طبيعةً في هذه الأمة قبل إسلامها، إنما اكتسبتها الأمة من الإسلام حينما آمنت به ومارسته في عالم الواقع^١، ومن تلك التوجيهات قول النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقَنَهُ»^٢، وهذا الحديث يُبيِّن أهمية الحث على العمل المثمر البناء وإتقانه، وأن الله لا يحب من المسلم الكسل والإهمال وعدم الإتقان، ويقول صلى الله عليه وسلم «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ...»^٣، وهذا الحديث عامٌّ يبيِّن فضل المؤمن القوي في عبادته وطاعته وأخلاقه وسلوكه وأعماله الدنيوية والأخروية، وكذلك يحث على الحرص والاهتمام بكل ما ينفع في أمور الدين والدنيا، والنهي عن العجز والكسل وترك العمل لأي سبب كان، ولذلك لما مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بقوم يلقحون فقال «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ». قال فخرج شَيْصًا فمر بهم فقال «مَا لِنَخْلِكُمْ». قالوا قلت كذا وكذا قال «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»^٤، وفي هذا إرشادٌ وتوجيه إلى تعلم كل ما يُصلح أمور الدنيا، لأن بصلاحتها صلاح أعمال الناس الأخروية، يقول أبو حامد في بيان فضل العلم وحقيقته "وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة وهي الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة، ومنزلاً لمن يتخذها مستقراً ووطناً، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين وأعمالهم وحرفهم وصناعتهم..."^٥.

^١ محمد قطب، العلمانيون والإسلام، ص ٥٠.

^٢ أخرجه أبو يعلى، مسند عائشة رضي الله عنها، حديث رقم (٤٣٨٦). قال الألباني في صحيح الجامع الصغير: حديث حسن رقم (١٨٨٠). أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي: المسند، ت: حسين سليم أسد، ١٤٠٤هـ، دار المأمون للتراث، دمشق.

^٣ أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، حديث رقم (٢٦٦٤).

^٤ الشيص: بكسر الشين المعجمة وإسكان الياء المثناة تحت وبصا د مهملة، وهو البسر الرديء الذي إذا ييس صار حشفاً، وقيل أردأ البسر، وقيل تمر رديء وهو متقارب. النووي، مرجع سابق، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج ١٥، ص ١٧١.

^٥ أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون ما ذكره صلى الله عليه وسلم من معاش الدنيا على سبيل الرأي، حديث رقم (٢٣٦٣).

^٦ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٢٠.

والحقيقة أن الفصل أو الفصام بين علوم الدنيا وعلوم الآخرة ليس في فلسفة التربية الإسلامية، وإنما أصل النشأة في ذلك كما يقول الكيلاني "يختلف الباحثون في نشأة الجفوة بين العلوم الطبيعية والإنسانيات وفي أسبابها، فأناس يرجعونها إلى أيام اليونان القدماء حينما اعتبر أفلاطون الشعراء خطراً على جمهوريته المثالية، ثم استمرت الجفوة المذكورة في الارتياب الذي أبدته الكنيسة إزاء الآداب الدنيوية، ثم جاء عصر الصناعة والتكنولوجيا فأوجد ثقافتين متنافرتين: ثقافة علمية تنظر للمستقبل وتتطلع للتقدم، وثقافة إنسانية تنظر للماضي وتحن للعودة إليه. ويرى برنارد جيفورد أن جذور الفجوة القائمة بين العلوم والإنسانيات تعود إلى عهد النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر الميلادي حين وقعت الجفوة بين الكنيسة ورجال العلم"^١، وحينما اختل مفهوم العلم الحقيقي، وأصبح علماً ناقصاً قاصراً اتبعت الأمة سنن من كان قبلها في هذا الباب حيث "حدث تقلصٌ ضخم، أبعاد بالتدرج كل العلوم الدنيوية من معاهد العلم في ذات الوقت الذي اقتصر فيه العلوم الشرعية على فكر القرن الخامس على أكثر تقدير^٢، مع الفارق الكبير بين أصالة فكر القرن الخامس والتقليد الذي تلا ذلك من القرون، وظل يتحجر قرناً بعد قرن"^٣.

والمأمل في تاريخ الأمة الإسلامية منذ نشأتها يجد الترابط الوثيق بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وما ذلك إلا لأنها أمة (إقرأ) التي "تفتحت للعلم كله، وأبدعت في العلم كله، وكان العالم يكون عالماً في العلوم الشرعية، وعالماً في ذات الوقت في الطب أو الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء بغير تعارض ولا تناقض بين هذا وذاك، وكانت المعاهد العلمية في الأندلس وغيرها، تلك التي تعلمت فيها أوروبا حين بدأت تخرج من قرونها المظلمة تُعلم طلابها كل فروع العلم وألوانه بغير تفریق، وكانت العلوم الدنيوية من المعالم البارزة في تلك المعاهد إلى جانب العلوم الشرعية، ومن هناك تعلمت أوروبا المنهج التجريبي في البحث العلمي، وترجمت ما كتبه المسلمون في الطب والفلك والفيزياء والكيمياء والرياضيات والبصريات لتتلمذ عليه في بدء نهضتها الحديثة.

^١ الكيلاني، مناهج التربية الإسلامية والعاملون فيها، ص ٣٦.

^٢ يقول محمد قطب في كتابه واقعنا المعاصر ص ١٥٨ (لقد أُعلن إغلاق باب الاجتهاد في القرن الخامس تقريباً)، ويقول الإمام النووي "إن الاجتهاد نوعان: مستقل وقد فُقد من رأس المائة الرابعة"، انظر: محمد يوسف الحجوي: الفكر السامي في تاريخ التشريع الإسلامي، ت: عبد العزيز القارئ، ١٣٩٦م، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ج ٢، ص ٤٥٢.

^٣ محمد قطب: واقعنا المعاصر، ط ٣، ١٤٠٧هـ، مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، ص ١٧٤.

ولكن المسلمين الغافلين طردوا تلك العلوم تدريجياً من معاهدهم ليقتصروا على العلوم الشرعية، مع ما في دراستهم للعلوم الشرعية ذاتها من تخلف عن الصورة التي ينبغي أن تكون عليها^١، وزاد الأمر سوءاً أو ربما يكون ثمرةً لذلك الفصل اختلال التصور الشرعي لمفهوم (الولاء والبراء)^٢، حيث أدى إغفال المسلمين للعلوم التجريبية إلى عدم الاستفادة من الثروات الطبيعية والأسرار الكونية روحياً - بمعرفة الله ومشاهدة آلائه وقدرته، وعجيب مخلوقاته وحكمته -، في تقوية الإيمان والثبات، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (سورة فصلت، آية: ٥٣)، ومادياً - في معرفة أسباب التقدم الصناعي والتقني، واستغلال الثروات في بناء الأفراد وإعمار الأرض وسعادة ورفاهية المجتمعات -، وتفعيل أسباب القوة والاعتزاز والاستقلال، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٦٠)، فكانت النتائج السلبية إما ضعفاً وجهلاً، وانغلاقاً وانعزلاً، وإما انبهاراً وانسلاخاً، وانحطاطاً وتحرراً، كل ذلك سببه "رفض العالم الإسلامي هذه الحضارة القادمة من بلاد الكفار، وما جاءت به بتاتاً، ووقوفها منها موقف المعارض الثائر، أو موقف المعتزل الحائد، لا يقتبس منها شيئاً، ولا يسمح بدخول علم من العلوم التي كان للأوروبيين فيها التفوق والاختصاص، ولا ينتفع بتجارب الغرب في مجالات الطبيعة والكيمياء والرياضة وعلم الميكانيكا، ولا يستورد شيئاً من الآلات والصناعات والأجهزة وأدوات الحرب والبضائع ومرافق الحياة"^٣.

ومن صور تلك النظرة القاصرة، والتصور الخاطئ "عندما ظهرت تركيا في أفق السياسة الدولية، كانت دعامتها الأولى جيشها الباسل الذي استطاع أن يسحق كل القوى التي حاولت الوقوف في سبيله، وقد كسب هذا الجيش لتركيا نصراً مؤزراً في آسيا وأفريقية وأوربا، فحكمت تركيا امبراطورية من أعظم الامبراطوريات التي عرفها التاريخ، وتهاوت قوى أوربا أمام القوة التركية وهي تزحف كالسيل العارم، ومرت الأيام، وتوصلت الدول الأوروبية إلى أسلحة جديدة ونظم جديدة في ترتيب الجيوش وتدريبها، وبدأت أوربا تحاول استعادة مكانتها واسترداد ما اغتصبته تركيا... وأحسّ السلطان سليم الثالث بالخطر يوشك أن يحقق به، فأراد أن يستعد له ليضمن السلامة للدولة، وليس الاستعداد إلا بأن يقتبس النظم والأسلحة الجديدة التي أوشكت أن تجعل كفة أعدائه راجحة على

^١ محمد قطب، المرجع السابق، ص ١٧٤.

^٢ سيأتي الحديث عن مفهوم الولاء والبراء التربوي في الفصل الرابع، المبحث الثاني، مطلب (تحقيق مبدأ الاستقلالية).

^٣ أبو الحسن الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ط ٥، ١٤٠٥هـ، دار القلم، الكويت،

كفته، وأن يعيد تنظيم (الإنكشارية) التي كانت قد أصبحت رمز الاضطراب والرجعية، ماذا في ذلك؟ وكيف يتعارض هذا مع الدين... ولكن علماء تركيا في ذلك الوقت وعلى رأسهم شيخ الإسلام قاوموا هذه المحاولة مقاومة شديدة، وحرّضوا العامة ضد السلطان بحجة أنه يريد التشبه بالافرنج، وكان للعلماء النصر، فانهزم السلطان وخُلع ثم قُتل^١.

وهذه الفترة فترة الضعف والتردي العلمي التي ساد فيها الرفض لعلوم الطبيعة بحجج واهية وتبريراتٍ سقيمة، قابله تمسكٌ مُفرطٌ غير عقلائي بعلم الشرع أدى إلى اختلال تصوراته، وأحدث في الأمة ما يمكن أن نسميه _بعلمانية علمية_، قادت الأمة إلى اعتزال العالم وزيادة الجهل والتردي العلمي والتقني، وإلى التشدد والتطرف الفكري الديني، فأصبحت الأمة بين مطرقة الممانعة والرفض، وسندان الجهل والجمود والتطرف، واتجه بعض أبناءها إلى إيجاد البدائل الحديثة التي ربما تكون متناقضة مع أصول الدين وقيمه إما جهلاً وإما تحمراً، ولكن هذه الأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا يزال الخير فيها قائماً إلى قيام الساعة، ولا يزال البناء والإصلاح والتنوير وإخراج البشرية من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والفهم هدفها وغايتها، وذلك بما يهيئه الله تعالى لها من مصلحين ومجددين، فكان ممن تصدى لهذا الداء الإمام المجتهد محمد الشوكاني^٢ رحمه الله الذي يقول "وإني لأعجب من رجل يدعي الإنصاف والحجة للعلم ويجري على لسانه الطعن في علم من العلوم لا

^١ شلي، المجتمع الإسلامي، ص ٢٦٨-٢٦٩.

^٢ الإمام الشوكاني غني عن التعريف، فهو علم من أعلام الفقه ورائد من رواد الدعوة والإصلاح والتجديد والاجتهاد في عصره، ولا أدل على ذلك من تفسيره الذي اجتهد فيه وجمع فيه الرواية مع الرأي، ويرجع نسبه إلى قرية شوكان وهي قرية من قرى السحامية إحدى قبائل خولان بينها وبين صنعاء دون مسافة يوم، ولد سنة ١١٧٢هـ، ونشأ في مدينة صنعاء وحفظ القرآن في مسجدها الجامع، ودرج في بيت علم وفضل فأبوه علي بن محمد بن علي الشوكاني كان يشغل منصب قاضي صنعاء، وقد هُل من علمه واستفاد من مكتبته الزاخرة بأهيات الكتب في شتى العلوم والفنون، وتنقل الشوكاني بين علماء صنعاء، وقرأ على شيوخه أهيات الكتب في شتى العلوم في العقيدة والفقه وأصوله واللغة وآدابها والحديث وعلومه والمنطق وأدب البحث والمناظرة وفي التفسير وعلومه وغير ذلك من العلوم التي برع فيها، وله رحمه الله مؤلفات عديدة معظمها مطبوع من أهمها: تفسيره فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، وكتابه نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، والبدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع، والسيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، وتحفة الذاكرين في شرح عدة الحصن الحصين، وأدب الطلب ومنتهى الإرب وغير ذلك، توفي رحمه الله سنة ١٢٥٠هـ . انظر ترجمته: المحددون في الإسلام، لعبد المتعال الصعيدي، ص ٤٧٢.

يدري به ولا يعرفه ولا يعرف موضوعه ولا غايته ولا فائدته ولا يتصوره بوجه من الوجوه"^١، ثم يقول رحمه الله بلسان الحكمة والعلم، والتصور الصحيح القائم على الكتاب والسنة "ولقد وجدنا لكثير من العلوم التي ليست من علم الشرع نفعاً عظيماً وفائدةً جليلةً في دفع المبطلين والمتعصبين"^٢، وبهذا الفصل الذي حدث في باب العلم أورت الأمة تبعيةً وانهماً، وضعفاً مادياً وفكرياً، بل حتى إنه أضعف قوة العلم الشرعي وتأثيره في النفوس والأمم، وأساء إلى الدين بسبب سوء فهمه وتطبيقه، وعدم معرفة نصرته وتوضيحه، والدفاع عنه بالوسائل والتقنيات الحديثة، يقول الشيخ محمد المجذوب واصفاً العلماء الذين فصلوا العلوم الشرعية عن العلوم التجريبية، وكيف كان موقفهم ضعيفاً هزلياً في وجه دعوات التغريب والتحرر "أعلنوها عليهم حرباً شعواء عملت في أقاويلهم ومحاولاتهم معاول الفضح والتجريح.. ولكنهم مع ذلك عجزوا عن أن يحسنوا عرض هذه الحقائق بالأسلوب الذي يفهمه الجيل الجديد، فظلوا خارج ميدان المعركة، لا يعرف الناس عنهم إلا أنهم ثائرون بكل العلوم التجريبية التي اكتشفها العقل الحديث فكأن مهمتهم الكبرى هي أن يجبسوا المسلمين في نطاق أسفارهم الموروثة، دون أن يسمحوا لهم بإلقاء نظرةٍ إلى خارجها...".

ولقد كان لجمود هذا الفريق من الشيوخ أثرٌ كبيرٌ في نفرة الشباب الجديد من الإسلام إذ اعتبروهم صورةً من الدين الذي يدعون إليه فهو إذن دينٌ بائس ضيق الصدر بحرية الفكر والبحث، يستنكر كل تقدم عقلي أحرزه الإنسان في ظل الحضارة الحديثة، ولو كان ذلك التقدم قائماً على المعادلات الرياضية التي لا تقبل الجدل"^٣، ولا شك أن هذا الفصام مخالفٌ للمنهج العلمي الصحيح، القائم على النظرة الشاملة للأدلة والمعطيات قبل إصدار الأحكام والاستنتاجات، لذا فإن "من الأخطاء التي يقع فيها كثيرٌ من الناس إصدار الأحكام واستنتاج النتائج مع عدم توفر الأدلة الكافية التي تؤيد صحة هذه الأحكام أو الاستنتاجات، ولذلك كثيراً ما تكون أحكامهم واستنتاجاتهم خاطئة"^٤.

فكانت النتائج سلبية وكارثية على واقع الأمة ومستقبلها حيث جاءت أجيال لاحقة "ظنوا أن جمود الفقهاء ناشئٌ عن جمود الدين، وحسبوا أن الدين عاجزٌ عن مسايرة الظروف المتطورة والأحوال

^١ محمد بن علي الشوكاني: أدب الطلب ومنتهى الإرب، ١٩٧٩م، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، ص ١٢٤.

^٢ الشوكاني، المرجع السابق، ص ١٢٤.

^٣ المجذوب، مشكلات الجيل في ضوء الإسلام، ص ٢٧٩.

^٤ محمد عثمان نجاتي: الحديث النبوي وعلم النفس، ١٩٨٩م، دار الشروق، القاهرة، ص ١٥٠.

المتجددة، فقدوا ثقتهم في الدين، وقل احترامهم للمتدينين^١، وزاد من الآثار والسلبيات ما نشاهده في واقعنا المعاصر من ظهور بذرة اختلافٍ وتفرقٍ بين المسلمين حيث انقسموا إلى قسمين "انصرف أحدهما عن الحياة بما فيها ليردد أقوال السابقين، ويحذر من حوله من أباطيل اللاحقين... على حين انقطع الآخر عن سبيله بل عن الدين كله، ليتولى شؤون الحياة كلها، فيديرها على أساس لا يمت إلى الإسلام بأي سبب"^٢.

والحقيقة أن كلا الطرفين شطَّ عن الحقيقة وشدَّ عن الصواب، والطريق الذي دلَّ الله الأمة عليه هو المفهوم العام الشامل للعلم بأمور الدين والدنيا، والسعي لفهم الحياة ومستجداتها بالتصور الشرعي الصحيح، واستغلال مواردها وتقنياتها للعيش بسعادةٍ ورخاءٍ في الدنيا ومعرفة الله والاستعداد للقائه في الآخرة، يقول الدكتور الحدري في عرضه لمفهوم العلم في القرآن الكريم "ومن خلال ما سبق فإني أرى أنه لم يرد في القرآن الكريم تحديداً لمفهوم العلم، ولعل الحكمة في ذلك أن يكون العلم ميداناً واسعاً ليس لجوانبه عد، ومضماراً كبيراً ليس لنهايته حد، ليشمل كل ما ينتفع به العبد في أمور دينه ودنياه، وعليه فإن (العلم الذي نوّه به القرآن، وحفلت به آياته، يشمل كل معرفة تنكشف بها حقائق الأشياء، وتزول بها غشاوة الجهل والشك عن عقل الإنسان، سواء أكان موضوعه الكون والطبيعة، أم موضوعه الوجود والغيب، وسواء أكانت وسيلة معرفته الحس والتجربة، أم العقل والبرهان، أم وسيلته الوحي والنبوة)^٣، هذه هي النظرة الشاملة للعلم، التي تتفق مع شمولية هذا الدين، وعالمية رسالته، وخلود مبادئه، ومرونة تطبيقاته، في كل جانب من جوانب الحياة، في موازنة جدُّ رائعة بين مطالب الروح والجسد، ومطالب الفرد والجماعة، ومطالب الدنيا والآخرة"^٤، وهذا المعنى هو الذي عناه "الكسيس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) يعيب على الغارقين في تخصصاتهم الطبية، ويؤكد أن العلم بالإنسان لا يتم عن هذا الطريق.

ونقول نحن إن العلم بالدين كله لا يتم عن طريق تجارة التجزئة، وأن الصورة الكاملة للإسلام إنما تتم على النحو السلفي الأول، وأن العقل الإسلامي المعاصر يجب أن يرتفع إلى مستوى الشمول في القرآن الكريم، حيث يستطيع إعادة بناء الأمة الواحدة، التي لا تحد رفعتها على سطح الأرض خطوط الطول

^١ شلبي، المجتمع الإسلامي، ص ٢٤٨.

^٢ المخدوب، مشكلات الجيل في ضوء الإسلام، ص ٢٨٠.

^٣ نقلاً عن: يوسف القرضاوي: العقل والعلم في القرآن الكريم، ١٤١٦هـ، مكتبة وهبة، القاهرة، ص ١٤٩.

^٤ الحدري، منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، ص ٧٢-٧٣.

والعرض"^١، ولذا حينما سُئل الإمام الشافعي رحمه الله: متى يكون الرجل عالماً؟ قال: إذا تحقق في علم الدين فعلمته، وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فعند ذلك يكون عالماً، فإنه قيل لجالينوس إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجمععة! فقال: إنما المقصود منها واحد وإنما يُجعل معه غيره لتسكن حدته لأن الأفراد قاتل"^٢.

ومن آثار هذه النظرة الخاطئة ما نراه في واقعنا ومؤسساتنا التعليمية من فصل بين العلوم الدنيوية والأخروية وذلك بتقسيم التعليم إلى طبيعي (علمي) وأدي (شرعي)، أو مدارس للتعليم العام، ومدارس لتحفيظ القرآن الكريم، وتعدى الأمر إلى هوس التصنيف لكل شيء بإسلامي وغير إسلامي، وكأن الإسلام ضيق الحدود، أو هامشي التأثير والعطاء، وأفرز ذلك التقسيم مخرجات للعلوم الشرعية على وجه الخصوص، لا تليق به ولا تصلح لوظائفه، إنما الواقع أو ضعف التحصيل أجبرهم على هذا المجال، فكانوا وبالاً عليه بسوء الفهم أو التطبيق أو كلاهما، وأصبحت مجالات العلم الشرعي مهنة من لا مهنة له، وكان الأولى أن يُعمم التعليم بمناهج تُراعي الجمع بين العلوم الطبيعية والشرعية في كل مرحلة بما يناسبها، ويكون مجال التخصص والتعمق في أي علم أو مهنة بعد التخرج من التعليم العام والانتقال إلى التعليم العالي، الذي يكون فيه الطالب مهياً لأي مجال يرغبه، وتكون التخصصات متوافقة ومفتوحة لمن يستحقها عن جدارة ورغبة، فتكون النتيجة أجيالاً تتعلم وتبني الدين والدنيا معاً بإتقان وإخلاص.

فإذا قام البناء العلمي على هذه القواعد الربانية التربوية استطاع الفرد أن يُفعل جوانب الدين الروحية والعلمية والعملية في علاقاته وأفعاله وسلوكه وتصرفاته، بل وفي دفعه نحو البناء والتقدم على المستوى الروحي الإيماني يقول تعالى ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (سورة المدثر، آية: ٣٧)، فلا حالة مستقرة للإيمان فيما تقدم وإما تأخر، والتقدم لا طريق له إلا بالبناء العلمي الصحيح، وعلى المستوى المادي الحضاري في عمارة الأرض واستخلافها، يقول تعالى ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (سورة المجادلة، آية ١١)، قال الإمام الشوكاني "ومعنى الآية: أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات"^٣.

^١ محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص ١٤٧.

^٢ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٣٢.

^٣ الشوكاني، فتح القدير، ج ٥، ص ٢٥١.

وهذا هو الجهاد الحقيقي الذي بذله النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ومن بعدهم من سلف الأمة في نشر الإسلام والدعوة إليه، جهاد البذل والعمل الدائم للبناء والتقدم، وتحقيق العزة والاستقلال والريادة، ومن لم يثبت في هذا الجهاد الطويل الشاق كيف له أن يثبت في الجهاد القصير أمام العدو!، وكما قيل الموت في سبيل الله أهون من العيش في سبيل الله، يقول محمد الغزالي "فإنَّ الجهاد المكتوب على المؤمنين لحماية الدين لا يمكن أن يتم، ولا أن ينجح بعيداً عن التفوق المدني والحضاري.

والأمة الإسلامية كي تكون على مستوى دينها، وكي تنجح في المحافظة عليه، وكي تستطيع إفهامه للآخرين، لا بد أن تكون راسخة القدمين في شؤون الحياة كلها، بل يجب أن تكون سبّاقاً في شتى الميادين، مسموعة الكلمة في آفاق العلم براً وبحراً وجواً..

ومن حق الأمم الكبرى _وهي أمم تحتقر الأمية العلمية والصناعية_ أن تنظر إلى دعاوى المسلمين وأفكارهم وقيمهم بريية أو سخرية، ما دام المسلمون نماذج رديئة للتخلف الإنساني"¹.

لذا فإن هذه القواعد التربوية للبناء العلمي أساسٌ متين، وقوةٌ دافعةٌ لبيان الحق والهداية، وتحقيق التقدم والسعادة للبشرية جمعاء، وتكون الآثار السلبية في التصور فكراً، أو التطبيق سلوكاً، وما يتبعه من انعكاساتٍ سلبيةٍ على المجتمع والأمة، ناتجٌ عن الإخلال بها أو بأحدها، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

¹ محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص ٨٨-٨٩.

المبحث الثاني: المضامين التربوية في الجانب السلوكي

تمهيد

السلوك في اللغة قال ابن فارس "السين واللام والكاف أصل يدل على نفوذ شيء في شيء، يقال: سلكت الطريق أسلكه وسلكت الشيء في الشيء أنفذته"^١.

وقال الرازي "سَلَكَ الطريق إذا ذهب فيه"^٢.

وقال الراغب الأصفهاني في مفرداته "السلوك النفاذ في الطريق، يقول: سلكت الطريق، وسلكت كذا في طريقه، قال تعالى ﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (سورة نوح، آية: ٢٠)"^٣.

وفي معجم لغة الفقهاء "السلوك بالضم مصدر سلك؛ سيرة الإنسان وتصرفاته، وحسن السلوك: جعل التصرفات من الأقوال والأفعال وفق شريعة الإسلام"^٤.

وفي الكشف "السلوك عبارة عن تهذيب الأخلاق ليستعدَّ العبد للوصول إلى أعلى درجات الخلق وذلك بأن يطهر العبد نفسه عن الأخلاق الذميمة مثل حب الدنيا والجاه، ومثل الحقد والحسد والكبر والبخل ونحوها، ويتصف بالأخلاق الحميدة مثل العلم والحياء والرضا والعدالة ونحوها"^٥.

ولعل أقرب التعاريف لموضوع الدراسة هو ما ورد في لغة الفقهاء، وسوف يقوم الباحث ببيان السلوك الحسن وهو - ما كان على هدي الكتاب والسنة - من أحاديث الباب.

والسلوك الإنساني الأصل فيه "أنه يهدف إلى تحقيق مطالب جسدية أو نفسية أو فكرية أو روحية، سواء أكان ذلك لصالح الفرد أو لصالح الجماعة، وأي سلوك لتحقيق هذه المطالب إما أن يكون سلوكاً خلقياً، وإما أن يكون سلوكاً لا علاقة له بالأخلاق إيجاباً ولا سلباً"^٦، وهذا السلوك الإنساني الإرادي له أنواع عديدة^٧ منها:

^١ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٣، ص ٩٧، باب السين واللام وما يتلثهما.

^٢ الرازي، مختار الصحاح، ص ١٥٨.

^٣ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٢١.

^٤ محمد رواس قلعجي، وحامد صادق قنبي: معجم لغة الفقهاء، ط ٢، ١٤٠٨هـ، دار النفائس للطباعة والتوزيع، بيروت، ص ٢٤٩.

^٥ محمد علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ت: علي دحروج، (د.ت)، مكتبة لبنان، بيروت، ج ١، ص ٩٦٩.

^٦ الميداني، الأخلاق الإسلامية، ج ١، ص ١٣.

^٧ انظر: الميداني، المرجع السابق، ج ١، ص ١١-١٣.

١. ما هو أثر من آثار خُلُق في النفس محمود أو مذموم، كالعطاء عن جود، والإمساك عن شح، والإقدام عن شجاعة، والفرار عن جبن.
 ٢. ومنها ما هو استجابة لغريزة من غرائز الجسد أو النفس الفطرية ضمن حدود الحاجات الطبيعية لها، كالأكل المباح عن جوع، والشرب المباح عن ظمأ.
 ٣. ومنه ما هو استجابة إرادية لترجيح فكري، كأن يرى الفكر مصلحة أو منفعة في سلوك ما فتوجه الإرادة لممارسته، أصاب الفكر في ذلك أو أخطأ، كمعظم أعمال الناس اليومية في وجوه الكسب وغيره.
 ٤. ومنه ما هو من قبيل الآداب الشخصية أو الاجتماعية، كآداب الطعام والشراب، واللباس والمشى، والنظافة والنظام.
 ٥. ومنه ما هو طاعة للأوامر والتكاليف الربانية أو غير الربانية، وقد تكون هذه الأوامر والتكاليف ملزمة بسلوك أخلاقي، أو ملزمة بأعمال هي من قبيل العبادات المحضة، أو بأعمال هي من قبيل الآداب، أو ملزمة بأعمال تحقق المصالح والمنافع للناس، أو غير ذلك مما يخالف ما سبق أو يناقضه.
 ٦. ومنه ما هو من قبيل العادات التي تتأصل في السلوك، وقد ترجع هذه العادات إلى موجه أخلاقي، أو موجه غريزي، أو موجه تكليفي، أو موجه اجتماعي، أو نحو ذلك، وقد لا تكون أكثر من ممارسات عبث استحكمت بالعادة.
 ٧. ومنه ما هو من قبيل التقاليد الاجتماعية، التي تسري في سلوك الأفراد بعامل التقليد المحض، أو بقوة التأثير الاجتماعي، وقد تكون هذه التقاليد حسنة وقد تكون سيئة.
- والانحراف السلوكي للإنسان يرجع إلى سببين^١:
- الأول: الانحراف عن الحق في المفاهيم الفكرية.
- الثاني: غلبة الأهواء والشهوات ودوافع النفس على سلطان الإرادة.
- وهو ما قدمنا الحديث عنهما في المبحث السابق، وارتباط هذا المبحث بما قبله واضحٌ وجللي، ذلك أن المبحث السابق يهتم بالجانب الفكري تصحيحاً وفهماً، وإدراكاً وقوةً، وهذا المبحث يهتم بالجانب السلوكي التطبيقي عملاً واقتداءً، وتوسطاً واعتدالاً.
- والباحث يرى أنه كلما فهم المسلمون الوحي الصحيح فهماً واضحاً جلياً، وأحسنوا تطبيقه تطبيقاً سليماً سوياً، كلما حصل لهم تقدمٌ وراقي، وعزةٌ واقتدار، وكلما اختل الفهم أو التطبيق، أو

^١ الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج ١، ص ٧١٠.

أحدهما حصل التفهيم والتفكير والتأخر، وعلى نسبة ما يتوافر من حسن الفهم وحسن التطبيق لكل أمة، يحصل التقدم والتطور، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

المطلب الأول: التوسط والاعتدال:

أولاً: معنى التوسط والاعتدال:

الوسط في اللغة قال ابن فارس "الواو والسين والطاء: بناءً صحيح يدلُّ على العدل والنصف. وأعدلُ الشيء: أوَسَطُهُ ووسَطُهُ"^١.

وقيل "الوسَط من كُلِّ شَيْءٍ أَعَدَلُهُ ومنه قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤٣) أي عَدَلًا وَخِيَارًا"^٢.

وقال الجوهري "وَسَطْتُ الْقَوْمَ أَسِطُهُمْ وَسَطًا وَسِطَةً، أي تَوَسَّطْتُهُمْ. وفلانٌ وَسِيطٌ في قومه، إذا كان أَوْسَطَهُمْ وَأَرْفَعَهُمْ مَحَلًّا... والإصبع الوُسْطَى، والتَّوَسُّيْتُ: قَطَعْتُ الشَّيْءَ نِصْفَيْنِ، وَالتَّوَسُّطُ بَيْنَ النَّاسِ، مِنَ الْوَسَاطَةِ"^٣.

وقال ابن منظور "وسَطُ الشَّيْءِ ما بَيْنَ طَرَفَيْهِ"^٤.

والوسطية في اصطلاح الشرع لها معاني عدة بحسب ما وردت في القرآن والسنة، ومن تلك

المعاني:

١. العدل والخيرية والتوسط بين الإفراط والتفريط، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

(سورة البقرة، آية: ١٤٣) وقال ابن جرير وسطاً في الدين لا غلو ولا تقصير^٥، أي بمعنى

التوسط بين الإفراط والتفريط، وقال ابن كثير الوسط الخيار والأجود^٦.

^١ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٦، ص ١٠٨، مادة (وسط)، باب الواو والسين وما يثلثهما.

^٢ الرازي، مختار الصحاح، باب الواو، ص ٣٤٧. والفيروز آبادي، القاموس المحيط، باب الطاء، فصل الواو، ص ٨٩٣.

^٣ الجوهري، الصحاح، ج ٣، ص ٤١٧-٤١٨، باب الطاء، فصل الواو، مادة (وسط).

^٤ ابن منظور، لسان العرب، ج ١٥، ص ٢٩٣-٢٩٧، باب الواو، مادة (وسط).

^٥ بهذا المعنى فسر البخاري الوسطية، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا...)، حديث رقم (٤٤٨٧).

^٦ ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٢، ص ٨-٩.

^٧ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ١٩٦.

٢. الأعلى والأفضل كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم الفردوس بأنه «أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ»^١.

٣. اعتبار الشيء بين الجيد والرديء، لقوله تعالى ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (سورة المائدة، آية: ٨٩)، قال ابن الجوزي "ليس بأفضله ولا أحسنه"^٢.

٤. التوسط بين طرفي الإسراف والتقتير^٣، لقوله تعالى ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (سورة المائدة، آية: ٨٩).

٥. الاعتدال والقصد^٤، لقوله تعالى ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ (سورة لقمان، آية: ١٩) "أي توسط فيه، والقصد ما بين الإسراع والبطء"^٥.

٦. الجزء الذي هو بين الطرفين^٦، لقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤٣).

والاعتدال في اللغة قال ابن فارس "العين والبدال واللام أصلان صحيحان... العَدْلُ من النَّاسِ: المرضيُّ المستوي الطَّرِيقَةَ. يقال: هذا عَدْلٌ، وهما عَدْلٌ... والعَدْلُ: الحكم بالاستواء"^٧، وقيل العدل "ضد الجور"^٨، وقيل العَدْلُ ما قام في النفوس أنه مُسْتَقِيم، والاعتدال توسط حال بين حالين في كم أو أو كيف، وكل ما تناسب فقد اعتدل، وكل ما أقمته فقد عدلته وعدلته، والعدول: هم الخيار... وذكر من معاني العدل والاعتدال: الحكم بالعدل، والاستقامة، والتقويم، والتسوية، والمماثلة، والموازنة، والتركية، والمساواة، والإنصاف، والتوسط^٩.

^١ أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، حديث رقم (٢٧٩٠).

^٢ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٢، ص ٢٤٩.

^٣ الشوكاني، فتح القدير، ج ٢، ص ١٠١.

^٤ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٧٩٠.

^٥ الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ص ٣١٥.

^٦ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٢، ص ٨.

^٧ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٤، ص ٢٤٦-٢٤٧، باب العين والباء وما يثلثهما.

^٨ الرازي، مختار الصحاح، ص ٢٠٩، مادة (عدل).

^٩ ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٨٣-٨٧، باب العين، مادة (عدل). والفيروز آبادي، القاموس المحيط، باب اللام، فصل العين، مادة (عدل)، ص ١٣٣١-١٣٣٢.

والعدالة في اللغة "الاستقامة... والعدل: عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وقيل: العدل، مصدر. بمعنى: العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق"^١.

فالوسطية والاعتدال معنيان مترادفان في المفهوم اللغوي، والاصطلاح الشرعي، فهما: العدل والاستقامة والخيرية والاعتدال والقصد والفضل والجودة.

يقول القرضاوي "التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرده الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ويغطي على مقابله ويحيف عليه"^٢.

ولا تتحقق الوسطية والاعتدال في السلوك الإنساني إلا بتوسط واعتدال فكره وهذا لا يكون إلا في شريعة أرحم الراحمين اعتصاماً بهدي كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: الأحاديث المتضمنة للتوسط والاعتدال من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. أورد الإمام البخاري في جامعه من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة "باب قوله تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) وَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ".

وهذه الآية تقدم الحديث عنها وبيان تفسير الأمة الوسط، وأن خيرية أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفضلها إنما هو بمنهجها الوسط في الفكر والاعتقاد والعلم والعمل، وأن سبب تحصيل ذلك التوسط لا يكون إلا بالاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

٢. ذكر الإمام البخاري في جامعه أيضاً "باب مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْعُلُوفِ فِي الدِّينِ وَالْبِدْعِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)".

وهذه الترجمة واضحة في بيان ما يخالف منهج الوسطية والاعتدال، من التعمق والتنازع والغلو^١ والابتداع^٢، واستدلالة بالآية بَيِّنٌ في أن تلك أحوال من سلك طريق المغضوب عليهم والضالين، وأن

^١ الجرجاني، التعريفات، ص ١٩١-١٩٢، مادة (العدالة) و(العدل).

^٢ يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، ط ٤، ١٤٠٩هـ، مكتبة وهبة، القاهرة، ص ١١٥.

حال من سلك الصراط المستقيم إنما هي وسط واعتدال في أمور الدين والدنيا، فاليهود غلوا وتجاوزوا الحد في المسيح حتى اتهموه بأنه ابن زنا، والنصارى غلوا وتجاوزوا الحد حتى رفعوه وجعلوه ابن الله، والإسلام توسط في ذلك وجعله عبد الله ورسوله، وهكذا في جميع الاعتقادات والسلوك.

٣. (٧٢٩٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا تُوَاصِلُوا». قَالُوا إِنَّكَ تُوَاصِلُ. قَالَ «إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَبِيْتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي». فَلَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوِصَالِ - قَالَ - فَوَاصَلَ بِهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَيْنِ أَوْ لَيْلَتَيْنِ، ثُمَّ رَأَوْا الْهَيْلَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَوْ تَأَخَّرَ الْهَيْلَالَ لَرَدَدْتُكُمْ». كَالْمُنْكَلِ لَهُمْ.

تقدّمت الترجمة لهذا الحديث في تصحيح التصورات الشرعية، وهو واضح في بيان وسطية الإسلام في التشريع والأحكام، والعمل بما يوافق الشرع بدون زيادة - غلوا وإفراطاً -، أو نقصان - تساهلاً وتفريطاً -، وأن المنهج الوسط في العبادات أن يكون على ما شرع الله وسنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، للحديث «... فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَقٌ بَيْنَ النَّاسِ»^٣، قال القسطلاني "ومحمد صلى الله عليه وسلم فرّق... أي الفارق (بين الناس) المؤمن والكافر، والصالح والطالح، إذ به تميزت الأعمال والعمال"^٤، ثم عقّب بذكر فوائد الحديث "وفيه إيقاظ للسامعين من رقدة الغفلة، وحث على الاعتصام بالكتاب والسنة، والإعراض عما يخالفهما"^٥.

^١ "التعمُّق: التشدُّد في الأمر حتى يتجاوز الحد فيه، والتنازع: التجادل، والغُلُو: المبالغة والتشدُّد". القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج١٥، ص٢٥٤. أبو العباس أحمد بن محمد القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ١٤١٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

^٢ الابتداء من البدع وهي "جمع بدعة، وهي كل شيء ليس له مثال تقدم فيشمل لغة ما يُحمد ويُذم، ويختص في عرف أهل الشرع بما يُذم، وإن وردت في المحمود فعلى معناها اللغوي". ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج١٣، ص٣٤٤.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (٧٢٨١).

^٤ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج١٥، ص٢٣٩.

^٥ القسطلاني، المصدر السابق، ج١٥، ص٢٣٩.

٤. (٧٢٨٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

في هذا الحديث نهي من النبي صلى الله عليه وسلم عن التكلف في السؤال، وهذا التكلف منافي للوسطية والاعتدال التي دعا إليها الشرع، يقول ابن حجر "والمراد بهذا الأمر ترك السؤال عن شيء لم يقع خشية أن ينزل به وجوبه أو تحريمه، وعن كثرة السؤال لما فيه غالباً من التعنت وخشية أن تقع الإجابة بأمر يستتقل فقد يؤدي لترك الامتثال فتقع المخالفة"^١، وسبب هذا الحديث ما ذكره الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا». فقال رجلٌ أكل عامٍ يا رسول الله فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال صلى الله عليه وسلم «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ ثُمَّ قَالَ ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ... الحديث»^٢، قال النووي معلقاً على الاستطاعة "هذا من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الكلم التي أُعطيها صلى الله عليه وسلم، ويدخل فيها ما لا يُحصى من الأحكام كالصلاة بأنواعها فإذا عجز عن بعض أركانها أو بعض شروطها أتى بالباقي، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء أو الغسل غسل الممكن، وإذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لطهارته أو لغسل النجاسة فعل الممكن... وأشبه هذا غير منحصرة وهي مشهورة في كتب الفقه، والمقصود التنبيه على أصل ذلك، وهذا الحديث موافق لقول الله تعالى «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» (سورة التغابن، آية: ١٦)^٣، فالوسطية في أحكام الإسلام مبنية على الاستطاعة والوسع^٤ لقوله تعالى «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» (سورة البقرة، آية: ٢٨٦)، يقول الألويسي

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٢٤.

^٢ أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم (١٣٣٧).

^٣ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ٩، ص ١٤٥.

^٤ يقول الكيلاني في بيان سنن الابتلاء ويقصد بالابتلاء "اختبار طاعة الإنسان لله تعالى وإتباع تعاليمه الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية في جميع شؤون الحياة، أن الابتلاء هو المظهر العملي لعلاقة العبودية بين الله تعالى والإنسان"، ويقول في بيان سنة الابتلاء بالوسع "الابتلاء محدود بمحدود الوسع الإنساني، أي القدرات البشرية التي أودعها الله في الإنسان. والقرآن يُسمى هذه القدرات بأكثر من اسم: فهو يطلق مرة كلمة (الوسع) ليعني القدرات العقلية والنفسية والجسدية والاجتماعية والأخلاقية وغير ذلك. وكلمة أخرى هي (الاستطاعة) أي ذلك الجزء من الوسع الذي يستطيع الإنسان استعماله في موقف ما. وكلمة ثالثة هي (الجهد) أي ذلك الجزء من الوسع الذي يستعمله الإنسان فعلياً وهو يجاهد مواقف الابتلاء". انظر فلسفة التربية الإسلامية، الكيلاني، فلسفة التربية، ص ٢١٥-٢٤٩.

"والتكليف إلزام ما فيه كُلفةٌ ومشقةٌ، و الوسع ما تسعه قدرة الإنسان أو ما يسهل عليه من المقدور، وهو ما دون مدى طاقته أي سنته تعالى أنه لا يكلف نفساً من النفوس إلا ما تطيق وإلا ما هو دون ذلك كما في سائر ما كلفنا به من الصلاة والصيام مثلاً فإنه كلفنا خمس صلوات والطاقة تسع ستاً وزيادة، وكلفنا صوم رمضان والطاقة تسع شعبان معه وفعل ذلك فضلاً منه ورحمةً بالعباد أو كرامةً ومنةً على هذه الأمة خاصة"^١، وشرع الله يوافق القدرات البشرية، ويراعي أحوال ضعفها ومرضاها وفطورها لما فيه من اليسر ورفع الحرج في التطبيق والعمل، وهذا الذي يجعل المسلم يُقبل على شرع الله برغبة ومحبة وانقياد، وبتوسطٍ واعتدال.

٥. (٧٣٣٩) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ قَالَتْ كَانَ يُوضَعُ لِي وَلِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمِرْكَنُ^٢ فَتَشْرَعُ فِيهِ جَمِيعًا.

وهذا الحديث يُبين واقع حياة النبي صلى الله عليه وسلم في علاقاته الاجتماعية، حيث كان بعيداً عن التشدد والتنطع والتكلف، ومن مظاهر وسطيته صلى الله عليه وسلم أنه كان يغتسل هو وزوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما معاً، وهذه صورة راقية في الوسطية والاعتدال في التعامل مع الزوجة وملاطفتها، والبعد عن الجفاء والقسوة تقول عائشة رضي الله عنها «كُنْتُ أُغْتَسِلُ أَنَا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِنْاءٍ وَاحِدٍ مِنْ قَدَحٍ يُقَالُ لَهُ الْفَرَقُ»^٣، وفي رواية أخرى «مِنْ إِنْاءٍ وَاحِدٍ تَخْتَلِفُ أَيْدِينَا فِيهِ»^٤، ومن جعل النبي صلى الله عليه وسلم قدوته كان على منهجٍ وسط في فكره وعبادته وسلوكه وعلاقاته، لذا جاء في قصة سلمان رضي الله عنه عندما رأى تغليب أبي الدرداء رضي الله عنه جانب العبادة على الجوانب الأخرى، دله على المنهج الوسط قائلاً له: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعطِ كل ذي حقٍ حقه. فأثنى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال عليه الصلاة والسلام «صَدَقَ سَلْمَانٌ»^٥.

^١ الألويسي، روح المعاني، ج٣، ص٩٣.

^٢ قال ابن حجر "المِرْكَنُ بكسر الميم وسكون الراء وفتح الكاف بعدها نون، قال الخليل شبه تور من آدم، وقال غيره شبه حوض من نحاس". فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج١٣، ص٣٨٤.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الغسل، باب غسل الرجل مع زوجته، حديث رقم (٢٥٠).

^٤ أخرجه البخاري، كتاب الغسل، باب هل يدخل الجنب يده في الإناء قبل أن يغسلها...، حديث رقم (٢٦١).

^٥ أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع...، حديث رقم (١٩٦٨).

٦. (٧٣٤٩) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يُجَاءُ بَنُو حِمْيَرَ بِالنَّاسِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ لَهُ هَلْ بَلَغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ يَا رَبِّ. فَيُسْأَلُ أُمَّتَهُ هَلْ بَلَغَكُمْ فَيَقُولُونَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ مَنْ شُهِدَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ». ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) قَالَ عَدْلًا (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا).

وهذا الحديث ظاهر في وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالوسط، قال الطبري "وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم "وسط"، لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها"، وقال ابن كثير "ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصّها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (سورة الحج، آية: ٧٨) ^١، لذلك لا يتحقق منهج الوسطية والاعتدال على الأفراد والمجتمعات، والأفكار والسلوك إلا بالاعتصام بهدي الكتاب والسنة.

ثالثاً: التطبيق التربوي للوسط والاعتدال:

كل إنسان له فكر وسلوك، والفكر يُصاغ حسب تصوره وإدراكه العقلي، والسلوك ثمرة لذلك التصور والفكر، ولا بد من ضابط يضبط تصوره وفكره وإلا حدث الخلل في السلوك نحو الإفراط أو التفريط، والضابط لتلك التصورات والأفكار هو أن تلزم منهج التوسط والاعتدال في الفهم الذي به يتحقق التوازن والاستقرار للسلوك مع الفطرة البشرية.

ومفهوم الوسطية في التربية الإسلامية أنه منهج حياة، وحياة أمة، يقوم على احترام الخصائص الإنسانية الفطرية التي يتميز بها كل إنسان عن غيره، ومراعاة الأحوال البشرية التي تعثر بها من الصحة والمرض، والنشاط والفتور، والقوة والضعف، واعتبار الظروف الحياتية التي تمر بها من غنى وفقر، وفراغ وشغل، وإقامة وسفر، وإثبات الاختلاف في حياة البشر وضرورة الإيمان به والتعايش معه وإعطاء كل حالة لباساً يصلح لها، وهذا اللباس لباس عام صالح، ومهيء بمقاييس مختلفة لجميع البشرية

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٢، ص ٨-٩.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ١٩٦.

باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأحوال والظروف، والأشخاص والطبقات، وهو لباس التقوى الذي امتن الله به على بني آدم بقوله ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ٢٦)، فالتشريع الإسلامي بوسطيته لباسٌ عام، يُعطي الجميع الضوابط والتوجهات العامة للحياة لينطلقوا فيها إعماراً وبناءً، واستمتاعاً وبلاغاً للآخرة.

ويظهر الخلل في فهم وسطية الدين والغلو والتطرف فيه حينما يُظن أن أحكامه وتشريعاته قوالبٌ وتطبيقاتٌ لا تتبدل ولا تتغير، بينما الصواب هو أن وسطية دين الإسلام نسبية، فهي ليست حداً فاصلاً، ولا قاعدةً ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، بل هي توسطٌ واعتدال يراعي الأحوال والظروف والأشخاص، وهي مقياسٌ وميزانٌ عام يختلف باختلافها، كقوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (سورة الإسراء، آية: ٢٩)، فلم يجعل الله تعالى حداً فاصلاً للإنفاق المتوسط المقتصد، بل جعله ميزاناً عام يختلف باختلاف حال كل مُنفِق ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ (سورة الطلاق، آية: ٧)، وهذا التصور في تطبيق الوسطية "خصيصة إسلامية، وميزة دينية... فهي ليست وسطية فلسفية، كما هي عند أرسطو الذي تعني الوسطية عنده، تداخل الشيعين، لكي يتكون منهما في النهاية شيءٌ آخر ثالث، يلغيهما، ويقف بدلاً منهما. وقد ظهرت وسطية أرسطو في مباحث الأخلاق، فالشجاعة مثلاً: حدٌ جديد، مقتضاه إلغاء حدين آخرين: الجبن والتهور، ولكنه غيرهما، وهو فضيلةٌ ووسطٌ بين رذيلتين.

وقد انتقدت الوسطية الفلسفية في مجال الأخلاق بالذات، بأنها تحاول أن تضع للأخلاق موازين حسابية أو هندسية.

وهذا المقياس لا يصح، كما ذكر الأستاذ محمود العقاد -رحمه الله- إلا إذا كان مفروضاً على الإنسان أن يختار بين رذيلتين محقتين، فيختار التوسط بينهما.

إن الزيادة في الكرم لا تُعد في كل حال إسرافاً، والزيادة في الشجاعة لا تُعد دائماً هوراً، إذ إن ذلك يتوقف على ظروف عديدة، وبواعث نفسية، ومصالح عامة، بحيث تصبح زيادة الشجاعة، أو المبالغة في الكرم، زيادة في الفضل، دعت إليها ظروف أو بواعث، أو مصالح اجتماعية.

إن المفهوم الإسلامي للوسطية لا يلغي الطرفين، ليتكون منهما حدٌ ثالث، وإنما يبقى الطرفان متجاورين، ويحتفظ كل طرف بوجوده، وذلك مما يتفق مع الطبيعة البشرية، التي ينتقل فيها الإنسان

من حالٍ إلى حال، ويختار بين المفترقات أو المتناقضات، بحسب دوافعه النفسية وحاجات الزمان أو المكان وظروفهما^١.

ويمكن إجمال منهج التوسط والاعتدال في التربية الإسلامية على قاعدتين هما:

١. التوسط والاعتدال في الفكر والتأصيل:

التربية الإسلامية مبنية على التوسط والاعتدال في المبادئ والقيم، والتأصيل الفكري الشرعي والإعمال المنطقي العقلي، فهي "وسط بين التضيق والتساهل.. ذلك المعنى الذي نوه له أساطين الحكماء، واتفقوا على أن قوام الصفات الفاضلة هو الاعتدال، أي التوسط بين طرفين: الإفراط والتفريط؛ لأن ذنبتك الطرفين يدعو إليهما الهوى الذي حذرنا الله منه في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (سورة ص، آية: ٢٦)^٢.

ولا شك أن الجانب الفكري في تأصيل الوسطية هو القاعدة والأساس الذي تنطلق منه السلوكيات التطبيقية، والتنزيل الشرعي للنصوص على الواقع، إذ أن كل سلوك نابع من فكر، فإذا صحَّ الفكر صلح السلوك، وهذا المعنى سبق الإشارة إليه من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للمشركين بمكة ثلاثة عشر عاماً حتى تمكن من تصحيح الفكر الشركي القائم على الماديات والمحسوسات وتعطيل العقل عن وظائفه، إلى الفكر الإيماني القائم على الإيمان بالله وبالغيب وإعمال العقل في الآفاق وفي الأنفس للوصول إلى خالقها وباريها، لذا فإن التربية الإسلامية حين تعالج هذه القضية فإنها لا تتوجه إلى سلوك المخطئ الذي تطرف ذات اليمين أو ذات الشمال إنما تعالجها من أصلها ومنشأها وهو القلب مكان العقل والفكر والتصور، وهنا لا بد من استخدام لغة العقول والقلوب في بيان الحق ومنهج التوسط والاعتدال وذلك بالبناء العلمي المتكامل كما سبق ذكره، والذي يترجم مسائل الشرع الاعتقادية والعملية، والتصور العام للدين والدنيا إلى واقعٍ صحيٍّ معتدل، ولقد كان من الأئمة الكبار الذين برعوا وبرزوا في جانب التوسط والاعتدال الفكري الإمام الشافعي^٣ رحمه الله تعالى الذي أخذ علمه من علماء الأمصار - مكة والمدينة واليمن والعراق والشام

^١ عبد الله بن عبد المحسن التركي: الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله، ١٤١٨هـ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، ص ٢٠-٢٢.

^٢ ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص ٢٢٨.

^٣ هو: محمد بن إدريس بن العباس القرشي المطليبي، أبو عبد الله الشافعي، إمام مكة، وإمام الشافعية، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد سنة (١٥٠هـ)، ومات سنة (٢٠٤هـ). انظر ترجمته: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ٥-٩٩، وأبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص ٦٠-٦٢.

ومصر— فمزج بين الآراء والأقوال والمذاهب، وعادل بين مدرسة أهل الرأي— وإمامها أبو حنيفة^١ رحمه الله في العراق—، ومدرسة أهل الحديث— وإمامها مالك^٢ رحمه الله في المدينة—، وكان يقول رحمه الله "من أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك، ومن أراد الجدل فعليه بأبي حنيفة"^٣، فخرَّج فقهاً فريداً وعلماً متوازناً ومذهباً باقياً فرحمة الله عليه وعلى سائر أئمة هذا الدين.

ونذكر على سبيل الإيجاز قواعد تأصيل منهج التوسط والاعتدال في الفكر والتأصيل، وهي:

أ- منهج التوسط والاعتدال في مسائل الاعتقاد والأصول:

التصور الوسطي في العقيدة هو ما عليه أهل الإسلام من توحيد الله وإجلاله وإفراده بالعبادة، وإنزال أنبياء الله منازلهم من العبودية والتكريم والتفضيل وأهم أفضل الخلق عند الله تبارك وتعالى، وتقديس مصدر التلقي (الكتاب والسنة) لأنهما من عند الله تعالى فلا يجوز لأحد كائناً من كان أن يحلل ما حرمه الله أو يحرم ما أحله الله، وكذلك في مسائل الاعتقاد وأصول الدين التصور الوسطي ما عليه مذهب أهل السنة والجماعة، فهم وسطٌ في أسماء الله وصفاته بين أهل التعطيل وأهل التمثيل، وأن الله له من الأسماء والصفات ما أثبتته لنفسه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكيف امتثالاً لقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (سورة الشورى، آية: ١١)، وهم وسطٌ في النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأبرار وأزواجه الأحرار وآل بيته الأطهار رضوان الله عليهم أجمعين، وهم وسطٌ في عامة أبواب الاعتقاد ومسائله كالتوسط في أفعال العباد بين الجبرية والقدرية، وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية، وفي الولاء والبراء وفي التوسل... وغيرها من مسائل الاعتقاد.

ب- منهج التوسط والاعتدال في المسائل الفقهية الفرعية:

التصور الوسطي في المسائل الفقهية العملية أنه يُراعى الأحوال والظروف والأشخاص، وأن الفقيه المجتهد له القدرة على الموازنة والجمع بين النصوص في موضوعٍ أو حكمٍ نازلةٍ، والخروج

^١ هو: النعمان بن ثابت التيمي (بالولاء) الكوفي، أبو حنيفة إمام العراق، وإمام الحنفية، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد بالكوفة سنة (٨٠هـ)، ومات سنة (١٥٠هـ)، انظر ترجمته: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٦، ص ٣٩٠-٤٠٣، وأبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص ٨٧-٨٨.

^٢ هو: مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، أبو عبد الله إمام دار الهجرة، وإمام المالكية، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد سنة (٩٥هـ)، ومات سنة (١٧٩هـ). انظر ترجمته: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٨، ص ٤٨-١٣٥، وأبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص ٥٣-٥٤.

^٣ أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص ٨٧.

بتصورٍ وفكرٍ وحكمٍ متوسط، ينتج عنه سلوكٌ معتدل بعيد عن الحرفية المتشددة، أو العقلية المتحررة، وهنا يظهر أثر الوسطية في عقلية الفقيه المسلم عند مواجهة المستجدات والنوازل فتجد صاحب النظرة التجريدية الذي ينظر إلى النصوص نظرة عميقة واعية، مستقلة عن الواقع الذي نزلت فيه^١ ويأخذ المسائل أخذاً وسطياً ابتداءً في الفهم والنظر، وفي اعتبار المقاصد والغايات، ثم يخرج بأحكامٍ عملية وسطية قائمة على الأصول، تراعي الواقع باحتياجاته ومشكلاته وتعميداته، فهو إذاً "دليلٌ قوي على قابلية أحكام الإسلام لمواجهة كل التغيرات والاختلافات والوقائع، وهو دليلٌ كذلك على شمولية شريعة الإسلام ومرونتها وصلاحيته لكل زمان ومكان خاصة في مجال الفكر، ففي الأصول الثابتة والأحكام الكلية تسير حركة الاجتهاد في الإسلام ملبية كل الاحتياجات، مستجيبة لكل المواجهات التي تفرضها طبيعة التطور والتغير، مستوعبة لكل ذلك في إطار القرآن والسنة، مع استخدام ذلك الباب العظيم في الإسلام وهو باب الاجتهاد الذي يُعتبر لوناً من الجهاد والعبادة، فمن أخطأ فيه فله أجر، ومن أصاب فله أجران"^٢، والأمثلة على المسائل الفقهية التي نالها التطرف المزدوج أكثر من أن تُحصى في هذا المبحث ولكن نشير إلى بعض منها، فمن ذلك مثلاً قضية تنظيم النسل فتجد من الناس من فهم المسئلة فهماً متطرفاً وربما أدخلها في باب العقيدة مشدداً ومنكراً على كل طرح متوسط ينظر ويتأمل ويوازن بين المصالح والمقاصد، وخاصة قدرة الوالدين المادية أو التربوية أو النفسية أو الصحية... أو غير ذلك، ويرى أن ذلك مخالفٌ لمبدأ التوكل على الله ويحشد الآيات والأحاديث التي اختزل فهمها وقيد شمولها وعمومها، كقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ... الآية﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٥١)، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (سورة الإسراء، آية: ٣١)، وقوله صلى الله عليه وسلم حينما جاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله إني أصبت امرأة ذات حسب و منصب و مال إلا أنها لا تلد أفأتزوجها؟ فنهاه، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال له مثل ذلك فقال صلى الله عليه وسلم «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُدُودَ فَإِنِّي مُكَاتِرٌ بِكُمْ الْأُمَّمَ»^٣، فأمر الشارع بالتكاثر وتحريم قتل الأولاد بسبب الفقر الحاضر، أو الخوف من وقوعه في الآجل، إنما هو لتحقيق التوكل في القلوب، ولزيادة القوة البشرية للأمة في

^١ سيأتي الحديث عن تجريد الفقه وأهمية تفعيل الاجتهاد في واقع الأمة في الفصل الرابع، المبحث الثاني، مطلب (تحقيق مبدأ الاستقلالية - استقلال الفكر).

^٢ المانع، القيم بين الإسلام والغرب، ص ٣٠٦، نقلاً عن نادبة شريف العمري، الاجتهاد في الإسلام، ص ١٩٧.

^٣ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب النكاح، حديث رقم (٢٦٨٥). قال الذهبي: صحيح.

الدنيا، والكثرة العددية في الآخرة، وحين تحقق الأمة جانب الكثرة العددية المجردة من عوامل القوة الدنيوية، وأسباب التكاثر الأخروي من تربيةٍ وتعليمٍ وبناءٍ روحانيٍّ وعمليٍّ، لتخرج أجيالاً مستقلةً في الفكر، مؤصلةً بالشرع، قادرة على نقل الأمة من الضعف والفقر، والعجز والتردي الأخلاقي والاقتصادي والتقني... إلى القوة والتقدم، والتطور والانفتاح العالمي، بثباتٍ واعتزازٍ دينيٍّ، فإذا عدت الأمة ذلك تحقق فيها في الدنيا ما استعاذ منه نبينا صلى الله عليه وسلم وهو "جَهْدُ الْبَلَاءِ"^١، الذي فسّره ابن عمر رضي الله عنه بأنه قلة المال وكثرة العيال^٢، وفي الآخرة ما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم بقوله «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَلَيُرْفَعَنَّ رِجَالُ مِنْكُمْ ثُمَّ لَيُخْتَلَجَنَّ دُونِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي. فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُمْوَا بَعْدَكَ»^٣، وهذا يبين أن العبرة في الآخرة ليس بكثرة المسلمين، وإنما بكيفية وجوده إسلامهم هل هم متبعين لهدي النبي صلى الله عليه وسلم وسنته وأخلاقه وتعامله أم من المتدعين بالآراء والأهواء؟ وتحقيق هذه الكيفية والجودة في النوعية لا يكون إلا بالتربية الإسلامية الرشيدة التي ربي عليها نبينا صلى الله عليه وسلم أصحابه فكانوا على قلتهم العددية مقارنةً بكثرتنا المليونية اليوم دعاة الهدى ومصابيح الدجى وأئمة الدنيا، فهل راعى المسلمون اليوم هذه التربية قبل التكاثر؟ أم أنه كما قال تعالى ﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (سورة التكاثر، آية: ١)، وعشنا الواقع الذي أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أَفْقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا». قال قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ قال «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غَنَاءً كَعْتَاءِ السَّيْلِ...»^٤. فالتوسط والاعتدال في هذه القضية أن يكون التنظيم قائم على العمل بالأسباب، التي لا تنافي التوكل، بل عملٌ وتوكل، إنجابٌ وتربيةٌ وتعليمٌ وتنشئةٌ صالحة، وثقافةٌ اجتماعيةٌ تُشيع تنظيم النسل، وجودة تنشئته وإخراجه قبل تكثيره، فالكيف أهم وأولى من الكم، وهذا

^١ أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التعوذ من جهد البلاء، حديث رقم (٦٣٤٧)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، حديث رقم (٢٧٠٧).

^٢ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١١، ص ١٧٩.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض، حديث رقم (٦٥٧٦)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته، حديث رقم (٢٢٩٧).

^٤ أخرجه أحمد، باقي مسند الأنصار، من حديث ثوبان رضي الله تعالى عنه، حديث رقم (٢٢٤٥٠). قال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

حتى في العبادات المتعلقة بالله تعالى_ حتى يعود نفعها وبركتها على الأسرة والمجتمع والوطن والأمة، في الدنيا بالقوة والعزة، وفي الآخرة بكثرة الأمة المحمدية.

ويمكن القياس على هذه المسئلة المسائل الكثيرة المطروحة والمستجدة كمسئلة رؤية الهلال بين الشرعيين والفلكيين، وكأن التقسيم يُعبر عن التطرف في هذه المسئلة بل والتعارض بين العلم والشرع، وما نتج عن ذلك من تشنجٍ وتعصبٍ يُظهره كل طرف لرأيه موثقاً ذلك بالأدلة الشرعية، أو الحسابات الفلكية، والمسئلة في نظر الفقيه صاحب المنهج المتوسط المعتدل الذي ينظر ويتأمل ويوازن، ليخرج برأيٍ متوسطٍ يجمع بين أدلة الشرع وحسابات العلم الفلكية_ فلا يمكن أن يتناقض الشرع مع العلم والعقل؛ لأنه من لدن حكيمٍ عليمٍ.

وهكذا الحال في بقية المسائل والقضايا طرحٌ متطرفٌ متشنجٌ من المتمسكين بالنصوص بلا عقلٍ أو فهمٍ أو وعي، وبدون مراعاةٍ للمقاصد، واعتبارٍ للمصالح، وبالمقابل تطرفٌ مضادٌ من المعتمدين على العقل والنظر والتأمل بلا شرعٍ أو تأصيلٍ أو هدى، والنتيجة إشغال الأمة في دوامة الردود والتصنيف، والتجهيل والتبديع والتفسيق، في قضايا ومسائل فرعية اجتهادية، ثم الانزلاق في دركات التفرق والتشتت، وضرب البعض رقاب بعض¹.

ت- منهج التوسط والاعتدال في التصور العام للدين والدنيا:

التربية الإسلامية هي التربية الوحيدة التي تُعطي التصور العام المتوازن والمزاج بين مطالب الدين ومطالب الدنيا، وبين كافة الآراء والتوجهات والاختلافات، وهي بذلك تحقق السعادة والاستقرار للفرد في الدنيا والآخرة، وهذا الفهم والتصور الوسطي هو الذي ينظر للماضي نظرة العبرة، ويُعطي الواقع صورةً مشرقة، والمستقبل رؤيةً متفائلة، ويُوجه السلوك نحو العمل والبناء لتحقيق ذلك التصور على أرض الواقع بصبرٍ وثبات، وتضحيةٍ وأمل، يقول بكار "إن الشعور بالإحباط وانسداد الآفاق لا

¹ هذا ما حذر منه صلى الله عليه وسلم الأمة في حجة الوداع حينما خطب في الناس قائلاً «أَلَا تَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا». قالوا الله ورسوله أعلم، قال حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ». قلنا بلى يا رسول الله، قال «أَيُّ بَلَدٍ، هَذَا أَلَيْسَتْ بِالْبَلَدَةِ». قلنا بلى يا رسول الله، قال «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، وَأَبْشَارَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ». قلنا نعم، قال «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ، فَإِنَّهُ رَبٌّ مُبْلَغٌ يُبْلَغُهُ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ فَكَانَ كَذَلِكَ - قَالَ - لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كَفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ». أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)، حديث رقم (٧٠٧٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)، حديث رقم (٦٥-٦٦).

يحتاج إلى تحريض ولا تنشيط، فهو يحتاج النفس البشرية بصورة آلية نتيجة سوء الأحوال والانكسارات اليومية التي تصادف المسلم هذه الأيام.

لكن الذي يحتاج إلى معالجة وتوجيه هو الشعور بالتفاوت وتحسن الأوضاع، إذ أننا لن نكسب من وراء اليأس إلا الخسار الذات وحمود النشاط وارتباك الوعي... ومن المهم في الظروف الصعبة أن تُستخرج الإيجابيات وخصائص الإصلاح والصلاح^١، وهذا التصور هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ودعوته حيث كان يجب الفأل في شأنه كله^٢، تمرُّ عليه أحلك الأوقات وأصعب المواقف ومع ذلك يُبرز لأصحابه المستقبل المشرق من نصرٍ وفرجٍ وتيسيرٍ.

ومثاله في العهد المكي حينما جاءه خباب بن الأرتّ ومن معه يشكون ما يجدونه من أذىً وشدة من المشركين، ويطلبون منه صلى الله عليه وسلم الدعاء بالنصر والفرج، فيقول صلى الله عليه وسلم فاتحاً باب البشرى والأمل لأصحابه «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَنْتَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُؤْمَشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتَمَنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّأكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^٣، "ولم تكن هذه البشارات مخفية مستورة، بل كانت فاشية مكشوفة، يعلمها الكفرة، كما كان يعلمها المسلمون، حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تغامزوا بهم، وقالوا: قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون"^٤، "وأمام هذه البشارات بالمستقبل المجيد المستنير في الدنيا، مع ما فيه من الرجاء الصالح الكبير البالغ إلى النهاية في الفوز بالجنة كان الصحابة يرون أن الاضطهادات التي تتوالى عليهم من كل جانب، والمصائب التي تحيط بهم من كل الأرجاء ليست إلا (سحابة صيف عن قليل تقشع)"^٥.

^١ عبد الكريم بكار: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، ١٤٢٢هـ، دار القلم، دمشق، ص ٣٢.

^٢ من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ الصَّالِحُ، الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ». أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب الفأل، حديث رقم (٥٧٥٦)، ومسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل ويكون فيه من الشؤم، حديث رقم (٢٢٢٤).

^٣ أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٦١٢).

^٤ المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ١٤٧. نقلاً عن محمد الغزالي: فقه السيرة، دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٣٧٥هـ، مصر، ص ٨٤.

^٥ المباركفوري، المرجع السابق، ص ١٤٧.

ما أجمله من تعاملٍ مع المواقف، وما أجمله من تثبيتٍ وتسليّةٍ ونظرةٍ هادئةٍ للواقع، وما أجمله من تفاؤُلٍ بالمستقبل، ووالله إن ما يقع في واقعنا من أحداثٍ وفتنٍ وغيرِةٍ مفتعلةٍ وردود أفعال بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وبين الكفار عموماً يصدق عليه قول نبينا صلى الله عليه وسلم «وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

وفي موقفٍ أصعبٍ يوم الهجرة في فم الغار حين قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما رأى آثار المشركين تلا حقههم وتوشك على إطفاء نور الله في الأرض، يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال إمام المتفائلين وسيد الموقنين صلى الله عليه وسلم «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِأَتَيْنِ اللَّهَ تَأْتِيهِمَا»^١، وفي يوم الأحزاب حينما اجتمع على المسلمين شدة البلاء والتعب والخوف والجوع والبرد والعدو المتربص حتى صورَّ الله حالهم بقوله ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (سورة الأحزاب، آية: ١٠-١١)، وفي هذا الواقع المظلم يشع المستقبل المشرق من فم أظهر وأصدق البشرية محمد صلى الله عليه وسلم ليدخل الطمأنينة في النفوس، والبذل والتضحية والصبر في العمل والبناء، فحينما اعترضت الصحابة صحرةً وهم يحفرون الخندق أخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول وقال «بِسْمِ اللَّهِ». فضرب ضربةً فكسر ثلث الحجر وقال «اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ وَاللَّهُ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا». ثم قال «بِسْمِ اللَّهِ». وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال «اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ وَاللَّهُ إِنِّي لأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا». ثم قال «بِسْمِ اللَّهِ». وضرب ضربةً أخرى فقلع بقية الحجر فقال «اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ وَاللَّهُ إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»^٢، وفي هذا الواقع تكلم ضعاف النفوس وقليلوا الإيمان والثقة بالله تعالى بقولهم ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (سورة الأحزاب، آية: ١٢)، وقال أهل الإيمان واليقين والتربية النبوية ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٢٢)، فكان هذا التبشير النبوي بالنصر والتمكين نوراً ودليلاً، وثقةً وعزيمةً، وعملاً وصبراً لكل مؤمن في أي موقف وأي حال، يقول سيد قطب رحمه الله معلقاً على قصة النبي صلى الله عليه

^١ أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، حديث رقم (٣٦٥٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حديث رقم (٢٣٨١).

^٢ أخرجه أحمد، مسند الكوفيين، حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، حديث رقم (١٨٧١٦). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف ميمون أبي عبد الله.

وسلم وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه مع سراقه بن مالك يوم الهجرة^١ "يعده سواري كسرى! (ملك الملوك) والله وحده يعلم ما هي الخواطر التي دارت في رأس سراقه، حول هذا العرض العجيب من ذلك المطارد الوحيد، إلا من صاحبه الذي لا يبغي شيئاً عنه والمهاجر سراً معه! ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عارفاً بالحق الذي معه، معرفته بالباطل الذي عليه الجاهلية في الأرض كلها يومذاك.. وكان واثقاً من أن هذا الحق لا بد أن ينتصر على هذا الباطل وأنه لا يمكن أن يوجد (الحق) في صورته هذه، وأن يوجد (الباطل) في صورته هذه، ثم يكون ما يكون! كانت الشجرة القديمة قد تأكلت جذورها كلها، بحيث لا يصلها ري ولا سماء... كانت قد حُبشت بحيث يتحتم أن تُجتث.. وكانت البذرة الطيبة في يده هي المعبأة للغرس والنماء.. وكان واثقاً من هذا كله ثقة اليقين.

نحن اليوم في مثل هذا الموقف بكل ملابساته، وكل سماته، مع الجاهلية كلها حولنا.. فلا يجوز من ثم أن ينقصنا اليقين في العاقبة المحتومة، العاقبة التي يشير إليها كل شيء من حولنا، على الرغم من جميع المظاهر الخادعة التي تحيط بنا، إن حاجة البشرية اليوم إلى هذا المنهج، ليست بأقل من حاجتها يومذاك، وإن هذا المنهج اليوم بالقياس إلى كل ما لدى البشرية من مناهج لا يقل عنه يومذاك. ومن ثم ينبغي ألا يغالبنا الشك في أن ما وقع مرة في مثل هذه الظروف لا بد أن يقع، ولا يجوز أن يتطرق إلى قلوبنا الشك، بسبب ما نراه من حولنا من الضربات الوحشية التي تكال لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان"^٢.

وفي أوقات الأزمات الاقتصادية المتردية، والظروف الاجتماعية الخالكة، يقول عدي بن حاتم رضي الله عنه بينما أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال صلى الله عليه وسلم «يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحَيْرَةَ» قلت لم أرها وقد أنبت عنها، قال «فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَنَّ الطَّيِّبَةَ تَرْتَجِلُ مِنَ الْحَيْرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ» قال عدي _ قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دُعَارُ طيِّبِ الذين قد سَعَرُوا البلادَ _ «وَلَكِنَّ

^١ قصة سراقه بن مالك أخرجها البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم (٣٩٠٦)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة ويقال له حديث الرجل، حديث رقم (٢٠٠٩). وليس في الروايتين خبر سواري كسرى، وأوردها الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٣، ص ٣٥، وذكر أن الحديث بهذا اللفظ أورده القاضي عياض في الشفا ١/٦٧٤، والحسيني في تحاف السادة المتقين ١٨/٧.

^٢ سيد قطب: المستقبل لهذا الدين، ط ٩، ١٤٠٨هـ، دار الشروق، القاهرة، ص ٩٣.

طالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى»، قلت كسرى بن هرمز، قال «كِسْرَى بِنِ هُرْمَزٍ، وَلَئِنْ طالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيْنَ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيْنَ اللَّهَ أَحَدَكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجَمَانُ يُتْرَجَمُ لَهُ، فَيَقُولَنَّ أَلَمْ أُنَبِّئْكَ بِرَسُولِي فَيَبْلُغَنَّكَ فَيَقُولُ بَلَى، فَيَقُولُ أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأَفْضَلَ عَلَيْكَ فَيَقُولُ بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ»... قال عدي فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم «يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ»¹.

فهذه البشارات النبوية التي تتوالى على القلوب، وهذه الإخبارات الربانية التي تنزل على الواقع، لنرى كثرة الداخلين في دين الإسلام مع ما يكاد له مكرٍ وحرب، ونرى تجدد روح الأمة مع ما تمر به من شدة وبلاء، كل كذلك ما هو إلا ثمرة لتلك النظرة المحمدية المتفائلة، والهدى النبوي العملي، الذي نبع من قلب مصدق مؤمن موقن بقوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (سورة التوبة، آية: ٣٢-٣٣). أما النظرة المتشائمة فإنها توقع صاحبها في ظنّ السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون بالله سبحانه، يقول تعالى ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (سورة الفتح، آية: ٦)، "وإنما كان هذا ظنّ السوء، وظنّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنّ غير الحق؛ لأنه ظنّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كل عيبٍ وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرد بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعدده الصادق الذي لا يخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسوله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجندده بأنهم هم الغالبون، فمن ظنّ بأنه لا ينصر رسوله، ولا يُتِمُّ أمره، ولا يُؤَيِّده، ويُؤيد حزبه، ويُعليهم، ويُظفرهم بأعدائه، ويُظفرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُدِيلُ الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحلُّ معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، فقد ظنّ بالله ظنّ السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته، وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذلَّ حزبه وجنده، وأن تكون النصر المستقرة، والظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمن ظنّ به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا عرف صفاته وكماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته... وأكثر الناس

¹ أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٩٥).

يظنون بالله غير الحق ظنَّ السَّوء فيما يختصُّ بهم وفيما يفعلُه بغيرهم، ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله، وعرف أسمائه وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته، فمن قنط من رحمته، وأيس من روحه، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء" ^١.

ولا شك أن من عرف الله وقدرته، وعرف منهجه وحكمته، أورثه ذلك تفاعلاً وحسن ظنٍ به سبحانه وتعالى، يقول الغزالي "أما أصحاب اليقين وأولو العزم فهم يلقون الحياة بما في أنفسهم من رحابة قبل أن تلقاهم بما فيها من عنت. وكما يفرز الجسم عصارة معينة لمقاومة الجراثيم الهاجمة يفرز هؤلاء معاني خاصة تمتاز بأحوال الحياة وأغياره فتعطيها موضوعاً وعنواناً جديدين.

واسمع ابن تيمية وهو يقول _مستهيناً بتكليل خصومه_ إن سجني خلوة، ونفسي سياحة، وقتلي شهادة...!! أليست هذه الفواجع أقصى ما يصنعه الطغاة؟ إنما عند الرجل الكبير قد تحولت إلى نعم يستقبلها بابتسام لا باكتئاب" ^٢.

وحقيقة الشخص المتشائم أنه مصابٌ باكتئاب نفسي مَرَضِي "يعاني من تحيُّز إدراكي نحو الأبعاد السلبية في الخبرات، ويخطئ في تفسير الأمور"، والسبب في ذلك كما يرى أرون بيك رائد العلاج المعرفي الذي تقوم دراسته على "أن التفكير الاكتيبي هو نتاج للخلل في البنية المعرفية الأساسية، وهذا الخلل يعبر عن ذاته في التعامل مع الأحداث المختلفة (مثل الفشل، أو فقدان شيء عزيز، أو الرفض، الخ)، ويعتقد بيك أن الإدراك السلبي يحدث أولاً، ومن ثم تظهر الأعراض الاكتيابية، واستناداً إلى ذلك يتمثل الهدف الأساسي المتوخى من العلاج المعرفي في مساعدة الشخص على التعامل بواقعية مع خبراته، وتغيير أنماط تفكيره وإدراكه للأمور" ^٣، وهكذا حال من غاب عنه التصور الوسطي، ينظر للماضي وللواقع وللمستقبل بعين الشك والتأمر، والتشاؤم والارتياب التي لا يُبصر بها إلا السلبيات والمشكلات، ويستشهد بكثرة الفتن أو الضعف الذي تعيشه الأمة في كافة المستويات، أو الأحاديث التي تُخبر عن وقوع ذلك في آخر الزمان، كالحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه حينما جاءه من يشتكي ظلم الحجاج فقال «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمانٌ إلا الذي بعده شرٌّ منه، حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم. ^٤ قال ابن حجر "وقد استشكل هذا الإطلاق مع

^١ محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، ت: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط،

٢، ٤١٨ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٣، ص ٢٠٥-٢٠٦.

^٢ محمد الغزالي: جهد حياتك، ٤٢٠ هـ، دار القلم، دمشق، ص ١٥٧.

^٣ الخطيب، تعديل السلوك الإنساني، ص ٣٤٧-٣٤٨.

^٤ أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب لا يأتي زمانٌ إلا الذي بعده شرٌّ منه، حديث رقم (٧٠٦٨).

أن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها ولو لم يكن في ذلك إلا زمن عمر بن عبد العزيز وهو بعد زمن الحجاج بيسير، وقد اشتهر الخبر الذي كان في زمن عمر بن عبد العزيز، بل لو قيل إن الشر اضمحل في زمانه لما كان بعيداً فضلاً عن أن يكون شراً من الزمن الذي قبله" ^١، ويبين الفهم والتصور الوسطي للحديث رواية زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال "لا يأتي عليكم يوم إلا وهو شرٌ من اليوم الذي كان قبله حتى تقوم الساعة، لست أعني رخاء من العيش يصيبه ولا مالا يفيدته ولكن لا يأتي عليكم يوم إلا وهو أقل علماً من اليوم الذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى الناس فلا يأمرهم بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فعند ذلك يهلكون" ^٢، والمراد أن الناس إذا رفعوا عن أنفسهم ذل الجهل بالتعلم، ورفعوا عن أنفسهم ذل المعاصي بالتناصح والتوبة، وطبقوا شرائع الدين، فإن الله تعالى منجزٌ ما وعدهم بقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة النور، آية: ٥٥)، ولكن المشكلة أن هناك "كثيرٌ من الناس يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء مقهورين، مغلوبين دائماً، بخلاف من فارقه في سبيل أخرى وطاعة أخرى، فلا يثق بوعدهم الله ونصر دينه وعباده، بل إما أن يجعل ذلك خاصاً بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمان، أو يجعله معلقاً بالمشيئة _ وإن لم يصرح بها _ وهذا من عدم الوثوق بوعدهم الله تعالى، ومن سوء الفهم في كتابه" ^٣، ولذلك جاء الحديث الواضح الصريح في النهي عن التشاؤم من الواقع وأحوال الناس وإن كانت بالغة في السوء؛ _ لأن وراء ذلك حكمة ربانية في بعث من يجدد للناس أمور دينهم ^٤، ويوقظ غفلتهم، ويثير عزائمهم، كما هو واقع التاريخ عبر مراحل المتعددة _، يقول صلى الله عليه وسلم «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ. فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» ^٥ قال النووي "واتفق العلماء على أن هذا الهم

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٢٥-٢٦.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٢٦.

^٣ محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ت: محمد حامد الفقي، (د.ت)، دار المعرفة، بيروت، ج ٢، ص ١٨٣.

^٤ الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: « إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الفتن والملاحم، حديث رقم (٨٥٩٢).

^٥ أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي من قول هلك الناس، حديث رقم (٢٦٢٣).

إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس واحتقارهم وتفضيل نفسه عليهم وتقييح أحوالهم، لأنه لا يعلم سر الله في خلقه... وقال الخطابي: معناه لا يزال الرجل يعيب الناس ويذكر مساوئهم ويقول فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك، فإذا فعل ذلك فهو أهلكتهم أي أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم في عيبتهم والوقية فيهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أنه خير منهم والله أعلم^١، وأصحاب التصور المتشائم عملهم وسلوكهم ليس بناءً وإصلاحاً وتضحية، إنما كثرة النقد والتشكي من الواقع، والغوص في أعماق المشكلات والأخطاء والسلبيات والمعوقات، والتخبط بين أطرافها، والانشغال بدوامه تبعاتها، وإعطاء تفسيرات وتصورات وحلول خاطئة للأحداث والواقع مما ينتج عنه أحكاماً ورؤى خاطئة وربما قاتلة تؤدي إلى احتقان النفوس وشحنها ضد المجتمع بأفراده ومسؤوليه، وما ينتج ذلك التصور من طرفين أحدهما خارجي معادي، بأسلوب تحريبي إرهابي، والآخر نائز ناقم، بأسلوب تغريبي علماني، يقود الأمة إلى هوة الاختلاف والتفرق، وزيادة الضعف والانطواء والتخلف.

والحقيقة أن واقع الأمة الإسلامية وما فيه من انعدام المسؤولية، وفقدان الأمل، وكثرة المشاكل وحالات الطلاق، والخصام، والأمراض النفسية _ من اكتئاب وقلق وتوتر _ وعقلية المستسلم المتواكل العاجز الذي ينتظر المُخلص، كل ذلك إفراز طبيعي لتلك النظرة المتشائمة التي تستشرف الحلول من خلال ثقب صغير، بادعاء العين أو الحسد أو السحر أو الأحلام والمنامات، أو الواقع والمشكلات، أو الصعوبات والمعوقات، أو انتظار المعجزات والكرامات، ليكون الحل سريعاً بالخروج من تبعات العمل والبناء والتضحية، والعلم والإصلاح والتربية، وإلقاءها على الآخر، في حالة مَرَضِيَّةٍ من اليأس والقنوط.

أما صاحب الفهم والتصور الوسطي المتفائل المعتدل فإنه يركز على الإيجابيات والإنجازات والحلول التي تجعله يقدم الحلول والعمل البناء المثمر، ويتوقع الأفضل في الحال والنتائج والمستوى، وينظر للماضي نظرة حكمة وتجربة، وللمستقبل المرتقب نظرة تفاؤل وأمل لقوله صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى «قَالَ اللَّهُ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»^٢، ويترجم ذلك إلى واقع معاش _ على المستوى الشخصي والأسري والاجتماعي و... _ يبني ويعمل امثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم «إن قامت

^١ النووي، شرح صحيح مسلم، ج١٦، ص٢٦٧-٢٦٨.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى (يريدون أن يبدلوا كلام الله)، حديث رقم (٧٥٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، حديث رقم (٢٦٧٥).

الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها^١، فتكون الحياة بكل ظروفها وتبعاتها ومشاكلها، وماضيها وواقعها ومستقبلها معتمداً بهدي الباري القائل سبحانه وتعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (سورة الشرح، آية: ٥-٦)، فتتحقق معاني العبادة والصلاح، والوراثة والاستخلاف، كما أراد الله تعالى، القائل في محكم التنزيل ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (سورة الأنبياء، آية: ١٠٥).

ومن هذا التصور _ المتفائل _ ينطلق المؤمن في أخذه للأمور، وإطلاقه للأحكام، وردوده للأفعال، والأطروحات والأفكار بروية وهدوء وتأني^٢، فلا رفض أو ثورة، ولا إسقاط واتهام للنوايا والمقاصد،

^١ أخرجه البخاري، الأدب المفرد، باب اصطناع المال، حديث رقم (٤٧٩). قال الألباني: حديث صحيح.

^٢ هذه المسألة بالغة الأهمية، وهي مُشاهدة وجليّة في واقع الأمة حيث انقسم المسلمون إلى فئتين: فئة علماء وفئة مثقفين، مما أحدث أزمة فكرية واجتماعية، وكل فئة تنظر للواقع نظرة كمال سواء دينياً أو حضارياً مادياً، والواقع والتاريخ يشهد بأن سنة الله جرت بالتدرج في النصر والتمكين، والعزة والحضارة المادية والإنسانية، يقول الله تعالى عن أنبياءه وصفوة خلقه ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ (سورة يوسف، آية: ١١٠)، قيل للإمام الشافعي رحمه الله أيما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكين، فقال رحمه الله "التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا أمتحن صبر وإذا صبر مُكن؛ ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكاً، والتمكين أفضل الدرجات، قال الله عز وجل ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (سورة يوسف، آية: ٢١)، وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مُكن، قال الله تعالى ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ (سورة الأنبياء، آية: ٨٤)، فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبحره في أسرار القرآن واطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء". أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٣٢. وتاريخ البشرية يشهد بأن الحضارات والأمم إنما قامت بعد فترات الركود والأزمات والأخطاء والابتلاءات، لذا يتوجب على قادة الأمة من علماء ومثقفين ومفكرين النظر إلى الواقع وما يفرضه من أوضاع واحتياجات نظرة متأنية تُقدم الأولويات وتعتبر المصالح والمقاصد وتهتم بما يجمع القلوب ويؤلف النفوس ويحقق المصلحة العامة، وهذا حال المجتمع المدني حين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الموجه والمربي فيه، فقد كان عبد الله بن أبي ابن سلول رأس النفاق وإثارة الفتن والشبهات وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتويه ويحتوي طرحه ويبالغ في ذلك حتى أنه لما توفي دُعي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثب عليه عمر رضي الله عنه، فقال يا رسول الله أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا كذا وكذا، قال أعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «أَخْرَجْتَنِي يَا عُمَرُ». فلما أكثرت عليه قال «إِنِّي خَيْرْتُ فَأَخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي إِن زِدْتُ عَلَى السَّعِينِ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا». قال فضلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآياتان من براءة ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَدًا﴾ (سورة التوبة، آية: ١٠٥).

ولا قبول متسرع غير منضبط وغير مُرشد، وكذلك في نظرتة للناس والثقافات والأمم والشعوب أهم ليسوا سواء فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الصالح ومنهم الفاجر، ومن البشر عموماً صاحب القيم والأخلاق والعقل ومنهم صاحب الشهوات والأهواء. وصاحب الحكم المتطرف ينظر إلى الناس أهم في خطأهم وباطلهم سواء، على مستوى الفرق والمذاهب الإسلامية أو على مستوى الأمم الكافرة، وبالتالي يكون الحكم عدم جواز التعامل أو الاطلاع أو الاستفادة مما عندهم من علم صحيح أو فائدة تُذكر، وعلى النقيض المتطرف المضاد الذي يبني تصوره على أن البشرية عموماً على الصواب والحق، وأن الواجب الإنفتاح المطلق والإطلاع الكامل والأخذ غير المُرشد، والتوسط والاعتدال ما كان عليه نبينا صلى الله عليه وسلم حيث كان يتعامل مع السهل اللين من الكفار بالحسنى، ويتألف قلبه بالأخلاق والتعامل والعطاء وربما فضّله في ذلك على غيره من الصحابة الكرام^١، ومنهم العنيد

آية: ٨٤) قال عمر رضي الله عنه فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ورسوله أعلم. وفي رواية: «إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ فَقَالَ «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً» (سورة التوبة، آية: ٨٠)، وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ». قال إنه منافق، قال فضلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ (سورة التوبة، آية: ٨٤). أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً)، حديث رقم (٤٦٧٠-٤٦٧١)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، حديث رقم (٢٤٠٠). قال الخطابي "إنما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن أبي ما فعل لكمال شفقتة على من تعلق بطرف من الدين، ولتطبيب قلب ولده عبد الله الرجل الصالح، ولتألف قومه من الخزرج لرياسته فيهم، فلو لم يجب سؤال ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح لكان سبة على ابنه وعاراً على قومه، فاستعمل أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نُهي فانتهى". ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٨، ص٤٢٨. بهذه الروح تنهض الأمة وتُجمع كافة القوى والإمكانات والأطروحات والتوجهات لعزة ونصرة الدين ولسعادة وخير الدنيا، وسوف يأتي مزيد تفصيل عن هذا في الفصل الرابع، المبحث الأول، (تحقيق مبدأ الوحدة والاحتتماع).

^١ ولا أبلغ من ذلك مارواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة حتى قال قائلهم لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، فدخل سعد بن عبادة فقال يا رسول الله إن هذا الحي قد وجدوا عليك لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظيماً في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار شيء، قال صلى الله عليه وسلم «فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ». قال يا رسول ما أنا إلا امرؤ من قومي وما أنا، قال عليه الصلاة والسلام «فَأَجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ». قال فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فدرهم فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، قال فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

القاسي الذي ربما يُعرض عنه أو يعامله بلطف اتقاء شره^١، وكذلك الحال مع المسلمين فمنهم المحسن ومنهم المسيء من كل فرقة أو طائفة، والتوسط والاعتدال أن لكلٍ منهم حال ولكلٍ منهم تعاملٌ يليق به حسب علمه وعقله وحلمه وتقواه وقربه أو بعده من هدي الكتاب والسنة، وأن الواجب الانفتاح المرشد وعدم الانغلاق، والاطلاع العقلائي المؤصل بهدي الوحي، والاستفادة من كل نافع ومفيد من عموم تجارب وعلوم البشرية.

مما سبق ينشأ توازنٌ لدى عقلية المسلم في تعامله مع العلم الدنيوي والعلم الأخروي، وكل طرح ينادي بالاهتمام بالمناهج الدراسية، وإعادة صياغتها وبلورتها لتكون مناهج تبني الدين والدنيا، ولا شك أن ذلك يُثمر نظرةً قائمةً على التوسط والاعتدال في الربط بين العلم الشرعي، والتنزيل والتطبيق العملي الواقعي، القائم على العقل والفهم الصحيح، والبحث والاستفادة من كل علمٍ نافعٍ يصلح الدين والدنيا، ومن هنا تترى العقلية المسلمة على الموازنة بين مطالب الروح _بمراعاة حاجاتها النفسية والاجتماعية والإيمانية والعلمية والترفيهية و..._، وبين مطالب الجسد _بمراعاة حاجاته الغذائية والصحية والفطرية و..._، فالتوسط والاعتدال القدرة على فهم خصائص النمو لكل مرحلة،

فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل ثم قال «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَةَ بَلَعْتَنِي عَنْكُمْ وَجِدَّةٌ وَحَدَّثُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ وَعَالَةً فَأَعَانَاكُمُ اللَّهُ وَأَعْدَاءَ قَالَفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ». قالوا بل الله ورسوله أمنٌ وأفضل، قال «أَلَا تُحِبُّونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ». قالوا وبماذا نجيبك يا رسول الله والله ورسوله المنُّ والفضل، قال «أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلصَدَقْتُمْ وَصَدَقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكْذِبًا فَصَدَقْنَاكَ وَمَخَذُولًا فَصَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَأَوَيْتَنَا وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ أَوْ حَدَّثْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لِعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفَتْ بِهَا قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا وَوَكَلْتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاتَةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ فِي رِحَالِكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ». قال فبكى القوم حتى أحضلوا لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا. أخرجه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، حديث رقم (١١٧٤٨). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

^١ والأمثلة كثيرة في هذا المقام، ومن ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها قالت أستأذن رجلٌ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أَتَدْرُونَ لَهُ فَبَيْسَ ابْنِ الْعَشِيرَةِ» أو «بَيْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ». فلما دخل ألان له الكلام، قلت يا رسول الله قلت الذي قلت، ثم ألت له الكلام «أَيُّ عَائِشَةُ، إِنْ شَرَّ النَّاسِ مِنْ تَرَكَهُ النَّاسُ - أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ - اتَّقَاءَ فُحْشِهِ». أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس، حديث رقم (٦١٣١)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب مداراة من يتقي فحشه، حديث رقم (٢٥٩١).

^٢ سبق الإشارة إلى هذا المعنى في الفصل الثالث، المبحث الأول، مطلب (البناء العلمي).

والقدرة على التعامل والموازنة، وإشباع حاجات كل مرحلة بالطريقة الصحيحة، والأمثلة على التعامل غير الوسطي في هذا الباب كثيرة جداً، فمن ذلك التعليم والتنشئة للأطفال، حين يكون الاهتمام منصباً على مناهج الحفظ والتلقين، والحفظ المجرد للقرآن الكريم، أو النقيض الإعراض عن الحفظ أو كتاب الله بأساليب وعلوم ومعارف أخرى، والتوسط والاعتدال في التربية أن الحفظ ركيزة مهمة، وأساسٌ للتعليم، ورافدٌ لتنمية الجانب المعرفي لدى الطفل، والقرآن بلا شك كتاب الله الذي فيه النور والخير والبركة وسعادة الدنيا والآخرة، ولكن الله عز وجل ما أنزل القرآن ليحفظ ويُردد آياتٍ جوفاء بلا فهمٍ ولا عقلٍ ولا تدبيرٍ ولا عملٍ، يقول تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة ص، آية: ٢٩)، يقول الحسن البصري رحمه الله "والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلقٍ ولا عمل^١، والنبى صلى الله عليه وسلم حذر الأمة أشد التحذير من الاهتمام بالعلم والقرآن بدون فقهٍ وعملٍ، واهتمامٍ بالجودة والكيف قبل الكم، ويبيّن أن ذلك يُفرز أفراداً مرائين نفعيين يقول عليه الصلاة والسلام «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُفْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ وَذَكَرَ مِنْهُمْ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نَعْمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^٢،

ويوجه الله سبحانه وتعالى رسول الأمة صلى الله عليه وسلم الذي كان خلقه وسلوكه القرآن والذي ربّاه به ربه تبارك وتعالى بقوله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (سورة القيامة، الآيات ١٦-١٨)، أي لا تنشغل بالحفظ، وإنما عليك العمل به واتباع شرائعه وأحكامه^٣ ليجتمع لك مع العمل الحفظ والاتقان لتلاوته، ونظيره قوله تعالى ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طه، آية: ١١٤)، أي سل الله زيادة العلم بكتابه^٤.

والعلم بالقرآن لا يتم عن طريق الحفظ المجرد، وإنما عن طريق الحفظ التربوي الذي يُبنى على الفهم والتدبر والتطبيق، إذ أنه "لا وسيلة لقوة الأمة دون حفظ، لكنه ليس أي حفظ بل الحفظ

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٣٦.

^٢ أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، حديث رقم (١٩٠٥).

^٣ الشوكاني، فتح القدير، ج ٥، ص ٤٥١.

^٤ نقلاً عن الشوكاني، المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٣٢.

التربوي... إن تربية الإنسان وصناعته باختصار تقوم على تخزين المعلومات أي الأفكار والمعتقدات الصحيحة تخزيناً قوياً راسخاً ثم توضيحها وشرح كيفية تطبيقها، ثم التدريب عليها حتى تثبت، فأولاً يأتي حفظ الألفاظ، ثم يأتي شرحها وتوضيحها وبيان صلتها بالحياة، ثم تأتي التربية والتعويد على تطبيقها، خطوات ثلاث تتزامن باستمرار^١، وهذا ما عناه الإمام الشافعي رحمه الله حينما قال "العلم ما نفع ليس العلم ما حفظ"^٢، وهذا المنهج هو الذي ربي عليه نبينا صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام، فلم تكن تربية تعتمد على الحفظ المجرد، وإخراج نسخ عديدة للقرآن، إنما كانت تربية واعية تعتمد على إخراج ترجمة عملية حية واقعية للقرآن الكريم، جاء رجل يُقال له نَهَيْكُ بن سنان إلى عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه فقال يا أبا عبد الرحمن كيف تقرأ هذا الحرف ألفاً تجده أم ياءً من ماء غير آسن أو من ماء غير يا سن؟ قال: فقال عبد الله وكل القرآن قد أحصيت غير هذا؟ قال إني لأقرأ المفصل في ركعة، فقال عبد الله هَذَا كَهَذَا الشَّعْرُ؟ إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع، إن أفضل الصلاة الركوع والسجود، إني لأعلم النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهن سورتين في كل ركعة^٣. ويظهر من سؤال السائل أنه لم يكن يقصد الاسترشاد وإنما لإظهار كثرة الحفظ وإتقانه، وأنه لم يبق له من القرآن إلا حرفاً واحداً لم يتقنه، فكان جواب الحافظ الفقيه ابن مسعود رضي الله عنه الذي أخذ من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة^٤، والذي أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالأخذ عنه بقوله «خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَسَالِمٍ وَمُعَاذِ بْنِ كَعْبٍ»^٥، والقائل عن نفسه رضي الله عنه "وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أَنْزَلَتْ، وَلَا أَنْزَلْتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أَنْزَلْتُ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تُبَلِّغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ"^٦،

^١ خالد بن عبد الكريم اللاحم: الحفظ التربوي للقرآن وصناعة الإنسان، ٤٢٧ هـ، الرياض، ص ٢٠-٢٢.

^٢ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٠، ص ٨٩.

^٣ أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيب القراءة واجتناب الهذ وهو الإفراط في السرعة وإباحة سورتين فأكثر في ركعة، حديث رقم (٨٢٢).

^٤ أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (٥٠٠٠).

^٥ أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (٤٩٩٩).

^٦ أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (٥٠٠٢).

كان جوابه رضي الله عنه "إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع"، قال النووي "معناه أن قوماً ليس حظهم من القرآن إلا مروره على اللسان فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب"¹.

والله تعالى خلق الإنسان وقدر له مراحل عمره وحياته، ووهب له من الخصائص لكل مرحلة ما تتميز به، وجعل من الحاجات والمطالب لكل مرحلة ما تحتاج إليه، فإذا حدث الإخلال بسنة الله، وعدم الموازنة بين الحاجات والاستعدادات والقدرات والميول والاتجاهات، فإن النتيجة والثمرة جيلٌ مزدوج الشخصية، ينظر في مرحلة شبابه إلى طفولته، وفي مرحلة شيخوخته إلى مراهقته، فيصبح سائراً إلى الأمام بعمره، ومعاكساً له بأفعاله وتصرفاته، أو بجنينه وفكره بسبب الحرمان، وكان السلوك تحبباً وتنقيساً لما يجده من ضغط التنشئة الأولى، وتعبيراً لما فقده، لذا فالواجب تجاه الأطفال في هذه المرحلة العمرية المهمة التي تتشكل فيها الشخصية، وتنمو فيها القدرات العقلية، وتكيف فيها العواطف والانفعالات أن يكون الاهتمام الأكبر ببناء كافة الجوانب العقلية، والنفسية، والإيمانية، والاجتماعية، والجسمية، والأخلاقية، والجمالية، وتفريغ الطاقة، وإشباع الحاجة الفطرية في اللعب والحركة، وأن يتم قدر الإمكان تعليمهم عن طريق اللعب والمرح، وأن تكون الأساليب متنوعة فالحفظ أحدها، ولا ينمي إلا الجانب المعرفي لدى الطفل ويهمل بقية الجوانب، لذا كان التنوع سبباً في البناء المتكامل لعقلية وبنية ووجدان الطفل، وهناك أساليب كثيرة ومتنوعة للتربية، منها التربية بالقدوة، والتربية بالعادة، والتربية بالقصة، والتربية بالحوار، والتربية بالمواقف... وغيرها، وهذه التربية تجعل من طفل اليوم اللعوب، لبنة المجتمع الصالحة، ورجل المستقبل القوي في عزمته وشخصيته، وعلمه وعمله، وبنفسه واستقلاله وثباته، وتجعل منه بعد ذلك شيخ المجتمع برزانتة وحلمه، وصبره وخبرته.

وبالإجمال تظهر بركة التوسط والاعتدال لبناء وتربية الإنسان البناء والتربية المتكاملة والمتوازنة في كافة مراحل عمره، وفي علاقته مع ربه ومع نفسه ومع الناس في جميع الجوانب والاتجاهات، وخاصةً جانب العبادات التي أصابها من فساد التصور وتطرفه ما أبعدها عن روحها ووسطيتها وسماحتها ويسرها، فمن ذلك من يرى أن حقيقة العلاقة مع الله هي في الكثرة العددية للعبادة، والتركيز على مظاهرها وشكلياتها، والتشدد في الأخذ بالأحوط من الأحكام، وحصص العبادات في نطاقها الضيق دون مراعاة الجوانب والعلاقات والمعاني التي تشملها، وعلى النقيض من يرى أن حقيقة العلاقة مع الله في التفات من الواجبات والوقوع في المحرمات والأخذ بما يرى العقل وتهوى النفس في الأحكام، ومنهج

¹ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ٦، ص ١٥١.

التوسط والاعتدال أن تكون العلاقة مع الله بمفهوم العبادة الشامل، الذي يُراعي حقوق الله، وحقوق النفس، وحقوق الناس، لذا جاءت الوصية النبوية لأبي ذر رضي الله عنه في بناء هذه العلاقات الثلاث في خطوطٍ متوازية بقوله صلى الله عليه وسلم «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^١.

والعبرة في العبادات ليست بالكثرة، إنما بجودة العمل، كما قال بعض السلف "رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية"^٢، ويقول ابن تيمية "والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله... فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كل من نحى غصن شوكٍ عن الطريق يُعَفر له"^٣، فسلوك المسلم حين يستشعر فيه النية يجعله مقبولاً مأجوراً، داخلاً في نطاق العبادات، لذا جاء عن جعفر الصادق رحمه الله ورضي عنه قوله "إن الله تعالى حباً ثلاثاً في ثلاث رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه، وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فلعل غضبه فيه، وخبأ ولايته في عبادة فلا تحقروا منهم أحداً فلعله ولي الله تعالى، وزاد وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فرمما كانت الإجابة فيه"^٤، بهذا الوعي، وبهذه النظرة، وبهذا الفهم والتصور الشامل لمفهوم العبادة من هذا الإمام العظيم، الذي استقى علمه وفهمه من مشكاة الوحي، والذي بيّن شمول العبادة في نيل رحمة الله ورضاه بأقل عمل، والبعد عن غضبه وسخطه بأحقر عمل، والتعامل مع عباد الله بفهم قائم على مفهوم العبادة الحقيقية الذي ينظر بتوسط واعتدال، ويجمع بين عبادات الظاهر والباطن، وبين حقوق الله وحقوق عباده، وقد جاء بيان ذلك كله في حديث سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام حين بيّن عدم إحتقار إي عمل وإلى أي مخلوق يُقدّم. بمفهوم الطاعة في العبادة الشاملة بقوله «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِرًّا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي فَمَلَأْتُ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكْتُهُ بِيَدِي، ثُمَّ رَقَيْتُهُ، فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ». قالوا يا رسول

^١ أخرجه أحمد، مسند الأنصار، حديث المشايخ عن أبي بن كعب رضي الله عنه، حديث رقم (٢١٣٩٢). قال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

^٢ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٣١٧.

^٣ أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، ت: محمد رشاد سالم، ١٤٠٦هـ، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ج ٦، ص ٢١٨-٢٢٢.

^٤ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٤٤.

الله، وإن لنا في الهائم أجرًا قال «في كُلِّ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»^١، وعلى النقيض عدم احتقار أي عملٍ بمفهوم المعصية التي هي ضد الطاعة بشمولها يقول عليه الصلاة والسلام «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمَهَا، وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^٢، ويقول عليه الصلاة والسلام «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بِالًا، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بِالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^٣، وأدقُّ من ذلك وأعظم شمول العبادة لأعمال القلب، ومن ذلك الكبير الذي ذرَّةٌ منه تحرم من الجنة وتوجب النار، يقول صلى الله عليه وسلم «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»، قال رجلٌ إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً، قال «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَمَطُ النَّاسِ»^٤، فكل من لم يقبل النصيحة والحق تجبراً أو ترفعاً، وكل من احتقر غيره، وظنَّ في قلبه أنه أحسن منه نسباً أو علماً أو مكانةً أو ديناً فقد وقع في تلك الذرة التي تحرمه من الجنة، وتوجب له النار، نسأل الله السلامة والعافية.

والعبادة بهذا الفهم وهذا الشمول^٥ جاء بيانها في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مَنْ يَأْخُذْ مِنْ أُمَّتِي خَمْسَ خِصَالٍ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُهُنَّ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ». قال

^١ أخرجه البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، حديث رقم (٢٣٦٣)، ومسلم، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها، حديث رقم (٢٢٤٤).

^٢ أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، حديث رقم (٣٣١٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأما سبقت غضبه، حديث رقم (٢٦١٩).

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، حديث رقم (٦٤٧٨).

^٤ أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم (٩١).

^٥ أدلة شمول وتنوع العبادات من الكتاب والسنة كثيرة جداً ونذكر منها:

قوله صلى الله عليه وسلم «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَانِيَتِهِ، فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ». أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب من أخذ بالركاب ونحوه، حديث رقم (٢٩٨٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم (١٠٠٩). وفي رواية «وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ». أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، حديث رقم (٢٨٩١). وعن أبي ذر رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله أي العمل أفضل قال «الإيمان بالله والجهاد في سبيله». قال قلت أي الرقاب أفضل قال «أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا». قال قلت فإن لم أفعل قال «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ». قال قلت يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل

«تَكْفُ شَرِّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَيَّ نَفْسِكَ». أخرجه البخاري، كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل، حديث رقم (٢٥١٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، حديث رقم (٨٤) واللفظ له.

والنية الصادقة تجعل العادة عبادة يقول صلى الله عليه وسلم «مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّيَ مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ». أخرجه النسائي، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب من أتى فراشه وهو ينوي القيام فنام، حديث رقم (١٧٨٧). قال الألباني: حديث صحيح. أحمد بن شعيب النسائي: المجتبى من السنن، ت: عبد الفتاح أبو غدة، ط ٢، ١٤٠٦هـ، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الأحاديث مزيلة بأحكام الألباني عليها. وكذلك النية تجعل الشهوة عبادة يؤجر عليها عن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم قال «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة». قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر، قال «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر». أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، حديث رقم (٨٤٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم (١٠٠٦) واللفظ له.

وفي حال انقطاع العمل لعذر يتصل الأجر لصاحبه بالنية يقول صلى الله عليه وسلم في رجوعه من غزوة تبوك «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَاذْيَا إِلَّا كَأَنْتُمْ مَعَكُمْ». قالوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ قَالَ «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ». أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب (و لم يُسمي)، حديث رقم (٤٤٢٣). وفي رواية «إِلَّا شَرِكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ». أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، حديث رقم (١٩١١). والتمني الصادق بمثابة العمل المأجور يقول صلى الله عليه وسلم «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ». أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، حديث رقم (١٩٠٩). ويقول صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً». أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، حديث رقم (٦٤٩١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، حديث رقم (١٣١). ويقول صلى الله عليه وسلم «مَثَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَثَلِ أَرْبَعَةِ نَعَرٍ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ عِلْمًا وَلَا مَالًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ مَالٍ

قلت أنا يا رسول الله، قال فأخذ بيدي فعدهن فيها ثم قال «أَتَقِي الْمَحَارِمَ تُكُنُّ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تُكُنُّ أَعْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنِ إِلَى جَارِكَ تُكُنُّ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تُكُنُّ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»^١.

لذلك جاء التحذير النبوي والبيان المصيري لحال كل من اختل تصوره لمفهوم التوسط والاعتدال في العبادة بقوله عليه الصلاة والسلام «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ». قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضْرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^٢، ما أبلغ هذا الوصف النبوي! وما أصدقه على من تطرف في العبادة، ذلك هو المفلس حقيقة وهو من ظن أن عبادته تغنيه يوم القيامة، والحديث يدل على أن صاحب تلك الأعمال العظيمة الظاهرة كان ظاهرة الصلاح والاستقامة وحرصه الشديد على التكثر العددي منها، ولكن اختلال تصوره لمفهوم العبادة والذي بنى عليه أعماله وسلوكه قاده إلى التطرف العملي وفصل بين حقوق الله من صلاة وصيام وصدقات، وبين حقوق عباد الله من حرمة الاعتداء على أعراضهم وأموالهم ودماءهم، وهذا الحال للأسف ينطبق على الواقع فاهتمام الكثير "بمظاهر العبادات، ظناً منهم أنها تحجيتهم عند الله، وأنها تكفر عنهم وتغفر لهم ظلمهم للناس، فتجد الرجل يصلي ويصوم ويحج، وربما زاد على الفرائض... وهو في الوقت نفسه لا يهتم بدِينٍ يماطل في أدائه، وإجحافٍ بحق عمال يشتغلون عنده، واحتكار لأقوات العباد"^٣، وكأن مفهوم العبادة والدين داخل نطاق وحدود المسجد في صورة علمانية مقبولة، تفصل الدين بعباداته الشمولية عن الحياة والواقع والعلاقات، وتحصر العبادة في محراب الصلاة، وتغفل

هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فَهَمَّا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ». أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب النية، حديث رقم (٤٢٢٨). قال الألباني: حديث صحيح. محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني:

السنن، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، (د.ت)، دار الفكر، بيروت، الأحاديث مذيبة بأحكام الألباني عليها.

وغير ذلك الكثير من الأعمال التي تبين شمول مفهوم العبادة وتنوعها وكثرتها، والتي هي دليل على سعة رحمة الله بعباده في تعدد طرق نيلها، والتي تجعل المسلم في عبادة وتعامل مع الله في كل أحواله، فالحمد لله على نعمه وآلائه.

^١ أخرجه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبو هريرة رضي الله عنه، حديث رقم (٨٠٨١). قال شعيب الأرنؤوط: حديث جيد، وهذا إسناده ضعيف لجهالة أبي طارق السعدي.

^٢ أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٨١).

^٣ محمد المبارك: المجتمع الإسلامي المعاصر، ١٣٩٠هـ، دار الفكر، بيروت، ص ٦٥.

عن التصور الوسطي والمعنى الحقيقي وهو أن الحياة والكون محراباً للعبادة، وأنه ليس في التصور الإسلامي نشاطٌ إنساني لا ينطبق عليه معنى (العبادة) أو لا يُطلب فيه تحقيق هذا الوصف، والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة، أولاً وأخيراً... إن الواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملةً من الدينونة للعباد، وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن، وفي منهج حياتهم كله للدنيا وللآخرة سواء^١.

وأخيراً فإن التربية القائمة في شمول عبادتها ومراتب إيمانها^٢ من كلمة التوحيد ومفتاح الدين (لا إله إلا الله) إلى المحافظة على نظافة المظهر العام (إمالة الأذى عن الطريق)، والتي تقوم أولوياتها على أداء الواجبات والأركان^٣، وتطبيقها على الإحسان والإتقان^٤، هي تربيةٌ جديرةٌ بالعالمية، قادرةٌ على النهوض بالأمة إلى أعلى مراتب التقدم الحضاري والرقى الإنساني؛ لأن جميع سلوك الأفراد نابعٌ من اعتقادٍ وإخلاص، والمتأمل بعين البصيرة إلى أحكام الشرع يجد التوسط والاعتدال في الموازنة بين الحقوق والواجبات والعلاقات، ابتداءً بين الخالق والمخلوق إلى الحاكم والمحكوم والرجل والمرأة والزوج والزوجة والشريك وشريكه والكبير والصغير والقوي والضعيف والغني والفقير... إلى أصغر

^١ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ١٩٣٧-١٩٣٨.

^٢ من حديث النبي صلى الله عليه وسلم «الإيمان بضعٌ وسبعونَ أو بضعٌ وستونَ شعبةً فأفضلها قولُ لا إلهَ إلا اللهُ وأدناها إمالةُ الأذى عن الطريقِ والحياءُ شعبةٌ من الإيمان». أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، حديث رقم (٣٥).

^٣ لقوله صلى الله عليه وسلم «إنَّ اللهَ قالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيْتَهُ، وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدْتَهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ». أخرجه البخاري،

كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم (٦٥٠٢).

^٤ لقوله صلى الله عليه وسلم «إنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَيُجَدِّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِّحْ ذَبِيحَتَهُ». أخرجه مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، حديث رقم (١٩٥٥).

ذرة في هذا الكون، ولا يقع الخلل والتطرف والخطأ في التطبيق والسلوك من طرفٍ على آخر إلا بسبب فساد التصور وخلل الفهم على ما بيّنا سابقاً.

والخلاصة فإن النظرة الشاملة الوسطية لأمر الدين والدنيا هي نورٌ رباني، وهدىٌ نبوي، يودعها الله عقل من أحب ووفق من عباده ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الحديد، آية: ٢٨).

٢. التوسط والاعتدال في السلوك والتطبيق:

السلوك والتطبيق ثمره الفكر والتصور، فإن كان صحيحاً قائماً على منهج التوسط والاعتدال أثمر سلوكاً نافعاً مفيداً لصاحبه والمجتمع، والوسطية في المفهوم الإسلامي تعني العلم والفكر والعمل والتطبيق، فمن علم ولم يعمل كان مفرطاً مقصراً، ومن عمل بغير علم كان مفرطاً ضالاً، والتوسط والاعتدال الجمع بين العلم والعمل، يقول تعالى مُبَيِّنًا لعباده المؤمنين الطريق القويم والصراط المستقيم ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ (سورة الفاتحة، آية: ٦-٧)، قال ابن كثير "اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسوله، وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى... فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى" ^١، ويقول الفخر الرازي في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (سورة فصلت، آية: ٣٠)، "الكلمات النفسانية محصورة في نوعين العلم اليقيني والعمل الصالح، فإن أهل التحقيق قالوا كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله وإليه الإشارة بقوله (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ)، ورأس الأعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيماً في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط، كما قال ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤٣)، وقال أيضاً ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (سورة الفاتحة، آية: ٦)، وإليه الإشارة في هذه الآية بقوله (ثُمَّ اسْتَقَامُوا) ^٢.

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣١.

^٢ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٥٦٠.

وهذا التوسط والاعتدال الذي تدعوا إليه التربية الإسلامية لا يخالف منهج أخذ الدين بقوة كما قال تعالى ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ (سورة مريم، آية ١٢)، فمراد القوة الجِد والحِرص والاجتهاد^١، وهذه فلسفة الإسلام للوسطية، القيام بالحقوق والواجبات الدينية والدينيوية تجاه الله والنفس والناس بجدٍ وحرصٍ واجتهاد، وبذل الوسع في حدود الاستطاعة والقدرة البشرية، بعيداً عن الكسل والتواكل، والتعمق والتنطع، وهذا التصور هو ما شرَّعه النبي صلى الله عليه وسلم من خلال تصحيحه لتصور أولئك نفر من أصحابه بقوله «لَوْ مَدَّ بِي الشَّهْرُ لَوَاصَلْتُ وَصَالًا يَدْعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ... الحديث»^٢، أي أن منهج الوسطية في العبادات ما شرَّعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بدون تعمق ولا تنطع، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»^٣، قال النووي "أي المتعمقون الغالون الجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم"^٤، وأرشد عليه الصلاة والسلام إلى وسطية الإسلام في العبادة فقال «إِنَّ الدِّينَ يَسْرُ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا...»^٥، قال ابن حجر "المشادة بالتشديد المغالبة... والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب، قال ابن المنير في هذا الحديث علم من أعلام النبوة فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنتع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته... قوله (فسددوا) أي الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط"^٦، وفي رواية أخرى قال عليه الصلاة والسلام «... وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبَلَّغُوا»^٧، ومضى أن معنى القصد: التوسط، وهو في هذا الحديث يعني التوسط والاعتدال في العمل والعبادة، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم مرشداً أُمَّته إلى نهج التوسط والاعتدال في العبادة والسلوك «يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ١١٩.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب التمني، باب ما يجوز من اللغو...، حديث رقم (٧٢٤١).

^٣ أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنتعون، حديث رقم (٢٦٧٠).

^٤ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٦، ص ٣٣٧.

^٥ أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر...، حديث رقم (٣٩).

^٦ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ١٢٧.

^٧ أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (٦٤٦٣).

يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ»^١، وفي حجة الوداع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أن يلتقط له حصيات من حصي الخذف^٢ لرمي جمرة العقبة، فلما وُضِعَ في يده قال مَبِينًا منهج الوسطية في العبادة والإتباع «بَأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوفِ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوفِ فِي الدِّينِ»^٣، وحينما دخل عليه الصلاة والسلام المسجد ووجد حبلاً ممدوداً بين ساريتين قال «مَا هَذَا الْحَبْلُ»، قالوا هذا لزئيب، فإذا فترت تعلقت. فقال النبي صلى الله عليه وسلم «لَا، حُلُوهُ، لِيُصَلَّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»^٤، ويُوضح حال التشدد الذي وقعت فيه الأمم السابقة في جانب العبادة ما رُوي أن سهل بن أبي أمامة وأبوه دخلا على أنس بن مالك رضي الله عنه بالمدينة، في زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة، فإذا هو _أي أنس بن مالك رضي الله عنه_ يصلي صلاةً خفيفةً دقيقة، كأنها صلاة مسافر أو قريباً منها، فلما سلّم، قال أبي يرحمك الله أرأيت هذه الصلاة المكتوبة، أو شيءٍ تنفّلتها؟ قال إنها المكتوبة، وإنما لصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه، فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدِّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالْدِّيَارِ ﴿رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الحديد، آية: ٢٧)»^٥، والرهبانية التي هي الانقطاع للعبادة والتنسك، لم تكن واجبة على النصراني، إنما أوجبها على أنفسهم زيادةً في العبادة والعمل، وطلباً للأجر والثوبة، ولذلك قال تعالى (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)، فكانت نتيجة التشديد على النفس أن قال تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا

^١ أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصر ونحوه، حديث رقم (٥٨٦١)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، حديث رقم (٧٨٢).

^٢ قدر حصي الخذف نحو حبة الباقلاء، النووي، شرح صحيح مسلم، ج ٨، ص ٢٦١.

^٣ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب المناسك، حديث رقم (١٧١١). قال الذهبي: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

^٤ أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، حديث رقم (١١٥٠)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته، أو استعجم عليه القرآن، أو الذكر بأن يرقد، أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك، حديث رقم (٧٨٤).

^٥ أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الحسد، حديث رقم (٤٩٠٤). سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي: السنن، ت: محي الدين عبد الحميد، (د.ت)، دار الفكر، بيروت، الأحاديث مزيلة بأحكام الألباني عليها. وأبو يعلى، المسند، بقية مسند أنس، أبو سفيان عن أنس، حديث رقم (٣٦٩٤). قال حسين سليم أسد: إسناده جيد.

حَقَّ رِعَايَتَهَا فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿سورة الحديد، آية: ٢٧﴾، أي لم يقوموا بما أوجبوه على أنفسهم حق القيام، وإنما فرطوا وضيّعوا وبدّلوا إلا قليل منهم.

ويتضح المنهج الوسطي في تطبيق العبادة ما جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يأتي قومه فيصلي بهم الصلاة، فقرأ بهم البقرة، قال فتجوّز رجلٌ فصلّى صلاةً خفيفةً، فبلغ ذلك معاذاً، فقال إنه منافق، فبلغ ذلك الرجل، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله إنا قومٌ نعمل بأيدينا، ونسقي بنواضحننا، وإن معاذاً صلى بنا البارحة فقرأ البقرة، فتجوّزت، فزعم أبي منافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «يَا مُعَاذُ أَفَتَانَ أَنْتَ -ثَلَاثًا- أَقْرَأُ (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) وَ (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) وَنَحْوَهَا»^١، وفي رواية «فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَأَىكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ»^٢، بل وجعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منهجاً وسطاً عاماً لكل إمام حينما اشتكى رجلٌ بأنه يتأخر عن صلاة الفجر بسبب إطالة إمامه للصلاة، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً حتى قال راوي الحديث أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه، ما رأيته غضب في موضع كان أشد غضباً منه يومئذ، ثم قال «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنْفِرِينَ، فَمَنْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ، فَإِنَّ خَلْفَهُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ»^٣، وقال «فَإِذَا صَلَّى وَحَدَهُ فَلْيُصَلِّ كَيْفَ شَاءَ»^٤، هكذا الحال وسطية واعتدالٌ في تطبيق أعظم شعيرة وهي الصلاة، وفي أعظم مسؤولية وأمانة وهي الإمامة، فكيف حال الروح الوسطية مع بقية الفرائض والشرائع والنوافل والمسؤوليات!، فصلّى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة والنعمة المسداة:

يا ليتني كنت فرداً من صحابته أو خادماً عنده من أصغر الخدم^٥

ويظهر أثر التوسط والاعتدال حينما تكون الترجمة التطبيقية للفكر سلوكاً وعملاً في واقع الحياة، يُراعي المصالح، ويعتبر المقاصد، ويُقدم الأولى، وينظر إلى الأحكام والمستجدات والنوازل نظرة

^١ أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً، حديث رقم (٦١٠٦)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، حديث رقم (٤٦٥).

^٢ أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب من شك إمامه إذا طوّل، حديث رقم (٧٠٥).

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب من شك إمامه إذا طوّل، حديث رقم (٧٠٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، حديث رقم (٤٦٦).

^٤ أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، حديث رقم (٤٦٧).

^٥ ناصر بن مسفر الزهراني: السراج المنير في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ١٤١٦هـ، مطابع السفراء، الرياض، ص ١٠٨.

عقلانية مقاصدية متأنية، ويتعامل مع المخالف تعاملًا رحيماً ربانياً على قاعدة ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ (سورة هود، آية: ٨٨)، ويُحقق التوازن بين العبادات الأخروية والأعمال الدنيوية على قاعدة (اعمل لديناك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)^١، وبين حاجات النفس الفطرية والنفسية والاجتماعية على قاعدة (ساعة وساعة)^٢، وبين المسؤوليات والعلاقات والحقوق الربانية والأسرية والاجتماعية والإنسانية على قاعدة (اعط كل ذي حق حقه)^٣، وقاعدة التعامل

^١ هذا الأثر عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. قال الألباني في السلسلة الضعيفة: لا أصل له، وإن اشتهر على الألسنة. وقد روي مرفوعاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: فذكره في تمام حديث أوله "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك، فإن المنبت لاسفراً قطع، ولاظهراً أبقى، فأعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبداً، واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غداً" وهذا سند ضعيف، وبه علتان. محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة، ١٤٢١هـ، مكتبة المعارف، الرياض، رقم (٨).

^٢ من حيث النبي صلى الله عليه وسلم عن حفظة الأسيدي رضي الله عنه - وكان من كُتَّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال لقيني أبو بكر فقال كيف أنت يا حفظة، قال قلت نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعة فنسينا كثيراً، قال أبو بكر فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت نافع حفظة يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَمَا ذَاكَ؟» قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعة نسينا كثيراً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَيَّ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافِحَتِكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَيَّ فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَفْظَةَ سَاعَةً وَسَاعَةً». ثلاث مرّات. أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، حديث رقم (٢٧٥٠).

^٣ من حديث النبي صلى الله عليه وسلم حينما آخى بين سلمان وأبو الدرداء رضي الله عنهما، فزار سلمان أبو الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها ما شأنك؟ قالت أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال كل قال فإني صائم قال ما أنا بأكل حتى تأكل قال فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال ثم فنام ثم ذهب يقوم فقال نم فلما كان من آخر الليل قال سلمان قم الآن فصليا فقال له سلمان إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال النبي صلى الله عليه وسلم «صَدَقَ سَلْمَانُ». أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاءً، إذا كان أوفق له، حديث رقم (١٩٦٨).

بالحسنى والأخلاق الكريمة^١، وبين النظرة إلى تنوع العبادات وشمولها لكل عمل أراد به صاحبه وجه الله تعالى على قاعدة (اعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خلق له)^٢ وأن تعدد أبواب الجنة يدل على تعدد الأعمال وتنوعها واختلاف الناس فيها، فكلٌ له باب وكلٌ له عمل يفتح الله عليه فيه حسب حاله، إذا أدرك المسلم ذلك يعيش حياة متوازنة ملؤها السعادة والهناء والاستقرار المادي والمعنوي.

والوسطية منهجٌ إسلامي في تحقيق المساواة وبناء العلاقات الإنسانية باختلاف الطبقات والأشخاص والأجناس على أساس قاعدة التقوى، يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات، آية: ١٣)، فهذا معنى الوسطية في حقيقة المساواة بين الناس على اختلاف أعراقهم وأجناسهم وألوانهم، إذ لا أفضلية بينهم إلا على أساس التقوى والخشية لله تعالى.

وأخيراً فإن الآيات والأحاديث الدالة على نهج الوسطية والاعتدال والسماحة واليسر في الكتاب والسنة كثيرة، وهي تُظهر معنى الوسطية والاعتدال في العقيدة، وفي التشريعات، وفي الحياة عامة، فكراً وسلوكاً، علماً وعملاً.

وتمثل الوسطية والاعتدال فكراً وسلوكاً في الواقع بعيداً عن الغلو والإفراط، أو الجفاء والتفريط، يحقق المراد بالأمة الوسط، كما يقول صاحب الظلال "وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي" ثم يفصل القول "أمةً وسطاً في التصور والاعتقاد، أمةً وسطاً في التفكير والشعور، أمةً وسطاً في التنظيم والتنسيق، أمةً وسطاً في الارتباطات والعلاقات، أمةً وسطاً في الزمان، أمةً وسطاً في المكان، ثم قال: وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها، إلا أنها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها، وأتخذت لها مناهج مختلفة، ليست هي التي اختارها الله لها"، وحينما

^١ أمثلته وأدلته من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى، والهدي النبوي بين وترجم ذلك بالتعامل الراقي ليس مع المخالف من البشر بل مع عموم المخلوقات والجمادات والأشياء، صلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير.

^٢ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض فقال «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ». قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل قال «اعْمَلُوا فِكُلُّ مَيْسَرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيَسِّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيَسِّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ». ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ (سورة الليل، آية: ٥-٦). أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب (فسنيسره للعسرى)، حديث رقم (٤٩٤٩)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، حديث رقم (٢٦٤٧).

تحدث عن وسطية الإسلام في الزمان قال "أنهي عهد طفولة البشرية من قبلها، وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها، وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها، وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى، وتزواج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات، ورصيدها العقلي المستمر في النماء، وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك"^١.
والأمة تحتاج إلى القدوات الذين يحملون راية التوسط والاعتدال فكراً وسلوكاً، قولاً وعملاً، لترى الترجمة الحقيقية لمفهوم التربية الإسلامية واقعاً مشاهداً، يدعوا بعمله قبل علمه، وبجمله قبل لسانه، وهذا ما سنناقشه في المبحث التالي.

المطلب الثاني: القدوة الحسنة:

أولاً: معنى القدوة الحسنة:

القدوة في اللغة قال ابن فارس "قدو) القاف والبدال والحرف المعتل أصلٌ صحيح يدلُّ على اقتباسٍ بالشيء واهتداء... وفلان قُدوةٌ: يُقتدى به"^٢. وقال ابن منظور "والقُدوة والقُدوة الأسوة يقال فلان قدوة يُقتدى به"^٣. وقال الجوهري "القُدوة: الإسوة. يقال فلان قُدوةٌ يُقتدى به. وقد يضمُّ، فيقال: بك قُدوةٌ، وقُدوةٌ، وقُدَّةٌ"^٤.

والقدوة الحسنة هي المثال الواقعي للسلوك الخلقى الأمثل، وهذا المثال الواقعي قد يكون مثلاً حسيماً مشاهداً ملموساً يقتدى به، وقد يكون مثلاً حاضراً في الذهن بأخباره وسيره، وصوره مرتسمة في النفس بما أثر عنه من سير، وقصص، ومن أنباء، وأقوال، أو أفعال"^٥، فالقدوة هي المثال أو ما يُقتدى به في جميع الأقوال والأفعال، وتكون حسنة أو سيئة، لذلك تُقيد بالقدوة الحسنة أو الصالحة، والقدوة تأتي بعدة معان منها الأسوة، وهي ما يُتَعزى به في جميع الأحوال، يقول تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٢١)، "ففي هذا النص إرشادٌ عظيم من الله يبارك وتعالى للمؤمنين أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة لهم، يقتدون به في أعماله، وأقواله، وأخلاقه، وكل جزئيات سلوكه في الحياة، فهو خير قدوة يقتدي بها الأفراد العاديون،

^١ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ١٣١-١٣٢.

^٢ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٦٦، باب القاف والبدال وما يثلثهما.

^٣ ابن منظور، لسان العرب، ج ١١، ص ٧٠، باب القاف، مادة "قدا".

^٤ الجوهري، الصحاح، ج ٦، ص ٤٦٥-٤٦٦، باب المعتل الواو والياء، فصل القاف، مادة "قدا".

^٥ الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج ١، ص ٢١٤.

والأفراد الطامحون لبلوغ الكمال الإنساني في السلوك" ^١، وقال تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ (سورة الممتحنة، آية: ٤)، وقال عز وجل مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم بالافتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ (سورة الأنعام، آية: ٩٠)، وأمته في الخطاب بالأمر بالترام القدوة من باب أولى، وذلك لأن القدوة الحسنة لها تأثير كبير في التربية والتركية، وهي من أبرز وسائل الإعداد التربوي والاجتماعي والأخلاقي، كما أن القدوة السيئة طريق إلى الانهيار والفساد" ^٢.

ثانياً: الأحاديث المتضمنة للقدوة الحسنة من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. أورد الإمام البخاري في صحيحه من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة "باب الإقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقول الله تعالى (وَاجْعَلْنَا لِمَتِّقِينَ إِمَامًا) قَالَ أئِمَّةٌ نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا"، وكذلك "باب الإقتداء بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم".

وهذا الاقتداء شامل للأقوال والأفعال والتقريرات ^٣، وهو "واجب لعموم قوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (سورة الحشر، آية: ٧)، ولقوله ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (سورة آل عمران، آية: ٣١)، فيجب إتباعه في فعله كما يجب في قوله حتى يقوم دليل على الندب أو الخصوصية" ^٤، وهذا التبويب من الإمام البخاري بالإقتداء بسنن وأفعال النبي صلى الله عليه وسلم نابغ من منهج تربوي إسلامي أصيل، يربط الأمة في تربيتها بالاعتصام بهدي الكتاب والسنة قولاً وعملاً، واقتداءً وتأسياً.

٢. (٧٢٨٢) عَنْ حُدَيْفَةَ قَالَ يَا مَعْشَرَ الْقُرَاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سُبِقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا، لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا.

^١ الميداني، المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٦.

^٢ أنس أحمد كرزون: منهج الإسلام في تركية النفوس وأثره في الدعوة إلى الله تعالى، ط ٣، ١٤٢١ هـ، دار نور المكتبات، جدة، ص ٣١٧.

^٣ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٣٣.

^٤ القسطلاني، المصدر السابق، ج ١٥، ص ٢٥٣-٢٥٤.

هذا الحديث الموقوف^١ على حذيفة رضي الله عنه يبين أن الواجب على أهل العلم وهم القراء^٢ أن يطبقوا الاستقامة على أنفسهم تطبيقاً عملياً وذلك بقوله (استقيموا) "أي اسلكوا طريق الاستقامة وهي كناية عن التمسك بأمر الله تعالى فعلاً وتركاً"^٣، وهذه هي حقيقة تحقيق القدوة الصالحة للغير، وذلك بتعلم العلم والعمل به ليكون أبلغ وأوقع وأوضح في نفوس الناس، والحديث أورده البخاري في باب الاقتداء بسنن النبي صلى الله عليه وسلم ليُبين أن حقيقة الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، وتحقيق القدوة للناس لا تكون إلا بالاستقامة التي هي قول وعمل، وما يكون لها من أثر على الفرد والمجتمع المسلم في تحقيق وتفصيل قواعد ومقاصد الشريعة الإسلامية، قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٥٣)، "أمر المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة"^٤، وهذا يدل على أن لزوم طريق الاستقامة الذي يمثل القدوة الحسنة قولاً وعملاً هو من أكبر عوامل الاجتماع والألفة، والبعد عن الاختلاف والفرقة.

٣. (٧٢٨٣) عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالْتَّجَاءَ. فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِّنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا، فَأَنْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَنَحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي، فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ».

شبه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه في إنذاره لقومه من عذاب الله، وفي دعوته لهم إلى النجاة بالندير العريان، الذي يسرع منذراً بخطر الجيش القادم، متجرداً من ملابسه لدلالة على صدقه وشفقته ومحبته لقومه، وقد كان من عادة العرب أن الرجل إذا رأى خطراً من بعيد يوشك أن يدهم قومه نزع ثيابه

^١ الحديث الموقوف: هو ما يُروى عن الصحابة رضي الله عنهم من أقوالهم وأفعالهم ونحوها، فيوقف عليهم ولا يتجاوز به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، سواء أكان السند متصلًا، أو غير متصل، ويسميه بعض العلماء أثرًا. ولمعرفة أمثله وصوره وحجته ومصادره انظر: مقدمة ابن الصلاح، د. عائشة بنت عبد الرحمن بنت الشاطي، ص ١٩٤-١٩٥، وموسوعة علوم الحديث وفنونه، لسيد عبد الماجد الغوري، ج ٣، ص ٥٢٨-٥٣٣.

^٢ القراء "بضم القاف وتشديد الراء مهموز جمع قارئ، والمراد بهم العلماء بالقرآن والسنة العبادة". ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٢٠.

^٣ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣٢٠.

^٤ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٤٠.

وأشار بما إليهم إذا كان بعيداً عنهم ليخبرهم بالخطر المحقق الذي وصل إلى درجة قصوى لا تحمل انتظاراً، فمن صدّقه سار من أول الليل بعيداً عن موضع الخطر، ومن كذّبه ولم يطعه وبقي في مكانه حتى دخل الصباح اجتاحه الجيش فصار من المهالكين، قال الطيّبي "شبه صلى الله عليه وسلم نفسه بالرجل وإنذاره بالعذاب القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح وشبهه من أطاعه من أمته ومن عصاه بمن كذّب الرجل في إنذاره ومن صدّقه" ^١، وهذا المثال النبوي هو تجسيد لمعنى القدوة الصادقة الناصحة التي يجب على المسلم أن يتخذها ويسير في ركبها ليتحقق له نجاه وسعادة الدنيا والآخرة، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام (فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا)، قال ابن حجر "فأدلجوا) أي ساروا أوّل الليل أو ساروا الليل كلّ... (وعلى مهلهم) بفتحين والمراد به الهينة والسكون" ^٢، وهذا الحديث يبيّن القدوة الحقيقية لكل مسلم وهو المصطفى صلى الله عليه وسلم الكامل في صفاته وأخلاقه وأحواله، وأن إتباعه صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا تصديقاً وطاعةً واقتداءً لما جاء به من الحق (فذلك مثل من أطاعني، فأتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذّب بما جئت به من الحق)، ولذلك أورد الإمام البخاري هذا الحديث في الباب الذي ترجمه بقوله (باب الاقتداء بسنن النبي صلى الله عليه وسلم).

٤. (٧٢٩٨) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ اتَّخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ». فَبَنَدَهُ وَقَالَ «إِنِّي لَنْ أَلْبَسَهُ أَبَدًا» فَبَنَدَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ.

في هذا الحديث وضوح اقتداء الصحابة رضي الله عنهم بالنبي صلى الله عليه وسلم في الفعل والترك، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتماً من ذهب فاتخذ الناس خواتم من ذهب تأسياً واقتداءً به صلى الله عليه وسلم، ثم لما رأى ذلك طرحه فطرح الناس خواتيمهم تأسياً واقتداءً به صلى الله عليه وسلم في الفعل والترك، يقول القسطلاني معللاً نزع النبي صلى الله عليه وسلم لخاتمته وقوله (إني لن ألبسه أبداً) "كراهة مشاركتهم له في خاتمته الذي اتخذته ليختم به كتبه إلى الملوك لثلاث نفوت مصلحة نقش اسمه بوقوع الاشتراك ويحصل الخلل، أو لكونه من ذهب وكان وقت تحريم لبس الذهب على الرجال (فبنّد الناس خواتيمهم) أي طرحوها اقتداءً بفعله صلى الله عليه وسلم فعلاً وتركاً، ولا دلالة في ذلك على الوجوب بل على مطلق التأسى" ^٣، ويقول ابن حجر "اقتصر على هذا المثال لاشتماله

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١١، ص ٣٨٥.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١١، ص ٣٨٤.

^٣ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٥٤.

على تأسيهم به في الفعل والترك"^١، وهذا الاقتداء والتأسي من الصحابة رضوان الله عليهم بأفعاله صلى الله عليه وسلم كان في جميع أحوالهم، ومن ذلك لما نزع نعله في الصلاة نزعوا نعالهم، ولما أمرهم عام الحديبية بالتحلل وتأخروا عن المبادرة رجاء أن يُأذن لهم في القتال وأن يُنصروا فيكملوا عمرتهم قالت له أم سلمة أخرج إليهم واحلق واذبح ففعل فتابعوه مسرعين، فدل ذلك على أن التربية بالقدوة لا تكون إلا عملاً - قولاً وفعلاً - لتكون أبلغ وأوضح وأوقع في النفوس، وأقرب وأسهل في الإفهام، وهو ما فعله عليه الصلاة والسلام، ولذلك أورد البخاري هذا الحديث في بابه الذي ترجم له بقوله (باب الاقتداء بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم).

٥. (٧٢٦٩) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ الْغَدَّ حِينَ بَايَعَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ، وَاسْتَوَى عَلَى مَنبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشَهَّدَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ أَمَّا بَعْدُ فَاخْتَارَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ، وَهَذَا الْكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا وَإِنَّمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ.

في هذا الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيان واضح أن كتاب الله هو سبب هداية النبي صلى الله عليه وسلم، والله تعالى يقول مخاطباً نبيه في سبب إنزال القرآن عليه ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (سورة طه، آية: ٢)، قال قتادة "لا والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة"^٢، والقرآن كتاب هداية وصلاح وشفاء ورحمة للمؤمنين، يقول تعالى ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الإسراء، آية: ٨٢)، قال الفخر الرازي في بيان معنى الشفاء "واعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية، وشفاء أيضاً من الأمراض الجسمانية، أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر، وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان: الاعتقادات الباطلة والأخلاق المذمومة، أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فساداً الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة فيها... وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض فنبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية، وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض، ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن قراءة الرُقى المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثاراً عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفسد،

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٤١.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ١٤٩.

فإن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر الله وكبريائه وتعظيم الملائكة المقربين وتحقير المردة والشياطين سبباً لحصول النفع في الدين والدنيا كان أولى^١، ويقول في بيان معنى الرحمة "وأما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم أنا بيِّنا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة والقرآن قسمان بعضهما يفيد الخلاص عن شهات الضالين وتمويهات المبطلين وهو الشفاء، وبعضهما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية، والأخلاق الفاضلة التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين وهو الرحمة، ولما كان إزالة المرض مقدمة على السعي في تكميل موجبات الصحة لا جرم بدأ الله تعالى في هذه الآية بذكر الشفاء ثم أتبعه بذكر الرحمة"^٢، وهذا القرآن الذي به وفيه الهداية وضَّحها الأثر المروي عن عمر رضي الله عنه إذ يقول (فخذوا به تمتدوا)، وعلَّه بأنه سبب لهداية الرسول صلى الله عليه وسلم (وإنما هدى الله به رسوله)، فكان ذلك موجباً أنه لا هداية لنا وللأمة إلا بكتاب الله، يقول تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الشورى، آية: ٥٢)، فالآية تبين أن كتاب الله سبب هداية النبي صلى الله عليه وسلم وبهذه الهداية الربانية له صلى الله عليه وسلم يهدي _هداية البيان والإرشاد_ إلى الطريق الواضح والصراط المستقيم، فالاعتصام والافتداء بكتاب الله _الذي هو سبب هداية رسول الله _ وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم _المبينة والمفصلة لكتابه تعالى_ تقي المسلم والمجتمع ويلات البلاء والشقاء والاختلاف والتفرق، وتأخذهم إلى بر الهداية والأمان والاجتماع والمحبة.

ثالثاً: التطبيق التربوي للقدوة الحسنة:

القدوة هي الصورة الحية والترجمة الواقعية للفكر، واتخاذ القدوة وتقليدها، أمرٌ فطري، جُبل عليه الإنسان، لأنه ضعيف يحتاج إلى ما يقوي به نقصه وضعفه، فيلجأ إلى تقليد من هو فوقه وأعلى منه، أو من أعجب به في أي جانب، "وغريزة التقليد هي في الأصل غريزة حسنة نافعة، يكتسب بها الناشئ من بيئته كثيراً من المعارف والمهارات والعادات والأخلاق الحسنة، التي توصل إليها الناس بعد تجارب القرون الكثيرة الأولى، لكن المفروض في الإنسان السوي الذكي العاقل المبدع أن لا يجمد عند حدود التقليد، وإلا وقفت الإنسانية عن التقدم والارتقاء إلى ما هو أكمل وأفضل وأحسن، وأن لا يمسك بمذهب التقليد كلما اكتشف أن ما يقلده أمر باطل، أو أن غيره أفضل منه وأحسن. فالإرادة

^١ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج ٢١، ص ٣٨٩-٣٩٠.

^٢ الفخر الرازي، المصدر السابق، ج ٢١، ص ٣٩٠.

الإنسانية يجب أن تكون تابعة للحق الذي يقضي به منطق العقل وتجارب العلم، ولما هو أفضل وأحسن وأكمل في منطق العقل وتجارب العلم أيضاً^١، والفرق بين التقليد المذموم والتقليد المذموم واضح المعنى، حيث يقوم التقليد المذموم على الدليل العقلي والعلمي، أما التقليد المذموم فإنه يقوم على الهوى والتعصب الأعمى المطلق، الذي يُعمي صاحبه عن الحقائق العقلية والعلمية، وهو حال الكفار عندما دعتهم أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام فقالوا ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (سورة الزخرف، آية: ٢٣)، فالذي أوردى المشركين وأهلكهم أنهم رفضوا ترك ما توارثوه عن آبائهم من الشرك، إتباعاً واقتداءً، وأبوا إتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واتخاذهم قدوة، والله سبحانه وتعالى أنزل القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم الذي شكّل به فكره وأصلّ به معتقده، ليكون للناس قرآناً، كما أخبرت عائشة رضي الله عنها حينما سُئلت عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت بلسان الوصف الدقيق المُشاهد «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ»^٢، لذلك أمرنا الله سبحانه وتعالى بالإقتداء به والإهتمام بهديه صلى الله عليه وسلم، ولو شاء الله تعالى لاكتفى بإنزال القرآن وحده، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت أن ينزل خير كتبه على خير خلقه ليكون مثلاً يُحتذى، وأسوة يُقتدى، وصورة حية تُجسد الأقوال أفعالاً ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (سورة الإسراء، آية: ٩٥)، فصلى الله وسلم وبارك على حبيبنا وقدوتنا الذي "لم يعرف التاريخ، ولن يعرف قدوةً أسمى، ولا أسوةً أعلى، ولا إمامةً أسنى، من محمدٍ صلى الله عليه وسلم في كافة مناحي الكمال البشري، خصوصاً خلقه الرضي، وأدبه السني، ولا سيما صدقه وأمانته، وتحريره ودقته"^٣.

فالتربية الإسلامية تنظر إلى القدوة على أنها من أهم أسباب التربية وعلى أساسها يقوم المربي بواجبه، وإلا كان عمله مخالفاً لقوله، داعياً إلى التناقض في تربيته، فأول من يقتدي به الطفل حين تتفتح عيناه أبواه، فإذا كانا قدوةً صالحةً صلح الطفل، وإن كانا قدوةً سيئةً فسد الطفل «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ...»^٤، وهذا يعود إلى أن "قدرة الطفل على الالتقاط الواعي، وغير الواعي كبيرة جداً أكبر مما ظنّ عادة، ونحن ننظر إليه على أنه

^١ الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج ١، ص ٨٢٠.

^٢ أخرجه أحمد، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، حديث رقم (٢٥٣٤١). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

^٣ محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، (د.ت)، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص ٣٢٧.

^٤ أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه...، حديث رقم (١٣٥٨).

كائن صغير لا يدرك ولا يعي"^١، يقول علوان في تربية الأولاد "والذي نخلص إليه بعدما تقدم أن القدوة _ في نظر الإسلام _ هي من أعظم وسائل التربية ترسيخاً وتأثيراً، فالطفل حين يجد من أبويه ومربيه القدوة الصالحة في كل شيء فإنه يتشرب مبادئ الخير، ويتطبع على أخلاق الإسلام. وحين يريد الأبوان أن يتدرج طفلهما على خلق الصدق والأمانة والعفة والرحمة ومجانبة الباطل.. فعليهما أن يعطيا من أنفسهما القدوة الصالحة في فعل الخير والابتعاد عن الشر، في التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، في إتباع الحق ومجانبة الباطل، في الإقدام نحو معالي الأمور والترفع عن سفاسفها. إن الولد الذي يرى أبويه يكذبان لا يمكن أن يتعلم الصدق!، وإن الولد الذي يرى أبويه يغشّان أو يخونان لا يمكن أن يتعلم الأمانة!... وهكذا ينشأ الولد على الخير، ويتربى على الفضيلة والأخلاق، إذا وجد من أبويه القدوة الصالحة، وبالتالي فإن الولد يتدرّج نحو الانحراف، ويمشي في طريق الكفر والفسوق والعصيان إذا وجد من أبويه القدوة الفاسقة"^٢، ومهما عمل الوالدان أو المعلم أو المربي والموجه جاهدين لتمثيل القدوة الصالحة للأبناء والطلاب لا بد أن يعتربهم النقص والخطأ في بعض الأقوال أو التصرفات فيكون نتيجة ذلك تناقضٌ عند الناشئة وتضاربٌ في القيم والأخلاق، لذا واجبٌ على الوالدين والمعلمين وأهل التربية والتوجيه في تربيتهم للناشئة والناس ربطهم بالقدوة الأعلى صلى الله عليه وسلم، والحكم على الأفكار والسلوك بميزان الوحي، حتى تكتمل لهم الصورة فيأخذون الأصول والقواعد في معرفة القدوة الصالحة من غيرها، ويزنون كل قدوة بميزان الشرع لينالوا سعادة الدنيا والآخرة، يقول علوان "ولا يكفي أن يعطي الأبوان للولد القدوة الصالحة، وهما يظنان أنهم أديا ما عليهما، وقاما بواجبهما بل ينبغي أن يربطوا ولدهما بصاحب القدوة عليه الصلاة والسلام، وذلك بتعليم الولد مغازي النبي صلى الله عليه وسلم، وسيرته العطرة، وأخلاقه الكريمة"^٣.

والتربية بالقدوة الحسنة القائمة على التصورات العقلية والشرعية الصحيحة، والبناء العلمي السليم، والمنهج الوسطي القويم، هي من أهم وسائل ودعائم الحفاظ على الهوية لدى الأفراد، وتحقيق الثقة والثبات في نفوسهم، وتنمية روح المسؤولية والإبداع والطموح في أعمالهم، لما يرون من مثال واقعي يجسد المعاني الراقية، والأفعال الطموحة، والأخلاق الفاضلة، وهذا لا يتحقق إلا بالصحة والملازمة لأهل الخير والصلاح، والعلم والتقوى، حتى ينظر المسلم إلى أعمالهم وأخلاقهم وأحوالهم فيتأسى بها، ويسمع العلم والحكمة فيعي عنهم، ويتعد عن مصاحبة أهل الشر والباطل والهوى حتى

^١ محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ط٦، ١٤٠٢هـ، دار الشروق، بيروت، ص١١٧.

^٢ عبد الله ناصح علوان: تربية الأولاد في الإسلام، ط٢، ١٤١٩هـ، دار السلام، القاهرة، ج٢، ص٤٩٤.

^٣ علوان، تربية الأولاد في الإسلام، ج٢، ص٤٩٤.

لا يتأثر بأعمالهم وأخلاقهم، يقول صلى الله عليه وسلم «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»^١، قال الحافظ المباركفوري رحمه الله "أي على عادة صاحبه وطريقته وسيرته (فليُنظر) أي فليتأمل وليتدبر (من يخالل) من المخاللة وهي المصادقة والإخاء، فمن رضي دينه وحلقه خالسه، ومن لا تجنبه، فإن الطباع سرقة، والصحبة مؤثرة في إصلاح الحال وإفساده، قال الغزالي: مجالسة الحريص ومخالطته تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد ومخالطته تزهد في الدنيا؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والافتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري"^٢، وقد بين صلى الله عليه وسلم التأثير العجيب والقوي للصحبة مبيناً أن جميع الأحوال معها في مغنم وخير أو خسارة وشر، يقول صلى الله عليه وسلم «مثل الجلّيس الصّالح والسّوء كحاميل المسك ونافخ الكبر، فحاميل المسك إمّا أن يُحذيك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبةً، ونافخ الكبر إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد ريحاً خبيثةً»^٣، فأرشد صلى الله عليه وسلم إلى مصاحبة المؤمن بقوله «لا تُصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقياً»^٤، قال الخطابي "وإنما حذر من صحبة من ليس بتقي وزجر عن مخالطته ومؤاكلته لأن المطاعم توقع الألفة والمودة في القلوب"^٥، ومعلوم أن الألفة والمودة إذا وقعت في القلوب فإنها علامة محبة ورضى وقبول وما يتبعها من تقليد واقتداء.

لذا جاء التوجيه الرباني للقدوة صلوات الله وسلامه عليه في قوله تعالى ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (سورة الكهف، آية ٢٨)، قال الألوسي "مع الذين أي مصاحبة مع الذين (يدعون ربهم بالعداة والعشي) أي يعبدونه دائماً... والتعبير عن أولئك بالموصول لتعليل الأمر بما في حيز الصلة من الخصلة الداعية إلى إدامة الصحبة"^٦، وهذه التربية هي التي

^١ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب البر والصلة، حديث رقم (٧٣٢٠). قال الذهبي: صحيح. الترمذي،

كتاب الزهد، حديث رقم (٢٣٧٨). قال الألباني: حديث حسن.

^٢ محمد المباركفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، ج ٧، ص ٨٠.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الذبائح، باب المسك، حديث رقم (٥٥٣٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قراء السوء، حديث رقم (٢٦٢٨).

^٤ أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في صحبة المؤمن، حديث رقم (٢٣٩٥). قال الألباني: حديث حسن.

^٥ محمد المباركفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، ج ٧، ص ١٠٢.

^٦ الألوسي، روح المعاني، ج ١٥، ص ٣٣٠-٣٣٥.

ربى عليها ربنا تبارك وتعالى خلقه بتشريعاته وأحكامه كصلاة الجماعة التي فيها معاني القدوة للإنتظام والمواظبة على الطاعة، والزكاة التي فيها معاني القدوة للبذل والعطاء والتكافل والتراحم، وصيام رمضان والحج... وغيرها، وهي التربية التي ربى عليها نبينا صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمته، وضرب لنا صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في كل خلقٍ فضيل، وتعاملٍ رشيد، بل لقد "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل، وكان مريباً وهادياً بسلوكة الشخصي، قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به"^١، وما انتشر الإسلام ودخل القلوب قبل البلاد بأدلة شرعية أو حجج عقلية وإنما بما رآه الناس من أخلاقه وتعامله ورحمته صلى الله عليه وسلم، وتطابق ما يدعوا إليه مع فعله وتعامله، يقول تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٩)، وإذا حاد المجتمع عن تفعيل القدوة في الحياة، أو خالف القدوات بأفعالهم ما يتكلمون به أو ينادون إليه من قيمٍ وأخلاقٍ ومثُل، فإن النتيجة الطبيعية هي الفساد الأخلاقي الاجتماعي، والإهيار القيمي الإنساني، والعذاب والعقاب الإلهي، يقول تعالى محذراً عباده المؤمنين من فعل صفوة اليهود وهم العلماء (الأخبار)، وصفوة النصارى وهم العباد (الرهبان) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (سورة التوبة، آية: ٣٤)، قال ابن كثير "والمقصود: التحذير من علماء السوء وعباد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى... والحاصل التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قال تعالى ﴿لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك"^٢، وهذا السبب الذي هو مخالفة الأفعال للأقوال وخاصة من العلماء أو الحكام أو المرين أو غيرهم من أهل الصلاح والدعوة هو سبب لنهاية وسقوط كل مجتمع أو عقيدة أو فكر، بل وربما يكون السبب في ضعف أو موت ما يتكلمون به ويعتقدونه، وما بداية العلمانية في الديانة النصرانية إلا انقلاباً على طغيان الكنيسة المادي والفكري، ومخالفة أفعال رجال الدين فيها لما ينادون به من أقوال واعتقادات، إذ كانوا يعلقون الناس بالجنة ببيع صكوك الغفران^٣ إما ببذل المال أو ببذل النفس

^١ محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ص ١٨٣.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٣٦٤.

^٣ في عام ١٢١٥م صدر عن مجمع روما قرار خطير يُعطي (البابا) حق غفران الذنوب، استناداً -فيما نظن، إلى نص محرف ينسب إلى المسيح عليه السلام- قوله إلى بطرس "وأعطيتك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحلله على الأرض يكون محلولاً في السموات (إنجيل متى، الإصحاح

للدفاع عن الكنيسة ومبادئها، وهم متعلقون بالدنيا وجمع الأموال واستغلالها لمصالحهم وشهواتهم، ويخرجون على العقول وظيفة التفكير. محاكم التفتيش^١ حتى لا تميز بين الحق والباطل، ويخرجون على

١٦، (من ١٩-٢٠)، ويرد بعد هذا النص، نصٌ آخر يشكك في صحة النص الأول، إذ ينسب إلى المسيح قوله لبطرس "فالتفت وقال لبطرس اذهب عني يا شيطان، أنت معثرة لي، لأنك لا تهتم بما لله (إنجيل متى، الإصحاح ١٦، من ٢٣-٢٤). فكيف يُعطي المسيح إلى شيطان مفاتيح ملكوت السموات؟! وهل يملك المسيح نفسه هذه المفاتيح؟. جريشة، الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص ٥٤-٥٥.

^١ من العلماء الذين قتلوا على يد الكنيسة بتهمة الهرطقة والزندقة، والخروج عن مبادئ الدين والكنيسة، العالم الفلكي جاليليو الذي قال بدوران الأرض، والعالم الفيزيائي إسحاق نيوتن الذي قال بقانون الجاذبية الأرضية، وغيرهم الكثير، وكانت بداية النهاية "النظرية التي هزت الكنيسة لأول مرة وهي نظرية كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣م) الفلكية، فقبل هذه النظرية كانت الكنيسة المصدر الوحيد للمعرفة، وكانت فلسفتها تعتقد نظرية بطليموس التي تجعل الأرض مركز الكون، وتقول: إن الأجرام السماوية كافة تدور حولها.

فلما ظهر كوبرنيق بنظريته القائلة بعكس ذلك، كان جديراً بأن يقع في قبضة محكمة التفتيش، ولم ينج من ذلك لأنه كان قسيساً بل لأن المنية أدركته بعد طبع كتابه بقليل، فلم تُعط المحكمة فرصة لعقوبته، إلا أن الكنيسة حرّمت كتابه (حركات الأجرام السماوية) ومنعت تداوله، وقالت: إن ما فيه هو وساوس شيطانية مغايرة لروح الإنجيل. وظنت أن أمر هذه النظرية قد انتهى، ولكن رجلاً آخر هو "جردانو برونو" بعث النظرية بعد وفاة صاحبها، فقبضت عليه محكمة التفتيش، وزجّت به في السجن ست سنوات، فلما أصرّ على رأيه أحرقتة سنة ١٦٠٠م، وذرت رماده في الهواء، وجعلته عبة لمن اعتبر، وبعد موته ببضع سنوات كان "جاليليو" قد توصل إلى صنع المرقب (التلسكوب) فأيد تجريبياً ما نادى به أسلافه نظرياً، فكان ذلك ميراً للقبض عليه، ومحاكمته، وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان، وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات، ولما خشى على حياته أن تنتهي بالطريقة التي انتهت بها برونو أعلن ارتداده عن رأيه، وهو راعع على قدميه أمام رئيس المحكمة قائلاً "أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمري جئت راعع أمام فخامتك، والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدي: أرفض، وألعن، وأحتقر القول الإلحادي الخاطيء بدوران الأرض"، وتعهد مع هذا بتبليغ المحكمة عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل!!

هؤلاء هم زعماء النظرية، وهذا هو موقف الكنيسة منهم وليس غريباً أن تضدهم وتحارب أفكارهم، فإن أفكارها لا تعيش إلا في الظلام، وهي لم تستعبد الناس بالحق، بل بالخرافة.. ولكن الغريب هو أدلتها الدينية التي ساققتها لتكذيب النظرية -وما كان ليضير الدين في شيء أن تصدق أو تكذب- قالت الكنيسة: إن الأرض يجب أن تكون مركز الكون الثابت؛ لأن الأبنوم الثاني -المسيح- تجسّد فيها، وعليها تمت عملية الخلاص والفداء، وفوقها يتناول العشاء الرباني، كما أن التوراة تقول "الأرض قائمة إلى الأبد، والشمس تشرق، والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق".

علاقة القلوب بالله تعالى بإدعاء العصمة والقداسة، والحق في تفسير الكتاب المقدس، ووجوب الاعتراف بالخطيئة بين أيديهم لنيل الرحمة والمغفرة، ويُضفون الصبغة الدينية على ذلك كله بتحريم كل ما يخالف مبادئ الكنيسة، بل "واعتربت المناقش فيها أو الشاكّ في أمرها كافراً مهبطاً وجبت عليه اللعنة الأبدية، وخرج من رضوان البابوية فخرج من ثمّ من رضوان الله"^١، ولكن الناس ما إن شاهدوا المعتقد والمبدأ الذي ينادون به والاختلاف والتناقض الواضح الصريح مع أفعالهم، حتى ثاروا على الكنيسة ومعتقداتها ورجالها، وكانت بداية عزل الكنيسة وما تحمله من معتقدات ومبادئ عن الحياة، وهذا الحال ينطبق على كل مبدأ ومعتقد، ولذلك أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم أنه سيأتي خلُوف يخالفون سنته وهديه ولا يقتدون به، وحث المسلمين على جهادهم لما لهم من أثر خطير على الدين وعلى المجتمع، فقال «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَقُولُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرَدَلٍ»^٢.

وضرب الله تعالى لنا أمثلة القدوة التي هي القول والعمل وهو ما حكاه عن نبيه شعيب عليه السلام في قوله ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَنْطَعْتُ﴾ (سورة هود، آية: ٨٨)، فإصلاح نبي الله شعيب عليه السلام كان بعدم تناقض أفعاله مع ما يقوله ويدعوا إليه،

أما كروية الأرض وسكني جانبها الآخر ففتتها الكنيسة، بحجة أن "من خَطَلَ الرأي أن يعتقد الإنسان بوجود أناس تعلقوا مواطئ أقدامهم على رؤوسهم، وبوجود نباتات وأشجار تنمو ضاربة إلى أسفل، وقالت: إنه لو صح هذا الزعم لوجب أن يمضي المسيح إلى سكان الوجه الآخر من الأرض، ويموت مصلوباً هناك من أجل خلاصهم". ثم ماذا كانت نتيجة هذا الإرهاب الفكري؟ "لم يكن للناس بُدٌّ تحت هذا التهديد الطاعني من أيديهم وحدهم - الوساطة بين الله وعباده - كما يزعمون - أن يسلموا تسليماً أعمى بأسطورة التثليث، وأسطورة العشاء الرباني، وأسطورة الأب الذي صلب ولده فداءً لخطيئة آدم، وغيرها من الأساطير المفروضة عليهم، لكي يأمنوا غضب الوسطاء، المؤدي - في وهمهم - إلى غضب الله، وأن يلتزموا بهذا الحجر البشع على العقول والأفكار عدة قرون.

ولكن؛ هل كان من الممكن أن يستمر ذلك إلى الأبد، دون أن تتمرد العقول المكبوتة، وتدعو إلى حرية التفكير؟". هلال حسين فلمبان: دور الحوار التربوي في وقاية الشباب من الإرهاب الفكري، ط ٤، ١٤٣١ هـ، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، ص ١١٤-١١٦، نقلاً عن محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة.

^١ محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، ط ٧، ١٤١٣ هـ، دار الشروق، القاهرة، ص ٣٣.

^٢ أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص، حديث رقم (٥٠).

أي تربيةً بالقدوة والعمل، والتطبيق على النفس أولاً، وسُمِّي ذلك إصلاحاً لأن الإنسان المصلح لغيره لا بد أن يكون الصلاح متمثلاً في أخلاقه وتعامله وجميع شؤونه وإلا كان مكذباً قوله بفعله، وهذا الإصلاح المتمثل بالقدوة العملية لما يعتقدده الإنسان هو ما وصف الله به عباده المتمسكين بالكتاب العاملين بأوامره ونواهيه، يقول تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ الْمُصْلِحِينَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٧٠)، قال ابن الجوزي "تأويله: والذين يمسكون بالكتاب إنا لا نضيع أحر المصلحين منهم... وتلخيص المعنى عنده: والذين يمسكون بالكتاب، وأقاموا الصلاة، إنا لا نضيع أحرهم، فأظهرت كنايتهم بالمصلحين"^١، وهذا هو الواجب على كل مسلم في تربيته نفسه وأبناءه ومن حوله والناس أجمعين أن يكون قدوة في الصلاح والإصلاح، في القول والعمل؛ لأنه "من السهل تأليف كتاب في التربية، ومن السهل تخيل منهج - وإن كان في حاجة إلى إحاطة وبراعة وشمول - ولكن هذا المنهج يظل حبراً على ورق.. يظل معلقاً في الفضاء، ما لم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه، عندئذ يتحول المنهج إلى حقيقة.. يتحول إلى حركة.. يتحول إلى تاريخ؛ لكي يعرف الناس أنه حق، ثم يتبعوه"^٢.

ومن معاني القدوة الحسنة - التي هي قول وعمل - الاستقامة يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (سورة فصلت، آية: ٣٠)، قال الفخر الرازي "ليس المراد منه القول باللسان فقط لأن ذلك لا يفيد الاستقامة، فلما ذكر عقيب ذلك القول الاستقامة علمنا أن ذلك القول كان مقروناً باليقين التام والمعرفة الحقيقية، إذا عرفت هذا فنقول في الاستقامة قولان أحدهما: أن المراد منه الاستقامة في الدين والتوحيد والمعرفة، الثاني: أن المراد منه الاستقامة في الأعمال الصالحة"^٣، ويقول تعالى آمراً نبيه وعباده المؤمنين ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ (سورة هود، آية: ١١٢)، قال البغوي "أي استقم على دين ربك، والعمل به، والدعاء إليه كما أمرت، ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي ومن آمن معك فليستقيموا، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ وروغان الثعلب"^٤ ويقول صلى الله عليه وسلم عندما جاءه سفيان بن عبد الله الثقفي فقال له: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال «قل آمنت بالله ثم استقم»^٥، قال النووي "قال الأستاذ

^١ ابن الجوزي، زاد المسير، ج ٣، ص ٢١٦.

^٢ محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ص ١٨٠.

^٣ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٥٦٠.

^٤ البغوي، معالم التنزيل، ج ٢، ص ٣٤٠.

^٥ أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، حديث رقم (٣٨).

أبو القاسم القشيري في رسالته: الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده"^١. وهذا هو مبدأ التربية الإسلامية في تفعيل القدوة الحسنة، وترسيخها في نفوس الأفراد، فهي لا تكتفي بأن يتخذ الإنسان قدوةً صالحةً لنفسه، بل ترتقي به ليكون قدوةً لغيره في الخير لكي ينال أجر من يتبعه، ولذلك فسر الإمام البخاري قول الله تعالى ﴿وَأَجْعَلْنَا لِمَتِّقِينَ إِمَامًا﴾ (سورة الفرقان، آية: ٧٤)، "قال أئمة نقتدي بمن قبلنا ويقتدي بنا من بعدنا"^٢، وبذلك يحصل نشر الفضائل والقيم والسلوك الحسن بين الناس، وينتشر الخير والحب والأخوة والصفاء، وتصبح واقعاً محسوساً، وعملاً مشاهداً، وتفعيلاً وداعماً اجتماعياً، وأهمية القدوة الحسنة في إكساب واكتساب الفضائل يرجع إلى عدة أسباب^٣، ومنها:

١. إن القدوة الحسنة تحتل في المجتمعات الإنسانية مرتبة من المجد لا يحظى بها غيرها، وهذه المرتبة محفوفة بالتقدير الكبير من الناس، ومحفوفة بالثناء والإطراء والإعجاب، وكل هذا يوئد في الفرد المحروم من أسباب هذا المجد حوافز قوية تحفزه إلى تقليد القدوة الحسنة، ومحاكاتها في أخلاقها وسلوكها، وعن طريق التقليد في الفضائل تُكتسب الفضائل، لأن الممارسة التقليدية تتحول إلى عادة متمكنة، وهذه تتحول إلى خلق مكتسب.

٢. إن المثال الحي المرتقي في درجات الكمال يثير في نفس البصير العاقل قدراً كبيراً من الاستحسان والإعجاب والتقدير والحب، ومع هذه الأمور تهيج دوافع الغيرة لديه، فإذا كان عنده في الأصل ميل إلى الخير، وتطلع إلى مراتب الكمال، وليس في نفسه عقبات تصدّه عن ذلك، أخذ يحاول تقليد ما أستحسنه وأُعجب به، بما تولد لديه من حوافز قوية تحفزه لأن يعمل مثله، حتى يحتل درجة الكمال التي رآه يحتلها.

٣. إن القدوة الحسنة المتحلية بالفضائل الممتازة تعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة، التي هي في متناول القدرات الإنسانية، وشاهد الحال أقوى من شاهد المقال.

والخلاصة فإن التربية الإسلامية بواقعيتها تقوم على أن الكمال في طلب أو تمثّل القدوة الحسنة غير ممكن، ولكن بغلبة جانب الخير والعلم والصلاح وما يصحبه من عمل وإخلاص الذي يُحقق معاني القدوة الحسنة وفوائدها، يقول أبو حامد الغزالي "إنك لو طلبت منزهاً عن كل عيب اعتزلت

^١ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٢.

^٢ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣١٢.

^٣ الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج ١، ص ٢١٤-٢١٥.

عن الخلق كافة، ولن تجد من تصاحبه أصلاً، فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ، فإذا غلبت المحاسن المساوئ، فهو الغاية والمنتهى"^١، وهذا ما يجعل التربية الإسلامية تربيةً واقعيةً حيةً فاعلةً في مبادئها وتطبيقاتها، وهذا ما سنناقشه بالتفصيل في الفصل التالي.

^١ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١٥٨.

الفصل الرابع

المضامين التربوية المستنبطة من أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة المتعلقة بالمجتمع

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المضامين التربوية في بناء المجتمع:

- المطلب الأول: تحقيق مبدأ العدل.
- المطلب الثاني: تحقيق مبدأ الشورى.
- المطلب الثالث: تحقيق مبدأ السمع والطاعة.
- المطلب الرابع: تحقيق مبدأ الوحدة والاجتماع.

المبحث الثاني: المضامين التربوية في حماية المجتمع:

- المطلب الأول: تحقيق مبدأ الحوار.
- المطلب الثاني: تحقيق مبدأ الاستقلالية.
- المطلب الثالث: تحقيق مبدأ حفظ الأمن الفكري.
- المطلب الرابع: تحقيق مبدأ حفظ الأمن المادي.

تمهيد

عرض الباحث في الفصل السابق الوسائل التربوية المعينة على الوحدة والاجتماع المتعلقة بالفرد فكراً وسلوكاً، وتطبيقاً ونتيجة، وهذا الفصل بناء وثمره له حيث يتعلق بالمجتمع فكراً وسلوكاً، وتطبيقاً ونتيجة، ليصل أفراد الأمة الإسلامية بمجتمعاتهم إلى الريادة والتقدم والاستقرار، تحت مظلة الأخوة والمحبة والاجتماع.

وسوف يقوم الباحث في هذا الفصل بدراسة الأحاديث الدالة على المضامين التربوية المتعلقة بالمجتمع من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري، بذكر التعريف اللغوي والاصطلاحي للمضمون، ثم إيراد شرح موجز للحديث مع استنباط المضمون المتعلق به، ثم يورد التطبيق التربوي لذلك المضمون مع بيان متعلقاته من أقسام وأنواع وضوابط، وكيفية تطبيق تلك المضامين التربوية المستنبطة من الأحاديث الواردة على الفكر والسلوك، وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: في بناء المجتمع

المجتمع هو مجموع أفراد وآحاده، وبصلاح الأفراد يصلح المجتمع، وبوعيهم يرتقي، وبعلمهم وفهمهم يتقدم ويتطور، ويتمسكهم بمبادئهم وقيمهم يقوى ويستقر، لذا فإن الحاجة إلى البحث عن كل سبب يقوم ويعزز ويؤصل لمجتمع متماسك متعايش مترابط ضرورة ملحة في زمن تهاوتت فيه قيم ومبادئ، وانهارت فيه دول ومجتمعات، وتداعت في الأهواء والأطماع على المصالح والمقاصد. وهذا الفصل خطوة في طريق الإصلاح التربوي الاجتماعي حيث يقوم على مبادئ (العدل، والشورى، والسمع والطاعة، والوحدة والاجتماع)، فهذه المبادئ ركائز أساسية لبناء أي مجتمع، والتربية الإسلامية عززت هذه المبادئ بالكثير من التشريعات والأحكام الكفيلة لكل مجتمع تحققت فيه أن ينعم بالاستقرار والطمأنينة، والتقدم والتطور.

المطلب الأول: تحقيق مبدأ العدل:

أولاً: معنى مبدأ العدل:

المبادئ جمع مبدأ يقول الجرجاني المبادئ "هي التي يتوقف عليها مسائل العلم، كتحرير المباحث وتقرير المذاهب، فللبحث أجزاء ثلاثة مرتبة بعضها على بعض، وهي المبادئ، والأواسط، والمقاطع،

وهي المقدمات التي تنتهي الأدلة والحجج إليها من الضروريات والمسلمات، ومثل الدور والتسلسل، وهي التي لا تحتاج إلى البرهان، بخلاف المسائل، فإنها تثبت بالبرهان القاطع"^١.

والعدل في اللغة قال ابن فارس "العين والذال واللام أصلان صحيحان... العدل من الناس: المرضي المستوي الطريقة. يقال: هذا عدلٌ، وهما عدلٌ... والعدل: الحكم بالاستواء"^٢، وقيل العدل "ضد الجور"^٣.

وقيل العدل ما قام في النفوس أنه مُستقيم، والاعتدال توسط حال بين حالين في كم أو كيف، وكل ما تناسب فقد اعتدل، وكل ما أقمته فقد عدلته وعدلته، والعدول: هم الخيار... وذُكر من معاني العدل والاعتدال: الحكم بالعدل، والاستقامة، والتقويم، والتسوية، والمماثلة، والموازنة، والتزكية، والمساواة، والإنصاف، والتوسط^٤.

وفي الاصطلاح يقول الجرجاني العدل "عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وقيل: العدل، مصدر بمعنى: العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق"^٥. وعرفه الميداني "بأنه إعطاء كل ذي حق ما يعادل حقه ويساويه دون زيادة ولا نقصان"^٦.

وعرفه ابن حزم تعريفاً شاملاً بقوله "حد العدل أن تعطي من نفسك الواجب، وتأخذه... وهو التزام الحق قولاً وفعلاً، أو إعطاء كل ذي حق حقه دون زيادة أو نقص، والمساواة بين أصحاب الحقوق، وعدم الرضا بالظلم على أي إنسان"^٧.

والتربية الإسلامية تقوم على مبدأ العدل في جميع الأحكام والتشريعات وعلى كل الأشخاص والتطبيقات، وهذا ما سيوضحه الباحث في هذا المطلب.

^١ الجرجاني، التعريفات، ص ٢٥٢، مادة (المبادئ).

^٢ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٤، ص ٢٤٦-٢٤٧، باب العين والباء وما يثلثهما.

^٣ الرازي، مختار الصحاح، ص ٢٠٩، مادة (عدل).

^٤ ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٨٣-٨٧، باب العين، مادة (عدل). والفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ١٣٣١-١٣٣٢، باب اللام، فصل العين، مادة (عدل).

^٥ الجرجاني، التعريفات، ص ١٩١-١٩٢، باب العين، مادة (العدالة) و(العدل).

^٦ الميداني، الأخلاق الإسلامية، ج ١، ص ٦٢٢.

^٧ علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام، ٤٠٣هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ٧٠.

ثانياً: الأحاديث المتضمنة للعدل من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. (٧٢٧٨ - ٧٢٧٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ قَالَا كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ «لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ»^١.

أصل هذا الحديث من قصة الرجل الذي زنى ابنة بامرأة الرجل الذي كان أجيراً عنده، قال ابن حجر "حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في قصة العسيف^٢ قالوا كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأقضين بينكما بكتاب الله وهذا يوهم أن الخطاب لهما وليس كذلك وإنما هو لوالد العسيف والذي استأجره لما تحاكما بسبب زنا العسيف بامرأة الذي استأجره، والقدر المذكور هنا طرف من القصة المذكورة"^٣، وفي القصة أن الرجل أخبر أن على ابنه الرجم فافتدى ولده بمائة شاة وخادم، فلما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم طلبا منه الحكم بينهما بكتاب الله، والمقصود به حكمه صلى الله عليه وسلم لأن أحكامه بوحى ربابي، قال القسطلاني "إشارة إلى أن السنة يطلق عليها كتاب الله لألها بوحيه وتقديره قال الله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^٤ إن هو إلا وحي يوحى﴾ (سورة النجم، آية ٣-٤)"^٤، وفي طلبهما الحكم بينهما بكتاب الله يدل على حرصهم على تحقيق العدل التشريعي التشرعي لا الصلح الإنساني، قال البيضاوي "إنما تواردا على سؤال الحكم بكتاب الله مع أهما

^١ أصل هذا الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدِ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ. فَقَامَ حَصْمُهُ فَقَالَ صَدَقَ، اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ. فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَيَّ هَذَا، فَرَزْتِي بِأَمْرَائِهِ، فَقَالُوا لِي عَلَى ابْنِكَ الرَّحْمُ. فَفَدَيْتُ ابْنِي مِنْهُ بِمِائَةِ مِنَ الْعَنْمِ وَوَلِيدَةٍ، ثُمَّ سَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ، فَقَالُوا إِنَّمَا عَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَعْرِيبُ عَامٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ، أَمَّا الْوَلِيدَةُ وَالْعَنْمُ فَرُدُّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَعْرِيبُ عَامٍ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا أُتَيْسُ - لِرَجُلٍ - فَاغْذُ عَلَيَّ امْرَأَةً هَذَا فَارْجُمَهَا». فَغَدَا عَلَيْهَا أُتَيْسٌ فَرَجَمَهَا. أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم (٢٦٩٥-٢٦٩٦).

^٢ قال ابن حجر "قال مالك: والعسيف الأجير... والعسيف بمهملتين الأجير وزنه ومعناه والجمع كأجراء، ويُطلق أيضاً على الخادم وعلى العبد وعلى السائل، وقد يُطلق على من يُستهان به، وفسره عبد الملك بن حبيب بالغلام الذي لم يحتلم... وسُمِّي الأجير عسيفاً لأن المستأجر يعسفه في العمل والعسْفُ الجور، أو هو بمعنى الفاعل لكونه يعسف الأرض بالتردد فيها، يُقال عَسَفَ الليل عَسْفًا إذا أكثر السير فيه، ويُطلق العسْفُ أيضاً على الكفاية، والأجير يكفي المستأجر الأمر الذي أقامه فيه". ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٢، ص ١٦٨.

^٣ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣١٦.

^٤ القسطلاني، إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٣٦.

يعلمان أنه لا يحكم إلا بحكم الله ليحكم بينهما بالحق الصرف لا بالمصلحة ولا بالأخذ بالأرفق لأن للحاكم أن يفعل ذلك برضا الخصمين^١، وفي قوله عليه الصلاة والسلام «لأَقْضَيْنِ بَيْنَكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ» دلالة على تحريه صلى الله عليه وسلم على تحقيق العدل في أرقى صورته وأعلى مراتبه، كيف وهو المبلغ عن ربه قوله تعالى ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (سورة النساء، آية: ٥٨).

٢. (٧٣٥٠ - ٧٣٥١) عَنْ عَبْدِ الْمَجِيدِ بْنِ سُهَيْلِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيْبِ يُحَدِّثُ أَنَّ أَبَا سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ وَأَبَا هُرَيْرَةَ حَدَّثَاهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ أَخَا بَنِي عَدِيٍّ الْأَنْصَارِيَّ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى خَيْبَرَ، فَقَدِمَ بَتْمَرَ جَنِيبٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَكُلْ تَمْرَ خَيْبَرَ هَكَذَا»، قَالَ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَنَشْتَرِي الصَّاعَ بِالصَّاعَيْنِ مِنَ الْجَمْعِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا تَفْعَلُوا، وَلَكِنْ مِثْلًا بِمِثْلٍ، أَوْ بِيَعُوا هَذَا وَاشْتَرُوا بِثَمَنِهِ مِنْ هَذَا وَكَذَلِكَ الْمِيزَانُ».

في هذا الحديث نهي نبوي عن الربا في البيوع، ولاشك أن الربا يقوم على الظلم وأكل أموال الناس بالباطل، وما انتشر الربا في مجتمع إلا انتشرت فيه الجرائم وانعدم الأمن، يقول تعالى محذراً عباده من الربا ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٧٩)، وهذه الحرب من الله لها صور متعددة وأشكال مختلفة.

والحديث يقرر التحريم النبوي للربا من خلال قصة ذلك الصحابي^٣ الذي استعمله الرسول صلى الله عليه وسلم على خيبر، وفيه أنه جاء للنبي صلى الله عليه وسلم بتمر جنيب^١ وهو التمر الجيد، فسأله

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٢، ص ١٧٠.

^٢ "الربا في اللغة: الزيادة، والمقصود به هنا: الزيادة على رأس المال، قلت أو كثرت... وهو محرم في جميع الأديان السماوية، ومحظور في اليهودية والمسيحية والإسلام... والربا قسمان: ربا النسيئة وربا الفضل. وربا النسيئة هو: الزيادة المشروطة التي يأخذها الدائن من المدين نظير التأجيل. وهذا النوع محرم بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة. وربا الفضل هو: بيع النقود بالنقود أو الطعام بالطعام

مع الزيادة. وهو محرم بالسنة والإجماع لأنه ذريعة إلى ربا النسيئة، وأطلق عليه اسم الربا تجوزاً، كما يُطلق اسم المسبب على السبب". السيد سابق: فقه السنة، ط ٨، ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٣، ص ١٥٥ وما بعدها.

^٣ قال ابن حجر "واسم المبعوث (سواد) بفتح المهملة وتخفيف الواو (ابن غزيرة) بفتح المعجمة وكسر الزاي مشدداً". فتح الباري شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ج ١٣، ص ٣٩٣.

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تمر خبير إن كان كله كذلك، فقال لا إنا لنشتري الصاع من الجنيب بالصاعين من الجَمْع^٢ وهو التمر الرديء، فكان النهي النبوي عن الظلم الربوي "لا تفعلوا"، وتطبيق لمبدأ العدل الرباني "ولكن مثلاً بمثل، أو يبعوا هذا واشتروا بثمنه من هذا وكذلك الميزان"^٣ وحكمة ذلك التشريع ليكون المجتمع الإسلامي آمناً مطمئناً، يحفظ الحقوق، ويصون المصالح، ويطبق العدل في جميع شؤونه وعلى كل أفراد.

٣. (٧٣٥٢) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ».

في هذا الحديث دلالة واضحة على تحري الحق والصواب في الحكم عن طريق الاجتهاد فيه قبل إصداره، وذلك هو العدل الذي أمر الله به عباده ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (سورة النساء، آية: ٥٨)، قال الإمام الشوكاني "أي: وإن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. والعدل: هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء، إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله ولا في سنة رسوله، فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله، ولا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدري ما هو العدل؛ لأنه لا يعقل الحججة إذا جاءته، فضلاً عن أن يحكم بها بين عباد الله"^٤.

والحديث يقرر تحقيق العدل بالاجتهاد قبل إصدار الأحكام، قال القرطبي "هكذا وقع في الحديث بدأ بالحكم قبل الاجتهاد والأمر بالعكس، فإن الاجتهاد يتقدم الحكم إذ لا يجوز الحكم قبل الاجتهاد اتفاقاً، لكن التقدير في قوله "إذا حكم" إذا أراد أن يحكم فعند ذلك يجتهد، قال ويؤيده أن أهل

^١ قال القسطلاني "جنيب) بفتح الجيم وكسر النون وبعد التحتية الساكنة موحدة نوع من التمر أجود ثمرهم". إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٣٠٤.

^٢ قال القسطلاني "الجَمْع) بفتح الجيم وسكون الميم تمر رديء". المصدر السابق، ج ١٥، ص ٣٠٤.

^٣ قال القسطلاني "يعني كل ما يوزن فيبيع وزناً بوزن من غير تفاضل فحكمه حكم المكيالات". المصدر السابق، ج ١٥، ص ٣٠٤.

^٤ الشوكاني، فتح القدير، ج ١، ص ٧٦٧.

الأصول قالوا: يجب على المجتهد أن يجدد النظر قبل وقوع النازلة، ولا يعتمد على ما تقدم له لإمكان أن يظهر له خلاف غيره^١.

والحديث النبوي يقرر أيضاً العدل الرباني في حق ذلك المجتهد الذي بذل وسعه في النظر إن أصاب أو أخطأ، فإن أصاب كان له أجرين أجرٌ على اجتهاده وأجرٌ على الصواب، وإن أخطأ كان له أجرٌ على اجتهاده ولا يأثم على خطأه، وما ذلك إلا من رحمة العدل سبحانه وتعالى.

ثالثاً: التطبيق التربوي لمبدأ العدل:

العدل به قامت السموات والارض، وهو أساس بناء كل مجتمع، "كتب عامل حمص إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله: لقد إنهار سور حمص، ورُمهُ^٢ واجب، فما تأمر؟ فكتب إليه عمر: سور حمص بالعدل، وطهر طرقاتها من الخوف والظلم، ولا حاجة بعد ذلك إلى الطين واللبن والحجر والجص"^٣، وقال أنوشروان "العدل سور لا يغرقه ماء، ولا تحرقه نار، ولا يهدمه منجنيق"^٤، ولذلك يُروى "إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة"^٥.

والعدل في التربية الإسلامية يتصف بالعموم والشمول، فهو عدلٌ مع الله في أداء حقوقه، وعدلٌ مع النفس في إعطائها حقوقها، وعدلٌ مع الناس في إعطائهم حقوقهم، وعدلٌ مع المجتمع في إعطائه حقوقه، بل وعدلٌ مع الحيوان والنبات والجماد، يقول الكيلاني "والعدل دوائره تتدرج في سعتها حسب سعة دوائر الانتماء البشري، وتبدأ الدائرة الأولى في ميدان النفس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ (سورة النساء، آية: ١٣٥)، ثم تليها دائرة الأسرة كعلاقة الأزواج بالزوجات، أو علاقة الآباء بالأبناء ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِن حِفْتُهُمُ آُلَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (سورة النساء، آية: ٣)، ثم تليها دائرة القربى ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٥٢) ... ثم تليها دائرة الأمة التي

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٩٤.

^٢ "الرَّمَّ إصلاح الشيء الذي فسد بعضه من نحو جبل يبلى فترَّمهُ، أو دار ترَّمُّ شأها مَرَمَةً، ورَّمُّ الأمر إصلاحه بعد انتشاره... واسترَّم الحائط أي حان له أن يُرَمَّ إذا بعد عهده بالتطين" ابن منظور، لسان العرب، ج ٥، ص ٣٢٣-٣٢٦، باب الرء، مادة (ررم).

^٣ هلال محمد العيسى: العدل في القرآن والسنة، ١٤٢٧هـ، مكتبة الرشد، الرياض، ص ٧٣.

^٤ العيسى، المرجع السابق، ص ٢٠٣.

^٥ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية: الحسبة في الإسلام، (د.ت)، دار الفكر، بيروت، ص ٥٣.

ينتمي إليها الفرد أو الجماعة ذوو العلاقة، وفي ذلك يقول تعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الحجرات، آية: ٩)، وأخيراً تليها كلها الدائرة الإنسانية ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (سورة النساء، آية: ٥٨).

فالعدل مطلوب خلال هذه الدوائر المذكورة في جميع الأحوال والظروف، ولا يجوز أن يحول دون (علاقة العدل) حائل وإن بلغت السلبية _ في التعامل والعلاقات _ حدود اليأس من الطرف المقابل، وفي ذلك يقول تعالى ﴿فَلِذَلِكَ فَادُعْ وَاسْتَعِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (سورة الشورى، آية: ١٥).^١

وفي شمول العدل لكل بني البشر يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٨)، في هذه الآية أمر من الله بالعدل مع الكفار، وغيرهم، "فنهى الله أن يحمل المؤمنون بُغْضَهُم للكفار على ألا يعدلوا فيهم، فكيف إذا كان البغض لفاسق، أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟، فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمل ذلك على ألا يعدل على مؤمن، وإن كان ظالماً له"^٢، قال ابن جرير رحمه الله: "يعني بقوله جل ثناؤه: "اعدلوا" أيها المؤمنون، على كل أحد من الناس ولياً لكم كان أو عدواً، فاحملوهم على ما أمرتكم أن تحملوهم عليه من أحكامي، ولا تجوروا بأحد منهم عنه، وقال ابن كثير "أي: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد في كل حال. وقال بعض السلف: ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض"^٣.

ويقول تعالى ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٥٢)، قال ابن كثير "يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، في كل وقت، وفي كل حال"^٤.

^١ الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ج ١٦٩-١٧٠.

^٢ ابن تيمية، الاستقامة، ج ١، ص ٣٨.

^٣ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٣٢.

^٤ ابن كثير، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٧.

ويقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (سورة النساء، آية: ٥٨)، يقول الميداني "وبعد أن أمر الله الذين آمنوا أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، أثنى على ما تضمنه هذان الأمران، وأبان أنه موعظة مفيدة ونافعة، وذلك لما في أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل من دوام لوحدة الجماعة، وبقاء للحكم وصيانتها وسلاتته، وحمايته من أعدائه المفسدين، فقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ). ثم ختم الآية بقوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) إشعاراً بأن الله سميع لشكاوى المظلومين الذين لا يُعاملون بالعدل، بصير بأعمال الظالمين الجائرين، وفي هذا تعريض بقانون الجزاء الإلهي الذي لا يفلت منه ظالم ولا جائر"^١

وما تلك الأوامر الربانية بإقامة العدل الشامل إلا لأنه "به تحقق الحياة الإنسانية الفاضلة، والأمن الاجتماعي، والتعايش البشري، وحقوق العباد قائمة على المشاحة والاقتصاص، بينما حقوق الله قائمة على العفو والمساحة، ولذا فإن هذا القسم _العدل مع العباد_ من الأقسام المهمة والعظيمة في بناء المجتمع وقوامه"^٢، "وشيوخ علاقات العدل ورسوخها في علاقات الإنسان بالإنسان ثمرته النضج الفكري والتقدم الحضاري، وغياب العدل نتيجته التخلف الفكري والحضاري والعجز والاعتماد على الآخرين، ذلك أن المجتمع الذي يشيع فيه العدل مجتمع يوفر الفرص للواعين والقادرين ليقودوا التقدم والبناء والإنتاج، بينما المجتمع الذي يختفي منه العدل يهيمن عليه البكم في المعرفة والعلم، والعاجزون الذين يعيشون في الداخل كالطفيليات يمتصون دماء الآخرين، ويعيشون في الخارج عالة أكلاء على غيرهم من الأمم مقابل حريات شعوبهم واستقلالهم"^٣.

فإذا قامت شجرة العدل على شرع الله وسُقيت بهدي الكتاب والسنة، أثمرت حضارة إنسانية عالمية، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، أمناً واستقراراً وقوةً مادية واقتصادية، وتقدماً علمياً وتقنياً، "إن العدالة حين تسود مجتمعاً تنصرف كل طاقاته إلى العمل المثمر والنتاج الصالح في جو من الإطمئنان على وصول كل حق إلى أربابه الشرعيين دون جور أو إجحاف"^٤.

^١ الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج ١، ص ٦٣٨-٦٣٩.

^٢ بافيل، المضامين التربوية المستنبطة من كتاب الفتن من صحيح الإمام البخاري، ص ١٥٧.

^٣ الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ١٧٠-١٧١.

^٤ محمد حمد حضر: الإسلام وحقوق الإنسان، (د.ت)، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٥١.

أما إذا أُقيمت شجرة العدل على قوانين وضعية وسياسات براجماتية^١، وسُقيت بالأهواء الشخصية أو النزعات القومية والأيدلوجية، أثمرت نظاماً ضيق الحدود لا يتذوق طعم العدل فيه إلا أفراد، ولا يستفيد من آثاره المادية إلا مُشرَّعوه، بينما من كان خارج المنظومة لا يذوق إلا ظلماً واططهاداً وتسليطاً، فحال هذا النظام كحال النظام الفرعوني الذي ظلم وقتل وسبى كل من لم ينتسب إليه، وأغدق الأعطيات والهبات على أتباعه ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرَبِينَ ﴿ (سورة الأعراف، آية ١١٣-١١٤)، وختم مسيرة الظلم بقوله تعالى

^١ المعنى اللغوي للبراجماتية (Pragmatism) وتعني من بين معانيها: النشط والعملية، وترجع في جذورها إلى كلمة يونانية تنطوي على معنى الفعل والعمل. وفي المعنى الاصطلاحي العام هو: كل نشاط يومي يصدر عن التسليم -سواء المعلن أو الخفي- بأن الطبيعة والمجتمع ناقصان -إن صح التعبير- ومن ثم فهما بحاجة إلى تحسين وتطوير، وعلى ذلك فالبراجماتيون لا يثقون بالقوانين والقواعد والمبادئ المحددة مسبقاً؛ وإنما بما هو ناتج عن التجربة العملية، وبما يعتقدون بأنه نافع ومفيد، فهم ينادون باختبار الأفكار عملياً لمعرفة قيمتها وفائدتها، وقوتها وحقيقتها، ومعناها. ويستند المذهب البراجماتي في نشأته على الفلسفات والنظريات، والمذاهب والحركات الفلسفية السابقة له كالفلسفة كانت (العقل العملي)، ونظرية دارون (للنشوء والارتقاء)، والمذهب النفعي (قيمة الأشياء باستخدامها ومنافعها)، والتجريبية الإنجليزية عند بيكون ولوك، والحركة الرومانسية الفردية التي أسسها روسو، والحركات العلمية والنفسية والاجتماعية التي سادت القرن التاسع عشر، ويُعتبر المذهب البراجماتي في الفلسفة المعاصرة أمريكي النشأة والتطوير والتطبيق، ولا يوجد مذهب آخر من مذاهب فلسفية أو تربوية يزاحمه في القوة أو التأثير أو الانتشار، ويرجعه بعض المؤرخين إلى (هرقليطس اليوناني ٥٣٥-٤٧٥ ق.م)، ويُرد في العصر الحديث إلى ثلاثة من الفلاسفة الأمريكيين وهم: (تشارلز بيرس) الذي يرجع إليه تأصيل الفكرة البراجماتية، ووضع أسسها في الفلسفة، و(وليم جيمس) الذي كان له فضل إشاعة الفكرة البراجماتية، و(جون ديوي) الذي تم على يديه نضج الفكرة البراجماتية كمذهب فلسفيين خلال رؤية نفسية جديدة، والذي بنى لها وجهة نظر خاصة من خلال تطبيقها في مجالات الحياة الاجتماعية الأمريكية وبخاصة في مجال التربية، وقد أطلق على مذهبه الجديد مصطلحين (المذهب الأداتي) و(الزرعة التجريبية). ويقوم المذهب البراجماتي على مبادئ وأسس تجاه الكون، والقيم، وطبيعة الإنسان، والمعرفة، وله منهجه وأهدافه في التربية والتعليم، ومن أهم مبادئه وأسس عدم إيمانه بوجود جانب (ميتافيزيقي)، أي عدم الإيمان بالغيبيات، وإنما يقوم على الإيمان بالحسوسات أو المادة والتجريب. انظر: مصطفى عبد القادر وآخرون، الفكر التربوي مدارس.. واتجاهات تطوره، ص ٢٣١-٢٤٦. وقيل البراجماتية الذرائعية، والذريعة هي الوسيلة، وجمعها ذرائع، والذرائعية تقرر أن الأفكار والنظريات والمعارف والنتائج والغايات وسائل وذرائع دائمة لبلوغ غايات جديدة وتعديل وتوضيح المعايير والمعارف دوماً في ضوء الخبرات المتراكمة؛ أي أنها ذرائع لمزيد من العمل، والعلة الذرائعية هي العلة الأداة لإحداث النتيجة، والمنطق الذرائعي هو الذي يبيّن أحكامه على التجربة. انظر: المانع، القيم بين الإسلام والغرب، ص ٣١٤-٣٢٧.

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ (سورة يونس، آية: ٩٠)، فكانت نهايته ﴿وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٥٤).

فالظلم سبب لهلاك المجتمعات ونهايتها يقول النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الْحَدَّ عَلَى الْوَضِيحِ، وَيَتْرَكُونَ الشَّرِيفَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ فَاطِمَةٌ فَعَلَتْ ذَلِكَ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^١، والظلم له مضاعفات خطيرة على المجتمع، ومنها:

١. أنه يتسبب في موت العقل والإرادة عند الأفراد والأمم، فتفقد الرأي والعزيمة وتقع فريسة العجز عن تحمل المسؤولية، وتقتل فيها روح المبادرة والإقدام، وتعجز عن حمل الرسائل ومجابهة التحديات.

٢. أنه يتسبب في مرض (انتفاخ الشخصية) و(تقليصها) اللذين يسميهما القرآن بـ(الطغيان) و(الاستضعاف)، ولهذا المرض مضاعفات عقلية ونفسية واجتماعية.

٣. أنه يتسبب في مرض (فقدان المناعة الاجتماعية)، أو ما يمكن أن نسميه بـ(الإيدز الاجتماعي)، حيث يستطيع أي متطفل في الأمة أن يتسلل إلى مركز القيادة ليغتصب الحريات ويتلاعب بالمقدرات ويهدر الكرامات دون خوف من مساءلة أو حذر من عقوبة.

٤. أنه يفسد الأخلاق الخاصة والعامة، لأنه يهدم تساوي الفرص ويحول دون حصول الأفراد والجماعات على حاجاتهم بالطرق الشرعية الأخلاقية، ولذلك يشيع بينهم التحايل والخداع والغش والرشاوى واستغلال النفوذ وغير ذلك من مظاهر الفساد الأخلاقي والاجتماعي.

٥. أنه يعرض الأمم للهيمنة الخارجية وفقدان الاستقلال، لأن الأمة التي لا إرادة لها ولا (حرية) في الداخل تعجز عن المحافظة على (استقلالها) أمام عدوان الخارج، وتسقط أمام جيوش الغزاة منذ المواجهة الأولى.

وجميع هذه الأمراض والمضاعفات التي مرت تنتهي بتدمير الأمم وفنائها^٢.

والتربية الإسلامية حينما توصل لمبدأ العدل في نفوس أفرادها فإنها تبني ذلك المبدأ على قواعد علمية شرعية تربوية، وهي على النحو التالي:

١. قاعدة البناء الاعتقادي:

والمقصود بهذه القاعدة هو ما يكون من تأصيل وتربية منذ التنشأة الأولى للطفل، يقول النبي صلى الله عليه وسلم «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ

^١ أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، حديث رقم (٦٧٨٧).

^٢ الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ١٩٥-١٩٩.

الْبَهِيمَةَ تُنتِجُ الْبَهِيمَةَ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ»^١، والفطرة هي معرفة الحق سبحانه وتعالى ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ (سورة يونس، آية: ٣٢)، وإعطاءه ما يستحق من العبادة والتشريع، فبذلك يتم تحقيق مبدأ العدل الاعتقادي، أما إذا لم تصرف العبودية لله ولم يُحكَم شرعه كان ذلك عين الظلم بل أعظم أنواع الظلم كما قال تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة لقمان، آية: ١٣)، يقول ابن القيم "فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد. فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك"^٢، ويضرب القرآن الكريم مثلاً لبيان صورة الظلم هذه بقوله تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^٣ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^٤ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٥ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة النحل، آية: ٧٣-٧٦)، قال الشوكاني "ذكر شيئاً يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه، وبين ما جعلوه شريكاً له من الأصنام... وحاصل المعنى: أنه كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حرّ قد رزقه الله رزقاً حسناً، فهو ينفق منه، كذلك لا يستوي الربّ الخالق الرازق، والجمادات من الأصنام التي تعبدونها، وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضرّ ولا تنفع"^٦، وبالجملة فالمثلين لبيان صورة الظلم في باب الاعتقاد، قال مجاهد "هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟"^٧، فمبدأ العدل الاعتقادي لا يتحقق إلا بصرف العبادة لله سبحانه وتعالى وتقديم شرعه بتطبيق أوامره واجتناب نواهيه.

٢. قاعدة الأمر بالعدل:

والأدلة على ذلك كثيرة في الكتاب والسنة، ومنها الأمر الرباني العام بإقامة العدل في قوله تعالى ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ (سورة الأعراف، آية: ٢٩)، وقوله تعالى ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٥٢)، وقوله تعالى ﴿وَأْمُرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ (سورة الشورى، آية: ١٥)، ودخول أمته صلى الله عليه وسلم في الأمر من باب أولى، قال الميداني في الآية "محذوف يمكن تقديره على الوجه التالي:

^١ أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم (١٣٨٥). ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، حديث رقم (٢٦٥٨).

^٢ ابن القيم، الفوائد، ص ١٠٣.

^٣ الشوكاني، فتح القدير، ج ٣، ص ٢٥٠-٢٥١.

^٤ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٦٠٠.

وأمرت بإقامة شرائع الإسلام وأحكامه لأعدل بينكم، أو أمرت بأوامر كثيرة لأعدل بينكم. والغرض من هذا الحذف إرادة العموم، وذلك حتى يعم المأمور به كل النصوص الربانية التي يحقق تطبيقها مبدأ العدل. وقد دلّ النص على أن شرائع الإسلام وأحكامه إذا أقيمت كما أمر الله تحقق مبدأ العدل بين الناس، لما فيها من مراعاة للعدل الذي هو من أجلّ الأصول العامة التي يقضي العقل السديد بضرورة مراعاتها، في جميع النظم والأحكام والشرائع التي تنظم معاملات الناس^١.

٣. قاعدة التعزيز الإيجابي:

التربية الإسلامية تربية تقوم على مبدأ التعزيز في كافة التشريعات لتكون دافعاً للأفراد نحو العمل المثمر البناء، ومن ذلك تعزيز سلوك العدل بحمبة الله تعالى للعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٤٢)، وقد وردت في القرآن ثلاث مرات في الأولى في العدل مع اليهود^٢، وفي الثانية في العدل مع المؤمنين حال الخلاف^٣، وفي الثالثة في العدل مع البشر عامة^٤.

ومن تعزيز سلوك العدل قوله تعالى ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (سورة المائدة، آية: ٨)، أي أن أهل العدل هم الأقرب إلى تقوى الله وخشيته، وهذه تركيبة ربانية وثناء قرآني للعدل، يقول الطبري "يعني بقوله (هو) العدل عليهم أقرب لكم أيها المؤمنون إلى التقوى، يعني إلى أن تكونوا عند الله باستعمالكم إياه من أهل التقوى، وهم أهل الخوف والحذر من الله أن يخالفوه في شيء من أمره، أو يأتوا شيئاً من معاصيه، وإنما وصف جل ثناؤه (العدل) بما وصفه به من أنه (أقرب للتقوى) من الجور، لأن من كان عادلاً كان لله بعدله مطيعاً، ومن كان لله مطيعاً، كان لا شك من أهل التقوى، ومن كان جائراً كان لله عاصياً، ومن كان لله عاصياً، كان بعيداً من تقواه"^٥.

^١ الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج ١، ص ٦٣٢.

^٢ "في أسماء الله تعالى الحسنى المُقْسِطُ هو العادل، يقال أَمْسَطُ يُقْسِطُ فهو مُقْسِطٌ إذا عدل، وقَسَطَ يَقْسِطُ فهو قَاسِطٌ إذا جارَ فكأن الهمزة في أَمْسَطَ للسُّلْبِ كما يقال شكَا إليه فَأَشْكَاهُ" ابن منظور، مرجع سابق، ج ١، مادة (قسط).

^٣ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاحِكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٤٢).

^٤ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الحجرات، آية: ٩).

^٥ قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة المتحنة، آية: ٨).

^٦ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٤، ص ٤٨٣.

ومن تعزيز سلوك العدل في المجتمع المسلم في قمة هرمه، قوله صلى الله عليه وسلم «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَادِلٌ...»^١، وفي رواية أخرى «وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسَطٍ مُتَّصِدِّقٌ مُوَفَّقٌ...»^٢، فهذا الفضل المترتب للإمام العادل من الاستئلال بظل العرش يوم القيامة، والبشارة بدخول الجنة، تجعل منه قوة دافعة للإمام ليصل لتلك المرتبة، بل وتجعل بواعث الظلم والتسلط تموت أمام باعث الوعد الرباني.

٤. قاعدة النهي الوقائي:

وهو النهي عن ضد العدل وهو الظلم، وذلك ببيان عاقبة الظلم على صاحبه في الدنيا والآخرة، فينشأ لدى الفرد قناعة ذاتية ومعرفة تاريخية لكل من حاد عن العدل في سلوكه أو أحكامه، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ». قَالَ ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾^٣ (سورة هود، آية: ١٠٢)، وقوله صلى الله عليه وسلم «اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظَلَمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...»^٤، ومفهوم المخالفة أن العدل نور لأهله يوم القيامة.

ولقد بين الله تعالى أن ظلم الظالم إنما هو على نفسه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ (سورة يونس، آية: ٢٣)، "أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم"^٥، ويقول تعالى ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة يونس، آية: ٤٤).

وذكر الله تعالى في كتابه صوراً وعبراً لكل ظالم وكيف كانت نهايته حتى ترتدع النفوس، وتعمل بالعدل راغبة راجية الثواب من الله، ومن ذلك ما حكاه القرآن عن قارون ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة القصص، آية: ٧٦)، ثم كانت عاقبته ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (سورة القصص، آية: ٨١).

^١ أخرجه البخاري، كتاب المحارِبين، باب فضل من ترك الفواحش، حديث رقم (٦٨٠٦).

^٢ أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم (٢٨٦٥).

^٣ أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)، حديث رقم (٤٦٨٦). ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٨٣).

^٤ أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، حديث رقم (٢٤٤٧). ومسلم، كتاب البر والآداب والصلة، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٧٨).

^٥ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٤٢٨.

فالتربية الإسلامية تعتمد على تنمية الوازع والضمير لدى الأفراد حتى يكونوا صالحين مستقيمين عادلين في كل الأحوال ومع كل المخلوقات.

٥. قاعدة الجزاء الإلهي:

وهو الوعد الرباني والجزاء العاجل والآجل لمن تمسك بالعدل منهجاً وسلوكاً، يقول تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^١ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (سورة هود، آية: ٨٦)، قال الشوكاني في قوله تعالى (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ) "أي: ما يقيه لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيراً وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس، والفساد في الأرض"^٢، وقال ابن جرير الطبري بعد اختياره لهذا القول "وإنما اخترت في تأويل ذلك القول الذي اخترته، لأن الله تعالى ذكره إنما تقدم إليهم بالنهي عن بَخْسِ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَإِلَى تَرْكِ التَّطْفِيفِ فِي الْكَيْلِ وَالْبَخْسِ فِي الْمِيزَانِ دَعَاهُمْ شُعَيْبٌ، فَتَعْقِيبُ ذَلِكَ بِالْخَيْرِ عَمَّا لَهُمْ مِنَ الْحِظِّ فِي الْوَفَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَوْلَى"^٣.

والأمثلة من الكتاب والسنة والآثار والقصص في ذلك لا حصر لها، وإنما اقتصرنا على ما يوضح المعنى.

٦. قاعدة النصرة والتأييد:

وهذه القاعدة أصل في تحقيق مبدأ العدل ونشره في الأرض، وهي توضيح مفهوم الجهاد^٤ في التربية الإسلامية، يقول تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحديد، آية: ٢٥)، "دلنا هذا النص على أن الشرائع الربانية قد جاء فيها التوجيه لاستخدام القوة المادية، لإقامة العدل، والجهاد في سبيل الله، بغية ردع الظالمين الآثمين المعتدين، الذين يظلمون الناس ويقاومون الحق، ويحسون أنفسهم بسلطان القوة المادية"^٤.

بل امتدح الله عباده المؤمنين بقوله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (سورة الشورى، آية: ٣٩)، "أي: أصابهم بغى من بغى عليهم بغير الحق، ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح

^١ الشوكاني، فتح القدير، ج ٢، ص ٧٢٠.

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٧، ص ١٠٠.

^٣ سيأتي الحديث عن مفهوم الجهاد في المبحث الثاني، مطلب (تحقيق مبدأ حفظ الأمن المادي)

^٤ الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج ١، ص ٦٢٦-٦٢٧.

كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح؛ لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل الله له العزة... فالانتصار عند البغي فضيلة، كما أن العفو عند الغضب فضيلة... ولكن هذا الانتصار مشروط بالإقتصار على ما جعله الله له وعدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا)، فبيّن سبحانه أن العدل في الانتصار هو: الاقتصار على المساواة، وظاهر هذا العموم^١، وشجع الله المظلوم برفع الحرج والإثم عنه حال الانتصار على من ظلمه ﴿وَلَمَنْ اِنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (سورة الشورى، آية: ٤١)، وهذا الانتصار والمقاومة للظلم مبني على قاعدة الصبر كما قال تعالى موجهاً نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (سورة المعارج، آية: ٥)، "والصبر الجميل لا يعني الاستسلام للشر، وإنما معناه مجاهدته والعمل على التخلص منه دون ضجر أو ملل، أو يأس أو قنوط، أو خروج على أخلاق المؤمنين الذين يحسنون الأقوال والأعمال حسب شكل الشر الذي يجري الابتلاء به، فإذا كان البغي أصابه أو ظلم نزل به، فإنه لا يستسلم ولا يتوقف عن مجاهدته شريطة أن يُحكّم الوسائل والمواقف فالله يدين المستسلمين للشر ويمدح الذين يقاومونه"^٢.

والتربية الإسلامية تربي على العدل حتى في الإلتصار له وأخذ الحق من الظالم ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٨)، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا قَالَ «تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ»^٣، قال ابن حجر "كنى به عن كفه عن الظلم بالفعل إن لم يكف بالقول، وعبر بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء والقوة"^٤، وقال البيهقي "معناه أن الظالم مظلوم في نفسه فيدخل فيه ردع المرء عن ظلمه لنفسه حساً ومعنى"^٥.

كل تلك القواعد حتى يصبح مبدأ العدل متجذراً في النفوس متأصلاً فيها يعيش الفرد لأجل تحقيقه في الحياة، ويموت في سبيل الله من أجل تحقيقه.

ويتسم العدل في التربية الإسلامية من حيث التطبيق بالشمول والعموم وليس تطبيق جزئي أو نفعي، وإنما يقع الخلل في التطبيق حينما نرى من يهتم بتطبيق الشعائر الظاهرة للدين تطبيقاً كاملاً تحقيقاً لقاعدة العدل الاعتقادي، بينما نجد التقصير في جانب التطبيق لأوامر العدل الشاملة، فنعلم

^١ الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ص ٧٠٨.

^٢ الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٢٤٤.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً، حديث رقم (٢٤٤٤).

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٢٤.

^٥ نقلاً عن ابن حجر، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٤.

حينئذ أن الخلل ينبع من التصور القاصر لمفهوم العدل، وأنه تصور يقوم على الاختيار والإجتراء، مما يُظهر صورة مشوهة للعدل الرباني الذي أمر به عباده المؤمنين مع كل أحد وفي كل حال، لذا جاء التوجيه التربوي الرأسي والأفقي لتطبيق هذا المبدأ في المجتمع المسلم بقوله صلى الله عليه وسلم «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ - قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ - وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^١، قال النووي "قال العلماء الراعي هو الحافظ المؤمن الملتزم صلاح ما قام عليه وهو ما تحت نظره ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته"^٢، ويقول تعالى في دقة تطبيق العدل الأفقي الشامل الرباني ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ (سورة الزلزلة، آية: ٨).

فهذا الشمول الرأسي ابتداءً بالذات الإلهية وانتهاءً بالذات الإنسانية، والعموم الأفقي من الذرة المتناهية إلى ملكوت الله اللامتناهي يُظهر المنهج التربوي الإسلامي للعدالة، الجدير بالعالمية، ليس كالتطبيق النصراني الذي يتخذ من الحب والتسامح منهجاً للعدالة، ولا كالتطبيق اليهودي الذي يتخذ من الكراهية والانتقام منهجاً للعدالة، وإنما تقوم التربية الإسلامية على منهج المسؤولية الإنسانية، وهو أن الإنسان مسؤول، تدفعه نوازع الحب والتسامح، وتحكمه نوازع الكراهية والانتقام، لذلك هو واقعٌ تحت الثواب والعقاب، وفي العقاب تحقيق لمبدأ العدل، ودفاعٌ عن الحق الإنساني، والكرامة الإنسانية لكل إنسان حتى للمخطئ نفسه.

من هنا نعلم يقيناً أن المجتمع الذي يطبق العدل على القواعد الشرعية التربوية فإنه مجتمعٌ يسير نحو التقدم والاستقلال، والقوة والعزة، والوحدة والاجتماع كما أراد الله ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٨١)، وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية، هي هذه الأمة المحمدية^٣، "وقد أثبتت الأيام أن كل والٍ يهدف إلى تحقيق العدل والانصاف يستقرُّ

^١ أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، حديث رقم (٨٩٣). ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، حديث رقم (١٨٢٩).

^٢ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٢، ص ٢٩٤-٢٩٦.

^٣ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ٢٨٠.

ملكه، ويقوى سلطانه، ويمكن له في الأرض، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض تلك النماذج كذي القرنين الذي مكن الله له في الأرض بسبب قيامه بالعدل^١.

المطلب الثاني: تحقيق مبدأ الشورى:

أولاً: معنى الشورى:

الشورى في اللغة قال ابن فارس "الشين والواو والراء أصلان مطردان، الأول منهما إبداء شيء وإظهاره وعرضه، والآخر أخذ شيء... قال بعض أهل اللغة: من هذا الباب شاورت فلاناً في أمري. قال: وهو مشتق من شور العسل فكأن المستشار يأخذ الرأي من غيره"^٢. وقال الجوهري "أشار عليه بالرأي... والمشورة: الشورى. وكذلك المشورة بضم الشين. تقول منه: شاورته في الأمر واستشرته"^٣.

وفي الاصطلاح قال ابن منظور "أشار عليه بأمر كذا أمره به، وهي الشورى والمشورة بضم الشين... وتقول منه شاورته في الأمر واستشرته بمعنى، وفلان خير شير أي يصلح للمشاورة وشاوره مشاورة وشواراً، واستشاره طلب منه المشورة"^٤ "وأشار عليه بكذا: أمره وهي: الشورى"^٥. وقال الراغب "المشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض، من قولهم: شرت العسل وأشرته استخراجته، والشورى الأمر الذي يتشاور فيه"^٦.

^١ يوسف بن أحمد العجلاني: العدل وتطبيقاته في التربية الإسلامية، ١٤٢١هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص ٥٧.

^٢ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٣، ص ٢٢٦-٢٢٧، باب الشين والواو وما يثلثهما.

^٣ الجوهري، الصحاح، ج ٢، ص ٣٩٠-٣٩٢، باب الراء، فصل الشين، مادة (شور). والرازي، مختار الصحاح، ص ١٧٧، مادة (شور).

^٤ ابن منظور، لسان العرب، ج ٧، ص ٢٣٣-٢٣٥، باب الشين، مادة (شور).

^٥ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ٥٣٩-٥٤٠، باب الراء، فصل الشين، مادة (شار).

^٦ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٦٠.

ثانياً: الأحاديث المتضمنة للشورى من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. أورد الإمام البخاري في كتاب الاعتصام باب قول الله تعالى (وَأْمُرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ). (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) وَأَنَّ الْمُشَاوِرَةَ قَبْلَ الْعَزْمِ وَالتَّبَيُّنَ لِقَوْلِهِ (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) فَإِذَا عَزَمَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ لِيَشِرَ التَّقَدُّمَ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَاوَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُحُدٍ فِي الْمَقَامِ وَالْخُرُوجِ، فَرَأَوْا لَهُ الْخُرُوجَ فَلَمَّا لَبَسَ لِأُمَّتِهِ وَعَزَمَ قَالُوا أَقِمْ. فَلَمْ يَمِلْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْعَزْمِ وَقَالَ «لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ يَلْبَسُ لِأُمَّتِهِ فَيَضَعُهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ». وَشَاوَرَ عَلِيًّا وَأَسَامَةَ فِيمَا رَمَى أَهْلُ الْإِفْكِ عَائِشَةَ فَسَمِعَ مِنْهُمَا، حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ فَجَلَدَ الرَّامِينَ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى تَنَازُعِهِمْ وَلَكِنْ حَكَمَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ. وَكَانَتْ الْأَيْمَةُ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَشِيرُونَ الْأَمْنَاءَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ، لِيَأْخُذُوا بِأَسْهَلِهَا، فَإِذَا وَضَحَ الْكِتَابُ أَوْ السُّنَّةُ لَمْ يَتَعَدَّوْهُ إِلَى غَيْرِهِ، اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَأَى أَبُو بَكْرٍ قِتَالَ مَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ فَقَالَ عُمَرُ كَيْفَ تُقَاتِلُ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَإِذَا قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَا جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ تَابَعَهُ بَعْدُ عُمَرُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مَشُورَةٍ إِذْ كَانَ عِنْدَهُ حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَأَرَادُوا تَبْدِيلَ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ». وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَشُورَةٍ عُمَرُ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وفي إيراد البخاري رحمه الله لهذا الباب بشواهد يدل على أن مبدأ الشورى والتشاور، والتأني في الأمور وإصدار الأحكام، لا يكون إلا من صاحب منهجية مؤصلة على هدي الكتاب والسنة، وأن العجلة والاستعجال في الأمور، والحكم المتسرع، والاعتداد بالرأي، والتفرد بالمسؤولية، والأنا المفرطة، لا تكون إلا من صاحب تصورٍ قاصر للكتاب والسنة، ففي قوله تعالى ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الشورى، آية: ٣٨)، قال الإمام الشوكاني رحمه الله "أي: يتشاورون فيما بينهم، ولا يعجلون، ولا ينفردون بالرأي... وقيل: المراد تشاورهم في كل أمر يعرض لهم، فلا يستأثر بعضهم على بعض برأي" ^١، وقال الألوسي " أي ذو شورى ومراجعة في الآراء بينهم" ^٢، قال ابن حجر "فأما الآية الأولى فأخرج

^١ الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج ٤، ص ٧٠٧-٧٠٨.

^٢ الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ج ٢٥، ص ٦٤.

البخاري في الأدب المفرد وابن أبي حاتم بسند قوي عن الحسن قال ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم وفي لفظ إلا عزم الله لهم بالرشد أو بالذي ينفع".^١

وفي الآية الثانية يقول تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٩)، قال القسطلاني "استظهاراً برأيهم وتطبيهاً لنفوسهم وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة"^٢، والآية تُظهر العلاقة بين مبدأ الشورى وموضوع الدراسة من وجوب الوحدة والاجتماع ونبد الفرقة والاختلاف، فالله تعالى يربط بين الفظاظة والغلظة وما يصحبها من استعجال وتسرع وتفرد بالرأي وبين التفرق والاختلاف بقوله (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) أي تفرقوا عنك وابتعدوا، وكذلك يربط الله تعالى بين الرحمة والتأني ولين الجانب وحسن الخلق والقرب من الناس وما يصحبه من مشاورتهم ومؤانستهم وبين وحدتهم واجتماعهم بقوله (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ... فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)، فذكر الله اللين والرحمة والعفو والاستغفار_ الذي هو بمعنى الدعاء_ والمشاورة، وكل ذلك من أسباب الاجتماع والوحدة وتحقيق الألفة والأخوة.

وقول البخاري (فَإِذَا عَزَمَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ لِبَشَرٍ التَّقَدُّمُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ)، قال ابن حجر "يريد أنه صلى الله عليه وسلم بعد المشاورة إذا عزم على فعل أمر مما وقعت عليه المشاورة وشرع فيه لم يكن لأحد بعد ذلك ان يشير عليه بخلافه لورود النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله في آية الحجرات"^٣، ثم ذكر الإمام البخاري أمثلة على مشاورة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في مواقف وأحداث عدة، ومشاورة الأئمة من بعده ومنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين.

٢. (٧٣٦٩) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ قَالَتْ وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلَبَتْ الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا، وَهُوَ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الْحَارِثَةَ تَصَدَّقْ. فَقَالَ «هَلْ رَأَيْتَ مِنْ شَيْءٍ يَرِيئُكَ». قَالَتْ مَا رَأَيْتُ أَمْرًا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٤٢٠.

^٢ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٣٢٥.

^٣ وهي قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) سورة الحجرات، آية: ١.

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٤٢٠.

الدَّاجِنُ^١ فَتَأْكُلُهُ. فَقَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَّغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا». فَذَكَرَ بَرَاءَةَ عَائِشَةَ.

سبق ذكر قصة هذا الحديث مختصراً فيما تقدم من أمثلة مشاوره النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما ليستشيرهما في فراق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما تأخر وأبطأ عليه الوحي، والنبي صلى الله عليه وسلم في استشارته لعلي وأسامة يُبين أن الاستشارة لا تكون إلا من ذو رأي وفقه وحكمة ليستنبر برأيه ويسترشده بحكمته، فأشار أسامة بالذي يعلم من براءة عائشة رضي الله عنها، وأشار علي بقوله (لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصَدَّقْ)، فأراد رضي الله عنه بحكمته وعلمه وفقهه أن يخفف عن رسول الله ما وقع به من هم وغم باختيار أحد الأمرين إما الفراق العاجل وإما السؤال والتثبت مع الإمساك، يقول القسطلاني " (وأما علي رضي الله عنه فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير) بصيغة التذكير للكل على إرادة الجنس، وإنما قال ذلك لما رأى عند النبي صلى الله عليه وسلم من الغم والقلق لأجل ذلك (وسل الجارية) بريرة (تصدقك) بالجزم على الجزاء أي إن أردت تعجيل الراحة فطلقها وإن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر"^٢، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن عمل بمشورة علي بسؤال الجارية والتثبت منها، وبمشورة أسامة بعدم مفارقتها، وقام خطيباً يذكر براءة عائشة رضي الله عنها.

٣. (٧٣٧٠) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ «مَا تُشِيرُونَ عَلَيَّ فِي قَوْمٍ يَسُبُّونَ أَهْلِي مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُوءٍ قَطُّ». وَعَنْ عُرْوَةَ قَالَتْ لَمَّا أُخْبِرَتْ عَائِشَةُ بِالْأَمْرِ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَنْطَلِقَ إِلَى أَهْلِي. فَأَذِنَ لَهَا وَأَرْسَلَ مَعَهَا الْعُلَامَ. وَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ.

وهذا الحديث يُبين طلب النبي صلى الله عليه وسلم المشورة من عموم المسلمين من على منبره الشريف بقوله (مَا تُشِيرُونَ عَلَيَّ)، وفي رواية من "طريق أبي أسامة بصيغة الأمر (أشيروا علي) والحاصل انه استشارهم فيما يفعل بمن كذف عائشة فأشار عليه سعد بن معاذ وأسيد بن حضير بأنهم

^١ قال ابن حجر "الداجن وهي بدال مهملة ثم جيم: الشاة التي تألف البيت ولا تخرج إلى المرعى، وقيل هي كل ما يألف البيوت مطلقاً شاة أو طيراً". المرجع السابق، ج ٨، ص ٦٠٢.

^٢ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٣٢٧.

واقفون عند أمره موافقون له فيما يقول ويفعل، ووقع النزاع في ذلك بين السعدين فلما نزل عليه الوحي براءتها أقام حد القذف على من وقع منه^١.

وهذه الأحاديث والآثار التي أوردها البخاري في هذا الباب تُبين أهمية ومشروعية الشورى في جميع الأمور التي يُقدِّم عليها المسلمون أفراداً ومجتمعات لبلوغ المصلحة العامة، وتحقيق الألفة والمحبة والوحدة والاجتماع.

ثالثاً: التطبيق التربوي لمبدأ الشورى:

الشورى لغة العقل، ورسالة الود، وحوار الآحر، للخروج بنظرةٍ أوسع وأشمل وأعمق، وهو من أقوى دعائم النظام الاجتماعي الذي يحقق التوافق والانسجام والمودة داخل نطاق الأسر والجماعات، وبدونه يحصل الانفصال والتفرق، والاختلاف والتشردم الأسري والاجتماعي، وهو كذلك من أقوى دعائم النظام السياسي الذي يحقق التوازن والمصالح بين السلطات والهيئات والمؤسسات داخل نطاق الدولة، وبدونه يحصل الاستبداد والتسلط الذي يقود إلى الضعف ثم الانهيار والنهاية، وما حصل للخلافة العثمانية ليس ببعيد، حينما اتخذت في نهاية عهدها الاستبداد والقوة على رعاياها سياسةً لها، وما أعقب ذلك من ضعفٍ داخلي، ثم سلبٍ للسلطة السياسية، ثم السلطة الدينية، وأخيراً نهاية الدولة والخلافة^٢، يقول شلبي "ويرجع السبب في انهيار الإمبراطورية العثمانية إلى حياة الدكتاتورية التي كانت متأصلة فيها، وإلى انزلاق كثير من خلفاء العثمانيين، هؤلاء الذين حملوا لقب الخلافة دون أن تتوفر فيهم شروط هذا المنصب، ويقول الأستاذ محمد كرد علي في كتابه الإسلام والحضارة العربية: إن العثمانيين قلما كانوا يهتمون بتطهير المملكة من أهل الفساد، وقلما كانوا ينفذون من ناموس الإدارة ما يخففون به فقر البلاد وبؤسها، فتركوا الأهلين يعملون ما يشاءون ما أدوا ما عليهم لخزانتها... وقد شاركت البلاد العربية في حظٍّ مملكة لا تبطل حروبها وفتنها، ولأنها لا يعرفون ما يصلحها، فتراجعت وانحلت أوضاعها"^٣، ولا أصدق من كلام الباري جلَّ شأنه، حين يُبين مصير كل

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٤٢٤.

^٢ "كان آخر الخلفاء العثمانيين عبد المجيد بن عبد العزيز، الملقب بعبد المجيد الثاني (١٩٢٢-١٩٢٣م)، وكان صاحب خلق وأدب وثقافة، محبوباً من الناس قريباً منهم، ولكن أتاتورك جعله خليفةً صورياً، لأنه ألغى الخلافة على مرحلتين كي لا يثير ردة فعل ضده، فألغى أولاً السلطة السياسية للخليفة، وأبقى له السلطة الدينية، ثم ألغى الخلافة كلياً". نقلاً عن: محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص ٧ وما بعدها.

^٣ شلبي، المجتمع الإسلامي، ص ١٨٧.

نظامٍ يقوم على الاستبداد والظلم ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ (سورة الحج، آية: ٤٥)، لذا فإن التربية الإسلامية تحارب الاستبداد والحكم الفردي والنظم الدكتاتورية القائمة على قوله تعالى ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ (سورة غافر، آية: ٢٩)؛ لأنها في الحقيقة تحت سيطرة الهوى والأطماع، والمصالح الخاصة التي لا تُنشئ دولةً، ولا تبني شعباً، بل تدعوا _التربية الإسلامية_ إلى التعددية والحكم الراشد القائم على قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٩)، يقول تعالى ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة القصص، آية: ٨٣)، في هذه الآية "شرح مستفيض" لعواقب الحكم الفردي، والاستبداد السياسي، وشرح لعواقب الطغيان الاقتصادي، والاعتزاز بالمال العريض، أوجزه المولى تبارك اسمه في هذه الخلاصة... فهل أجدت هذه الخلاصة في محاربة الفرعونية الحاكمة، والقارونية الكانزة؟ أم شاعت هذه وتلك في تاريخنا القريب والبعيد^١.

والإسلام يعتبر منصب الخلافة تكليفاً لا تشريف؛ لأن مهمة الخليفة "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارح إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"^٢، فهو بهذا ليس له قداسة أو حصانة ضد الشرع أو الحق أو العدالة، بل هو قائدٌ بقرار أهل الحل والعقد في المجتمع، يتوجّب عليه ليكون ناجحاً يستحق الاستمرار في وظيفته أن يسمع ويشاور غيره في تلك المهمة العظيمة، وهو ما أعلنه خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين رباهم على الاعتصام بالكتاب والسنة حين تولّوا الخلافة، يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أول خطاب له للأمة "يا أيها الناس أني قد وُليْتُ عليكم ولست بخيركم فإن ضعفت فقوموني وإن أحسنت فأعينوني، الصدق أمانة والكذب خيانة، الضعيف فيكم القوي عندي حتى أزيح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قومٌ الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالفقر، ولا ظهرت _أو قال شاعت_ الفاحشة في قوم إلا عمهم البلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم

^١ محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص ١١.

^٢ عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ت: درويش الجويدي، ١٤١٥هـ، المكتبة العصرية، بيروت، ص ١٧٨.

يرحمكم الله" ^١، وقام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً خطيباً وعليه ثوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون، فقال سلمان لا نسمع، فقال عمر ولم يا أبا عبد الله، قال إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً وعليك ثوبان، فقال لا تَعْجَلْ. يا عبد الله! يا عبد الله! فلم يجبه أحد، فقال يا عبد الله بن عمر، فقال لبيك يا أمير المؤمنين، فقال نشدتك الله الثوب الذي ائتررتُ به أهو ثوبك؟ قال نعم، اللهم نعم، فقال سلمان أما الآن فقلْ نَسْمَعُ ^٢.

فمعنى الشورى العام في الخلافة _ابتداءً في اختيار الخليفة، وفي طريقة تعامله وتعاطيه للأحداث والمستجدات والمصالح، وفي نصحه وتقويمه_، يجعلها خلافةً سببية قائمة على البشرية وليست أبوية أو نسبية وراثية قائمة على القداسة والعصمة الربانية، يقول تعال ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٤٠)، أي أن علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ليست علاقة نسب، وإنما هي علاقة سبب بمقام النبوة، والخلافة عنه صلى الله عليه وسلم في الدعوة والبلاغ والإرشاد، وتحقيق مقاصد الشرع ومصالح العباد بما يحفظ لهم الدين والدنيا، وقد ذكر السير توماس أرنولد في كتابه (الخلافة) أوجه الشبه والاختلاف بين النظام السياسي في الإسلام والإمبراطورية الرومانية المقدسة، فقال "إن كلا النظامين يستند إلى قوة الدين... بيد أن الإمبراطورية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود، بل كانت استمراراً لإمبراطورية وثنية سابقة، حتى أن الإمبراطور شلمان تلقب بلقب الأباطرة الوثنيين، كما نجد في الغرب حاكمين: أحدهما زمني وهو الإمبراطور، والآخر روحي وهو البابا، أما الخلافة فإنها لم تقم على نظام سياسي سابق، بل هي نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التي نشأت على أثر ظهور الإسلام وبسط سيادة العرب على بلاد فارس ومعظم بلاد الدولة الرومانية الشرقية، والخليفة حاكمٌ سياسي، بمعنى أنه حاكم واحد يجمع بين سلطتين: الزمنية والروحية، ولا تتعدى وظيفته الدينية المحافظة على الدين... بخلاف البابا فإنه يُعتبر قسيساً أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين، وهو المرجع الأعلى في الأمور الدينية" ^٣.

^١ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي رواية الإمام عبد الرزاق الصنعاني، باب لا طاعة في معصية، رقم (٢٠٧٠٢). أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني: المصنف، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ط ٢، ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

^٢ ابن القيم، أعلام الموقعين، ج ٢، ص ١٢٣.

^٣ نقلاً عن: حسن إبراهيم حسن ود. علي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ١٤٢٣هـ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص ٢٤.

من هنا نعلم أن مبدأ الشورى من أهم مبادئ الاستقرار، وأهم أسس القائد التي يحقق بها أعلى مراتب النجاح والتفوق، والقيادة تشمل كافة المستويات، فهي مسؤولية ورعاية، تبدأ من النظام الأسري مروراً بأنظمة المؤسسات والشركات إلى نظام الحكم السياسي، وأهمية هذا المبدأ في نجاح القائد تكمن في أن جميع أفراد منظومته يشتركون معه في تقديم الحلول للمشكلات، وتحليل الأزمات، واستشراف المستقبل، وهذا يُعزز في الأفراد أيّاً كانوا - أبناءً وزوجات، أو طلاباً، أو عمالاً، أو موظفين، أو محكومين - روح القيادة والاستقلال، ويجعلهم عيوناً ناقدة، تُصحح الخطأ، وتسد الخلل، وتُكمل النقص، وبذلك يصلوا إلى أعلى مستويات الثقة والاعتزاز بالذات، والقدرة على تحمل المسؤوليات، وصناعة القرار الناجح القادر على تحقيق الهدف الذي يحقق السعادة والرضى والأمان والاستقرار للجميع، "ومن هنا يتبين أن الشورى منهج الحياة السائد في المجتمع المسلم من قاعدته إلى قمته، أي من الشؤون المنزلية الصغيرة إلى نظام الحكم وشؤون القيادة"، وإذا سقط نظام الشورى على أي مستوى كانت النتيجة، قادة متسلطين طائشين، على أفرادٍ تابعين منهزمين، فتكون المحصلة النهائية نظاماً دكتاتورياً في أبشع صورته، وأسوأ نتائجه.

لذا فإن التربية الإسلامية التي تقوم على العدل في كافة تطبيقاتها، ومن ذلك، اختيار من يقوم بسياسة أمور الناس والمجتمع في أمور الدين والدنيا - السلطة الحاكمة -، وأن يكون تقليد ذلك المنصب على أساسٍ عادل، وهو بتطبيق مبدأ الشورى الذي "هو من أهم الدعائم التي يقوم عليها النظام السياسي في المجتمع المسلم، بل الحق أنها صبغة الحياة الإسلامية في جميع المجالات، وليس أدل على ذلك من تعبير القرآن الكريم في السورة التي سُميت بهذا المبدأ العظيم، إذ جاء الحديث عن الشورى في سياق تعداد صفات المؤمنين في قوله تعالى ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ...﴾ (سورة الشورى، الآيات ٣٦-٣٨)^١، وكان أول من أسقط نظام الشورى السياسي في الإسلام وتحويله إلى نظام وراثي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه حين عهد بالخلافة بعده لابنه يزيد، مع وجود أكابر الصحابة رضي الله عنهم، وذلك حينما قام في الناس خطيباً قائلاً «من كان يريد أن

^١ ياسر أبو شبانة: النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، ١٤١٨هـ، دار السلام، القاهرة،

ص ٧٢٧.

^٢ أبو شبانة، المرجع السابق، ص ٧٢٦.

يتكلم في هذا الأمر _أي الخلافة_ فليطلع لنا قرنه فلنحن أحق به منه ومن أبيه»^١، وكان هذا الفعل المخالف لمنهجية الإسلام السياسية القائم على مبدأ الشورى، بداية الاختلاف والتفرق في الأمة الإسلامية، وانتقل "نظام الخلافة الذي يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين، إلى نظام الملك الذي يقوم على أساس التوريث ويستند إلى الرأي والدين في آن واحد.

وبذلك أصبحت الخلافة الأموية أقرب إلى السياسة منها إلى الدين، واستحالت إلى ملك، فقد كان معاوية _رضي الله عنه_ يتمتع بكل مظاهر الأبهة التي يتمتع بها الملوك والقيصرة، اتخذ سريراً للملك، وأقام الشرطة لحراسته، ولم يكن للخلفاء الراشدين حرس خاص، وكانت هذه المظاهر من شارات الحكم عند الفرس والروم، كذلك اتخذ معاوية _رضي الله عنه_ المقصورة في المسجد خوفاً مما حدث لعلي _رضي الله عنه_، وأصبح يصلي فيها منفرداً عن الناس، فإذا سجد قام الحراس على رأسه رافعي السيوف، وإنما فعل معاوية _رضي الله عنه_ ذلك لأنه رأى أهل الشام ألقوا هذا النظام عن الروم.

أصبحت الخلافة في العهد الأموي وراثية، فقد وجد معاوية _رضي الله عنه_ أن العامل الأساسي الذي جرَّ إلى انقسام المسلمين إنما هو المنافسة على الحكم، فعمل على تلافي ذلك الاختلاف بنقل الحكم من بعده إلى ابنه يزيد، وكان متأثراً في ذلك بالنظام الذي كان سائداً في الدولتين: البيزنطية والساسانية اللتين كان الحكم فيهما وراثياً، وسار معاوية _رضي الله عنه_ في تحقيق هذه السياسة بمنتهى الحيلة والمهارة، فأوحى إلى عماله على الأمصار أن يمهدوا السبيل لأخذ البيعة لابنه يزيد^٢، ولكن هذا الفعل لا يغير من حقيقة التربية الإسلامية، وهي أنها تربية شاملة في تطبيق مبدأ الشورى في المجتمع المسلم حيث توصل لهذا المبدأ في كافة التطبيقات ابتداءً من القرارات الفردية الخاصة، إلى القرارات السياسية العامة، يقول صاحب الظلال معلقاً على الآيات السابقة في سورة الشورى "فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة (وأمرهم شورى بينهم) . . مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً سياسياً للدولة، فهو طابع أساسي للجماعة كلها، يقوم عليه أمرها كجماعة، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة، بوصفها إفرازاً طبيعياً للجماعة"^٣.

وبالنظر إلى الأوامر الربانية لنبه صلى الله عليه وسلم بتطبيق مبدأ الشورى، يتبين الحكمة من ذلك التشريع الحكيم الذي به تستقيم مسيرة الحياة، ويحصل الإنفتاح الفكري على العقول والآراء

^١ أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، حديث رقم (٤١٠٨).

^٢ حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص ٥١.

^٣ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣١٦٠.

والتجارب، والأخذ بأفضلها وأيسرها بلوغاً للهدف، كل ذلك تحقيقاً للوئام والوحدة والأمان والألفة بين أفراد المجتمع، فمن الحسن قال «والله ما استشار قوم قط إلا هدوا لأفضل ما بحضرتهم، ثم تلا ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الشورى، آية: ٣٨)»^١، ويقول تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٩)، اختلف العلماء لأي معنى أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه مع كونه كامل الرأي، تام التدبير، على ثلاثة أقوال "أحدها: ليستن به من بعده، والثاني: لتطيب قلوبهم، والثالث: للإعلام ببركة المشاورة"^٢، فهذا الأمر الرباني بالمشاورة ما هو إلا تربية للأمة على اتخاذ مبدأ الشورى طريقاً للحكم واتخاذ القرارات، وهذه الآية نزلت عقب هزيمة المسلمين في غزوة أحد والتي أخذ النبي صلى الله عليه وسلم فيها برأي الشورى من أصحابه في الخروج لقتال المشركين خارج المدينة، مع أن رأيه صلى الله عليه وسلم كان البقاء للقتال في المدينة، وهو الأصلح من الناحية العسكرية، ولكن التربية النبوية بالأخذ برأي الشورى كان تشريعاً ربانياً لأنه "قد يتبادر إلى ذهن بعض المسلمين أنهم لو كانوا أطاعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في رأيه ولم يأخذوا برأي الأغلبية لما كانت النتيجة هكذا، وإذن؛ فلا شورى ولا استشارة، بل عدم الشورى أولى وأرفق، فجاءت الآية لتؤكد للأمة أن الشورى أساس الحكم، وأن الأمة إن خسرت معركة نتيجة الشورى فذلك خيرٌ من أن تخسر الأمة شخصيتها ويتحكم فرد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقدراتها ودمائها وأموالها وأعراضها"^٣.

ومبدأ الشورى قائمٌ على اختيار المستشار الأمين الصادق، وعلى الأمانة والمسؤولية لمن طُلبت منه، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في استشارته لعلي وأسامة رضي الله عنهما في حادثة الإفك، وما أشارا عليه من وجهة نظر كلٍ منهما، وكذلك ما جاء في وصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكتابه للأشتر حينما ولاه على مصر بقوله "ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشرَّ بالجور، فإن البخل والجبين والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله"^٤، ويبيّن صلى الله عليه وسلم مسؤولية المستشار

^١ أخرجه البخاري، الأدب المفرد، باب المشورة، حديث رقم (٢٥٨)، قال الألباني: حديث صحيح.

^٢ ابن الجوزي، زاد المسير، ج ١، ص ٣٩٠-٣٩١.

^٣ عبد الرحمن البر: عوامل الهدم والبناء في المجتمع الإسلامي، ١٤١٥هـ، دار نور الإسلام، المنصورة، ص ١٤٨. نقلاً عن محمد عبد القادر أبو فارسي، النظام السياسي في الإسلام.

^٤ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نهج البلاغة، ١٤١٠هـ، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ص ٣٠٠-٣٤٨.

في نصحه وصدقه بقوله «إِنَّ الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ»^١، ومشاورة الصادق الأمين تُعطي المستشار امرأةً وصورةً لما خفي عنه في موضوع استشارته، ومن ذلك أنه لما تقدّم معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم رضي الله عنهما لخطبة فاطمة بنت قيس رضي الله عنها استشارة الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم في ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم «أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ، أَنْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ»، تقول رضي الله عنها: فكرهته ثم قال «أَنْكِحِي أُسَامَةَ»، فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به^٢.

ولا شك أن لتطبيق مبدأ الشورى فوائد تربوية كثيرة غير ما ذكرنا، ومنها ما أورده ابن الجوزي فقال "أن المشاور إذا لم ينجح أمره علم أن امتناع النجاح محض قدر، فلم يلم نفسه، ومنها أنه قد يعزم على أمر، فيبين له الصواب في قول غيره، فيعلم عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح. قال علي رضي الله عنه الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه، والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم. وقال بعض الحكماء ما استنبط الصواب بمثل المشاورة، ولا حُصِّنت النعم بمثل المواساة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر"^٣، وكما قيل (ما خاب من استخار ولا ندم من استشار).

المطلب الثالث: تحقيق مبدأ السمع والطاعة:

أولاً: معنى السمع والطاعة:

السمع في اللغة قال ابن فارس "السين والميم والعين أصل واحد، وهو إيناس الشيء بالأذن، من الناس وكل ذي أذن. تقول: سمعت الشيء سمعاً"^٤، وقال الفيروز آبادي "السمع حس الأذن، والأذن، وما قرّ فيها من شيء تسمعه"^٥، وقيل "السمع: سمع الإنسان، يكون واحداً وجمعاً كقوله تعالى ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ (سورة البقرة، آية: ٧)، لأنّه في الأصل مصدر قولك: سمعت الشيء سمعاً وسمعاً. وقد يجمع على أسماع، وجمع الأسماع أسامع"^٦.

^١ أخرجه البخاري، صحيح الأدب المفرد، باب المستشار مؤتمن، حديث (٢٥٦).

^٢ أخرجه مسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، حديث رقم (١٤٨٠).

^٣ ابن الجوزي، زاد المسير، ج ١، ص ٣٩١.

^٤ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٣، ص ١٠٢، باب السين والميم وما يثقلهما.

^٥ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ٩٤٣، باب العين، فصل السين، مادة (السمع).

^٦ الجوهري، الصحاح، ج ٣، ص ٥٠٥، باب العين، فصل السين، مادة (سمع). والرازي، مختار الصحاح، ص ١٥٩، باب السين، مادة (سمع).

والسمع في الاصطلاح "قوة مودعة في العصب المفروش في مقعر الصماخ تُدرك بها الأصوات بطريق وصول الهواء المتكيف بكيفية الصوت إلى الصماخ".^١

والطاعة في اللغة قال ابن فارس "الطاء والواو والعين أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على الإصحاب والانتقاد. يقال طاعه يَطُوعه، إذا انقاد معه ومضى لأمره. وأطاعه بمعنى طاعَ له. ويقال لمن وافقَ غيره: قد طاعه"^٢.

وقال ابن منظور "الطُوعُ نَقِيضُ الكَرِه طاعه يَطُوعُه وطاعه والاسم الطَّواعةُ والطَّواعِيَةُ ورجل طَيِّعٌ أي طائِعٌ ورجل طائِعٌ وطاعٍ مقلوبٌ كلاهما مُطِيعٌ... والطاعةُ اسمٌ من أطاعه طاعةً والطَّواعِيَةُ اسمٌ لما يكون مصدرًا لطاوعه"^٣.

وقيل "فلانٌ طَوْعٌ يديك، أي منقادٌ لك... والمطَّواعةُ: الموافقةُ... ورجلٌ مطَّوَعٌ، أي مُطِيعٌ. وفلانٌ حسنٌ الطَّواعِيَةُ لك، أي حسن الطاعة لك. وطاعٌ له يطوعُ، إذا انقاد"^٤.

وفي الاصطلاح قال الجرجاني الطاعة "هي موافقة الأمر طوعاً، وهي تجوز لغير الله عندنا"^٥. ومقصود الباحث بالسمع والطاعة في هذا الباب هو فعل الأوامر الواجبة شرعاً أو عقلاً من كل ذي حق، على الوجه المطلوب وفي حدود الإستطاعة.

ثالثاً: الأحاديث المتضمنة لمبدأ السمع والطاعة من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. (٧٢٨١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ جَاءَتْ «مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ نَائِمٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ. فَقَالُوا إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ. فَقَالُوا مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا، وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ.

^١ الجرجاني، التعريفات، ص ١٦١، باب السين، مادة (السمع).

^٢ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٣، ص ٤٣١، باب الطاء والواو وما يثلثهما.

^٣ ابن منظور، لسان العرب، ج ٨، ص ٢١٩-٢٢٢، باب الطاء، مادة (طوع).

^٤ الجوهري، الصحاح، ج ٣، ص ٥٣٧، باب العين، فصل الطاء، مادة (طوع). والفيروز آبادي، القاموس المحيط،

ص ٩٦٢، باب العين، فصل الطاء، مادة (طاع). والرازي، مختار الصحاح، ص ٢٠٠، باب الطاء، مادة (طوع).

^٥ الجرجاني، التعريفات، ص ١٨٢، باب الطاء، مادة (الطاعة).

فَقَالُوا أَوْلُوها لَهُ يَفْقَهُها فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ. فَقَالُوا فَالِدَّارُ الْجَنَّةُ، وَالِدَّاعِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرقٌ بَيْنَ النَّاسِ».

هذا الحديث الذي يحكي رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في منامه، ورؤيا الأنبياء حق، وفي الحديث أن الملائكة جاءت للنبي صلى الله عليه وسلم في منامه فقال بعضهم (إِنَّهُ نَائِمٌ) وقال بعضهم (إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ) قال الرامهرمزي "هذا تمثيلٌ يراد به حياة القلب وصحة خواتمه، يقال رجل يقظ إذا كان ذكي القلب، وفي حديث ابن مسعود فقالوا بينهم: ما رأينا عبداً قط أُوتِيَ مثل ما أُوتِيَ هذا النبي إن عينيه تنامان وقلبه يقظان، أضربوا له مثلاً"^١، وقال البيضاوي فيما حكاه في شرح المشكاة "قول بعضهم إنه نائم الخ مناظرة جرت بينهم بياناً وتحقيقاً لما أن النفوس القدسية الكاملة لا يضعف إدراكها بضعف الحواس واستراحة الأبدان"^٢، والمثال الذي ضُرب للنبي صلى الله عليه وسلم يدل على أن من أطاعه فيما أمر واجتنب ما نهى عنه وزجر فقد أطاع الله تعالى وبذلك يكون كمن أحاب الداعي للدار ودخلها فيكون من أهل الجنة، وفي رواية أخرى «أَمَّا السَّيِّدُ فَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَمَّا الْبُنَيَّانُ فَهُوَ الْإِسْلَامُ وَالطَّعَامُ الْجَنَّةُ وَهُوَ الدَّاعِي فَمَنْ اتَّبَعَهُ كَانَ فِي الْجَنَّةِ»^٣، قال ابن حجر معلقاً على الحديث "أي لأنه رسول صاحب المأدبة فمن أجابه ودخل في دعوته أكل من المأدبة وهو كناية عن دخول الجنة"^٤.

وهذا الحديث وغيره من الأحاديث الواردة في الباب تدل على وجوب طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وأن ذلك لا يكون إلا بالاعتصام بالكتاب والسنة، وأن من خالف أوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم فقد خسر دنياه وآخرته، قال القسطلاني معلقاً على الحديث "أن الملائكة مثلوا سبق رحمة الله تعالى على العالمين بإرساله الرحمة المهداة إلى الخلق كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، آية: ١٠٧) ثم إعداد الجنة للخلق ودعوته صلى الله عليه وسلم إياهم إلى الجنة وبهجتها ثم إرشاده الخلق بسلوك الطريق إليها واتباعهم إياه بالاعتصام بالكتاب والسنة المدلين إلى العالم السفلي فكأن الناس واقعون في مهواة طبيعتهم ومشتغلون بشهواتها وأن الله يريد

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣١٧.

^٢ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ٢٣٨، نقلاً عن البيضاوي من كتاب شرح المشكاة.

^٣ أخرجه أحمد، مسند عبد الله بن مسعود، حديث رقم (٣٧٨٨). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣١٨.

بلطفه رفعهم فأدلى حبلي القرآن والسنة إليهم ليخلصهم من تلك الورطة فمن تمسك بهما نجا وحصل في الفردوس الأعلى والجناب الأقدس عند مليك مقتدر، ومن أخلد إلى الأرض هلك وأضاع نفسه من رحمة الله تعالى بحال مُضيف كريم بنى داراً وجعل فيها من أنواع الأطعمة المستلذة ما لا يحصى ولا يوصف ثم بعث داعياً إلى الناس يدعوهم إلى الضيافة إكراماً لهم فمن اتبع الداعي نال من تلك الكرامة، ومن لم يتبع حُرْم منها ثم إنهم وُضعوا مكان حلول سخط الله بهم ونزول العقاب السرمدي عليهم، قولهم: لم ندخل الدار ولم نأكل من المأدبة لأن فاتحة الكلام سيقت لبيان سبق الرحمة على الغضب فلم يطابق أن لو ختم بما يصرح بالعقاب والغضب فجاءوا بما يدل على المراد على سبيل الكناية^١.

والسمع والطاعة واجبة في حق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومقدمة على كل أحد كائناً من كان، يقول النبي صلى الله عليه وسلم مبيناً حدود الطاعة لغير الله ورسوله صلى الله عليه وسلم «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ، فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»^٢، والمعصية هي مخالفة أوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم، والمخالفة لا تجوز بل الواجب السمع والطاعة والإتباع.

٢. (٧٢٨٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَدِمَ عَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرِ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كَهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا فَقَالَ عَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ يَا ابْنَ أَخِي هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَتَسْتَأْذِنُ لِي عَلَيْهِ قَالَ سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَاسْتَأْذَنَ لِعَيْنَةَ فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ، وَمَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ بِأَنْ يَقَعَ بِهِ فَقَالَ الْحُرُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ. فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ.

هذا الحديث مثلاً على السمع والطاعة لله تعالى من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والشاهد منه هو قول الحر بن قيس لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما غضب على عينة بن

^١ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٣٩، نقلاً عن الطيبي.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، حديث رقم (٧١٤٤).
ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم (١٨٣٩).

حصن من تجرؤه عليه واتهامه له بقوله (وَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ^١، وَمَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ)، وذلك كناية عن بخله وظلمه حاشاه رضي الله عنه وأرضاه، وما غضب عمر رضي الله عن عمر إلا لأن تلك ليست بنصيحة، إنما يريد قائلها فتننة بين المسلمين وشقٍ لعصا الطاعة، وما سياسة عمر رضي الله عنه وأرضاه إلا دليل على الكرم والعدل، وكفى تزكية وفخراً له بشارته من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم له بالجنة، فلما همَّ رضي الله عنه بعقابه قال الحرُّ مذكراً إياه بقول الله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٩٩)، "أي خذ بالمعروف والجميل من الأفعال ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم"^٢، قال (فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ)، أي أن عمر عمل بمقتضى أمر الله تعالى بالعفو والصفح، والإعراض عن كلام الجاهلين، وما ذلك إلا لأنه (كَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ) "أي يعمل بما فيه ولا يتجاوزها"^٣، وتلك هي حقيقة السمع والطاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم.

٣. (٧٣٠٢) عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ كَادَ الْخَيْرَانِ أَنْ يَهْلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ لَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ بَنَى تَمِيمٍ، أَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسِ الْحَنْظَلِيِّ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ، وَأَشَارَ الْآخَرُ بِغَيْرِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ إِنَّمَا أَرَدْتَ خِلَافِي. فَقَالَ عُمَرُ مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ. فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنَزَلَتْ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ) إِلَى قَوْلِهِ (عَظِيمٌ). قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ فَكَانَ عُمَرُ بَعْدَ وَكَمْ يَذْكُرُ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ يَعْنِي أبا بَكْرٍ إِذَا حَدَّثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَدِيثٍ حَدَّثَهُ كَأَخِي السَّرَّارِ، لَمْ يُسْمِعْهُ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ.

الشاهد من الحديث هو ما وقع من عمر رضي الله عنه بعد الاختلاف بينه وبين أبو بكر رضي الله عنه في شأن تأمير الأقرع بن حابس أو القعقاع بن معبد على بني تميم، وفيه نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ (سورة الحجرات، آية: ٢)، فما كان من عمر رضي الله عنه بعد أن سمع الآية بقلبه إلا أن قال سمعنا وأطعنا، فكان إذا حدث النبي صلى الله عليه وسلم بحديث حدّثه كأخي السَّرَّارِ

^١ الجزل: بفتح الجيم وسكون الزاي بعدها لام أي الكثير، وأصل الجزل ما عظم من الخطب. ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٢٢.

^٢ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٤٤.

^٣ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٢٣.

"أي لا يرفع صوته إذا حدثه بل يكلمه كلاماً مثل المسارة وشبهها لخفض صوته"^١، وما ذاك إلا من شدة طاعته لأوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم.

٤. (٧٢٧٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُبَايِعُهُ، وَأُفِرُّ لَكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فِيمَا اسْتَطَعْتُ.

هذا الحديث يُبَيِّنُ حق ولي الأمر في السمع والطاعة (وَأُفِرُّ لَكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ) بشرط كونها (عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ)، "ومن كان على سنة الله ورسوله فقد اعتصم بهما"^٢، ومبايعة ابن عمر رضي الله عنه وأرضاه - وهو من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أشدّهم تمسكاً واتباعاً للسنة - لعبد الملك بن مروان بالسمع والطاعة يدل على فهم ذلك الصحابي لنصوص الكتاب والسنة وتمسكه بهما، ومعرفته بمقاصد الشرع من وجوب الوحدة والاجتماع ونبذ الفرقة والاختلاف، وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، والموازنة بين المصالح والمفاسد، حيث كانت بيعته لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ابن الزبير لاجتماع الناس عليه مع وجود من هو أفضل منه من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ابن حجر "والمراد بالاجتماع اجتماع الكلمة وكانت قبل ذلك مُفَرَّقَةً، وكان في الأرض قبل ذلك اثنان كل منهما يُدعى له بالخلافة، وهما عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير... وكان عبد الله بن عمر في تلك المدة امتنع أن يبايع لابن الزبير أو لعبد الملك كما كان امتنع أن يبايع لعلي أو معاوية، ثم بايع لمعاوية لما اصطالح مع الحسن بن علي واجتمع عليه الناس، وبايع لابنه يزيد بعد موت معاوية لاجتماع الناس عليه، ثم امتنع من المبايعة لأحد حال الاختلاف إلى أن قُتِلَ ابن الزبير وانتظم الملك كله لعبد الملك فبايع له حينئذ"^٣.

وفي قوله (فِيمَا اسْتَطَعْتُ) توضيح لحدود السمع والطاعة وأنها على قدر الاستطاعة، وجاء في رواية أخرى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ كُنَّا إِذَا بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ يَقُولُ لَنَا «فِيمَا اسْتَطَعْتُ»^٤، وهذه هي التربية الإسلامية الواقعية التي تنظر إلى جميع القضايا على أساس الوسع والطاقة البشرية يقول تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٨٦)، أي "لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم"، فإذا كان هذا التشريع في حقوق الله سبحانه وتعالى فحقوق العباد من باب أولى، وهذا

^١ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٥٩.

^٢ القسطلاني، المصدر السابق، ج ١٥، ص ٢٣٠.

^٣ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٢٤٠-٢٤١.

^٤ أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، حديث رقم (٧٢٠٢).

الضابط للسمع والطاعة - أي كونها في حدود الاستطاعة - هو ما يجعلها رباط اجتماعي قوي يدعو إلى الوحدة والاجتماع على أساس المحبة والاحترام والمبادرة.

ثالثاً: التطبيق التربوي لمبدأ السمع والطاعة:

تقوم التربية الإسلامية على فلسفة بسيطة وهي البناء لا الهدم، والإصلاح لا الإفساد، والاجتماع لا التفرق، ومن روافد البناء والإصلاح والاجتماع التحذير مما يهدم أو يفسد أو يفرق المجتمعات، لذلك جاءت الآيات الكثيرة موجهة إلى لزوم الجماعة وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومشددة النهي عن الاختلاف ومفارقة الجماعة، ومن الآيات الواردة في ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (سورة النساء، آية: ٥٩)، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٣)، قال ابن عاشور "تصويراً لحالهم التي أمروا بأن يكونوا عليها وهي الاعتصام جميعاً بجماعة الإسلام الذي كان سبب نجاحهم من تلك الحالة، وفي ضمن ذلك تذكير بنعمة الله تعالى، الذي اختار لهم هذا الدين، وفي ذلك تحريض على إجابة أمره تعالى بإياهم بالاتفاق"^١.

ومبدأ السمع والطاعة في التربية الإسلامية قاعدة الضبط الاجتماعي الذي هو هدف من أهداف التنشئة الاجتماعية^٢، "والضبط الاجتماعي في الإسلام ينطوي على معنى الطاعة والإمتثال لأمر الله

^١ محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، (د.ت)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ج ٢، ص ٣٢.

^٢ أقدم تعريف للضبط الاجتماعي جاء في مقدمة ابن خلدون الذي يرى "أن الإنسان بحاجة إلى سلطة ضابطة لسلوكه الاجتماعي، وأن عمران المدن بحاجة إلى تدخل ذوي الشأن والسلطة من أجل فاعلية النوازع وحماية المنشآت. ووسائل الضبط التي تحقق هذه الغاية تتمثل في: الدين، والقانون، والآداب الاجتماعية، والأعراف والعادات، والتقاليد". ويُعد أدوارد روس أول من استخدم مصطلح الضبط الاجتماعي من علماء الاجتماع المحدثين الذي يرى أن الطبيعة البشرية الخيرة تستلزم ضبط سلوك أفراد الجماعة وتصرفهم. انظر: محمد شحات الخطيب وآخرون: أصول التربية الإسلامية، ط ٣، ١٤٢٥هـ، دار الخريجي، الرياض، ص ١٥٣-١٨٤.

ويرى كولي (Cooley) الذي يُعد من أوائل الذين أشاروا إلى تقسيم الضوابط الاجتماعية بأنها تنقسم إلى قسمين رئيسين: يشمل الأول الضوابط الرسمية، والثاني الضوابط غير الرسمية، ويقصد بالضوابط الرسمية التي تعمل بواسطة الجهاز الرسمي للحكومة من خلال مؤسساته وقوانينه وسلطاته، وتأثير هذا القسم على السلوك مباشرة، أما الضوابط غير الرسمية فإنها تشمل التنشئة الاجتماعية والعادات والتقاليد والأعراف والقيم، وتأثيرها على السلوك غير مباشر.

تعالى، والطاعة قد تكون فردية أو اجتماعية، والمراد بالطاعة الفردية كل ما يقوم به الإنسان بإرادته الشخصية امتثالاً لأحكام الله المتعلقة بحياة الإنسان ذاته، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٣٦).

وأما الطاعة الاجتماعية فهي امتثال أفراد المجتمع للأحكام الشرعية الاجتماعية التي جاءت بها العقيدة الإسلامية وبيانها الحاكم أو ولي الأمر، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (سورة النساء، آية: ٥٩).

وتستهدف التنشئة الاجتماعية في التربية الإسلامية غرس مبادئ الطاعة، وتكوين الضمير الذي يوجه سلوك الإنسان في المجتمع، مستخدمة في ذلك التوجيه والإرشاد والقُدوة والموعظة وإنزال العقوبة. بمن يخرج عن الجماعة^٢.

ومبدأ السمع والطاعة في التربية الإسلامية يشمل عدة دوائر وهي:

١. الدائرة الأولى: السمع والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم:

وهي أساس مبدأ السمع والطاعة في التربية الإسلامية، ومنها وإليها ترجع جميع الدوائر، والمقصود بالسمع والطاعة هنا "الإمتثال الفوري والتنفيذ التلقائي لكل ما يصدر عن المولى تبارك وتعالى من الأوامر والنواهي، إذ أن طبيعة المؤمن الصادق أن يبادر إلى ذلك بكل قوة وعزم، كما قال الله تعالى ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٨٥).

نقلًا عن محمد الحامد ونايف الرومي: الأسرة والضبط الاجتماعي، ١٤٢٢هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ص ١٣.

^١ مفهوم التنشئة الاجتماعية يشير إلى عمليات متعددة أهمها تشكيل السلوك الاجتماعي، وتحقيق التوافق الاجتماعي، وغرس ثقافة المجتمع ونقلها من جيل إلى جيل، وإكساب صفة الإنسانية بتحويل الطفل من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي، يُعرف سيكورد وباكمان التنشئة الاجتماعية بأنها "عملية تفاعل يتعدل عن طريقها سلوك الشخص، بحيث يتطابق مع توقعات أعضاء الجماعة التي ينتمي إليها"، وتُعرف أيضاً بأنها "عملية تعليم السلوك الاجتماعي، بغية تكيف الفرد مع بيئته الاجتماعية بالامتثال لمطالب المجتمع، والاندماج في ثقافته، والخضوع للمعايير الاجتماعية التي تحقق الضبط الاجتماعي"، والتنشئة الاجتماعية في التربية الإسلامية تعني قدرة الفرد على التكيف مع الآخرين، والتفاعل معهم ومشاركتهم في نشاطاتهم الاجتماعية المختلفة وفق شرع الله. انظر: الخطيب، المرجع السابق، ص ١٥٤-١٥٥.

^٢ الخطيب، المرجع السابق، ص ١٥٩.

ومن العجيب في نظم الآية الكريمة أن المؤمنين بعد أن أعلنوا السمع والطاعة تضرعوا إلى ربهم بطلب المغفرة، وكأنهم أشفقوا على طبيعتهم البشرية ألا تستطيع الوفاء التام بمتطلبات السمع والطاعة لرب العزة جل شأنه، فتوجهوا إلى مولاهم ضارعين خاشعين، راجين أن يغفر لهم ما قد يحدث من تقصير في قضية (سمعنا وأطعنا)¹.

والتربية الإسلامية في قضية الإيمان بالله تعالى مبنية على القول والعمل وإلا كان صاحبها مدعيًا ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (سورة النساء، آية: ٦٥)، وهذه هي حقيقة الإيمان، وترجمانه السمع والطاعة والإنقياد والتطبيق لأوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم، بل إن الله تعالى ربط الخير والفلاح والفوز في الدنيا والآخرة على هذا المبدأ العظيم ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ الَّذِي يَتَّقُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (سورة النور، آية: ٥١-٥٢)، وفي المقابل فإن من أعرض وخالف هذا المبدأ فإن مثله كقبي إسرائيل حين قالوا ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ (سورة البقرة، آية: ٩٣)، فأنكر الله عليهم هذا التناقض وهو ادعاء الإيمان وعدم العمل به. ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٩٣)، وكانت النتيجة الشقاء والبعد عن رحمة الله ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة النساء، آية: ٤٦).

وهذه الدائرة في مبدأ السمع والطاعة هي القاعدة لقوله تعالى ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (سورة النساء، آية: ٥٩)، فإن صحَّ التصور فيها، والإحاطة بها، والفهم الواعي الشامل لمدلولات نصوصها من الكتاب والسنة، كان فهم وتطبيق ما بعدها من دوائر السمع والطاعة صحيحاً وسليماً، وإذا حدث الاختلال في التصور، أو الاجتزاء في الفهم، أو إتباع الهوى، كانت النتيجة انحرافاً في التطبيق إلى الإفراط أو التفريط، وبطلاناً لكل ما ينتج عن ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (سورة محمد، آية: ٣٣)، "والظاهر النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال كائناً

¹ أبو شبانة، النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصوير الإسلامي، ص ٦٧٨.

ما كان من غير تخصيص بنوع معين^١، والخلل في فهم هذا الأصل أوقع الأمة في خلل التطبيق، وخاصة في عقيدة الإمامة والتكفير والخوارج^٢.

^١ الشوكاني، فتح القدير، ج ٥، ص ٥٤.

^٢ تقوم عقيدة الإمامة على معتقد الغيبة للإمام المنتظر عند الشيعة، وهي "أن الفقيه الشيعي له الولاية العامة في إقامة الأحكام وتنفيذها وتدبير أمور الدولة وتنظيمها". أحمد جلي، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين "الخوارج والشيعة"، ص ٢١١، فهم بذلك لا يقرون بالسمع والطاعة لأحد من أئمة المسلمين؛ لأنهم لم يستحقوا مرتبة الإمامة - كما يزعمون-، والتي ألبسوها القداصة والعصمة، وعقيدتهم قائمة على اللعن والتكفير لكل من خالف ذلك، وكان بداية لعنهم وتكفيرهم لأئمة المسلمين في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وحقيقة اللعن في الأصل أنها طرد وإبعاد من رحمة الله تعالى، وهذا الحكم يستلزم غضب الله ومقته وعقابه على صاحبه، فيكون صاحبه بذلك مستحقاً للنار، فهم بهذا الفهم حكموا وأثبتوا وخلصوا في النار بناءً على تصور غير عقلي، يقول ابن تيمية في بيان معتقد أهل السنة والجماعة "اللجنة من باب الوعيد، فيحكم به عموماً، وأما المعين فقد يرتفع عنه الوعيد لتوبة صحيحة، أو حسنات ماحية، أو مصائب مكفرة، أو شفاعات مقبولة، أو غير ذلك من الأسباب التي ضررها يرفع العقوبة عن المذنب، فهذا في حق من له ذنبٌ مُحقق... ولهذا لا يُشهد لمعين بالجنة إلا بدليل خاص، ولا يُشهد على معين بالنار إلا بدليل خاص، ولا يُشهد لهم بمجرد الظن من اندراجهم في العموم؛ لأنه قد يندرج في العمومين فيستحق الثواب والعقاب"، الفتاوى، ج ٣٥، ص ٤٢-٤٣، ويقول في موضع آخر "مسائل التكفير والتفسيق هي من مسائل الأسماء والأحكام التي يتعلق بها الوعد والوعيد في الدار الآخرة، وتتعلق بها الموالات والمعاداة والقتل والعصمة وغير ذلك في الدار الدنيا... ولا نشهد لمعين أنه في النار، لأننا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه، لأن لحوق الوعيد بالمعين مشروط بشروط، وانتفاء موانع، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط، وانتفاء الموانع في حقه، فائدة الوعيد بيان أن هذا الذنب سببٌ مقتضٍ لهذا العذاب، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه وانتفاء مانعه"، الفتاوى، ج ١٢، ص ٢٥١-٢٥٩.

أما عقيدة الخوارج فهي تقوم على شعار (لا حكم إلا لله)، وكان بداية خروجهم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعدم قبولهم تحكيم الرجال في معركة صفين، واعتبروا ذلك التحكيم خطيئة تؤدي إلى الكفر، وقد بين لهم ابن عباس خطئهم بالأدلة والحجج ورجع منهم طائفة وبقي منهم من بقي إلى زماننا، وعقيدة التكفير امتدادٌ لعقيدة الخوارج الذين أضافوا على تكفير إمام المسلمين تكفير من لم يكفرهم، فكفروا عموم المسلمين، وكفروا مرتكب الكبيرة.

وحقيقة التكفير في الأصل أنها حكمٌ على الباطن (القلب)، وهذا الحكم في عرف الشرع يُسمى (الردة)، ويستلزم منه القتل لقوله صلى الله عليه وسلم «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»، أخرجه البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب حكم المرتد والمرتدة، حديث رقم (٦٩٢٢)، فهم بهذا الفهم والتصور حكموا على عباد الله، ونزلوا النصوص الشرعية على أحكامهم، وطبقوا العقوبة بأفعالهم الإجرامية، بطريقة سطحية انتقائية وانتقامية، يقول ابن تيمية "وليس لأحد

أن يكفر أحداً من المسلمين، وإن أخطأ وغلط، حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة". الفتاوى، ج ١٢، ص ٢٥٠.

والأقوال التي يَكْفُرُ قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذر الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائناً ما كان، سواء في المسائل النظرية أو العملية، وهذا الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجماهير أئمة الإسلام، لذا لا يجوز لأحد أن يُكْفِرَ شخصاً بعينه ولو رآه يسجد لصنم أو يذبح لقبر، حتى تتحقق الشروط وتتفي الموانع، فإن من قال لأخيه المسلم يا كافر، فقد باء بها أحدهما، كما قال صلى الله عليه وسلم «أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرٌ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدَهُمَا». أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تايل فهو كما قال، حديث رقم (٦١٠٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر، حديث رقم (٦٠)، وحين سأل ميمون بن سياه أنس بن مالك رضي الله عنه قال يا أبا حمزة ما يُحَرِّمُ دم العبد وماله فقال "مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتَنَا، وَصَلَّى صَلَاتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَهُوَ الْمُسْلِمُ، لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ". أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة، حديث رقم (٣٩٣)، ويقول صلى الله عليه وسلم في بيان حرمة الاعتداء على النفس المحرمة عموماً بغير حق «أَبْعَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْجِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُتَّبِعٌ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطْلَبٌ دَمِ امْرِئٍ بَغَيْرِ حَقٍّ لِيُهْرِيَقَ دَمَهُ». أخرجه البخاري، كتاب الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق، حديث رقم (٦٨٨٢)، لذا يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن التسرع في إصدار حكم التكفير وما يتبعه من أفعال وأحكام، وأمرأ إياهم بالتثبت والتبين القائم على البراءة الأصلية من الكفر، وأن الأصل في المسلم إسلامه، وأن ما ثبت بيقين لا يزول بالشك «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبَيَّنُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» (سورة النساء، آية: ٩٤)، وجاء في سبب نزول هذه الآية عن عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه قال: "بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أضم، فخرجت في نفرٍ من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربيعي، ومحملم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن أضم مرَّ بنا عامر الأشجعي على قعودٍ له مُتَّبِعٌ ووطبٌ من لبن، فلما مرَّ بنا سلم علينا، فامسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله بشيءٍ كان بينه وبينه، وأخذ بغيره ومُتَّبِعُهُ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرناه الخبر، نزل فينا القرآن"، أخرجه أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه، حديث رقم (٢٣٩٢٧). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده محتمل التحسين. وفي رواية "فلما جلس قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اسمك؟ قال أنا محلم بن جثامة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم لا تغفر لحلم، اللهم لا تغفر لحلم، ثلاث مرات، فقام من بين يديه وهو يتلقى دمه بفضله رداً، فأما نحن بيننا فنقول قد استغفر له، ولكنه أظهر ما أظهر ليدع الناس بعضهم من بعض"، أخرجه أحمد، مسند الكوفيين، حديث ضمرة بن سعد السلمي رضي الله عنه، حديث رقم (٢١١١٨). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف، لجهالة زياد بن ضمرة.

٢. الدائرة الثانية: السمع والطاعة للوالدين:

يقول تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٨)، فالآية الكريمة بينت العلاقة المبنية مع الوالدين (علاقة الحسنى) وهي المبالغة في الإحسان، والطاعة أعظم أبواب الإحسان، لذا فإن أمر الله تعالى بعدم طاعة الوالدين في حال الأمر بالشرك بالله يدل على وجوب الطاعة فيما عدا ذلك، يقول أبو ذر رضي الله عنه أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بتسع، وذكر منها «... وَأَطِعِ وَالِدَيْكَ، وَإِنْ أَمَرَكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ دُنْيَاكَ فَأَخْرُجْ لَهُمَا...»^١.

والتربية الإسلامية تربط طاعة الوالدين بطاعة الله تعالى ربطاً مباشراً ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَهًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (سورة الإسراء، آية: ٢٣)، "أي: أمر أمراً جزماً، وحكماً قطعاً، وحثماً مبرماً... بعبادته وحده، ثم أردفه بالأمر ببرّ الوالدين"^٢، والآية ذكرت النهي عن قول كلمة (أف) وهي أدنى درجات

وبداية عقيدة التكفير في الأمة كانت من الخوارج، يقول ابن تيمية "والخوارج هم أول من كفر المسلمين، يكفرون بالذنوب، ويكفرون من خالفهم في بدعتهم، ويستحلون دمه وماله، وهذه حال أهل البدع، يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها، وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة ويطيعون الله ورسوله، فيتبعون الحق، ويرحمون الخلق.

وأول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج والشيعة، حدثتا في أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فعاقب الطائفتين. أما الخوارج فقاتلوه فقتلوه فقتلهم، وأما الشيعة فحرق غالبيتهم بالنار، وطلب قتل عبدالله بن سبأ فهرب منه، وأمر بجلد من يفضله على أبي بكر وعمر"، ابن تيمية، الفتاوى، ج ٣، ص ١٧٤-١٧٥.

ولا شك أن تلك المعتقدات مخالفة لنصوص الشرع، ودلالة العقل، فإن نصوص الشرع الصريحة أمرت بالسمع والطاعة ما عدا في حال الكفر الصريح البواح بضوابطه الشرعية، أو الأمر بالمعصية، أما ما عدا ذلك فلا يجوز الخروج على إمام المسلمين، ولا يجوز اتهام المقاصد والنيات، وتنزيل الأحكام والعقوبات وفق الأهواء والظنيات، ودلالة العقل الصحيح تُرشد إلى مقصد الشرع في الأمر بوجوب السمع والطاعة لولي الأمر، ومن ذلك عدم إثارة الفتن، وما يترتب عليها من أهيار اجتماعي، وتردي اقتصادي، وانشغال بالحروب والقتال عن العبادة والاستقرار، والبناء والتقدم. انظر: أحمد حلي، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين (الخوارج والشيعة)، والموجان، الإرهاب ووافده... أسبابه الفكرية... علاجه أقوال العلماء فيه.

^١ أخرجه البخاري، الأدب المفرد، كتاب الوالدان، باب يبر والديه ما لم يكن معصية، حديث رقم (١٨). قال الألباني: حديث حسن.

^٢ الشوكاني، فتح القدير، ج ٣، ص ٣٠٢.

التضجر والاستثقال، وعن (النهر) وهو رفع الصوت في الوجه، لتدل على أن ما فوق ذلك من عدم الطاعة محرّمٌ ومنهياً عنه من باب الأولى، "وبهذا النهي يُفهم النهي عن سائر ما يؤذيها بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو متقرر في الأصول"^١.

ومن أهمية طاعة الوالدين أن جعل الله تبارك وتعالى أعظم شعيرة وذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله تحت مرتبة الجهاد على بر ورضى الوالدين، جاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستأذنه في الجهاد فقال «أَحْيٌ وَالِدَاكَ». قال نعم. قال «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»^٢، بل وقدم النبي صلى الله عليه وسلم برهم وطاعتهم والإحسان إليهم على الهجرة جاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوي يبيكان، فقال عليه الصلاة والسلام «فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَاضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا»^٣، والآيات والأحاديث الآمرة بالسمع والطاعة والبر والإحسان بالوالدين كثيرة تدل على عظم هذه المرتبة وأهميتها ومكانتها عند رب العالمين.

٣. الدائرة الثالثة: السمع والطاعة لولاية الأمر:

مفهوم السمع والطاعة لولي الأمر في التربية الإسلامية ليس مفهوماً أعمى قائم على التسلط والظلم والطغيان والاستبداد السياسي، أو القداسة والعصمة والاستغلال الديني، وإنما هو مفهوم تربوي قائم على الحرية والعقل والاستطاعة، وتحقيق العدل ومقاصد الشرع، على أساس الشورى التي تُراعي المصالح، وتحفظ المكتسبات، يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بطاعة ولي الأمر المسلم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (سورة النساء، آية: ٥٩)، رجح الإمام البخاري والطبري وغيرهم أن هذه الآية نزلت في طاعة الأمراء، خلافاً لمن قال نزلت في العلماء، ويقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عبادة بن الصامت رضي الله عنه فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا، وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةِ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا تَنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا

^١ الشوكاني، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٠٣.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب الجهاد بإذن الأبوين، حديث رقم (٣٠٠٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأههما أحق به، حديث رقم (٢٥٤٩).

^٣ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب البر والصلة، حديث رقم (٧٢٥٠). قال الذهبي: صحيح.

^٤ قال ابن حجر "في هذا إشارة من المصنف إلى ترجيح القول الصائر أن الآية نزلت في طاعة الأمراء، خلافاً لمن قال نزلت في العلماء، وقد رجح ذلك أيضاً الطبري". ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ١٤٠.

كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ^١، "أي اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأُمراء بالدنيا ولم يوصلوكم حقكم مما عندهم، وهذه الأحاديث في الحث على السمع والطاعة في جميع الأحوال، وسببها اجتماع كلمة المسلمين فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم"^٢، وهذا الحديث وغيره يضع سدًّا منيعاً أمام الفرقة والاختلاف، وقاعدة قوية متينة للوحدة والاجتماع، وذلك بوجوب السمع والطاعة لولي الأمر الذي بايعه المسلمون، وعدم الخروج على ذلك وإثارة الفوضى بسبب شبهة أو تأوُّل أو استتثار، بل إن نصوص الشرع تُلزم الناس بالسمع والطاعة لولي الأمر المسلم كائناً من كان «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيَّةٌ»^٣، قال ابن حجر "وأما لو تغلب عبدٌ حقيقةً بطريق الشوكة فإن طاعته تجب إخماداً للفتنة ما لم يأمر بمعصية... أطلق العبد الحبشي مبالغة في الأمر بالطاعة وإن كان لا يتصور شرعاً"^٤، ويقول أبو ذر رضي الله عنه «إِنَّ حَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأَطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ»^٥ قال النووي "يعني مقطوعها، والمراد أحسن العبيد أي أسمع وأطيع للأمر وإن كان ديني النسب، حتى لو كان عبداً أسود مقطوع الأطراف فطاعته واجبة"^٦، ولذلك عندما صحَّ تصور هذا الصحابي الجليل لهذا المبدأ العظيم كان عاصماً له من من الفتنة التي أدركها رضي الله عنه بعد أن هجر المدينة واستوطن الربذة^٧ لزهده ورغبته عن الدنيا،

^١ أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «سَتْرُونَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا»...، حديث رقم (٧٠٥٥-٧٠٥٦).

^٢ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٢، ص ٣١١.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، حديث (٧١٤٢).

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ١٥٣.

^٥ أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأُمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم (١٨٣٧).

^٦ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٢، ص ٣١٢.

^٧ الربذة "منزلٌ فيه أعرابٌ وماءٌ كثير، وفيه منزل أبي ذر رضي الله عنه، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه قبره، وفيها مسجدٌ جامع، وهي من القرى القديمة في الجاهلية.

والربذة هي التي جعلها عمر رضي الله عنه حمى لإبل الصدقة، وهي في اللغة: الصوفة من العين تعلق على البعير، وإليها نفى عثمان رضي الله عنه أبا ذر رضي الله عنه، فمات بها سنة اثنتين وثلاثين، وهو جندب بن عباد ويقال ابن السكن، وهو من غفار قبيلة من كنانة.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه في وجهته إلى تبوك، لما أبطأ بأبي ذر رضي الله عنه جملة، فأخذ رحله فجعله على جملة ثم خرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في

وقيل بعد أن نفاه أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه؛ لأنه أراد حمل الناس على الزهد والتقلل من الدنيا اجتهاداً ورأياً منه رضي الله عنه، واعتماداً على وصايا النبي صلى الله عليه وسلم له، فقيل له لو نصبت رايةً فنأتيك برجال، تحريضاً على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، «فقال: يا أهل الإسلام! لا تعرضوا عليّ أذاكم، لا تُذِلُّوا السلطان، فإنّه من أذلَّ السلطان أذلَّ الله، والله أن لو صلبني عثمان على أطول حبل أو أطول خشبةٍ لسمعتُ وأطعتُ وصبرتُ واحتسبتُ ورأيتُ أنّ ذلك خيرٌ لي، ولو سيرني ما بين الأفق إلى الأفق، أو بين المشرق إلى المغرب، لسمعتُ وأطعتُ وصبرتُ واحتسبتُ ورأيتُ أنّ ذلك خيرٌ لي»^١.

وأعظم من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ يُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ». قيل يا رسول الله أفلا نبادهم بالسيف فقال «لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وَلَا تِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَافْكُرْهُوا عَمَلَهُ وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»^٢، قال الإمام الشوكاني "فيه دليل على أنه لا يجوز منابذة

بعض منازلها، ونظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، هذا رجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كن أبا ذر، رحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده". الحديث بطوله أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب المغازي والسرايا، حديث رقم (٤٣٧٣). قال الذهبي: فيه إرسال.

فلما خرج أبو ذر رضي الله عنه إلى الربذة وأصابه بها أحله لم يكن معه أحدٌ إلا امرأته وغلّامه، فأوصاهما أن اغسلاني وكفّني ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمر بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه، فلما مات فعلا به ذلك ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في رهطٍ من أهل العراق، فلم يرُعهُم إلا الجنّازة على ظهر الطريق وقد كادت الإبل تطؤها، وقام إليهم الغلام وقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه، قال: فاستهل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يكي: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدّتهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حديثه وما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسيره إلى تبوك". محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ت: إحسان عباس، ط ٢، ١٩٨٠م، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ج ١، ص ٢٦٦-٢٦٧.

^١ أخرجه ابن أبي شيبة، كتاب الفتن، ما ذكر في عثمان رضي الله عنه، حديث رقم (٣٧٧٠٢). أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي: المصنف في الأحاديث والآثار، ت: كمال يوسف الحوت، ١٤٠٩هـ، مكتبة الرشد، الرياض.

^٢ أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، حديث رقم (١٨٥٥).

الأئمة بالسيف مهما كانوا مقيمين للصلاة"^١، وجاء في رواية العرياض بن سارية رضي الله عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في موعظته لهم «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ»،^٢ فجاء الأمر النبوي بالسمع والطاعة مع لفظ (تأمر) أي نصّب نفسه أميراً، واستتب الأمر له، دون رأي أو شورى، وهذا الفهم طبّقه أبو هريرة رضي الله عنه حينما ولي يزيد بن معاوية الخلافة، وكان ما كان منه، ومع ذلك لم يُقدِّم رضي الله عنه على الخروج وإثارة الفتن عليه وعلى الأمة، لعلمه بأن طاعته أخف وأيسر من هلاك الأمة بالفتن في الخروج عليه، لما يترتب على ذلك من سفك الدماء والاعتداء على الحرمات^٣.

وهذا هو المنهج الوسط في دائرة السمع والطاعة للإمام منعاً للفتن، وإدامةً للإجماع، واعتصاماً بهدي الكتاب والسنة فهماً وتطبيقاً، وهو ما أوضحه الخليفة الملهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما تطاول الناس في البناء، فقال "يا معشر العُريب الأرض الأرض، إنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة، فمن سوّده قومه على الفقه كان حياةً له ولهم، ومن سوّده قومه على غير فقهٍ كان هلاكاً له ولهم"^٤.

والسمع والطاعة للإمام كما تشمل الولاية العامة فإنها تشمل الولاية الخاصة، أي السمع والطاعة لكل من تقلد ولاية من إمارة أو إدارة أو غير ذلك، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما ينقله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أدق تطبيق اجتماعي لهذا المبدأ «إذا كان نفرٌ ثلاثة فليؤمروا أحدهم ذاك أميرٌ أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم»،^٥ وما ذلك إلا أنهم إذا اجتمعوا على أمير واحد، وصدروا عن رأي واحد كانوا أبعد عن الاختلاف والفرقة، وسبباً في الاجتماع والألفة.

^١ محمد بن علي الشوكاني: نبيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، ١٤١٩ هـ، دار المعرفة، بيروت، ج٧، ص٢١٧.

^٢ أخرجه البيهقي، السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي، حديث رقم (٢٠١٢٥).

^٣ سبق الإشارة إلى قصة أبو هريرة رضي الله عنه بالتفصيل في الفصل الثالث، المبحث الأول، مطلب (البناء العلمي).

^٤ أخرجه الدارمي، المقدمة، باب في ذهاب العلم، حديث رقم (٢٥١). قال حسين سليم أسد: في إسناده علتان: الأولى جهالة صفوان بن رستم، والثانية الانقطاع. وعبد الرحمن بن ميسرة لم يدرك تميماً الداري.

^٥ أخرجه الحاكم في مستدركه، أول كتاب المناسك، حديث رقم (١٦٢٣)، قال الإمام الذهبي: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وبهذا التدرج التربوي والتدريب العملي في تشريع مبدأ السمع والطاعة من القاعدة الإعتقادية التي تبدأ من التنشئة الأولى للطفل بالسمع والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم في دائرة الحياة الكبيرة والتي بها صلاح الدنيا والآخرة، ثم بالسمع والطاعة للوالدين في دائرة الأسرة الصغيرة والتي بها صلاح الأسرة وسعادتها واستقرارها، ثم بالسمع والطاعة لولي الأمر في دائرة المجتمع والذي به صلاح واستقرار الأمة، كل ذلك لإحداث إصلاح اجتماعي، بتدرج تربوي، وعلى أساس قوي، وقاعدة متينة لينطلق المجتمع نحو الاجتماع والألفة والوحدة، ولتحقق في النفوس أعلى درجات الولاء الخالص، والانتماء الصادق، والمواطنة الصالحة، والتضحية والفداء على مستوى الأسرة والمجتمع والوطن والأمة.

والسمع والطاعة في التربية الإسلامية لها ضوابط، ومنها:

١. أن يكون الأمر من واجبات الشرع، أو المصالح العامة، أو الضروريات، فإذا كان الأمر غير ملزم بوجوب إنما هو للندب أو الاختيار، أو كان فيه قرينة تدل على حرية الفعل أو الترك، فلا يلزم فيه الطاعة، وإنما الأمر فيه اختياريًا.
٢. أن تكون في حدود الوسع والإستطاعة، يقول تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ (سورة التغابن، آية: ١٦)، ويقول سبحانه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٨٦)، وما كان خارجاً عن الوسع والإستطاعة فلا يلزم فيه الطاعة، وهذان الضابطان عامان وشاملان لكل الدوائر والأحكام.
٣. أن تكون الطاعة في المعروف، وهو ما كان في طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإذا كانت معصية أو كفرًا وشركًا فلا سمع ولا طاعة، ففي حق ولادة الأمر يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عبادة بن الصامت رضي الله عنه فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ... إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ، وفي حق الوالدين يقول تعالى ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ (سورة لقمان، آية: ١٥)، وفي حق كل أحد غير الله تعالى يقول صلى الله عليه وسلم «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ،

^١ سبق تخريجه، ص ٢٨٥.

إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»^١، ويقول «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ، فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»^٢.

المطلب الرابع: تحقيق مبدأ الوحدة والاجتماع:

أولاً: معنى الوحدة والاجتماع:

الوحدة من الاتحاد، وهو من معاني الاجتماع والجماعة، قال ابن فارس "الجيم والميم والعين أصل واحد، يدلُّ على تَضَامُّ الشَّيْءِ"^٣.

وفي الاصطلاح هو "تقارب أجسام بعضها من بعض"^٤.

وذكر الشاطبي معنى الجماعة على خمسة أقوال وهي باختصار:

١. إنها السواد الأعظم من أهل الإسلام.

٢. أنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين.

٣. أن الجماعة: هي الصحابة رضي الله عنهم على الخصوص.

٤. إن الجماعة: هي جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر.

٥. ما اختاره الطبري، أن الجماعة جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير.

ثم قال وحاصله: أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة^٥.

والوحدة والاجتماع هي الرابطة والعلاقة التي يقوم عليها أفراد المجتمع على أساس العدل والمحبة والاحترام، وأداء الحقوق والواجبات تجاه كل ذي حق، والتعايش المثمر والبناء القائم على قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (سورة الزخرف، آية: ٣٢)، أي "أنه فاضل بينهم، فجعل بعضهم أفضل من بعض في الدنيا بالرزق، والرياسة، والقوّة، والحرية، والعقل، والعلم، ثم ذكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض... ليستخدم بعضهم بعضاً، فيستخدم الغنيّ

^١ أخرجه البخاري، كتاب أخبار الآحاد، باب فب إجازة خبر الواحد...، حديث رقم (٧٢٥٧). ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم (١٨٤٠).

^٢ أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، حديث رقم (٧١٤٤). ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم (١٨٣٩).

^٣ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ١، ص ٤٧٩، كتاب الجيم، باب (الجيم والميم وما يثلثهما)، مادة (جمع).

^٤ الجرجاني، التعريفات، ص ٢٣، باب الألف، مادة (الاجتماع).

^٥ الشاطبي، الاعتصام، ج ٢، ص ٦٥٨-٦٦٣.

الفقير، والرئيس المرعوس، والقويّ الضعيف، والحرّ العبد، والعاقل من هو دونه في العقل، والعالم الجاهل، وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا، وبه تتمّ مصالحهم، وينتظم معاشهم، ويصل كلّ واحد منهم إلى مطلوبه، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين، فجعل البعض محتاجاً إلى البعض، لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا، ويحتاج هذا إلى هذا، ويصنع هذا لهذا، ويعطي هذا لهذا^١، ولا يتم ذلك إلا بتحقيق رابطة الوحدة وتنمية علاقة الاجتماع بين أفراد المجتمع.

ثانياً: الأحاديث المتضمنة الواردة في الوحدة والاجتماع من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. بَوَّبَ الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الاعتصام "باب ما ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَضَّ عَلَى اتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْحَرَمَانِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ..."

قال ابن حجر "حَضَّ" بمهملة وضاد معجمة ثقيلة، أي حَرَضَ بالمهملة وتشديد الراء^٢ وفي هذه الترجمة دلالة واضحة على حرص الإمام البخاري على جمع الأحاديث النبوية التي توحد الأمة الإسلامية تحت راية العلم، وتبث فيها روح الأخوة والتراحم، وتحصنها من الاختلاف والتفرق. كذلك ذكر رحمه الله "باب كَرَاهِيَةِ الْخِلَافِ" قال القسطلاني "في الأحكام الشرعية أو أعم من ذلك ولأبي ذر الاختلاف"^٣، وفي هذا الباب أورد البخاري الأحاديث النبوية التي تُبَيِّنُ حكم الخلاف والاختلاف، وأن الخلاف يكون شراً بسبب ما يترتب عليه من تفرق وبلاء وفتنة، ولا نجاة من ذلك إلا بالاعتصام بالكتاب والسنة التي دلت نصوصها على ترك الخلاف الذي يترتب عليه فتنة وتفرق، والحرص على دوام الألفة والمودة والعدل مع وجود الاختلاف ولا بد.

٢. (٧٣١٣) عَنْ عَمْرٍو سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) قَالَ «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قَالَ «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». فَلَمَّا نَزَلَتْ (أَوْ يَلْبِسْكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قَالَ «هَاتَانِ أَهْوَنُ أَوْ أَيْسَرُ».

هذا الحديث يوضحه حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَعَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا وَأُعْطِيَتْ الْكَنْزَيْنِ

^١ الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ص ٧٢٤.

^٢ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٧٧.

^٣ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٣٢٠.

الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة وأن لا يسلب عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة وأن لا أسلب عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من باقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً^١.

وهذا قدر كوني واختبار رباي جعله الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم حينما تحيد عن صراط الله المستقيم، وتعرض عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم علماً وعملاً، وتسلك مسلك الاختلاف والفرقة، وترضى بالشیطان حكماً، وبالقتال حلاً، يحل بها قدر الله من الاختلاف والافتتال القائل ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (سورة الأنعام، آية: ٦٥)، قال الشوكاني "والمعنى: يجعلكم مختلطي الأهواء مختلفي النحل متفرقي الآراء. وقيل: يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضاً. والشيع: الفرق، أي يخلطكم فرقا. (ويذيق بعضكم بأس بعض) أي يصيب بعضكم بشدة بعض من قتل وأسر ونهب"^٢.

لذلك أوصى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين بالاجتماع والوحدة ونذ التفرق ليتحقق للأمة النجاة والأمان، يقول الله تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٣)، قال ابن جرير رحمه الله: "يعني بذلك جل ثناؤه وتعلقوا بأسباب الله جميعاً، يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله... وعن قتادة في قوله تعالى: (ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم) قال: إن الله عز وجل قد كره لكم الفرقة، وقدم إليكم فيها، وحذركموها، ونهاكم عنها، ورضي لكم السمع والطاعة والألفة والجماعة، فاضوا لأنفسكم ما رضي الله لكم إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله"^٣.

وقوله عليه الصلاة والسلام «هَاتَانِ أَهْوَانٌ أَوْ أَيْسَرٌ» لقوله تعالى ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (سورة الأنعام، آية: ٦٥)، ليس المراد منه رضاه صلى الله عليه وسلم أن تفترق أمته وتقتل فيما بينها، إنما المراد أن وقوع الاختلاف والتفرق وما ينتج عنه من اقتتال أهون وأيسر من تسليط العذاب العام على الأمة أجمع فنتهي دولهم، ويختفي ذكرهم، وذلك من جهتين (من فوقكم ومن

^١ سبق تخريجه ص ٧.

^٢ الشوكاني، فتح القدير، ج ٢، ص ١٧٨.

^٣ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٣، ص ٣٧٩.

تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) "فالعذاب المبعوث من جهة الفوق: ما ينزل من السماء من المطر والصواعق. والمبعوث من تحت الأرجل: الخسف والزلازل والغرق. وقيل: (مَنْ فَوْقَكُمْ) يعني الأمراء الظلمة (وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) يعني السفلة، وعبيد السوء"^١، قال القسطلاني "قال صلوات الله وسلامه عليه: (هاتان) المختان اللبس والإذاقة (أهون أو) قال (أيسر) لأن الفتن بين المخلوقين وعذابهم أهون وأيسر من عذاب الله على الكفر"^٢، وقال ابن حجر في حكمة الله بوقوع الاختلاف "وأنه صلى الله عليه وسلم كان لا يريد أن يقع فأعلمه الله تعالى أنه قضى بوقوعه، وأن كل ما قدره لا سبيل إلى رفعه، قال ابن بطال: أحاب الله تعالى نبيه في عدم استئصال أئته بالعذاب، ولم يجبه في أن لا يلبسهم شيعاً، أي فرقاً مختلفين وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض أي بالحرب والقتل بسبب ذلك، وإن كان ذلك من عذاب الله لكن أخف من الاستئصال وفيه كفارة للمؤمنين"^٣.

وفي الحديث إشارة إلى أن وقوع عذاب التفرق والاختلاف والافتتال بين الأمة أمرٌ قدره الله وشاءه، ولا يقع إلا بتفريط أفراد الأمة عن سلوك صراط الله المستقيم، ومخالفة هدي الكتاب والسنة في الأمر بالاجتماع والوحدة ونبذ الاختلاف والتفرق، وأن ما يقع نتيجة ذلك هو عقوبة للمسيء والمخالف، وبلاء وكفارة للمؤمن المعتصم بهدي الكتاب والسنة.

٣. (٧٣٢٣) عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كُنْتُ أُفْرِيءُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَلَمَّا كَانَ آخِرَ حَجَّةٍ حَجَّهَا عُمَرُ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِنِي، لَوْ شَهِدْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَاهُ رَجُلٌ قَالَ إِنَّ فُلَانًا يَقُولُ لَوْ مَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَبَايَعْنَا فُلَانًا. فَقَالَ عُمَرُ لِأَقَوْمِنَ الْعَشِيَّةَ فَأَحْذَرُ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْصِبُوهُمْ. قُلْتُ لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ رَعَاعَ النَّاسِ يَغْلِبُونَ عَلَى مَجْلِسِكَ، فَأَخَافُ أَنْ لَا يُنْزِلُوهَا عَلَيَّ وَجْهَهَا فَيُطِيرُ بِهَا كُلَّ مُطِيرٍ، فَأَمْهَلْ حَتَّى تَقْدَمَ الْمَدِينَةَ دَارَ الْهَجْرَةِ وَدَارَ السُّنَّةِ، فَتَخْلُصَ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فَيَحْفَظُوا مَقَالَتَكَ، وَيُنْزِلُوهَا عَلَيَّ وَجْهَهَا. فَقَالَ وَاللَّهِ لِأَقَوْمِنَ بِهِ فِي أَوَّلِ مَقَامٍ أَقَوْمُهُ بِالْمَدِينَةِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ فِيهَا أَنْزَلَ آيَةَ الرَّحْمِ.

في هذا الحديث يظهر حرص أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وأرضاه على وحدة واجتماع المسلمين، وعدم فعل أي أمر ربما يكون سبباً في تفرقهم واختلافهم، ويبين الحديث كيف تعامل رضي الله عنه

^١ الشوكاني، فتح القدير، ج ٢، ص ١٧٨.

^٢ القسطلاني، إرشاد الساري، ج ١٥، ص ٢٧٥.

^٣ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٦٦.

وأرضاه مع من يريد زرع الفتنة والشقاق في المجتمع عن طريق تفويض النظام القائم الذي يحكمه ويسير شؤونه ويرعى مصالحه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وذلك بتقديم النصيحة وإظهار الحق، فقال رضي الله عنه (لَأُقَوْمَنَّ الْعَشِيَّةَ فَأَحْذَرُ هَوْلَاءِ الرَّهْطِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْصِبُوهُمْ) قال القسطلاني "أي يقصدون أموراً ليست من وظيفتهم ولا مرتبتهم فيريدون أن يباشروها بالظلم والغصب"^١، فرجع عن عزمه ذلك لما أخبر به من أن موسم الحج يجمع رعا^٢ الناس، وأن مقالته التي يريد منها أن تكون سبيلاً لوحدة المسلمين واجتماعهم سوف تكون سبباً لاختلافهم وتفرقهم، ولذلك قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه (فَأَخَافُ أَنْ لَا يُنْزِلُوهَا عَلَيَّ وَجْهَهَا فَيُطِيرُ بِهَا كُلَّ مُطِيرٍ)^٣، قال ابن حجر "والمراد أنه يشون على الأمر بغير عهد ولا مشاورة وقد وقع ذلك بعد علي وفق ما حذره عمر رضي الله عنه"^٤، فقال عمر رضي الله عنه (وَاللَّهِ لَأُقَوْمَنَّ بِهِ فِي أَوَّلِ مَقَامٍ أَقَوْمُهُ بِالْمَدِينَةِ)، وما ذلك إلا لأن المدينة كما ذكر في الحديث دار الهجرة ودار السنة وبها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار الذين هم أهل^٥ للعلم والحكمة والشورى والفهم، ومراعاة مصلحة وحدة المسلمين واجتماعهم، ولذلك جاء في رواية أخرى "فَأَمَّهْلُ حَتَّى تَقْدَمَ الْمَدِينَةَ فَإِنَّهَا دَارُ الْهَجْرَةِ وَالسُّنَّةِ، فَتَخْلُصَ بِأَهْلِ الْفِقْهِ وَأَشْرَافِ النَّاسِ، فَتَقُولَ مَا قُلْتَ مُتَمَكِّنًا، فَيَعِيَ أَهْلُ الْعِلْمِ مَقَالَاتِكَ، وَيَضَعُونَهَا عَلَيَّ مَوَاضِعَهَا"^٥.

وكان من الأمور التي نبه إليها عمر رضي الله عنه الناس في خطبته ما حدث بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من اختلاف على الخلافة، ومبايعة الناس لأبي بكر رضي الله عنه بالشورى وهو لها أهل، وما ذلك إلا لحرصه على دوام وحدة المسلمين وعدم اختلافهم، وأن أمر الخلافة لا يكون إلا بالشورى بين أهل العلم والرأي كما حدث في خلافة أبي بكر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين. وفي الحديث يظهر أهمية الحرص على وحدة المجتمع الإسلامي، وأن الواجب على جميع أفرادها أن يمنعوا كل من أراد زعزعة تلك الوحدة والجماعة، وأن يقفوا صفاً واحداً ضده لما ينشأ عن الاختلاف

^١ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٨٤.

^٢ قال القسطلاني "رَعَاعٌ بفتح الراء والعين المهملة وبعد الألف أخرى جهلتهم وأرادهم". المصدر السابق، ج ١٥، ص ٢٨٤.

^٣ قال القسطلاني " (فَيُطِيرُ بِهَا) بضم التحتية وكسر الطاء المهملة وسكون التحتية (كل مُطِيرٍ) بضم الميم مع التخفيف أي فينقلها كل ناقل بالسرعة من غير تأمل ولا ضبط". المصدر السابق، ج ١٥، ص ٢٨٤.

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٢، ص ١٧٨.

^٥ أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، حديث رقم (٦٨٣٠).

من تفرق وتحزب ومنازعة، والله تعالى يقول ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٤٦)، قال ابن حجر معلقاً على الحديث "وفيه جواز إخبار السلطان بكلام من يخشى منه وقوع أمر فيه إفساد للجماعة ولا يعد ذلك من النميمة المذمومة، لكن محل ذلك أن يهمله صوتاً له وجمعاً له بين المصلحتين، ولعل الواقع في هذه القصة كان كذلك واكتفى عمر بالتحذير من ذلك ولم يعاقب الذي قال ذلك ولا من قيل عنه".^١

٤. (٧٣٦٤) عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا اتَّخَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِقُّومُوا عَنْهُ».

٥. (٧٣٦٥) عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا اتَّخَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِقُّومُوا عَنْهُ».

في هذين الحديثين أمر نبوي كريم للحث على الألفة والبعد عن الاختلاف والتفرق ولو كان ذلك السبب قراءة أعظم وأحكم كتاب وهو كتاب الله تعالى، وذلك لأن المقصد الأعلى للشارع الحكيم من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو تحقيق الوحدة والألفة بين عباده المؤمنين بكل وسيلة تؤدي إليها ونبت الاختلاف والتفرق وكل سبب يوقع فيه يقول تعالى في الأمر بالاجتماع والوحدة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٣)، ويقول سبحانه في النهي عن الاختلاف والتفرق ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٥)، والنهي الوارد في الحديثين عن قراءة القرآن حال الاختلاف يهتم عدة معانٍ قال عياض يهتم أن يكون النهي خاصاً بزمنه صلى الله عليه وسلم لئلا يكون ذلك سبباً لنزول ما يسوؤهم كما في قوله تعالى (لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم)، ويهتم أن يكون المعنى أقرءوا والزموا الائتلاف على ما دل عليه وقاد إليه، فإذا وقع الاختلاف أو عرض عارض شبهة يقتضي المنازعة الداعية إلى الافتراق فاتركوا القراءة، وتمسكوا بالمحكم الموجب للالفة وأعرضوا عن المتشابه المؤدي إلى الفرقة، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم (فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فاحذروهم)، ويهتم أنه ينهى عن القراءة إذا وقع الاختلاف في كيفية الأداء بأن يتفرقوا عند الاختلاف ويستمر كل منهم على قراءته، ومثله ما تقدم عن ابن مسعود لما وقع بينه وبين الصحابييين الآخرين الاختلاف في الأداء فترافعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال (كلكم محسن)^٢، والاحتمالات التي نقلها ابن حجر عن

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٢، ص ١٨٨.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٥.

عياض كلها تؤدي إلى نبد أي سبب يؤدي إلى الاختلاف والتفرق، والمحافظة والإبقاء على الائتلاف والاجتماع.

وفي شرح الحديثين يقول صلى الله عليه وسلم " (أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا اتَّخَفْتُمْ) ما اجتمعت (قُلُوبُكُمْ) عليه (فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ) في فهم معانيه (فَقُومُوا عَنْهُ) لئلا يتمادى بكم الخلاف إلى الشر"^١.
وقد أورد الإمام البخاري في جامعه باب (اقرؤوا القرآن ما اتلفت عليه قلوبكم) وذكر فيه الحديثين السابقين وحديث عبدالله بن مسعود «أَنَّه سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ آيَةً، سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ خِلَافَهَا، فَأَخَذَتْ يَدَهُ فَأَنْطَلَقَتْ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ «كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ، فَأَقْرَأْ - أَكْبَرُ عِلْمِي قَالَ - فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَأَهْلَكَهُمْ»^٢، ثم ذكر مناسبة جمع البخاري لهذه الأحاديث في هذا الباب ابن حجر فقال "وفي هذا الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة، والتحذير من الفرقة والاختلاف، والنهي عن المراء في القرآن بغير حق، ومن شر ذلك أن تظهر دلالة الآية على شيء يخالف الرأي فيتوسل بالنظر وتدقيقه إلى تأويلها وحملها على ذلك الرأي ويقع اللجاج في ذلك والمناضلة عليه"^٣.

فإذا كان النهي عن الاختلاف في كلام الله تعالى، والأمر بالقيام والتفرق عنه حال وقوعه، فكلام غيره سبحانه أولى وأوجب في الترك والقيام والتفرق عنه إذا كان سبباً في وقوع الاختلاف والفرقة.

ثالثاً: التطبيق التربوي لمبدأ الوحدة والاجتماع:

"الاجتماع الإنساني ضروري. و يعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنيّة... ومعنى هذا القول، أنه لا تمكن حياة المنفرد من البشر، ولا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه، وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته، فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبداً بطبعه، وتلك المعاونة لا بد فيها من المفاوضة أولاً، ثم المشاركة وما بعدها"^٤، والوحدة والاجتماع أصل من أصول التربية الإسلامية، ومقصود من مقاصدها، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٠٣)، وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ هَذِهِ

^١ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٣٢١..

^٢ أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اقرؤوا القرآن ما اتلفت عليه قلوبكم، حديث رقم (٥٠٦٢).

^٣ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٩، ص ١٢٦.

^٤ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٤٦، ص ٤٣٩.

أُمَّتْكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿ (سورة المؤمنون، آية: ٥٢)، بل إنه أصلٌ في جميع الشرائع ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (سورة الشورى، آية: ١٣)، ولذلك جاء التحذير النبوي من الإخلال بهذا المبدأ العظيم الذي يقول فيه عليه الصلاة والسلام «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ثُمَّ مَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَعْضَبُ لِلْعَصْبَةِ وَيُقَاتِلُ لِلْعَصْبَةِ فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِي، وَمَنْ خَرَجَ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا لَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي بِذِي عَهْدِهَا فَلَيْسَ مِنِّي»^١، وهذا ما يبيِّن التحذير النبوي من فتنة الخوارج على الخصوص، وبيان طريقتهم ومسلكتهم في الفكر والسلوك دون غيرهم من الفرق؛ لأنهم يسببون الفرقة والاختلاف في الأمة باجتهاداتهم وتأويلاتهم الباطلة، وتعصبهم وتشددهم المذموم، وفي هذا دليلٌ على خطر كل من سلك مسلكهم وانتهج طريقتهم في جانب اختلاف الجماعة وتفرقها، يقول ابن تيمية صاحب النظرة الشرعية الصحيحة _المعتصمة بالكتاب والسنة_ والفهم الواعي الشامل للدلولات النصوص، وهو الذي عاش في زمنٍ فيه من الاختلاف والفتن ما هو قريبٌ من حالنا اليوم، يقول "وتعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، فإن الله تعالى يقول ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (سورة الأنفال، آية: ١)... وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والاتلاف، وتنهاى عن الفرقة والاختلاف، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة... ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً، أو مخطئاً، أو مذنباً، فالأول مأجورٌ مشكور، والثاني مع أجره على الاجتهاد فمغفورٌ عنه مغفورٌ له، والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين"^٢، بل جاء الأمر النبوي بقتل من أراد تفريق جماعة المسلمين أو ضرب وحدثهم «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ»^٣.

والتربية الإسلامية تؤمن بقضية الخلاف يقول تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (سورة هود، آية: ١١٨)، "أي لا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم"^٤، ولكن ذلك الخلاف لا يتجه نحو الاختلاف الذي يقود إلى التفرق كما قال تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

^١ أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، حديث رقم (١٨٤٨).

^٢ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٢٨، ص ٣٣-٣٤.

^٣ أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، حديث رقم (١٨٥٢).

^٤ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٤٨١.

عَظِيمٌ» (سورة آل عمران، آية: ١٠٥)، بل لقد جعلت التربية الإسلامية ضوابط للخلاف^١، وحرمت أن يمتد إلى العلاقات الإنسانية بالقطيعة والفرقة والبغي، حتى لو وصل الخلاف في المعتقد^٢، فضلاً عن الخلاف في الفروع أو الرأي، والمجتمع المدني خير دليل على ذلك فقد جمع مع المسلمين المخالفين في المعتقد من يهود ومنافقين، وكذلك اختلف الصحابة في مسائل وقضايا عديدة، ومع ذلك لم يكن هناك تقاطع وتفرق، وتحزب وبغي، بل كان الشعاع المرفوع في التعامل بين المسلمين «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (سورة الحجرات، آية: ١٠)، ومع غير المسلمين «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (سورة الممتحنة، آية: ٨)، وهذه العلاقة المبنية على القسط والعدل هي الأساس لتحقيق مبدأ الوحدة والاجتماع، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله تعالى «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ» (سورة البقرة، آية: ٢١٣)، فبين الله تعالى أن الناس كانوا على ملة واحدة، وطريقة واحدة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، ثم اختلفوا وتفرقوا بسبب بغي وظلم بعضهم البعض «وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ» (سورة الشورى، آية: ١٤)، "وحذر القرآن من مكايد أعداء المسلمين الذين لا يسرهم أن يروهم كالبنيان المرصوص، أو الجسد الواحد، فقال سبحانه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ» (سورة آل عمران، آية: ١٠٠)، وسبب نزول الآية يبين أن المعنى: يردونكم بعد أخوتكم متعادين، وبعد اتحادكم وتلاحمكم متفرقين متمزقين، وحتى لا يحدث هذا التمزق في الأمة المسلمة، شرع لها الإسلام نظاماً محكماً، يجمع شملها، وينظمها في عقد متماسك الحيات، يجسد وحدتها العقديّة والروحية والفكرية في وحدة سياسية عملية، ويجعل منها كياناً واحداً قوياً كبيراً، كياناً دينياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً"^٣.

وإن من أكبر أسباب الاختلاف التي أوقعت الفرقة بين أبناء الأمة الإسلامية ما وقع في بعض مسائل الاعتقاد أو مسائل الاجتهاد من أخطاء، والتي سببت التعصب للمذهب أو الرأي، وما نتج

^١ سبق الإشارة إلى الخلاف وأنواعه كلٌ بحسب اعتباره والمقصود منه، وأسباب وقوعه في الفصل الثاني، المبحث الثاني (أسباب الاختلاف والتفرق والوسائل التربوية المعينة على الوحدة والاجتماع).

^٢ هناك فرق بين الولاء والبراء والمعاملة بالحسنى التي أمر الله بها. انظر: محمد سعيد القحطاني: الولاء والبراء في الإسلام، ط ٣، ١٤٠٩هـ، دار طيبة، الرياض، ص ٣٤٦ وما بعدها.

^٣ يوسف القرضاوي: الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم، ١٤٢٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٣١.

عنه من عقلية قائمة على الإقصاء والحجر، وعدم تقبل الرأي المخالف أو سماعه وربما محاورته، فكانت النتيجة القضاء على التسامح والإعذار، وروح الأخوة الإيمانية، فكان ذلك سبباً في إحداث شرح عظيم للصف الإسلامي، وضرب للوحدة العقدية^١، مما أفرز اختلافاً وتفرقاً، وجموداً وتقليداً مذموماً، ينتهج أساليب العدا والتصنيف والتبديع، والمنهج الصحيح في ذلك كما يقول ابن تيمية "إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب، وكان قد بُعث إلى ذوى أهواءٍ متفرقة، وقلوبٍ متشتة، وآراءٍ متباينة، فجمع به الشمل، وألّف به بين القلوب، وعصم به من كيد الشيطان، ثم إنه سبحانه وتعالى بين أن هذا الأصل - وهو الجماعة - عمادٌ لدينه... وقد كره النبي صلى الله عليه وسلم من المجادلة ما يُفضي إلى الإختلاف والتفرق... فوصف الفرقة الناجية بأنهم المستمسكون بسنته، وأهمهم هم الجماعة. وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (سورة النساء، آية: ٥٩)، وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين... وأما الاختلاف في الأحكام، فأكثر من أن ينضبط، ولو كان كل ما اختلفت مسلمان في شيءٍ تهاجراً، لم يبق بين المسلمين عصمةٌ ولا أخوة^٢، ويقول في موضعٍ آخر "ومعلومٌ أن في جميع الطوائف من هو زائغٌ ومستقيم... وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطاياها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحدٌ منهم على أحدٍ لا بكفر ولا بفسق ولا معصية... ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا

^١ اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في بعض مسائل الاعتقاد، ولكن المنهج الوسطي في ذلك هو الحكم بالخطأ فيما أخطأوا فيه، مع بيان علمهم وفضلهم ومكانتهم لتجتمع القلوب وتدوم الأخوة والمحبة والألفة، ولبيان هذا المنهج الوسطي في الحكم على المخالف نورد فتوى صادرة من اللجنة الدائمة للإفتاء بالملكة العربية السعودية (١٧٣/٣)، جاء فيها "موقفنا من أبي بكر الباقلاني والبيهقي وأبي الفرج بن الجوزي وأبي زكريا النووي وابن حجر وأمثالهم ممن تأول بعض صفات الله تعالى أو فوضوا في أصل معناها - أنهم في نظرنا من كبار علماء المسلمين الذين نفع الله الأمة بعلمهم فرحمهم الله رحمة واسعة وجزاهم عنا خير الجزاء، وأنهم من أهل السنة فيما وافقوا فيه الصحابة رضي الله عنهم وأئمة السلف في القرون الثلاثة التي شهد لها النبي صلى الله عليه وسلم بالخير، وأنهم أخطأوا فيما تأولوه من نصوص الصفات وخالقوا فيه سلف الأمة وأئمة السنة رحمهم الله سواء تأولوا الصفات الذاتية وصفات الأفعال أم بعض ذلك".

^٢ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٢٤، ص ٩٤-٩٦.

بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة^١، ويقول رحمه الله في بيان المنهج الصحيح _الذي يجمع ولا يفرق_ في التعامل مع المخالفين من أهل القبلة "والخوارج المارقون، الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين، واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم، لا لأنهم كفار، ولهذا لم يُسب حريمهم ولم يغنم أموالهم.

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا، مع أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بقتالهم، فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم؟ فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن تكفر الأخرى، ولا تستحل دمها ومالها، وإن كانت فيها بدعة محققة، فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضاً؟ وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ، وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ، والغالب أنهم جميعاً جهال بحقائق ما يختلفون فيه.

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة، من بعضهم على بعض، لا تحل إلا بإذن الله ورسوله... ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضاً مولاة الدين، لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم شهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض، ويتوارثون ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك^٢، يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالصبر في التعامل مع الكفار ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٨٦)، "فأمر سبحانه بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب، وفي هذا تبيية على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض، متأولين كانوا أو غير متأولين"^٣.

فالواجب في تعامل العلماء مع مسائل الخلاف أن يكون "الحكم على العلماء المخالفين بالخطأ، إذا كانوا من أهل الاجتهاد، وعدم جواز تضليلهم، أو تبديعهم، فضلاً عن تفسيقهم أو تكفيرهم، وهذا الحكم يسري على كل من اقتدى بهم وأخذ باجتهادهم من أهل العلم وعمامة المسلمين.

^١ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٣، ص ١٤٦-١٧٦.

^٢ ابن تيمية، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٧٦-١٧٨.

^٣ ابن تيمية، مرجع سابق، الاستقامة، ج ١، ص ٣٨.

لكن المشاهد في هذا العصر أن بعض العلماء يتورعون عن الحكم على كبار العلماء السابقين بالضلال والابتداع ويحكمون عليهم بالخطأ، بينما ينبري بعض تلامذتهم للحكم على بعض علماء هذا العصر بالضلال والابتداع، وهؤلاء العلماء المحكوم عليهم هم على منهج أولئك العلماء الكبار، ومع ذلك فإن كثيراً من العلماء المعاصرين لا ينكرون هذا التناقض في الحكم.

ونظراً لظهور هذا التناقض فإن بعض المتشددین في هذا العصر حكموا على كبار العلماء السابقين بالضلال والابتداع وحرّموا قراءة كتبهم، ولو أن العلماء الذين تورعوا عن الحكم على كبار العلماء بالضلال والابتداع عمّموا هذا الحكم على كل من أخذ باجتهداهم لما حصل هذا الغلو الذي باعد بين أهل العلم الديني من المسلمين وأوجد بينهم شيئاً من العداوة والبغضاء، وعامة المسلمين تبع لأهل العلم منهم، فإذا تفرق أهل العلم وتباعدهوا تبعهم في ذلك عامة المسلمين... ولو أن علماء الدين ربّوا تلامذتهم على المنهج المعتدل القائم على تحطئة المخالفين لهم حينما يتبين لهم خطوهم لا على تحريجهم وتبديعهم وتضليلهم لأصبح الجو العلمي الديني هادئاً ولسادت بين طلاب العلم روح المودة والأخوة القائمة على عذر المخالفين وعدم معاملتهم معاملة الفساق والكفار في البغض والبراء، مع اعتصام كل فريق بما يراه هو الحق، ومع قيام المناظرات والردود فيما بينهم على منهج متزن معتدل لا يفسد المودة ولا يجرح الأخوة الإيمانية بينهم، وبالتالي فإنه لا يترتب على خلافهم تحزبات ولا انقسامات تصل إلى مستوى العامة والمتقفين من غير المتخصصين في الدراسات الإسلامية^١، ومن تلك المسائل التي أحدثت خللاً اجتماعياً على مستوى الأمة، الاختلاف في مسألة التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم^٢ حيث أجازته البعض مستدلاً بحديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضربيراً أتى النبي

^{١١} الحميدي، الرسائل الشمولية، ص ٥١-٥٢.

^٢ الخلاف في هذه المسألة طويل، وذكرها هنا لتوضيح أن كل فريق من أهل العلم له حجة ودليل، وأن الواجب على الجميع بيان الحق والصواب بالطرق والآداب الشرعية التي لا تؤدي إلى الاختلاف والتفرق، وتشيتت جماعة المسلمين، أو كبل تم التكفير والتبديع والتفسيق، وحجة من منع التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم أنه مُكْرَهٌ لم يفعله أحدٌ من الصحابة رضوان الله عليهم، وأنه وسيلةٌ وذريعةٌ للشرك، ومنهم من عدّه شرك أصغر، ومنهم من فرّق في ذلك بين حياة النبي صلى الله عليه وسلم وموته، وحجة من أجازته الحديث السابق وبعض الآثار الواردة في معناه. يقول ابن حجر في شرحه لحديث العباس "ليس في قول عمر أنهم كانوا يتوسلون به دلالة على أنهم سألوه أن يستسقى لهم إذ يُحتمل أن يكونوا في الحالين طلبوا السقيا من الله مستشفعين به صلى الله عليه وسلم، وقال ابن رشيد يُحتمل أن يكون أراد بالترجمة الاستدلال بطريق الأولى لأهم إذا كانوا يسألون الله به فيسقيهم فأحرى أن يقدموه للسؤال انتهى. وهو حسن... وقد بين الزبير بن بكار في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه ذلك فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر قال (اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب،

صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله أن يعافيني، فقال «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ وَإِنْ شِئْتَ أَخَرْتُ ذَاكَ فَهُوَ خَيْرٌ». قال فادعُ. قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء فيقول «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتُوجَّهُهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتَقْضَى لِي اللَّهُمَّ شَفْعَهُ فِيَّ»^١، ومنعه البعض مستدلاً بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فنتسقين، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون»^٢، وليس الغرض من إيراد هذه المسألة بيان الراجح من أقوال العلماء، وإنما بيان الخلل الذي أحدثته التعامل مع نتائجها، كما قال الحميدي في رسالته عند إيراد هذه المسألة "المقصود الإشارة إلى عدم جواز الحكم على المخالفين من أهل الاجتهاد والتقوى بالابتداع والضلال، وإنما إذا كان

ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكان من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض، وعاش الناس) وأخرج أيضاً من طريق داود عن عطاء عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال (استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة بالعباس بن عبد المطلب) فذكر الحديث وفيه (فخطب الناس عمر فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا أيها الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم في عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله) وفيه (فما برحوا حتى سقاهاهم الله) قال ابن حجر في آخر شرحه للحديث "ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصالح وأهل بيت النبوة". ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٢، ص ٦٢٨-٦٣٢، ويقول الشيخ ابن باز رحمه الله بنظرته وعلمه الوسطي في سؤال عن حكم التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم "إذا توسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: اللهم إني أسألك بجاه محمد أو بحق محمد فهذا بدعة عند جمهور أهل العلم، نقص في الإيمان ولا يكون مشركاً ولا يكون كافراً بل هو مسلم، ولكن يكون هذا نقصاً في الإيمان وضعفاً بالإيمان مثل بقية المعاصي التي تخرج عن الدين، لأن الدعاء ووسائل الدعاء توفيقية ولم يرد في الشرع ما يدل على التوسل بجاه محمد صلى الله عليه وسلم بل هذا مما أحدثه الناس، فالتوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم، أو بجاه الأنبياء، أو بحق النبي، أو بحق الأنبياء، أو بجاه فلان، أو بجاه علي، أو بجاه أهل البيت، كل هذا من البدع، والواجب ترك ذلك لكن ليس بشرك وإنما هو من وسائل الشرك فلا يكون صاحبه مشركاً ولكن أتى بدعة تنقص الإيمان وتضعف الإيمان عند جمهور أهل العلم". انظر: مجموع فتاوى ومقالات ابن باز، ج ٧، ص ١٢٩-١٣١.

^١ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب صلاة التطوع، حديث رقم (١١٨٠). قال الذهبي: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وأحمد، مسند الشاميين، حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه، حديث رقم (١٧٢٧٩). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، حديث رقم (١٠١٠).

المخالف يعتقد خطأهم يُبين أنهم أخطؤا في اجتهادهم، ويوضح ما يراه الصواب في ذلك"^١، وهذه المنهجية العلمية القائمة على بيان الحق والصواب، ومنهج البلاغ والاصلاح، هي المطلوبة في مسائل الدين والدنيا عامة لتعم الأخوة والوحدة، ويبقى الاجتماع والألفة، "إن أي مراقب لأوضاع الأمة الإسلامية اليوم، يوقن تمام اليقين أن مشكلتها ليست في ترجيح أحد الرأيين، أو الآراء في القضايا المختلف عليها، بناءً على اجتهادٍ أو تقليد، فالواقع أن الخطأ في هذه القضايا يدور بين الأجرؤ الأجرين، لمن تحرى واجتهد، كما هو معلوم ومبسوط في مواضعه.

ولكن مشكلة الأمة حقاً في تضييع الأمور المتفق عليها من جميع مذاهبها ومدارسها، مشكلة المسلمين ليست في الذي يؤول الصفات وأحاديثها _ وإن كان ما ذهب إليه السلف أسلم وأرجح _ بل في الذي ينكر الذات والصفات جميعاً، من عبید الفكر المستورد من الغرب أو الشرق. مشكلة المسلمين ليست فيمن يقول: استوى على العرش بمعنى استولى كناية عن عظمة سلطانه تعالى، بل فيمن يجحد العرش ورب العرش.

مشكلة المسلمين ليست فيمن يجهر بالبسملة أو يخفضها أو لا يقرؤها في الصلاة، ولا فيمن يرسل يديه في الصلاة أو يقبضها، ومن يرفع يديه عند الركوع أو الرفع منه أو لا يرفعهما، إلى آخر هذه المسائل الخلافية الكثيرة المعروفة. إنما مشكلة المسلمين فيمن لا ينحني يوماً لله راکعاً، ولا يخفض جبهته لله ساجداً، ولا يعرف المسجد ولا يعرفه.

مشكلة المسلمين ليست فيمن يأخذ بأحد المذاهب المعتبرة في إثبات هلال رمضان أو شوال، بل فيمن يمر عليه رمضان كما مر عليه شعبان، وكما يمر عليه شوال، لا يعرف صياماً ولا قياماً، بل يفطر عمداً جهاراً نهاراً، بلا خشية ولا حياء.

مشكلة المسلمين ليست في عدم تغطية الوجه بالنقاب، واليدين بالفقازات، كما هو رأي البعض، بل تغطية الرؤوس والنحور، والصدور ولبس القصير الفاضح، والشفاف الوصاف... إلى آخر ما نعرف مما يندى له الجبين"^٢.

والخلاف فيما سبق من مسائل أدى بالأمة إلى سلوك طريق التفرق والتحزب بالانتساب إلى طوائف وجماعات تتناحر وتتقاذف تهم التفسيق والتكفير بينها وما يتبع ذلك من زعزعة للوحدة الاجتماعية وضرب للأخوة الإيمانية، والله در العالم الرباني ابن تيمية حينما سُأل عن ذلك فقال "بل

^١ الحميدي، الرسائل الشمولية، ج ٧٤-٧٥.

^٢ توفيق يوسف الواعي: الحوار الإسلامي أصوله ومفاهيمه ووسائله، ١٤٢٩هـ، مكتبة المنار، الكويت، ص ١٦٢-١٦٣.

الأسماء التي قد يسوغ التسمي بها مثل انتساب الناس إلى إمام كالحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، أو إلى شيخ كالقادري والعدوي ونحوهم، أو مثل الانتساب إلى القبائل كالقيسي والبياني، وإلى الأمصار كالشامي والعراقي والمصري، فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان... وكيف يجوز التفريق بين الأمة بأسماء مبتدعة لا أصل لها في كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم؟

وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشائخها وأمرائها وكبرائها، هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله، كما قال تعالى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ (سورة المائدة، آية: ١٤)، فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا، فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب^١، ثم يذكر رحمه الله أن الاهتداء بهدي الكتاب والسنة للجميع سبب الصلاح والوحدة والاجتماع "وكذلك من كفر المسلمين أو استحل دماءهم وأموالهم ببدعة ابتدعتها ليست في كتاب الله ولا سنة رسوله، فإنه يجب نهيهم عن ذلك وعقوبته بما يزجره ولو بالقتل أو القتال، فإنه إذا عوقب المعتدون من جميع الطوائف، وأكرم المتقون من جميع الطوائف، كان ذلك من أعظم الأسباب التي تُرضي الله ورسوله، وتُصلح أمر المسلمين.

ويجب على أولي الأمر - وهم علماء كل طائفة وأمرؤها ومشائخها - أن يقوموا على عامتهم ويأمرهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله وينهونهم عما نهى الله عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم^٢، وخلاصة القول فإن "الانشغال بهذه الخلافات بين المسلمين وبمعادة المخالفين من أهل القبلة صرف جمهور المسلمين عن قضايا العالم الإسلامي الكبرى"^٣، وعن أسباب القوة المادية والتقدم العلمي، الذي مناخها والحاضن لها هو تحقيق الوحدة والأمن والاستقرار.

والتربية الإسلامية من هذا المنطلق تبني العلاقات الإنسانية من قاعدة التوحيد والإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهو "الإقرار الكامل بالعبودية لله، والإلتزام بكل ما يبلغه عن رسوله صلى الله عليه وسلم، وبذلك تتوجه حياة الفرد نحو الكمال في طريق الإسلام الحق، ويتركز انتباهه على الحقيقة الكامنة وراء ذلك وهي الحقيقة التي تؤكد وحدة الحياة البشرية رغم ما يبدو فيها من صراع ونزاع، وبذلك يتجاوز الفرد المسلم في علاقته الإنسانية تعدد الأمم والطبقات، وتنوع البشر

^١ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٣، ص ٢٥٥-٢٥٩.

^٢ ابن تيمية، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٥٩-٢٦٠.

^٣ المبارك، المجتمع الإسلامي المعاصر، ص ٩٠.

واختلافهم، ويسعى لتحقيق المثل الأعلى متسامياً فوق كل ذلك. والإسلام نظام عملي للحياة، يواجه الإنسان بنفسه أولاً، ثم يضع له المثل الأعلى الذي ينبغي له أن يحتديه، ويسعى لتحقيقه في واقع حياته، ذلك المثل الذي يمكن النظر إليه من وجهتين:

الأولى: بالنسبة للفرد حيث يجب أن يتحلى بضبط النفس والتسامي بها إلى أعلى الدرجات. والثانية: بالنسبة للمجتمع بشكل عام سواء كان مجتمع أمة واحدة أو مجتمع الإنسانية جمعاء، حيث يجب أن يسعى لتحقيق وحدة البشر والتعاون بينهم من أجل الخير، والقضاء على النزاعات والصراعات التي تفرق بين الإنسان وأخيه، وتسبب الحروب والدمار، وكذلك نبذ التمييز بين الناس بسبب الفوراق الطبقيّة القائمة على التفاخر بالعنصرية أو اللغة أو الثروة أو الجاه أو المنصب، وإحلال التنافس في سبيل الحق والفضيلة محل ذلك، وغرس روح الأخوة وتوثيق رابطة الإيمان والعقيدة بين الناس مهما اختلفت ديارهم، مما ينعكس على علاقاتهم بغيرهم من بني البشر تسامياً في التعامل وصدقاً في القول والعمل.

وقد استطاع المسلمون الأولون بمثل هذه الروح أن يرتقوا أعلى درجات الوعي في العلاقات الإنسانية وفي التعامل مع غيرهم من الشعوب¹.

فالتربية الإسلامية بهذا المبدأ توصل مفهوم الانتماء الحقيقي للفرد، وهو الانتماء الصادق للجماعة، والتي تنضوي تحتها جميع الانتماءات القبلية والعرقية والمذهبية والدينية و... الخ، في خطوطٍ متوازيةٍ غير متقاطعة تصبُّ جميعها في مصلحة الجماعة ووحدها وقوتها واستقرارها، ليتفنى الجميع في ظلها، وينعموا بثمارها، لذا كان هذا المبدأ العظيم أول قاعدة قام عليها المجتمع المسلم في بدايته، وذلك عندما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأسس دولة الإسلام، بدأ بتحقيق هذا المبدأ، لتكون أرضاً خصبةً، تنطلق منها الرسالة الخالدة، وتشتعُّ منها نور السلام والأمن والاستقرار، فكان أول عملٍ بعد قيامه ببناء المسجد مركز الوحدة والاجتماع البدني والروحي، وضع أسس إدارة الاختلاف والتنوع القائمة في المدينة، وكان أول تلك الأسس بناء رابطة العلاقات الاجتماعية، فأخى بين المهاجرين والأنصار "وقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير في هذه الأخوة، ومألت المجتمع الجديد بأروع الأمثال... وحقاً فقد كانت هذه المؤاكلة حكمةً فذةً، وسياسةً

¹ محيي الدين عبد الشكور: الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية (النظرية والتطبيق)، "نحو مدخل إسلامي لتطوير وتنظيم العلاقات الإنسانية"، أبحاث ووقائع اللقاء الثالث للندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط ٣، ١٠/٢٣/١٣٩٦هـ، إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ص ١٢٦-١٢٧.

حكيمًا، وحلًا رشيدًا لكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون^١، ثم عقد صلى الله عليه وسلم العهود والمواثيق مع اليهود وكانت أبدية، أي أن اليهود لو لم ينقضوها لبقوا على ما عاهدتهم عليه

^١ صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، ط ٦، ١٤٠٨ هـ، دار الريان للتراث، القاهرة، ص ٢١٨-٢١٩.

^٢ جاء في وثيقة المدينة ما يلي:

"هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم:

١- إهم أمة واحدة من دون الناس.

٢- المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يَفْدُونَ عَانِيَهُم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٣- وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

٤- وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعَةً ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.

٥- وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

٦- ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر.

٧- ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

٨- وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.

٩- وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

١٠- وإن سلم المؤمنين واحدة؛ لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

١١- وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

١٢- وإنه لا يجير مشرك مألًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

١٣- وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول.

١٤- وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

١٥- وإنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثًا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

١٦- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد صلى الله عليه وسلم.

بنود المعاهدة مع اليهود:

١- إن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، وكذلك لغير بنى عوف من اليهود.

٢- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، يقول صفي الرحمن المباركفوري "بعد أن أرسى رسول الله صلى الله عليه وسلم قواعد مجتمع جديد وأمة إسلامية جديدة، بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين، بدأ بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وكان قصده بذلك توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء، مع تنظيم المنطقة في وفاقٍ واحد، فسن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في ذلك العالم المليء بالتعصب والأغراض الفردية والعرقية.

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود وهم وإن كانوا يبتغون العداوة للمسلمين، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدة قرر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام... وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، عاصمتها المدينة، ورئيسها إن صح هذا التعبير رسول الله صلى الله عليه وسلم، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين.

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي صلى الله عليه وسلم قبائل أخرى في المستقبل. يمثل هذه المعاهدة، حسب ما اقتضته الظروف"^١.

واستمرت سياسة المعاهدات وتوسيع دائرة السلام والأمان، فصالح النبي صلى الله عليه وسلم أهل نجران^١، وصالح المشركين في ما يُعرف بصالح الحديبية، واستمرت السياسة الراشدة الحكيمة،

٤- وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

٥- وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

٦- وإن النصر للمظلوم.

٧- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٨- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٩- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٠- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

١١- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب . . على كل أناس حصتهم من جابنهم الذي قبلهم.

١٢- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو أثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جازم لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم". انظر: محمد حميد الله الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق

السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط٦، ١٤٠٧هـ، دار النفائس، بيروت، ص ٥٩-٦٢.

^١ المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ٢٢٥-٢٢٦.

فصالح عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل إيلياء (بيت المقدس)^٢، كل ذلك لتتسع دائرة الوحدة ويعم الاجتماع المجتمع وينعم الأفراد بالاستقرار والأمان.

وبالنظر في الشعائر التعبدية نجد أن التربية الإسلامية تؤصل لمفهوم الوحدة والاجتماع من خلال الصلاة والصيام والحج... وغيرها، بل وتدعم ذلك المبدأ بتشريعات كثيرة من صلة الأرحام والزكاة وحقوق الحار وحقوق الذمي والمستأمن^٣ وحقوق ولي الأمر... وغيرها، وتقطع الطريق على كل فعل، أو قول، أو تصرف يتسبب في خدش رباط الوحدة من سب، أو قذف، أو سوء ظن، أو استهزاء وسخرية... وغيرها، كل تلك التشريعات لتحقيق مقصد الوحدة والاجتماع، وتربط المجتمع من قاعدة هرمه إلى رأسه بعلاقة تجمع ولا تفرق.

والتربية الإسلامية تعزز مبدأ الوحدة والاجتماع بتفعيل الأخوة، وهي على ثلاث مستويات، وكل مستوى يقتضي مواقف إنسانية خاصة وحقوقاً وواجبات، وهي على سبيل الإجمال:

١. الأخوة الرحمية أو النسبية وهي الأخوة على نطاق ضيق وتشمل الذين تربطهم علاقة القرابة أو صلة الرحم.

٢. الأخوة الإسلامية وهي تشمل المسلمين جميعاً باختلاف ألوانهم وأجناسهم.

٣. الأخوة على نطاق أوسع وأشمل وهي تشمل البشرية كلها على وجه الأرض، بصرف النظر عن الجنس واللون والدين، ذلك أنهم جميعاً ينحدرون في نظر الإسلام من أصل واحد ومن رحم واحدة من أب واحد وأم واحدة وهما آدم وحواء أب البشر وأم البشر.

وهذا هو الأساس الإنساني في نظرة الإسلام إلى الناس وهو الأساس في إلغاء الإسلام للعنصرية وتمييز جنس على جنس لنظريات لا أساس لها، وقد عانت البشرية ولا زالت تعاني من الأمرين ولا يمكن تحقيق السلام والوثام وأن يسود إذا لم يتخلص الإنسان من مخالقاتها^٤.

^١ انظر: الحيدر آبادي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ١٧٥-١٧٦.

^٢ كان ذلك في سنة ١٥هـ، انظر: الحيدر آبادي، المرجع السابق، ص ٤٨٨.

^٣ الفرق بين الذمي والمستأمن، أن الذمي هو من يقيم في ديار المسلمين إقامة دائمة، والمستأمن هو من يقيم إقامة مؤقتة لهدف التجارة أو الحاجة، ولكل منهما حقوق وواجبات، وعليه حقوق وواجبات.

^٤ يالجن، منابع مشكلات الأمة الإسلامية، ص ٨١-٩٢، باختصار.

ومن خلال ما سبق يظهر أن مبدأ الوحدة والاجتماع في التربية الإسلامية لا يمكن أن يتحقق في المجتمع إلا بأمور ووسائل، ومنها:

١. التصور الصحيح لأفراد المجتمع لمبدأ الوحدة والاجتماع، وهو أن يكون قائماً على الكتاب والسنة، ومعرفة مقاصد التشريع في ذلك من إقامة للدين والدنيا، وسعادة واستقرار الإنسانية جمعاء، وتفعيل الفهم المقاصدي الذي جاءت به الشريعة لضمان دوام الوحدة والاجتماع والألفة، وهذا المبدأ من الأمور التي تنفي الغل والحقد والعدواة عن قلب المسلم، وتجعله صافياً نقيماً سليماً، يقول صلى الله عليه وسلم «ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيَّهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالطَّاعَةُ لِذَوِي الْأَمْرِ، وَتُزُومُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»^١، يقول ابن عبد البر "فمعناه لا يكون القلب عليهن ومعهن غليلاً أبداً، يعني لا يقوى فيه مرضٌ ولا نفاقٌ إذا أخلص العمل لله، ولزم الجماعة، وناصح أولي الأمر"^٢، ويظهر تفعيل هذا المبدأ في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وسلوكه وتعامله وسياسته، ففي أعظم أمر وأشرف فعل، منعه من القيام به فهمه المقاصدي وهدفه الاصلاحى «يَا عَائِشَةُ لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لَأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهَدِمْتُمْ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ وَأَلْزَمْتُهُ بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ»^٣.

٢. تطبيق مبدأ العدل الشامل الذي يقوم على إعطاء كل فرد من أفراد المجتمع حقه دون ظلم أو جور، والتوزيع العادل للثروات، والعمل بمبدأ تكافؤ الفرص تحقيقاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ (سورة القصص، آية: ٢٦)، وذلك يجعل معيار الاختيار في أداء المهام القوة بنوعيتها العلمية والعملية، والأمانة بشمولها، لكي يسعى كل فرد في المجتمع إلى خدمة مجتمعه وبناءه برغبة ومحبة وغيره، بل وتجعله "ينظر إلى مجتمعه نظرة تقدير وإجلال، ويتطلع إلى رفعتة وسموه، فيقدم له كل جهدٍ ونصحٍ وإخلاص، ويسعى به إلى كل رفعةٍ وسموٍ ونماء.

^١ سبق تخريجه ص ١٣٩.

^٢ يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمري: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ت: مصطفى أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، ١٣٨٧هـ، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ج ٢١، ص ٢٧٧.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنائها، (١٥٨٦)، ومسلم، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، حديث رقم (١٣٣٣).

وهو ما يُطلق عليه بالإصطلاح الإداري المعاصر: الرضا الوظيفي أو الأمان الوظيفي، الذي يشعر فيه الموظف بالعدل والإنصاف، بل بالكرم والتقدير من إدارته، فيجعله ذلك كالتحفة في نشاطها وصدقها وعطائها"^١.

٣. تطبيق الأنظمة والقوانين على جميع أفراد المجتمع سواءً ما يتعلق بالحدود وأحكام الشرع، أو القوانين المنظمة لأحوال وحقوق الناس، فإذا شعر جميع أفراد المجتمع أنهم تحت مظلة القانون والنظام، وأنه لا يجوز الاعتداء باللسان فضلاً عن الفعل، دفعهم ذلك إلى الوحدة والاجتماع والتفاعل الإيجابي.

٤. تقديم مصلحة المجتمع على المصلحة الفردية، وأن في الوحدة والاجتماع من الخير أعظم بكثير مما في التفرق والفتن، وأن الصبر على ما يصيب الإنسان من ظلم وجور هو الباب الشرعي بعد بذل الجهد في المطالبة بالحقوق، "والصبر يَمَكِّنُ الإنسانَ بطمأنينة وثبات أن يضع الأشياء في مواضعها، وأن يتصرف في الأمور بعقل واتزان، وينفَّذ ما يريد من تصرف في الزمن المناسب، وبالطريقة الشرعية الملائمة، وعلى الوجه المناسب الحكيم"^٢، فإذا عدم نتيجة، فإن الله أمره بالصبر وعدم إثارة الفتن التي لا ترد له حقاً ولا تبقى له وداً، يقول الله تعالى بعد الأمر بعدم التنازع والاختلاف الذي يقود إلى التفرق والفتن ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٤٦)، ويقول صلى الله عليه وسلم «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شَيْبًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مَيِّتَةً جَاهِلِيَّةً»^٣، وهذا الصبر المأمور به ما هو إلا لبيان مصلحة الجماعة والاجتماع على غيرها من المصالح الفردية، "وللصبر جوانبه الوقائية وجوانبه العلاجية، فهو يقي النفس من العديد من المزالق التي يصعب علاجها فإذا وقعت فالصبر عليها والتأني في علاجها أفضل وسيلة لمواجهتها، كما أن الصبر سمة من سمات القوة... لذا يُعد الصبر المستند إلى الإيمان والمجاهدة أحد الأسس التربوية المهمة في مواجهة مشكلات الفرد والمجتمع المسلم"^٤. أما إذا انعدمت الجماعة، ووقعت الفتن، وحدث التفرق، واختلّف حال الناس، فإن التربية الإسلامية جعلت

^١ بافيل، المضامين التربوية المستنبطة من كتاب الفتن من صحيح الإمام البخاري، ص ١٥٩-١٦٠.

^٢ بافيل، المرجع السابق، ص ١٤٥.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «سَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكَرُونَهَا»، حديث رقم (٧٠٥٤).

^٤ محمد الخطيب وآخرون، أصول التربية الإسلامية، ص ٢٣٢-٢٣٣.

المخرج والنجاة في البعد عن مواطنها، واعتزال أهلها، وعدم إشعال نارها، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «يوشك أن يأتي زمان يُغربل الناس فيه غربلة، ويبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا، وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه» قالوا: فكيف تأمرنا يا رسول الله؟ قال «تأخذون ما تعرفون وتدعون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتدعون أمر عامتكم»^١، وفي رواية «أملك عليك لسانك، وأجلس في بيتك... الحديث»^٢.

٥. تطبيق مبدأ الشورى الذي يضمن به جميع أفراد المجتمع حقوقهم ومطالبهم من خلال من يمثلهم في دائرته، وهذا كفيلاً ببقاء وحدة المجتمع، وشعورهم بأنهم أعضاء فاعلون ومشاركون في منظومة مجتمعهم ودولتهم.

٦. تطبيق مبدأ السمع والطاعة لولي الأمر، وما في ذلك من المصالح للمجتمع والجماعة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الإخبار عما سيحدث في آخر الزمان من ظلم وبغي «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمَّةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا»، قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال «أَدُوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ»^٣، وهذا الأمر النبوي في تقديم حق ولي الأمر بالسمع والطاعة له على ما يحدث منه من ظلم واستئثار بالمال، لا يكون إلا لأن هناك مصلحة أعظم من ورائه وهو بقاء وحدة المسلمين وجماعتهم، وما فيه من تحقيق للأمن والاستقرار، وهو ما فعله ابن عمر رضي الله عنه أشد الصحابة تمسكاً بالسنة، حينما خطب معاوية رضي الله عنه في الناس وقال من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر _أي الخلافة_ فليطلع لنا قرنه _أي فليظهر نفسه ولا يخفيها_ فلنحن أحق به منه ومن أبيه _قيل يقصد علياً رضي الله عنه والتعريض بالحسن والحسين رضي الله عنهما_. فقال حبيب بن مسلمة لابن عمر فهلا أجبته؟ قال عبد الله فحللت جبوتي وهممت أن أقول أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام _يقصد علياً رضي الله عنه فإنه قاتل معاوية وأبوه أبو سفيان يوم أحد ويوم الخندق_ فخشيت أن

^١ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الفتن والملاحم، حديث رقم (٨٣٤٠). قال الذهبي: صحيح.

^٢ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الفتن والملاحم، حديث رقم (٨٦٠٠). قال الذهبي: صحيح.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا»، حديث رقم (٧٠٥٢).

أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم ويُحمل عني غير ذلك، فذكرت ما أعدَّ الله في الجنان، قال حبيب حُفظت وعُصمت^١.

٧. بث روح التسامح في المجتمع من خلال تفعيل الجوانب الدينية والثقافية والتربوية والاجتماعية، وفتح المجالات والوسائل المعينة على ذلك، ونبذ التعصب والعصبيات بجميع الأشكال والصور، بل ومحاربة كل ظاهرة، أو فكرة، أو شخص، يدعوا إلى ذلك، أو يتسبب في إحداث أزمة اجتماعية "وباختصار فلا بد من علاج بالمضادات، ونعني بالمضادات الحيوية ذلك الخطاب الواعي الذي يقوم على نبذ العنف، وزرع ثقافة السلام والتسامح والمحبة، وتقديم البدائل أمام الشباب اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، ومحاولة صرف جهودهم ونشاطهم في قنواتٍ لصالح المجتمع، ولصالح التنمية، وجسر العلاقة بين مختلف الفئات، وتجديد الفكر التوفيقى، والمنهج الوسطي في النفوس، وحشد جهود الطبقة المثقفة في الجامعات والمدارس ووسائل الإعلام لذلك.

كما يجب تقديم الدراسات الجادة في المجالات الثقافية والاجتماعية والشرعية لإقامة الحججة المضادة بالبرهان الشرعي المفهوم، ثم إن هذه الأدوات والآليات التي ترسخ ثقافة التسامح لا ينبغي أن تكون موسمية بل يجب أن تكون دائمة ومستمرة لبلورة ثقافة تصالحية أصلية ومتفتحة تدمج العناصر الإيجابية المستوردة بالوروث الثقافي في تكامل وانسجام لا تصادمي _حسب الإمكان_ في مواءمة بين العراقة والمعاصرة وبين القديم والحديث لتصل الأمة إلى تجديد ليس مرادفاً للتدمير ولا للإنسلاخ ولا للإنسلا ببل هو تطور إيجابي واعٍ بذاته ومرجعياته التاريخية يحافظ على ثوابته ويحاور من خلالها مستجدات العصر في جدلية رفيعة ومصلحية برامجية^٢.

كل ذلك يُبين أن مبدأ الوحدة والاجتماع له "قيمةٌ تربويةٌ مهمة، وأساسٌ نفيس، وهو دعامةٌ لقيام مجتمعٍ تربويٍّ سليم، وحضارةٍ إسلاميةٍ عريقة، وهضبةٍ إنسانيةٍ رائدة. ولا مكان في خارطة العصر لأمةٍ متشرذمةٍ، ومجتمعٍ متفرقٍ متشتت، ولا أصدق من قول الباري جلَّ في علاه ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٤٦).^٣

^١ سبق تخريجه ص ٢٧٨.

^٢ عبد الله بن الشيخ بن بيه: الإرهاب التشخيص والحلول، (د.ت)، ص ٧٩-٨٠.

^٣ بافيل، المضامين التربوية المستنبطة من كتاب الفتن من صحيح الإمام البخاري، ص ٢٠٢.

المبحث الثاني: المضامين التربوية في حماية المجتمع

تمهيد

الحماية في اللغة قال الفيروز آبادي "حَمَى الشيءَ يَحْمِيهِ حَمِيًّا وَحِمَايَةً، بالكسر، وَمَحْمِيَةً مَنَعَهُ" ^١، وقيل "حَمَيْتُهُ حِمَايَةً، إذا دفعت عنه. وهذا شيء حِمَى، أي محظورٌ لا يُقَرَّبُ" ^٢، والحماية هي المحافظة على الشيء من أي متعدٍ عليه بغير وجه حق، وحماية المجتمع المحافظة عليه من عوامل الهدم أو التخريب، ولا يتحقق ذلك إلا بمعرفة تلك العوامل والأسباب والعمل على إصلاحها فكرياً ومخاربتها مادياً حتى يعيش المجتمع في أمن وأمان وتقدم واستقرار.

ومبادئ (الحوار والأمن الفكري والأمن المادي والاستقلال) التي سوف نتحدث عنها في هذا الفصل هي ركائز أساسية لحماية المجتمعات من التفكك والانهيار من الداخل، وعوامل قوة وثبات في وجه المتسلط الخارجي، فحينما يُطبق مبدأ الحوار فإنه يُصلح ويوفق ويقارب بين وجهات نظر أفراد المجتمع ويتم الخروج بمبادئ عامة تحفظ الحقوق وتصون الحرمات وتطبق العدالة، وحينما يُطبق مبدأ حفظ الأمن الفكري بكافة جوانبه وأشكاله ولكافة الأفراد يعم المجتمع جو الحرية والاحترام والوسطية والاعتدال، وحينما يُطبق مبدأ حفظ الأمن المادي فإنه يعزز جانب الانتماء للوطن والأرض، والحرص على دوام الأمن والسلام والاستقرار، وحينما يُطبق مبدأ الاستقلالية فإن الأفراد ينهضون بمجتمعهم نحو البناء والتقدم والقوة والعزة.

المطلب الأول: تحقيق مبدأ الحوار:

أولاً: معنى الحوار:

أصل الحوار من (حور) قال ابن فارس "الحاء والواو والياء، والراء ثلاثة أصول: أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دَوْرًا... وأما الرجوع، فيقال حَارَ، إذا رَجَعَ... وتقول: كَلَّمْتُهُ فَمَا رَجَعَ إِلَيَّ حَوَارًا وَحَوَارًا وَمَحْوَرَةً وَحَوِيرًا" ^٣.

^١ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ١٦٤٧، باب الواو والياء، فصل الحاء، مادة (حَمَى).

^٢ الجوهري، الصحاح، ج ٦، ص ٢٥٧، باب المعتل الواو والياء، فصل الحاء، مادة (حَمَى). والرازي، مختار الصحاح، ص ٨٦، باب الحاء، مادة (حَمَى).

^٣ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٢، ص ١١٥-١١٧، كتاب الحاء، باب الحاء والواو وما معهما من الحروف في الثلاثي، مادة (حور).

وقيل "المُحَاوَرَةُ: المُجَاوِبَةُ. والتَّحَاوُرُ: التَّجَاوُبُ. ويقال: كَلَّمْتُهُ فَمَا أَحَارَ إِلَيَّ جَوَابًا، وما رَجَعَ إِلَيَّ حَوِيرًا وَلَا حَوِيرَةً، وَلَا مَحُورَةً، وَلَا حَوَارًا، أَي مَا رَدَّ جَوَابًا. واستَحَارَهُ، أَي استنطقه".^١

والحوار في الاصطلاح "أن يتناول الحديث طرفان أو أكثر، عن طريق السؤال والجواب، بشرط وحدة الموضوع أو الهدف، فيتبادلان النقاش حول أمر معين، وقد يصلان إلى نتيجة، وقد لا يقتنع أحدهما الآخر، ولكن السامع يأخذ العبرة، ويكون لنفسه موقفًا"^٢. والحوار مفتاح العقول، وعامل من عوامل الألفة والمحبة، ووسيلة لفهم الآخر ودعوته وإصلاحه، وتغيير فكره وتعديل سلوكه، وهذا ما سنناقشه في هذا المبحث.

ثانيًا: الأحاديث المتضمنة للحوار من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. (٧٣٠٥) حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ أَخْبَرَنِي مَالِكُ بْنُ أَوْسِ النَّصْرِيِّ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرٍ بْنُ مُطْعِمٍ ذَكَرَ لِي ذِكْرًا مِنْ ذَلِكَ فَدَخَلْتُ عَلَى مَالِكٍ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ انْطَلَقْتُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى عُمَرَ أَنَا حَاجِبُهُ يَرْفَأُ^٣ فَقَالَ هَلْ لَكَ فِي عُثْمَانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدِ يَسْتَأْذِنُونَ. قَالَ نَعَمْ. فَدَخَلُوا فَسَلَّمُوا وَجَلَسُوا. فَقَالَ هَلْ لَكَ فِي عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ. فَأَذِنَ لَهُمَا. قَالَ الْعَبَّاسُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَ الظَّالِمِ. اسْتَبَأَ. فَقَالَ

^١ الجوهري، الصحاح، ج ٢، ص ٢٩٨، باب الراء، فصل الحاء، مادة (حور). والفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ٤٨٦-٤٨٨، باب الراء، فصل الحاء، مادة (الحور). والرازي، مختار الصحاح، ص ٨٨، باب الحاء، مادة (حور)، وابن منظور، مرجع سابق، لسان العرب، ج ٣، ص ٣٨٣ وما بعدها، مادة (حور).

^٢ النحلوي، أصول التربية الإسلامية، ١٦٧.

^٣ "يرفأ بفتح التحتانية وسكون الراء بعدها فاء مشبعة بغير همز وقد تهمز... ويرفأ هذا كان من موالي عمر أدرك الجاهلية ولا تعرف له صحبة، وقد حج مع عمر في خلافة أبي بكر" ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٥٢.

^٤ "قال ابن التين معنى قوله في هذه الرواية (استبأ) أي نسب كل واحد منهما الآخر إلى أنه ظلمه، وقد صرح بذلك في هذه الرواية بقوله (اقض بيني وبين هذا الظالم) قال ولم يرد أنه يظلم الناس وإنما أراد ما تأوله في خصوص هذه القصة ولم يرد أن علياً سب العباس بغير ذلك لأنه صنو أبيه، ولا أن العباس سب علياً بغير ذلك لأنه يعرف فضله وسابقته، وقال المازري هذا اللفظ لا يليق بالعباس وحاشا علياً من ذلك فهو سهو من الرواة، وإن كان لا بد من صحته فليؤول بأن العباس تكلم بما لا يعتقد ظاهره مبالغة في الزجر وردعاً لما يعتقد أنه مخطئ فيه، ولهذا لم ينكره عليه أحد من الصحابة لا الخليفة ولا غيره، مع تشدهم في إنكار المنكر، وما ذاك إلا أنهم فهموا بقرينة الحال أنه لا

الرَّهْطُ عُثْمَانُ وَأَصْحَابُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْضِ بَيْنَهُمَا وَأَرِحْ أَحَدَهُمَا مِنَ الْآخِرِ. فَقَالَ اتَّيَدُوا
 أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ قَالَ «لَا تُورَثُ مَا تَرَكَنا صَدَقَةً». يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسَهُ. قَالَ
 الرَّهْطُ قَدْ قَالَ ذَلِكَ. فَأَقْبَلَ عُمَرُ عَلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَلِكَ. قَالَا نَعَمْ. قَالَ عُمَرُ فَإِنِّي مُحَدِّثُكُمْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ خَصَّ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْمَالِ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا غَيْرَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ
 يَقُولُ (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ) الْآيَةَ، فَكَانَتْ هَذِهِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ وَاللَّهِ مَا احْتَارَهَا دُونَكُمْ وَلَا اسْتَأْتَرَ بِهَا عَلَيْكُمْ، وَقَدْ أَعْطَاكُمْوهَا
 وَبَثَّهَا فِيكُمْ، حَتَّى بَقِيَ مِنْهَا هَذَا الْمَالُ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً
 سَتَّهَمَ مِنْ هَذَا الْمَالِ، ثُمَّ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ فَيَجْعَلُهُ مَجْعَلَ مَالِ اللَّهِ، فَعَمِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ بِذَلِكَ حَيَاتِهِ، أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ فَقَالُوا نَعَمْ. ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ
 أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ هَلْ تَعْلَمَانِ ذَلِكَ قَالَا نَعَمْ. ثُمَّ تَوَفَّى اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ
 أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَبَضَهَا أَبُو بَكْرٍ فَعَمِلَ فِيهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا رَسُولُ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْتُمَا حِينَئِذٍ - وَأَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ - تَزْعَمَانِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ فِيهَا
 كَذًا، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ فِيهَا صَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ، ثُمَّ تَوَفَّى اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ أَنَا وَلِيُّ
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ. فَخَبَضْتُهَا سَتَّيْنِ أَعْمَلُ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ جِئْتُمَانِي وَكَلِمَتُكُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ وَأَمْرُكُمْمَا جَمِيعٌ،
 جِئْتَنِي تَسْأَلْنِي نَصِيْبَكَ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، وَأَتَانِي هَذَا يَسْأَلْنِي نَصِيْبَ امْرَأَتِهِ مِنْ أَبِيهَا فَقُلْتُ إِنَّ
 شَيْئًا دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمْمَا، عَلَى أَنَّ عَلَيْكُمْمَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ تَعْمَلَانِ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمَا عَمِلَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ وَبِمَا عَمِلْتُ فِيهَا مِنْذُ وَلِيْتُهَا، وَإِلَّا فَلَا تُكَلِّمَانِي
 فِيهَا. فَقُلْتُمَا ادْفَعُهَا إِلَيْنَا بِذَلِكَ. فَدَفَعْتُهَا إِلَيْكُمْمَا بِذَلِكَ، أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ

يريد به الحقيقة، انتهى... وفيه أني لم أفق في شيء من طرق هذه القصة على كلام علي في ذلك، وإن كان
 المفهوم من قوله (استبأ) بالثنوية أن يكون وقع منه في حق العباس كلام، وقال غيره حاشا علياً أن يكون ظالماً
 والعباس أن يكون ظالماً، بنسبة الظلم إلى علي وليس بظالم وقيل في الكلام حذف تقديره أي هذا الظالم إن لم
 ينصف، أو التقدير (هذا كالظالم) وقيل هي كلمة تقال في الغضب لا يراد بها حقيقتها، وقيل لما كان الظلم يفسر
 بأنه وضع الشيء في غير موضعه تناول الذنب الكبير والصغير، وتناول الخصلة المباحة التي لا تليق عرفاً فيحمل
 الإطلاق على الأخيرة والله أعلم" ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣٤٧-٣٤٨.

قَالَ الرَّهْطُ نَعَمْ. فَأَقْبَلَ عَلِيَّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ هَلْ دَفَعْتُمَا إِلَيْكُمَا بِذَلِكَ. قَالَ نَعَمْ. قَالَ أَفَتَلْتَمِسَانِ مِنِّي قَضَاءَ غَيْرِ ذَلِكَ فَوَالَّذِي بِيَاذِنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَا أَقْضِي فِيهَا قَضَاءَ غَيْرِ ذَلِكَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهَا فَادْفَعَاهَا إِلَيَّ، فَأَنَا أَكْفِيكُمَاهَا.

في هذا الحديث تصوير رائع لحوارٍ هادفٍ وبناءٍ بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلي بن أبي طالب والعباس رضي الله عنهما في قضية الولاية على صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ابن حجر "حديث مالك بن أوس في قصة العباس وعلي ومنازعتهما عند عمر في صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم" ^١، وقال النووي "فأمثل ما فيه ما قاله العلماء أنهما طلبا أن يقسماها بينهما نصفين، ينفقان بها على حسب ما ينفعهما الإمام بما لو وليها بنفسه، فكره عمر أن يوقع عليها اسم القسمة؛ لئلا يظن لذلك مع تطاول الأزمان أنها ميراث وأنها ورثاه، لا سيما وقسمة الميراث بين البنت والعم نصفان، فيلتبس ذلك ويظن أنهم تملكوا ذلك... ثم ولي علي الخلافة فلم يعدل بها عما فعله أبو بكر وعمر رضي الله عنه فدل على أن طلب علي والعباس إنما كان طلب تولي القيام بها بأنفسهما وقسمتها بينهما كما سبق" ^٢.

والشاهد من الحديث هو الحوار الذي دار بين عمر والعباس وعلي رضي الله عنهم أجمعين وما يبينه عمر رضي الله عنه من أدلة تؤيد وجهة نظره _ وهو في مقام الخلافة _، ومحاورته بما العباس وعلي رضي الله عنهما على مشهد من الصحابة، كل ذلك يدل على أن تفعيل الحوار بالأدلة والبراهين هو السبيل الوحيد لحل المشكلات، وصفاء القلوب، ودوام الألفة والحب.

٢. (٧٣٤٧) عَنْ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ أَنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفَهُ وَفَاطِمَةَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُمْ «أَلَا تُصَلُّونَ». فَقَالَ عَلِيُّ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثْنَا، فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ لَهُ ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعَهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقُولُ (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا). قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ يُقَالُ مَا أَتَاكَ لَيْلًا فَهَوَ طَارِقٌ. وَيُقَالُ الطَّارِقُ النَّجْمُ.

هذا الحديث يصور حواراً أسرياً بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين علي _زوج ابنته_ وابنته فاطمة رضي الله عنهما، والحديث يُبين الأدب النبوي في الحوار، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم

^١ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣٤٧.

^٢ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٢، ص ١٠٨-١١٠.

لما أتى علياً وفاطمة رضي الله عنهما ليلاً وهما نائمان ليحثهما على صلاة الليل أجاب علي رضي الله عنه بقوله (إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا)، قال الكرمانى "حرّضهم النبي صلى الله عليه وسلم باعتبار الكسب والقدرة الكاسية، وأجاب علي باعتبار القضاء والقدر، قال: وضرب النبي صلى الله عليه وسلم فخذه تعجباً من سرعة جواب علي، ويحتمل أن يكون تسليمًا لما قال"¹، وفي الحديث أدب إنهاء الحوار عند وجود ما يلزم من إحراج أو كون المكان والوقت غير مناسبين أو غير ذلك، قال الشيخ أبو محمد بن أبي جهمرة "وإنما _أي النبي صلى الله عليه وسلم_ لم يشافهه _أي علي رضي الله عنه_ بقوله (وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً) لعلمه أن علياً لا يجهل أن الجواب بالقدرة ليس من الحكمة، بل يحتمل أن لهما عذراً يمنعهما من الصلاة فاستحيا علي من ذكره، فأراد دفع الخجل عن نفسه وعن أهله فاحتج بالقدرة، ويؤيده رجوعه صلى الله عليه وسلم عنهم مسرعاً"²، وفي الحديث أدب الحوار في المسائل الخلافية والأمور المباحة الاكتفاء بمجرد التنبيه أو الإشارة لا الدخول في جدال وممارسة تنفر القلوب وتسبب العدوّة والقطيعة، قال ابن حجر "ويؤخذ منه الإشارة إلى مراتب الجدال فإذا كان فيما لا بد له منه تعيّن نصر الحق بالحق، فإن جاوز الذي ينكر عليه المأمور نسب إلى التقصير، وإن كان في مباح _كما في قصة علي وفاطمة رضي الله عنهما_ اكتفى بمجرد الأمر والإشارة إلى ترك الأولى"³.

ثالثاً: التطبيق التربوي لمبدأ الحوار:

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وميّزه عن المخلوقات بالعقل والمنطق ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾^١ و﴿لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾^٢ و﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^٣ (سورة القيامة، آية: ٨-١٠)، وجعل ذلك أساس قيام العلاقات الإنسانية، ووسيلة التواصل والتخاطب البشري الذي يقوم بين طرفين كملهما الله بالعقل ليستخدما قدراته ويفعلا ملكاته للوصول إلى المعرفة والحق على قاعدة الاستقلال الفكري وحرية الاختيار، وهو "أسلوب يتبادل فيه الطرفان وجهات النظر، وتتلاقح فيه الآراء، ويُعطى كل طرف حرية طرح رأيه، أو فكرته، وفرصة الرد والمناقشة، وعادةً ما تتم المحاورّة بالهدوء والرزانة، وهي تسعى إلى إيضاح

¹ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٨٨.

² ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣٨٨-٣٨٩.

³ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣٨٨.

مفاهيم خاطئة، أو أمور غامضة، أو أسئلة حائرة لا يجد لها أحد المتحاورين أو كلاً منهما إجابة حتى تكون المحاورة^١.

فالحوار إذاً "لغة العقل، ووسيلة إلى إظهار الحق وإلقاء الضوء على ما اختلف فيه من القضايا، كما أنه لغة الحضارة الإنسانية، ومظهر البيان الآدمي الذي يفرق بين الإنسان والحيوان، وبين العامل وغيره، وصاحب الحجة والدليل وبين من يدّعيه، والحوار مغالبة العقول بالبيانات، كما أنه يتعارض كليةً مع الإجبار والإكراه على الأفكار والمبادئ والعقائد والديانات، وهو بعد ذلك فتحٌ لآفاق البحث والعلم والتقدم والريادة، واحترام لإرادة الإنسان وقناعاته"^٢.

وهذه حقيقة الحوار أنه مفتاح الحرية الفكرية، وثمره الاستقلال الرباني، ونور البصيرة العقلاني، ووسيلة التعارف الإنساني، وطريق الوحدة الاجتماعية، وسبب الألفة الأخوية، وعلاج المشاكل الأسرية، وقاعدة البناء العلمي والتربوي، يقول لاوند "فالحوار هو القوة الكبرى في فن العلاقات الإنسانية، إنه المنهج الوحيد الذي تتحقق به المواجهة المباشرة، بين القلوب والعقول، ولما كانت القلوب والعقول خاضعة للفطرة السليمة من ناحية، وللتعاليم المحرفة التي تطرأ عليها من ناحية أخرى، فقد وجب أن تكون الغلبة في النهاية للحوار، الذي تستنير به الفطرة السليمة"^٣.

والحوار البناء المهادف لا ينجح ولا يحقق أهدافه إلا في جو الحرية الفكرية فهو يشجع جميع الفئات والأطراف على الكلام والتعبير بلا خوفٍ ولا وجل فتتلاقح الأفكار وتظهر الحقائق، ولنا في قصة محاورة ابن عباس رضي الله عنه خير مثال حينما حاور الخوارج بالدليل الشرعي والعقلي وصحح لهم تصوراتهم الشرعية والعقلية فرجع نصفهم إلى الحق.

وهذا ما يجعل التربية الإسلامية تقوم على مبدأ الحوار بكافة أشكاله وصوره في جميع العلاقات بكل المستويات والاتجاهات، فقد "استخدم القرآن الكريم والسنة المطهرة أسلوب المحاورة واتخذه وسيلة فاعلة لتقرير الإيمان في النفوس، وإيصال الحق إلى البشر، وإرشاد التائبين، وإقناع الحائرين والمجادلين، وقد اتخذ في ذلك عدة صور منها: المحاورة التشريعية، والمحاورة الوصفية، والمحاورة القصصية، والمحاورة الجدلية لإثبات الحجة... وخلاصة القول: أن أسلوب الحوار من أقوى أساليب الإقناع، وما ذاك إلا لأنه يعرف بالأساس العقلاني والمنطقي لأي قضية تطرح، ليرقى بالملتقي من أسلوب التقليد الأعمى إلى أسلوب إعمال الفكر، وإيضاح الحقائق، والحرية في مناقشة أي فكرة

^١ هاشم علي الأهدل: التربية الذاتية من الكتاب والسنة، ١٤١٣هـ، دار الأهدل، مكة المكرمة، ص ١٢٦.

^٢ الواعي، الحوار الإسلامي أصوله ومفاهيمه ووسائله، ص ٥.

^٣ محمد رمضان لاوند، الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية، ص ٢٤٢.

تعرض له، حتى يجد الحل الذي يتمشى مع الفطرة السليمة والعقل الصحيح دون أن تُفرض عليه بالقوة^١.

والحوار يُظهر قوة العقيدة التي تقوم عليه، وحرية فكر من ينادي به، واحترام الإنسانية لكل من يدعوا إليه؛ لأنه حوار قائمٌ على العقل والعلم والحقيقة، بطرق الاستدلال الصحيحة، وبأسلوب الأدب واللطف واللين، على قاعدة العدل والإنصاف والتجرد والاستقلال، يهدف إلى إظهار الحق، وإقامة الحجّة، ودوام الألفة بتقريب وجهات النظر.

والمقصد الأعلى للحوار في التربية الإسلامية هو تحقيق الحرية والاستقلال لكل فرد، بالحدود والضوابط لكل قضية، والانطلاق من قناعةٍ بحق كل طرف في استقلاله برأيه وحرية في فكره، وهذا ما يجعل الحوار يسير في طريق الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، حيث "يندرج في الحكمة كل الأساليب الفكرية المنطقية المهادنة السليمة التي من شأنها أن توصل الحقيقة إلى موقع القناعة في النفس، وللناس مستويات فكرية وعلمية، وعلى من يريد الإقناع بحقيقةٍ من الحقائق أن يخاطب كل فريق من الناس بما يناسب مستواه الفكري والنفسي، ويندرج في الموعظة الحسنة كل الأساليب التي تؤثر في النفس الإنسانية والتي من شأنها أن توجه عوامل الأنفس في جهة الإقناع بالحقيقة"^٢، وهذه الفلسفة للحوار تجعل كل طرف يتعرف على ما عند الآخر من علم وأدلة، وطريقة تفكير واستدلال، للتعاون في إظهار ما خفي على الآخر من حقائق ورؤى وتصورات، والوصول إلى إقناع الآخر أو إيجاد حل وسط يرضي الطرفين إن أمكن، وإلا خرج طرفٌ بالإعذار أمام الله من مسؤولية الإبلاغ كما قال تعالى ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (سورة الشورى، آية: ٤٨)، بأسلوب الرحمة واللين واللطف، لا الإكراه والإلزام، وما يتبعه من محاسبة وتصنيف، أو اعتداءٍ وتجريح، وتَحَقُّقٌ في الطرف الآخر قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ (سورة المائدة، آية: ٤١) فالهداية وقبول الآخر للحق بيد الله سبحانه وتعالى القائل جل في علاه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة القصص، آية: ٥٦).

والأمر الرباني بالبيان والبلاغ محفوفٌ بالابتلاء، يقول تعالى مرشداً صفوة خلقه في دعوته لقومه، ومحاورته لهم في مواقفهم الكثيرة الشهيرة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة النحل، آية: ١٢٥)، فالله تعالى يبين أن من احتاج منهم إلى مناظرةٍ وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفقٍ ولينٍ وحسن

^١ سالم سعيد جبار: الإقناع في التربية الإسلامية، ١٤١٩هـ، دار الأندلس الخضراء، جدة، ص ٩٣-١٠٠.

^٢ الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج ١، ص ٢٠٥.

خطاب^١، "وعلى هذه الأسس يُرسي القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها، ويعين وسائلها وطرائقها، ويرسم المنهج للرسول الكريم، وللدعاة من بعده بدينه القويم فلننظر في دستور الدعوة الذي شرعه الله في هذا القرآن.

إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله، لا لشخص الداعي ولا لقومه، فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه لله، لا فضل له يتحدث به، لا على الدعوة ولا على من يهتدون به، وأجره بعد ذلك على الله، والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يتقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنوع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

وبالجدل والتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق، حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدل بالحسنى هو الذي يطمئن من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر!

ولكي يطمئن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلّم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلّم بالمهتدين، فلا ضرورة للحجاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله^٢.

ويقول الحليم الكريم موجهاً أنبياءه موسى وهارون عليهما السلام في دعوتهم لفرعون الذي اعتدى على مقام الربوبية بقوله تعالى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (سورة طه، آية: ٤٤)، "هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك،

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٦١٣.

^٢ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢٠١-٢٢٠٢.

ومع هذا أمر ألا يُخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) يا من يتحجب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟
وقال وهب بن منبه قولاً له إني إلى العفو والمغفرة أقربُ مني إلى الغضب والعقوبة^١.

بهذه التوجيهات الربانية يتمثل الفرد الحوار باستشعاره أنه يحاور بالمعتقد الأقوى، والسلاح الأمضى، والحجج الدامغة، والأدلة القاطعة، يقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٣٣)، أي أن الله شرع لعباده المؤمنين ما يكون سبباً لهداية الناس من البراهين والمعجزات، والأحكام، كل ذلك ليظهر رسوله، ودين الحق بما اشتمل عليه من الحجج والبراهين على كافة الأديان والمعتقدات، وحال كل من يجابه هذا النور الرباني بعدم الإذعان والإيمان هو كما يصوره القرآن في قوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ (سورة التوبة، آية: ٣٢)، فكل ما يقوله ليرد به الحق أو يبطله، ما هو إلا كلمات ساذجة، ومجادلات زائفة، حاله في ذلك حال من يريد أن ينفخ في نور عظيم قد أنارت به الدنيا، وانقشعت به الظلمة، ليطفئه ويذهب أضواءه وأنى له ذلك^٢، وحكمة الله ومشيئته تقول ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٣٢)، فمن كانت هذه قاعدته ومنطلقاته في الحوار فإنه صاحب قوة، ويالها من قوة، ويالها من عظمة حين تنطلق من صاحب رسالة خالدة بأدب رباني، وهدى وخلق نبوي، لتخرج كلمات الحق والهدى كالنور في يسره وجماله وسهولته - تزيح الظلام، وتفك قيود العبودية إلا لله، وتضع أغلال الهوى وآصار التقليد الأعمى، وتلمم الشتات، وتألّف القلوب، وتربي النفوس، وتصلح الأحوال، فإذا لم يؤتي الحوار ثمرته وفائدته من رجوع الآخر إلى الحق أو الاتفاق على كلمة سواء، فإن الله جعل المخرج بعدم الاختلاف والتفرق فضلاً عن الاقتتال والتناحر، وذلك بيان أن الحوار ليس إلا ابتلاء للداعي والمدعو، للمحق والمبطل، وجعله الله جهاداً يقوم به الفرد ليجاهد بمنطقه وسلوكه بالتحلي بأداب الحوار وأخلاق الدعوة، ويجاهد بفكره وعقله في اظهار الحق وكشفه، ويجاهد بروحه وقلبه في نبذ الهوى والتعصب، أو الإتياع والتقليد الأعمى، أما المحاسبة والفصل فإنها بيد الواحد الأحد القائل ﴿قُلْ لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ﴾^٣ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة سبأ، آية: ٢٥-٢٦).

وحيثما يخرج الحوار عن هدفه المنشود يصبح وسيلة لأحد الطرفين أو كلاهما ليحقق به أهدافه الخاصة من قصد التعالي والغلبة، أو إتياع الباطل ونصرته، وتكون وسائل تحقيق ذلك كثيرة ومتعددة،

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ١٦١.

^٢ انظر: الشوكاني، فتح القدير، ج ٢، ص ٥٠٦.

ومنها الإعراض عن الحوار ابتداءً، خوفاً من ظهور الحقائق، ومثاله ما فعله الخوارج في مناظرتهم مع ابن عباس رضي الله عنه حينما جاءهم، فقالوا: ما جاء بك؟ قال: أتيتكم من عند صحابة النبي صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار لأبلغكم ما يقولون، المخبرون بما يقولون، فعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بالوحي منكم، وفيهم أنزل، و ليس فيكم منهم أحد، فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشاً، وفي رواية _ فقال بعضهم ناهياً: إياكم والحديث معه، إن قريشاً قومٌ خصمون _، فإن الله يقول ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (سورة الزحرف، آية: ٥٨)، وكان هذا الفعل والتمرد عن الحوار البناء سبب ضلالهم وهلاكهم.

ومنها أيضاً الكذب الذي وصف الله به اليهود في طريقة حوارهم ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ٧٨)، فكان هذا الأسلوب وبالاً عليهم ولعنةٌ إلى يوم القيامة.

ومنها أيضاً قطع الحوار أو انهاءه أو بعثرة أوراقه وتشتيت أفكاره وتغيير اتجاهه حين يبدأ في تحقيق هدفه، وهذا حال فرعون مع نبي الله موسى حين قال في الحوار القرآني ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ففررتُ منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال فرعون وما رب العالمين ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ قال لمن حوله ألا تستمعون ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الشعراء، آية: ١٦-٢٨)، وتظهر في الآيات الكريمة وضوح هدف نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام وتوجيه كافة أدلته لإثبات ذلك، وطريقة فرعون الحوارية في الاستهزاء والسخرية لذات موسى بعيداً عن موضوع الحوار، ومحاولته الخروج عن الموضوع، إلى أن وصل موسى عليه الصلاة والسلام بالأدلة العقلية لمخاطبة العقل، وإظهار الحق، وكشف الباطل، فصاح فرعون ليظهر الحرية الفرعونية المصطنعة، والطريقة المتبعة لإخماد نور العقل، وتقييد حريته، قائلاً كما قال تعالى ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (سورة الشعراء، آية: ٢٩)، فيتابع موسى الحوار ولكن بأدلة ربانية ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ قال فأت به إن كنت من الصادقين ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾

^١ سبق تخريجه ص ١٤٢.

مُيِّنٌ ﴿١﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ ﴿٢﴾ (سورة الشعراء، آية: ٣٠-٣٣)، فينهي فرعون الحوار بالخروج من ربوبيته المزعومة إلى العبودية المحتومة لمن حوله ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢﴾ (سورة الشعراء، آية: ٣٤-٣٥)، ليكون ذلك سبباً في نهاية ملكه وخروجه من الحياة ذليلاً حقيراً، وعبرةً ومصيراً، كما قال تعالى ﴿وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٥٠)، وهكذا تسير وقائع كل حوار يخرج عن مساره، ويجيد عن أهدافه.

وحين يسير الحوار على أصوله وقواعده، ويُطبق بآدابه وأخلاقه، فإنه يحقق أهدافه ومراميه. والواجب على الأمة في واقعنا المعاصر أن تستثمر أهداف الحوار التي وردت في إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي، والتي اتفق المجتمع الدولي اليوم على جعلها أهدافاً إنسانية سامية، وقد نصَّ هذا الإعلان على الأهداف الآتية:

١. نشر المعارف وحفز المواهب وإثراء الثقافات.
 ٢. تنمية العلاقات السلمية والصداقة بين الشعوب والوصول إلى جعل كل منها أفضل فهماً لطرائق حياة الشعوب الأخرى.
 ٣. تمكين كل إنسان من اكتساب المعرفة والمشاركة في التقدم العلمي الذي يحرز في جميع أنحاء العالم والانتفاع بثماره، والإسهام من جانبه في إثراء الحياة الثقافية.
 ٤. تحسين ظروف الحياة الروحية والوجود المادي للإنسان في جميع أرجاء العالم.^١
- فمن هذه الأهداف التي تتوافق مع ثوابت الشرع ينطلق الحوار الإسلامي العالمي للبناء والتعاون والتعايش والتصالح، والانفتاح على الآراء والأفكار والمعتقدات والحضارات، ليبيّن ويصحح ويبين ويوضح، ويقوم بمهمة البيان والبلاغ.
- ولكي يحقق الحوار فضائله المطلوبة، وأهدافه المنشودة، لا بد أن يقوم على عدة ركائز تربوية، ومنها:
١. القبول بالتعددية والاختلاف، فالإسلام يقرر "الاختلاف كحقيقة إنسانية طبيعية ويتعامل معها على هذا الأساس، يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (سورة الحجرات، آية ١٣)، وفي عالمنا المعاصر المجتمعات الإنسانية متعددة الأديان والمذاهب... فالحوار يُعد ركناً من أركان الاستقرار والسلم العالمي، والحوار لا يكون إلا مع الآخر، وإلا يصبح حواراً مع الذات، والآخر لا يكون إلا مختلفاً، وإلا تنتفي الحاجة إليه، لذلك فإن الركيزة الأولى للحوار هي القبول بالتعدد والاختلاف معاً، يشكل

^١ إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي ومشكلاته، الصادر عن المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، نوفمبر ١٩٩٦، المادة (٤-٧-٨).

هذا القبول ميزة من ميزات الفقه الإسلامي، إن القرآن الكريم يقول ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (سورة هود، آية: ١١٨)، أي من العبث إلغاء الاختلاف، ومن المستحيل تحويله إلى وفاق مطلق، ولكن من الممكن جداً، بل من الضروري عدم تحويل الاختلاف إلى خلاف^١، ولا يكون ذلك إلا بحوارٍ مبني على احترام الآراء وتقبل أصحابها ليكون حواراً هادفاً وعادلاً، أما من يتعامل مع الحوار بنظرة أحادية وعدم قبول للرأي الآخر وربما بصاحب الرأي أيضاً فإن الحوار إن وُجد فإنه يصبح ميداناً للاعتداء والتهجم، ووسيلة للاستعلاء والتسلط، ومصادرة للفكر والعقل، وسبب في الاختلاف والتفرق؛ لأن أصحاب النظرة الأحادية يرون أنهم يملكون كل المعرفة، بينما لا يرون أن الآخرين يمكن أن يملكوا ولو جزءاً من هذه المعرفة وحالهم في ذلك يشبه حال من ذكرهم الإمام الغزالي في الإحياء في قصة رمزية تستحق التأمل مفادها: أن ثلاثة من العميان أدخلوا على فيل ولم يكونوا عرفوه من قبل فوضع أحدهم يده على رجله، ووضع الآخر يده على ذيله، ووضع الثالث يده على بطنه، فلما خرجوا سألوهم ما الفيل؟ فقال الأول: الفيل كسارية المسجد، وقال الآخر: الفيل كخرطوم طويل به شعر كثيف، وقال الثالث: الفيل الجبل العظيم الأملس.. فأدخلوا مرة أخرى على الفيل، وأمسكوا بجميع أجزائه، وعندها ضحكوا من تعريفاتهم السابقة للفيل، واستطاعوا أن يصفوه على حقيقته.

وهكذا أصحاب النظرة الأحادية، يرى الواحد منهم جزءاً من الحقيقة، ويظن أنه يرى كل الحقيقة؛ فيصف الأمور بغير أوصافها.. فإن حدثه الآخر عن بقية الحقيقة التي يجهلها، لم يكلف نفسه مجرد محاولة التعرف على ما يريد الآخر قوله، بل يَنْقُض عليه متهماً إياه بالضلال والانحراف والجهل ولا يترك له فرصة الحوار، بل يسعى لمصادرة آرائه والحجر عليه، فيصم أذنيه ويغلق عينيه، فلا يسمع له رأياً ولا يقبل له طرْحاً^٢، وما أجمل فقه وعلم وأدب الإمام الشافعي رحمه الله الذي يقول عنه يونس الصديقي "ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة، قال الذهبي معلقاً_ هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام، وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون"^٣.

^١ صابر عبد الرحمن طعيمة: الإسلام والآخر، ١٤٢٨هـ، مكتبة الرشد، الرياض، ص ٤٥٩-٤٦٠.

^٢ مجلة البيان، العدد (٨٩) محرم ١٤١٦هـ، مقال معوقات الحوار، محمد محمد بدري.

^٣ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ١٦-١٧.

٢. أن يقوم على قاعدة تكاملية، ونظرة تفاعلية مع الآخر للوصول إلى الحقيقة بكاملها من طرق مختلفة، تمثل في مجموعها وجهات نظر المتحاورين، يقول الإمام الغزالي "التعاون على طلب الحق من الدين، ولكن له شروط وعلامات، منها أن يكون في طلب الحق كناشد ضالّة، لا يفرق بين أن تظهر الضالّة على يده أو على يد معاونه، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهره له"^١، وهذا ما يفتح القلوب قبل العقول لقبول الحق والرأي الصحيح، وهذه القاعدة والنظرة لا تكون إلا من متقبل للرأي، منقاد للحق دون النظر إلى مصدره، ومؤمن بالاختلاف وبحق الآخر في استقلاله بفكره ورأيه ومعتقده، والسعي معاً للحل الأمثل، والطريق الأصوب، للاجتماع على كلمة سواء، بالالتقاء في نقاط الاتفاق والعمل على استثمارها في تحقيق أهداف الحوار، وعدم جعل نقاط الخلاف تتحول إلى اختلاف وتفرق، إذ "هدف الحوار ليس إقناع الآخر بأن يكفّ عن أن يكون نفسه، إن الهدف على العكس من ذلك هو محاولة اكتشاف الآخر في عمقه لتمكينه من أن يسهم بفكره وبتجربته الخاصة، وبإيمانه في بلورة الحقيقة وتكاملها، ومن ثم للعمل معه، وكأن العمل له تحقيقاً لحب هو في ذاته أسمى تجليات العلاقة مع الآخر"^٢، وما أجمل وصية الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين عند محاوره المخالفين في أصل المعتقد (اليهود والنصارى)، والأمر بمجادلتهم ومحاورتهم باختيار الأحسن من عموم الحسن، ثم النظر إلى ما يقرب النفوس ويجمع القلوب من بيان الإيمان بكتب الله التي نزلت على رسله صلوات الله وسلامه عليهم وأن المعبود واحد وهو الله جل جلاله، فإن لم تظهر نتيجة الحوار فالختم بالحسنى وهو إعلان الإسلام ديناً ومنهجاً وشرعة، يقول تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٤٦).

٣. التجرد من الأنا، وعدم تقديس الذات، لأن الحوار القائم على الأهواء والعصبية، أو السياسات وتحقيق الانتصارات، هو في حقيقته معركة فكرية، وتشاجر كلامي، لا يحقق للحوار هدفاً، ولا يُصحح فكراً، ولا يحل مشكلة، والحوار القائم على القداسة الذاتية، أو النظرة الاستعلائية السلطوية، هو في حقيقته إظهاراً للمكانة، واعتزازاً بالذات، لا ينتج عنه إلا صلفٌ وعناد، وتهجمٌ على ذات الآخر، والبحث والتنقيب عن معايه وأخطائه، للسخرية

^١ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٤٧

^٢ طعيمة، الإسلام والآخر، ص ٤٦١.

والإسقاط والإقصاء، وتلك حال أعداء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حين وجهوا لهم تهم الكذب والسحر والجنون والكهانة، وذلك لعجزهم عن مقارعة الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، أو عدم القدرة على الإخضاع والإلزام والحجر، يقول الغزالي في حديثه عن التعصب "وهو من آفات علماء السوء، فإنهم يُبالغون في التعصّب للحقّ، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوفر بواعتهم على طلب نُصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نُسبوا إليه، ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة، لا في معرض التعصب والتحقير لأنجحوا فيه، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع، ولا يستميل الأتباع مثل التعصّب واللعن والتّهم للخصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم"^١، فالحوار لا يقوم إلا على نفوس متجردة للحق، متواضعة لأدلتها، معترفة بمكانته، ومن "الخطأ البين في هذا الباب أن تظن أن الحق لا يغار عليه إلا أنت، ولا يجبه إلا أنت، ولا يدافع عنه إلا أنت، ولا يتبناه إلا أنت، ولا يخلص له إلا أنت. ومن الجميل، وغاية النبيل، والصدق الصادق مع النفس، وقوة الإرادة، وعمق الإخلاص، أن تُوقِفَ الحوار إذا وجدت نفسك قد تغير مسارها ودخلت في مسارب اللجاج والخصام، ومدخولات النوايا"^٢. والمتأمل في حوارات الصحابة مع النبي صلى الله عليه وسلم يظهر له عدم تقديس النبي صلى الله عليه وسلم لذاته وهو رسول الهدى صلى الله عليه وسلم، فكان يُظهر بشريته في كثير من المواقف التي يُحاور فيها، وييدي رأيه البشري طالباً للرأي الأمثل، وكان ينزل على آراء أصحابه عند بيان الصواب، كل ذلك بعلاقة المحبة والتقدير والاحترام والإجلال له صلى الله عليه وسلم، أما القداسة فكانت لما يأتي به عن الله تعالى من كتاب وسنة، ومع ذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام يتنزل لمن يحاوره جداً بقوله ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة سبأ، آية: ٢٤)، مع أنه صلى الله عليه وسلم صاحب الحق وإمام الهدى، ولكنه يبين التجرد العملي لطلب الحقيقة، والسعي للوصول إليها من أي طرف بغير تعصبٍ للرأي أو الأنا.

^١ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٤٤.

^٢ صالح بن عبد الله بن حميد: أصول الحوار وآدابه في الإسلام، ١٤١٥ هـ، دار المنارة، جدة، ص ٣٧-٣٨.

٤. أن يكون الحوار قائم على المنهجية العلمية؛ "لأنه يجب أن يكون هناك ضوابط للأفكار، وقانون للآراء، حتى لا تنهمر الشهوات والأمراض الاجتماعية والعمالات، فتبرز في صورة أفكار وآراء تعطل المسيرة وتشوه مجال البحث العلمي"^١، ومن تلك الضوابط:

أ- سلوك الطرق العلمية والتزامها، وذلك بتقديم الأدلة المثبتة أو المرجحة للدعوى، وصحة النقل في الأمور المنقولة، وفي هذين الطريقتين جاءت القاعدة الحوارية المشهورة (إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدعياً فالدليل).

ب- سلامة كلام المناظر ودليله من التناقض، فالمتناقض ساقط بداهة.

ت- ألا يكون الدليل هو عين الدعوى، لأنه إذا كان كذلك لم يكن دليلاً، ولكنه إعادة للدعوى بألفاظ وصيغ أخرى، وعند بعض المحاورين من البراعة في تزويق الألفاظ وزخرفتها ما يوهم بأنه يورد دليلاً، وواقع الحال أنه إعادة للدعوى بلفظ مغاير.

ث- الاتفاق على منطلقات ثابتة وقضايا مسلمة، وهذه المسلمات والثوابت قد يكون مرجعها أنها عقلية بحتة لا تقبل النقاش عند العقلاء المتجردين... أو تكون مسلمات دينية لا يختلف عليها المعتنقون لهذه الديانة أو تلك، وبالوقوف عند الثوابت والمسلمات، والانطلاق منها يتحدد مرید الحق ممن لا يريد إلا المرء والجدل والسفسطة.

ج- أهلية المحاور _ أو ما يعبر عنه بالتخصص في موضوع الحوار _ فليس كل أحد مؤهلاً للدخول في حوار صحي صحيح يؤدي ثماراً يانعة ونتائج طيبة، والذي يجمع لك كل ذلك (العلم)، فلا بد من التأهيل العلمي للمحاور، ويقصد بذلك التأهيل العلمي المختص.

ح- قطعية النتائج ونسبيتها، فمن المهم إدراك أن الرأي الفكري نسبي الدلالة على الصواب أو الخطأ، والذي لا يجوز عليهم الخطأ هم الأنبياء عليهم السلام فيما يبلغون عن ربهم سبحانه وتعالى، وما عدا ذلك فيندرج تحت المقولة المشهورة (رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي الآخر خطأ يحتمل الصواب)، وبناءً عليه، فليس من شرط الحوار الناجح أن ينتهي أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر، فإن تحقق هذا واتفقا على رأي واحد فنعم المقصود، وهو منتهى الغاية، وإن لم يكن فالحوار ناجح، إذا توصل المتحاوران بقناعة إلى قبول كل من منهجيهما، يسوغ لكل واحد منهما التمسك به ما دام أنه في دائرة

^١ الواعي، الحوار الإسلامي.. أصوله ومفاهيمه ووسائله، ص ٢٤٣.

الخلاف السائع....ولكن يكون الحوار فاشلاً إذا انتهى إلى نزاع وقطيعة، وتدابير ومكابدة وتجهيل وتخطئة.

خ- الرضا والقبول بالنتائج التي يتوصل إليها المتحاورون، والالتزام الجاد بها، وبما يترتب عليها، وإذا لم يتحقق ذلك كانت المناظرة ضرباً من العبث الذي يتنزعه عنه العقلاء^١.

وهذا التطبيق التربوي لمبدأ الحوار على مستوى الأمة، أو المجتمع، أو المؤسسات، أو الأسر هو ما يجعل هذه التربية عالمية في رسالتها لكل الأديان والثقافات، وشاملة في دعوتها لكل القضايا والموضوعات، وعامة في تطبيقها على كل الأشخاص والفئات، وربانية في مصدرها تنطلق من مسلمات وقينيات، وعقلانية في تربيتها تقوم على العقل والعلم والمنطقيات، وإنسانية في مبادئها تقوم على الحرية والاحترام والعدل والإنصاف، وراقية في تعاملها تراعي المشاعر والأحاسيس والمعنويات، وهذا ما يجعل الحوار في التربية الإسلامية ينبذ الفكر التصادمي، والخطاب العدائي التحريضي؛ لأنه وسيلة حضارية للتعارف وفهم الآخر، وإظهاراً للعقلانية والتسامح وحسن النوايا، وسبيلاً لتحقيق الوثام والتعايش، والأمن والاستقرار، وطريقاً للتعاون على المصالح والمنافع والتكامل، وميثاقاً لإقرار القيم العليا التي أجمعت البشرية على فضلها، والمحافظة على الضرورات المكفولة لكل إنسان على وجه الأرض، حتى تصل البشرية إلى (كلمة سواء).

المطلب الثاني: تحقيق مبدأ الاستقلالية:

أولاً: معنى الاستقلالية:

جاء في معنى استقل أي "ارتفع، يقال استقل الطائر في طيرانه، واستقل النبات، واستقلت الشمس، والقوم: مضوا وارتحلوا، وفلان: انفرد بتدبير أمره، يقال: استقل بأمره، والدولة: استكملت سيادتها وانفردت بإدارة شؤونها الداخلية والخارجية، لا تخضع في ذلك لرقابة دولة أخرى (محدثة)"^٢. وقيل الاستقلال "الانفراد بالشيء، والانفراد بتدبير أمر من الأمور، واستكمال الدولة سيادتها وانفرادها بتدبير شؤونها الداخلية والخارجية بنفسها لا تخضع في ذلك لوصاية أو رقابة دولة أخرى عليها"^٣.

^١ انظر: بن حميد، أصول الحوار وآدابه في الإسلام، ص ١٤-٢٤.

^٢ إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، باب القاف، ج ٢، ص ٧٥٦.

^٣ محمد قلعجي وحامد قنبي، معجم لغة الفقهاء، ص ٦٤.

والاستقلال هو الانفصال بالذات عن الآخر فكراً وسلوكاً، وتوجهاً وإرادةً، وقراراً ومسؤولية، وهو طبيعة فطرية، وحاجة بشرية، تنمو مع الإنسان منذ صغره، وتوجهه وتضبط في مراحل نموه المختلفة تبعاً لاحتياجات كل مرحلة وظروفها، وعلى أساس كل تربية وأسلوبها.

والاستقلال في التربية الإسلامية من أهم المبادئ، وأقوى القواعد لصياغة الشخصية، وتحقيق التوازن والانضباط، والقوة والثبات، ولتحقيق ذلك المبدأ أصلت التربية الإسلامية القيم والمفاهيم التي يجب أن يكون عليها الفرد والمجتمع ليسير في طريق الاستقلال والحرية، وهذا ما سنناقشه في هذا المطلب.

ثانياً: الأحاديث الواردة في تحقيق الاستقلالية من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. ذكر الإمام البخاري في كتابه (باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»)

وهذا طرف من الحديث الذي أورده في الباب وسوف يأتي التعليق عليه، أما المناسبة من ذكر طرف هذا الحديث في التبويب، فيظهر منه بيان أهمية استقلال الأمة بذاتها وعقيدتها وأخلاقها، وأنها غنية وقويةً بذلك ما تمسكت واعتصمت بهدي الكتاب والسنة فهماً وتطبيقاً، أما إذا طلبت العزة والقوة من غيرها فإن حالها كما قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُلِيتُوعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (سورة النساء، آية: ١٣٩)، قال ابن كثير "والمقصود من هذا التهيج على طلب العزة من جناب الله، والإقبال على عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصر في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد"، وهذا هو طريق استقلال الأمة أفراداً ومجتمعات، نحو الخير والعلم والتقدم.

٢. (٧٢٧٧) قَالَ عَبْدُ اللَّهِ إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَإِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأْتِي، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ^٢.

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٥٧٩-٥٨٠.

^٢ قال الحافظ ابن حجر "ظاهر سياق هذا الحديث أنه موقوف، لكن القدر الذي له حكم الرفع منه قوله (وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم) فإن فيه إخباراً عن صفة من صفاته صلى الله عليه وسلم وهو أحد أقسام المرفوع وقل من نبه على ذلك، وهو كالمثقف عليه لتخريج المصنفين المقتصرين على الأحاديث المرفوعة الأحاديث الواردة في شمائله صلى الله عليه وسلم فإن أكثرها يتعلق بصفة خلقه وذاته كوجهه وشعره، وكذا بصفة خلقه

هذا الحديث يؤصل مفهوم الاستقلال وذلك بتزكية المصدر (إن أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي^١ محمد صلى الله عليه وسلم)، والتحذير من كل ما يخالف ذلك (وشر الأمور محدثاتها) والمحدثات "جمع محدثة، والمراد بها البدع والضلالات من الأفعال والأقوال والبدعة كل شيء على غير مثال سابق، وفي الشرع إحداث ما لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة"^٢، واستقلالية مصدر التشريع الإسلامي لا تعني عدم البحث والنظر في المسائل الاجتهادية وإحداث ما فيه الخير والبر والصلاح كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جمع الناس لصلاة التراويح وقوله (نعمت البدعة)، وما فعله الخلفاء الراشدون من أمور اجتهادية لصالح الدين والدنيا، يقول الإمام الشافعي "المحدثات ضربان ما أحدث يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً أو إجماعاً فهذه بدعة الضلال، وما أحدث من الخير لا يخالف شيئاً من ذلك فهذه محدثة غير مذمومة انتهى"^٣، وهذا المفهوم يجعل العقل المسلم يرتقي بمجموعته نحو التقدم والريادة، بأصالة الشرع، وحدائثه العصر، وينمي في النفس الثقة والقوة والاستقلال.

٣. (٧٣١٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شَبِيرًا بِشَبِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ». فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَفَّارِسَ وَالرُّومِ. فَقَالَ «وَمَنْ النَّاسُ إِلَّا أَوْلِيكَ».

هذا الحديث يخبر فيه نبينا صلى الله عليه وسلم بما يحدث في آخر الزمان من ضعف وهزيمة نفسية تلحق بالمسلمين تجعلهم أتباعاً لغيرهم من الأمم، وهذا الأمر لا يكون إلا عندما تُغفل الأمة العقل والعلم، وتنتج نحو التقليد والإتباع، والحديث يصور المبالغة في التقليد والإتباع والضعف بقوله (شبيراً بشبير وذراعاً بذراع)، وهذا التقليد لا يكون إلا من الأمة الضعيفة للأمة الغالبة القوية لذلك أجاب

كحلّمه وصفحه، وهذا مندرج في ذلك مع أن الحديث المذكور جاء عن ابن مسعود مصرحاً فيه بالرفع من وجه آخر، أخرجه أصحاب السنن لكن ليس هو على شرط البخاري، وأخرجه مسلم من حديث جابر مرفوعاً أيضاً بزيادة فيه، وليس هو على شرطه أيضاً". فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣١٤.

^١ "بفتح الهاء وسكون الدال للأكثر، وللكشميهني بضم الهاء مقصور ومعنى الأول الهيئة والطريقة والثاني ضد الضلال" ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣١٤.

^٢ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٣٥-٢٣٦.

^٣ ابن حجر نقلاً عن الإمام البيهقي في مناقب الإمام الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣١٥.

^٤ "القرون جمع قرن بفتح القاف وسكون الراء الأمة من الناس" القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٨٠.

الرسول صلى الله عليه وسلم السائل بقوله (ومن الناس إلا أولئك) يقصد فارس والروم قال القسطلاني " (ومن الناس) المتبعون المعهودون المتقدمون (إلا أولئك) الفرس والروم وهما جيلان مشهوران من الناس وعينهما لكونهما إذ ذاك أكبر ملوك الأرض وأكثرهم رعية وأوسعهم نفوذاً^١، وهذا الإخبار النبوي لا يجعل الأمة تقف موقف المنتظر لهذا الوعد، ولكن على العكس يكشف لها طريق الاستقلال بالاعتماد على النفس في الموارد والطاقات والقوى، ودخول مختبرات العلم والبحث، لتنافس غيرها من الأمم في عمارة الأرض وتصل إلى موعود الله لها بالتمكين والاستخلاف.

٤. (٧٣٢٠) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «لَتَتَّبَعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَيْبًا شَيْبًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ^٢ تَبِعْتُمُوهُمْ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ قَالَ «فَمَنْ».

وهذا الحديث كالسابق في مفهومه إلا أنه زاد في مبالغة الإلتباع والتقليد قوله (لتتبعن سنن) أي طريق^٣، وقوله (حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)، "قال عياض الشبر والذراع والطريق ودخول الجحر تمثيل للإقتداء بهم في كل شيء مما نهى الشرع عنه وذمه"^٤، ووضحه القسطلاني أكثر بقوله "وخص جحره بالذكر لشدة ضيقه، وهو كناية عن شدة الموافقة لهم في المعاصي لا في الكفر أي أنهم لاقتفاءهم آثارهم واتباعهم طرائقهم لو دخلوا في مثل هذا الضيق لوافقوهم"^٥.

وذكر في هذا الحديث المتبعون (اليهود والنصارى) وفي الحديث السابق (فارس والروم)، ولعل الفرق بين ذلك أن النهي عن متابعة الفرس والروم في أمور الدنيا الظاهرة من أخلاق ولباس وفكر وسلوك، وما ينتج عن ذلك من هزيمة نفسية وتبعية مظهرية، أما النهي عن متابعة اليهود والنصارى فهو في أمور الدين وما يلحقه من تقديس لأخبارهم ورهبانهم كما قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (سورة التوبة، آية: ٣١)، وتحريفٍ وتسطيحٍ لنصوص كتبهم وفق أغراضهم وأطماعهم، كما يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (سورة التوبة، آية: ٣٤)، وما ينتج عن ذلك من هزيمة في ميدان القيم والمبادئ،

^١ القسطلاني، المصدر السابق، ج ١٥، ص ٢٨٠.

^٢ "الضَّبُّ بالضاد المعجمة بعدها موحدة مشددة وهو الحيوان البري المعروف يشبه الورد وقد قيل إنه يعيش سبعمائة سنة فصاعداً ويول مرة كل أربعين يوماً قطرة ولا تسقط له سن" القسطلاني، المصدر السابق، ج ١٥، ص ٢٨٠.

^٣ القسطلاني، المصدر السابق، ج ١٥، ص ٢٨٠.

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٧٢.

^٥ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٨٠.

وظهور التبعية والتقليد للأشخاص والعادات والمألوفات، قال ابن حجر "ووجهه أنه صلى الله عليه وسلم لما بُعث كان ملك البلاد منحصرًا في الفرس والروم وجميع من عداهم من الأمم من تحت أيديهم أو كلا شيء بالنسبة إليهم، فصح الحصر بهذا الاعتبار، ويحتمل أن يكون الجواب مختلفًا بحسب المقام، فحيث قال فارس والروم كان هناك قرينة تتعلق بالحكم بين الناس وسياسة الرعية، وحيث قيل اليهود والنصارى كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات أصولها وفروعها"^١، وهذا الإخباري النبوي نجد واقعا في حال بعض المسلمين الذين ضعفت هممهم وفترت عزائمهم عن تحمل تبعات الريادة والاستقلالية، واختارت التقليد والتبعية طريقاً ومنهجاً، إلا أن الخير والعز والاستقلال لا يزال في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة.

ثالثاً: التطبيق التربوي لمبدأ الاستقلالية:

الاستقلالية ضد التبعية، والتبعية هلاك الأمم ونهاية الحضارات، لذا فإن كل حضارة وأمة تنشئ لها نظاماً خاصاً يحكم علاقاتها، ويُنظم شؤونها، مستمداً من قيمها ومعتقداتها، وتُعاقب وتُجرم كل من يخالف، أو يسلك طريق التبعية للغير؛ لأن ذلك بداية النهاية للأمة، وما حدث في اليابان من محاربة للتبعية، وتكريس الاستقلال والولاء لليابان، وقيم وعقيدة اليابان، ما هو إلا حفاظاً على النظام بقيمه ومبادئه من الانهيار الاجتماعي بعد فاجعة الانهيار السياسي، وما وصلت إلى ما وصلت إليه اليابان من نجاح حضاري، وقوة تقنية، وتقديم علمي، وتماسك اجتماعي، واعتزاز ديني إلا بالاستقلال والالتزام بالمبادئ والقيم اليابانية "حيث يستمد النظام التربوي الياباني أهم مقوماته من طبيعة مجتمعه وروح أمته واحتياجات وطنه، ولا يأتي انعكاساً لنماذج تربوية خارجية... يستمد النظام الياباني نهضته الحديثة من جذوره ومؤسساته وتقاليده المتأصلة والقائمة بالفعل ولم يدمرها أو يهملها بدعوى قدمها وتقليديتها... لم تأخذ اليابان بالزراعات الليبرالية والسيكولوجية الغربية بل ظلت متمسكة بقيم الانضباط الموحد في الفكر والسلوك رغم الضغط المعاكس من الاحتلال الأمريكي ورغم النقد الغربي لها"^٢.

والتربية الإسلامية حين تبني مبدأ الاستقلال في نفوس أفرادها فإنها لا تبنيه على الشعارات والعواطف، أو العصبية والتحيزات، إنما تبنيه على عقيدة وفكر، وسلوك وتطبيق، وتوجه وشعور،

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٧٢.

^٢ مجلة المعرفة، العدد (١٧٣)، شعبان، ١٤٣٠هـ، وزارة التربية والتعليم، المملكة العربية السعودية، مقال "التجربة اليابانية نموذج الترقى بعد التردى"، حسن الباتع عبد العاطي، ص ٧٧.

فهو استقلالٌ كاملٌ شاملٌ، يقول تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٤٣-١٤٤)، "لقد كان تحويل القبلة أولاً عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها آية في هذا الدرس (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه)، فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي، ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعمة وكل عصية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المحرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم، فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه _فترة_ إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول إتباعاً مجرداً من كل إبقاء آخر، إتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتراضاً بنعمة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ، أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد... والجماعة المسلمة التي تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه، إن القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة في الصلاة، فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز، رمز للتمييز والاختصاص، تميز التصور، وتميز الشخصية، وتميز الهدف، وتميز الاهتمامات، وتميز الكيان... إن هذه العقيدة منهج حياة كامل، وهذا المنهج هو الذي يميز الأمة المستخلفة الوارثة لتراث العقيدة، الشهيدة على الناس، المكلفة بأن تقود البشرية كلها إلى الله.

وتحقيق هذا المنهج في حياة الأمة المسلمة هو الذي يمنحها ذلك التميز في الشخصية والكيان، وفي الأهداف والاهتمامات، وفي الراية والعلامة، وهو الذي يمنحها مكان القيادة الذي خلقت له، وأخرجت للناس من أجله، وهي بغير هذا المنهج ضائعة في الغمار، مبهمة الملامح، مجهولة السمات، مهما اتخذت لها من أزياء ودعوات وأعلام!"^١.

هذه حقيقة الاستقلال في المنهج التربوي الإسلامي فلا تبعية للأنا وأهواءها، ولا للذات وشهواتها، يقول تعالى ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٍ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ (سورة القصص، آية: ٥٠)، ولا تبعية للأباء والأشخاص والعادات، يقول تعالى ﴿وَإِذَا

^١ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ١٢٦-١٢٩.

قِيلَ لَهُمْ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿سورة لقمان، آية: ٢١﴾، ولا تبعية للأمم والحضارات، يقول صلى الله عليه وسلم ناهياً أمته عن ذلك «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَبِيحاً شَبِيحاً وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ قَالَ «فَمَنْ»^١، إنما هو استقلال رباني يقول تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾^٢ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴿سورة النساء، آية: ٢٦-٢٨﴾، فمتبعي الشهوات _ شهوة الجاه، وشهوة الرئاسة، وشهوة المال، وشهوة النساء، وشهوة التقليد... وغيرها _ يريدون الميل بالإنسان إلى تلك التبعية التي تُسقطه في دركاتها، وتُقيد به بأغلالها، وتثقله بتبعاتها، والله سبحانه وتعالى يريد للإنسان أن يحقق استقلاله عنها، وأن يعيش في واقعه الإنساني محلقاً في فضاء الحرية الرباني.

ومن خصائص التربية الإسلامية في مفهوم الاستقلال أنه يقوم على مبدأ (الولاء والبراء)^٣ الذي هو نابعٌ من حرية فكرية وعقدية، وهو ما يكسبها مرونةً في التطبيق، وسماحةً في السلوك، وثباتٌ في

^١ أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من كان قبلكم)، حديث رقم (٧٣٢٠).

^٢ الولاء والبراء أصلٌ عظيم من أصول الدين، وهو من لوازم شهادة (أن لا إله إلا الله)، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية "الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعث". أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية: الفرقان بين الحق والباطل، ٤٠١ هـ، مكتبة عبد العزيز السلفية، الاسكندرية، مصر، ص ٧.

وعلى هذا فالولاء شرعاً "حب الله تعالى ورسوله ودين الإسلام وأتباعه المسلمين، ونصرة الله تعالى ودين الإسلام وأتباعه المسلمين، والبراء هو بغض الطواغيت التي تُعد من دون الله تعالى - من الأصنام المادية والمعنوية: كالأهواء والآراء -، وبغض الكفر - بجميع ملله - وأتباعه الكافرين، ومعاداة ذلك كله... وبذلك نعلم، أننا عندما نقول إن ركبي الولاء والبراء هما: الحب والنصرة في الولاء، والبغض والعداوة في البراء، فنحن نعني بالنصرة وبالعداوة هنا النصره القلبية والعداوة القلبية، أي تمنّي انتصار الإسلام وأهله وتمنّي اندحار الكفر وأهله. أما النصره العملية والعداوة العملية فهما ثمرةٌ لذلك المعتقد". الشريف حاتم بن عارف العوني: الولاء والبراء بين الغلو والجفاء، ١٤٢٩ هـ، دار الصميعي، الرياض، ص ٩-١٠.

والأدلة على الولاء والبراء من الكتاب والسنة أكثر من أن تُحصى في هذا الهامش، حتى قال عنه بعض أهل العلم "إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده".

حمد بن علي بن عتيق: سبيل النجاة والفكاك، ت: الوليد بن عبد الرحمن الفريان، ١٤٠٩ هـ، دار طيبة، الرياض، ص ٣١.

وقد أصاب هذا المعتقد من الغلو والتطرف ما أصاب بقية شرائع الدين، وذلك بسبب ما أصاب الأمة من خللٍ وضعفٍ على المستوى الفكري والعلمي والاقتصادي والسياسي و... الخ، فتطرف البعض، واختل تصورهم العقلي في الفهم، وتلبسوا برداء الدين، وهو ما جعل التطبيق وسيلةً للتعامل مع الكفار بالغلظة والقسوة والجفاء، وذريعةً لتكفير كل من أظهر أي صورة للود أو التلطف والتعامل بالحسنى معهم، وربما زاد الأمر في بعض الأحيان إلى ما نراه من إرهابٍ وترويعٍ وتخريبٍ في بلاد العالم، وأصبح هذا المعتقد سلاحاً عدائياً، وشحناً عاطفياً، ووقوداً لتهييج النفوس، واستمرار الاحتقان والحقد، إما في صورة مناسبات ومآتم موسمية، وإما في صورة منشورات واجتماعات سرية، تُفزع تلك الطاقات ضد البشر، فتنفجر في أي لحظة، وبأي وسيلة أو طريقة، مخلقةً صورةً سيئةً للدين، وعداءً مستمراً ضده، واقتتال وتفرق بين أبنائه.

وقابل ذلك التطرف تطرفاً مضاداً وهم الذين اختلت تصوراتهم الشرعية وتلبسوا برداء العقل والفهم، ما جعل التطبيق انسلاخاً وتمييعاً وتضييعاً للدين من أصله، ولا شك أن المنهج الوسط في ذلك هو ما كان عليه نبينا صلى الله عليه وسلم حيث عليه أنزل القرآن، وعاش وجاور أهل الكفر والشرك والنفاق، وطبق الولاء والبراء صلى الله عليه وسلم في أهى وأجمل صورته، وتعامل وتفاعل مع واقعه برقيي أخلاقي، وأدبٍ قرآني، ورحمةٍ ربانية، وثباتٍ إيماني، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ جداً وسبق الإشارة إلى بعضها في ثنايا هذا البحث، ولا شك أن الخلل في فهم هذه المسئلة كان من أكبر أسباب ظهور فكر الغلو والتطرف في الحب والنصرة والموالاتة، وما أثمره من تعصبٍ مذموم للآراء أو الأشخاص أو المذاهب أو الأئمة، وكذلك فكر الغلو والتطرف في البغض والعداوة والبراءة، وما أثمره من قسوة وغلظة وتكفير وتنفير وتفجير وشتم وسب لأخبار هذه الأمة، وبالقابل أدت نتائج ذلك الفهم مع الخلل في تأصيل هذه المسئلة إلى ظهور فكر التبعية والانسلاخ والتغريب الذي يدعو إلى التقارب، أو ما يُسمى بوحدة الأديان، أو زمالة الأديان، أو الإحساء الإنساني، أو غير ذلك من شعارات الضعف والانحزام النفسي. والمنهج الوسط في بيان هذه المسئلة ليس هذا مجاله للتوضيح بالأدلة والبراهين وأقوال أهل العلم، ولكنه مبسوطٌ في كتبهم حيث بيّنوا الولاء والبراء بضوابطه وحدوده الشرعية والأخلاقية، وفرّقوا بينه وبين التعامل بالحسنى وتأليف القلوب، وكذلك فرّقوا في تنزيل الأحكام على الأشخاص بحسب النوايا والمقاصد والأحوال، وكذلك فرّقوا بين المحبة الشرعية والمحبة الطبيعية الفطرية، وكذلك فرّقوا بين الأعمال والبدع المكفرة وغير المكفرة، وكذلك بيّنوا حدود المعاملات، وعقد المعاهدات، وإقامة العلاقات، ومراعاة المصالح، وحفظ الحقوق والواجبات، وما يتبع ذلك من شبهات وردود، يقول الإمام القرطبي رحمه الله في قوله تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٠٨) عند بيانه حرمة سب الكفار وأهلتهم ودينهم ومقدساتهم "في هذه الآية أيضاً ضربٌ من الموادعة، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدّ الذرائع". الجامع لأحكام القرآن، ج ٧، ص ٤١. وفي ذلك دليلٌ على اختلاف الحكم في التعامل مع الكفار وجواز دفع ضررهم وأذيتهم في حالة الضعف بالموادعة والمصالحة الظاهرة للمصلحة الأكبر وهي سلامة المسلمين وأمانهم على دمايتهم وأعراضهم وأموالهم، وهو ما يخرجها عن دائرة الولاء والبراء القلبي، والمتأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وتعامله مع المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، والقريب والبعيد، والمسلم والمخرب، والمحسن والمسيء، والمصيب والمخطئ، وفي تغير الأحوال والظروف، يجد البلسم الشافي والجواب

الكافي لكل حالةٍ أو موقفٍ، سواءً في التعامل العام، أو في الولاء والبراء. انظر: ابن تيمية: الفرقان بين الحق والباطل، ص ٧. والقحطاني، الولاء والبراء في الإسلام. وعبد الرحمن بن معلا اللويحي: الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، ط ٣، ١٤١٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ١٩٣-٣٤٦. والعوني، الولاء والبراء بين الغلو والجفاء. وعلي بن عبد الرحمن الطيار: حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية، ١٤٢٥هـ، الرياض. وعلي بن عبد الرحمن الطيار: حقوق الإنسان في الحرب والسلام، ١٤٢٢هـ، مكتبة التوبة، الرياض، والحميدي، الرسائل الشمولية، ص ٤٦٥-٤٩٨. علوي عبد القادر السقاف: التوسط والاقتصاد، رسالة في المكفرات القولية والعملية من خلال أقوال العلماء، ١٤٢٠هـ، دار ابن القيم، الدمام.

والأمثلة النبوية في بيان صورة الولاء والبراء الحقيقية التي تحفظ الحقوق، وترعى العهود والمواثيق مع الكفار، وتتأني في إصدار الأحكام، ولا تُطلق التكفير على الباطن. بمجرد عمل السلوك الظاهر أكثر من أن تُحصى، بل لقد بوب الإمام البخاري رحمه الله في كتابه "الجامع الصحيح" باباً عنونه بقوله "الموادعة والمصالحة مع المشركين بالمال وغيره، وإثم من لم يف بالعهد"، وكل ذلك لا يتناقض أو يتعارض مع معتقد الولاء والبراء، ونشير هنا إلى شيءٍ من تلك الأحاديث والمواقف النبوية، ومنها ما يلي:

١. قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ومكاتبته للمشركين، وعدم تكفير النبي صلى الله عليه وسلم له بمجرد العمل الظاهر، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل علياً والزبير والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم فقال «انطلقوا حتى تأتوا روضةً خاخ، فإن بها ظعينةٌ ومعهما كتابٌ، فخذوه منها». فانطلقوا تعادى بهم خيلهم حتى انتهوا إلى الروضة، فإذا بالظعينة، فقالوا أخرجي الكتاب. فقالت ما معي كتاب. فقالوا لئخرجن الكتاب أو لئلقين الثياب. فأخرجته من عقاصها، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا حاطبُ، ما هذا؟». قال يا رسول الله، لا تعجل عليّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قراباتٌ بمكة، يحمون بها أهلهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفوفاً ولا ارتداداً ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد صدقكم». قال عمر يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق - لإعتقاد عمر بكفر حاطب، وخيانتته لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم-. قال «إنه قد شهد بدرًا، وما يُدريك لعلَّ الله أن يكون قد اطلع على أهل بدرٍ فقال اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم». أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب الجاسوس، حديث رقم (٣٠٠٧)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، حديث رقم (٢٤٩٤)

٢. قصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعث للنبي صلى الله عليه وسلم من اليمن بذهبية في أديم مقروظ لم تُحصّل من تراهما، قال فقسمها بين أربعة نفر، بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخليل، والرابع إما علقمة، وإما عامر بن الطفيل، فقال رجلٌ من أصحابه كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء،

قال فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال «أَلَا تَأْمِنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَا بَنِي خَيْرِ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً». قال فقام رجلٌ غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلق الرأس، مشمر الإزار، فقال يا رسول الله اتق الله - وهذا القول تخوينٌ للنبي صلى الله عليه وسلم، وكفى به كفرًا وردة- قال «وَيْلَكَ أَوْلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ». قال ثم ولَّى الرجل. قال خالد بن الوليد يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ - وذلك لإعتقاد خالد بكفره لتخوينه النبي صلى الله عليه وسلم- قال «لَا، لَعَلَّه أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي». - وفي هذا أن من أقام الصلاة وشعائر الدين الظاهرة لا يُحکم بكفره- فقال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ أَنْ أَنْقَبَ قُلُوبَ النَّاسِ، وَلَا أَشَقُّ بَطُونَهُمْ». قال ثم نظر إليه وهو مقف فقال «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضَيْضِي هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا، لَا يُجَاوِزُ حَتَا جِرْهُمُ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السُّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». وَأَطْنَهُ قَالَ «لَئِنْ أَدْرَكْتَهُمْ لِأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ تَمُودَ». أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث علي وخاليد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم (٤٣٥١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم (١٠٦٤).

٣. قصة حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وعهده مع المشركين، يقول رضي الله عنه ما معني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حُسَيْلٌ، قال فأخذنا كفار قريش قالوا إنكم تريدون محمدًا؟ فقلنا ما نريده، ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لنعرفنَّ إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر، فقال صلى الله عليه وسلم - وفاءً بعهدهم مع المشركين، في ظروف تلك المعركة الفاصلة الحاسمة، مع شدة حاجته إليهم للقلة العددية للمسلمين - «أَنْصِرْفَا نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَتَسْتَعِينُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ». أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الوفاء بالعهد، حديث رقم (١٧٨٧).

٤. حديث أبي رافع رضي الله عنه قال بعثتني قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: فلما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وقع في قلبي الإسلام، فقلت يا رسول الله لا أرجع إليهم، قال "إني لا أخيس بالعهد، ولا أخيس البر، وأرجع إليهم فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع". أخرجه أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث أبي رافع رضي الله عنه، حديث رقم (٢٣٩٠٨). قال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح. والحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (٦٥٣٨).

٥. وفي صلح الحديبية عندما أملى المشركون شروطهم على النبي صلى الله عليه وسلم، وكان منها أن من أتى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرًا بإسلامه إلا رُدَّ عليهم، فقال المسلمون سبحان الله كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً، فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرُسْفُ في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل هذا يا محمد أول ما أفاضيك عليه أن ترده إلي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ». قال فوالله إذا لم أصلحك على شيء أبداً، قال النبي صلى الله عليه وسلم «فَأَجِزْهُ لِي». قال ما أنا بمجيزه لك قال «بَلَى، فَأَفْعَلُ».

قال ما أنا بفاعل، قال مكرز بل قد أجزناه لك، قال أبو حنبل أي معشر المسلمين أُرِدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِبَ عذاباً شديداً في الله. ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجلٌ من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين، فخرجوا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً فاستله الآخر، فقال أجل والله إنه لجيد لقد حربت به ثم حربت، فقال أبو بصير أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه «لَقَدْ رَأَى هَذَا دُغْرًا». فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال قتل والله صاحبي وإني لمقتول فجاء أبو بصير فقال يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم قال النبي صلى الله عليه وسلم «وَيْلُ أُمَّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم. والحديث بطوله أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٧٣١-٢٧٣٢). وهذا الخلق النبوي في حفظ العهد والوفاء به في أشد المواقف وأصعبها مع الكفار وضد المؤمنين وفي حال قوة المسلمين وقدرتهم، يدل على أن دين الله ليس رأياً يتغير بحسب الأهواء والرغبات، أو يتبدل بحسب الأفعال والمواقف، بل هو العدل في أدق تفاصيله، والوفاء بكل أشكاله وصوره، والأمن بكل المعاني والتشريعات، الذي يشمل كافة المخلوقات.

٦. حديث سهل بن أبي حثمة قال: انطلق عبد الله بن سهل ومُحَيِّصَةُ بن مسعود بن زيد إلى خيبر، وهي يومئذ صلح، فتفرقا، فأتى مُحَيِّصَةُ إلى عبد الله بن سهل وهو يتشحط في دمٍ قتيلاً، فدفعه ثم قدم المدينة، فانطلق عبد الرحمن بن سهل ومُحَيِّصَةُ وحويصة ابنا مسعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذهب عبد الرحمن يتكلم فقال «كَبْرٌ كَبْرٌ». وهو أحدث القوم، فسكت فتكلموا فقال «أَتَحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ أَوْ صَاحِبَكُمْ». قالوا وكيف نخلف ولم نشهد ولم نر، قال «فَتَبْرِيكُمْ يَهُودُ بِخَمْسِينَ». فقالوا كيف نأخذ إيمان قوم كفار، فعقله النبي صلى الله عليه وسلم من عنده. أخرجه البخاري، كتاب الجزية، باب المواعدة والمصالحة مع المشركين بالمال وغيره، وإثم من لم يف بالعهد، حديث رقم (٣١٧٣). وهذا الحديث يُبَيِّن كيف حفظ النبي صلى الله عليه وسلم العهد مع اليهود، ولم تدفعه الغيرة على قتل أحد من المسلمين ليأخذ بثأره وينقض العهد، فصلى الله وسلم على الصادق الأمين.

وهذا كله يُبَيِّن حرمة العهود وإثم من ينقضها ولا يعي حرمتها، بل إن نقضها سببٌ من أسباب حدوث الفتن والافتتال كما أخبر صلى الله عليه وسلم بقوله «مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ قَطُّ إِلَّا كَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُمْ». أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الجهاد، حديث رقم (٢٥٧٧). قال الذهبي: صحيح على شرط مسلم. وهذا الفهم والتصور إذا غاب عن عقل المسلم، فإنه يكون كما أخبر وحذر منه نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ثُمَّ مَاتَ، مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَعْضُبُ لِلْعَصْبَةِ وَيُقَاتِلُ لِلْعَصْبَةِ فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِي، وَمَنْ خَرَجَ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا لَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي بِذِي عَهْدِهَا فَلَيْسَ

المعتقد، واعتزازاً بالمبادئ، وهو ما يجعلها تتداخل مع الثقافات والشعوب بقوة اليقين وثبات الحق، فتعمل على الاختراق والتأثير والاستفادة والإفادة، وما حدث في خلافة عمر رضي الله عنه من فتوحات لأقاليم وبلاد، وأمم وحضارات خير دليل على التطبيق العملي لهذا المبدأ العظيم، حيث تم إخراجها من الظلمات إلى النور، والاستفادة من نظمها السياسية والاجتماعية والإدارية، في منظومة تكاملية وتفاعل إيجابي، حيث "كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبصر الناس بطبائع الشعوب، وأسباب ازدهارها واندثارها، وكيف تُبنى الدول، وتُصان، وتُنصر، وتؤدى رسالتها.. وسياسته في المال والحكم أمانة وعي عميق بالإسلام وغاياته..

لقد بدأ المسلمون رسالتهم العالمية بدايةً حسنة، فكانوا -أمةً ودولة- نموذجاً حسناً لتعاليم الإسلام، واستفادةً صادقةً من تاريخ الأمم الأولى".¹

لذا فإن مفهوم (الولاء والبراء) في التربية الإسلامية يقوم على استقلال العقل والروح، في تسامح إنساني قائم على العدل والإحسان والبر، على قاعدة الأصالة والثبات العقدي، ودعم كل سبب يحقق ذلك، والنهي عن كل سبب يؤثر فيه، لأن "في النفس الإنسانية ميلاً فطرياً -ناشئاً من تكوين الإنسان

مئي». سبق تخريجه ص ٣٠٤، فهذا الوصف النبوي ينطبق على الخوارج الذين نرى أفعالهم في واقعنا من خروج على ولاة الأمر، واقتتال تحت رايات وعصبيات وقوميات، وتكفير وتفجير، وإخفار للعهود والذمم، وتشويه لصورة الإسلام، وحقيقة الجهاد والولاء والبراء بأفعال وتصرفات شائنة، دافعها الحقيقي الثأر والانتقام، أو العداوة والحسد، أو الطمع والشهوة، أو الضلال والجهل، نسأل الله السلامة والعافية.

يقول سيد قطب رحمه الله عن المعنى الحقيقي للعصية الدينية التي هي أصل الولاء والبراء "هنالك عصية إسلامية... إنها ليست عصية الكراهة للأجناس الأخرى، فالأمة المسلمة خليطٌ من جميع الأجناس، ولا لأتباع دين معين، لمجرد أنهم لا يعتقدون الإسلام، إنما هي عصية الرغبة في اجتذاب البشرية كلها إلى الخير المشترك -بدون إكراه - وعصية الرغبة في تحقيق العدل الكامل لكل فرد وكل شعب وكل جنس، حتى لو بقي هؤلاء جميعاً على دياناتهم بعد استماعهم لدعوة الإسلام، لمجرد كونهم آدميين يوجب على الأمة المسلمة أن تحميهم من الظلم في كل صورة من صورهم، وأن تقيهم الفساد في أي شكل من أشكاله. ومثل هذه الأغراض وحدها كانت الحروب الإسلامية التي انبثقت من روح الإسلام، فإذا وقع في بعض الأحيان من بعض الجماعات الإسلامية أن كانت حرهم لغير هذه الأهداف بأن تدخل عنصر الرغبة في الاستغلال المادي، أو عنصر الإكراه على الدخول في الدين، أو أي عنصر آخر غير ما أسلفنا... فذلك انحرافٌ عن مثل الإسلام وأهدافه، يكرهه الإسلام ويكرهه أصحابه ولا يقرهم على عمل ولا نية... وقد كانت الأمثلة من هذا النوع قليلة على كل حال في تاريخ المسلمين". نحو مجتمع إسلامي،

١٤١٥هـ، دار الشروق القاهرة، ص ١٠١-١٠٣.

¹ محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص ١٤.

ذاته من جسد ظاهر وروح مغيب_ إلى اتخاذ أشكال ظاهرة للتعبير عن المشاعر المضمرة، فهذه المشاعر المضمرة لا تهدأ أو لا تستقر حتى تتخذ لها شكلاً ظاهراً تدركه الحواس، وبذلك يتم التعبير عنها، يتم في الحس كما تم في النفس، فتهدأ حينئذ وتستريح، وتفرغ الشحنة الشعورية تفرغاً كاملاً، وتحس بالتناسق بين الظاهر والباطن، وتجذ تلبية مريحة لجنوحها إلى الأسرار والمجاهيل وحنوحها إلى الظواهر والأشكال في ذات الأوان.

وعلى هذا الأساس الفطري أقام الإسلام شعائره التعبدية كلها... ومن هنا كذلك كان النهي عن التشبه بمن دون المسلمين في خصائصهم، التي هي تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة كالنهي عن طريقتهم في الشعور والسلوك سواء، ولم يكن هذا تعصباً ولا تمسكاً بمجرد شكليات، وإنما كان نظرة أعمق إلى ما وراء الشكليات، كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة، وهذه البواعث هي التي تفرق قوماً عن قوم، وعقلية عن عقلية، وتصوراً عن تصور، وضميراً عن ضمير، وخلقاً عن خلق، واتجاهاً في الحياة كلها عن اتجاه... نهي عن تشبه في مظهر أو لباس، ونهي عن تشبه في حركة أو سلوك، ونهي عن تشبه في قول أو أدب؛ لأن وراء هذا كله ذلك الشعور الباطن الذي يميز تصوراً عن تصور، ومنهجاً في الحياة عن منهج، وسمّة للجماعة عن سمّة.

ثم هو نهي عن التلقي من غير الله ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتحقيقه في الأرض، نهي عن الهزيمة الداخلية أمام أي قوم آخرين في الأرض، فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هي التي تندسس في النفس لتقلد هذا المجتمع المعين، والجماعة المسلمة قامت لتكون في مكان القيادة للبشرية، فينبغي لها أن تستمد تقاليدها_ كما تستمد عقيدتها_ من المصدر الذي اختارها للقيادة، والمسلمون هم الأعلون، وهم الأمة الوسط، وهم خير أمةٍ أخرجت للناس، فمن أين إذن يستمدون تصورهم ومنهجهم؟ ومن أين إذن يستمدون تقاليدهم ونظمهم؟ إلا يستمدوها من الله فهم سيستمدونها من الأدنى الذي جاءوا ليرفعوه!¹.

فمفهوم (الولاء والبراء) تربوي شرعي، واعتقادٌ قلبي يزرع في النفس الثقة والسعادة والطمأنينة، ويغذيه بماء اليقين، ويجعله سياجاً للقيم والمبادئ، ومعياراً لمدى التمسك بها، والثبات عليها، وبه تظهر آثار تحمل المسؤولية وأدائها على الوجه المطلوب تجاه الدين والأسرة والمجتمع والوطن والأمة والبشرية، وهو يهدف إلى نبذ التعصب والعدوان بكل أشكاله وصوره، يقول تعالى ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة يونس، آية: ٤١)،

¹ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ١٢٧-١٢٩.

ويجعل النفس والفكر تحلقان في فضاء الحرية الرباني بسلوكٍ متسامحٍ أخلاقي في حال الانتصار والقوة، وفي حال الانهزام والضعف.

وهذا المفهوم جسده الصحابي الجليل كعب بن مالك رضي الله عنه¹ في صورة واقعية، وتطبيق حي في حادثة المقاطعة الاجتماعية بسبب صدقه في اعتذاره عن تخلفه عن غزوة تبوك، وحينما اشتدت عليه المقاطعة بالأمر باعتزال زوجته عنه، وطول المدة، جاءته رسالة شخصية من ملك غسان يخاطبه فيها بتوددٍ وتلطفٍ ويعرض عليه النصرة والمولاة بقوله (بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك) فهل فكر؟ أو تردد؟ أو شاوَر؟ ما كان منه رضي الله عنه إلا أن يَمَّ بِهَا التَّنُورَ وأحرقها فيه، وقال رضي الله عنه: وهذه من البلاء، حتى أتمَّ خمسين يوماً لا يكلمه ولا يسلم عليه فيها أحد، حتى وصف الله تعالى حاله ومن معه بقوله ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة التوبة، آية: ١١٨)، قال ابن حجر معلقاً على قصة كعب رضي الله عنه "دل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبهته لله ولرسوله وإلا فمن صار في مثل حاله من المهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره ولا سيما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يُكرهه على فراق دينه لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان حسم المادة وأحرق الكتاب ومنع الجواب... ورجح ما هو فيه من النكد والتعذيب على ما دُعي إليه من الراحة والنعيم حباً في الله ورسوله كما قال صلى الله عليه وسلم «أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»²، فهذا السلوك الصادق لا يكون إلا من قلبٍ تأصل على الولاء والبراء بثباتٍ ومحبةٍ وإخلاص، وبتربيةٍ واعيةٍ روحانية، وبفهمٍ ومعرفةٍ عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

¹ قصة كعب بن مالك أوردتها البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، حديث رقم (٤٤١٨)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٤١١-٤١٤.

² أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم (١٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حصال من اتصف بمن وجد حلاوة الإيمان، حديث رقم (٤٣). والحديث عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَدَّفَ فِي النَّارِ»، واللفظ للبخاري.

³ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٨، ص ١٥٢.

إن مفهوم (الولاء والبراء) في التربية الإسلامية قائمٌ على المعرفة القلبية بذوقٍ وجدانيٍّ وبمحبّةٍ وإجلالٍ وتعظيمٍ، وإرادةٍ عمليةٍ نابعةٍ من إدراكٍ علميٍّ مؤصلٍ بالهدي النبوي القائل فيه صلى الله عليه وسلم «مَنْ أَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ وَأَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَنْكَحَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»^١، ويقول ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنه «أحب في الله، وأبغض في الله، ووال في الله، وعاد في الله، فإنما تنال موالاة الله بذلك، ولن يجد عبداً طعم الإيمان ولو كثرت صلواته وصومه حتى يكون كذلك، ولقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي عن أهله»^٢، فهذا حال التابعين، فكيف بحالنا اليوم؟!، فالطريق الوحيد لتربية القلوب على هذا المعتقد يكون بتعريفها وتعليقها بالله تعالى لتصل وتنال ما عند الله، يقول عالم القلوب الرباني ابن القيم رحمه الله "فذخائر الله وكنوز البر ولذة الأنس والشوق إليه والفرح والابتهاج به، لا تحصل في قلبٍ فيه غيره، وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم، فإن الله سبحانه أرى أن يجعل ذخائره في قلبٍ فيه سواه، وهيمته متعلقةً بغيره، وإنما يودع ذخائره في قلبٍ يرى الفقر غنىً مع الله، والغنى فقراً دون الله، والعز ذلاًً دونه، والذل عزاًً معه، والنعيم عذاباًً دونه، والعذاب نعيماًً معه.

وبالجملّة، فلا يرى الحياة إلا به ومعهم، والموت والألم والحزن والغم والحزن إذا لم يكن معه، فهذا له جنتان: جنةٌ في الدنيا معجلة، وجنةٌ يوم القيامة"^٣.

بهذا العلم وبهذا الفهم وبهذا التطبيق لهذا المعتقد الذي يزرع في النفس المحرك والدافع لعمل كل ما يحبه الله ورسوله، وإيثاره على كل شيء، والبعد عن كل ما يبغضه الله ورسوله، والتضحية بكل شيء، كل ذلك استقلالاً عن حظوظ النفس وأهوائها وأطماعها وشهواتها يقول تعالى ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ٩)، وإيماناً وتصديقاً وعملاً بقوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٢٤)، وهذا الاستقلال والثبات قدّمه عبد الله بن

^١ أخرجه الحاكم في مستدرکه، كتاب النکاح، حدیث رقم (٢٦٩٤). قال الذهبي: صحیح علی شرط الشیخین ولم یخرجاه.

^٢ محمد بن یحیی بن أبی عمر العدنی: الإیمان، ت: حمد حمدي الحری، ١٤٠٧هـ، الدار السلفية، الكويت، باب وجوب الموالاة فی الله والبغض فی الله، رقم (٥٦).

^٣ ابن القيم، الفوائد، ص ٢٣٨.

حذافة السهمي رضي الله عنه^١ في موقفه الرهيب المشهور أمام ملك الروم حينما أُسر مع من أُسر من المسلمين، وعرض عليه ملكهم أن يُعطيه نصف ملكه إن ارتدَّ عن دينه وتنصَّر، فما كان جوابه رضي الله عنه إلا أن قال: والله لو أعطيتني ملك العرب والعجم على أن أترك ديني طرفة عين ما فعلت ذلك!

بهذه التربية استطاع الثبات أمام المغريات!، وفي واقعنا وتربيتنا يتساقط الناس أمام القليل من الرشاوى أو المال الحرام! ثم تمضي تفاصيل القصة لثبِّين ثباته أمام الشدائد والصعوبات حينما أمر به فصُلب، وجعل الرماة يرمون حوله ولا يصيبوه، ثم يعرض عليه النصرانية فيأبى، فأنزله وأمر بقدر كبير مُلئت بالزيت وأوقدت من تحتها النار حتى غلت القدر، فأُتي برجلٍ من أصحابه وعرضوا عليه الكفر أو يُلقى في النار، فأبى فأُلقي فيها، يقول عبد الله بن حذافة رضي الله عنه: فو الله ما غابت عيني عنه حتى رأيت عظامه تطفو على الإناء، قال: ثم أُتي برجلٍ آخر فعرضوا عليه الكفر فأبى فُقذف فيها، يقول: فو الله ما غابت عيني عنه حتى رأيت عظامه تطفو على الإناء، قال: ثم جاء دوري، فعرضوا عليّ مثل ما عرضوا على صاحبيّ فأبى رضي الله عنه، فلما أرادوا أن يأخذوه بكى رضي الله عنه، وفرحوا ظناً منهم أن هذا بقاء الهزائم والتراجع، فقال له الملك: هل تراجعت؟ _ولو تراجع لعُذر_ قال: لا، قال: فهل تبكي خوفاً؟ قال: لا، قال: وما يبكيك إذا؟ فقال رضي الله عنه بلسانٍ ينطق من قلب تربي على معاني الولاء والبراء الحقيقية، أبكي أنني لم أقدم لله إلا نفساً واحدة، وكنت أتمنى أن لي أنفساً بعدد شعر جسدي أقدمها له واحدة تلو الأخرى!! ثباتٌ على الحق، واعتزازٌ بالمبدأ، واستقلالٌ وقوةٌ في الحق لم تتأتى من تربيةٍ قائمةٍ على الانطواء والانزواء، أو التوجُّس والارتياب.

وهذا المعنى في التربية وهو البدء بتربية القلوب على معرفة الله ومعرفة رسوله صلى الله عليه وسلم وتغذية القلب في قوته العلمية الإدراكية _مصدر التأثير والقوة والتصورات_ سبق الإشارة إليه في الفصل الرابع في معنى العقل ومكانه، وهو المبدأ الذي بذل فيه النبي صلى الله عليه وسلم أكثر حياته الدعوية في العهد المكي ليتأصل في النفوس وترتبي عليه الأمة جيلاً بعد جيل، حيث كان العهد المدني حافلاً بالتشريعات والأحكام وكانت النفوس مقبلةً عليها مطبقةً لها بدون ترددٍ أو شك؛ لأنها تربيةٌ

^١ وفي تفاصيل القصة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث جيشاً إلى الروم وكان فيهم عبد الله بن حذافة رضي الله عنه وأسر وكانت له تلك القصة العجيبة، حتى قال ملك الروم: قَبِلَ رأسي وأنا أُحلي عنك، فقال رضي الله عنه: وعن جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فقَبِلَ رأسه، فخلّلى بينهم، وقدم بالأسرى على عمر، فأخبره خبره. فقال عمر: حقٌ على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة، وأنا أبدأ، فقَبِلَ رأسه. انظر: ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤، ص ٥٠-٥٣، وشمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١١-١٦.

خاطبت القلوب قبل الجوارح والسلوك، وعرفتھا قيمة الشارع الحكيم قبل بيان الشرع، فأثرت بشاشة للإيمان خالطت شغاف القلوب^١.

ولكن التطبيق الخاطئ لهذا المفهوم صورہ جداراً فاصلاً بين الإسلام والكفر، وانعزالاً عن الأمم والحضارات، وسلاحاً لزرع الفتن والحروب، ونشر الكراهية والأحقاد، والقسوة والغلظة في التعامل والأخلاق، وسبباً للانبهار والانسلاخ والانتكاس، وتنفير الناس من دين الله، وشعاراً للحكم بالكفر على عباد الله^٢، وباباً للخروج على الأئمة والولاء، وطريقاً لضرب وحدة المسلمين وتشتيت جماعتهم، وهو ما يخالف مقاصد الدين، وتشريعاته الربانية.

ولتحقيق مبدأ الاستقلالية في المجتمع لابد أن يقوم على ثلاث ركائز تربوية:

١. استقلال الفرد:

التربية الإسلامية جاءت باستقلال تربوي فريد، استقلال الفرد في فكره ورأيه، ودينه ومذهبه، فلا إكراه أو تعدي، ولا استعباد أو تسلط على مبدأ قوله تعالى ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (سورة غافر، آية: ٢٩)، إنما هو استقلالٌ يزيل القيود والأغلال، ويُزيح العوائق والآصار التي تعيق قدرات العقل عن العمل - من تبعية لهوى أو شهوة أو فكرٍ أو شخصٍ أو عادة -، وتُعطي أدوات المعرفة والعلم حتى يستطيع أن يُميز وينظر ويختار، وكما قيل فإن العقل البشري كالمظلة يعمل أفضل إذا كان مفتوحاً، وهذه الاستقلالية تجعل الفرد أكثر قابلية للصواب، وأوضح في تصور الحق، وأقدر على اتخاذ القرار، وأنفع وأقوى في السلوك، وأثبت على المبادئ والقيم، وإلا فلا فائدة ولا نفع ولا ثبات لفردٍ تبعي في فكره وسلوكه.

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعثهم الله تعالى بهذا المبدأ العظيم لمعرفة الحق سبحانه وتعالى والوصول إليه بكل وضوحٍ وجلاء، وإزالة حجب التبعية التي تسيطر على عقول الناس وتمنعهم من الرؤية أو التفكير والتدبر والتعقل، يقول تعالى في تنزيههم وبيان مهمتهم ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ

^١ انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري، الكتاب إلى قيصر ملك الروم، ص ٤٢٠-٤٢٣. حيث ذكر قصة أبو سفيان مع هرقل ملك الروم، وما دار بينهما من أسئلة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكان منها أن سئل هرقل أبا سفيان عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هل يرتد أحدٌ منهم سخطاً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو سفيان: لا، فقال هرقل: كذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

^٢ هذا مذهب طائفة الخوارج الذين يكفرون مرتكب الكبيرة، ويعدون الولاء والبراء ركناً سادساً من أركان الإسلام.

تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ (سورة آل عمران، الآيات: ٧٩-٨٠)، ويقول تعالى عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام محاوراً قومه ليستقلوا بعقولهم عن تبعية الآباء ﴿وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿(سورة الشعراء، الآيات: ٦٩-٧٤)، ويقول تعالى عن موسى عليه السلام محاوراً فرعون وقومه كي يستقلوا بعقولهم عن تبعية فرعون ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ الْهَذَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (سورة الشعراء، الآيات: ٢٣-٢٩)، وهذا قانون كل من يحارب استقلال الأفراد والمجتمعات ويسعى لتثبيت التبعية وترسيخ قيمها.

والتربية الإسلامية قائمة على الحرية الفكرية التي أسسها نبي الهدى صلى الله عليه وسلم، وبعث بها ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ظلمات التسلط والعبودية للأشخاص والأصنام والماديات، وتقيد حرية الفكر بالعادات والآبائية والهوى، فجاء المنهج الرباني الواضح لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد بدون إكراه أو إجبار، إنما بجرية في أسمى معانيها، وأجمل وأرقى صورها. واستقلال الفكر وحرية الرأي هما المحرك للإنسان نحو الحقيقة، والدافع له نحو التضحية والثبات، حيث تجعل الفرد يمر بتجربة ذاتية، تكسبه الإيجابيات قوة والسلبيات خبرة، وتمنحه التجارب مناعة، والأحداث عزيمة، وتصهر المواقف والأفكار معدنه فيما أن ينجلي عن ذهب خالص، أو تبر زائف، ومصداق ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «نُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًّا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ»^١، وهذا حال سلمان الفارسي رضي الله عنه حينما تحرر عقله واستقل من أسر التبعية للآباء والمعتقدات القائمة في مجتمعه، هداه نور العقل

^١ سبق تخرجه ص ١١٣.

إلى نور الإسلام، فاجتمع نورٌ على نور، ويقينٌ على يقين، وانتقل من خادمٍ للنار إلى مرتبة «سلمان منا أهل البيت»^١.

وهكذا تُبنى الأجيال، ويُنشأ الأفراد على الاستقلال منذ الطفولة، بدايةً من اختيارهم لأغراضهم الشخصية، إلى التعامل الراقي الذي يبني الثقة، ويُعزز الذات، ويُجيب على التساؤلات، وإلى تربيتهم على استشعار ممارسة العبادات من صلاة وصيام وزكاة... وأنها في حقيقتها تربيةٌ على استقلال النفس عن رغباتها وشهواتها وأهوائها، حتى يكونوا في المستقبل جيلاً ناقداً بصيراً، ومفكراً قوياً، ومنتجاً عاملاً، وهو حال الأفراد في عصور النهضة الإسلامية حين كانوا أفراداً قادرين على المواجهة الفكرية بالبحث والتحليل، والنقد والتصحيح، وإذا لم يترتب عليها الأفراد منذ الصغر، وتولى تلك المهمة طبقةٌ في المجتمع نيابةً، أو وصايةً عنهم حال الكبر، فلا تسأل عن تأثير الغزو الفكري الذي يكون سلاحاً قوياً موجهاً إلى أفرادٍ مستسلمين فكرياً، يسهل اختراق أفكارهم وعقولهم، والتأثير فيها، وتغيير مسارها؛ لأن قدرات العقل قد سُلبت بتبعيةٍ بغيضة، وأهواءٍ مُتَّبعة، يقول تعالى حاكياً عن حال قوم هود عليه السلام في طريقة تفكيرهم، وحقيقة عقولهم ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ (سورة الأعراف، آية: ٧٠)، "إنه مشهدٌ بائسٌ لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول، هذا الاستعباد الذي يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصيلة: حرية التدبر والنظر، وحرية التفكير والاعتقاد، ويدعه عبداً للعادة والتقليد، وعبداً للعرف والمألوف، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور"^٢، وهذا حال الأمة الإسلامية حين اتخذت التبعية طريقاً لها، يقول المبارك واصفاً ذلك الواقع "وقد ضعف التفكير العلمي، وتوقف المسلمون في كشف سنن الكون، وأعرضوا عن ذلك إعراضاً يكاد يكون تاماً، فأهملت علوم الكون أو الطبيعة، بل انتشرت الخرافات والأساطير، وضعف التفكير في الأسباب ومعرفتها، حين أن الأمية انتشرت انتشاراً كبيراً بين المسلمين بعد أن كان الإسلام دافعاً إلى إزالتها، وإلى نشر العلم والتعليم، واكتشاف آيات الله في الكون، وازدهار العلوم الكونية، ومال الناس ميلاً عظيماً إلى ذكر الخوارق والكرامات تعظيماً لمن يعتقدون بهم"^٣.

^١ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ذكر سلمان الفارسي رضي الله عنه، حديث رقم (٦٥٣٩).

^٢ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٣١١.

^٣ المبارك، المجتمع الإسلامي المعاصر، ص ٥٤.

فالتربية الإسلامية من بين سائر التربيّات تبني الأفراد على الحرية الفكرية القائمة على النظرة الإصلاحية المنضبطة باحترام حقوق الآخرين ومقدساتهم^١، والفكر العقلاني القائم على المبادئ والقيم، والثبات العقدي المنضبط بهدي الكتاب والسنة؛ لأنها مبنية على اليقين والصحة، والثبات والتجدد، فإذا أُصلت في النفوس تأصيلاً صحيحاً واعياً فلا خوف على صاحبها من الضياع أو التشتت ذلك أن "من واجبات التربية أن تعصم النشء من غموض الهوية، ومن تصارع الهويات، أو من أزمة الهوية، ناهيك هم ذوبان الهوية، ومن واجبات التربية أن تختصر الوقت الذي يحتاجه الشباب لبلورة هويتهم وتوكيد انتمائهم ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٣٢)"^٢، وإذا لم تؤصل هذه التربية في النفوس أصبحت تابعة لغيرها إما هوى أو فكراً أو شخصاً أو توجهاً، لها في كل يوم شأن، وفي كل حال أمر، ومثلها لا يُبنى به مجتمع، ولا يُحمى به وطن، ولا تُصنع به حضارة، وهذا ما جعل اليابان تقرر عقب هزيمتها العسكرية، واستسلامها غير المشروط، إعادة نظرتها في مفهوم النصر الحقيقي، وهو استقلال عقل الفرد على المعرفة والعلم، يقول الدكتور حسين حمادي في كتابه الشيق (إلى البحث عن طريق آخر وقرار جديد) وكان أساس هذا القرار الجديد أن الحل يقع داخل حدود اليابان، وأنه مرتبط بالإنسان الياباني وبالعقل الياباني، ومن هنا جاء دور النظام التعليمي في اليابان لكي يأخذ القرار القومي ويصبه بكل قوة في عقل إنسان اليابان الجديد، ومن ثم انتهى إنسان اليابان بعد الحرب العالمية الثانية إلى أن القرار القومي يكون بالتوسع الرأسي من خلال إنسان اليابان وعقله، وليس بالتوسع الأفقي باستخدام السلاح الياباني... يقول "إدوين آشاور" في كتابه "اليابانيون" إن سر نهوض اليابان هو المورد البشري وتنمية هذا المورد العظيم^٣.

أما تبعية العقل والفكر فإنها لا تُخرج إلا أفراداً في خانة الأصفار، لا قيمة لهم في المجتمع، يحملون ثقافة الأوهام والأحلام، ويسلكون مسلك العجز والكسل، ويتبعون كل ناعق، ويصدق عليهم إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن أمته في آخر الزمان وكثرة عددهم المادي بقوله «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى

^١ الحرية الحقة في التربية الإسلامية هي التي تحترم الحقوق والمقدسات ولا ترضى فضلاً عن أن تعتدي على الآخرين في معتقداتهم أو مقدساتهم عملاً بقوله تعالى ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٠٨).

^٢ مجلة المعرفة، العدد (١٧٣)، مقال "ذو الحضارتين رشدي فكار"، محمد الصاوي، ص ٩٨.

^٣ مجلة المعرفة، العدد (١٧٣)، مقال "التجربة اليابانية.. نموذج الترقى بعد التردى"، حسن البائع عبد العاطي،

عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا». قال قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ قال «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُنَاءً كَغُنَاءِ السَّبِيلِ...»^١، فالجتماع بحاجة للفرد المستقل فكرياً أكثر من حاجته إلى ملايين الأتباع؛ لأن المجتمع الذي يُبني أفراده في كافة المجالات الدينية والعلمية والسياسية والاقتصادية والعسكرية... على استقلال الفكر من التبعية فإنه يقوم على قاعدة قوية من عوامل البناء والقوة والنهضة به في كافة المجالات، بينما المجتمع التبعية لا يجني إلا صوراً كربونية من الذل والضعف والعجز، والمنافسة في الاستبداد والسيطرة، وتوسيع دائرة النفوذ والأتباع، الذي هو بداية النهاية والهلاك، والقرآن الكريم غني بتلك الصور التي "يحاول أصحاب الحضارات المنحرفة التمسك بتقاليد الآباء وموروثات الأجداد، رغبة منهم في الحفاظ على المكاسب المادية الجاهلية الرخيصة التي يتمتعون بها، دون النظر إلى أحقية أو بطلان هذه التقاليد والموروثات، مما يؤدي إلى الانهيار الحضاري في نهاية المطاف"^٢.

٢. استقلال الفكر:

استقلال الأمة لا يكون إلا بثورة علمية^٣ وانقلاب فكري يقود إلى النهضة والتقدم والريادة في كافة المجالات، وتحقيق العدالة والكرامة لكافة الطبقات، أما الاستقلال عن طريق الثورات المدنية أو الانقلابات العسكرية فلم تزد الأمة إلا ضياعاً وشتاتاً وغوغائية، وتحقيقاً لمصالح فئات على دماء ومعاناة الشعوب، والتي غطت أطماعها بالعواطف الجياشة، والشعارات المزيفة، وقادتها بالاستعباد الفكري، والاستبداد السياسي، والقهر الاجتماعي، والفساد المالي، فكانت النتيجة جهلاً وضعفاً، قادت إلى التبعية والانقياد.

^١ أخرجه أحمد، باقي مسند الأنصار، من حديث ثوبان رضي الله تعالى عنه، حديث رقم (٢٢٤٥٠). قال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

^٢ أبو شبانة، النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، ص ٣٥٣.

^٣ الثورة العلمية في حقيقتها نوع من الاستنارة العقلية التي تمثل نقلة نوعية للبشرية من مرحلة إلى أخرى أرقى منها، لكن ما معيار الرقي المقصود هنا؟ إنه تحقيق للمزيد من قوة العقل على حساب انحسار لقوة الخرافة. وتكمن قوة العقل في المعرفة (knowledge) وبالتالي في اكتساب القدرة على الفعل. وهنا تصبح المعرفة كما قال عنها فرانسيس بيكون أنها تعادل القوة. إذن الثورات العلمية الكبرى في جوهرها ثورات عقلية معرفية تزيد من قوة الإنسان. انظر: مجلة المعرفة، العدد (١٧٥)، شوال ١٤٣٠هـ، وزارة التربية والتعليم، المملكة العربية السعودية، مقال "كيف يمكن للمدرسة أن تقود المجتمع للمستقبل"، عبد اللطيف محمود محمد، ص ٥٧.

ومفهوم التربية الإسلامية لاستقلال الفكر يقوم على أساس المعرفة والحقيقة^١ بالدليل العلمي أو البرهان العقلي في جو من الحرية الفكرية، وهو ما يجعلها تربيةً واقعيةً عقلانيةً، تُخلق في فضاء الحرية ابتغاء الحقائق والصواب، والنفع للبلاد والعباد، لا على حرية الفوضى الأخلاقية، أو تبعية العواطف والشهوات والرغبات، أو إثارة النعرات والعداوات، ولكن أخذ الحقائق والمعارف من أي مصدر، وإنصاف عموم البشر فيما عندهم من علمٍ ومعرفةٍ وحقيقة، وإحداث حراكٍ ثقافيٍّ اجتماعيٍّ يحول ثقافة وتفكير المجتمع من الجمود إلى الديناميكية^٢ كما يُعبر عنه علماء الاجتماع، وهذا ما يجعل المجتمع آخذاً بمفاتيح التقدم والتطور من جميع الثقافات والمجتمعات، "فليس البحث عن الحكمة التي ينطق بها الآخرون تبعية، بل هو انفتاحٌ منضبط، وإفادةٌ واعيةٌ قائمةٌ على التحليل والنقد والتمحيص"^٣، وهذا

^١ وهذا المبدأ هو الذي قامت عليه التربية في اليابان، وهو ما أحدث فيها التقدم والتطور التكنولوجي، جاء في أهداف التربية في القانون الأساسي للتعليم في اليابان "النمو الكامل لشخصية الفرد من أجل رفعة وتقدم الأفراد وتنمية حب الحقيقة والعدالة، وتقدير قيمة الآخرين، واحترام العمل، وتعميق شعور تحمل المسؤولية، والاعتماد على النفس والاستقلال، وكذلك تنمية الثقافة من خلال الاحترام المتبادل والتعاون...". مجلة المعرفة، العدد (١٧٣)، مقال "التجربة اليابانية.. نموذج الترقى بعد الترددي"، حسن البائع عبد العاطي، ص ٧٥.

^٢ يميل علماء الاجتماع إلى تقسيم الثقافات وفقاً لحركة الثقافة وتغيرها إلى نوعين هما: الثقافة الديناميكية (Dynamic Culture)، والثقافة الجامدة (Static Culture). الثقافة الديناميكية: هي الثقافة المتغيرة التي يكون التغيير الاجتماعي فيها سريعاً وعميقاً ومتسعاً، فالتغيرات الثقافية كثيرة العدد ومتنوعة، والثقافة الديناميكية تعيش الأحداث والتطورات المختلفة، ويستمتع الأفراد فيها بحرية التعبير والتفكير والرأي، وهي ثقافة مرنة تنظر إلى المستقبل بإعتباره أفضل من الحاضر، ولذلك تهتم بالشباب اهتماماً بالغاً لأنهم جيل المستقبل الذي يعتمد المجتمع على حيويتهم وقدراتهم وعطاءاتهم فتهبى لهم الوسائل المختلفة التي تساعدهم على القيام بدورهم في الحياة، كما أنها تؤمن بالأسلوب العلمي في التفكير وبالتجريب، وتنظر إلى العادات والقيم والتقاليد بمنظار من باعتبارها جوانب في المجتمع تتغير بتغير الظروف وتتغير الزمن. والثقافة الجامدة: هي الثقافة الراكدة التي لا نجد لها إتجاهاً للتطور أو حماساً للإصلاح وتتركز الآمال في هذه الثقافة حول إهتمامات معينة ومحدودة مثل: الزواج وإنجاب الأطفال، ومستوى جيد من الطعام، وإخضاع الأفراد للقانون الأخلاقي السائد في الجماعة دون اهتمام الأفراد بتغيير الظروف البيئية التي يعيشون فيها، وفي الثقافة الجامدة يصبح التركيز على أخلاق الفرد لا على الأخلاق الاجتماعية، ويقل التجريب، ويصبح الاتجاه العام هو قبول الماضي، ولذلك فإن الجيل المفضل في الثقافة الراكدة هو جيل الكبار الذي يمتلك العقل والحكمة نتيجةً لخبرتهم المستمدة من السنين الماضية، وتنظر الثقافة الجامدة بعين الشك نحو جدوى التغيير، ولذلك نجد أن أنماط وقواعد السلوك تشكل تشكياً تفصيلاً دقيقاً وتسيطر العادات والقيم الأخلاقية على أنماط سلوك الأفراد سيطرةً تُدغم الجمود والركود. انظر: الخطيب، أصول التربية الإسلامية، ص ٩٥-٩٦.

^٣ الحدري، منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، ص ٤١٥.

المفهوم للاستقلالية هو الذي جعل نظام القيم الياباني نودجاً يُحتذى لكيفية التعاون الوثيق بين الدين والدولة على قاعدة الانفتاح التام على جميع الثقافات والأديان^١، وهو ما جعل أوروبا تتور على الكنيسة ورجالها حينما تسلط البابوات على المجتمع وحرّموا العلوم التجريبية - كي يبقى الفكر والعقل تابعاً - بدعوى أنها سحر، وانزلوا عقوبة القتل بأبشع الصور إما حرقاً أو شنقاً على كل من فكّر أو ابتكر، وحاربوا الحقائق وصادروا الحريات ونهبوا الأموال واستعبدوا العباد وعاثوا في الأرض الفساد، كل ذلك بعاطفة الدين وأطماع الذات وبمشيئة الرب المزعومة، إلى أن قامت الثورة الفرنسية وعزلت الدين المسيحي عن الحكم وأمور الدنيا فيما يسمى بالعلمانية^٢، وهذا الحال ينطبق على كل مجتمع تغيب فيه الحرية الفكرية، ويُسيطر عليه أديان الصلاح والإصلاح المتلبسين بلباس الدين والورع، أو الفكر والثقافة، قائلين ما قاله فرعون في قوله تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (سورة غافر، آية ٢٦)، ولكن حكمة الله ومشيتته حالت دون هدفه وغايته، فقام نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام بتبديد ظلام الاستعباد، وجو العبودية، بفكر الحقيقة، ودليل العقل، وبرهان الشرع، فكانت النتيجة كما قال تعالى ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إِنَّا أَمْنَا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (سورة طه، آية: ٧٢-٧٣).

والتربية الإسلامية تتميز بأنها تربية قائمة على استقلال الفكر وتجريده من جميع المؤثرات التاريخية، أو الخلافات المذهبية، أو التطبيقات الجزئية؛ لأن نصوص الكتاب والسنة قواعد وكتليات جاءت مجردة عن الوقائع - أي لم تكن خاصة بتلك الوقائع -، إنما هي عامة لكل واقعة تشبهها - لم يرد فيها نص من كتاب أو سنة -، أو مقياساً لكل واقعة تشترك في علتها، أو شبهاً ونظيراً لكل واقعة قريبة منها، وهذا ما يميز التشريع الإسلامي، ويهيئه للعالمية، وإمكانية التطبيق في كل مكان وزمان بمرونة ويسر وسهولة، وهذا ما يُسمى في الفقه الإسلامي بالاجتهاد^٣، الذي يشمل كافة المجالات في العقيدة، وفي

^١ مجلة المعرفة، العدد (١٢١)، ربيع الآخر ١٤٢٦هـ، وزارة التربية والتعليم، المملكة العربية السعودية، مقال "اليابانيون ينسون الماضي.. مصافحة الآخر ب(القوة الناعمة)"، مسعود ضاهر، ص ٥٤.

^٢ انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ط ٧، ١٩٧٨م، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ج ١، التاريخ السياسي، ص ٣٣٨-٣٩٤.

^٣ الاجتهاد في اللغة: بذل الوسع، وفي الاصطلاح: استفراغ الفقيه الوسع ليحصل له ظن بحكم شرعي، وبذل الجهود في طلب المقصود من جهة الاستدلال. الجرجاني، التعريفات، باب الألف، ص ٢٣-٢٤.

النظر والاستدلال، وفي السلوك الفردي والاجتماعي، وفي فضح المناهج والاتجاهات والأوضاع والمبادئ والسبل المخالفة للإسلام^١، فهذا الفكر التجديدي يحتاج إلى إعادة فتحه وفق آلياته وحيويته ليكون اجتهاداً حقيقياً شاملاً - لا صورياً أو جزئياً - يُعالج ويُصحح، ويُعيد التوازن والصفاء والحقائق لتصورات الشرع في نظرتهم، واستفادته من الماضي، ومطابقتها ومواكبته للواقع، واستشرافه وتطلعه للمستقبل، وفي تأثيره على العقول والقلوب ابتداءً من لغة ومفردات الخطاب الديني، وطريقة العرض والإلقاء، إلى القضايا الكبرى.

والإسلام بهذه المنهجية المتجددة يدفع إلى التطور والتغيير، والتنوير والعلم، على قاعدة الأصالة والثبات، فهو كالمظلة التي تستوعب كل حركة إصلاح، أو تجديد، أو تغيير، أو ثورة علمية وحضارية موافقة للعقل والمنطق، بعكس الأديان والمناهج الأخرى التي تتغير وتتبدل من أصلها بحسب الظروف والأحوال، ففي أوروبا كان منهج الكنيسة يعادي التطور والتغيير فتبدل الحال بمنهج آخر مضاد قائم على نظرية الحتمية التي هي أساس الدارونية^٢، ومنطق النهضة الغربية^٣، فهي تنقض الإيمان

^١ انظر: المانع، القيم بين الإسلام والغرب، ص ٣١٠-٣١١. ذكر مجالات التجديد والاجتهاد في تلك المجالات بالتفصيل. ومن تلك المجالات الاجتهاد في الفتوى الذي ينبع من أسباب توجب تغيير الفتوى بضوابط شرعية، فمن تلك الأسباب: النظر في المال، وتشريع حكم لحالة زمنية ربما يُفهم أنه حكم مؤبد، والاستثناء للحاجة، والتأجيل في التطبيق دفعاً للضرر، وعدم وجود المصلحة في تطبيق الحكم أو ما شرع الحكم له قد تغير، والسياسة الشرعية. ومن ضوابط تغيير الفتوى: أنها تتغير على أصول شرعية وعلل مرعية ومصالح جنسها مراد الله عز وجل ورسوله، والاعتماد على نظر الفقيه المجتهد في مدارك النظر الأحكام، واعتبار المصالح الشرعية المعنوية لا بحسب الهوى والتشهي، اقتصار الفتوى على المتخصصين في العلم الشرعي وأهل الاجتهاد والفتوى منه، يقول ابن القيم في أنواع المفتين "أحدهم العالم بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة، فهو المجتهد في أحكام النوازل، يقصد فيها موافقة الأدلة الشرعية حيث كانت، ولا ينافي اجتهاده تقليده لغيره أحياناً، فلا تجد أحداً من الأئمة إلا وهو مقلد من هو أعلم منه في بعض الأحكام، وقد قال الشافعي رحمه الله ورضي عنه في موضع من الحج: قلته تقليداً لعطاء، فهذا النوع الذي يسوغ لهم الإفتاء، ويسوغ استفتائهم ويتأدى بهم فرض الاجتهاد". انظر: عامر سعيد الزبياري: مباحث في أحكام الفتوى، ١٤١٦هـ، دار ابن حزم، بيروت، ص ٩٣-٩٨، ومجلة البحوث الفقهية المعاصرة (فصلية)، العدد (٣٥)، ١٤١٨هـ، مقال "تغير الفتوى.. مفهومه وضوابطه"، عبد الله حمد الغطيميل، ١٤١٨هـ، ص ٢١-٢٢، وابن القيم، أعلام الموقعين، ج ٤، ص ١٦٢-١٦٣.

^٢ نظرية دارون هي نظرية التطور وهي لتشارلز روبرت دارون (١٨٠٩-١٨٨٢م)، وهو باحث وعالم بريطاني من أصل يهودي، ولد في شروزبري بإنجلترا، عكف على دراسة علوم الطبيعة واقترب اسمه بنظرية النشوء والإرتقاء، وبها اشتهر وذلك في كتابه (أصل الأنواع)، ومن كتبه (أصل الإنسان، والانتخابات بالنسبة للجنس، وتنوع النباتات والحيوانات تحت الاستيناس)، وتقوم نظريته على افتراض تطور الحياة في الدقة والتعقيد وتدرجها من الأخط إلى

الأرقى، وأن أصل الحياة خلوية كانت في مستنقع آسن قبل ملايين السنين، وقد تطورت هذه الخلوية ومرت في مراحل عدة، كما أن الفروق الخلقية داخل النوع الواحد تنتج أنواعاً عديدة مع مرور الأحقاب الطويلة، وأن الطبيعة وهبت بعض الكائنات عوامل البقاء ومؤهلات حفظ النوع بإضافة أعضاء أو صفات جديدة تستطيع بواسطتها أن تتكيف مع الظروف البيئية الطارئة، مما أدى إلى تحسين نوعي مستمر نتج عنه أنواع جديدة راقية... وكان ظهور هذه النظرية نتيجة طبيعية للصراع المير بين الدين النصراني المتمثل في الكنيسة والعقل والمتمثل في النظريات العلمية الحديثة.

ولقد أصيب العالم بنقص حقيقي في الإيمان؛ وذلك ما أشاعه الملحدون من تفسيرات باطلة لنظرية التطور واستغلالها استغلالاً بشعاً، وما زاد من انتشار هذه النظرية ورواجها المنقطع النظير موقف الكنيسة المهزوز منذ البداية، لا سيما وأن الزمن أثبت خطأ المواقف التي اتخذتها من النظريات السابقة، ولذلك خشي كثير من المتعاطفين معها أن يقعوا في الخطأ نفسه، هذا بالإضافة إلى تعرض رجال الدين النصارى للتشهير والتشنيع من قبل أنصار هذه النظرية، مما أدى زلزلة العقائد الدينية وانتشار الإلحاد وشيوعه بطريقة غريبة وشاذة، وهذا لا يرجع إلى قوة نظرية التطور وإنما يرجع إلى ضعف الكنيسة وما تمثله من عقائد منحرفة وباطلة بعيدة كل البعد عن الديانة النصرانية الحقة التي جاء بها المسيح عليه السلام، "ومع ذلك فلم يكن حتماً أن تتجه هذا الاتجاه في التأثير، لو تعلقها يد أخرى، مخلصه للحقيقة، مؤمنة بالله، أو القليل مقدرة للإنسان والخير الإنساني. أما الفكر الغربي... فقد فوجئ مفاجأة عنيفة بفكرة التطور، فأفقدته الهزة صوابه، وصار عرضة للانحراف، ولكن لم يكن حتماً أن ينحرف، كما يمكن أن يرتد إلى الصواب حين يجد الهداة الذين يردونه إلى الصواب". انظر: المانع، القيم بين الإسلام والغرب، ص ١٢٢-١٢٣، نقلاً عن: الموسوعة العربية العالمية، (٢٢٦/١٠)، ومحمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة (٧٧٤/١)، ومحمد قطب، التطور والنبات في حياة البشرية، ص ٣٨.

وهذا بخلاف مبدأ الحتمية في علم النفس حيث أن الهدف الرئيس المتوخى من الأنشطة العلمية هو تحديد العوامل والمتغيرات ذات العلاقة الوظيفية بالسلوك قيد الدراسة، والظواهر الطبيعية لا تحدث بمحض الصدفة، ولكنها تتأثر بعوامل محددة، وهذه العوامل يمكن دراستها بالطرائق العلمية الموضوعية، واستناداً إلى ذلك، فإن مبدأ الحتمية في علم السلوك الإنساني يعني أن السلوك ظاهرة نظامية تخضع لقوانين معينة. انظر: الخطيب، تعديل السلوك الإنساني، ص ٥٩.

^١ امتد عصر النهضة الأوروبية لفترة ثلاثمائة عام، وتميز بازدهار الفن والعلم، وقد صاحبه عصر التنوير وانتشر في أوروبا، وكان له التأثير الكبير على الحضارة الأوروبية، واتخاذ الحضارتين الإغريقية والرومانية قدوة ونموذجاً له مؤكدةً على إنسانية الإنسان.

وعصر النهضة اصطلاح يُقصد به الفترة التي اتسمت بنشاط علمي وثقافي ذي سمات عقلانية عرفت بحركة التنوير أو العقلانية، وقد وصلت هذه الحركة إلى العالم الإسلامي في بداية عصر النهضة الحديثة، وتمثلت في الكتابات الأولى في الأدب العربي، والفكر الحديث بصفة عامة، متبينة أفكار التجديد والتنوير المعاصرة في الغرب والمبنية على أساس الفلسفات الإلحادية من الدعوة إلى نبذ الدين والتخلي عن قيمه شرطاً للنهضة. انظر: المانع، القيم بين الإسلام

بأي ثابت كالدين والقيم، وتعتبره جموداً ورجعية، مدعيةً التنوير، أو التجديد، أو التغيير، ولا شك أن أي تغيير أو تجديد لا ينطلق من مسلمةٍ وقيم ثابتة، فهو كالبركان الذي ينفجر في لحظةٍ مخلفاً الدمار والخراب إلى الأبد.

والأمثلة النبوية التربوية على تفعيل هذا الفكر أكثر من أن تُحصى، ومن ذلك قصة معاذ بن جبل رضي الله عنه حينما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، قال له "كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال أقضي بما في كتاب الله، قال فإن لم يكن في كتاب الله، قال فإني لم يكن في سنة رسول الله، قال أجتهد رأيي لا ألو، قال فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ثم قال الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يُرضي رسول الله"^١، بهذا الفكر وبهذا الفهم والفقهاء والتأصيل وصل إلينا الإسلام بقواعده وشرايعه، والذي طُبّق بأعلى صورته في زمن الخلافة الراشدة وخاصةً في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وانتشر الإسلام في الأمصار والأقاليم، فكان الصحابة رضوان الله عليهم بما آتاهم الله من علم وفقه وفهم يجتهدون في المستجدات والنوازل كلُّ بما يوافق حاله وواقعه، "وسار موكب الاجتهاد على هذا النحو يتولاه الخلفاء العلماء المعاصرون، فلما تولى الخلافة أفراد قلَّ حظهم من العلم تركوا الاجتهاد إلى العلماء، وبرهنت العصور الأولى للإسلام على ملاءمة الإسلام الحياة، واستجابته لكل شئونها، وقد مر بنا كيف أوقف عمر بعض الحدود لأسباب رآها، وكيف اقترح نظام الخراج، ومنع تقسيم الأرض على الفاتحين... ومرّ الزمن وزادت الحال سوءاً عندما ظهرت مشكلات تتطلب الحل، وليس لها حل فيما افترضه السابقون من فروض، وما خطر ببالهم من احتمالات، ووقفت هذه المشكلات الجديدة تتطلب حلاً ولا من مجيب، فقد كان جمهور الفقهاء قد وقف يهاجم الاجتهاد ويدافع عن التقليد، وحظي التقليد بكبار الشيوخ يدينون به ويتبعونه ويتحمسون له، ويرمون من حاول الاجتهاد أو من أقدم عليه بالكفر والزندقة"^٢.

"والحق أن الاجتهاد حركة علمية بناءة لبيان مقومات الشريعة الإسلامية، ومن أهم مرتكزات الحضارة الإسلامية، وسبيل تحقيق الإخلاص للشريعة، وطريق من طرق الحفاظ على خلودها

والغرب، ص ٢٥١-٢٧٠ نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية (٣/٣٧٤-٣٧٥)، والندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة (٢/١١٠٤).

^١ أخرجه أحمد، مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، حديث رقم (٢٢٠٦٠). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لإبهام أصحاب معاذ وجهالة الحارث بن عمرو.

^٢ شلبي، المجتمع الإسلامي، ص ٢٤٣-٢٤٧.

وصلاحياتها لكل زمان ومكان، ووسيلة التعرف على الأحكام الشرعية لما يجيء من حوادث وقضايا دائمة الطرء على الحياة مما يراعي خاصية ختم الشرائع بالشرعية الغراء، وهذا هو الذي يوضح سر إتيان نصوصها بالقواعد الكلية مما يجعلها حية ومرنة وقابلة لتغطية حاجات الناس^١.

وهذا ما يتوجب على فقهاء الأمة ومربيها وخاصة "مع احتكاك الثقافة والحضارة الإسلامية بالثقافة والحضارة الغربية منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وما ترتب على ذلك من تغيرات اقتصادية واجتماعية وسياسية، أصبحت بحاجة ماسة إلى الاجتهاد وتجديد شباب الفقه الإسلامي لمواجهة التحديات التي أفرزها الصراع بين الحضارتين الإسلامية والغربية، لذا فإن المربين المسلمين مدعوون إلى الاجتهاد للوصول إلى استنباط أهداف عامة وجزئية للتربية الإسلامية، واستنباط أساليب لمعالجة المشكلات التربوية التي تعاني منها النظم التعليمية في المجتمعات الإسلامية"^٢.

ولكن الواقع الذي تعيشه الأمة في العصور المتأخرة كما يقول الخطيب عن تبعية الفقهاء وجودهم وتقليدهم الذي كان سبباً في إغلاق باب الاجتهاد، ورد ومحاربة كل جديد "وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبداً، فهي تلد كل يوم جديداً لم تكن تعرفه الإنسانية من قبل... وكان من هذا أن مضى الناس من غير المسلمين يواجهون كل جديد، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديداً... وهكذا سار الناس من غير المسلمين قدماً مع الحياة، ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذي كان عليه الآباء والأجداد من بضعة قرون"^٣، وأفرزت تلك التبعية الفقهية في إغلاق باب الاجتهاد آثاراً خطيرة على الأفراد والمجتمعات الإسلامية بكل مؤسساتها ونظمها، حيث عمّ التقليد والجمود الذي سبب ضعفاً في القدرات العقلية للتصور والفهم للنص والواقع والمستقبل، وضعفاً في الإرادة العلمية للبحث والنظر والتفكير، وضعفاً في الإرادة العملية للبناء والإصلاح والتغيير، وزاد الطين بلة حين ولج علم الاجتهاد من لم يكن من أهل الرسوخ في العلم فشرّق وغرّب كما فعل الخوارج في اجتهادهم وتعاطيهم مع النصوص، فظهر من ضئضئهم جماعات التكفير والتفجير والفتن والتفريق، يقول محمد قطب عن هذا الواقع "فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته... فماذا يحدث؟

^١ المانع، القيم بين الإسلام والغرب، ص ٣٠٧-٣٠٨، نقلاً عن نادية شريف العُمري، الاجتهاد في الإسلام، ص ٢٥٩-٢٦٠.

^٢ الخطيب، أصول التربية الإسلامية، ص ٥٣-٥٤.

^٣ عبد الكريم الخطيب: سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه، ١٤٠٥هـ، دار الأصاله، ص ١٤٤.

يحدث أحد أمرين: إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها، وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة، لأن هذا الظل لم يُمد _بالاجتهاد_ حتى يغطيها.

وقد حدث الأمران معاً، الواحد تلو الآخر.. الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة^١، "والمهم هنا أن نذكر أن هؤلاء الفقهاء لم يستطيعوا أن يوجهوا الفقه الإسلامي وجهة حية، ثم لم يسيطروا على الناس حتى يبقى هؤلاء يتبعون الحدود التي يريدها الفقهاء ولا يتعدونها، بل تمرد الناس على آراء الفقهاء وساروا في الطريق الذي دفعتهم له الحياة تاركين الفقهاء يعيشون في عالمهم الضيق المحدود، وهكذا بُعد الفقه الإسلامي عن الحياة، وبعُد الفقهاء عن الناس، وأصبحنا نرى الفقهاء وأفكارهم في جانب، وغالبية المسلمين في جانب آخر، واتسعت هوة الخلاف بين الجانبين اتساعاً كبيراً، هؤلاء يستعملون زياً ولأولئك زياً آخر، ولهؤلاء خططهم في الحياة ولأولئك خطة أخرى، وجاء جيل جديد أصبح ينظر للفقهاء ولآرائهم واتجاهاتهم باشمئزازٍ قليل أو كثير"^٢، وللأسف هذا ما نراه في واقعنا المعاصر من فكرٍ متطرفٍ مزدوج، تسبب في تكفيرٍ وتنفيرٍ، أو تميميعٍ وتضييعٍ، والسبب عدم مواكبة العصر وفهم متطلباته على قواعد الشرع الرباني، وفقه المقاصد العقلاني، لذا "ينبغي أن يتمثل هذا الاجتهاد في صورة جماعية على مستوى الأمة، في صيغة (مجلس للمجتهدين) ينظر في الاجتهادات القديمة، ليرجح منها ويختار، وفي المشكلات الحديثة، ليحكم في شأنها، وفق معايير منضبطة، لا أهواء منفردة، سواء في اجتهاده الترجيحي الانتقائي أم اجتهاده الإبداعي الإنشائي، ودون تعصبٍ لرأي قديم، ولا عبوديةٍ لفكرٍ جديد"^٣.

ومن هذا المفهوم التربوي للاستقلال يسعى المجتمع بأكمله من كافة طوائفه ومذاهبه ليتوحد ويأتلف، مستقلاً عن الفكر التاريخي _تاريخ الخلافات السياسية والمذهبية والفقهية..._، والتي مرت بظروفٍ وأحوالٍ معينة، كما يقول النحلاوي "تمر العلوم أو العقيدة على عقول أجيالٍ متتابعة من الناس والمجتمعات، فلا تبقى على حالها، بل تتحمل كثيراً من الشوائب والعواطف الكاذبة، والمبالغات الخاطئة، والاعتبارات الشخصية أو الاجتماعية في ظروف معينة، يكون الناس فيها أميل إلى الإشاعات وسرعة التصديق، والارتقاء في أحضان التعليقات الساذجة غير العلمية، فتتغير الحقائق، وتنحرف

^١ محمد قطب، واقعنا المعاصر، ص ١٥٩.

^٢ شلبي، المجتمع الإسلامي، ص ٢٤٧.

^٣ القرضاوي، الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم، ص ٣٣.

العقيدة عند البعض، فيصبحون أقرب إلى الشرك أو الرياء، أو الكذب على رسول الله، أو نحو ذلك، وقد يؤلف بعضهم المؤلفات ويكتب هذه الأباطيل في الكتب كما فعل بعض الصوفية والمبتدعة^١.

فالواجب على الأمة أن تستقل عن ذلك التاريخ، وتنظر إليه نظرة التصفية والتنقية والتطهير، وتتصالح مع سياقات خلافاته، وترتكز على التاريخ المشرق المضيء، الذي يضيء الحاضر والمستقبل، وهذا الاستقلال فكري تاريخي قائم على الحقيقة والشفافية والصدق، بعاطفة الحب، وروح التسامح، ليحدث التصحيح، ويُعاد التوازن في واقع منفصل عن الماضي وأخطائه وحروبهِ وفتنه، والعمل في الحاضر بنظرة مستقبلية تقود للبناء والتقدم في مجتمع متعايش متسامح متصالح، يجارب الخلاف والتصادم، ويسعى للوحدة والتقارب، ويأخذ العبرة والعظة من تجارب الأمم التي ذهبت ضحية التبعية للتاريخ المظلم، يقول تعالى مبيناً كيفية التعامل مع التاريخ وأحداثه ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٣٤)، أي أن الإنسان غير مسئول أمام الله عن أعمال السابقين واختلافهم وتنازعهم، ولا مطالب بالبحث عنها والتنقيب فيها؛ لأن المسؤولية والجزاء للجميع أمام العدل سبحانه وتعالى، فلا فائدة من جرّ خلافات الماضي واستحضار أسوأ ما فيه للحاضر، والوقوع في تبعيته والسير في ركابه، لأن ذلك سينتهي إلى اختلاف وتفرق عنقودي يمتد بامتداد التاريخ والبشرية، لذلك قام النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة في حجة الوداع مؤسساً هذا المبدأ العظيم في أمته قائلاً أيها الناس اسمعوا قولي فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعاً فِي بَنِي سَعْدِ فَقَتَلْتَهُ هَذَا وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رَبَا أَضَعُ رَبَانَا رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ... الحديث»^٢.

وإن الناظر إلى أحوال المجتمعات الإسلامية سواء على الصعيد الداخلي، أو على الصعيد الدولي فيما بينها يجد أثر التاريخ واضحاً في تجديد معالم الفرقة والتناحر، وإعادة الماضي الذي له سياقات متعددة ومعقدة إلى الحاضر بروح التعصب والاحتقان، وطلب التشفي والانتقام، وهو ما جعل البعض يسعى للهيمنة، واستغلال التكنولوجيا الحديثة ليكمل مسيرة الأخطاء التاريخية، ولا شك "أن الأسى على أخطاء الماضي ومآسيه، وإضاعة الوقت في الرثاء لها يشبه - كما يقول ستيفن كوفي - رجلاً لدغته ثعبان، فبدلاً من أن يبادر بأخذ الترياق الذي يبطل مفعول السم، بدأ يجري خلف الثعبان لينتقم

^١ النحلوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ١٢٤.

^٢ أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (١٢١٨).

منه، وبذلك عجل المسكين في سريان السم في جسمه! فماذا كانت النتيجة؟ لم يقتل الثعبان، لكنه قتل نفسه!!^١. وهذا ما جعل تبليسي (Tbilisi) يقف في أوروبا _ بعد فترة الحروب الطائفية الدامية، والنزاعات العرقية المستمرة _ منادياً بفكرته حول إعادة كتابة تاريخ دول منطقة البحر الأسود ليكون تاريخاً مستقلاً عن النزعات القطرية أو الإثنية أو الدينية، يقول العسكر "لم يكن المجلس الأوروبي بعيداً عن فكرة تبليسي الصائبة هذه، فقد دأب على تشجيع التنوع الفكري ومساندته في ميدان التاريخ، وشجع على فكرة حوار الثقافات، وهو يُعدُّ هذا الصنيع إثراءً وتشجيعاً من أجل بناء مفهوم مشترك في عالم اليوم، خصوصاً أن تاريخ تلك المنطقة كُتِبَ بطريقة لا تشجع على قبول تجارب الآخرين، وذلك في العقود التي سبقت سقوط الاتحاد السوفييتي.

ويأتي الدافع نحو مفهوم حديث لتدريس التاريخ، وتأليف كتاب واحد لتاريخ دول البحر الأسود تفعيلاً حسناً لمثل تلك المبادرات الجيدة، ذلك أنه لا أحد يُنكر أن أهم قضية واجهت تلك المجموعة عند إعداد كتاب التاريخ هي التعامل مع ذلك المفهوم المشتمل على كل تعقيدات التاريخ وتعرجاته، والمبني على قاعدة صلبة من النظرة المستقبلية الواسعة، والرؤى المتعددة والدراسات المقارنة التي تتيح مزيداً من التسامح والتقارب والتعاون، ويركز هذا الكتاب على تاريخ دول البحر الأسود تُشكل أنموذجاً يُحتذى به من أجل مستقبل تعاوني مشترك... وقد جاءت فصول الكتاب الستة أنموذجاً للتححرر من قبضة التاريخ المتشدد، أو التاريخ القطري أو المذهبي، والتركيز على التاريخ العام للدول السبع واستبعاد التاريخ السياسي المشوب بكثيرٍ من الصراعات^٢، فأبرزت مثل تلك الجهود ظهور ما يُسمى بالإتحاد الأوروبي الذي توحدت فيه دول أوروبا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وأمنياً وجغرافياً... بل وجعل دولاً أخرى تسعى جاهدةً للانضمام في منظومتها والاستفادة من مكاسبها كدولة تركيا، بل إن أساس النهضة الصناعية في أوروبا كانت نتيجة قراءة واعية لتاريخ المسلمين

^١ ماجد سعود آل عوشن: كن متفائلاً، ١٤٢٨هـ، الرياض، ص ١٦٢.

^٢ ومثال ذلك ما جاء في الكتاب عن القرن السابع عشر بقولهم "اتسم القرن السابع عشر وخصوصاً في نهايته بزوال العصر الذهبي لبولندا بوصفها قوة عظمى، وأثر هذا في الدول المطلة على البحر الأسود وبحر البلطيق، وبرزت الدولة العثمانية بوصفها قوة سياسية وعسكرية، واستمرت معاركها مع الهابسبورج حول نهر الدانوب، ومع هذا فقد ازدهرت التجارة العثمانية مع مولدافيا وواليشا، وانتشرت الثقافة والدين الإسلامي، وتحولت بعض الكنائس المشهورة إلى مساجد (لا حظ كيف تم تجاهل الحروب الدموية التي صبغت تلك الفترة، وكيف تم تقديم العثمانيين والإسلام)". انظر: مجلة المعرفة، العدد (١٢١)، مرجع سابق، مقال "تاريخ البحر الأسود.. نموذج أوروبي لطريقة تعليم التاريخ بدون شوائب"، عبد الله العسكر، ص ٨١-٨٣.

الحافل بالعلوم والفنون والحضارة والقيم في الأندلس، "وذلك حين ظهر أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم، فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمةً وحدهم"^١، كما قال قائلهم "إذا كان هناك أمةٌ تُقرأُ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم، فالعرب هم تلك الأمة، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً"^٢، وحتى قال فيليب عن تقدم النهضة الإسلامية في الأندلس أنه تقدمٌ "لا مثيل له، كان من نتيجته المباشرة النهضة الأوروبية الحديثة التي لم يزل أبناء الغرب ينعمون ببركاتها إلى اليوم"^٣، كل ذلك استقلاً عن ظروف التاريخ المليء بالحروب، وبعداً عن الانشغال بفترة الحروب التي خاضها المسلمون ضدهم في الأندلس، فكانت النتائج ما نراه من ثورة علمية وصناعية أجمت العالم، وأعمت المسلمين عن حقيقة تاريخهم.

وهذا هو الطريق الوحيد للأمة الإسلامية بإيجاد اتحادٍ يجمعها بعيداً عن نزاعات وخلافات التاريخ السياسية والمذهبية، وذلك بإعادة صياغة تاريخٍ موحدٍ بأيدي وعقول علماءها ومؤرخيها، يتعامل مع التاريخ بفهم عميق لتعقيدات التسلسل التاريخي، وبروح التسامح والإعذار، وعقلية الناقد البصير، واستفادة المحرّب الحكيم من المراجعات والتصحيحات على مستوى الأديان والأفكار والمذاهب والأشخاص، لتستثمر وتُفَعَّل في لمّ الشمل وتحقيق الوحدة والاجتماع، والتركيز على جوانب التاريخ الإنسانية والأخلاقية، والعبر والتجارب الحياتية، والقاعدة في ذلك أن التاريخ ليس كتاباً مقدساً، ولا نصاً قطعياً، وكذلك ليس هو حوادث اختلاف وحروب، وتنازعٍ من أجل السلطة أو الأطماع، إنما هذا نوعٌ من أنواع علم التاريخ الذي تزيد أنواعه على أربعين نوعاً كما عدّها الإمام الذهبي رحمه الله، وبهذه المنهجية العقلانية العميقة لدراسة التاريخ تكون البداية بـ"تسليط الضوء على قيام المذاهب والظروف المصاحبة لذلك، حتى تتبين بجلاء (تاريخية) الظاهرة، وأنها ليست أصلاً في الدين قامت بقيامه في حياة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتؤكد (إنسانية) تلك الظاهرة كما يبرز (دوام) الإسلام في مجموعته الكلي عقيدة وشريعة و(ذهنية) الاختلاف، و(شمول) الإسلام الجامع، و(جزئية) الاختلاف الخاص بالمذهب. ويكون هذا التنوير التاريخي الكاشف موضوعياً أميناً قدر طاقة الإنسان المؤمن بربه ومسؤوليته عن كلمته كيف صدرت وإلى أين تؤدي، بحيث يُنصف المذهب المعروض

^١ جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتير، ٢٠٠٠م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ٥٦٦.

^٢ جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٥٦٨.

^٣ جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ١٦٨.

والمذاهب الأخرى على السواء، ويقدم الصورة الحقّة لمنهجيات الحوار والاختلاف وأخلاقياته في رسالة الإسلام، وعلى هذا النحو يتعزز القول بأن المذاهب الإسلامية (تتنازع في إطار وحدة الإسلام)، لا تتناقض وتتصادم بين شراذم لا تجتمع على شيء مشترك.

ولعل في الاهتمام بتاريخ المذاهب مع استثمار المعرفة التاريخية المتطورة في تنميته وإثرائه وتحليله ما يحقق ما سلف بيانه من الوعي بوضع الاختلاف المذهبي وحجمه الصحيح بالنسبة لرسالة الله الكلية الخالدة وحقائقها الكبرى المُجمع عليها بين المسلمين، ولعل استنارة بحث هذا التاريخ ببحوث التاريخ الاجتماعي للمسلمين مما يعود بالنفع والإثراء على كليهما، فكثيراً ما غلب التاريخ السياسي والحربي على التاريخ الاجتماعي والحضاري عند المسلمين وغيرهم^١، وهكذا يخرج التاريخ للأجيال والأمة مضيئاً مشرقاً يضيء الحاضر والمستقبل، ومن هنا نعلم ضرورة "إعداد مناهج تربوية تحث على ثقافة التسامح، وعلى تقبل الآخر من المخالفين لنا في الرأي، لأن مناهجنا الحاضرة تكاد تربي الفرد على كل ما في التاريخ من صراعات وخلافات يُعاد التذكير بها في مختلف الدراسات"^٢.

وهذا ما يجعل فكرة بناء دولة إسلامية من المحيط إلى المحيط تحت راية واحدة، أو حكم واحد، أو منهج واحد، أو مذهب واحد، ما هي إلا فكرة مخالفة لسنة الله في الاختلاف والتنوع، ومناقضة للتصور الصحيح لمقاصد الدين ومصالح الناس، وتباين الثقافات والشعوب التي يقول الله عنها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (سورة الحجرات، آية: ١٣)، والتعارف لا يقوم إلا على استقلال كل شعب بذاته وثقافته مع بقاء الأصول العامة والقواعد الأساسية للدين الإسلامي، فتتكون بذلك لوحة إسلامية عالمية، متنوعة الألوان رائعة المنظر تشكل عالمية التربية الإسلامية وواقعيتها، ومرونتها وتجديدها، وثباتها واستمرارها على قاعدة ربانية ومبدأ عقلايين وروابط أخوي، وهذا ما يجعلها تربية فاتحة للقلوب والعقول قبل البلاد والحصون، بل وتجعل شعوب الأرض تُقبل عليها من مختلف الأديان والثقافات بمحبة ورغبة؛ لأنها لا تسليخها من تاريخها وثقافتها، ولا تقطعها عن ماضيها وإرثها، إنما تُصحح مسارها العقدي والفكري، وتُصلح خللها الاجتماعي والاقتصادي، وتُكمل ما نقص من أخلاقها وقيمها، وتعمل على وحدة وانسجام واقعها الاجتماعي بعيداً عن الفوضى والأطماع، فتشعر تلك الشعوب بم حاجتها للتربية الإسلامية كحاجة المريض للطبيب، وتتعامل التربية الإسلامية معها معاملة الطبيب للمريض تحقيقاً لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، آية: ١٠٧)، أما الاستقلال الكامل والوحدة البشرية الجامعة

^١ الواعي، الحوار الإسلامي.. أصوله ومفاهيمه ووسائله، ص ١٤٦-١٤٧.

^٢ مجلة المعرفة، العدد (١٧٣)، مقال "التسامح.. وتقبل الآخر"، نادية سعد معوض، ص ١٢٩.

تحت راية واحدة ودين واحد فهو كما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان بقوله «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^١، وإلى أن يتحقق ذلك اليوم لا بد أن نعيش حاضرينا بمتطلباته واحتياجاته، وبمراعاة ظروفه وسلبياته، وتجاوز عقباته وصعوباته، ولا يكون ذلك إلا بفهمٍ وتصويرٍ وفكرٍ واعٍ مستقل.

٣. استقلال السلطة:

والمقصود به استقلال السلطة الحاكمة وكافة مؤسساتها عن الأيدلوجيات الداخلية، والتوجهات والسياسات الخارجية، واستقلالها على أساس حفظ مصالح الدين، ورعاية مصالح الدنيا، وحفظ الحقوق، وضمن الحريات، وإقامة العلاقات على أساس العدل والقسط، يقول تعالى مخاطباً نبيه داود ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (سورة ص، آية: ٢٦)، قال ابن كثير "هذه وصية من الله عز وجل لولاية الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله"^٢، وهذا حال الدولة الإسلامية من عهد مؤسسها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بنى السلطة على العدل، ووجهها للبناء والتعايش بعقد المعاهدات والتحالفات، امتثالاً لأمر ربه القائل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (سورة النساء، آية: ١٠٥)، أي "ولا تكن لمن خان مسلماً أو معاهداً في نفسه أو ماله (خصيماً) تخاصم عنه، وتدفع عنه من طالبه بحقه الذي خانه فيه"^٣، بل لقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لأهل الطوائف الكافرة والملل المختلفة بقوله تعالى ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ (سورة الشورى، آية: ١٥)، وأبقى عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ للأمة حين تركها بدون تعيين خليفة بعده، وهذا درسٌ في استقلال السلطة على مبدأ الشورى لتحقيق العدل ونصرة الحق، وتحقيق التوازن بين سلطات الدولة فلا تطغى سلطة على أخرى ولا تُقيد سلطة بأخرى بل تكون السلطات قائمة على حماية المجتمع بسياج التشريعات الربانية التي تحفظ للجميع الحقوق الدينية والبدنية والمالية والإنسانية... بدون تعدي، أو تسلط، أو ظلم، فأثمرت تلك السياسة الإسلامية الراشدة التوسع والانتشار، والجذب والانبهار، وصدق الله القائل ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْأَخْرَى نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة

^١ أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، حديث رقم (٣٤٤٨).

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٣٥.

^٣ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٤، ص ٢٦٥.

القصص، آية: ٨٣) أي "لا يريدون تكبراً عن الحقّ في الأرض وتجبراً عنه ولا فساداً"^١، وقال الشوكاني "ذكر العلوّ والفساد منكرين في حيز النفي يدلّ على شمولهما لكلّ ما يطلق عليه أنه علوّ وأنه فساد من غير تخصيص بنوع خاص، أما الفساد فظاهر أنه لا يجوز شيء منه كائناً ما كان، وأما العلوّ فالممنوع منه ما كان على طريق التكبر على الغير، والتطاول على الناس... وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: هو الشرف والعلوّ عند ذوي سلطانهم... وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عليّ بن أبي طالب: أنه قال: نزلت هذه الآية، يعني (تلك الدار الآخرة...) في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس"^٢.

وحين تقع السلطة تحت أسر التبعية^٣ لفكرٍ أو مذهبٍ أو توجّهٍ، أو تُقيّد سلطات الدولة _التشريعية والقضائية والتنفيذية_ بصوت واحدٍ ونظرةٍ واحدةٍ لتحقيق أهداف من هم على هرمها، فإن النتيجة ضغطٌ على المجتمع نحو طريقةٍ واحدة، وتفكيرٍ واحد، يصحبه انحسارٌ لجو الحرية، وتشوّهٌ للحقيقة، وانعدامٌ للعدالة بأفعالٍ وتصرفاتٍ مدعومةٍ بقوة السلطة، وما يتبعه من ظلمٍ سياسي، وقهرٍ اجتماعي، واستغلالٍ اقتصادي، تكون محصلتها بذرة فرقة واختلاف تنمو مع الأيام شيئاً فشيئاً حتى تصبح شجرةً راسخة الجذور عميقة الأطراف لا تُؤثر فيها معالجة، ولا تُصلحها مبادرة، وهذه الحال كانت بدايةً ومنتشاً الفكر الديمقراطي الذي اتسم "بالفصل بين السلطات (Separation des Pouvoirs) سعياً إلى تثبيت دعائم الحرية، وإقامة الشورى، ودفعاً لطغيان السلطة أو افتئاتها.. حتى قالوا: السلطة تحد السلطة (Le Pouvoir arrete Le Pouvoir) فإن النظم الدكتاتورية على اختلاف أسمائها وأشكالها تسعى إلى تركيز السلطة.. فيتسلط الشعب _في الأغلب_ حزب واحد وإن اختلفت أسماؤه ويتسلط على الحزب لجنة (مركزية أو تنفيذية أو عليا) ويتسلط على اللجنة شخص واحد هو الذي بيده (الأمر كله)"^٤.

وفي تاريخ البشرية يظهر الأثر البغيض لتبعية السلطة واضحاً جلياً، ففي أوربا^٥ كانت السلطة بيد الإمبراطور، وتحتة حكام إقطاعيين، كل "حاكم إقطاعي يتملق الإقطاعيين... ويتملك العبيد، ويُقدم

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ١٠، ص ١١٤.

^٢ الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ص ٢٤٧-٢٥٠.

^٣ المقصود بالتبعية هنا التبعية العمياء التي تقوم على الظلم والاضطهاد لكل من خالف معتقد ومذهب السلطة.

^٤ جريشة، الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص ٢٠٠.

^٥ لمعرفة صور الانحراف الديني، والاستبداد السياسي، انظر: عبد الرحيم صمايل السلمي: حقيقة الليبرالية، وموقف

الإسلام منها، ١٤٣٠هـ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، ص ١٧-٤١.

للإمبراطور إعانة سنوية مقابل قيامه بالحكم وفرض الضرائب وتحصيلها... وكان هذا يمثل ما أسموه (بالسلطة الزمنية)، وإلى جوار هذه السلطة الزمنية كانت (السلطة الدينية) ممثلةً في الكنيسة، والتي بلغ من جورها حد إقامتها محاكم التفتيش التي راح ضحاياها حوالي ثلاثمائة ألف منهم اثنان وثلاثون ألف ماتوا حرقاً، والتي جارت في سلطاتها على السلطة الزمنية بما مارسته عليها من قرارات الحرمان إن هي لم تخضع لرغبتها وأهوائها... وكان التعاون آنماً بين السلطتين على حساب الشعب المقهور الذي عانى أقسى ما عانته البشرية في عصور كثيرة^١، وزاد من سطوة التسلط والاستبداد ما ادعاه رجال الكنيسة من عصمة وولاية ربانية على الشعوب، ومن ذلك ما أصدره البابا نقولا الأول "أنا ابن الله.. إن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا، والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكاماً أو محكومين"^٢، ويقول البابا خريغوريس "إن الكنيسة هي صاحبة السيادة في العالم كله، تستمد نفوذها من الله مباشرة، وتمتد الأرض وأمرائها بالنفوذ، وإن البابا له مركز قوة في العالم، فهو الذي يولي الأساقفة ويخلعهم، وله الحق في خلع الأباطرة لأنه سيدهم الذي لا يُسأل عما يفعل"^٣، ثم أخيراً قامت الكنيسة بتغطية جرائمها، وجعلها عملاً مشروعاً، بما ادعته من الأسرار الكهنوتية حيث "زعمت أن عندها وحدها مفاتيحها، ثم قالت للناس: لن نعطيكم المفتاح، ولكن عليكم أن تؤمنوا كما نقدمها لكم دون سؤال ولا نقاش، وإلا فأنتم زائغو العقيدة مهرطقون، وعليكم اللعنة إلى يوم الدين"^٤، فكانت النتيجة الطبيعية، ردة الفعل المساوية في القوة والمعاكسة في الاتجاه، وذلك بالمطالبة بفصل الدين عن الدولة، فكانت بداية ظهور العلمانية في الفكر الغربي، وذلك لإحداث استقلال للسلطة الحاكمة بعيداً عن الاستبداد السياسي، وطغيان رجال الكنيسة لا الدين - الذين استغلوا مناصبهم ومكائنتهم الدينية في تحقيق تحالف مع السياسيين الإقطاعيين على استبعاد الشعوب، وسلب عقولهم وثرواتهم، لذا "ارتفعت صيحة فصل الدين عن الدولة، أو العلمانية (Secularism)، وارتفع معها شعار المذهب الفردي (Endividualisme)، الذي طبق في النطاق الاقتصادي بالتمكين للرأسمالية، وفي المجال السياسي بالتمكين للديمقراطية، وفي المجال الاجتماعي بانطلاق الأفراد فيما أسموه بالحرية الشخصية، وغدّى ذلك كله العلمانية، وكان من رموز

^١ جريشة، الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص ٥٩-٦٠.

^٢ محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص ٤٥، نقلاً عن قصة الحضارة لول ديورانت، ج ١٤، ص ٣٥٢.

^٣ جريشة، الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص ١٣٧، نقلاً عن محمد رفعت، ومحمد حسونه، معالم تاريخ العصور الوسطى.

^٤ محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص ٣٥.

دعاها مارتن لوثر، وديكارت، وفولتير، وجان جاك روسو الذي أطلق صيحة عمر بن الخطاب رضي الله عنه "متى استعبدتم الناس وقد ولدتم أمهاتهم أحراراً"، ليرجمها إلى نظرية العقد الاجتماعي (Contrat Social) والتي قال بمقتضاها "إن الناس كانوا جميعاً أحراراً لا قيد على حريتهم، ولكنهم لحاجتهم إلى إقامة مجتمع ودولة تنازلوا عن قدر ضئيل من حريتهم ليحفظوا حريات الآخرين، حتى يقوم مجتمع وتقوم دولة"، وتعاقبت الثورات في أنحاء أوروبا، والتي تسببت في هدم مئات الكنائس، وقتل العديد من رجال الدين، حتى كانت الثورة الفرنسية عام (١٧٩٨م) التي كانت الأقوى والأكثر، وأشدّها عنفاً ودموية، وارتفع فيها شعار "اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس"، وأفرزت تقييد سلطان الكنيسة برفع شعار العلمانية، وفصل الدين عن الدولة، وتقييد السلطان السياسي للملوك والحكام الذين ادعوا الحق الإلهي، وإعلان حقوق الإنسان.^١

وللأسف فإن في تاريخ الأمة الإسلامية _ التي أخرجها الإسلام من عبودية البشر والأهواء، إلى عبودية الله وحده دون سواه _ ظهرت آثار التبعية البغيضة للسلطة، وذلك حينما اتخذت السلطة في كل عصر مبدأ الانتصار للمذهب والأتباع بغير حق، وكانت الثمرة انشغلاً بالحروب والفتن، وتسليطاً بالبغي والقمع عن البناء والتقدم الإنساني والتقني فتحقق فيها وعد الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (سورة هود، آية: ١٠٢)، "من هنا جاء تذييل الآيات التي تتحدث عن انهيار الحضارات المنحرفة مسجلاً عليهم ظلمهم لأنفسهم أولاً ولغيرهم ثانياً"^٢، والتاريخ الإسلامي يزخر بصور التعصب المذهبي على مستوى الأفراد والجماعات المدعوم من الحكام والولاة "ذلك الداء العضال الذي استشرى مع الأيام خطره، وأعى دواؤه، وقد ساعد هذا الداء الخطير على إضعاف المستوى التعليمي، وانحدار العلوم وجمودها، وتكبير العقول والأفهام والحجر عليها، بالإضافة إلى ما تسبب فيه من تفريق كلمة المسلمين وإفساد ذات بينهم، وزرع العداة والشقاق بين أفرادهم وجماعتهم، بعد أن تحزبوا طوائف وجماعات، كل طائفة تناصر مذهبها وتعادي غيرها من أجله... وزاد من حدة البلاء مشاركة الحكام وذوي المناصب في تلك النزاعات المحتدمة، ووقوفهم بسلطاتهم إلى جانب أنصار مذهبهم يدافعون عنهم ويفرضون سيطرتهم على مخالفينهم وينزلون ما شاءوا من العقوبات عليهم"^٣، "وأسفر العداة عن معارك طاحنة، وأسفرت المعارك عن دمار وخراب، وقد شمل هذا الدمار كثيراً من البلدان، وحسبك أن تقرأ في (معجم البلدان)

^١ انظر: جريشة، الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص ٦٠-٦٦.

^٢ أبو شبانة، النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، ص ٣٤٨.

^٣ الزهراني، الانحرافات العقدية، ج ٢، ص ٧١.

لـ(ياقوت) ل ترى أنه في عدة مواضع يقول: وقد خربت هذه البلدة بسبب الخلاف بين الشافعية والحنفية^١، وكان هذا الواقع الذي وصلت إليه الأمة من الضعف والتبعية، والاستبداد والاستغلال قد جعل للعلمانية في العالم الإسلامي مناخاً صالحاً لنشوتها^٢، لتقارب الأحوال والظروف التي نشأت فيها، ولكن الفكر العلماني الغربي الذي قام في واقع الخواء الديني، والفوضى الفكرية، وانعدام القانون الرباني، والاستغلال الديني، والقمع والاستبداد السياسي، وعلى أساس التحرر المطلق من جميع القيود والضوابط الفكرية أو السلوكية، لا يصلح بحال أن يُطبق في واقع قائم على القانون الرباني، ويدعوا إلى العلم وتفعيل العقل، ويؤصل للاستقلال والحرية المنضبطة، ويربط كافة السلطات بتحقيق الشورى السياسية، والعدالة الاجتماعية، والمشاركة العامة لكافة الأفراد في البناء والإصلاح والإعمار، وإقامة قانون الاستخلاف الرباني، وكذلك الحال مع من قام بهذا الفكر _العلماني_ وهم علماء أوروبا الذين كافحوا لأجل العلم والحقيقة، وتحقيق العدالة، فكانوا عامل تأثير في واقعهم، بخلاف من يدعي هذا الفكر من أبناء الأمة الإسلامية الذين يكافحون لأجل الجدل والخلاف، وتحقيق الذات، فكانوا بطالةً وعامل تفریق في واقعهم.

والتأمل في أحوال الدول التي نالت القوة المادية والعلمية، والتفوق التقني والصناعي، يجد أنها استقلت بالعلم، وأقامت القسط، وطبقت الشورى، وجعلت لكل سلطة _داخل إطار الدولة_ نظامها الإصلاحي الذاتي، والرقابة الاجتماعية الدائمة، والحرية السياسية الداعمة المنضبطة، والأمثلة على ذلك كثيرة في واقعنا المعاصر من دول إسلامية وغير إسلامية، وهذه سنة الله في أرضه وحكمته في خلقه، وإذا غابت هذه الحقائق عن الأمة ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (سورة فاطر، آية: ٤٣).

المطلب الثالث: تحقيق مبدأ حفظ الأمن الفكري:

أولاً: معنى الأمن الفكري:

^١ شلي، المجتمع الإسلامي، ص ٢٨٠.

^٢ لمعرفة (لمعرفة الفرق بين الفكر العلماني والليبرالي، والعوامل التي أدت إلى ظهورهما في العالم الإسلامي)، انظر: عبد الرحيم السلمي، حقيقة الليبرالية، وموقف الإسلام منها، ص ٣١٩-٣٩٢. وعلي جريشة، الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص ٦٧-١١٨، وسفر بن عبد الرحمن الحوالي: العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ١٤٠٢هـ، مؤسسة قرطبة، القاهرة. ويوسف القرضاوي: الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، ١٤٠٨هـ، دار الصحوة، القاهرة، ص ٤٨ وما بعدها.

الأمن في اللغة قال ابن فارس "الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما الأمانة التي هي ضدّ الخيانة، ومعناها سُكون القلب، والآخر التصديق. والمعنيان كما قلنا متدانيان. قال الخليل: الأمانة من الأَمْن. والأمان إعطاء الأمانة. والأمانة ضدّ الخيانة"^١.

ويقول الجوهري "الأمان والأمانة بمعنى. وقد أَمِنْتُ فأنا آمِنٌ. وآمَنْتُ غيري، من الأَمْنِ والأمان... وقوله تعالى ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (سورة التين، آية: ٣) قال الأخفش: يريد الآمين، وهو من الأَمْنِ"^٢.

وقال الفيروز آبادي "الأمن والآمن، كصاحبٍ ضدّ الخوف"^٣.

والأمن في الاصطلاح يقول الجرجاني "عدم توقع مكروه في الزمان الآتي"^٤.

والأمن الفكري ضد الإرهاب الفكري^٥، وهو ذلك الجو النفسي الآمن، القائم على حرية الفكر المنضبطة، ومحاربة كل ما يؤثر عليه من تقييد، أو استبعاد، أو إقصاء، أو إفساد، أو تسلط، وتحقيق الفكر الواعي الذي يُفَعِّلُ قدرات العقل ويوجهه نحو البحث والتمحيص والتجريب، ومعرفة الأسباب والعلل، ومراعاة المقاصد والمصالح، وهو بهذا يُعبّر عن المجتمع وطريقة تفكيره وسلوكه، وكيفية تعامله مع الأحداث والوقائع والمستجدات والمتطلبات.

والأمن الفكري أساس في حماية المجتمع من الخلل والتخبط في الأفكار وما يتبعه من سلوكٍ مخلٍ بالأمن المادي، وما نراه في بعض المجتمعات من احترابٍ فكري بين اليمين واليسار، أو بين فئةٍ وأخرى، وما ينتج عنه في الغالب من إشغالٍ للعقل، وإشعالٍ للواقع بنار التعصب والتبعية، والاستبداد والاحتقان، وصرف الجهود والطاقات والقدرات نحو تحقيق المصالح الفتوية الضيقة، أو إثبات الوجود بالقوة والأتباع، وأخيراً الاحتراب المادي وزعزعة الأمن والاستقرار الاجتماعي حينما لا يبقى في الفكر مساحة، ولا في الواقع مصلحة.

^١ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ١، ص ١٣٣، كتاب الهمزة، باب الهمزة والميم وما بعدهما في الثلاثي.

^٢ ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٢٢٣ وما بعدها، باب الألف، مادة (أمن). والجوهري، الصحاح، ج ٥، ص ٤٧٩، باب النون، فصل الألف، مادة (أمن). والرازي، مختار الصحاح، ص ٢٤، باب الألف، مادة (أمن).

^٣ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ١٥١٨، باب النون، فصل الهمزة، مادة (الأمن).

^٤ الجرجاني، التعريفات، ص ٥٥، مادة (الأمن).

^٥ الإرهاب "عبارة عن العمليات المادية أو المعنوية التي تحوي نوعاً من القهر للآخرين، بغية تحقيق غاية معينة"، عبد الحي الفرماوي: الإرهاب بين الفرض والرفض في ميزان الإسلام، ١٤١٩هـ، دار البشير، طنطا، ص ١٦.

وأسباب وعوامل الإرهاب الفكري عديدة، ومنها: سوء التكيف الاجتماعي، وعوامل متعلقة بالأسرة، وعوامل متعلقة بالمؤسسات التعليمية. انظر: راشد سعد الباز: أزمة الشباب الخليجي وإستراتيجيات المواجهة، ١٤٢٥هـ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ص ٢١-٧٣.

من هنا وجب على أهل التربية خصوصاً وغيرهم، معالجة هذه الظاهرة حينما تبدأ بوادرها في المجتمع، والسعي لإيجاد مساحةٍ من الحرية والحوار والاستقلال لتتلاقح الأفكار، ويعم الود والإخاء، وتشيع المحبة والصفاء، ويسير الجميع في طريق البناء والتقدم والاستقرار، وحماية مجتمعهم من عوامل الهدم، أو الخلل، أو التفرق والاحتراب.

ثانياً: الأحاديث الواردة في تحقيق الأمن الفكري من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. أورد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ»)، و(باب إِثْمٍ مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ أَوْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً. لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: (وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ) (الآية)).

يظهر من هذا التبويب وما أورده من أحاديث تتضمن أهمية الأمن الفكري، وأنه من المقاصد التي سعى الشرع إلى تحقيقها ليصل بالمجتمع إلى الأمن المادي.

ففي قوله صلى الله عليه وسلم «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ» وهم اليهود والنصارى، "قال ابن بطال عن المهلب: هذا النهي إنما هو في سؤا لهم عما لا نص فيه، لأن شرعنا مكتف بنفسه فإذا لم يوجد فيه نص ففي النظر والاستدلال غنى عن سؤا لهم"^١، والسعي إلى تحقيق الأمن الفكري في التربية الإسلامية ليس فيه تحجير أو تشديد أو تحريم كلي إنما فتح المجال في أمور لا تخل بقواعد الشرع "ولا يدخل في النهي سؤا لهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا والأخبار عن الأمم السالفة، وأما قوله تعالى ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (سورة يونس، آية: ٩٤)، فالمراد به من آمن منهم، والنهي إنما هو عن سؤال من لم يؤمن منهم، ويحتمل أن يكون الأمر يختص بما يتعلق بالتوحيد والرسالة المحمدية وما أشبه ذلك والنهي عما سوى ذلك"^٢.

وفي تبويب البخاري (باب إِثْمٍ مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ) من قوله صلى الله عليه وسلم «... وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامٍ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً»^٣، وقوله (أو سن سنة سيئة) من قوله صلى الله عليه وسلم «... وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٤١٢.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٤١٢.

^٣ أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، حديث رقم (٢٦٧٤).

عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^١، قال النووي "هذان الحديثان صريحان في الحث على استحباب سن الأمور الحسنة وتحريم سن الأمور السيئة، وأن من سن سنة حسنة كان له مثل أجر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة، وأن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه أو إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه سواء كان ذلك المهدي والضلالة هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقاً إليه وسواء كان ذلك تعليم علم أو عبادة أو أدب أو غير ذلك"^٢.

وفي قوله تعالى ﴿وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة النحل، آية: ٢٥)، قال صاحب الكشاف "أي قالوا ذلك إضلالاً للناس وصدماً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحملوا أوزار ضلالهم (كامله) وبعض أوزار من ضلّ بضالهم، وهو وزر الإضلال، لأن المضلّ والضال شريكان: هذا يضلّه، وهذا يطاوعه على إضلاله، فيتحاملان الوزر... (بِغَيْرِ عِلْمٍ) حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلّال وإنما وُصف بالضلّال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز الحق والمبطل"^٣، وقال سيد طنطاوي "أي: يضلون ناساً لا علم عندهم، فهم كالأنعام بل هم أضل، وفي ذلك ما فيه من مدح أهل العلم والتفكير، لأن الآية الكريمة قد بينت أن أئمة الكفر، يستطيعون إضلال من لا علم عنده، أما أصحاب العقول السليمة فلن يستطيعوا إضلالهم"^٤.

فهذا التبويب وما أورده الإمام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة يدل على أن استقامة الفكر، وأمن المجتمع الفكري لا يكون إلا بعلم وتصوير وتطبيق واعى من مشكاة الكتاب والسنة للثواب والمسلمات الشرعية والعقلية، وأن من سعى لمخالفة ذلك عناداً واستكباراً، أو جهلاً وتقليداً، فإنه يتسبب في اختلال فكر المجتمع وأمنه، ويلحقه أثم نفسه وأثم من تبعه إلى يوم القيامة، كل ذلك ليكون رادعاً لصاحب أي فكر أن يتقي الله في نفسه وأتباعه والإنسانية جمعاء، فلا يأتي بما يكون سبباً في إفساد أو انحراف الأفكار التي تسبب كارثة اجتماعية، واختلافاً وتفرقاً، وانعداماً

^١ أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، حديث رقم (١٠١٧).

^٢ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٦، ص ٣٤٥-٣٤٦.

^٣ محمود عمر الزمخشري: الكشاف، ١٤٢٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٢، ص ٤٤٢.

^٤ محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط، ١٩٩٧م، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ج ٣، ص ٢٤٩.

للأمن، وانتكاسة للحضارة والقيم، ومثاله ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قدم صبيغ المدينة وجعل يسأل عن متشابه القرآن لثبير الشكوك فيه، فجلده رضي الله عنه حتى انتهى عن فعله^١.
 ٢. (٧٢٩٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَنْ يَبْرَحَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا هَذَا اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ».

هذا الحديث يضع حداً فاصلاً للفلسفة الحديثة التي تطرح التساؤلات حول كل شيء حتى ذات الله سبحانه وتعالى، ولا شك أن هذا الفكر يسبب اختلالاً في التقديرات العقلية؛ لأنه يبحث في مجال خارج عن قدرته وتصوره، والمقصود منه الإثبات أو النفي العقلي، وغير المتصور له لا يتمكن من ذلك؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، لذلك جاء التوجيه النبوي بالخروج من هذه الدائرة المغلقة المظلمة إلى فضاء الحرية الفكرية الرحبة بقوله صلى الله عليه وسلم «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا مَنْ خَلَقَ كَذَا حَتَّى يَقُولَ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَنْتَهَ»^٢، وفي رواية «لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ»^٣. قال النووي في قوله عليه الصلاة والسلام «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَنْتَهَ» "فمعناه إذا عرض له هذا الوسواس فليلجأ إلى الله تعالى في دفع شره عنه، وليعرض عن الفكر في ذلك، وليعلم أن هذا الخاطر من وسوسة الشيطان، وهو إنما يسعى بالفساد والإغواء فليعرض عن الإصغاء إلى وسوسته، وليبادر إلى قطعها بالاشتغال بغيرها والله أعلم"^٤.

^١ أخرجه الدارمي، المقدمة، باب من هاب الفتيا وكره التنطع والبدع، حديث رقم (١٤٦).

^٢ أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة ابليس وجنوده، حديث رقم (٣٢٧٦). ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، حديث رقم (١٣٤).

^٣ أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، حديث رقم (١٣٤).
^٤ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ٢، ص ٢٠٦. ونقل النووي عن المازري رحمه الله الفرق بين الخواطر التي بدون شبهة علمية وإنما بسبب التأملات الباطلة والفلسفة العقيمة وهي التي تدفع بالاستعاذة بالله من الشيطان، والخواطر والأفكار التي فيها شبهة علمية فتدفع بالعلم والدليل لبيان الحق ومعرفة الصواب، قال "ظاهر الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها والرد لها من غير استدلال ولا نظر في إبطالها، قال والذي يقال في هذا المعنى أن الخواطر على قسمين، فأما التي ليست بمستقرة ولا اجتلتبها شبهة طرأت فهي التي تدفع بالإعراض عنها، وعلى هذا يحمل الحديث، وعلى مثلها ينطلق (يُطلق) اسم الوسوسة، فكأنه لما كان أمراً طارئاً بغير أصل دفع بغير نظر في دليل إذ لا أصل له ينظر فيه، وأما الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال والنظر في إبطالها والله أعلم".

وهذا الحديث يبين حدود الحرية الفكرية، وأنها ليست حرية مطلقة، وإنما حرية داخل نطاق قدرات العقل، مؤصلة بثوابت الشرع في المسائل الشرعية والغيبية، ومنفتحة بالبحث والتجربة والتأمل في الأنفس والآفاق وغيرها من العلوم المادية الدنيوية، وهذا الأمر النبوي هو ما يجعل المجتمع المسلم آمناً فكرياً، وثابتاً عقدياً، ومرتقياً في سلم العلم والحضارة والريادة، بعيداً عن التخريصات والتنبؤات والتأولات التي تجلب الانقسامات والفرقة والفتن.

٣. (٧٢٩٧) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَرْتٍ بِالْمَدِينَةِ، وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ، فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ سَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا تَسْأَلُوهُ لَا يُسْمِعُكُمْ مَا تَكْرَهُونَ. فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَدِّثْنَا عَنِ الرُّوحِ. فَقَامَ سَاعَةً يَنْظُرُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَتَأَخَّرْتُ عَنْهُ حَتَّى صَعِدَ الْوَحْيُ، ثُمَّ قَالَ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي).

هذا الحديث الذي يظهر قرب النبي صلى الله عليه من الناس حتى أن اليهود كانوا لا يجدون حرجاً في سؤاله أو الحديث معه لما يعلمون من طيب أخلاقه وحسن معاملته، فقاموا إليه وسألوه عن الروح^١، وكان الهدف من سؤال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم تشويش الفكر وما يصاحبه من اختلال لقوة المجتمع الإسلامي الناشئ في المدينة، ولذلك جاء في سبب نزول الآية عن ابن عباس قال "قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ... الآية)...^٢"، فكان اختلال الأمن الفكري وتشكيك الناس في صحة المعتقد والأفكار هدف مشركي مكة ويهود المدينة لضرب أمن ووحدنة واستقرار المجتمع المسلم، وذلك بالتشكيك في نبوة وصدق قائدهم، جاء عن عطاء بن يسار قال "نزلت بمكة ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار يهود وقالوا يا محمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول

^١ اختلف المفسرون في معنى الروح على أقوال نقلها ابن حجر عن ابن التين فقال "الأول روح الإنسان، الثاني روح الحيوان، الثالث جبريل، الرابع عيسى، الخامس القرآن، السادس الوحي، السابع ملك يقوم وحده صفا يوم القيامة، الثامن ملك له أحد عشر ألف جناح ووجه، وقيل ملك له سبعون ألف لسان، وقيل له سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان ألف لغة يسبح الله تعالى يخلق الله بكل تسيحة ملكا يطير مع الملائكة، وقيل ملك رجلاه في الأرض السفلى ورأسه عند قائمة العرش، التاسع خلق كخلق بني آدم يقال لهم الروح يأكلون ويشربون لا ينزل ملك من السماء إلا نزل معه، وقيل بل هم صنف من الملائكة يأكلون ويشربون". ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٨، ص ٥١٢-٥١٣.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٦٤.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَفَعَيْنَيْتَنَا أَمْ عَنِيتَ قَوْمَكَ؟ فقال "كلا قد عنيت"، قالوا إنك تتلو أنا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "هي في علم الله قليل، وقد آتاكم ما إن عملتم به استقمتم"، وأنزل الله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^١

لذلك في الحديث (قال بعضهم لا تسألوه لا يسمعكم ما تكرهون) "أي إن لم يفسره لأنهم قالوا إن فسرهم فليس بنبي (واستطاعوا ضرب استقرار وأمن الفكر في مقتل) وإن لم يفسره فهو نبي وقد كانوا يكرهون نبوته"^٢ فجاء الرد بما أحاب آمالهم وتطلعاتهم، وبصدق نبوته صلى الله عليه وسلم، وكان الجواب الرباني مظهرًا للحد الفاصل بين علم الإنسان القليل القاصر وعلم الله سبحانه وتعالى الكثير الواسع، فقال تعالى ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء، آية: ٨٥)، فكانت هذه الآية جواباً شافياً كافياً، فالروح لا أحد يعلم ماهيتها، إنما استأثر الله سبحانه بعلمها، ولم يترك المجال لأي عقل ليُتعب وظائفه ويُهدر طاقته فيما لا نفع من ورائه، نقل القسطلاني عن أبي بريدة قوله "لقد مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح ولقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيته بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه، والحكمة في ذلك عجز العقل عن إدراك مخلوق مجاور له ليدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز"^٣، وقال الإمام الشوكاني عند تفسيره للآية "وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلمين لبيان ما هيئته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع، وقد أطلوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا. وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر مائة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع، بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته فضلاً عن أمهم المقتدين بهم، فيا لله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحد الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما أذن الله بالكلام فيه، ولم يستأثر بعلمه"^٤.

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٦٤-٦٥.

^٢ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٥٣.

^٣ القسطلاني، المصدر السابق، ج ١٥، ص ٢٥٣.

^٤ الشوكاني، فتح القدير، ج ٣، ص ٣٥٢.

٤. (٧٣٦٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا تُكْذِبُوهُمْ وَقُولُوا (أَمْنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ) الْآيَةَ».

الحديث واضح المعنى وهو أن اليهود كانوا حريصين على تفسير وترجمة توراتهم لأهل الإسلام، وهذا الحرص لإقناع المسلمين بصحة ما ورد في توراتهم من أخبار وقصص، والمتبع لسيرة اليهود يرى مقدار البغض والعداء الذي كانوا يضمرونه للمسلمين ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (سورة المائدة، آية: ٨٢)، وحينئذ نعلم هدف اليهود في تفسيرهم للتوراة لأهل الإسلام بالعربية، وأن المقصد من وراء ذلك إثارة الشكوك لخلخلة الأمن الفكري والاطمئنان العقدي، وما يترتب عليه من اختلال في المجتمع الإسلامي وضعفه وهمايته، لذلك جاء التوجيه النبوي لعمر رضي الله عنه وللأمة من بعده حينما أتى بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم فغضب وقال «أُمَّتَهُوْكُمْ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقِّ فَتُكْذِبُوا بِهِ أَوْ يَبَاطِلُ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^١، وهذا التوجيه النبوي يبيّن مصدر التلقي الأوحى الذي نأخذ عنه عقيدة التوحيد وهما الكتاب والسنة، وما جاءنا من كتب أهل الكتاب فلا نصدقه ولا نكذبه أدباً لما كان صدقاً وحقاً، وإعراضاً عما كان كذباً وباطلاً، وإنما نأخذه من باب الاستئناس وإقامة الحجة عليهم فيما وافق، كما في قصة الرجم^٢.

^١ لفظ الآية الواردة في الحديث غير صحيح، والآية الصحيحة هي قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٤٦).

^٢ أخرجه أحمد، مسند جابر بن عبد الله، حديث رقم (١٥٥٤٦)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف مجالد: وهو ابن سعيد.

^٣ وهي في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم برجلٍ منهم وامرأةٍ قد زنيا، فقال لهم «كَيْفَ تَفْعَلُونَ بِمَنْ زَنَى مِنْكُمْ؟». قالوا نُحَمِّمُهُمَا (نفضحهما) وَنَضْرِبُهُمَا. فقال «لَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ الرَّجْمَ». فقالوا لا نجد فيها شيئاً. فقال لهم عبد الله بن سلام كذبتم (فأتوا بالتوراة فأتلواها إن كنتم صادقين) فوضع مدراسها الذي يُدرّسها منهم كفّه على آية الرّجْم، فَطَفِقَ يَقْرَأُ ما دون يده وما وراءها، ولا يقرأ آية الرّجْم، فنزع يده عن آية الرّجْم فقال ما هذه فلمّا رأوا ذلك قالوا هي آية الرّجْم. فأمر بما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد، فرأيت صاحبها يحنّ عليها بقيها الحجارة. أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُلُوها إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، حديث رقم (٤٥٥٦).

٥. (٧٣٦٣) عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَن شَيْءٍ، وَكِتَابِكُمْ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدْتُ، تَقْرَعُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبَّ وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ وَغَيَّرُوهُ وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ وَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. لَيْشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَن مَسْأَلَتِهِمْ، لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ.

هذا الاستفهام الإنكاري من ابن عباس رضي الله عنه عن سؤال أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى عن شيء من أمور الشرع والقرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم (أحدث) أي "أقرب نزولاً إليكم من عند الله فالحدوث بالنسبة إلى المنزل إليهم وهو في نفسه قديم"، وأن هذا القرآن (محضاً) أي "خالص"، (لم يُشَبَّ) أي "لم يُخلط فلا يتطرق إليه تحريف ولا تبديل بخلاف التوراة والإنجيل"، ثم يذكر ابن عباس السبب في إنكاره لذلك بقوله (وقد حدثكم - أي الله سبحانه وتعالى في كتابه - أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً) إشارة إلى قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ٧٩)، وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ٧٨)، ثم قال (ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم) أي أما كيفيكم ما ورد في كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم عن سؤالهم، ثم قال مبيناً لهم النهي عن سؤالهم بطريق الأولى (لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم).

هذا النهي الوارد عن ابن عباس رضي الله عنه حبر الأمة وترجمان القرآن يدل على الحفاظ على أمن الفكر، وأن الوسيلة الوحيدة لذلك هو بتأصيله على هدي الكتاب والسنة، وهذا النهي عن سؤال أهل الكتاب في أمور الشرع خاصة، أما غير ذلك من أخبار الأمم السابقة وأمور الدنيا والعلوم المادية فلا يشمل النهي، قال ابن بطال عن المهلب "ولا يدخل في النهي سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا والأخبار عن الأمم السالفة"^١، ولذلك أمرنا الله تعالى بسؤال أهل العلم من أهل الكتاب وغيرهم لمعرفة الرسل الذين أرسلوا إليهم بشراً كانوا أم ملائكة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأنبياء، آية: ٧)، قال ابن كثير "أي: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ إنما كانوا

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٤١٢.

بشراً^١، وبهذا يظهر التخصيص بسؤالهم في أمور التشريع من حلال أو حرام، وما يترتب عليه من زعزعة للقناعات في الفعل أو الترك، فجعل الإسلام ذلك السؤال محرماً حفاظاً للفكر وطمأنينةً للنفس واستقراراً للمجتمع.

ثالثاً: التطبيق التربوي لمبدأ الأمن الفكري:

الفكر هو ما يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، وهو عمل العقل الذي نال به شرف خلافة الأرض وعمارتهما، ليصل إلى السعادة والحياة الطيبة دنيا وأخرى، وبالفكر تتمايز الأمم والحضارات، فقيمة كل أمة هو فكرها ومبادئها العليا وقيمها الراسخة، "والإسلام يدعوا إلى التفكير، ويوجه إلى الاهتمام به، بل إن التفكير يعتبر فريضة إسلامية"^٢.

والتربية الإسلامية تبني العقول على التفكير والنظر والاعتبار، والآيات الدالة على الأمر بإعمال العقل نظراً وتفكيراً وتأملاً لا حصر لها، كل ذلك لتعود الفرد على الانفتاح الفكري، "بحيث يعي ثقافات العصور المختلفة، دون تزمّت، أو تعصب، أو تقوقع، ليستفيد من خبرات الماضي، ويعرف مشكلات الحاضر، ويستشرف للمستقبل"^٣، وهذا ما جعل الحرية في التربية الإسلامية مصدر قوة وازدهار، فهي تُطلق قدرات العقول نحو البناء والعطاء بدافع ذاتي، ورقابة ربانية، ولم تكن الأمة في فترة من فترات القوة والعزة إلا حينما مارست الحرية، "ولقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على الحرية بمعانيها المختلفة، حرصاً يوفر للتعليم مناخاً صحياً لا مناص منه إذا أردنا له نمواً وازدهاراً، والإسلام بهذا قد سبق كثيراً من المذاهب والشرائع سبقاً غير عادي؛ ذلك أن الحرية في الإسلام -خلافاً للشرائع الوضعية- ليست حكماً سياسياً فحسب وليست جزء من شريعة الإسلام، وإنما هي في الحقيقة جزء من عقيدة الإسلام... فهو يحررهم من العبودية لأي مخلوق ولأي فكرة أو جماعة"^٤، ولنا في أول مجتمع إسلامي مدني القدوة حينما مارس رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرية بمفهومها

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ١٨٢.

^٢ عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، ١٣٩١م، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ٩.

^٣ علي خليل أبو العينين: فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، ١٩٨٥م، مكتبة إبراهيم حلي، المدينة المنورة، ص ٦٢.

^٤ سعيد إسماعيل علي: ديمقراطية التربية الإسلامية، ١٩٧٤م، دار الثقافة، القاهرة، ص ١٣٢-١٣٣.

التربوي الشامل^١، حرية البناء لا حرية الهدم، حرية الإصلاح لا حرية الإفساد، حتى تأصلت في النفوس معاني القوة والثقة والبناء.

والتربية الإسلامية كفلت لجميع أفراد المجتمع حرية الرأي التي هي "حرية التعبير عن الأفكار، فالناس بحاجة للمناقشات لتبادل الآراء حتى يتمكنوا من التواصل والتوصل إلى قرارات مبنية على المعرفة في شؤون حياتهم السياسية، والاجتماعية، وحرية التعبير"^٢، والكتاب والسنة غنية بمثل تلك الصور التي أنشأت المجتمعات على أساس الكرامة الإنسانية والحرية الواعية التي تجعل من الإنسان إنساناً في تفكيره وسلوكه، يقول بكار "ولعل مما أفادتنا به الخبرة والتجربة أن الأعمال الحضارية الكبرى لا تقوم إلا عن طريق الحماسة والرغبة والمبادرة الحرة، وأن الأمم العظيمة لا تشيد صروحها الحضارية عن طريق فرض القيود، ولا عن طريق المنع والزجر والتخويف، وإنما عن طريق التحفيز والتشجيع والمكافأة والمشاركة الواسعة.

وهذا يحتاج إلى روح مغايرة للروح السائدة في معظم بلادنا الإسلامية..." ثم يتحدث عن واقع التربية والتعليم في المؤسسات التعليمية في المجتمعات الإسلامية وعن الخلل الذي يحدث من عدم الحرية قائلاً "وربما كانوا يفعلون ذلك لأنهم لا يتصورون بديلاً لما يقومون به سوى الفوضى والتفلة، وتضييع الواجبات، والخروج على النظام والآداب العامة، وهم ينسون أنهم بذلك ينشغلون عن بناء الوعي لدى الطلاب وتنمية روح المسؤولية الشخصية التي من غير قسط من الحرية لا تنمو الحاسة الأخلاقية والوازع الداخلي من غير ترك فرصة للاختيار، وينسى أولئك المربون أيضاً أن الحرفية الزائدة تؤدي إلى سوء الأخلاق، وتورث السأم والملل وضيق الأفق"^٣.

^١ وضعت التربية الإسلامية قيوداً أخلاقية وقانونية للحرية، وهذا حال كل الحريات فلا حرية مطلقة وإلا لماذا تُسن القوانين والأنظمة؟، ومن هذه القيود الأخلاقية تحريم الغيبة والسخرية والإستهزاء والقذف والسب والشتم... وغيرها، ومن القيود القانونية الحدود والقصاص... وغيرها، كل ذلك لتكون حرية بضوابط شرعية، فلا اعتداء على حريات الآخرين ومعتقداتهم وسلوكهم سواء كانوا مسلمين أو كفار، إلا ما كان فيه ضرر على الدين أو النفس أو المال أو العرض أو العقل فعندئذ تصطدم الحرية بقيد شرعي ليوقفها ويكف عن النفس والناس أذاها واعتدائها. انظر: سالم البهنساوي، حرية الرأي، ص ١٠١-١٣٠، ومحمد خضر، الإسلام وحقوق الإنسان، ص ٢٥-٤٦، وخالد بن عبد الله الشمراي، التعبير عن الرأي ضوابطه ومجالاته في الشريعة الإسلامية، دراسة فقهية تأصيلية، ١٤٢٣هـ، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

^٢ عبد المحسن مسعود: القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، ١٤١٩هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ص ١٨.

^٣ عبد الكريم بكار: بناء الأجيال، ١٤٢٣هـ، أضواء المنتدى، الرياض، ص ٢٢.

وأساس الحرية في التشريع الإسلامي قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٥٦)، "وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعه عمله وحساب نفسه وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني... إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق (الإنسان) التي يثبت لها بها وصف (إنسان) فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً.. ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة، والأمن من الأذى والفتنة.. وإلا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة. والإسلام _ وهو أرقى تصور للوجود والحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مرء _ هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين، وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين"^١، وهذه هي حقيقة الحرية المسئولة، فهي "الإطار الذهبي الذي يبدو فيه الإنسان وهو يرفرف في أفقه الإنساني الرفيع، متميزاً به على سواه من المخلوقات.. لقد مُنح عقلاً وتفكيراً وإرادة، وفتحت له أبواب الاختيار والتميز بمقتضى هذا العقل وتلك الإرادة، لا سلطان عليه، ولا رعديد يقف بالمطرقة بين يديه... إن معنى العبودية لله وحده أن يخلع الإنسان كل عبودية لما سواه... ومن هذا المعنى الحي انطلق صوت عمر بن الخطاب يستنكر ما فعله ابن عمرو بن العاص قائلاً (متى استعبدتم الناس وقد ولدتم أمهاتهم أحراراً)"^٢.

ومن هذه الحرية الفكرية تنطلق التربية الإسلامية لتجعل قاعدتها كمال العبودية لله وحده دون سواه، فإذا تحققت ذلك أصبح الفرد حراً على شهواته ورغباته وأهوائه، وكل سلطة أو رقابة، ووصل إلى مرتبة المسؤولية عن الأمانة التي حملها، وهذه الحرية ليست بمفهوم الحرية المطلقة التي تفكك معاني الإنسانية، وتبعثر فكره، إنما هي حرية من معاني وأفكار راسخة وثابتة، نحو فضاء رحب من التفكير والتأمل والبحث والنظر وإبداء الرأي، على أسس علمية منطقية، أو غيبية شرعية، تحفظ لجميع أفراد المجتمع باختلاف أديانهم ومذاهبهم وأفكارهم الضروريات الخمس التي حفظها الدين الإسلامي لعموم البشرية، وهو ما يكسبها الانضباط والترشيد، والصراحة والوضوح، لتقوم بدورها في بناء وحماية المجتمع، "وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان، حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها، فليس هنالك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس، وتستذلهم عن طريق التشريع، إنما هنالك رب واحد للناس جميعاً هو الذي يشرع لهم على السواء، وإليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع، كما

^١ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٩١.

^٢ خضر، الإسلام وحقوق الإنسان، ص ٢٥.

يتجهون إليه وحده بالإيمان والعبادة سواء، فلا طاعة في هذا النظام لبشر إلا أن يكون منفذاً لشريعة الله، موكلاً عن الجماعة للقيام بهذا التنفيذ... هذه هي قاعدة النظام الرباني الذي جاء به الإسلام، وعلى هذه القاعدة يقوم نظام أخلاقي نظيف تكفل فيه الحرية لكل إنسان، حتى لمن لا يعتقد عقيدة الإسلام، وتسان فيه حرمان كل أحد حتى الذين لا يعتقدون الإسلام، وتحفظ فيه حقوق كل مواطن في الوطن الإسلامي أياً كانت عقيدته، ولا يكره فيه أحد على اعتناق عقيدة الإسلام، ولا إكراه فيه على الدين إنما هو البلاغ^١.

فهذه العبودية الحقة في التربية الإسلامية واسعة الإطار لا يتحكم فيها أشخاص، ولا تسيرها العواطف والأهواء، إنما هي قائمة على حرية فردية لكل إنسان على مستوى الفكر، يقول تعالى ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (سورة الكهف، آية: ٢٩)، وعلى مستوى العمل، يقول تعالى ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ (سورة الإسراء، آية: ٨٤)، ومقيدةً برباط المسؤولية والجزاء^٢، يقول تعالى ﴿فَوَرَبُّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾﴾ (سورة الحجر، آية: ٩٢-٩٣)، تحت مبدأ الابتلاء الرباني، يقول تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة الملك، آية: ٢)، ومحكومةً بقاعدة البقاء للأصلح والأفضل، يقول تعالى ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (سورة الرعد، آية: ١٧)، ويقول سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة يونس، آية: ٨١)، هذه الحرية التي تُعتبر القوة الضاربة، ومفتاح السعادة للفرد والمجتمع حينما تنبع من الداخل، "الحرية التي هر أعز مقومات الإنسان في هذه الحياة، وأسمى شيء لديه، بل هي مصدر قوته ونشاطه، والسر في تضحيته وجهاده، فإذا أهينت واعتدي على الحرية الإنسانية أو الحرية الشخصية، فلا سعادة للفرد ولا للجماعة"^٣، الحرية التي تُنشئ جيلاً لا يعرف تبعية ولا تقديساً لأشخاص أو طوائف أو طرائق، إنما التبعية والتقديس لما جاء عن الله وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمرة بالتحريم من العبودية لكل فكر أو رأي إلا لله وما يرضيه سبحانه وتعالى على قاعدة الاحترام والتسامح وحفظ الحقوق، أما الحكم والفصل والجزاء فليس في الدنيا إنما هو يوم الفصل،

^١ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٩٥.

^٢ المسؤولية تعني أن كل إنسان سوف يُسأل عن تفاصيل ما ابتلي به في قاعة الدنيا، وفي ضوء نجاحه أو فشله في هذه المسؤولية سوف يتقرر جزاؤه ومستقره فإما النعيم الدائم في الجنة أو الشقاء الدائم في النار. انظر: الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٢٨٩ وما بعدها.

^٣ محمد رجاء المتجلي: الحرية والحقوق في الإسلام، ١٤٠٧ هـ، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ص ٩.

كما قال تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (سورة الغاشية، آية: ٢١-٢٦).

والخلل في فهم وتطبيق الحرية في المجتمعات يرجع إلى الخلاف في مسألة منبع الأخلاق التي يضبط بها السلوك، وهي مسألة فلسفية فالبعض يرى أن الأصل عرف المجتمع، والبعض الآخر يرى أنه الضمير الإنساني، وآخر يزعم أن الأصل تحقيق السعادة والمنفعة، وغيرهم يقول أن الأصل هو العقل البشري^١، ولا شك أن كل ذلك غير دقيق، ولا يصلح أن يكون ضابطاً يضبط أصول الأخلاق، ولا أساساً يُبنى عليه سلوك الإنسان؛ لأن تلك الأصول تختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والأهواء والآراء، وهو ما يجعل استخدام الحرية وسيلةً لتحقيق هدف وغاية كل أصل بدون اعتبار لأي معيار آخر، بينما المفهوم التربوي الإسلامي الشامل للحرية يشمل تلك الأصول من عرف اجتماعي وضمير حي وتحقيق للمنفعة والسعادة وتقدير للعقل مع المحافظة على النظام العام والضروريات الإنسانية، فالحرريات في حقيقتها عبارة عن حرية معتقد، وحرية رأي، وحرية فردية، وحرية اجتماعية و...، وعندما تتقاطع هذه الحرريات مع بعضها في التطبيق ينشأ تضارب وتصادم، لذا كان لازماً أن تكون تلك التقاطعات قيوداً وضوابط لكل حرية حفاظاً على وجودها في جوٍّ آمنٍ مستقر بعيدٍ عن التعدي والطغيان والظلم، لذلك قامت المجتمعات الإنسانية عبر التاريخ باستحداث قوانين ونظم تحكم العلاقات وتحفظ الحرريات، فكانت البداية من قانون بابل الذي يرجع إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، وبعده قانون حمورابي، ثم تشريعات التوراة، ثم التشريعات والقوانين البابوية والذي يُسمى بالحكم الديني أو الحكومة الدينية^٢، ثم أخيراً الأنظمة الديمقراطية الرأسمالية، والشيوعية الاشتراكية، وكل تلك القوانين والأنظمة لم تفلح أمام مظالم تلك الشعوب التي كافحت وناضلت لتسترد حقوقها وحريتها، يقول دوفرجيه أحد علماء القانون الدستوري الحديث "إن القانون الوضعي كان دائماً خادماً للسلطة الحاكمة، تستخدمه لأغراضها مخالفةً بذلك الأوضاع الطبيعية، فهي إذا أرادت أمراً فإنها تبادر إلى إصدار قانون تقيد به حريات الناس، وتأكل به أموالهم، وتحل به الحرام، وتحرم به

^١ محمد ربيع محمد جوهرى: أخلاقنا، ط٨، ١٤٢٦هـ، مكتبة دار الفجر الإسلامية، المدينة المنورة، ص ٩ وما بعدها.

^٢ سالم البهنساوي: حرية الرأي "الواقع والضوابط"، ط٢، ١٤٢٥هـ، مكتبة المعارف المتحدة، الكويت، ص ٤ وما بعدها.

الحلال"١، بينما تشريع رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه شواهد ظاهره بينة في تطبيق العدل والحريات وحفظ الحقوق والكرامة الإنسانية من بداية الخلق وأبو البشرية آدم عليه السلام، كما قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ... قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة، الآيات: ٣٠-٣٩)، ومروراً بأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام وتشريعاتهم الربانية، التي يقول الله عنها ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (سورة النساء، آية ١٦٣-١٦٥)، وختاماً بالتشريع الإسلامي المحمدي، القائل جل في علاه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، آية: ١٠٧)، فإذا طبّق هذا التشريع على مراد الله وعلى نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، بفهمٍ واعٍ وعقلٍ رشيد وسلوكٍ حميد، أثمر سعادةً واستقراراً وأمناً ورحمةً للبشرية جمعاء.

ولتطبيق مبدأ الحرية في المجتمع لابد من زرعها في نفوس الأبناء، وذلك من خلال ما يلي^٢:

- تنمية قدرات الناشئ على الملاحظة، ورؤية الارتباط بين الأسباب والمسببات، وبين المقدمات والنتائج.
- تحفيز حب الاستطلاع، وتدعيم روح التساؤل والمشاركة والمناقشة للقضايا المختلفة.
- تكوين العقل المثقف، وهو الذي يملك عدداً جيداً من المقولات والخبرات التي تؤهله للتعامل مع مسائل الحضارة والتخلف والإنجاز والإخفاق.
- تدريب الناشئ على تقديم الحلول البديلة، وإثراء وجهات النظر في معالجة المشكلات المطروحة.

^١ عبد الرحمن الزبيدي: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، تقديم: عمر عودة الخطيب، ١٤١٢هـ، مكتبة المؤيد، الرياض، ص ٤٢١.

^٢ بكار، بناء الأجيال، ص ١٥-١٦، باختصار.

- تحسين مستوى اتخاذ القرار في الشأن الخاص، ومساعدة الناشئ على رسم أهدافه وتحديد أولوياته، وتنظيم ردود أفعاله.
- تمليك الناشئ المبادئ والأساليب التي تساعد على التعلم المستمر، والاستزادة من المعرفة مدى الحياة.
- تدريب الناشئ على امتلاك أسس المرونة الذهنية، والتلاؤم مع المتغيرات الجديدة.
- تعزيز الاحترام للمعرفة، وبيان دورها في إحراز التقدم الإنساني.
- تكوين الإنسان الحر الذي يمتلك حريته لا عن طريق الشعارات، ولكن عن طريق توفير البدائل، وعن طريق العلم والإرادة ومقاومة الرغبات.
- دلالة الناشئ على العوامل والمقومات التي تجعله ناجحاً في حياته، وتخليصه من المفاهيم الخاطئة في هذا الشأن.
- تعزيز فهم الناشئ للواقع وما يدور في أفق حياته اليومية، وتبصيره بأحوال العالم المعاصر.

وأخيراً فإن مما سبق يظهر أن أمن الفكر لا يمكن أن يتحقق في بيئةٍ مظلمةٍ بعيدة عن الأنظار والأسماع، إنما يتحقق في بيئةٍ مضيئةٍ بنور الحرية تظهر فيها الأفكار والآراء الاجتهادية، والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فتكون عرضةً للنقاش، والأخذ والرد، والتمحيص والتصحيح، والقولية نحو الأفضل والأصلح والأقرب للواقع، وهذا ما يُعطي الفرد أياً كان - مفكراً أو فقيهاً أو تاجراً أو حاكماً أو غير ذلك - الرقابة الاجتماعية الواعية لكل ما يطرحه، فلا يتجرأ أحدٌ في مجتمع الحرية على القول أو الادعاء إلا بدليل علمي أو برهان عملي، ولا يخاف أحدٌ من النقد أو التصحيح والإصلاح¹، وهذا ما يُعطي كافة أفراد المجتمع الجو الآمن الذي ينشأ فيه الإبداع والتطور والإخلاص،

¹ التربية الإسلامية تقوم على مبدأ الحرية في نصيحة ونقد المخطئ أياً كان، ولكن بطرقٍ شرعيةٍ ربانية ليس فيها حظوظ للنفس، ولا أهواء أو أطماع، إنما هي مبنيةٌ على الإصلاح، وبسلوك طريق اللين والستر والقول الحسن، لا بنية الإنتقام والتنفيس والتشفي، وسلوك طريق التشهير وإظهار العيوب، والانتقاص من القدر والمكانة، والشتم أو السب، وهذا الحق لكل أحد من الناس المسلم والكافر، ويتأكد ويتوجب إذا كانت النصيحة أو النقد لولي الأمر، حيث أن نصيحته واجبة، وكذلك الأدب معه وتقديره واحترامه، وتعظيم مكانته في نفوس الناس واجب، فإن ذلك يحقق مقصد الشرع من السمع والطاعة، والاجتماع والوحدة، والسلامة من الفرقة والفتن، ولذا جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله "إن من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرامَ ذي السلطان المقسط". أخرجه البخاري، الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب إجلال الكبير، حديث

والانتماء الصادق للجماعة، وتكاتف الجهود، مما يزيدهم قوةً وقدرةً على استيعاب الأفكار والأطروحات والرؤى، وتحليلها والغوص في أهدافها ومعرفة مراميها ليصلوا إلى الحكمة التي هي ضالة كل مؤمن.

وإذا لم يُضاء الفكر بنور الحرية اتجه نحو الانغلاق وضيق الأفق، والتعصب للرأي والاجتهاد، والإقصاء وعدم تقبل الآراء والأشخاص، والأحادية في التفكير، والتشكيك في النوايا، وإطلاق اللسان بالتفسيق والتبديع والتكفير، والشحن العاطفي غير المرشد، وتقديس الذات وتعظيم الأنا، وإلزام الناس بالعزائم مع وجود الرخص، وعدم مراعاة الواقع والأحداث والمستجدات، وعدم معرفة الأولويات، وعدم مراعاة مقاصد الشرع، وعدم الاستفادة من كل جديد، وعدم التوسط والاعتدال في الفكر والسلوك، إما تشدداً وغلواً، أو انحرافاً وانحلالاً، "ويزيد الأمر خطورةً حين يريد فرض الرأي على الآخرين بالقوة، والغلبة عن طريق الاتهام، وهذا الإرهاب الفكري أشد تخويفاً من الإرهاب الحسي"، وهنا يصل المجتمع إلى الخوف النفسي الذي لا أمان معه، ويُترجم إلى إرهابٍ سلوكي، وعداءٍ عملي، بحثاً عن تحقيق الذات أو الحرية والكرامة، وينتج عن ذلك إحلالاً بالأمن المادي، والذي سنناقشه في المطلب التالي.

المطلب الرابع: تحقيق مبدأ حفظ الأمن المادي:

أولاً: معنى الأمن المادي:

رقم (٣٥٧). قال الألباني: حديث حسن. والنصيحة عموماً يجب أن تكون سرّاً لا علانيةً حتى تقبلها النفوس وتدعن لها القلوب، جاء عند أحمد أن عياض بن غنم جلد صاحب داريا حين فُتحت، فأغلظ له هشام بن حكيم القول حتى غضب عياض، ثم مكث ليالي فأتاه هشام بن حكيم فاعتذر إليه، ثم قال هشام لعياض ألم تسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَاباً أَشَدَّهُمْ عَذَاباً فِي الدُّنْيَا لِلنَّاسِ»، فقال عياض بن غنم يا هشام بن حكيم قد سمعنا ما سمعت، ورأينا ما رأيت، أو لم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلَا يُدِّ لَهُ عِلَانِيَةً وَلَكِنْ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ فَيَخْلُوَ بِهِ فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَلِكَ وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ»، وإنك يا هشام لأنت الجريء إذ تجترىء على سلطان الله، فهلا خشيت أن يقتلك السلطان فتكون قتيل سلطان الله تبارك وتعالى". أخرجه أحمد، مسند المكيين، من حديث هشام بن حكيم بن حزام رضي الله عنه، حديث رقم (١٥٣٦٩). قال شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره دون قوله "من أراد أن ينصح لسلطان بأمر... فحسن لغيره، وهذا إسنادٌ ضعيف لانقطاع شريح بن عبيد الحضرمي، لم يذكروا له سماعاً من عياض ولا من هشام.

^١ عمر عبد الله كامل: المنظرون خوارج العصر، ٢٠٠٢م، عمان، بيسان، ص ٩١.

الأمن كما سبق بيانه هو عدم توقع المكروه، وهو جو الطمأنينة النفسي والمادي الذي يطلبه كل إنسان، وهو ما تسعى لتحقيقه التربية الإسلامية بنظامها وتشريعاتها.

والأمن المادي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأمن الفكري بل هو ثمرة ونتيجته، وبمقدار تحقيق المجتمع للأمن الفكري فإنه ينعم بالأمن المادي، كيف لا والسلوك تعبيرٌ عن الفكر، وترجمة عملية واقعية له، فإذا كان الفكر سليماً صحيحاً نتج عنه عمل وسلوك سليم صحيح.

والأمن المادي في حقيقته هو تحقيق لما حفظه الشارع الحكيم من حفظ الضروريات الخمس وهي حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض، والتشريعات الربانية والهدي النبوي جاءت لتؤصل لهذا المبدأ، علمياً وفكرياً، وتطبقه عملياً وواقعياً، وهذا ما سنتحدث عنه في هذا المبحث.

ثانياً: الأحاديث الواردة في تحقيق الأمن المادي من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري رحمه الله هي:

١. بَوَّبَ الإمام البخاري في كتاب الاعتصام (باب إِثْمٍ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا)، والإثم "ما يجب التحرر منه شرعاً وطبعاً"^١، و"مُحَدِّثًا" بضم الميم وكسر المهملة مبتدعاً أو ظالماً"^٢.

هذه الترجمة العامة المأخوذة من حديث النبي صلى الله عليه وسلم^٣ تدل على أن من اعتصم بالكتاب والسنة فقد التزم طريق البر والخير والصالح، وابتعد عن الإثم والبغي والعدوان، الذي هو طريق تحقيق الأمن المادي.

٢. (٧٣٠٦) حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ حَدَّثَنَا عَاصِمٌ قَالَ قُلْتُ لِأَنْسٍ أَحْرَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ. قَالَ نَعَمْ مَا بَيْنَ كَذَا إِلَى كَذَا، لَا يَقْطَعُ شَجْرَهَا، مَنْ أَحَدَتْ فِيهَا حَدَّثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. قَالَ عَاصِمٌ فَأَخْبَرَنِي مُوسَى بْنُ أَنْسٍ أَنَّهُ قَالَ أَوْ آوَى مُحَدِّثًا.

هذا الحديث يُبَيِّنُ حرمة إحداث المعاصي والبدع والظلم في المدينة، أو إيواء أصحابها، قال ابن بطال "دل الحديث على أن من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً في غير المدينة، أنه غير متوعد بمثل ما توعد به من فعل ذلك بالمدينة، وإن كان قد علم أن من آوى أهل المعاصي أنه يشاركهم في الإثم فإن من

^١ الجرجاني، التعريفات، ص ٢٣، باب الألف.

^٢ القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٢٦٥.

^٣ حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفيه «الْمَدِينَةُ حَرَمٌ، مَا بَيْنَ عَائِرٍ إِلَى كَذَا، مَنْ أَحَدَتْ فِيهَا حَدَّثًا، أَوْ آوَى مُحَدِّثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ».

رضي فعل قوم وعملهم التحق بهم، ولكن خُصت المدينة بالذكر لشرفها لكونها مهبط الوحي وموطن الرسول عليه الصلاة والسلام، ومنها انتشر الدين في أقطار الأرض فكان لها بذلك مزيد فضل على غيرها، وقال غيره السر في تخصيص المدينة بالذكر أنها كانت إذ ذاك موطن النبي صلى الله عليه وسلم ثم صارت موضع الخلفاء الراشدين^١، وهذا المفهوم الذي يحفظ الأمن المادي لا يحسن تصويره إلا من كان معتصماً بالكتاب والسنة، ولذلك لما جاء أولئك نفر الذين ظنوا أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد خصه الرسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر دون غيره، قال ما عندنا شيء إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة فنشرها فإذا فيها قول النبي صلى الله عليه وسلم «الْمَدِينَةُ حَرَمٌ، مَا بَيْنَ عَائِرِ إِلَى كَذَا، مَنْ أَحَدَثَ فِيهَا حَدَّثًا، أَوْ آوَى مُحَدِّثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ... الحديث»^٢، وهذا الإيضاح منه رضي الله عنه إخماداً لفتنة قد تسبب اختلالاً للأمن، وتعدياً وظلماً، واختلافاً وتفرقاً، ووقع ما فطن إليه رضي الله عنه وأرضاه بتقدير الله وحكمته.

٣. (٧٣٠٠) حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ خَطَبَنَا عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى مَنَبَرٍ مِنْ آجُرٍّ، وَعَلَيْهِ سَيْفٌ فِيهِ صَحِيفَةٌ مُعَلَّقَةٌ فَقَالَ وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ يُقْرَأُ إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. فَنَشَرَهَا فَإِذَا فِيهَا أَسْتَانُ الْإِبِلِ وَإِذَا فِيهَا «الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ عَيْرٍ إِلَى كَذَا، فَمَنْ أَحَدَثَ فِيهَا حَدَّثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا». وَإِذَا فِيهِ «ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا». وَإِذَا فِيهَا «مَنْ وَالَى قَوْمًا بَعِيرٍ إِذَنْ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا».

هذا الحديث المروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه له دلالات تربوية كثيرة، منها ما يتعلق بتحقيق مبدأ حفظ الأمن المادي، حيث أن الإمام علي رضي الله عنه وأرضاه وآل البيت عموماً انقسم الناس فيهم بين إفراط وتفريط، والصحيح منهج الوسط وهو ما كان هو وسائر الصحابة عليه رضي الله عنهم أجمعين، وفي رد علي رضي الله عنه على أولئك نفر الذين زعموا له خصيصة أو سراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد به إليه، كما جاء في رواية مسلم من طريق أبي الطفيل "كنت عند علي فأتاه رجل فقال ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يُسرُّ إليك فغضب ثم قال ما كان

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٤٩.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة، حديث رقم (١٨٧٠).

يُسِرُّ إِلَيَّ شَيْئاً يَكْتُمُهُ عَنِ النَّاسِ غَيْرِ أَنَّهُ حَدَّثَنِي بِكَلِمَاتٍ أَرْبَعٍ، وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ مَا خَصَّنَا بِشَيْءٍ لَمْ يَعْمَ بِهِ النَّاسُ كَافَةً إِلَّا مَا كَانَ فِي قِرَابِ سَيْفِي هَذَا، فَأَخْرَجَ صَحِيفَةً...^١ وجاء في رواية أخرى "من طريق أبي جحيفة قلت لعلي هل عندكم كتاب، قال لا إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة..."^٢، كل ذلك يدل على تمسكه رضي الله عنه بالكتاب والسنة واعتصامه بهما، وربط الناس بذلك المصدر الذي يجمع ويوحد، ويحفظ أمن المجتمع من الوقوع في الفتن والافتتال، واستحلال الأعراض والأموال، وهو ما حدث فيما بعد حين ابتعد الناس عن الكتاب والسنة وتمسكوا بالآراء والأهواء^٣، يقول الكرمانى "مناسبة حديث علي للترجمة لعله من جهة أنه يستفاد من قول علي (ما عندنا من كتاب يُقرأ) الخ تبكيت من تنطع في الكلام وجاء بغير ما في الكتاب والسنة"^٤. وفي الحديث دلالة على أن المُحَدِّثَ وَمُؤَيِّ المُحَدِّثِ فِي الإِثْمِ سَوَاءٌ، وَأَنْ إِثْمَ ذَلِكَ لَيْسَ خَاصًّا بِالْمَدِينَةِ بَلِ الحُكْمِ عَامٌ، قَالَ ابْنُ حَجْرٍ "والغرض بإيراد الحديث هنا لعن من أحدث حدثاً، فإنه وإن قُيدَ في الخبر بالمدينة، فالحكم عامٌ فيها وفي غيرها إذا كان من متعلقات الدين"^٥.

وفي قوله صلى الله عليه وسلم «ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»، "أي أمانهم صحيح فإذا أمن الكافر واحد منهم حرم على غيره التعرض له، وللأمان شروط معروفة. وقال البيضاوي: الذمة العهد، سُمي بها لأنه يذم متعاطيها على إضاعتها. وقوله: يسعى بها أي يتولاها ويذهب ويجي، والمعنى أن ذمة المسلمين سواء صدرت من واحد أو أكثر شريف أو ضيع، فإذا أمن أحد من المسلمين كافراً وأعطاه ذمة لم يكن لأحد نقضه، فيستوي في ذلك الرجل والمرأة والحر والعبد، لأن المسلمين كنفس واحدة... وقوله: (فمن أخفر) بالخاء المعجمة والفاء أي نقض العهد، يقال خفرت به بغير ألف أمنته وأخفرت به نقضت عهده"^٦، فمن تعدى على حق المسلم في إعطاء الأمان لغيره بالقتل فقد نقض عهده،

^١ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٤، ص ١٠٦.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠٦.

^٣ وهذا ما حدث حين تقاتل المسلمون في موقعة الجمل وصفين وحدث ما حدث من تفرق واختلاف، وكان السبب الأول كما ذكرت كتب التاريخ الخوارج الذين خرجوا على عثمان رضي الله عنه واستحلوا دمه وماله، ثم خرجوا على علي رضي الله عنه وتتابعت فتنهم وأهوائهم في الأمة إلى اليوم، كل ذلك بسبب فساد تصورهم الشرعي، وبعدهم عن الكتاب والسنة فهماً وتطبيقاً.

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٤٥.

^٥ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١٣، ص ٣٤٥.

^٦ ابن حجر، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠٧.

وتحقق فيه الوعيد النبوي من لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وعدم قبول الأعمال منه يقول ابن حجر في معنى (لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً) "واختلف في تفسيرهما فعند الجمهور الصرف الفريضة والعدل النافلة"^١، فمن نظر إلى هذا الوعيد وهذا الجزاء على من تعدى على أمر معنوي في حق المسلم وهو نقض عهده في كافر، فكيف بمن يتجرأ على أخيه المسلم في عرضه أو ماله أو دينه أو دمه؟ لا شك أن هذا التشريع يحفظ للمجتمعات أمنها المادي، ويُحرّم ويُجرّم كل من أراد الفتنة أو السعي في الأرض فساداً وإهلاكاً للحرث والنسل.

٤. (٧٣٣٢) عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ وَأَمْرَأَةٍ زَنِيًّا، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرَجِمَا قَرِيبًا مِنْ حَيْثُ تُوَضَّعُ الْجَنَائِزُ عِنْدَ الْمَسْجِدِ.

هذا الحديث أورده البخاري في كتابه للدلالة على "المشاهد الكريمة المصرح بها في قوله ومصلى النبي صلى الله عليه وسلم"، لكن دلالة التبروية في حفظ الأمن المادي وما ينبني عليه من اجتماع واتتلاف ونبذ للاختلاف والتفرق يظهر من خلال تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم لحد الزنا في ذلك المجتمع الذي كان يجمع اليهود والمنافقين إلى جانب المسلمين، ولا شك أن إقامة القانون الرباني يحفظ أمن المجتمعات، وخاصة تلك التشريعات التي تحفظ الضروريات الخمس لكل إنسان وهي حفظ النفس والدين والعقل والمال والعرض، وحفظها يكون بعدم الاعتداء عليها أو التجرؤ والاستخفاف بها، لذلك جعل الله تعالى حدّ القذف الذي هو عقوبة على أقل اعتداء وهي الكلمة، الجلد ثمانين جلدة قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة النور، آية: ٤)، قال الشوكاني "استعار الرمي للشتم بفاحشة الزنا؛ لكونه جناية بالقول... والمراد بالمحصنات النساء، وخصهن بالذكر لأن قذفهن أشنع، والعار فيهن أعظم، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة"^٢، وهكذا في حفظ جميع الضروريات، أحكام وحدود وتشريعات تضمن الأمن المادي للجميع من أي دين أو مذهب أو فكر، وتردع كل من يتجرأ أو يستخف بها كائناً من كان.

٥. (٧٣٢١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا - وَرَبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ مِنْ دَمِهَا - لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ أَوَّلًا».

^١ ابن حجر، المرجع السابق، ج ٤، ص ١٠٦.

^٢ الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ص ١٠.

هذا الحديث يُبين جرم وإثم من أقدم على جريمة القتل بدون وجه حق كما قال تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٥١)، قال الشوكاني "أي لا تقتلوا شيئاً من الأنفس التي حرّمها الله (إلا بالحق) أي إلا بما يوجب الحق، والاستثناء مفرغ، أي لا تقتلوه في حال من الأحوال إلا في حال الحق، أو لا تقتلوهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، ومن الحق قتلها قصاصاً، وقتلها بسبب زنا المحصن، وقتلها بسبب الردّة، ونحو ذلك من الأسباب التي ورد الشرع بها"^١، وهو بذلك يشير إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم في حق المسلم «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ وَالثَّيْبِ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ»^٢، وقوله صلى الله عليه وسلم في حق المُعَاهِدِ غير المسلم «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^٣.

فهذا التشريع في حرمة الاعتداء على الدماء المعصومة، يضمن للمجتمعات الأمن والاستقرار، وينشر المحبة والأخوة، وفيه إشارة إلى حرمة كل ما من شأنه أن يكون سبباً في حدوث المفسد عامة "ووجه التحذير أن الذي يُحدِث البدعة قد يتهاون بها لحفة أمرها في أول الأمر، ولا يشعر بما يترتب عليها من المفسدة، وهو أن يلحقه إثم من عمل بها من بعده، ولو لم يكن هو عمل بها بل لكونه كان الأصل في إحداثها"^٤، وهذا ليكون رادعاً لكل من يحاول فعل أي أمر من الأمور التي تفسد فيكون عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة كما حدث مع ابن آدم في فعله.

٦. (٧٣٣٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَعَ لَهُ أَحَدٌ فَقَالَ «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا».

هذا الحديث الذي يُبين حرمة مكة على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وحرمة المدينة على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يدل على أهمية تحقيق الأمن المادي في أي مجتمع، فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ترك زوجته وابنه في مكة وكانت وادي غير ذي زرع أراد أن يتحقق لهم الأمن

^١ الشوكاني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٨.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى (أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ...)، حديث رقم (٦٨٧٨).

^٣ أخرجه البخاري، كتاب الديات، باب إثم من قتل ذمياً بغير جرم، حديث رقم (٦٩١٤).

^٤ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٧٤.

الذي به قوام الحياة، وإقامة الدين فقال ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمِنًا﴾ (سورة إبراهيم، آية: ٣٥)، ونبينا صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكانت بداية انطلاق الدعوة ونواة الإسلام، وكان فيها اليهود والمنافقون، وحولها الأعراب والمشركون، أراد تحقيق الأمن الذي يستطيع به تقوية المجتمع المسلم، ونشر مبادئ الإسلام في أرجاء المعمورة فقال «وَإِنِّي أُحْرِمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا»، «واللابتان جمع لابة بتخفيف الموحدة وهي الحرة وهي الحجرة السود»^١، والمقصود أن جميع المدينة حرام قال ابن حجر "واستدل أبو هريرة بقوله صلى الله عليه وسلم ما بين لابتيها أي المدينة حرام لأن المراد بذلك المدينة لأنها بين لابتين شرقية وغربية ولها لابتان أيضاً من الجانبين الآخرين إلا أنهما يرجعان إلى الأولين لاتصالهما بهما، والحاصل أن جميع دورها كلها داخل ذلك"^٢، والمقصود بالحرمة هو النهي عن سفك الدماء فيها، أو تنفير الصيد، أو قطع الشجر، أو التقاط اللقطة إلا لمعرف، يقول صلى الله عليه وسلم «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِأَمْرِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجْرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا فَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ. وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، وَتُبْلَغُ الشَّاهِدُ الْغَائِبُ»^٣، وقوله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، فَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، لَا يُخْتَلَى خَلَاهَا، وَلَا

^١ ابن حجر، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠٣.

^٢ ابن حجر، المصدر السابق، ج ٤، ص ١١١.

^٣ أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب ليلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم (١٠٤)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلائها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، حديث رقم (١٣٥٤). واللفظ للبخاري.

^٤ قال ابن حجر "ذكر ابن التين أنه وقع في رواية القاسمي بالمد، وهو الرطب من النبات، واختلاؤه قطعه واحتشاشه، واستدل به على تحريم رعيه لكونه أشد من الاحتشاش، وبه قال مالك والكوفيون، واختاره الطبري، وقال الشافعي لا بأس بالرعي لمصلحة البهائم، وهو عمل الناس، بخلاف الاحتشاش فإنه المنهي عنه، فلا يتعدى ذلك إلى غيره، وفي تخصيص التحريم بالرطب إشارة إلى جواز رعي اليابس واختلاؤه، وهو أصح الوجهين للشافعية؛ لأن النبت اليابس كالصيد الميت، قال ابن قدامة لكن في استثناء الإذخر إشارة إلى تحريم اليابس من الحشيش، ويدل عليه أن في بعض طرق حديث أبي هريرة ولا يحتش حشيشها، قال وأجمعوا على إباحتها أخذ ما استنبته الناس في الحرم من بقل وزرع ومشموم فلا بأس برعيه واختلاؤه". فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ج ٤، ص ٦٠.

يُعْضدُ شَجْرَهَا، وَلَا يُنْفِرُ صَيْدَهَا، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُعَرَّفٍ»^١، وهذا التحريم الشامل لعدم الاعتداء على الإنسان والحيوان والنبات والجماد في أطهر وأقدس بقاع الأرض مكة المكرمة والمدينة المنورة، هو تربية عملية لكل مسلم في كيفية تحقيق الأمن المادي، وزرع ثقافة المسؤولية والأمانة لتطبيقها ونشرها فوق كل أرض وتحت كل سماء، تطبيقاً عاماً ينشر الخير والسلام والأمان، تحقيقاً لرسالة خير الأنام صلى الله عليه وسلم في أرجاء المعمورة.

ثالثاً: التطبيق التربوي لمبدأ الأمن المادي:

الأمن من أعظم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، يقول تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٦٧)، ويقول سبحانه ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (سورة قريش، آية: ٣-٤)، وهو موعود الله لمن اهتدى بالكتاب والسنة علماً وعملاً، وفهماً وتطبيقاً، يقول جل جلاله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (سورة النور، آية: ٥٥)، وتوعد الله بسلبه ممن طغى وظلم وتعدى، يقول سبحانه ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (سورة النحل، آية: ١١٢).

والتربية الإسلامية تولى قضية الأمن عناية كبرى؛ لأن به تقوم مصالح الدين والدنيا، وبه تُبنى الحضارات، كما قال تعالى ﴿وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ (سورة الحجر، آية: ٨٢)، ولأجل تحقيقه شُرعت الشرائع السماوية والوضعية، فهو غاية الإنسان في كل زمان ومكان، وهو قاعدة مشتركة، وهدف واحد لكل الأمم والشعوب، لذا فإن الانطلاق منه يُحقق للمجتمعات قوة داخلية وخارجية على أساس الأخوة الإيمانية، أو الصداقة الإنسانية، ورعاية المصالح المشتركة.

والعقيدة والفكر هما الأساس في إنشاء قواعد الأمن، وتثبيت دعائمه في النفوس والعقول أولاً، كما قال تعالى ﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (سورة طه، آية: ١٢٣)، أي من سار على هدي الله لا يضل عقله ولا تشقى نفسه، فيكون بذلك قد حقق الأمن النفسي للفرد في ذاته أولاً، يقول تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (سورة

^١ أخرجه البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب لا ينفر صيد الحرم، حديث رقم (١٨٣٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاتها وشجرها ولقطنها إلا لمنشد على الدوام، حديث رقم (١٣٥٣). واللفظ للبخاري.

والأنعام، آية: ٨٢)، وعلى أرض الواقع ثانياً، كما قال تعالى ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (سورة الحج، آية: ٤٠).

والتربية الإسلامية لا تهدف إلى تحقيق الأمن الظاهر فقط، بل تهدف إلى غرسه في أعماق النفوس وبأعلى الدرجات والمراتب، يقول تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد، آية: ٢٨)، ومن هذا المنطلق أولت تحقيق الأمن غاية الاهتمام، بل وجعلته من أسمى الغايات والمقاصد، وشرعت لأجله التشريعات والقوانين التي تصب في إطاره، وتحفظ حدوده، ابتداءً بالحدود التي تضبط الأحوال الشخصية، يقول تعالى ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (سورة المائدة، آية: ٤٥)، وانتهاءً بالجهاد الذي يضبط الحدود الجغرافية، يقول تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٩٠)، وهذا هو التطبيق المثالي الذي يتسم بالواقعية، ويحفظ الحقوق، ويصون الكرامات، ويرعى العهود والذمم، ويُطبق العدل في أعلى صورته وأبهى حلله، يقول عليه الصلاة والسلام «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^١، ليكون تطبيق العدل سبباً في حصول الأمن في المجتمع، ووسيلة لردع كل مخرب ومخل به.

والتربية الإسلامية تقوم في مبدأ حفظ الأمن المادي على رعاية العهد مع الأوطان، كما قيل إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، ووفاء عهده فانظر إلى أوطانه، أي أن الأوطان التي أعطت واحتضنت ورعت جزاءها الوفاء بحفظ أمنها ورعاية مقدراتها ومكتسباتها، ومن نقض عهده مع وطنه وأخل بأمنه ونظامه فهذا دليل على لؤمه وسوء تربيته، لذا قال صلى الله عليه وسلم «وإِنْ حُسِنَ الْعَهْدُ مِنَ الْإِيمَانِ»^٢.

والأمن المادي في المجتمع لا يتحقق إلا بالحرية الفكرية كما سبق بيانه، حيث أنها السلاح القوي لحفظ الأمن المادي، ففي أجواءها الصحية تظهر كافة الأفكار والمعتقدات والأطروحات، ويجري التعاطي معها بالحوار العقلاني، والنقاش العلمي للوصول إلى الحقيقة، أو الاتفاق على كلمة سواء، أو بقاء الخلاف مع الاجتماع، والاتفاق على المحافظة على الحقوق والضرورات عملاً بمبدأ قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (سورة الكافرون، آية: ٦)، وفي ظل غياب الحرية الفكرية تنشأ تلك الأفكار والمعتقدات

^١ سبق تخريجه ص ١٦٠.

^٢ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان، حديث رقم (٤٠). قال الذهبي: على شرطهما وليس له علة.

في سراديب الظلام، وبغطاء السرية والخفاء، تحت تخطيط الشعور بالظلم والاضطهاد، وينتج عن ذلك أفعال الفرقة والاقتتال، والتخريب والإرهاب.

والتربية الإسلامية تقوم على عدة أسس تربوية وشرعية لتحقيق مبدأ الأمن المادي في المجتمع، ومنها:

١. تنمية الضمير الحي والرقابة الذاتية:

وهو ما يُسمى في التربية الإسلامية (التقوى)، الذي هو الأساس في تحقيق مبدأ الأمن في المجتمع حيث أنه ينطلق من ضمير كل فرد من أفرادها، وهو السلطة الضابطة للأقوال والأفعال بل والنيات والأفكار، يقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء، آية: ١)، فهي رقابة ربانية من الضمير المستور المحدود إلى آفاق الكون الظاهر اللامحدود، قال تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ (سورة التغابن، آية: ٤)، بل إن الرقابة والعلم الإلهي يتعدى ذلك إلى الأجزاء والذرات، وجميع الموجودات، يقول تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سورة الأنعام، آية: ٥٩)، كل ذلك ليعيش الفرد في رقابة حيّة، وضمير يقظ مع النفس بأن "تمتع أعداءها من الدخول وخصوصاً النفس الأمارة بالسوء والشيطان اللذان يغذيان المُسْتَعْمِر الأكبر العدو اللدود لهذه الذات ألا وهو الهوى، الذي يحاول إذا ما نفذ وحصل له فرصة الدخول أن يهجم على غرفة قيادة الإنسان -وهي عقله- ويتمركز فيها ليصدر قرارات في صالحه بعيداً عن مصلحة المُسْتَعْمِرَة -الذات-"^١، فإذا حقق الفرد التقوى في حياته وتصرفاته، سرّاً وعلناً، كان قادراً "على أن يكون علاقة سوية أفقية مع الإنسان الآخر، لأن علاقته الرأسية مع ربه عن طريق المراقبة اللحظية أنتجت له علاقة سوية متشابهة متجانسة مع الدوائر القريبة والبعيدة الأفقية فنال محبة الله ومحبة الناس.. وهذا أقصى ما يطمع إليه الإنسان، إنجازاً وسعادة وطمأنينة في داخل النفس وسعادة وطمأنينة في خارج النفس"^٢، وهذا الأساس الذي يحقق الأمن في جميع جوانبه واتجاهاته، ويضع المعايير والمقاييس التي يتبناها إنسان التربية الإسلامية لاتقاء الاصطدام بالقوانين الإلهية، أو السنن كما يُعبر عنها الكيلاني بقوله "ففي العلاقة مع الله يتقي -إنسان التربية الإسلامية- الانحراف عن علاقة العبودية، وفي علاقته مع الكون يتقي الانحراف عن علاقة التسخير، وفي علاقته مع الإنسان يتقي

^١ نسبية عبد العزيز المطوع: تعالم نستثمر التقوى (١)، ساسلة رؤية لمنهج تربوي اجتماعي ثقافي إسلامي، ط ٢،

١٤١٥هـ، لجنة ساعد أحاك المسلم في كل مكان، الكويت، ص ١١٠.

^٢ المطوع، المرجع السابق، ص ١١٠.

الانحراف عن علاقة العدل والإحسان، وفي علاقته مع الحياة يتقي الانحراف عن علاقة الابتلاء، وفي علاقته مع الآخرة يتقي عن علاقة المسؤولية والجزاء، وتكون محصلة هذه الأشكال _من الالتقاء_ هي بقاء النوع البشري ورقبه وهي الغاية النهائية لفلسفة التربية الإسلامية^١.

وإذا غابت الرقابة الذاتية، وانطفأ نور الضمير الإنساني، فإن الوسائل الرادعة الأخرى كرقابة القانون الذي يكون تطبيقه كالدواء اللحظي الذي يوشك أن ينتهي مفعوله، أو تغفل عينه الساهرة، فتكون النتيجة الآف البلاغات عن سرقات في دقائق بسبب انقطاع تيار الكهرباء في ولاية أمريكية واحدة.

ولا يمكن أن يتحقق الأمن والسلام للعالم في واقعنا المعاصر إلا من خلال تربية الأفراد على الرقابة الربانية، والضمير الحي، الذي يضمن أمن وسلامة ونجاة الدول وشعوبها، "لهذا... فإن منهج الإسلام في تحقيق الأمن والتعاون الدوليين يتميز بأنه جزء من المنهج الإسلامي الشامل، ذلك المنهج الرباني الذي يعتمد في تطبيقه وتنفيذه على عنصر تقوى الله ومراقبته في كل آن وحين"^٢، وهذا ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في المنجيات التي ذكرها وبينها لأمته، ومنها قوله «وَحَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ»^٣، فإذا حقق الفرد تقوى الله تعالى في أحواله وسلوكه وصل إلى أعلى مراتب الأمان والاستقرار النفسي والمادي.

٢. تطبيق القوانين والأنظمة:

وهو ما يُسمى في التربية الإسلامية (الحدود والعقوبات)، وهذا الأساس لا غنى عنه في تحقيق مبدأ الأمن؛ لأن الله خلق الإنسان وفطره على الخطأ «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^٤، وهذا الخطأ تختلف عقوبته باختلاف مرتبته وأحواله وملابساته، وهي على النحو التالي:

أ- مرتبة الخطأ مع الله تعالى:

ويُعبّر عنها في التربية الإسلامية بارتكاب المعاصي، وهذه المرتبة يشترك فيها عموم البشر ماعدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأنهم معصومون بعصمة الله لهم، وهذه المرتبة من الأخطاء هي السبب في اختلال الأمن النفسي أولاً ثم الاجتماعي، لما تحدثه من ضعف الرقابة، وتقوى الله تعالى، فينهار

^١ الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٤٤٠-٤٤١.

^٢ أبو شبانة، النظام الدولي بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، ص ٦٢٩.

^٣ سبق تخريجه ص ٩٦.

^٤ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التوبة والإنابة، حديث رقم (٧٦١٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

المجتمع من الداخل باهتار نفوس أفراده قبل أن يتسلط عليه الأعداء من الداخل والخارج، يقول تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (سورة النحل، آية: ١١٢)، والعلاج الذي وضعته التربية الإسلامية لهذا الخطأ يسير وسهل ليس فيه اعتراف بخطيئة^١، ولا إثبات صدق توبة بقتل النفس، كما قال تعالى عن بني إسرائيل ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة، آية: ٥٤)، إنما هو باب مفتوح بين المذنب ورب القائل ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر، آية: ٥٣)، والقائل سبحانه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ (سورة هود، آية: ١١٤)، هذه حقيقة التوبة فهي أمر يسير كما قال عليه الصلاة والسلام «النَّدْمُ تَوْبَةٌ»^٢، فإن لم يأتي هذا العلاج بنتيجة، فإن التربية الإسلامية شرعت "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"^٣ وهو علاج استصلاحي، وداعم اجتماعي يقوم بمتابعة الظواهر السلوكية لأفراد المجتمع ليُقوم ويُصحح، ويُرشد وينبّه في كل حالة وواقعة بما يناسبها، وهذا العلاج لمن غاب عنه الضمير، وغشيتته الغفلة، ووقع في الخطأ، ولكن إن لم يُقدم بالطريقة الصحيحة والجرعة الكافية كان سبباً في زيادة أخطاء الأفراد وتماديهم، واختلال أمن المجتمع وطمأنينته، وهلاكه ونهايته، وما أجمل حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وتشبيهه للمجتمع بالسفينة التي لا نجاة فيها لأحد إلا بتعاون بقية أفرادها، وذلك بروح الإعذار والمحبة والأخوة «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَىٰ حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَأَقِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَىٰ سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي

^١ معتقد الخطيئة الأولى هو أساس العقلية النصرانية، وبعض المذاهب الإسلامية الباطنية، والتي تعتقد بتوارث الخطيئة في الأجيال، ووقوع شؤمها عليهم في الدنيا قبل الآخرة.

^٢ أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التوبة والإنابة، حديث رقم (٧٦١٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بهذه اللفظة، إنما اتفقا على حديث الإفك وقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها "إن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت أملت بذنبي فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه".

^٣ ذكر العلماء ضوابط وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي العلم والرفق والصرير. قال ابن تيمية "كما جاء في الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعاً، ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد (لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه). انظر: ابن تيمية، الفتاوى، ج ٢٨، ص ٧٨-٧٩.

نَصَبِينَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَيَّ أَيْدِيَهُمْ نَجَوْنَا وَنَجَوْنَا جَمِيعًا»^١.

وهذا العلاج يتوجب في حق كل من أراد الإخلال بالأمن الاجتماعي العام وهو المجاهر الذي أظهر خطاه مع الله تبارك وتعالى أمام أفراد المجتمع، فيكون رده حفظاً للأمن وإعذاراً أمام الله تعالى من مسؤولية النصيحة والإبلاغ كما قال تعالى عن حال المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من بني إسرائيل ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٦٤-١٦٥)، أما من يقوم بهذا العلاج فهو واجبٌ على كل أفراد المجتمع حتى ذلك المظاهر بخطئه ومعصيته لعموم قول النبي صلى الله عليه وسلم «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^٢.

وفي بداية كلامنا عن هذا العلاج لا بد من معرفة حقيقة الإنسان وهو أن الله خلقه وأسجد له ملائكته وبيّن له عدوه، وأسكنه جنته لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى، وخاطبه الله بحكم التحريم من الأكل من الشجرة مشافهةً، فما كان منه بعد هذه الكرامات والمشاهدات وكمال الإيمان واليقين إلا النسيان والضعف، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَّا وَكَمْ نَجِدَ لَهُ عَزْمًا﴾ (سورة طه، آية: ١١٥)، فكانت الطبيعة الإنسانية النسيان والضعف، والخطأ والزلل، لذا فإن الإنسان كما قيل له درجة انصهار معينة يذوب عندها ويضعف أمامها، هذه الدرجة التي توقعه في الخطأ لتكشف عجزه، وتُظهر ضعفه، وتُبين حقيقته التي قال عنها الباربي جل شأنه ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء، آية: ٢٨)، فمن الناس من تكون درجة انصهاره وسبب ضعفه ووقوعه في الخطأ والزلل المرأة، ومنهم المال، ومنهم الجاه، ومنهم الشرف والمكانة، ومنهم حب الرئاسة والتصدر... وهكذا، فإذا علمنا ذلك زالت من أعيننا قداسة الأشخاص، وذابت من أنفسنا قداسة الذات، وكان تقويمنا لأخطاء الناس أعدل، والتعامل معهم أرفق وأرحم، وكان إعذارنا لهم أكثر، وسترهم أوجب، والدعاء لهم بالهداية والصلاح أقرب، والخوف على النفس من الوقوع في مثل ذلك الخطأ أولى، وزاد علمنا ومعرفتنا برحمة الله وكرمه على الإنسان حيث "جعل باب التوبة مفتوحاً له

^١ أخرجه البخاري، كتاب الشركة، باب هل يُقرع في القسمة والاستهام فيه، حديث رقم (٢٤٩٣).

^٢ أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، حديث رقم (٤٩).

في كل لحظة، فإذا نسي ثم تذكر، وإذا عثر ثم نهض، وإذا غوى ثم تاب وجد الباب مفتوحاً له، وقبل الله توبته، وأقال عثرته، فإذا استقام على طريقه بدل الله سيئاته حسنات، وضاعف له ما شاء، ولم يجعل خطيئته الأولى لعنة مكتوبة عليه وعلى ذريته، فليست هنالك خطيئة أبدية، وليست هنالك خطيئة موروثية (ولا تزر وازرة وزر أخرى).

وهذه الحقيقة في التصور الإسلامي تنقذ كاهل البشرية من أسطورة الخطيئة الموروثة التي تقوم عليها التصورات الكنسية في المسيحية، والتي يقوم عليها ركام هائل من الطقوس والتشكيلات فوق ما يقوم فوقها من الأساطير والحرافات، خطيئة آدم التي تلازم البشرية كاللعنة المصلتة على الرقاب! حتى يتمثل الإله في صورة ابن الإنسان (المسيح) ويصلب ويحمل العذاب للتكفير عن هذه الخطيئة الموروثة، ومن ثم يكتب (الغفران) لمن يتحد بالمسيح الذي كفر بدمه عن خطيئة آدم التي ورثها البشرية!

إن الأمر في التصور الإسلامي أيسر من هذا بكثير، لقد نسي آدم وأخطأ، ولقد تاب واستغفر، ولقد قبل الله توبته وغفر له، وانتهى أمر تلك الخطيئة الأولى، ولم يبق منها إلا رصيد التجربة الذي يعين الجنس البشري في صراعه الطويل المدى، أية بساطة! وأي وضوح! وأي يسر في هذه العقيدة!^١

هذه حقيقة الذنب والتوبة التي هي قدر بني آدم، فهي تجربة إنسانية ذاتية مع الخطأ، وتربية على التعامل معه، للقدرة على التكيف في ظروفه، والخروج من ظلماته وضيقه إلى أنوار وفرج التوبة، لتحقيق المناعة النفسية من آثاره، يقول الكيلاني "وفي السنين الأخيرة كشف علم النفس عن أهمية الذنب والتوبة في ترقى الإنسان ونموه، وعن مخاطر غياب التوبة في انحطاط الإنسان وتعقد حياته، وهذه ظاهرة اهتم بها عالم النفس المشهور -أبراهام ماسلو- في أبحاثه المختلفة وخلص إلى أن الطبيعة الإنسانية ضعيفة تغلب عليها العادات السيئة والضغوط الثقافية والاتجاهات الخاطئة، وأن تهذيبها وتربيتها لا يقتصران على إشباع حاجاتها الأساسية وحدها، وإنما يتم أيضاً من خلال الحرمان والإحباط والألم والمآسى والشعور بالذنب، شريطة أن يتوفر للنفس الإرشاد الصحيح الذي يحول هذه الخبرات القاسية إلى نموٍ حرٍ وتطورٍ نحو النضج والتكيف والتوازن"^٢.

والذنب بهذا المعنى يكسر زهو النفس، ويطمس عجبها، ويجعلها تنظر إلى إنسانيتها وفطرتها فتتعرف على كمال الله بنقصها، وقوة الله بضعفها، وقدرة الله بعجزها، وتتطلع إلى الطمأنينة والسكينة، وطلب الرحمة والمغفرة لحظة الذنب والمعصية، وترقى في مراتب المتقين المحسنين، هذه اللحظة التي تكون نقطة تصحيح وتحول إلى المسار والطريق المستقيم، يقول تعالى في وصف عباده

^١ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٢٧٤.

^٢ الكيلاني، مناهج التربية الإسلامية، ص ٢٤٩-٢٥٠.

المتقين ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآيات: ١٣٣-١٣٦) ، ويقول تعالى مصوراً حال عباده المحسنين ﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ (سورة النجم، آية: ٣١-٣٢) ، فالله سبحانه وتعالى يربي عباده بالذنوب لتتكسر نفوسهم لباريها، وينهاهم عن تزكية أنفسهم، جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله «أَنَّ رَجُلًا قَالَ وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ فِإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»^١، هذا النظرة المتعالية التي توبق صاحبها مهما بلغ من العبادة والعلم والتزكية، ولا يلجمها ولا يُخفف حدتها ويُهذب طبعها إلا الذنوب التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم «لو لم تكونوا تذنبون خشيت عليكم أكثر من ذلك (العُجْب)»^٢، وهو الذي أخبر عنه صلى الله عليه وسلم بأنه من المهلكات^٣.

فالذنب ليس محموداً ولا مطلوباً في التربية الإسلامية لذاته، وإنما التصحيح والتوبة التي تعقب ذلك الذنب الذي جُبل عليه جميع بني آدم هو الهدف الأسمى، والغاية القصوى، يقول صلى الله عليه وسلم «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَكَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^٤، والله تعالى ينادي عباده الذين فطروهم على المعصية بتلطف وتوود في لحظات الانغماس في

^١ أخرجه مسلم، كتابا لير والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، حديث رقم (٢٦٢١).

^٢ أخرجه البيهقي، باب معالجة كل ذنب بالتوبة، فصل في الطبع على القلب أو الرين، حديث رقم (٧٢٥٥). أحمد بن الحسين البيهقي: شعب الإيمان، ت: محمد السعيد بسويوني زغلول، ١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (حديث حسن)، محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ط ٣، ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي، دمشق، حديث رقم (٦٥٨).

^٣ الحديث قوله صلى الله عليه وسلم «ثَلَاثٌ مُّهْلِكَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُّنْجِيَاتٌ، وَثَلَاثٌ كَفَّارَاتٌ، وَثَلَاثٌ دَرَجَاتٌ. فَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشَحُّ مَطْعَةٍ، وَهَوَىٰ مُتَّبِعٍ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ... الحديث». سبق تخريجه ص ٩٦.

^٤ أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، حديث رقم (٢٧٤٩).

المعاصي والذنوب ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر، آية: ٥٣)، وما أجمل وأجل وأرحم قول الباري في وصفه لمن ارتكب أعظم ذنب _الشرك بالله_، وأكبر الكبائر _الاعتداء بالقتل على النفس_، وبالزنا على الأعراس _ثم يفتح لهم باب التوبة والأمل والنور_، وأعظم من ذلك يُبدل تلك السيئات إلى حسنات، يقول تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٢﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (سورة الفرقان، الآيات: ٦٨-٧١)، ويفتح باب الأمل في عين من ضاقت به الخطايا، وأوبقته الذنوب، عند نداء الباري جلّت رحمته «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لِأَتَيْتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»^١، وأعظم رحمة من الرحمن على عباده، قول الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ، أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»^٢، وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم «يَا مُعَاذُ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ». قال قلت لله ورسوله أعلم، قال «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». قال قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس، قال «لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَلَّمُوا»^٣، بل إنه سبحانه مع غناه عن عباده يفرح بتوبتهم ورجوعهم إليه يقول صلى الله عليه وسلم «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَأْسِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً

^١ أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، حديث رقم (٣٥٤٠). قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقال الألباني: حديث صحيح.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى (يا أهل الكتب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق)، حديث رقم (٣٤٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، حديث رقم (٢٨).

^٣ أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، حديث رقم (٣٠).

فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيَّنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»^١.

فإذا وسعت رحمة الله وعفوه ومغفرته من قتل مئة نفس لتوبته^٢، وبغى بني إسرائيل لسقيها كلب^٣، بل ويتجاوز ويعفو عمن أقبل إليه وأحدث توبة بعد أخرى كما قال صلى الله عليه وسلم «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا -وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا- فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ -وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ- فَأَغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفْرَتُ عَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ -أَوْ أَصَبْتُ- آخَرَ فَأَغْفِرْهُ. فَقَالَ أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفْرَتُ عَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا -وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا- قَالَ رَبِّ أَصَبْتُ -أَوْ أَذْنَبْتُ- آخَرَ فَأَغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفْرَتُ عَبْدِي -ثَلَاثًا- فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»^٤، فإذا كان هذا فضل الله ورحمته على العصاة المذنبين فكيف الحال مع التائبين المقبلين؟! ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ

^١ أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب في الحظ على التوبة والفرح بها، حديث رقم (٢٧٤٧).

^٢ الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ لَا. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ أَنْطَلِقَ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ بِهَا أَنَا سَأَلْتُ اللَّهَ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضٌ سَوَاءٌ. فَأَنْطَلِقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بَقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ. وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قَيْسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَذْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَجَبَّضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ». قَالَ فَتَادَةُ فَقَالَ الْحَسَنُ ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ. أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم (٣٤٧٠)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم (٢٧٦٦)، واللفظ لمسلم.

^٣ الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُؤَمِّسَةٍ مَرَّتَ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكْبِي يَلْهَثُ، قَالَ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَزَعَعَتْ خُفَّهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا، فَزَعَعَتْ لَهُ مِنْ الْمَاءِ، فَغَفِرَ لَهَا بِذَلِكَ». أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه...، حديث رقم

(٣٣٢١) واللفظ له، ومسلم، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم، حديث رقم (٢٤٤٥).

^٤ أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ)، حديث رقم (٧٥٠٧).

الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (سورة الإسراء، آية: ١٠٠)، ولكن من اعتصم بكتاب الله وهدى نبيه صلى الله عليه وسلم فإنه يكون رحمةً على عباد الله، ونوراً ودليلاً لهم إلى نيل فضل الله وجوده ورحمته.

إلهي

أنا إن كنتُ مذنباً وأثيماً إنما ذو الجلال لا يُرديني
أنا إن كنتُ مذنباً وأثيماً فرحيمُ العباد لا يُخزيني
أنا إن كنتُ مذنباً وأثيماً فرضا الله سوف لا يُخطيني
أنا إن كنتُ مذنباً وأثيماً فالهي من الضنى يشفيني
أنا إن كنتُ مذنباً وأثيماً إنما رحمةُ الإله تقيني
علمَ الله أن قلبي ضعيفٌ فرواني بماء عين اليقين^١

وحين يحتل التصور الشرعي التربوي لتطبيق ذلك العلاج الرباني _ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر_ فإن الأسلوب يتحول إلى فضاضةٍ وغلظةٍ وفضحٍ وتشهيرٍ وحقْدٍ وتشفيٍ وتنزِيلٍ للأحكام ونقدٍ للسلوك والذات، _ كما فعل ذو الخويصرة مع النبي صلى الله عليه وسلم^٢، وفرض التطبيق على جميع الأشخاص والأحوال والظروف، وتعميم الإنكار على الأمور المنصوص أو المُجمع عليها وعلى الأمور المُختلف فيها، يقول ابن مفلح رحمه الله "ولا إنكار فيما يسوغ فيه خلاف من الفروع على من اجتهد فيه، أو قلّد مجتهداً فيه... وقد قال الإمام أحمد في رواية المروزي: لا ينبغي للفقهاء أن يحمل الناس على مذهب ولا يشدد عليهم"^٣.

أو بالمقابل تخلياً عن المسؤولية الاجتماعية وإعراضاً وصدوداً وأنانيةً وذاتيةً تجعل المجتمع يغرق في فوضى الأخطاء بلا ناصح ولا مرشد، يقول ابن تيمية "وهنا يغلط فريقان من الناس: فريقٌ يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلاً لهذه الآية كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته إنكم تقرأون هذه الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (سورة المائدة، آية: ١٠٥)، وإنكم تضعونها في غير موضعها وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم

^١ نقلاً عن العفاني، رائق الشهد من شعر الدعوة والرفائق والزهد (مع الله)، ص ٦٠-٦١.

^٢ سبق ذكر الحديث وتخريجه والتعليق عليه في الفصل الثالث، المبحث الأول، مطلب (تصحيح التصورات العقلية والشرعية)، ص ١٤٠.

^٣ أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي: الآداب الشرعية، ت: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، ط ٢، ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج ١، ص ١٨٨-١٨٩.

يغيروه أو شك أن يعمهم الله بعقابٍ منه»^١. والفريق الثاني من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقاً من غير فقهٍ وحلمٍ وصبرٍ ونظرٍ فيما يصلح من ذلك ومالا يصلح وما يقدر عليه ومالا يقدر، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنياً مؤثرةً وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه ورأيت أمراً لا يدان لك به فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام فإن من ورائك أيام الصبر فيهن على مثل قبضٍ على الجمر للعامل فيهن كأجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله»^٢ فيأتي بالأمر والنهي معتقداً أنه مطيعٌ في ذلك لله ورسوله وهو معتدٍ في حدوده، كما انتصب كثيرٌ من أهل البدع والأهواء كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي والجهاد على ذلك وكان فساده أعظم من صلاحه ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على جور الأئمة ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة"^٣.

والمنهج الوسط هو ما جاء في نصوص الكتاب ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضْتُمَا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٩)، وهدى السنة الذي جاء فيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه عليّ، قال ولم يسأله عنه، قال وحضرت الصلاة فصلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما قضى الصلاة قام إليه الرجل فقال يا رسول الله إني أصبت حداً، فأقم فيّ كتاب الله. قال عليه الصلاة والسلام بلسان الرحمة والستر والإصلاح «أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا». قال نعم. قال «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ». أو قال «حَدَّكَ»^٤. وفي موقف آخر يأتي إليه رجل وهو في المسجد فيناديه بكل صراحة ووضوح يا رسول الله إني زنيت، فيعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم علّه أن يتراجع، فيتحنّى لشقّ وجه النبي صلى الله عليه وسلم الذي أعرض قبله فقال يا رسول الله إني زنيت، فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم في المرة الثانية، فجاء لشقّ وجهه الذي أعرض عنه، فلما شهد على نفسه

^١ أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث رقم (٤٠٠٥). قال الألباني: حديث صحيح.

^٢ أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب قوله تعال يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم، حديث رقم (٤٠١٤). قال الألباني: ضعيف، لكن فقرة أيام الصبر ثابتة.

^٣ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٨، ص ٧٤-٧٥.

^٤ أخرجه البخاري، كتاب المحاربين، باب إذا أقر بالحد ولم يبين، فهل للأمام أن يستر عليه، حديث رقم (٦٨٢٣). ومسلم، كتاب التوبة، باب قوله تعال (إن الحسنات يذهبن السيئات)، حديث رقم (٢٧٦٥).

أربع شهادات دعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له بلسان الرحمة وحكمة الطيب «أَبِكَ جُنُونٌ»، قال لا يا رسول الله، فقال «أَحْصَنْتَ»، قال نعم يا رسول الله، قال «اذْهَبُوا فَارْجُمُوهُ»^١، والمواقف النبوية في التعامل مع المخطئين في حق الله تعالى بحكمة ورحمة وستر وتلقين أعداء أكثر من أن تحصى، لعلمه صلى الله عليه وسلم أن الله أَعْيَر على حدوده وشرعه، وقادرٌ على إنزال العذاب والعقاب والفضح في وقت وقوع الخطأ، ولكن الجزاء الرباني في الآخرة معلقٌ على الابتلاء الرباني في الدنيا ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيَّ لَأَجَلَ مُسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الشورى، آية: ١٤).

وحقيقة المشكلة _ في هذا الزمن _ في التعامل مع الأخطاء نابعةٌ من مرضٍ وضعفٍ في التدين "وأعراض التدين المنحرف تتشابه على مر العصور، جرتومتها الأولى، جفاف الشعور، وضيق التفكير، وقسوة القلب، والانسلاخ العام من الفطرة، والتعلق الشديد بالمراسم، والصلف بمعرفة الحق، والميل إلى سوء الظن ومعاملة المخطئين بجهروت.

وتلك كلها آفات ينكرها الدين، ولا يعد أصحابها على شيء مهما بلغت عباداتهم...!"، والسؤال المهم هو "هل الدين قاسٍ على المخطئين، يبيت لهم العقاب، ويتربص بهم الدوائر، ويسعى للخلاص منهم؟ أم له موقف أحنى وأرعى بغية تألفهم واستصلاحهم؟

إن عيسى ابن مريم لم يكن يشجع الزناة حين جاؤوا بامرأة عاثرة كي يرحمها فقال (من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم لرحمها...).

إنه كان أولاً يستبشع سيرة نفرٍ من علماء اليهود، يشتهون أن يروا المخطئ مطروحاً للعقاب، مفضوحاً بين الناس، إنهم _ بهذه الشهوة _ ليسوا أفضل من الزانية.

وكان ثانياً يريد إعطاء العاثر فرصة يستعيد فيها رشده، ويصلح نفسه، فمهمة الدين إذا رأى عاثراً أن يعينه على النهوض، لا أن يتقدم للإجهاز عليه.

وعيسى في هذا شبيهٌ بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي كان يلقن المقرّ بالزنا كلمات الرجوع والنجاة من الموت.. ولسنا بتاتاً نلغي وظائف الشرطة والقضاة، أو نهوّن من الشرائع والحدود والقصاص، فالقانون الخلقي باقٍ، والقانون الجنائي باقٍ، وكلاهما له نطاقه الذي يعمل فيه، وكلاهما ضرورة اجتماعية"^٢.

^١ أخرجه البخاري، كتاب المحارِبين، باب سؤال الإمام المقر هل أحصنت، حديث (٦٨٢٥). ومسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، حديث رقم (١٦٩١).

^٢ محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص ١١١-١١٢.

فالتربية الإسلامية تقوم في التعامل مع المخطئ على الرفق والرحمة واللين والستر، وتنهى عن سلوك الفضح والتشهير وتتبع العورات، يقول صلى الله عليه وسلم «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَعْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»^١، لذلك جاء السلوك النبوي مع أخطاء الناس تجاه ربهم وشرعه كما أمره ربه تبارك وتعالى بالرحمة واللين، قام أعرابيٌّ فبال في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتناوله الناس، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم «دَعُوهُ وَهَرِّيقُوا عَلَيَّ بَوْلَهُ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنْبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُسَيَّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسَّرِينَ»^٢، وعن معاوية بن الحكم السلمي قال بينا أنا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عطس رجلٌ من القوم فقلت يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إليَّ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يُصمِّتوني لَكِنِّي سَكَتُ فلما صَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^٣، وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: إن فتىً شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم في مسجده فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا مه مه فقال الشفيق الرحيم صلوات الله وسلامه عليه «اذنُهُ» فدنا منه قريباً قال فجلس، قال «أَتَجِبُهُ لِأُمَّكَ». قال لا والله جعلني الله فداك. قال «وَلَا النَّاسُ يُجِبُونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ». قال «أَفَتَجِبُهُ لِابْنَتِكَ». قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك. قال «وَلَا النَّاسُ يُجِبُونَهُ لِابْنَاتِهِمْ». قال «أَفَتَجِبُهُ لِأَخْتِكَ». قال لا والله جعلني الله فداك. قال «وَلَا النَّاسُ يُجِبُونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ». قال «أَفَتَجِبُهُ لِخَالَاتِكَ». قال لا والله جعلني الله فداك. قال «وَلَا النَّاسُ يُجِبُونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قال فوضع يده عليه وقال «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ». قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء^٤، وتظهر آثار الرحمة والإعذار أكثر وقت إنزال العقوبة على المخطئ يُخبر عمر بن الخطاب

^١ أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، حديث رقم (٤٨٨٠). قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حديث حسن صحيح، حديث رقم (٢٣٤٠).

^٢ أخرجه لبخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، حديث رقم (٢٢٠).

^٣ أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، حديث رقم (٥٣٧).

^٤ أخرجه أحمد، مسند باقي الأنصار، حديث أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (٢٢٢٦٥). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح.

رضي الله عنه أن رجلاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يُضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب، فأُتي به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به. فقال النبي صلى الله عليه وسلم «لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^١.

وفي تعامله اللين الرحيم صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين ما جاء أن رهطاً من اليهود دخلوا عليه صلى الله عليه وسلم فقالوا السام عليك _ أي الموت _ قالت عائشة رضي الله عنها بحال ولسان الغيرة على رسول الله فَفَهِمَّتْهَا فَقَلَّتْ عَلَيْكُم السام واللعنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان الرفق مع اليهود وخطأهم الواضح «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»، فقلت يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا، قال صلى الله عليه وسلم «قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ»^٢، وأعظم من ذلك شهادة عكرمة بن أبي جهل _ الذي ناصب النبي صلى الله عليه وسلم الكفر والعناد والأذية والشدة _، بقوله كما جاء في خبر الذين أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمائهم يوم الفتح لما كان لهم من سابق أذية وبلاء على المسلمين، فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال (لما كان يوم فتح مكة آمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن خطل ومقيس بن صبابه وعبد الله بن سعد بن أبي السرح... وأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم عاصفٌ فقال أصحاب السفينة أخلصوا فإن ألهتكم لا تعني عنكم شيئاً ها هنا، فقال عكرمة والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عليّ عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً صلى الله عليه وسلم حتى أضع يدي في يده فلا جدته عفواً كريماً فجاء فأسلم...)^٣، فكانت أخلاق الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم لهذا المشرك المعناد المحكوم عليه بالقتل سبباً لأن يعود للنبي صلى الله عليه وسلم وكله ثقةً ويقيناً برحمته وعفوه وكرمه صلى الله عليه وسلم.

بهذا التعامل وبهذه العاطفة وهذه الروح انتشر الإسلام والخير والتقوى، والتي لا تكون إلا من صاحب عقلٍ وقلبٍ عليمٍ وأن مهمته الإبلاغ والنصح والتنبيه لا الإكراه والتصنيف، وأن الله

^١ أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة، حديث رقم (٦٧٨٠).

^٢ أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، حديث رقم (٦٠٢٤). ومسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، حديث رقم (٢١٦٥).

^٣ أخرجه النسائي، كتاب تحريم الدم، باب الحكم في المرتد، حديث رقم (٤٠٦٧). قال الألباني: حديث صحيح.

ابتلى المخطئ بارتكاب الخطأ وابتلى المصلح بمعالجة ذلك الخطأ، أما تخليص المجتمع أو الناس من الأخطاء والمعاصي فليست مهمة أحد من البشر، ولم تتحقق في أي زمان لحكمة أرادها الله من اختبار وامتحان بني آدم بتلك الأخطاء التي جُبلت عليها نفوسهم ليتبين من يعلو على رغباته وشهواته بتحقيق التقوى، وإحداث التوبة عند كل خطأ أو معصية امتثالاً لقوله تعالى ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٢)، وقوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٤٢)، ويتبين من يهوي في دركات الشقاء والغفلة والحرمان.

وهذه المهمة وهذا الواجب الشرعي بالتطبيق التربوي، مهمة كل مسلمٍ مصلح تتوافر فيه الاستعدادات العلمية والنفسية، ويتمتع بالقدرات الفنية التفاعلية في الاتصال والمخاطبة، لتكون مهمته إصلاح وهداية البشرية، وهي التي تُسمى هداية الدلالة والإرشاد، وهي حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي هي تابعةٌ وداخلَةٌ في هداية التوفيق وهي إلزام القلوب بقبول الحق والانقياد له، والتي هي هداية ربانية، ليست لأحدٍ من البشر إنما هي بيد الله سبحانه وتعالى القائل ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (سورة الكهف، آية: ١٧)، فإذا علمنا ذلك عرفنا أن إمالة القلوب إلى الحق بيد الله وأن ما نقدمه من أمرٍ أو نهيٍ أو إرشادٍ إن صدقنا مع الله فإننا نستنزل به توفيق الله وهدايته ومعونته لإصلاح العباد، وظهرت بذلك معالم الرحمة والرفق والشفقة في أفعالنا وأقوالنا وسلوكنا معهم، وتمثلنا الهدي النبوي في التعامل مع المخطئ العاصي، ولا شك أن أسلوب الشدة والغلظة والقسوة أو التصنيف والتبذير والتفسيق يُنفر العاصي والمخطئ وهو في أوج غفلته وبعده عن الله، وربما زاده ذلك تمسكاً ومجاهرةً بمعصيته أو باطله وحثاً ودعوةً إليه، وكان السبب في ذلك والمعين عليه وحامل الوزر معه من تسبب في ذلك بطريق النصح المتألي، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتجبر، يقول تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١٠٨)، قال القرطبي رحمه الله "فنهى سبحانه المؤمنين أن يسبوا أو ثأنهم، لأنه علم إذا سبها نفر الكفار وازدادوا كفراً... قال العلماء: حكمها باقٍ في هذه الأمة على كل حال... فلا يجلس لمسلم أن يسب صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك، لأنه بمنزلة البعث على المعصية"^١، أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الحد على سكران وزاد رجل عليه بكلمة (ماله أخزاه الله) فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ

^١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٧، ص ٤١.

عَلَىٰ أُخْيِكُمْ»^١، وفي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تظهر معالم الرحمة والرفق والتلطف مع العاصي والمخطئ والمشرك واليهودي والمنافق وغيرهم، لبيان روح دعوته، وهدف رسالته، القائل عنها ربنا سبحانه وتعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، آية: ١٠٧).

وأختم بهذا الموقف الذي قام فيه النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً الذي هو أرجى الأوقات، وذهب إلى الكعبة التي هي أرجى الأماكن، ووقف متطهراً مصلياً في أرجى الأحوال، ووضع جبهته الطاهرة على الأرض ساجداً لربه في أرجى الأوضاع، كل ذلك ليدعوا دعاءً صادقاً، بنفس الحب، وروح المشفق، وحال المتضرع المكروب قائلاً (اللهم اهد قومي) الذين سبوه وشتموه وآذوه بكل أنواع الأذى، ومعتذراً لهم (فإنهم لا يعلمون)، غير متبرئ ولا متبرم ولا ساخط ولا ناقم! أي سمو؟! وأي أخلاق؟! وأي رحمة؟! تعاملت مع مشركين مجاهرين معاندين محاربين، يدعوهم ويأمرهم بأعظم معروف وهو التوحيد، وينهاهم ويحذرهم من أعظم منكر وهو الشرك بالله، ولكن الهدف النبوي كان أبعد من ذلك بكثير، والنظرة كانت أوسع وأشمل «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحَدُّهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^٢، فكانت الثمار اليانعة، والبركات النبوية الربانية، قادة الإسلام وعباده، وعلماءه وحماة، وبناة الدين والدنيا.

فهل لنا بمثل هذه المنهجية في الإصلاح والاستصلاح والتزكية والتربية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهل سلوكنا في التعامل مع المخطئ العاصي _ابناً كان أو زوجةً أو أختاً أو طالباً أو مسلماً أو كافراً..._ قائم على هذا المنهج الذي هو روح الاعتصام بمهدي الكتاب والسنة وحقيقته؟! وما أجمل وأصدق وصف ابن القيم رحمه الله تعالى العالم الرباني في بيان حقيقة الشريعة المحمدية حيث يقول "فإن الشريعة مبناه وأساسها على الحكمة ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كلها، ورحمةٌ كلها، ومصالحٌ كلها، وحكمةٌ كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدلٌ بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر

^١ أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة، حديث رقم (٦٧٨١).

^٢ أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، حديث رقم (٣٢٣١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم (١٧٩٥).

المبصرون، وهده الذي به اهتدى المهتدون، وشفافؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرة العيون، وحياء القلوب، ولذة الأرواح، فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة^١.

فالكل مبتلى والكل مسئول والكل مجازى عند رب كريم عالم بالخفيات مقدر للنيات، ولكن سبب وقوع الأخطاء عند استخدام هذا العلاج (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) هو عدم امتثال ضوابط الشرع في ذلك من العلم والرفق والصبر، واستشعار المهمة والأمانة والمسؤولية، والتجرد الكامل لله تعالى^٢، فالإنسان كل إنسان مجبول على حب الشهوات والمعاصي، فحينما يرى غيره قد عملها واستمتع بما تحرك في نفسه داعي الغيرة فقام بالأمر أو النهي بمقتضى تلك الرغبة لا بمقتضى الشرع، يقول ابن تيمية "معلوم أن هذه المعاصي وإن كانت مستقبحة مذمومة في العقل والدين فهي مشتهاة أيضاً، ومن شأن النفوس أنها لا تحب اختصاص غيرها بما لكن تريد أن يحصل لها ما حصل له وهذا هو الغبطة التي هي أدنى نوعي الحسد فهي تريد الاستعلاء على الغير والاستئثار دونه، أو تحسده وتمنى زوال النعمة عنه، وإن لم يحصل ففيها من إرادة العلو والفساد والاستكبار والحسد ما مقتضاه أنها تختص عن غيرها بالشهوات فكيف إذا رأت الغير قد استأثر عليها بذلك واختص بها دونها، فالمعتدل منهم في ذلك الذي يحب الاشتراك والتساوي، وأما الآخر فظلوهم حسوداً وهذان يقعان في الأمور المباحة والأمور المحرمة لحق الله... فالنفس فيها داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له والتعدي عليه في حقه، وداعي الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث، فهي قد تظلم من لا يظلمها وتؤثر هذه الشهوات وإن لم تفعلها فإذا رأت نظراءها قد ظلموا وتناولوا هذه الشهوات صار داعي هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير وقد تصبر ويهيج ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده وطلب عقابه وزوال الخير عنه ما لم يكن فيها قبل ذلك، ولها حجة عند نفسها

^١ ابن القيم، أعلام الموقعين، ج ٣، ص ١١-١٢.

^٢ يقول ابن تيمية رحمه الله "فإن الناس ثلاثة أقسام: قسم يغضبون لنفوسهم ولربهم، وقسم لا يغضبون لنفوسهم ولا لربهم، والثالث - وهو الوسط - الذي يغضب لربه لا لنفسه كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادماً له، ولا امرأة، ولا دابة، ولا شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء فانتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فإذا انتهكت حرمة الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله». فأما من يغضب لنفسه لا لربه، أو يأخذ لنفسه ولا يعطي غيره، فهذا القسم الرابع، شر الخلق لا يصلح بهم دين ولا دنيا". الفتاوى، ج ٢٨، ص ١٦٤. والحديث: أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمة الله، حديث رقم (٦٧٨٦)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب مباحته صلى الله عليه وسلم للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرمة الله، حديث رقم (٢٣٢٨)، واللفظ لمسلم.

من جهة العقل والدين بكون ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين وإن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر واجبٌ والجهاد على ذلك من الدين"^١، فلا بد لكل من يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر باللسان أو باليد أن يتمثل آداب وأخلاق الشرع الحنيف ويهتدي بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم من العلم والرفق والصبر والحلم والتواضع وحب الخير للناس وإحسان الظن بهم وتمني الهداية لهم والتجرد الكامل لله تعالى، فإن هذا هو المنهج والطريق الصحيح للإصلاح والتقويم والتغيير والتصحيح لتلج المجتمعات بأفرادها إلى عالم الأمن والطمأنينة والوحدة والمحبة والألفة.

ب- مرتبة الخطأ مع النفس:

وهذه المرتبة لها ضوابطها وحدودها، والقواعد المثلى للتعامل معها، وذلك بتشريع الأحكام والعقوبات التي تحفظ للنفس الإنسانية حريتها وصحتها وكرامتها، فلا يجوز التعدي عليها؛ لأنها ليست ملكاً للإنسان وإنما هي أمانة ووديعة عنده مسئولٌ عنها أمام الله، ويتبع هذه المسؤولية تشريع الأحكام والقوانين التي تحفظها وتصونها، ومن ذلك حرمة الاعتداء على حريتها وصفاتها وذلك بتحريم كل هوى أو شهوة تستعبدها، وحرمة الاعتداء على الجوارح والأعضاء واستنزاف وهدر طاقتها فيما لا فائدة فيه وذلك بتحريم المعاصي والموبقات، وحرمة الاعتداء على العقل بالإفساد أو الإضلال، وذلك بتحريم الخمر، أو إطلاق التفكير في الفوضى والضلال والغيب، وحرمة الاعتداء على النفس بالقتل (الانتحار) وذلك بترتيب الجزاء الرادع عند الله يوم القيامة.

والتعامل الذي تقوم عليه التربية الإسلامية في علاج هذه الأخطاء هو المنع والتحريم أولاً لكل ما يتسبب في وقوع الخطأ، ثم فهم طبيعة النفس الإنسانية واحتياجاتها، وتلبية رغباتها وغرائزها _ بالوجه المطلوب شرعاً _ روحياً وعاطفياً وعقلياً وجسدياً... في توازن وتكامل وانسجام، وعند الوقوع في الخطأ أو الابتلاء به، لا بد من التدرج مع النفس في الإقلاع والبعد عن تلك الأخطاء شيئاً فشيئاً، وتكرار المحاولة في استصلاحها وهدايتها ومداراتها لترتقي في مراتب الكمال الإنساني، ومعارض القبول الرباني، يقول تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سورة النساء، آية: ١١٠).

ثم أخيراً يكون العلاج بتطبيق الحدود والعقوبات المترتبة على كل خطأ لتقف النفس مع ذاتها وقفة حزم، ومع غيرها وقفة ردع، يقول تعالى ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة النور، آية: ٢).

^١ ابن تيمية، الفتاوى، ج ٢٨، ص ٨٢-٨٤.

ت - مرتبة الخطأ مع الناس:

وهذه المرتبة لها ضوابطها وحدودها وتشريعاتها وقوانينها، فالتعامل بين الناس لا بد له من نظام صارم، وتطبيق حازم، يقول تعالى في تطبيق عقوبة الزنا ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ (سورة النور، آية: ٢)، وهذا النظام لا بد من تطبيقه على أفراد المجتمع ألقياً ورأسياً، يقول صلى الله عليه وسلم «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ...»^١، وبشمول وعموم لمفهوم العبادة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم مبيناً نتيجة صاحب الفهم القاصر للعبادة «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضْرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^٢، وهذا المفهوم القاصر في معرفة الحقوق والواجبات التي أوجبها الله لعباده بعضهم على بعض هو الذي أوقع في الأخطاء مع الناس، والتعدي على حقوقهم، وهو فصل وفصام لمفهوم العبادة الحقيقية التي هي حقوق الله وحقوق العباد، جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلانة يُذكر من كثرة صلاحها وصيامها وصدقها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال «هي في النار»، قال يا رسول الله فإن فلانة يُذكر من قلة صيامها وصدقها وصلاحها وإنما تصدق بالأتوار من الأقط ولا تؤذي جيرانها بلسانها قال «هي في الجنة»^٣، بل إن المفهوم التربوي الشامل لمفهوم العبادة هو معرفة وأداء حقوق جميع مخلوقات الله حتى الحيوان والنبات والجماد لعموم قوله عليه الصلاة والسلام «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ... الحديث»^٤، وهذا ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم حين حذّر من أذية الحيوانات وبيّن حقوقها، وحرمة أذيتها، أو التعدي عليها بغير حق بقوله «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدْعُهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^٥.

^١ سبق تخريجه ص ١٦٠.

^٢ أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٨١).

^٣ أخرجه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبو هريرة رضي الله عنه، حديث رقم (٩٦٧٣). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

^٤ أخرجه مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، حديث رقم (١٩٥٥).

^٥ سبق تخريجه ص ٢٢٨.

ولقد بين وحرّم ربنا تبارك وتعالى في سورة الحجرات الأمور التي تسبب وقوع الأخطاء بين الناس بعضهم على بعض، فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات، الآيات: ١١-١٣)، فحرم الله في الآيات الكريمة السخرية، واللمز الذي هو النميمة أو الطعن، والاحتقار، والتنازير والتداعي بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها، وإساءة الظن، والتجسس، والغيبة، والتعالي والتكبر بسبب الجنس أو النسب، والملاحظ أن كل تلك الأخطاء معنوية وكأن الشارع الحكيم يشير بالحرمة إليها ليتبين أن ما فوقها من أخطاء مادية أولى وأعظم في الحرمة، كل ذلك حتى تُصان الحقوق، وتُحفظ الأخوة، وتبقى المودة والمحبة ويشيع في المجتمع الأمن والأمان، بل وجعل التشريع الرباني التعامل مع أخطاء الناس أيًا كانوا _مسلمين أو كفار_ شرعاً ومعتقداً، وتطبيقاً وسلوكاً، يقول تعالى ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٩٠)، وكفل للجميع حفظ الضروريات الخمس التي هي مدار التشريع ومقصده، فحفظ الأديان والمعتقدات بعدم جواز الاعتداء بالإكراه والإجبار ابتداءً، فكيف بالتسلط والتهديد والقوة، أو السخرية والاستهزاء والسب والشتم للعقائد والمقدسات والرموز؟ وحفظ الأنفس فلا يجوز الاعتداء عليها بالهزم ابتداءً، فكيف بالترويع والقتل؟ وحفظ العقول فلا يجوز الاعتداء عليها بما يخل بتفكيرها أو يشل قدراتها بتحريم أساس الهوى والضلال الوقي _وهو شرب الخمر_، فكيف بالاستعباد أو الاستبداد الأبدى؟، وحفظ الأموال بوجوب الكتابة والإشهاد فلا يجوز الاعتداء عليها في حال المدينة والإقراض الحسن، فكيف بالغش والتطفيف والسرقة؟، وحفظ الأعراض فلا يجوز الاعتداء عليها بسوء الظن، فكيف بالكلام والقذف والفاحشة؟ كل تلك التشريعات والقوانين من لدن حكيمٍ عليم، إذا التزم أفراد المجتمع بتطبيق آدابها ومفرداتها، وعقوباتها لمن خالف، فإنها تحفظ حقوق الإنسان على أخيه الإنسان، ولا تجعل له باباً يتسلط به عليه سواءً كان مادياً أو معنوياً، ونتيجة ذلك التطبيق أمناً ومحبةً وأخوةً وقوةً وانسجاماً ورقياً، وقطعاً لدابر كل مخربٍ ومفرق.

ث - مرتبة الخطأ مع ولي الأمر (السلطة):

وهذه المرتبة دائرتها أوسع والتعامل معها أقوى والعقوبات والحدود فيها أعظم لما يترتب على الإخلال بها فرط عقد المجتمع وحصول فوضى اجتماعية ومشاكل أمنية وساحة مفتوحة لتطبيق كافة مراتب الأخطاء عليها، وكما ورد في الخبر "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"^١، وهذا الفهم هو الذي أدركه وساد به الحسن بن علي رضي الله عنه وعن أبيه وأمه وصلى الله وسلم على جده حين أخبر عنه صلى الله عليه وسلم بقوله «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^٢، وقد تحقق فيه ما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم فبايع معاوية رضي الله عنه بالخلافة بعد مقتل واستشهاد علي رضي الله عنه في سنة أربعين للهجرة وسُمي ذلك العام بعام الجماعة، وكان رضي الله عنه أولى بالخلافة من معاوية رضي الله عن الجميع وعنده من القوة والشجاعة والجنود ما يعينه ويؤهله لذلك، ولكنه قال "يا معاوية إني اخترت ما عند الله، فإن يكن هذا الأمر لك فلن أنزعك فيه، وإن يكن لي فقد تركته لك"^٣، كل ذلك لتحقيق الأمن المادي الاجتماعي للمسلمين، وحقن الدماء، ووحدة الكلمة، فرضي الله عن السيد الحسن بن علي، ورزق الله المسلمين التأسى بهديه وهدى أبيه رضي الله عنهما، وهدى جده صلى الله عليه وسلم، وهدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

والتربية الإسلامية شرعت القوانين التي تكفل أمن المجتمع في حال حدوث خطأ على ولي الأمر، وهذا الخطأ تختلف عقوبته وطريقة التعامل معه باختلاف درجته وتأثيره، فإذا كان الخطأ للإحداث والإفساد، ونشر الفوضى الاجتماعية طُبِقَ عليه حد الحراية، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة المائدة، آية: ٣٣)، وإذا كان الخطأ للخروج والفتنة توجَّب قتال صاحبه حتى يعود الأمر إلى أهله، يقول صلى الله عليه وسلم «إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاصْرُبُوهُ»

^١ هذا الأثر "جاء عن عثمان موقوفاً، ونحوه عن عمر موقوف". أحمد بن عبد الكريم الغزي العامري: الجلد الحثيث في بيان ما ليس بحديث، ت: فواز أحمد زمرلي، (د.ت)، دار ابن حزم، بيروت، رقم (٥٧).

^٢ أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي رضي الله عنهما «ابني هذا سيّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ»، حديث رقم (٢٧٠٤).

^٣ ابن حجر، فتح البارس شرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٧٩، نقلاً عن ابن بطال.

^٤ قال النووي "الهتات جمع هنة وتطلق على كل شيء والمراد بها هنا الفتنة والأمور الحادثة"، شرح صحيح مسلم، ج ١٢، ص ٣٣٥.

بِالسَّيْفِ كَأَنَّ مَنْ كَانَ»^١، قال النووي "فيه الأمر بقتال من خرج على الإمام أو أراد تفريق كلمة المسلمين ونحو ذلك، وينهى عن ذلك فإن لم ينته قوتل، وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقتل كان هدراً فقولته صلى الله عليه وسلم (فاضربوه بالسيف) وفي الرواية الأخرى (فاقتلوه) معناه إذا لم يندفع إلا بذلك"^٢، وإذا كان الخطأ بغياً وعدواناً، أو تأوُّلاً واجتهاداً^٣، توجَّب قتال صاحبه لحماية الجماعة من

^١ أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، حديث رقم (١٨٥٢).

^٢ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٢، ص ٣٣٥.

^٣ مثال الخروج اجتهاداً وتأوُّلاً ما حدث من خروج الإمام الحسين بن علي رضي الله عنه وعن والديه وصلى الله وسلم على جده، حيث خرج على يزيد بن معاوية لما رأى الفساد وعدم أهلية يزيد بخلافة المسلمين لعدم تحقيق الشورى في استخلافه وعدم قيامه بواجبه على النحو المأمور به شرعاً، وقيل أن ذلك لا يُعد خروجاً لأنه لم يبايعه بالخلافة أصلاً، قال ابن كثير "ولما أخذت البيعة ليزيد في حياة معاوية كان الحسين ممن امتنع من مبايعته هو، وابن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وابن عمر، وابن عباس". ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٥٤٧.

فخرج رضي الله عنه وأرضاه متأولاً مجتهداً مع أحقيته وأولويته بالخلافة كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، قال ابن كثير "بل الناس إنما ميلهم إلى الحسين لأنه السيد الكبير، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس على وجه الأرض يومئذٍ أحدٌ يساميه ولا يساويه، ولكن الدولة اليزيدية كانت كلها تناوئه". البداية والنهاية، ج ٨، ص ٥٤٧. "فراى الحسين أن الخروج على يزيد متعيّن من أجل فسقه لا سيما من له القدرة على ذلك، وظنّها من نفسه بأهليّته و شوكته، فأما الأهليّة فكانت كما ظن و زياده. وأما الشوكه فغلط يرحمه الله فيها... ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء" ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٠٠-٢٠١. ولكن وقع ما وقع من خذلانه ابتلاءً من الله للأمة، وتحقيقاً لبشارة النبي صلى الله عليه وسلم له بالشهادة والجنة، يقول ابن تيمية رحمه الله في قصة مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه وأرضاه "ووقع القتل حتى أكرم الله الحسين ومن أكرمه من أهل بيته بالشهادة رضي الله عنهم وأرضاهم وأهان بالبغي والظلم والعدوان من أهانه بما أنتهكه من حرمتهم واستحلّه من دمائهم ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (سورة الحج، آية ١٨)، وكان ذلك من نعمة الله على الحسين وكرامته له لينال منازل الشهداء حيث لم يجعل له في أول الإسلام من الإبتلاء والإمتحان ما جعل لسائر أهل بيته كجده وأبيه وعمه وعم أبيه رضي الله عنهم... ولما كان الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة، وكانا قد ولدا بعد الهجرة في عز الإسلام، ولم ينلها من الأذى والبلاء ما نال سلفهما الطيب، فأكرمهما الله بما أكرمهما به من الإبتلاء ليرفع درجاتهما وذلك من كرامتهما عليه لا من هوانهما عنده، كما أكرم حمزة وعلياً وجعفرأ وعمر وعثمان وغيرهم بالشهادة وفي المسند وغيره: عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ما من مسلم يصاب بمصيبة فيذكر مصيبته، وإن قدمت، فيحدث لها إسترجاعاً، إلا أعطاه الله من الأجر مثل أجره يوم أصيب بها»، فهذا الحديث رواه الحسين وعنه بنته فاطمة التي شهدت مصرعه، وقد علم الله أن مصيبته تُذكر على طول الزمان، فالمشروع إذا ذكرت المصيبة وأمثالها أن يُقال ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٥٦)، اللهم آجرنا في مصيبتنا واحلف لنا خيراً منها، قال تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا

التفرق، وتقديم مصالح ومقاصد الاجتماع، كما قال تعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الحجرات، آية: ٩)، أما إذا كان الخطأ تهديداً خارجياً، أو تعدياً على حرمة الدولة وأراضيها فقد قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٩٠)، وهذا هو مفهوم الجهاد في التربية الإسلامية ليس مفهوماً قتالياً متطرفاً، أو إرهابياً يروع الآمنين وينشر الخوف والفوضى ويزرع الحقد، ولا مفهوم تخاذل عن الحق والعدل، وتفريط في الحد والأرض، بل هو تشريع ونظامٌ بأمر ولي الأمر لحفظ الأمن، ونشر الحرية، وتطبيق العدل، وهو يُستخدم للدفاع في حال الاعتداء، وللطلب^١ في حال نصرة الغير مسلماً كان أو

أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٥٥-١٥٦)، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٥٧)" ابن تيمية، الفتاوى، ج ٢٧، ص ٢٤٨-٢٤٩. نص الحديث في المسند هو «مَا مِنْ مُسْلِمٍ وَلَا مَسْلِمَةٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَذْكُرُهَا وَإِنْ طَالَ عَهْدُهَا - قَالَ عَبْدًا قَدِمَ عَهْدُهَا - فَيُحَدِّثُ لِذَلِكَ اسْتِرْجَاعًا إِلَّا حَدَّدَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَأَعْطَاهُ مِثْلَ أَجْرِهَا يَوْمَ أُصِيبَ بِهَا»، أخرجه أحمد، مسند أهل البيت، حديث الحسين بن علي رضي الله عنه، حديث رقم (١٧٣٤). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف جداً. فنقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ورضي الله عنه وأرضاه وجمعنا به وبصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الكرام في جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحزى الله من تسبب أو أعان أو شارك أو رضي بقتله بما يستحق.

^١ أدلة جهاد الطلب كثيرة ومنها: قوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٢٩)، وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة التوبة، آية: ١٢٣)، وقوله تعالى ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَفْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ٥)، ولكي نعلم عدل الإسلام وعدم ظلمه أو جوره أو اعتدائه على أحد، والموازنة بين الحرية التي ينادي بها الإسلام وبين جهاد الطلب في ابتداء الكفار بالقتال، لا بد من مقابلة هذه الآيات بالآيات التي تثبت عداة أهل الكتاب والكفار عموماً لدين الإسلام وللمسلمين في كل زمان ومكان حتى يكون الحكم عليها عادلاً، وأما تثبت حق المسلمين في الدفاع والاستعداد الدائم لذلك، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (سورة البقرة، آية: ٢١٧)، ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (سورة النساء، آية: ١٠٢)، وقوله تعالى ﴿إِنْ يَنْقُضْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ (سورة الممتحنة، آية: ٢)، وقوله تعالى ﴿لَا يَرْفُؤُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (سورة التوبة، آية: ١٠)، والتاريخ والواقع

يثبت العداء الظاهر والباطن من الكفار للمسلمين لذا كان التوجيه الرباني في آيات الأمر بالقتال والاستعداد والإعداد له بالقوة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٦٠)، وقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٩٠)، وقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة التوبة، آية: ٣٦)، كل ذلك لهدف رد العدوان والعداء المتأصل وإحقاق الحق وإقامة العدل ونشر الحريات وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، يقول سيد قطب عن تشريع الجهاد في الإسلام، وأنه جاء لتحقيق الأمن ودفع الأذى والضرر، وتحقيق حرية الدعوة والعقيدة، وقيم نظامه الخاص ويقرره ويحميه "هذه هي قاعدة النظام الرباني الذي جاء به الإسلام. وعلى هذه القاعدة يقوم نظام أخلاقي نظيف تكفل فيه الحرية لكل إنسان، حتى لمن لا يعتنق عقيدة الإسلام، وتضمن فيه حرمان كل أحد حتى الذين لا يعتنقون الإسلام، وتحفظ فيه حقوق كل مواطن في الوطن الإسلامي أيا كانت عقيدته. ولا يكره فيه أحد على اعتناق عقيدة الإسلام، ولا إكراه فيه على الدين إنما هو البلاغ.

جاهد الإسلام ليقم هذا النظام الرفيع في الأرض ويقرره ويحميه. وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الباغية التي تقوم على عبودية البشر للبشر، والتي يدعي فيها العبيد مقام الألوهية ويزاولون فيها وظيفة الألوهية - بغير حق - ولم يكن بد أن تقاومه تلك النظم الباغية في الأرض كلها وتناصبه العداء. ولم يكن بد كذلك أن يسحقها الإسلام سحقاً ليعلم نظامه الرفيع في الأرض.. ثم يدع الناس في ظله أحراراً في عقائدهم الخاصة. لا يلزمهم إلا بالطاعة لشرائعه الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والدولية. أما عقيدة القلب فهم فيها أحرار. وأما أحوالهم الشخصية فهم فيها أحرار، يزاولونها وفق عقائدهم؛ والإسلام يقوم عليهم يحميهم ويحمي حريتهم في العقيدة ويكفل لهم حقوقهم، ويصون لهم حرمانهم، في حدود ذلك النظام.

وما يزال هذا الجهاد لإقامة هذا النظام الرفيع مفروضاً على المسلمين: (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) .. فلا تكون هناك أوهة للعبيد في الأرض، ولا دينونة لغير الله..

لم يحمل الإسلام السيف إذن ليكره الناس على اعتناقه عقيدة؛ ولم ينتشر السيف على هذا المعنى كما يريد بعض أعدائه أن يتهموه! إنما جاهد ليقم نظاماً آمناً يأمن في ظله أصحاب العقائد جميعاً، ويعيشون في إطاره خاضعين له وإن لم يعتنقوا عقيدته.

وكانت قوة الإسلام ضرورية لوجوده وانتشاره واطمئنان أهله على عقيدتهم، واطمئنان من يريدون اعتناقه على أنفسهم. وإقامة هذا النظام الصالح وحمائته. ولم يكن الجهاد أداة قليلة الأهمية، ولا معدومة الضرورة في حاضره ومستقبله كما يريد أعدائه أن يوحو للمسلمين!..

لا بد للإسلام من نظام ولا بد للإسلام من قوة، ولا بد للإسلام من جهاد. فهذه طبيعته التي لا يقوم بدونها إسلام يعيش ويقود". سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٩٥.

واختلف العلماء في وجوب جهاد الطلب فقال كثير من العلماء إنه فرض كفاية، وقال بعض العلماء كالأئمة ابن شبرمة والثوري وأبي عمر بن عبد البر ليس واجباً وإنما يستحب. وجهاد الطلب وهو جهاد يقرره الخليفة (السلطان)

كافراً، وله ضوابطه الشرعية وآدابه الأخلاقية^١ التي لو طبقت لكانت من أعظم وسائل نشر الإسلام؛
"لأنها محكومة في المنهج الإسلامي بحدود الفضيلة واحترام الكرامة الإنسانية، وهذا من أبرز مظاهر

لردع الدول المجاورة للدولة المسلمة عن التفكير بالإخلال بالأمن على الحدود وليس من شرطه وقوع حرب، بل تهديد، واستعراض للقوة، وإعداد للقوة، وتمرين للجيش، وليس الغرض منه إجبار الناس على تغيير دينهم، بل في غالب الأحوال على معاهدات لتأمين الحدود، وحسن الجوار، وبالتالي يصبح الجار دار هدنة وصلاح وعهد، وليس دار حرب، وهو أمر سلطاني لا دخل للأفراد والجماعات فيه إلا بحكم كونهم جيوشاً أو أعضاء في المجتمع بحيث عليهم أن يؤديوا خدمتهم العسكرية إذا صدر إليهم الأمر كما قال عليه الصلاة والسلام «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَأَنْفِرُوا». أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب وجوب النفي وما يجب من الجهاد والنية، حديث (٢٨٢٥). ومسلم، كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، حديث رقم (١٣٥٣). انظر: رسالة الإرهاب... التشخيص والحلول، عبد الله بن بيّه. قال النووي معلقاً على الحديث السابق "معناه إذا طلبكم الإمام للخروج إلى الجهاد فاخرجوا وهذا دليل على أن الجهاد ليس فرض عين بل فرض كفاية". النووي، شرح صحيح مسلم، ج١٣، ص١٣.

وجهاد الطلب له حدوده وضوابطه الشرعية حسب الأحوال والظروف التي ذكرها أهل العلم في مصنفاتهم، والتي تضبط هذه المسألة ولا تجعلها حسب الاجتهادات الشخصية، أو الانفعالات الحماسية التي لا تنظر إلى العواقب، ولا توازن بين الأحوال، وربما كانت المصيبة أعظم حينما يكون منطلق الجهاد تكفير الحاكم المسلم، وأن رأيه وأذنه في مسألة الجهاد غير مطلوبة شرعاً، بل الواجب الخروج عليه وجهاده، وجهاد من معه، وجهاد الكفار عموماً، وهذا الفكر التكفيري المتطرف لا شك أنه من أكبر الأسباب التي جرّت على الإسلام والمسلمين الولايات كما هو مشاهد في واقعنا، لذلك يجب تحكيم الشرع في هذه المسألة، ومن ذلك مثلاً أمر الله تعالى باعتبار العهود والمواثيق مع الكفار، - والتي هي في ذاتها مصالح تُحقق الأمان والاستقرار لعموم المسلمين -، وتقديمها على العواطف والانفعالات، يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين من المهاجرين والأنصار في جهاد النصر للضعفين من المسلمين ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٧٢)، قال حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه "وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني، على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار (بينكم وبينهم ميثاق) أي: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم". ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٣٤٢.

^١ ومن ذلك حديث بريدة عن أبيه رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش، أو سرية، أو صاحبه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أحابوك فأقبل منهم، وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أحابوك فأقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما

عظمة الإسلام إذ يتحدث النظام الإسلامي عن الفضيلة في الميادين الحربية التي اعتاد الناس فيها فعل كل ما من شأنه تحقيق النصر والغلبة والتمكن من رقاب الأعداء، دون تقييد بفضيلة أو خلق كريم، ولكن الإسلام حينما يتحدث عن الفضيلة واحترام الكرامة الإنسانية، إنما ينظر إلى غاية القتال وهدفه، فإنه ليس الاستعلاء العنصري أو الاستغلال المادي، إنما غايته وهدفه أولاً وأخيراً إعلاء كلمة الله^١، وفي بيان قيم ومبادئ الجهاد في التربية الإسلامية يقول ابن بيّه "وهذه الحرب التي تخضع لكل معايير الفضيلة -ردُّ على العدوان لا إفراط فيه في استعمال القوة، إسعاف للضعفاء، إفساح للحرية الدينية- لها ضوابطها الشديدة في الحفاظ على المدنيين والضعاف والعمال الفلاحين والأجراء ورجال الدين والنساء.

ومحافظة على الأشجار المثمرة وعلى الحيوانات والمنع من حرق الغابات وإيذاء غير المقاتلين واحترام المعاهدات احتراماً شديداً حتى ولو كانت في بعض الأحيان تبدو مجحفة، إنها حرب نظيفة -فيها قيادة واحدة وليست لعبة دموية يقوم فيها الجيش بقتل من يشاء وينهب ما يشاء ويهجم ويغير على من يشاء- إنها حرب ضرورة إنها بلغة العصر حرب يؤيدها القانون الدولي والمعاهدات الدولية وميثاق الأمم المتحدة وبخاصة المادة (٥١)"^٢.

والخلاصة فإن التربية الإسلامية تضع مبدأ السلم الذي به يتحقق الأمن والاستقرار، الأصل في العلاقات الإنسانية، يقول تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (سورة التوبة، آية: ٦)، قال ابن كثير "إنما شرعنا أماناً مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده"^٣، والأصل في العلاقات الدولية، يقول تعالى ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا

لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّهِمُ الْجَزِيَّةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا». أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها، حديث رقم (١٧٣١).

^١ أبو شبانة، النظام الدولي بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، ص ٦٦١.

^٢ بن بيّه، رسالة (الإرهاب... التشخيص والحلول)، ص ١١٣-١١٤.

^٣ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٣٥٠.

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (سورة الأنفال، آية: ٦١)، قال ابن كثير " أي: مالوا ﴿للسَّلْمِ﴾ أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَاجْتَنَحْ لَهَا﴾ أي: فمِلْ إليها، واقتبلْ منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية^١ الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين، أجاجهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر... وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة، وهذا فيه نظر؛ لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله.

وقول ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقاتدة إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في "براءة" ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (سورة التوبة، آية: ٢٩) فيه نظر أيضاً؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفاً، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم^٢، وجاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنه سيكون بعدي اختلافٌ أو أمر فإن استطعت أن تكون السَّلْمَ فافعل"^٣، وهذا بلا شك يُبيِّن أهمية تحقيق السلم بكافة الوسائل الممكنة، لما فيه من مصلحة وخير وسلامة، والبعد عن المواجهة والقتال قدر المستطاع، أما إذا وقعت الضرورة، وتحققت المصلحة فيكون الجهاد خير وسيلة للدفع أو الطلب، يقول النبي صلى الله عليه وسلم «أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُّوْا لِلَّهِ الْعَاقِبَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»^٤.

^١ في صلح الحديبية معاني تقديم مصلحة المدعوين الدينية والدينية، وبيان أن الأصل الشرعي في التعامل مع الكفار تقديم مبدأ السلم على القتال، يقول النبي صلى الله عليه وسلم مخاطباً كفار قريش بلسان المشفق الحريص على هدايتهم وسلامتهم في الدنيا والآخرة «إِنَّا لَمْ نَجِيءُ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ فُرِشْنَا قَدْ نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ، وَأَضْرَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخْلَوُ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرَ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَكَيْنَفِدَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ». أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٧٣١-٢٧٣٢).

^٢ ابن كثير، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٥-٣٣٦.

^٣ أخرجه أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث رقم (٦٩٥). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

^٤ أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب لا تمنوا لقاء العدو، حديث رقم (٣٠٢٥)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمنى لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، حديث رقم (١٧٤٢).

فحالات اللجوء للقتال (الجهاد) في المنهج الإسلامي^١ ما هو إلا استثناء في حالة الضرورة، "وانطلاقاً من هذه القاعدة فإن اللجوء إلى القتال في المنهج الإسلامي مقيد بوجود حالة (اعتداء) سواءً كان هذا الاعتداء على الدولة المسلمة، أو على العقيدة الإسلامية، أو على شعبٍ مظلوم، مسلماً كان أو غير مسلم... أما ما جاء في بعض النصوص مما يدل ظاهره أن المبيح للقتل هو الكفر، فإنه حكم مطلق يحمل على المقيد وهو أن القتال خاص بالمعتدين"^٢.

والجهاد في التربية الإسلامية مفهومه شاملٌ وعمام، فهو جهادٌ مأخوذٌ من بذل الجُهد والعمل في كافة الميادين، لعمارة الأرض، وابتغاء الأجر من الله تعالى، وهو ينشئ الأفراد على ثقافة الحياة الأبدية والسعادة، لا ثقافة الموت والشقاء، يقول تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^٣ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^٤ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩-١٧١)، وهو جهادٌ واجبٌ على كافة أفراد الأمة رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، كلٌ حسب مسؤوليته وعمله وقدرته، فهناك جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الإصلاح، وجهاد البناء، وجهاد العلم، وجهاد الدعوة، وجهاد القدوة الحسنة والأخلاق الفاضلة، وجهاد العمل المثمر واكتساب الرزق الحلال و... الخ، جهادٌ في الحياة للعيش في سبيل الله القائل جل في علاه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٦٩)، "أي جاهدوا في شأن الله لطلب مرضاته ورجاء ما عنده من الخير لنهدينهم سبلنا، أي الطريق الموصل إلينا، قال ابن عطية هي مكية نزلت قبل فرض الجهاد العربي، وإنما هو جهاد عامٌ في دين الله وطلب مرضاته، وقيل: الآية هذه نزلت في العباد، وقال إبراهيم بن أدهم هي في الذين يعملون بما يعلمون"^٥، يقول ابن القيم رحمه الله في المعنى العام للجهاد "ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في

^١ لمعرفة المزيد عن المعنى الشرعي التربوي لمفهوم الجهاد في التربية الإسلامية، انظر: أحمد علي الدغشي، فلسفة الجهاد القتالي في التربية الإسلامية، مجلة المعرفة، العدد (١١٢)، ١٤٢٥هـ، ص ٨٦-١٠٠.

^٢ أبو شبانة، النظام الدولي بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، ص ٦١٦. قال "وذلك مثل قوله تعالى (فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ...) (سورة التوبة، آية: ٥)... فهذان النصان وغيرهما يدلان على أن الكفر هو مناط القتل والمحاربة، ولكن التحقيق أنها نصوص عامة تحمل على النصوص الأخرى التي تجعل القتال والمحاربة خاصة بمن اعتدى على الإسلام أو المسلمين". انظر الخلاف في هذه المسألة بالأدلة والمناقشة وأقوال العلماء والراجح منها: النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، ياسر أبو شبانة، حاشية ص ٦٢١-٦٢٤، وكتاب العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، ص ٥١-٥٢، وكتاب أصول الفقه، محمد أبو زهرة، ص ٣٤.

^٣ الشوكاني، فتح القدير، ج ٤، ٢٧٩.

ذات الله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^١، كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يُمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يُمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهرٌ له، متسلطٌ عليه، لم يجاهده، ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه، حتى يجاهد نفسه على الخروج.

فهذان عدوان قد أمتحن العبد بجهدهما، وبينهما عدوٌ ثالث، لا يمكنه جهادهما إلا بجهداه، وهو واقفٌ بينهما يُثبِّط العبد عن جهادهما، ويُخذله، ويرحف به، ولا يزال يُخيِّل له ما في جهادهما من المشاق، وترك الحظوظ، وفوت اللذات، والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذنوبك العدوين إلا بجهداه، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (سورة فاطر، آية: ٦)، والأمر باتخاذ عدواً تنبيه على استفراغ الوسع في محاربتة، ومجاهدته، كأنه عدوٌ لا يفتر، ولا يُقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس^٢.

هذا هو مفهوم الجهاد الحقيقي الذي جعله الله ذروة سنام الإسلام، وأعلى مراتب الدين (مرتبة الإحسان)، لا جهاد الجبناء العاجزين عن مواجهة الحياة وما فيها من عملٍ وإصلاحٍ وتعلمٍ وبناء، وتغطية ذلك العجز باسم الجهاد والموت في سبيل الله وقتل الأبرياء وسفك الدماء وترويع الآمنين ونشر الخراب والدمار وتشويه حقيقة الدين، فحياة النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن كلها جهاداً قتالاً واستنفاراً، إنما كانت جهاداً في جميع شؤون الحياة في ساحة القتال، وفي العبادة في المسجد، وفي التعامل والأخلاق، وفي البناء والإصلاح والتغيير.

بهذا المفهوم وبهذه القوانين والأنظمة الربانية القائمة على الضمير الإنساني الحي في جميع المجالات وعلى كافة الطبقات وفي كل الأحوال، تبنى التربية الإسلامية هدفها في تحقيق الأمن الكامل الشامل للعالم والإنسانية، ونشر ثقافة السلام، وتبني العلاقات على أساس الاحترام والتآلف والاجتماع، ونبذ الفرقة والاختلاف، وتبني النفوس على أساس البذل والصبر والتضحية والفداء لأجل المعاني والقيم الإسلامية الإنسانية الراقية التي تحقق السعادة الدنيوية والأخروية.

^١ أخرجه أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث رقم (٢٤٠٠٤)، من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: في حجة الوداع «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمِ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدَيْهِ، وَالْمُجَاهِدِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرِ مَنْ هَجَرَ الْخَطِيئَاتِ وَالذُّنُوبَ». قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

^٢ ابن القيم، زاد المعاد، ج ٣، ص ٥-٦.

الفصل الخامس

خاتمة البحث

وفيهِ:

- أولاً: نتائج البحث.
- ثانياً: التوصيات

- ثالثاً: المقترحات.
- رابعاً: قائمة المصادر والمراجع.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من جاءنا بالنور والبيانات سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أولي الفضل والمكرمات وسلم تسليماً كثيراً وبعد:

فإن من فضل الله تعالى على الباحث أن وفقه لإتمام هذه الدراسة، والتي وقف فيها مع كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، قراءةً وتأملًا، وتفسيرًا وتشرحًا، وبحثًا وتدقيقًا، وتنزيلًا وتفعيلًا في واقع الأمة، من خلال النظر في أحوالها، ونقاط ضعفها، ومكامن عللها.

إن منهجية الإسلام في الإصلاح والتركية والتربية واضحة المعالم، بيّنة المسالك، وأتى لباحثٍ مثلي أن يقوم بتوضيح تلك المنهجية الربانية، ولكن حسب الباحث أنه لفت النظر والانتباه لتلك المنهجية، وجلى ما تراكم عليها من غبار الزمن والجمود، والتبعية والتقليد، والهوى والجهل، وقد قام الباحث باستقصاء الخلل الذي أصاب الأمة، وهي الأمة التي تفخر بإرثها، وتفاخر بماضيها، وتتغنى بقيمها ومكتسباتها، وهي الأمة التي وصفها الله تعالى بقوله ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١١٠)، ولكن الناظر إلى أحوالها الآن يجد التناقض العجيب بين تنظير القيم والمبادئ، وتطبيق الواقع والأفعال، وبين ما تؤمن به وتدعوا إليه فكراً، وتُفعله وتُنزله واقعاً وسلوكاً.

وقد أفرز ذلك التناقض ثمراتٍ مرةً أثرت على واقع الأمة في علاقة أبناءها مع بعضهم البعض اختلافاً وتفرقاً، وفي علاقة الأمة مع الأمم والشعوب الأخرى عداءً وحروباً وفتناً، فكانت المحصلة النهائية أمةً واقعةً تحت سيطرة الأهواء والرغبات، وتُسَيَّر بحسب المصالح والأطماع، وزاد من سوء الوضع ظهور فئتين في الأمة - وهم قليل بحمد الله ولكن تأثيرهما كان قوياً -، فئة تُغالب العقل فوقعت ضحية الجهل والتطرف والتشدد الممقوت، وشوهت حقائق الدين، وأساءت إلى سماحته ويسره ورحمته، وفئة تُغالب الشرع فوقعت ضحية الهوى والتقليد والانبهار، فبدلت حقائق الدين، وغيرت معالم الهداية، وأصبح السواد الأعظم من الأمة مكبلاً بقيود الأولى تارة، ومتحرراً بفكر الأخرى تارةً، كسفينة تتقاذفها الأمواج العاتية توشك أن تغرقها، ولكن رحمة الله ومشيئته في إنزال الخير والبركة في جماعة المسلمين في كل زمان ومكان هو ما جعل هذا الدين صامداً قوياً على مرّ العصور واختلاف الأحوال.

وهذه الدراسة ورقةٌ من الباحث، وإسهامٌ منه في بيان طريق النجاة والنجاح، وهو الاعتصام بهدي الكتاب والسنة فكراً وسلوكاً، علماً وعملاً، تصوراً وتطبيقاً، فكانت أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم الزاد لهذه الدراسة، وكان كتاب الله تعالى الحادي والمعين.

وأسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بها عموم المسلمين، وأن تكون لبنةً في بناء الأمة العلمي الشامخ، وورقةً من سفرها التربوي الخالد، وأن تحقق مقصد الدين الأعظم من تحقيق الأخوة والألفة والوحدة بين أبناء هذا الدين، وتحقيق العزة والقوة والرفعة بين البشرية، وقد خرجت هذه الدراسة بعدة نتائج وتوصيات ومقترحات، وهي كالتالي:

أولاً: النتائج:

١. الإمام البخاري رحمه الله نموذجٌ من نماذج التربية الإسلامية الصحيحة في الفكر والأخلاق والتعامل والسلوك، وإنتاجه العلمي ثمرةٌ لتلك التربية وجزءٌ من تراث الأمة الخالد.
٢. التصورات العقلية والشرعية من أهم أبواب العلم؛ لأنه ينشئ عنها كافة الأفكار والمعتقدات، والأعمال والسلوك، فإذا صحّت كانت خير بيانٍ للحق، وخير داعيةٍ للبناء والإصلاح والتغيير، وخير وسيلةٍ لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة.

٣. قاعدة تصحيح التصورات العقلية والشرعية هي ضبط العقل بحدود الشرع، وتفعيل الشرع بقدرات العقل، وكل من فصل العقل عن الشرع فإنه يسير إلى طرفي نقيض إنا غلو مُفَرِّط أو تقصير مُفَرِّط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.
٤. الكتاب والسنة غنيةٌ بالاستدلالات العقلية التي تُفعل طاقة العقول على أسسٍ منطقية، وقواعد نقدية، لاستخلاص حِكْم التشريع وأسراره، ومقاصده وغاياته، وتفعيلها في الواقع، لتُستثمر الأرض بمواردها وطاقاتها لإصلاح الدنيا والآخرة.
٥. علاج الانحراف المزدوج، والتطرف المضاد لا يمكن أن ينجح إلا بتفعيل الوعي العقلي، والفقهِ المقاصدي، لنصوص الكتاب والسنة، وذلك بالرجوع إلى نصوص الوحي بإيمانٍ يقيني، وعقلٍ راشد، ورأيٍ سديد، ومنهجٍ متوسط ينظر ويتأمل، ويفهم ويُطبق بفقهِ واعٍ لدين الله تعالى.
٦. تحرير العقل من كل ما يعوق صحة تفكيره، كالاكتفاء على الخرافات والأوهام، أو على الطرق غير المنطقية، أو الخوض في علم الغيبات التي احتص الوحي بها، أو التقليد الأعمى، والتعصب المذموم، وإلا كان ذلك سبباً في هدر طاقاته، واختلال تصوراتهِ.
٧. من ثمار تصحيح التصورات العقلية والشرعية القدرة على التمييز بين النص وتفسيره، وأن القداسة والعصمة لا تكون إلا لنصوص الكتاب والسنة، والأحكام القطعية لا تكون إلا للمحكم منها، وما عدا ذلك فهو اجتهادٌ يؤخذ منه ويُرد، ومن هذا الفهم يظهر التصور الصحيح للشرع من خلال نصوصه وأحكامه القطعية وما تحمله من مقاصد لا من خلال التفسير أو التأويل القائم على العقل المجرد، أو الولاية القاصرة، وكما قيل أن الرجال يُعرفون بالحق، ولا يُعرف الحق بالرجال.
٨. البناء العلمي الصحيح الذي يُحقق أهدافه الحضارية في البناء الإنساني والعمري والتقني، ويُؤتي ثماره التربوية في النظم الأخلاقية والاجتماعية هو ذلك العلم الذي يقوم على معرفة الغاية والهدف منه على أساس حقيقته وروحه، ويُترجم عملياً في الواقع لِيُزَوج بين الدنيا والآخرة، وحين يحدث الخلل في البناء العلمي تكون النتيجة إنعكاساتٌ سلبيةٌ على الفرد والمجتمع، ولا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

٩. العلم الذي يُبنى على معرفة الله وحشيتته، والأخذ من وحي الله هو أشرف العلوم، وهو العلم الذي يُعطي صاحبه النظرة المتأنية الواعية للمستجدات والنوازل والأطروحات، والشمول في أخذ العلم، للاستفادة منه دنيا وأخرى لصالح البشرية عموماً.

١٠. العلم المجرد من الروح يُثمر ضعفاً في قلوب حملته، ويُصبح سلعةً وتجاراً تُباع وتُشتري بحسب النزعات والأهواء، ويُسيّر ويُوَجَّه بحسب الأطماع والشهوات، ويُورث ويُخصّص لبعض الأشخاص والفتات، وبسببه يظهر التعالم والتجاسر على الفتيا، والتعصب للمذهب والأشياخ، وبه يُؤصل فن الجدل والمرء، ولأجله تبرز الردود وإصدار الأحكام، وتتبع الزلات والعثرات، فيكون بذلك أداةً للاختلاف، وطريقاً للتفرق، ومعولاً للهدم، وسبباً للفتن.

١١. العلم الذي يفرضه احتياج الواقع سواءً كان من علوم الشرع، أو علوم الطبيعة، يصبح علماً ضرورياً يجب على الأمة الاهتمام به، والعناية بدراسته وتطويره، ليحدث الترابط بين العلم والواقع، ويُفعل العلم عملياً على أرض الواقع، فتظهر الآثار، وتحصل البركات، ويعم التقدم والتطور، وحين ينفصل العلم عن الواقع بمشكلاته ومتطلباته، فإنه يندم تفعيل العلم بفهمٍ ووعي، وابتكارٍ واجتهاد؛ لأنه فقد مصدر القوة والإثراء والإبداع، ويسود جو الجمود والتقليد والبلادة العلمية.

١٢. مفهوم الوسطية في التربية الإسلامية أنه منهج حياة، وحياة أمة، وتشريعاته ليست قوالبٌ وتطبيقاتٌ لا تتبدل ولا تتغير، وليست حداً فاصلاً، أو قاعدةً ثابتة، إنما هي نسبية، تقوم على احترام الخصائص الإنسانية الفطرية التي يتميز بها كل إنسان عن غيره، وتُراعي الأحوال البشرية من الصحة والمرض، والنشاط والفتور، والقوة والضعف، وتعتبر الظروف الحياتية من غنى وفقر، وفراغٍ وشغل، وإقامةٍ وسفر، وتؤمن بالاختلاف في حياة البشر وضرورة التعايش معه، وإعطاء كل حالةٍ لباساً يصلح لها، وهذا اللباس لباسٌ عامٌ صالح، ومهيأٌ بمقاييس مختلفة لجميع البشرية باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأحوال والظروف، والأشخاص والطبقات، وهو لباس التقوى الذي امتن الله به على بني آدم بقوله «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ

اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ٢٦)، فالتشريع الإسلامي بوسطيته لباسٌ عام، يُعطي الجميع الضوابط والتوجهات العامة للحياة لينطلقوا فيها إعماراً وبناءً، واستمتاعاً وبلاغاً للأخرة.

١٣. الجانب الفكري في تأصيل الوسطية هو القاعدة والأساس الذي تنطلق منه السلوكيات التطبيقية، والتنزيل الشرعي للنصوص على الواقع، إذ أن كل سلوك نابعٌ من فكر، فإذا صحَّ الفكر صلح السلوك.

١٤. التصور الوسطي في المسائل الفقهية العملية أنه يُراعي الأحوال والظروف والأشخاص، وأن الفقيه المجتهد له القدرة على الموازنة والجمع بين النصوص في موضوعٍ أو حكمٍ نازلةٍ، والخروج بتصوّرٍ وفكرٍ وحكمٍ متوسطٍ، ينتج عنه سلوكٌ معتدلٌ بعيدٌ عن الحرفية المتشددة، أو العقلية المتحررة.

١٥. التصور الوسطي يُركز على الإيجابيات والإنجازات والحلول التي تجعله يتوقع الأفضل في الحال والنتائج والمستوى، وتُعطيه تصوراً مشرقاً للواقع، ونظرةً حكيمةً وتجربةً للماضي، ونظرةً تفاؤلاً وأملٍ للمستقبل، لينطلق نحو العمل والبناء بصبرٍ وثباتٍ وتضحية.

١٦. علامة المنهج الوسطي التفاؤل في جميع الأحوال، والروية والهدوء والتأني في أخذ الأمور، وإطلاق الأحكام، وردود الأفعال والأطروحات والأفكار، فلا رفض أو ثورة، ولا إسقاط واتهام للنوايا والمقاصد، ولا قبول متسرع غير منضبط وغير مُرشّد.

١٧. القدوة الحسنة من أهم وسائل ودعائم الحفاظ على الهوية لدى الأفراد، وتحقيق الثقة والثبات في نفوسهم، وتنمية روح المسؤولية والإبداع والطموح في أعمالهم، لما يرون من مثالٍ واقعي يجسد المعاني الراقية، والأفعال الطموحة، والأخلاق الفاضلة.

١٨. إذا حاد المجتمع عن تفعيل القدوة في الحياة، أو خالف القدوات بأفعالهم ما يتكلمون به أو ينادون إليه من قيمٍ وأخلاقٍ ومُثلٍ، فإن النتيجة الطبيعية هي الفساد الأخلاقي الاجتماعي، والانهيار القيمي الإنساني، والعذاب والعقاب الإلهي.

١٩. العدل في التربية الإسلامية يتصف بالشمول والعموم، فهو عدلٌ مع الله في أداء حقوقه، وعدلٌ مع النفس في إعطاءها حقوقها، وعدلٌ مع الناس في إعطائهم حقوقهم، وعدلٌ مع المجتمع في إعطاءه حقوقه، بل وعدلٌ مع الحيوان والنبات والجماد.

فهو عدلٌ شاملٌ رأسي ابتداءً بالذات الإلهية وانتهاءً بالذات الإنسانية، وعمّ أفقي من الذرة المتناهية إلى ملكوت الله اللامتناهي، يُظهر المنهج التربوي الإسلامي للعدالة، الجدير بالعالمية.

٢٠. الشورى لغة العقل، ورسالة الود، وحوار الآخر، للخروج بنظرةٍ أوسع وأشمل وأعمق، وهو من أقوى دعائم النظام الاجتماعي الذي يحقق التوافق والانسجام والمودة داخل نطاق الأسر والجماعات، وبدونه يحصل الانفصال والتفريق، والاختلاف والتشردم الأسري والاجتماعي، وهو كذلك من أقوى دعائم النظام السياسي الذي يحقق التوازن والمصالح بين السلطات والهيئات والمؤسسات داخل نطاق الدولة، وبدونه يحصل الاستبداد والتسلط الذي يقود إلى الضعف ثم الانهيار والنهاية.

٢١. مبدأ الشورى من أهم مبادئ وأسس القائد التي يحقق بها أعلى مراتب النجاح والتفوق، والقيادة تشمل كافة المستويات، فهي مسؤوليةٌ ورعاية، تبدأ من النظام الأسري مروراً بأنظمة المؤسسات والشركات إلى نظام الحكم السياسي، وأهمية هذا المبدأ في نجاح القائد تكمن في أن جميع أفراد منظومته يشتركون معه في تقديم الحلول للمشكلات، وتحليل الأزمات، واستشراف المستقبل، وهذا يُعزز في الأفراد أيّاً كانوا - أبناءً أو زوجات، أو طلاباً، أو عمالاً، أو موظفين، أو محكومين - روح القيادة والاستقلال، ويجعلهم عيوناً نافذةً، تُصحح الخطأ، وتسد الخلل، وتُكمل النقص، وبذلك يصلوا إلى أعلى مستويات الثقة والاعتزاز بالذات، والقدرة على تحمل المسؤوليات، وصناعة القرار الناجح القادر على تحقيق الهدف الذي يحقق السعادة والرضى، والأمان والاستقرار للجميع.

٢٢. مبدأ السمع والطاعة في التربية الإسلامية قاعدة الضبط الاجتماعي الذي هو هدف من أهداف التنشئة الاجتماعية.

٢٣. دائرة السمع والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم هي قاعدة السمع والطاعة في التربية الإسلامية ومنها وإليها ترجع جميع الدوائر، فإن صحَّ التصور فيها، والإحاطة بها، والفهم الواعي الشامل لمدلولات نصوصها من الكتاب والسنة، كان فهم وتطبيق ما بعدها من دوائر السمع والطاعة صحيحاً وسليماً، وإذا حدث الاختلال في التصور، أو الاجتزاء في الفهم، أو إتباع الهوى، كانت النتيجة انحرافاً في التطبيق إلى الإفراط أو التفريط، وبطناً لكل ما ينتج عن ذلك.

٢٤. مفهوم السمع والطاعة لولي الأمر في التربية الإسلامية ليس مفهوماً أعمى قائم على التسلط والظلم والطغيان والاستبداد السياسي، أو القداسة والعصمة والاستغلال الديني، وإنما هو مفهومٌ تربوي، قائمٌ على الحرية والعقل والاستطاعة، وتحقيق العدل ومقاصد الشرع، على أساس الشورى التي تُراعي المصالح، وتحفظ المكتسبات.

٢٥. أكبر أسباب الاختلاف التي أوقعت الفرقة بين أبناء الأمة الإسلامية ما وقع في بعض مسائل الاعتقاد أو مسائل الاجتهاد من أخطاء، والتي سببت التعصب للمذهب أو الرأي، وما نتج عنه من عقلية قائمة على الإقصاء والحجر، وعدم تقبل الرأي المخالف أو سماعه وربما محاورته، فكانت النتيجة القضاء على التسامح والإعذار، وروح الأخوة الإيمانية، فكان ذلك سبباً في إحداث شرحٍ عظيم للصف الإسلامي، وضربٍ للوحدة العقديّة، مما أفرز اختلافاً وتفرقاً، وجهوداً وتقليداً مذموماً، ينتهج أساليب العداوة والتصنيف والتبديع.

٢٦. مبدأ الوحدة والاجتماع في التربية الإسلامية يؤصل مفهوم الانتماء الحقيقي للفرد، وهو الانتماء الصادق للجماعة، والتي تنضوي تحتها جميع الانتماءات القبلية والعرقية والمذهبية والدينية... الخ، في خطوطٍ متوازيةٍ غير متقاطعة تصبُّ جميعها في مصلحة الجماعة ووحدها وقوتها واستقرارها، ليتفيء الجميع في ظلها، وينعموا بشمارها.

٢٧. الحوار مفتاح الحرية الفكرية، وثمره الاستقلال الرباني، ونور البصيرة العقلاني، ووسيلة التعارف الإنساني، وطريق الوحدة الاجتماعية، وسبب الألفة الأخوية، وعلاج المشاكل الأسرية، وقاعدة البناء العلمي والتربوي، فهو يشجع جميع الفئات والأطراف على الكلام والتعبير بلا خوفٍ ولا وجل فتتلاقح الأفكار وتظهر الحقائق.

٢٨. الحوار يُظهر قوة العقيدة التي تقوم عليه، وحرية فكر من ينادي به، واحترام الإنسانية لكل من يدعوا إليه؛ لأنه حوار قائمٌ على العقل والعلم والحقيقة، بطرق الاستدلال الصحيحة، وبأسلوب الأدب واللفظ واللين، على قاعدة العدل والإنصاف والتجرد والاستقلال، يهدف إلى إظهار الحق، وإقامة الحجّة، ودوام الألفة بتقريب وجهات النظر.

٢٩. التطبيق التربوي لمبدأ الحوار يشمل كافة المستويات _ الأمة والمجتمع والمؤسسات والأسر_ وهو ما يجعل هذه التربية عالمية في رسالتها لكل الأديان والثقافات، وشاملة في دعوتها لكل القضايا والموضوعات، وعمامة في تطبيقها على كل الأشخاص والفئات، وربانية في مصدرها تنطلق من مسلمات وقينيات، وعقلانية في تربيتها تقوم على العقل والعلم والمنطقيات، وإنسانية في مبادئها تقوم على الحرية والاحترام والعدل والإنصاف، وراقية في تعاملها تراعي المشاعر والأحاسيس والمعنويات، وهذا ما يجعل الحوار في التربية الإسلامية ينبذ الفكر التصادمي، والخطاب العدائي التحريضي؛ لأنه وسيلةٌ حضارية للتعارف وفهم الآخر، وإظهارٌ للعقلانية والتسامح وحسن النوايا، وسبيلٌ لتحقيق الوئام والتعايش، والأمن والاستقرار، وطريقٌ للتعاون على المصالح والمنافع والتكامل، وميثاقٌ لإقرار القيم العليا التي أجمعت البشرية على فضلها، والمحافظة على الضرورات المكفولة لكل إنسان على وجه الأرض، حتى تصل البشرية إلى (كلمة سواء).

٣٠. التربية الإسلامية حين تبني مبدأ الاستقلال في نفوس أفرادها فإنها لا تبنيه على الشعارات والعواطف، أو العصبية والتحيزات، إنما تبنيه على عقيدة وفكر، وسلوكٍ وتطبيق، وتوجهٍ وشعور، فهو استقلالٌ كاملٌ شاملٌ، فلا تبعية للأنا وأهواءها، ولا للذات وشهواتها، ولا تبعية للآباء والأشخاص والعادات، ولا تبعية للأمم والحضارات، إنما هو استقلالٌ رباني يجعل الواقع الإنساني محلق في فضاء الحرية الرباني.

٣١. مفهوم (الولاء والبراء) تربويٌّ شرعي، واعتقادٌ قلبي يزرع في النفس الثقة والسعادة والطمأنينة، ويغذيه بماء اليقين، ويجعله سياجاً للقيم والمبادئ، ومعياراً لمدى التمسك بها، والثبات عليها، وبه تظهر آثار تحمل المسؤولية وأدائها على الوجه المطلوب تجاه الدين والأسرة والمجتمع والوطن والأمة والبشرية، وهو يهدف إلى نبذ التعصب والعدوان بكل

أشكاله وصوره، يقول تعالى ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة يونس، آية: ٤١)، ويجعل النفس والفكر تخلقان في فضاء الحرية الرباني بسلوكٍ متسامحٍ أخلاقي في حال الانتصار والقوة، وفي حال الانهزام والضعف.

٣٢. استقلال الفكر وحرية الرأي هما المحرك للإنسان نحو الحقيقة، والدافع له نحو التضحية والثبات، حيث تجعل الفرد يمر بتجربة ذاتية، تكسبه الإيجابيات قوةً والسلبيات خبرةً، وتمنحه التجارب مناعةً والأحداث عزيمةً، وتصهر المواقف والأفكار معدنه فيما أن ينجلي عن ذهب خالص، أو تبر زائف.

٣٣. التربية الإسلامية من بين سائر التربيَات تبني الأفراد على الحرية الفكرية القائمة على النظرة الإصلاحية، المنضبطة باحترام حقوق الآخرين ومقدساتهم، والفكر العقلاني القائم على المبادئ والقيم، والثبات العقدي، المنضبط بهدي الكتاب والسنة؛ لأنها مبنية على اليقين والصحة، والثبات والتجدد، فإذا أُصلت في النفوس تأصيلاً صحيحاً واعياً فلا خوف على صاحبها من الضياع أو التشتت، وإذا لم توصل هذه التربية في النفوس أصبحت تابعة لغيرها إما هوىً أو فكرياً أو شخصياً أو توجهاً، لها في كل يوم شأن، وفي كل حال أمر، ومثلها لا يُبنى به مجتمع، ولا يُحمى به وطن، ولا تُصنع به حضارة.

٣٤. استقلال الأمة لا يكون إلا بثورة علمية وانقلابٍ فكري يقود إلى النهضة والتقدم والريادة في كافة المجالات، أما الاستقلال عن طريق الثورات المدنية أو الانقلابات العسكرية فلم تزد الأمة إلا ضياعاً وشتاتاً، وتحقيقاً لمصالح فئاتٍ على دماء ومعاناة الشعوب، والتي غطت أطماعها بالعواطف الجياشة، والشعارات المزيفة، وقادتها بالاستعباد الفكري، والاستبداد السياسي، والقهر الاجتماعي، والفساد المالي، فكانت النتيجة جهلاً وضعفاً، قادت إلى التبعية والانقياد.

٣٥. التربية الإسلامية تتميز بأنها تربية قائمة على استقلال الفكر وتجريده من جميع المؤثرات التاريخية، أو الخلافات المذهبية، أو التطبيقات الجزئية؛ لأن نصوص الكتاب والسنة قواعد وكرليات جاءت مجردة عن الوقائع - أي لم تكن خاصة بتلك الوقائع -، إنما هي عامة لكل

واقعةً تشبهها _ لم يرد فيها نصٌ من كتاب أو سنة_، أو مقياساً لكل واقعةٍ تشترك في علتها، أو شبهاً ونظيراً لكل واقعةٍ قريبةٍ منها، وهذا ما يميز التشريع الإسلامي، ويهيئه للعالمية، وإمكانية التطبيق في كل مكان وزمان. بمرونةٍ ويسرٍ وسهولة، وهذا ما يُسمى في الفقه الإسلامي بالاجتهاد، فالتربية الإسلامية بهذه المنهجية المتجددة تدفع إلى التطور والتغيير، والتنوير والعلم، على قاعدة الأصالة والثبات، وهي كالمظلة التي تستوعب كل حركة إصلاح، أو تجديد، أو تغيير، أو ثورة علمية وحضارية موافقة للعقل والمنطق، بعكس الأديان والمناهج الأخرى التي تتغير وتتبدل من أصلها بحسب الظروف والأحوال.

٣٦. الاستقلال الفكري التاريخي الصحيح هو ذلك الاستقلال القائم على الحقيقة والشفافية والصدق، بعاطفة الحب، وروح التسامح، والذي يُثمر التصحيح، ويُعيد التوازن في واقعٍ منفصلٍ عن الماضي وأخطائه وحروبه وفتنه، ويدفع للعمل في الحاضر بنظرةٍ مستقبليةٍ تقود للبناء والتقدم في مجتمعٍ متعايشٍ متسامحٍ متصالحٍ، يجارب الخلاف والتصادم، ويسعى للوحدة والتقارب، ويأخذ العبرة والعظة من تجارب الأمم التي ذهبت ضحية التبعية للتاريخ المظلم.

٣٧. استقلال السلطة في التربية الإسلامية يقوم على استقلالها وكافة مؤسساتها عن الأيدلوجيات الداخلية، والتوجهات والسياسات الخارجية، واستقلالها على أساس حفظ مصالح الدين، ورعاية مصالح الدنيا، وحفظ الحقوق، وضمان الحريات، وإقامة العلاقات على أساس العدل والقسط، وحين تقع السلطة تحت أسر التبعية لفكرٍ أو مذهبٍ أو توجهٍ، أو تُقيد سلطات الدولة _ التشريعية والقضائية والتنفيذية _ بصوت واحدٍ ونظرةٍ واحدةٍ لتحقيق أهداف من هم على هرمها، فإن النتيجة ضغطٌ على المجتمع نحو طريقةٍ واحدةٍ، وتفكيرٍ واحدٍ، يصحبه انحسارٌ لجو الحرية، وتشوُّهٌ للحقيقة، وانعدامٌ للعدالة بأفعالٍ وتصرفاتٍ مدعومةٍ بقوة السلطة، وما يتبعه من ظلمٍ سياسي، وقهر اجتماعي، واستغلالٍ اقتصادي، تكون محصولها بذرة فرقة واختلاف تنمو مع الأيام شيئاً فشيئاً حتى تصبح شجرةً راسخةً الجذور عميقة الأطراف لا تُؤثر فيها معالجة، ولا تُصلحها مبادرة.

٣٨. الحرية الفكرية في التربية الإسلامية تقوم على قاعدة كمال العبودية لله وحده دون سواه، فإذا تحقق ذلك أصبح الفرد حراً على شهواته ورغباته وأهوائه، وكل سلطة أو رقابة، ووصل إلى مرتبة المسؤولية عن الأمانة التي حملها، فتكون الحرية نابعة من معاني وأفكار راسخة وثابتة، نحو فضاء رحب من التفكير والتأمل، والبحث والنظر، وإبداء الرأي، على أسس علمية منطقية، أو غيبية شرعية، تحفظ لجميع أفراد المجتمع باختلاف أديانهم ومذاهبهم وأفكارهم الضروريات الخمس التي حفظها الدين الإسلامي لعموم البشر، وهو ما يكسبها الانضباط والترشيد، والصراحة والوضوح، لتقوم بدورها في بناء وحماية المجتمع، بخلاف مفهوم الحرية المطلقة التي تفكك معاني الإنسانية، وتُبثر فكره.

٣٩. أمن الفكر لا يمكن أن يتحقق في بيئة مظلمة بعيدة عن الأنظار والأسماع، إنما يتحقق في بيئة مضيئة بنور الحرية تظهر فيها الأفكار والآراء الاجتهادية، والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فتكون عرضة للنقاش، والأخذ والرد، والتمحيص والتصحيح، والقبولبة نحو الأفضل والأصلح والأقرب للواقع، وهذا ما يُعطي الفرد أيّاً كان - مفكراً أو فقيهاً أو تاجراً أو حاكماً أو غير ذلك - الرقابة الاجتماعية الواعية لكل ما يطرحه، فلا يتجرأ أحدٌ في مجتمع الحرية على القول أو الادعاء إلا بدليل علمي أو برهان عملي، ولا يخاف أحدٌ من النقد أو التصحيح والإصلاح، وهذا ما يُعطي كافة أفراد المجتمع الجو الآمن الذي ينشأ فيه الإبداع والتطور والإخلاص، والانتماء الصادق للجماعة، وتكاتف الجهود، مما يزيدهم قوةً وقدرةً على استيعاب الأفكار والأطروحات والرؤى، وتحليلها والغوص في أهدافها ومعرفة مراميها ليصلوا إلى الحكمة التي هي ضالة كل مؤمن.

٤٠. إذا لم يُضاء الفكر بنور الحرية اتجه نحو الانغلاق وضيق الأفق، والتعصب للرأي والاجتهاد، والإقصاء وعدم تقبل الآراء والأشخاص، والأحادية في التفكير، والتشكيك في النوايا، وإطلاق اللسان بالتفسيق والتبديع والتكفير، والشحن العاطفي غير المرشد، وتقديس الذات وتعظيم الأنا، وإلزام الناس بالعزائم مع وجود الرخص، وعدم مراعاة الواقع والأحداث والمستجدات، وعدم معرفة الأولويات، وعدم مراعاة مقاصد الشرع، وعدم الاستفادة من كل جديد، وعدم التوسط والاعتدال في الفكر والسلوك، إما تشدداً وغلواً،

أو انحرافاً وانحلالاً، وهنا يصل المجتمع إلى الخوف النفسي الذي لا أمان معه، ويُترجم إلى إرهابٍ سلوكي، وعداءٍ عملي، بحثاً عن تحقيق الذات أو الحرية والكرامة، وينتج عن ذلك إخلالٌ بالأمن المادي.

٤١. التربية الإسلامية تولي قضية الأمن عناية كبرى؛ لأن به تقوم مصالح الدين والدنيا، وبه تبني الحضارات، ولأجل تحقيقه شُرعت الشرائع السماوية والوضعية، فهو غاية الإنسان في كل زمان ومكان، وهو قاعدة مشتركة، وهدف واحد لكل الأمم والشعوب، لذا فإن الانطلاق منه يُحقق للمجتمعات قوة داخلية وخارجية على أساس الأخوة الإيمانية، أو الصداقة الإنسانية، ورعاية المصالح المشتركة.

٤٢. التربية الإسلامية لا تهدف إلى تحقيق الأمن الظاهر فقط، بل تهدف إلى غرسه في أعماق النفوس وبأعلى الدرجات والمراتب، يقول تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد، آية: ٢٨)، ومن هذا المنطلق أولت تحقيق الأمن غاية الاهتمام، بل وجعلته من أسمى الغايات والمقاصد، وشرعت لأجله التشريعات والقوانين التي تصب في إطاره، وتحفظ حدوده، ابتداءً بالحدود التي تضبط الأحوال الشخصية، وانتهاءً بالجهاد الذي يضبط الحدود الجغرافية، وهذا هو التطبيق المثالي الذي يتسم بالواقعية، ويحفظ الحقوق، ويصون الكرامات، ويرعى العهود والذمم، ويُطبق العدل في أعلى صورته وأبهى حلله.

٤٣. مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التربية الإسلامية أنه علاجٌ استصلاحيٌّ، وداعمٌ اجتماعي يقوم بمتابعة الظواهر السلوكية لأفراد المجتمع ليُقوم ويصحح، ويُرشد وينبّه في كل حالةٍ وواقعةٍ بما يناسبها، وهذا العلاج لمن غاب عنه الضمير، وغشيتته الغفلة، ووقع في الخطأ، ولكن إن لم يُقدم بالطريقة الصحيحة والجرعة الكافية كان سبباً في زيادة أخطاء الأفراد وتماديهم، واختلال أمن المجتمع وطمأنينته، وهلاكه ونهايته.

٤٤. حقيقة "الذنب والتوبة" في التربية الإسلامية أنها تجربةٌ إنسانيةٌ ذاتيةٌ مع الخطأ، وتربيةٌ على التعامل معه، للقدره على التكيف في ظروفه، والخروج من ظلماته وضيقه إلى أنوار وفرج التوبة، لتحقيق المناعة النفسية من آثاره.

٤٥. الواجب الشرعي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتحقق إلا عند القدرة على التطبيق التربوي، وتوافر الاستعدادات العلمية والنفسية، والقدرات الفنية التفاعلية في الاتصال والمخاطبة، لتكون مهمته إصلاح وهداية البشرية _هداية الدلالة والإرشاد_.

٤٦. التربية الإسلامية شرعت القوانين التي تكفل أمن المجتمع في حال حدوث خطأ على ولي الأمر، وهذا الخطأ تختلف عقوبته وطريقة التعامل معه باختلاف درجته وتأثيره، فإذا كان الخطأ للإحداث والإفساد، ونشر الفوضى الاجتماعية طُبِقَ عليه حد الحرابة، وإذا كان للخروج والفتنة توجَّب قتال صاحبه حتى يعود الأمر إلى أهله، وإذا كان بغياً وعدواناً، أو تأوُّلاً واجتهاداً، توجَّب قتال صاحبه لحماية الجماعة من التفرق، وتقديم مصالح ومقاصد الاجتماع، أما إذا كان الخطأ تهديداً خارجياً، أو تعدياً على حرمة الدولة وأراضيها فإن القتال الواجب هو الجهاد.

٤٧. مفهوم الجهاد في التربية الإسلامية ليس مفهوماً قتالياً متطرفاً، وإرهابياً يروع الآمنين، وينشر الخوف والفوضى، ويزرع الحقد، ولا مفهوم نخاذل عن الحق والعدل، وتفريط في الحد والأرض، بل هو تشريعٌ ونظامٌ بأمر ولي الأمر، لحفظ الأمن، ونشر الحرية، وتطبيق العدل، وهو يُستخدم للدفاع في حال الاعتداء، وللطلب في حال نصرة الغير مسلماً كان أو كافراً، وله ضوابطه الشرعية وآدابه الأخلاقية التي لو طُبقت لكانت من أعظم وسائل نشر الإسلام.

٤٨. التربية الإسلامية تضع مبدأ السلم الذي به يتحقق الأمن والاستقرار، الأصل في العلاقات الإنسانية، والعلاقات الدولية.

٤٩. الجهاد في التربية الإسلامية مفهومه شاملٌ وعمام، فهو جهادٌ مأخوذٌ من بذل الجُهد والعمل في كافة الميادين، لعمارة الأرض، وابتغاء الأجر من الله تعالى، وهو ينشئ الأفراد على ثقافة الحياة الأبدية والسعادة، لا ثقافة الموت والشقاء، وهو جهادٌ واجبٌ على كافة أفراد الأمة رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، كلٌ حسب مسؤوليته وعمله وقدرته، فهناك جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الإصلاح، وجهاد البناء، وجهاد العلم، وجهاد الدعوة، وجهاد

القدوة الحسنة والأخلاق الفاضلة، وجهاد العمل المثمر واكتساب الرزق الحلال و... الخ،
جهاداً في الحياة للعيش في سبيل الله تعالى.

ثانياً : التوصيات:

١. تقع مسؤولية إبراز المضامين التربوية المستنبطة من أحاديث الاعتصام بالكتاب والسنة على المؤسسات التربوية المختلفة، ل يتم تفعيلها إلى تطبيقٍ تربوي يحقق السعادة والاستقرار في الدنيا، والفوز والنجاح في الآخرة.
٢. العناية بدراسة سير علماء الأمة وعظماؤها في مختلف العصور دراسةً تربوية، ليتمكن المسلم من معرفة سرّ النجاح والتفوق، حين يرى اختلاف الأزمان والأحوال والظروف في حياتهم، وكيف تجاوزوا العقبات، وتفاعلوا مع المعطيات، وتعاملوا مع المتغيرات، واغتنموا الفرص والأوقات.
٣. التركيز في دراسة العلم الشرعي على فقه المقاصد الذي يوجهه لتحقيق مصالح الأمة في دينها ودنياها.
٤. صرف جهود أفراد الأمة لما يصلح أمور دينهم ودنياهم، وتعليقهم بقضايا الأمة الكبرى والمصالح المشتركة والأهداف العامة التي تحقق الوحدة والألفة، وعدم إشغال الأمة بمسائل الخلاف التي تؤدي إلى التفرق.
٥. توجيه كافة الجهود والإمكانات والطاقات لمصدر التأثير في الإنسان (القلب) الذي هو مركز القناعات والمعتقدات والأفكار، بالطرق الشرعية التربوية التي تخاطب العقل وتناجي القلب، ليحدث التصحيح والتغيير والإصلاح، وفق قناعة عقلية وعاطفية إيمانية، تزداد مع الأيام والأحداث والمواقف ثباتاً واعتزازاً وعزيمة.
٦. وجوب تفعيل طاقة العقل في مناهج التعليم الشرعية لتجنب الحرفية المتشددة، وضبط طاقة العقل بحدود الشرع لتجنب الفكر المتحرر المتأرجح.

٧. ضرورة تعويد العقول في مناهج التعليم على مهارات التفكير الصحيح كالانفتاح على كل جديد، مع التمييز بين النافع والضار، والتقبل لآراء المخالف، والتروي قبل إصدار الأحكام أو الأفعال، والاستقلال في الفكر بحثاً عن الحقائق بأدلتها.
٨. توسيع دائرة الرأي الفقهي في المعاهد الشرعية، والاطلاع على آراء الصحابة والأئمة والعلماء رضي الله عنهم ورحمهم، لما في ذلك من معرفة لمسائل الخلاف، وسعة دائرته، وحجية أدلته، لاختيار الأصلح والأيسر، وما يترتب عليه من عقلية تنبذ التعصب والتفوق والتزمت.
٩. بيان المنهج الوسطي والمعنى الحقيقي للعبادة، وهو أن الحياة بكل معاملاتها وعلاقاتها، والكون بكل أجزائه وذراته محرابٌ للعبادة.
١٠. ضرورة اهتمام المحاضن التربوية والمنابر الدعوية في مخرجاتها وخطابها بالبناء العلمي المتكامل الذي يحقق التوازن والوسطية والاعتدال.
١١. العناية بتربية النشء والأفراد على الاستقلال في الفكر والرأي، والحرية في الاختيار، على المنهجية التربوية الإسلامية، وهي ابتغاء الحق والنفع والصواب.
١٢. تفعيل دور الحوار في المجتمع ليشمل كافة الطبقات والدوائر والاتجاهات، في جو آمن مطمئن ليحقق المصلحة للجميع.
١٣. ضرورة ترسيخ قواعد الأمن الفكري، وتثبيت دعائمه في النفوس والعقول أولاً، لتحقيق ثماره على أرض الواقع أمناً مادياً يحفظ الحقوق، ويحافظ على المكتسبات.

ثالثاً : المقترحات:

١. أن تُعنى مؤسسات التعليم والتربية والدعوة بتصحيح التصورات العقلية والشرعية للأفراد، ليشيع في المجتمع الفكر العقلاني بهدي رباني، يُحارب الجهل والتعصب والتفوق والتعميم والتحجيم والتسطيح، ويسعى للموازنة والمقاربة والألفة والوحدة، على أساس مقاصد التشريع وغاياته.

٢. تمكين الفقيه المجتهد صاحب النظرة التجريدية الذي ينظر إلى النصوص نظرة عميقة واعية، ويأخذ المسائل أخذاً وسطياً، ابتداءً في الفهم والنظر، وفي اعتبار المقاصد والغايات، ثم يخرج بأحكامٍ عمليةٍ وسطيةٍ قائمة على الأصول، تُراعي الواقع باحتياجاته ومشكلاته وتعقيداته.
٣. أن يُعاد جمع تفسير القرآن الكريم وشروح السنة المطهرة بطريقةٍ تجمع بين التأصيل العلمي والروح الإيمانية، والمعنى البلاغي والفهم التربوي، والإعجاز البياني واللغة البسيطة، والتصوير الإلهي والتطبيق الواقعي، لكي تستفيد الأمة من وحيها، وتفيق من غفلتها، وتعود لمصدر عزتها وقوتها، اعتصاماً وفكراً وتطبيقاً.
٤. أن تُعاد صياغة المناهج التعليمية لتقوم على قواعد البناء العلمي المتكامل، لتُحقق الهدف من دراستها وتعليمها في نفوس النشء وفي واقعهم، ولترتقي بهم تعلقاً بالله، وتخلقاً مع عباد الله، وتوجهاً لإعمار أرض الله.
٥. أن تُوجّه الدراسات العلمية الشرعية والتربوية، والمنابر الدعوية والإعلامية اهتمامها في بيان وتوضيح مفاهيم الوسطية، والعدل، والحوار، والوحدة والاجتماع، والسمع والطاعة، والحرية، والاستقلال، والولاء والبراء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد، وذلك بتفعيلها عملياً في واقع الأفراد بحسب أحوالهم وظروفهم، وواقعهم وإمكاناتهم، لتتحقق مقاصد الشرع ومصالح الدنيا.
٦. أن يُعاد كتابة تاريخ الأمة الإسلامية بأيدي وعقول علماءها ومؤرخيها، بحيث يكون التعامل مع التاريخ بفهم عميق لتعقيدات التسلسل التاريخي، وبروح التسامح والإعذار، وعقلية الناقد البصير، واستفادة المجرّب الحكيم من المراجعات والتصحيحات على مستوى الأديان والأفكار والمذاهب والأشخاص، وأن يكون التركيز على جوانب التاريخ الإنسانية والأخلاقية، والعبر والتجارب الحياتية، لتُستثمر وتُفعل في لَمَّ الشمل وتحقيق الوحدة والألفة، وذلك بإيجاد اتحادٍ يجمعها بعيداً عن النزاعات والخلافات التاريخية والسياسية والمذهبية.
٧. استثمار الرسائل العلمية التربوية وتفعيلها واقعاً، وذلك من خلال تكليف مؤلفيها بعمل حقائب تدريبية، أو دورات تربوية، أو مشاريع اجتماعية، تحقق أهداف الدراسة ونتائجها، والباحث بصدد إعداد وإخراج دورة تدريبية تربوية بعنوان "تصحيح المفاهيم".

قائمة المصادر والمراجع

ولاً : المصادر الشرعية

(أ) القرآن الكريم.

(ب) علوم القرآن:

١. إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢. أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، ١٤١٣هـ، دار المعرفة، بيروت.
٣. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤. أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٤٢١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥. أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني: غريب القرآن، ت: محمد أديب جمران، ١٤١٦هـ، دار قتيبة.
٦. أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط٥، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٧. أبو عمر محمد بن عبد الواحد البغدادي: ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، ت: محمد يعقوب التركستاني، ١٤٢٣هـ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
٨. أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي: معالم التنزيل، ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٩. سيد قطب: في ظلال القرآن، ط٢٤، ١٤١٥هـ، دار الشروق، بيروت.
١٠. عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ١٤١٥هـ، دار ابن الجوزي، الدمام.
١١. محمد ابن عمر الفخر الرازي: التفسير الكبير، ط٤، ١٤٢٢هـ، دار احياء التراث العربي، بيروت.
١٢. محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، (د.ت)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
١٣. محمد بن أبي بكر الرازي: تفسير غريب القرآن العظيم، ت: حسين ألمالي، ١٩٩٧م، مديرية النشر والطباعة والتجارة- التابعة لوقف الديانة التركية، أنقرة.
١٤. محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ط٣، ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥. محمد بن علي الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ط٢، ١٤١٨هـ، دار الوفاء، المنصورة.

١٦. محمود عمر الزمخشري: الكشاف، ١٤٢٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

(ج) السنة وعلومها:

١٧. أبو العباس أحمد بن محمد القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ١٤١٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٨. أبو العلا محمد بن عبد الرحمن المباركفوري: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، ١٤١٥هـ، دار الفكر، بيروت.

١٩. أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني: المصنف، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

٢٠. أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبه الكوفي: المصنف في الأحاديث والآثار، ت: كمال يوسف الحوت، ١٤٠٩هـ، مكتبة الرشد، الرياض.

٢١. أحمد بن الحسين البيهقي: السنن الكبرى، ت: محمد عبد القادر عطا، ١٤١٤هـ، دار الباز، مكة المكرمة.

٢٢. أحمد بن الحسين البيهقي: شعب الإيمان، ت: محمد السعيد بسيوني زغلول، ١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٣. أحمد بن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط٢، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٤. أحمد بن حنبل الشيباني: المسند، (د.ت)، مؤسسة قرطبة، القاهرة، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرناؤوط عليها.

٢٥. أحمد بن شعيب النسائي: المتجني من السنن، ت: عبد الفتاح أبو غدة، ط٢، ١٤٠٦هـ، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

٢٦. أحمد بن عبد الكريم الغزي العامري: الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث، ت: فواز أحمد زمرلي، (د.ت)، دار ابن حزم، بيروت.

٢٧. أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي: المسند، ت: حسين سليم أسد، ١٤٠٤هـ، دار المأمون للتراث، دمشق.
٢٨. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: هدي الساري مقدمة فتح الباري، ط ٢، ١٤٠٩هـ، دار الريان، القاهرة.
٢٩. سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الأوسط، ت: طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني، ١٤١٥هـ، دار الحرمين، القاهرة.
٣٠. سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الكبير، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، ط ٢، ١٤٠٤هـ، مكتبة العلوم والحكم، الموصل.
٣١. سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي: السنن، ت: محي الدين عبد الحميد، (د.ت)، دار الفكر، بيروت، الأحاديث مزيلة بأحكام الألباني عليها.
٣٢. عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ت: أبو قتيبة الفاريابي، ط ٣، ١٤١٧هـ، مكتبة الكوثر، الرياض.
٣٣. عبد الله بن الرحمن الدارمي: السنن، ت: فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، الأحاديث مزيلة بأحكام حسين سليم أسد عليها.
٣٤. محمد بن إسماعيل البخاري: الأدب المفرد، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط ٣، ١٤٠٩هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الأحاديث مزيلة بأحكام الألباني عليها.
٣٥. محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، ط ١، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة، بيروت.
٣٦. محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ت: شعيب الأرناؤوط، ط ٢، ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٣٧. محمد بن عبد الرؤوف المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ١٣٥٦هـ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

٣٨. محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري: المستدرک علی الصحیحین، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت. مع الكتاب: تعليقات الإمام الذهبي في التلخيص.
٣٩. محمد بن علي الشوكاني: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، ١٤١٩هـ، دار المعرفة، بيروت.
٤٠. محمد بن عيسى الترمذي: السنن، ت: أحمد شاكر وآخرون، (د.ت)، دار إحياء التراث، بيروت. الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.
٤١. محمد بن محمود العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (د.ت)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤٢. محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني: الإيمان، ت: حمد حمدي الحربي، ١٤٠٧هـ، الدار السلفية، الكويت.
٤٣. محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني: السنن، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، (د.ت)، دار الفكر، بيروت، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.
٤٤. محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ط٣، ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي، دمشق.
٤٥. محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة، ١٤٢١هـ، مكتبة المعارف، الرياض.
٤٦. محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الترغيب والترهيب، ١٤٢١هـ، مكتبة المعارف، الرياض.
٤٧. محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته، ط٣، ١٤٠٨هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
٤٨. محمد ناصر الدين الألباني: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، ط٣، ١٤١٠هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

٤٩. مسلم بن الحجاج النيسابوري: الجامع الصحيح، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، (د.ت)، دار إحياء التراث، بيروت.

٥٠. يحيى بن شرف النووي: شرح صحيح مسلم، ط٢، ١٤١٤هـ، مؤسسة قرطبة، مكة المكرمة.

٥١. يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ت: مصطفى أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، ١٣٨٧هـ، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.

ثانياً: المعاجم اللغوية

٥٢. إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، ١٤٠٠هـ، دار المعرفة، القاهرة.

٥٣. أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ت: عدنان درويش ومحمد المصري، ١٤١٩هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٤. أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي: معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد هارون، (د.ت)، دار الجيل، بيروت.

٥٥. أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ت: محمد إبراهيم سليم، (د.ت)، دار العلم والثقافة، القاهرة.

٥٦. أحمد بن محمد الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ت: يوسف الشيخ محمد، ط٢، ١٤١٨هـ، المكتبة العصرية، بيروت.

٥٧. أحمد بن محمد بن علي الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، (د.ت)، المكتبة العلمية، بيروت.

٥٨. إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ١٩٩٠م، دار العلم للملايين، بيروت.

٥٩. جار الله بن محمود بن عمر الزمخشري: الفائق في غريب الحديث، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٠. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ١٤١٤هـ، الشركة العربية للكتاب والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
٦١. الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري: المعجم في بقية الأشياء، ط٢، ١٤١٣هـ، مكتبة الهداية، بيروت.
٦٢. الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ت: صفوان عدنان داوودي، ط٢، ١٤١٨هـ، دار القلم، دمشق.
٦٣. زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ١٩٧٨م، مكتبة لبنان، بيروت.
٦٤. عبد العزيز بن سعود العمر: لغة التربويين، ١٤٢٨هـ، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض.
٦٥. علي بن محمد الجرجاني: التعريفات، ط٤، ١٤١٨هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٦٦. مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، (د.ت)، مكتبة أنصار السنة المحمدية، باكستان.
٦٧. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز: آبادي: القاموس المحيط، ط٢، ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٦٨. محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، ١٤٢٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٦٩. محمد بن عبد الرحمن المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف، ت: د.محمد رضوان الداية، ١٤١٠هـ، دار الفكر المعاصر، بيروت.
٧٠. محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الأفريقي: لسان العرب، ١٤١٦هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٧١. محمد رواس قلنجي، وحامد صادق قنبي: معجم لغة الفقهاء، ط٢، ١٤٠٨هـ، دار النفائس للطباعة والتوزيع، بيروت.
٧٢. محمد علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ت: علي دحروج، (د.ت)، مكتبة لبنان، بيروت.

ثالثاً : الكتب والمراجع

٧٣. إبراهيم محمد البريكان: المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة والجماعة، ١٤٢٣هـ، دار ابن القيم، الدمام.
٧٤. ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، ط ٩، ١٤٠٨هـ، الكتب الإسلامي، بيروت.
٧٥. أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي: طبقات الفقهاء، (د.ت)، دار القلم، بيروت.
٧٦. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي: الاعتصام، ١٤١٨هـ، مكتبة عباد الرحمن، القاهرة.
٧٧. أبو إسحاق الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، (د.ت)، دار الباز، مكة المكرمة.
٧٨. أبو الحجاج يوسف المزي: تمهيد الكمال في أسماء الرجال، ١٤١٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٧٩. أبو الحسن الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ط ٥، ١٤٠٥هـ، دار القلم، الكويت.
٨٠. أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ت: هلموت ريتير، ط ٣، ١٤٠٠هـ.
٨١. أبو الحسين محمد بن علي البصري: المعتمد في أصول الفقه، ت: خليل الميس، ١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٢. أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، ط ٢، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٣. أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي: البداية والنهاية، ط ٢، ١٤١٧هـ، دار المعرفة، بيروت.
٨٤. أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي: مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، ت: طلعت فؤاد الحلواني، ط ٢، ١٤٢٥هـ، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة.

٨٥. أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، ت: طارق عوض الله، ١٤١٥هـ، دار ابن الجوزي، الرياض.
٨٦. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي: تلبيس ابليس، ت: السيد الجميلي، ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٨٧. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٨. أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن الوزير: ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، ١٤٠٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٩. أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي: الآداب الشرعية، ت: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، ط٢، ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٩٠. أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط٤، ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٩١. أحمد آل عليان: تاريخ التشريع الإسلامي، ١٤٢٢هـ، دار اشبيلياء، الرياض.
٩٢. أحمد بن الحسين المتني: ديوان المتني، ط٢٠، ١٤١٩هـ، دار صادر، بيروت.
٩٣. أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ط٦، ١٤١٩هـ، دار العاصمة، الرياض.
٩٤. أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية: الاستقامة، ١٤٢٠هـ، دار ابن حزم، بيروت.
٩٥. أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية: الحسبة في الإسلام، (د.ت)، دار الفكر، بيروت.
٩٦. أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية: الفرقان بين الحق والباطل، ١٤٠١هـ، مكتبة عبد العزيز السلفية، الاسكندرية، مصر.
٩٧. أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، ت: محمد رشاد سالم، ١٣٩١م، دار الكنوز الأدبية، الرياض.

٩٨. أحمد بن عبد الحلیم ابن تیمیة: مجموع الفتاوى، ١٤١٨هـ، مكتبة العبيكان، الرياض.
٩٩. أحمد بن عبد الحلیم ابن تیمیة: منهاج السنة النبوية، ت: محمد رشاد سالم، ١٤٠٦هـ، مؤسسة قرطبة، القاهرة.
١٠٠. أحمد بن عبد اللطيف العبد اللطيف: منهج إمام الحرمين في دراسة العقيدة، ١٤١٣هـ، مؤسسة الملك فيصل الخيرية، الرياض.
١٠١. أحمد بن علي الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٠٢. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٠٣. أحمد حسين الموجان: الإرهاب روافده... وأسبابه الفكرية... علاجه أقوال العلماء فيه، ١٤٢٥هـ، سنا الفاروق، جدة.
١٠٤. أحمد شليبي: المجتمع الإسلامي، ط٩، ٢٠٠٠م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
١٠٥. أحمد محمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين "الخوارج والشيعة"، ط٢، ١٤٠٨هـ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض.
١٠٦. أسماء بنت سليمان السويلم: موقف الصحابة من الفرقة والتفرق، ١٤٢٦هـ، دار الفضيلة، الرياض.
١٠٧. إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي ومشكلاته، الصادر عن المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، نوفمبر ١٩٩٦م.
١٠٨. الأمير علي بن هبة الله أبي نصر بن ماكولا: الإكمال في رفع الارياب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، ط٢، ١٩٩٣م، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
١٠٩. أنس أحمد كرزون: منهج الإسلام في تزكية النفوس وأثره في الدعوة إلى الله تعالى، ط٣، ١٤٢١هـ، دار نور المكتبات، جدة.
١١٠. أنور الباز: التفسير التربوي للقرآن الكريم، ٢٠٠٧م، دار النشر للجامعات، القاهرة.
١١١. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ط٧، ١٩٧٩م، دار النهضة العربية، القاهرة.

١١٢. توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٢م، القاهرة.
١١٣. توفيق يوسف الواعي: الحوار الإسلامي أصوله ومفاهيمه ووسائله، ١٤٢٩هـ، مكتبة المنار، الكويت.
١١٤. جمال أحمد بادي: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، ١٤١٢هـ، دار الوطن، الرياض.
١١٥. جمال الخطيب: تعديل السلوك الإنساني، ١٤٢٣هـ، مكتبة الفلاح، الكويت.
١١٦. جمال الدين الشيال: الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي، ١٩٥٨م، المطبعة الكمالية، القاهرة.
١١٧. حامد عبد السلام زهران: التوجيه والإرشاد النفسي، ط٣، ١٤٢٣هـ، عالم الكتب، القاهرة.
١١٨. حسن إبراهيم حسن ود. علي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ١٤٢٣هـ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
١١٩. حلمي فودة، عبد الرحمن صالح: المرشد في كتابة البحوث التربوية، ١٤٠٨هـ، دار العلم للملايين، بيروت.
١٢٠. حمد بن علي بن عتيق: سبيل النجاة والفكاك، ت: الوليد بن عبد الرحمن الفريان، ١٤٠٩هـ، دار طيبة، الرياض.
١٢١. حمدي عبد العال: الأخلاق ومعيّارها بين الوضعية والدين، ط٣، ١٤٠٥هـ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت.
١٢٢. خالد بن سعد الخشلان: اختلاف التنوع حقيقته ومناهج العلماء فيه، ١٤٢٩هـ، دار كنوز إشبيلية، الرياض.
١٢٣. خالد بن عبد الكريم اللاحم: الحفظ التربوي للقرآن وصناعة الإنسان، ١٤٢٧هـ، الرياض.
١٢٤. خالد بن عبد الله الشمراني، التعبير عن الرأي ضوابطه ومجالاته في الشريعة الإسلامية، دراسة فقهية تأصيلية، ١٤٢٣هـ، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

١٢٥. خليل بن عبد الله الحدري: منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، ١٤٢٥هـ، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
١٢٦. راشد سعد الباز: أزمة الشباب الخليجي وإستراتيجيات المواجهة، ١٤٢٥هـ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض.
١٢٧. سالم البهنساوي: حرية الرأي "الواقع والضوابط"، ط٢، ١٤٢٥هـ، مكتبة المعارف المتحدة، الكويت.
١٢٨. سالم سعيد جبار: الإقناع في التربية الإسلامية، ١٤١٩هـ، دار الأندلس الخضراء، جدة.
١٢٩. سعود بن سعد العتيبي: ضوابط استعمال المصطلحات العقديّة والفكرية عند أهل السنة والجماعة، ١٤٣٠هـ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة.
١٣٠. سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ط٣، (د.ت)، مكتبة أضواء السلف، الرياض.
١٣١. سعود بن عبد العزيز العريفي: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، ١٤١٩هـ، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
١٣٢. سعيد إسماعيل علي: التربية الإسلامية (المفاهيم والتطبيقات)، ط٢، ١٤٢٦هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
١٣٣. سعيد إسماعيل علي: ديمقراطية التربية الإسلامية، ١٩٧٤م، دار الثقافة، القاهرة.
١٣٤. سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ط٧، ١٩٧٨م، مكتبة الأنجلو، القاهرة.
١٣٥. سفر بن عبد الرحمن الحوالي: العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ١٤٠٢هـ، مؤسسة قرطبة، القاهرة.
١٣٦. سيّد حسين العفاني: رائق الشهد من شعر الدعوة والرفائق والزهد (مع الله)، ١٤٢٠هـ، مكتبة معاذ بن جبل، بني سويف، مصر.
١٣٧. السيد سابق: فقه السنة، ط٨، ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٣٨. سيد قطب: المستقبل لهذا الدين، ط٩، ١٤٠٨هـ، دار الشروق، القاهرة.
١٣٩. سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي، ط١٠، ١٤٠٨هـ، دار الشروق، القاهرة.
١٤٠. سيد قطب: نحو مجتمع إسلامي، ١٤١٥هـ، دار الشروق، القاهرة.

١٤١. الشريف حاتم بن عارف العوني: الولاء والبراء بين الغلو والجفاء، ١٤٢٩هـ، دار الصميعي، الرياض.
١٤٢. صابر عبد الرحمن طعيمة: الإسلام والآخر، ١٤٢٨هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
١٤٣. صالح العساف: المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، ١٤١٦هـ، مكتبة العبيكان، الرياض.
١٤٤. صالح بن عبد الله بن حميد: أصول الحوار وآدابه في الإسلام، ١٤١٥هـ، دار المنارة، جدة.
١٤٥. صفى الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، ط٦، ١٤٠٨هـ، دار الريان للتراث، القاهرة.
١٤٦. الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية، ط٢، ٢٠٠١م، الشركة التونسية للتوزيع، تونس.
١٤٧. عائض بن عبد الله القرني: الخلاف أسبابه وآدابه، موقع حملة السكينة، بصيغة (pdf).
١٤٨. عاطف أحمد: نقد العقل الوضعي دراسة في الأزمة المنهجية لفكر زكي محفوظ، ١٩٨٠م، دار الطليعة، بيروت.
١٤٩. عامر سعيد الزبياري: مباحث في أحكام الفتوى، ١٤١٦هـ، دار ابن حزم، بيروت.
١٥٠. عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، ١٣٩١م، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٥١. عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني: شرح فهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، ١٣٨٧هـ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
١٥٢. عبد الحي الفرماوي: الإرهاب بين الفرض والرفض في ميزان الإسلام، ١٤١٩هـ، دار البشير، طنطا.
١٥٣. عبد الرحمن البر: عوامل الهدم والبناء في المجتمع الإسلامي، ١٤١٥هـ، دار نور الإسلام، المنصورة.
١٥٤. عبد الرحمن الزنيدى: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، تقديم: عمر عودة الخطيب، ١٤١٢هـ، مكتبة المؤيد، الرياض.
١٥٥. عبد الرحمن النحلاوي: أصول التربية الإسلامية، ط٢، ١٤٢٣هـ، دار الفكر، بيروت.

١٥٦. عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ت: درويش الجويدي، ١٤١٥هـ، المكتبة العصرية، بيروت.
١٥٧. عبد الرحمن بن معلا اللويحي: الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، ط٣، ١٤١٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٥٨. عبد الرحمن حسن حينكه الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها، ط٦، ١٤٢٣هـ، دار القلم، دمشق.
١٥٩. عبد الرحيم صمايل السلمي: حقيقة الليبرالية، وموقف الإسلام منها، ١٤٣٠هـ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة.
١٦٠. عبد الرشيد عبد العزيز حافظ وآخرون: التفكير والبحث العلمي، ١٤٣٠هـ، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة.
١٦١. عبد السلام المباركفوري: سيرة الإمام البخاري، تعليق عبد العليم البستوي، ١٤٢٢هـ، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
١٦٢. عبد السميع سيد أحمد: مقدمة لكتابة تاريخ التربية في (دراسات تربوية)، ١٩٨٧م، رابطة التربية الحديثة، القاهرة.
١٦٣. عبد العزيز بن أحمد البغدادي: ترشيده الاختلاف لواجب الائتلاف، ١٤١٦هـ، دار ابن حزم، بيروت.
١٦٤. عبد العزيز بن عبد الله الحميدي: الرسائل الشمولية، (د.ت)، دار عيون المعرفة، مكة المكرمة.
١٦٥. عبد الكريم الخطيب: سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه، ١٤٠٥هـ، دار الأصالة.
١٦٦. عبد الكريم بكار: بناء الأجيال، ١٤٢٣هـ، أضواء المنتدى، الرياض.
١٦٧. عبد الكريم بكار: فصول في التفكير الموضوعي، ط٤، ١٤٢٦هـ، دار القلم، دمشق.
١٦٨. عبد الكريم بكار: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، ١٤٢٢هـ، دار القلم، دمشق.
١٦٩. عبد الكريم بن علي النملة: الجامع لمسائل أصول الفقه، ط٤، ١٤٢٣هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
١٧٠. عبد الكريم زيدان: الخلافة في الشريعة الإسلامية، (د.ت)، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٧١. عبد الكريم زيدان: مجموعة بحوث فقهية، ١٤٠٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٧٢. عبد الله إبراهيم الطريقي: فقه التعامل مع المخالف، ١٤١٥هـ، دار الوطن، الرياض.

١٧٣. عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي: روضة الناظر وجنة المناظر، ط ٤، ٤١٤هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٧٤. عبد الله بن الشيخ بن يبي: الإرهاب التشخيص والحلول، (د.ت).
١٧٥. عبد الله بن عبد المحسن التركي: الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله، ١٤١٨هـ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض.
١٧٦. عبد الله ناصح علوان: تربية الأولاد في الإسلام، ط ٢، ١٤١٩هـ، دار السلام، القاهرة.
١٧٧. عبد المحسن مسعود: القيم الإسلامية التربوية والاجتمع المعاصر، ١٤١٩هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.
١٧٨. عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، (د.ت)، دار إحياء الكتب العربية، دمشق.
١٧٩. عبد الوهاب خلاف: علم أصول الفقه، ط ٢، (د.ت)، مكتبة الدعوة الإسلامية شباب الأزهر، القاهرة.
١٨٠. عبد الوهاب خلاف: علم أصول الفقه، ط ٤، ١٤٠١هـ، دار القلم، الكويت.
١٨١. عزمي إسلام: جون لوك، ١٩٦٨م، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة.
١٨٢. علوي عبد القادر السقاف: التوسط والاقتصاد، رسالة في المكفرات القولية والعملية من خلال أقوال العلماء، ١٤٢٠هـ، دار ابن القيم، الدمام.
١٨٣. علي بن أبي طالب رضي الله عنه: فهم البلاغة، ١٤١٠هـ، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت.
١٨٤. علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام، ١٤٠٣هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
١٨٥. علي بن بحيث الزهراني: الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة، ط ٢، ١٤١٨هـ، دار طيبة، مكة المكرمة.
١٨٦. علي بن عبد الرحمن الطيار: حقوق الإنسان في الحرب والسلام، ١٤٢٢هـ، مكتبة التوبة، الرياض.
١٨٧. علي بن عبد الرحمن الطيار: حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية، ١٤٢٥هـ، الرياض.

١٨٨. علي جريشة: الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ط ٥، ١٤٢٦هـ، دار الوفاء، المنصورة، مصر.
١٨٩. علي خليل أبو العينين: فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، ١٩٨٥م، مكتبة إبراهيم حلي، المدينة المنورة.
١٩٠. علي صادق أبو هيف: القانون الدولي العام، (د.ت)، منشأة المعارف، الإسكندرية.
١٩١. عمار الطالبي: ابن باديس: حياته وآثاره، ط ٢، ١٤٠٣هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
١٩٢. عمر سليمان الأشقر: العقيدة في الله، ط ٩، ١٤١٤هـ، دار النفائس، الأردن.
١٩٣. عمر عبد الله كامل: المتطرفون خوارج العصر، ٢٠٠٢م، عمان، بيسان.
١٩٤. القاضي أبو يعلى الحنبلي: العدة في أصول الفقه، ت: أحمد المبارك، ١٤٠٠هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٩٥. القاضي محمد بن أبي يعلى البغدادي الحنبلي: طبقات الحنابلة، ١٤٢٥هـ، مكتبة العبيكان، الرياض.
١٩٦. القس فايز فارس: حقائق أساسية في الإيمان المسيحي، (د.ت)، دار الثقافة المسيحية، مطبعة القاهرة الجديدة.
١٩٧. ماجد سعود آل عوشن: كن متفائلاً، ١٤٢٨هـ، الرياض.
١٩٨. ماجد عرسان الكيلاني: تطور مفهوم النظرية التربوية، دراسة منهجية في الأصول التاريخية للتربية الإسلامية، ط ٢، ١٤٠٥هـ، دار ابن كثير، سوريا، دمشق.
١٩٩. ماجد عرسان الكيلاني: فلسفة التربية الإسلامية دراسة مقارنة بالفلسفات التربوية المعاصرة، ١٤٣٠هـ، دار الفتح، الأردن.
٢٠٠. ماجد عرسان الكيلاني: مناهج التربية الإسلامية، والمربون العاملون فيها، ١٤١٦هـ، عالم الكتب، بيروت.
٢٠١. مانع بن محمد المانع: القيم بين الإسلام والغرب دراسة تأصيلية مقارنة، ١٤٢٦هـ، دار الفضيلة، الرياض.
٢٠٢. محمد الروكي: نظرية التعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، ١٤١٤هـ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

٢٠٣. محمد الحامد ونايف الرومي: الأسرة والضبط الاجتماعي، ١٤٢٢هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ص ١٣.
٢٠٤. محمد الغزالي: جدد حياتك، ١٤٢٠هـ، دار القلم، دمشق.
٢٠٥. محمد الغزالي: خلق المسلم، ١٤١٥هـ، دار الكتب الحديثة، بيروت.
٢٠٦. محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، ١٤٢١هـ، دار القلم، دمشق.
٢٠٧. محمد الغزالي: فقه السيرة، دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٣٧٥هـ، مصر.
٢٠٨. محمد المبارك: المجتمع الإسلامي المعاصر، ١٣٩٠هـ، دار الفكر، بيروت.
٢٠٩. محمد المجذوب: مشكلات الجيل في ضوء الإسلام، ط ٥، ١٤١٣هـ، دار الشواف، الرياض.
٢١٠. محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، ط ٢، ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١١. محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ت: محمد حامد الفقي، (د.ت)، دار المعرفة، بيروت.
٢١٢. محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: الأمثال في القرآن الكريم، ت: إبراهيم محمد، ١٤٠٦هـ، مكتبة الصحابة، طنطا.
٢١٣. محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: الفوائد، ١٤٠٧هـ، مكتبة دار البيان، دمشق.
٢١٤. محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: بدائع الفوائد، ت: هشام عطا وعادل العدوي وأشرف أحمد، ١٤١٦هـ، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة.
٢١٥. محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، ت: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، ط ٢، ١٤١٨هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢١٦. محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١٧. محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: مفتاح دار السعادة ومنشور دار ولاية أهل العلم والإرادة، ١٤١٦هـ، دار عفان، الخبر.

٢١٨. محمد بن أحمد الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط ٢، (د.ت)، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢١٩. محمد بن أحمد الذهبي: تذكرة الحفاظ، (د.ت)، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٢٠. محمد بن أحمد الذهبي: سير أعلام النبلاء، ط ٨، ١٤١٢ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٢١. محمد بن إدريس الشافعي: ديوان الإمام الشافعي، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، ط ٣، ١٤٢٦ هـ، دار المعرفة، بيروت.
٢٢٢. محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ت: إحسان عباس، ط ٢، ١٩٨٠ م، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت.
٢٢٣. محمد بن علي الشوكاني: أدب الطلب ومنتهى الإرب، ١٩٧٩ م، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء.
٢٢٤. محمد توفيق سعد: سبل الاستنباط من الكتاب والسنة، ١٤١٣ هـ، مطبعة الأمانة، مصر.
٢٢٥. محمد حمد حضر: الإسلام وحقوق الإنسان، (د.ت)، دار مكتبة الحياة، بيروت.
٢٢٦. محمد حميد الله الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط ٦، ١٤٠٧ هـ، دار النفائس، بيروت.
٢٢٧. محمد ربيع محمد جوهرى: أخلاقنا، ط ٨، ١٤٢٦ هـ، مكتبة دار الفجر الإسلامية، المدينة المنورة.
٢٢٨. محمد رجاء المتجلي: الحريات والحقوق في الإسلام، ١٤٠٧ هـ، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.
٢٢٩. محمد سعيد القحطاني: الولاء والبراء في الإسلام، ط ٣، ١٤٠٩ هـ، دار طيبة، الرياض.
٢٣٠. محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط، ١٩٩٧ م، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

٢٣١. محمد شحات الخطيب وآخرون: أصول التربية الإسلامية، ط ٣، ١٤٢٥هـ، دار الخريجي، الرياض.
٢٣٢. محمد طاهر التتير: العقائد الوثنية في الديانات النصرانية، ١٤٠٨هـ، مكتبة ابن تيمية، الكويت.
٢٣٣. محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، (د.ت)، دار الفكر، بيروت.
٢٣٤. محمد عبد الله دراز: الدين، ١٤٠٠هـ، دار القلم، الكويت.
٢٣٥. محمد عثمان نجاتي: الحديث النبوي وعلم النفس، ١٩٨٩م، دار الشروق، القاهرة.
٢٣٦. محمد قطب: العلمانيون والإسلام، ١٤١٤هـ، دار الوطن، الرياض.
٢٣٧. محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، ط ٧، ١٤١٣هـ، دار الشروق، القاهرة.
٢٣٨. محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ط ٦، ١٤٠٢هـ، دار الشروق، بيروت.
٢٣٩. محمد قطب: واقعنا المعاصر، ط ٣، ١٤٠٧هـ، مؤسسة المدينة للصحافة، جدة.
٢٤٠. محمد مجدي مرجان: الله واحد أم ثالث، (د.ت)، دار النهضة العربية، بيروت.
٢٤١. محمد منير مرسي: الاتجاهات المعاصرة في التربية المقارنة، ١٩٩٣م، عالم الكتب، القاهرة.
٢٤٢. محمد نعيم ياسين: الإيمان أركانه، وحقيقته، ونواقضه، ١٣١٢هـ، مكتبة السنة، القاهرة.
٢٤٣. محمد يوسف الحجوي: الفكر السامي في تاريخ التشريع الإسلامي، ت: عبد العزيز القارئ، ١٣٩٦م، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.
٢٤٤. محمود بن محمد الخزندار: فقه الائتلاف قواعد التعامل مع المخالف بالإنصاف، ١٤٢١هـ، دار طيبة، الرياض.
٢٤٥. محمود بن محمد داود الصميدعي: منهج القرآن الكريم في تحصين الأمة من الفرقة والاختلاف، ١٤٢٩هـ، دار النهضة، دمشق.

٢٤٦. محمود عطا حسين عقل: القيم السلوكية لدى طلبة المرحلتين المتوسطة والثانوية في الدول الأعضاء بمكتب التربية العربي لدول الخليج، دراسة نظرية وميدانية، ط ٢، ١٤٢٧هـ، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض.
٢٤٧. محيي الدين عبد الشكور: الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية (النظرية والتطبيق)، "نحو مدخل إسلامي لتطوير وتنظيم العلاقات الإنسانية"، أبحاث ووقائع اللقاء الثالث للندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط ٣، ١٣٩٦/١٠/٢٣هـ، إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض.
٢٤٨. مصطفى بن عبد الله حاجي خليفه: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٤٩. مصطفى عبد القادر زيادة وآخرون: الفكر التربوي مدارس.. واتجاهات تطوره، ط ٣، ١٤٢٧هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
٢٥٠. معروف زريق: علم النفس الإسلامي، ١٤٠٨هـ، دار المعرفة، دمشق.
٢٥١. مقداد يالجن: مناهج البحث وتطبيقاتها في التربية الإسلامية، ١٤١٩هـ، عالم الكتب، الرياض.
٢٥٢. مقداد يالجن: منابع مشكلات الأمة الإسلامية والعالم المعاصر ودور التربية الإسلامية وقيمها في معالجتها، ١٤١١هـ، دار عالم الكتب، الرياض.
٢٥٣. مناع القطان: تاريخ التشريع الإسلامي، ط ١٤، ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٥٤. منى محمود مصطفى: القانون الدولي لحقوق الإنسان، ١٩٨٩م، دار النهضة العربية، القاهرة.
٢٥٥. ناصر بن مسفر الزهراني: السراج المنير في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ١٤١٦هـ، مطابع السفراء، الرياض.
٢٥٦. ناصر عبد الكريم العقل: الاتجاهات العقلانية الحديثة، ١٤٢٢هـ، دار الفضيلة، الرياض.

٢٥٧. ناصر عبد الكريم العقل: الأهواء والافتراق والبدع عبر تاريخ الإسلام، ط ٢، ١٤١٧هـ، دار الوطن، الرياض.
٢٥٨. نخبة من الأساتذة النصارى: قاموس الكتاب المقدس، ط ٢، (د.ت)، دار الثقافة المسيحية.
٢٥٩. نسيبة عبد العزيز المطوع: تعال نستثمر التقوى (١)، ساسلة رؤية لمنهج تربوي اجتماعي ثقافي إسلامي، ط ٢، ١٤١٥هـ، لجنة ساعد أحاك المسلم في كل مكان، الكويت.
٢٦٠. هاشم علي الأهدل: التربية الذاتية من الكتاب والسنة، ١٤١٣هـ، دار الأهدل، مكة المكرمة.
٢٦١. هلال حسين فلمبان: دور الحوار التربوي في وقاية الشباب من الإرهاب الفكري، ط ٤، ١٤٣١هـ، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض.
٢٦٢. هلال محمد العيسى: العدل في القرآن والسنة، ١٤٢٧هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
٢٦٣. ياسر أبو شبانة: النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصوير الإسلامي، ١٤١٨هـ، دار السلام، القاهرة.
٢٦٤. ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، ط ٨، ٢٠١٠م، دار صادر، بيروت.
٢٦٥. يحيى الدين بن شرف النووي: تهذيب الأسماء واللغات، ١٤١٦هـ، دار الفكر، بيروت.
٢٦٦. يوسف القرضاوي: الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، ١٤٠٨هـ، دار الصحوة، القاهرة.
٢٦٧. يوسف القرضاوي: الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم، ١٤٢٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٦٨. يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، ط ٤، ١٤٠٩هـ، مكتبة وهبة، القاهرة.
٢٦٩. يوسف القرضاوي: الرسول والعلم، ط ٥، ١٤١١هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٧٠. يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، ط ٢، ١٤٢٧هـ، دار الشروق، القاهرة.
٢٧١. يوسف القرضاوي: العقل والعلم في القرآن الكريم، ١٤١٦هـ، مكتبة وهبة، القاهرة.

رابعاً: الرسائل العلمية

٢٧٢. سعاد بنت سعيد الزهراني: المبادئ التربوية المتضمنة في كتاب الأدب من صحيح البخاري، ١٣٢٦هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
٢٧٣. عوض بن ردة السعدي: المبادئ التربوية المستنبطة من الأربعين النووية، ١٤٠٨هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
٢٧٤. محمد بن سعيد بافيل: المضامين التربوية المستنبطة من كتاب الفتن من صحيح البخاري، ١٤٢٦هـ، رسالة ماجستير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
٢٧٥. محمد بن عبد العزيز الحلاف: نماذج من المبادئ التربوية المستنبطة من الأحاديث القدسية من خلال صحيح البخاري، ١٤١١هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
٢٧٦. مروان بن محمد الحازمي: المضامين التربوية المستنبطة من بعض الأسئلة والأجوبة النبوية، ١٤٢٥هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
٢٧٧. نايف بن حامد الشريف: التربية الإسلامية وقضية التفكير العلمي، ١٤١١هـ، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية، جامعة أم القرى.
٢٧٨. يوسف بن أحمد العجلاني: العدل وتطبيقاته في التربية الإسلامية، ١٤٢١هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

خامساً : الكتب المترجمة

٢٧٩. ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة: شفيق أسعد فريد، ١٤٢٣هـ، مكتبة المعارف، بيروت.
٢٨٠. جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتير، ٢٠٠٠م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
٢٨١. رندل كلارك: الرمز والأسطورة في مصر القديمة، ترجمة: أحمد صليحة، ١٩٨٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
٢٨٢. ريتشارد هرير دكميجيان: الأصولية في العالم العربي، ترجمة وتعليق: عبد الوارث سعيد، ١٤٠٩هـ، دار الوفاء، مصر.
٢٨٣. سير ريتشارد لفنجستون: التربية لعالم حائر، ترجمة: وديع الضبع، ١٩٤٨م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

سادساً : الدوريات والمقالات

٢٨٤. أحمد علي الدغشي، مقال (فلسفة الجهاد القتالي في التربية الإسلامية)، ١٤٢٥هـ، مجلة المعرفة، العدد (١١٢)، وزارة التربية والتعليم، المملكة العربية السعودية.
٢٨٥. آمال حمزة المرزوقي، مقال (مضامين تربوية في سورة البقرة)، ١٩٩٥م، مجلة دراسات تربوية.
٢٨٦. حسن الباتع عبد العاطي، مقال (التجربة اليابانية.. نموذج الترقى بعد الترددي)، ١٤٣٠هـ، مجلة المعرفة، العدد (١٧٣)، وزارة التربية والتعليم، المملكة العربية السعودية.
٢٨٧. عبد اللطيف محمود محمد، مقال (كيف يمكن للمدرسة أن تقود المجتمع للمستقبل)، ١٤٣٠هـ، مجلة المعرفة، العدد (١٧٥)، وزارة التربية والتعليم، المملكة العربية السعودية.
٢٨٨. عبد الله العسكر، مقال (تاريخ البحر الأسود.. نموذج أوروبي لطريقة تعليم التاريخ بدون شوائب)، ١٤٢٦هـ، مجلة المعرفة، العدد (١٢١)، وزارة التربية والتعليم، المملكة العربية السعودية.
٢٨٩. عبد الله حمد الغطيم، مقال (تغير الفتوى.. مفهومه وضوابطه)، ١٤١٨هـ، العدد (٣٥)، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة.
٢٩٠. محمد أحمد العزب، مقال (تأملات في تكوين الشخصية الإسلامية)، ١٤٠٦هـ، مجلة منار الإسلام، العدد (٤)، الإمارات العربية المتحدة.

٢٩١. محمد الصاوي، مقال (ذو الحضارتين رشدي فكار)، ١٤٣٠هـ، مجلة المعرفة، العدد (١٧٣)، وزارة التربية والتعليم، المملكة العربية السعودية.
٢٩٢. محمد محمد بدري، مقال (معوقات الحوار)، ١٤١٦هـ، مجلة البيان، العدد (٨٩)، المنتدى الإسلامي، لندن.
٢٩٣. مسعود ضاهر، مقال (اليابانيون ينسون الماضي.. مصافحة الآخر بـ"القوة الناعمة")، ١٤٢٦هـ، مجلة المعرفة، العدد (١٢١)، وزارة التربية والتعليم، المملكة العربية السعودية.
٢٩٤. نادية سعد معوض، مقال (التسامح.. وتقبل الآخر)، ١٤٣٠هـ، مجلة المعرفة، العدد (١٧٣)، وزارة التربية والتعليم، المملكة العربية السعودية.